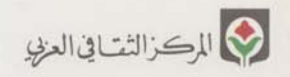
إيڤو أندرِتش

جسر على نهر درينا

ترجمة: سامي الدروبي





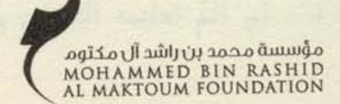
إيڤو أندرِتش

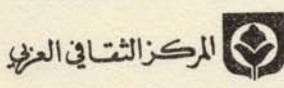
جسر على نهر درينا

ترجمة
الدكتور سامي الدروبي

مراجعة
الدكتور يوسف مراد







الكتاب: جسر على نهر درينا (رواية)
المؤلف: إيفو أندريتش
المترجم: سامي الدروبي
الطبعة الأولى، تموز/ يوليو 2009
ISBN 978-9953-68-420-0

يُنشر هذا الكتاب بموجب عقد مع مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION
tarjem@mbrfoundation.ae
www.mbrfoundation.ae

الناشر: المركز الثقافي العربي
بيروت والدار البيضاء

بيروت ـــ لبنان
ص.ب. 5158 ـ 113 الحمرا
شارع جاندارك ـ بناية المقدسي
هاتف: 01352826 ـ 01750507
فاكس: 01343701 ـ 961+

الدار البيضاء ـــ المغرب
ص.ب.: 4006 (سيدنا)
42 شارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 522303339 ـ 522307651
فاكس: 2305726 522 212+

www.ccaedition.com cca@ccaedition.com Email: markaz@wanadoo.net.ma

مقدّمة المترجم

أخذ الأدب اليوغوسلافي يشقّ طريقه إلى العالَم بعد أنْ ظلّ خلال مدّة طويلة من الزمان مجهولاً في ما وراء الحدود اللغوية التي نبت فيها. ولئن وجدنا من شعراء أوروبا وكتابها يتحمّسون في القرن الماضي للشعر اليوغوسلافي وينقلون بعض قصائده ويشيعونها، (أمثال ياكوب جريم وميريميه وميكيفتش، وبوشكين) ولئن ترجم إلى بعض اللغات الأجنبية عدد من آثار الأدب اليوغوسلافي الكلاسيكي في الفترة الواقعة بين الحربين العالميّتين، فإنّ الاهتمام بالأدب اليوغوسلافي قد ازداد. وهذا ما يشهد به ثبت المؤلفات الأدبية اليوغوسلافية التي تُرجِمت ونُشرت خارج يوغوسلافيا في الفترة الممتدة من عام 1945 إلى أيامنا هذه. إنّ هذا الثبت الذي نشرته أخيرًا «الوكالة اليوغوسلافية لحقوق المؤلّف» يقول لنا إنّ نحوًا من أربعمائة أثر أدبي يوغوسلافي قد تُرجم وطُبع في أربع وعشرين دولة من دُوَل العالَم.

وإيفو آندريتش، الذي نقدّم اليوم الترجمة العربية لكتابه «جسر على نهر درينا»، يحتلّ بعدد مؤلّفاته المترجَمة منزلة الصدارة من عناية العالَم بالأدب اليوغوسلافي. فرواياته التي كتبها بعد الحرب: «جسر على نهر درينا»، «أخبار مدينة ترافنيك»، «الآنسة»، وأقاصيصه وحكاياته، قد تُرجمت إلى معظم لغات العالم، وطُبعت ولا زالت تُطبع بمعظم لغات العالم.

وُلد إيفو آندريتش بمدينة ترافنيك سنة 1892، وهو ينتمي إلى أُسرة كاثوليكية رقيقة الحال يعمل أفرادها في الحِرَف والتجارة. وقد توفي أبوه فجأة، ولمّا يتجاوز الثانية من عمره. فلجأت أمه، التي ترمّلت في الحادية والعشرين، إلى أهلٍ لها في مدينة فيشيغراد، وهي مدينة صغيرة جميلة على شاطئ نهر درينا، وفي هذه المدينة قضَى إيفو الصغير طفولته، واختلف إلى المدرسة الابتدائية، ثم أتمّ تعليمه الثانوي بمدينة سارايِيفو.

هذه المُدُن الثلاث من مدُن البوسنة (ترافنيك، فيشيغراد، ساراييفو) التي قضَى فيها إيفو آندريتش شبابه وظلّ متعلّقًا بها طوال حياته، هي الأمكنة التي تدور فيها أحداث الروايات الثلاث التي كتبها في كهولته «أخبار مدينة ترافنيك»، و«جسر على نهر درينا»، والآنسة»، والتي ظهرت جميعًا عام 1945، غداة انتهاء الحرب العالمية الثانية.

وقد تابع إيفو آندريتش دراسته الجامعية في جامعات زغرب وفيينا وكراكوفيا، حيث تخصص في التاريخ وفي اللغات السلافية. وقد اعتقلته السلطات النمسوية اعتقلته في شهر يوليو عام 1914 بمدينة سبليت، لانتمائه إلى منظمات الشباب القومية الثورية (التي يصوّر لنا أحاديثها على جسر درينا أروع تصوير)، فقضَى سنة كاملة في سجنَي شيبنيك وماريبور، ثم فرضت عليه إقامة إجبارية في ضاحية من ضواحي زينتسا. وصدر العفو العام سنة 1917 بمناسبة صعود الإمبراطور شارل إلى العرش فاستأنف إيفو آندريتش دراسته عام 1918، وحصل من جامعة غراتس على درجة الدكتوراه عن رسالته التي جعل موضوعها «الحياة الفكرية في البوسنة والهرسك في عهد السيطرة التركية». ثم أنشأ في زغرب مجلّة أدبية.

انتسب إيفو آندريتش بعدئذ إلى السلك الدبلوماسي، فقضَى في ما بين الحربين مددًا طويلة في عواصم ومُدُن أوروبية مختلفة: روما، بوخارست، مدريد، تريستا، جنيف، بروكسل. ثم عُيّن وزيرًا ليوغوسلافيا في برلين، من عام 1939 إلى عام 1941.

غير أنّ إيفو آندريتش كان دبلوماسيًا وأديبًا في آنٍ واحد، لم تصرِفه أعمال الدبلوماسية عن الإنتاج الأدبي.

بدأ حياته الأدبية سنة 1918 بنشر يوميات غنائية، عن السنين التي قضاها سجينًا، وجعل عنوانها "Ex ponto"، وهو عنوان استعاره لها من عنوان كتاب أوفيد "Epistolae ex ponto". وفي عام 1919، نشر كتابه «قلق»، وهو مجموعة جديدة من النثر الغنائي. وفي سنة 1920 نشر قصته الأولَى «طريق عالية ديرزبليز»، فأصبح يُعرف منذ ذلك الحين كقصّاص.

وقد نشر في الفترة الممتدة بين الحربين العالميّتين ثلاث مجموعات من القصص (1924، 1931، 1936)، أتبعها عام 1948 بمجموعة رابعة بعنوان «أقاصيص جديدة».

إنّ أكثر مؤلّفات إيفو آندريتش تدور موضوعاتها على البوسنة، تروي تاريخها منذ الفتح التركي حتى عصرنا هذا، وتصف مدنها وقراها ومناظرها وسكانها _ من أتراك، وسلافيين مسلمين، وصربيين أرثوذكس، وكرواتيين كاثوليكين، ورهبان فرنسيسكان، ويهود، وضباط نمسويين، وعصابات، الخ _ وتصور تقاليدها، وأساطيرها، وحروبها، وأمانيها، وما يضطرم فيها من ضروب الكره العنيف والأهواء الجامحة.

أمّا كتابه «أخبار ترافنيك» فهو يصف وصول قنصل فرنسا إلى هذه المدينة البوسنيّة الصغيرة مبعوثًا من نابوليون، وما قام به هذا القنصل من نشاط سياسي وتجاري، وما صادفه من صعوبات وأخطار في هذه البلاد المتأخرة التي توشِك أن تكون متوحّشة، وما قام بينه وبين قنصل النمسا من تنافس، وما دبّراه كلاهما للسلطات التركية والرهبان الفرنسيسكان، ويصف الجو الثقيل الذي كانا مضطرّين أن يعيشا فيه مع أسرتَيهما، وهو جو من العزلة والجهل والقسوة كان يقرّب بينهما في بعض الأحيان رغم مشاعر الشك والحذر التي يكنها كل منهما للآخر. إنّ الانقلابات الكبرَى التي شهدها العصر النابوليوني كانت لها آثارها على هذه المدينة الصغيرة التائهة من مدن الإمبراطورية التركية، فالكتاب يرينا ذلك، ويمزج بينه وبين أتراح وأفراح عائلية، وروايات عاطفية، وأحداث محلّية.

وأمّا «الآنسة» فهي رواية من طراز رويات بلزاك، تختلف عن سائر مؤلّفات إيفو آندريتش من بعض النواحي. ولكنّ المؤلّف يظهر فيها ما هو معهود فيه من نفاذ البصيرة وعمق التحليل. هي قصة فتاة أصلها من مدينة سارايفو، تتحول تحوّلاً مفاجئًا إثر كارثة دمّرت أباها، فإذا هي تصبح بخيلة مبغضة للبشر مرابية تعيش حياة ما تنفكّ تزداد انزواءً وانطواءً. وتموت الفتاة، وتظل ظروف ميتتها لغزًا إلى آخر صفحات الرواية.

وأمّا كتاب «جسر على نهر درينا» الذي نقدّم ترجمته العربية فلا شكّ أنه قمّة آثار إيفو آندريتش، وقد نال به المؤلّف أكبر جائزة أدبية تُمنح في يوغوسلافيا، وتتكرر طبعاته.

إنّ الجسر الحجري الشهير الذي أقيم على نهر درينا بمدينة فيشيغراد وكان الغرض من إقامته أن يربط بين البوسنة والصرب، وهما يومئذ إقليمان من أقاليم الإمبراطورية العثمانية، هذا الجسر هو الشخصية الرئيسية في هذه القصّة التي

تحكي تاريخ تلك البلاد من القرن السادس عشر حتى عام 1914. إنّ هذا الجسر الذي يصفه إيفو آندريتش بأنه «لا مثيل لجماله» والذي يدهش المرء وجوده في تلك المدينة الصغيرة البعيدة، هو المحور الذي يربط أجزاء الكتاب بعضها ببعض ويوحّد بينها، فالفصول المختلفة التي يتألّف منها الكتاب هي أقاصيص تتصل جميعًا بجسر درينا.

لقد بُنِي هذا الجسر سنة 1571 بأمر الوزير الأكبر محمد باشا سوكولوفتش الذي وُلد في قرية صغيرة من قرَى البوسنة قرب فيشيغراد.

إنّ المؤلّف يصف لنا في الفصل الثاني من كتابه كيف انتزع صبيّ البوسنة هذا من أبويه مع من انتزعوا من أطفال البلاد باسم ضريبة الدم وأُخذ إلى استانبول حيث دخل في دين الإسلام، وأصبح ضابطًا تركيًا، فوزيرًا متألّقًا صاحب حَوْل وطَوْل. لا يملك المرء أن يحبس دموعه حين يرَى مشهد الأمهات المرَّوعات وهنّ يشيّعن أبناءهن الذين انتزعهم الجنود الأتراك من أحضانهن ومضَوا بهم إلى بعيد.

وفي الفصلين الثالث والرابع يحدّثنا المؤلّف عن تاريخ بناء الجسر، ويصف لنا ألوان العذاب التي فُرضت على المسخّرين من سكان المدينة في بناء الجسر وما عانَوه من عسف عابد آغا الذي عهد إليه الوزير بالإشراف على تنفيذ البناء، وهو رجل رهيب يخفي وراء قسوته سوء الأمانة. ويصف لنا المؤلف أعمال التخريب التي قام بها راديزلاف، وكيف اكتشف أمره، فقبض عليه، ورفع على الخازوق. إنّ في وصْف التعذيب واقعية قاسية تُجري في الأبدان قشعريرة رهيبة.

وتتوالَى حوادث الكتاب عبر القرون متنوّعة أشدّ التنوّع، لكنها مرتبطة دائمًا بجسر درينا: كوارث الطوفان، الأوبئة، احتلال الجيوش النمسوية المَجَرية للبوسنة سنة 1878 وما أحدثه هذا الاحتلال بالمدينة من آثار (التبدّلات الاقتصادية المختلفة ومدّ الخط الحديدي الذي انتزع من الجسر جزءًا من قيمته)، الحركات الاجتماعية، الحروب البلقانية، ظهور الأجيال الثورية الجديدة، ثم مقتل الأرشيدوق فرانتس فرديناند سنة 1914، ونشوب الحرب بين الصرب والنمسا والمجر، ونسف الجسر.

هذا كله تاريخ، لكنّ التاريخ يمتزج في الكتاب بدرامات عاطفية، ومآسٍ عائلية، وأحداث شخصية، فكأنّ الوقائع التاريخية ليست إلاّ ذريعةً يتّخذها المؤلّف ليصوّر من خلالها النفس الإنسانية في أعمق أعماقها، حتى لقد يخيل

إليك وأنت تنساق معه في قصصه الفردية أو العائلية التي ينظم عقدها جسر درينا أنك إزاء مبدعات خيالية لا تمتّ إلى الواقع بسبب، والحقّ أنّ التفريق في هذه القصص بين ما هو واقع وبين ما هو من صنع الخيال ليس بالأمر السهل، ولكن التاريخ هنا يمازج الخيال ممازجة قوية، فوراء كلّ قصة من الأقاصيص حادث واقعي أو أسطورة تناقلها الناس عن حادث واقعي، فالكتاب من هذه الناحية يضمّ كنزًا غنيًا من الوثائق التاريخية. ولكن صفته الأولَى، على كل حال، هي أنه أثر أدبي لا رواية تاريخية. وهو حتى في جانبه التاريخي تاريخ للأفراد في مواجهة أحداث التاريخ أكثر مما هو رواية لهذه الأحداث. فالأحداث لا قيمة لها البتّة هنا إلاّ من حيث إنها ظروف خارجية تتفتّح فيها نفوس أفراد من البشر عن خلائقها وسجاياها وعيوبها وأهوائها وآلامها وأفراحها.. نحن في هذا الكتاب نقرأ قصة فتاة تنتحر بإلقاء نفسها في النهر على جسر درينا لأنها أُكرهت على زواج لا تريده ويجرح كبرياءها.. ونقرأ قصة فتًى يلتقط على الجسر قطعة من نقد ذهبيّ فيمضي إلى حيث يقامر بها فيدمن على اللعب وينحل.. ونقرأ قصة آغا محافظ على التقاليد متعصّب للدين يموت قهرًا من تغيّر العادات وتحكّم الكفرة.. ونقرأ قصّة جنديّ غرّ تغفله فتاة عن خفر الجسر بفتنتها وإغرائها لتهرّب رجلاً من قطّاع الطرق، فيؤثِر الموت على شعوره بعار الخديعة وعار الإخلال بالواجب.. ونقرأ قصة فتًى مثقّف طموح مغرور شديد الاحتفال بنفسه قليل الاهتمام بغير ما تمليه عليه نرجسيته، فهو لا يتورّع عن التغرير بشابّة أخلصت له الحب، لأنه لا يحبّ إلاّ نفسه، الخ، الخ..

وما أعمق نفاذ إيفو آندريتش إلى النفس الإنسانية، وما أقوَى براعته في رسم الأحوال النفسية!

إنّ الشخصيات التي يصوّرها لا تُنسَى. لا أقول إنها نماذج إنسانية خالدة، فالأدب لا شأن له بالنماذج، وإنما أقول إنهم أفراد يبلغ المؤلّف من الدقّة والعمق والصدق في تصويرهم أنك تراهم بعين الرأس وعين الفكر معًا، ثم يظلّون يصاحبون خيالك إلى الأبد، لا تنقص منهم سِمة، ولا يخبو فيهم لون.

والكتاب، بعد، يتنفّس أنسامًا حزينة أسيانة، ويترقرق فيه تعبير عن موقف من الوجود والحياة قد لا يكون هو موقف التشاؤم التقليدي، لكنه على كلّ حال موقف مَن لا يستطيع إلاّ أن يحسّ بأنّ في الحياة والوجود «شرًا في ذاته»، شرًا

لا يعلّل ولا يُفهم ولا يبرَّر. ولعلّ حياة الجسر نفسه، وهو الشخصية الرئيسية في هذا الكتاب، تكون رمزًا لهذه النظرة الأسيانة. إنّ المؤلّف يضحك ويضحك، لكنك تسمع في قرقعة ضحكه نفسه آهات توجع.

أهذا الكتاب رواية؟ سَمِّه إن شئت كذلك. لكنك لن تغفل عن أنه لون من الأدب خاص، فيه من القصة والشعر والفلسفة والتاريخ أجمل ما يمكن أن يتغذّى به أثر أدبي جديد وأصيل.

سامي الدروبي

الفصل الأول

يسيل نهر درينا[1] في القسم الأكبر من مجراه، خلال وديان ضيّقة بين جبال وعرة، أو يجتاز أعناقًا عميقة بين ضفاف قائمة، ولا تنفرج شطآنه أودية واسعة إلاّ في بعض المواضع، فتشكّل على هذا الشفير أو ذاك من شفيريه رحبات خصبة من الأرض، بعضها منبسط وبعضها متموّج، تصلح للزراعة والسكنَى. إنّ أحد هذه السهول يبدأ هنا ببلدة فيشيغراد[2]، في المكان الذي ينبثق فيه نهر درينا، على انحناء مباغت، من الفج العميق الضيق الذي تشكّله صخور بوتكو وجبال أوزافنتسا. إنّ الزاوية التي يرسمها نهر درينا في هذا المكان حادة إلى أقصَى درجة، كما أنّ جبال الضفتين تبلغ من شدّة الانحدار والتعانق أنها تشبه أن تكون كتلة مغلقة ينبجس منها النهر انبجاسه من جدار مظلم. ولكن الجبال تنفصل فجأة، فتكوّن مدرجًا غير منتظم، لا يتجاوز قطرُه في أوسع مواضعه خمسة عشر كيلومترًا.

وفي هذا الموضع الذي ينبثق فيه نهر درينا ضخمًا أخضرَ مُزبدًا من هذه الكتلة من الجبال السوداء الوعرة التي تبدو في الظاهر مغلقة، يقوم جسر كبير مبنيّ من حجارة منحوتة منسجمة، وله إحدى عشرة قنطرة واسعة. وبعد هذا الجسر ينبسط وادٍ رحب يتموّج، كأنّ الجسر قاعدةً له، وفي هذا الوادي ترَى مدينة فيشيغراد

---

(1) - نهر درينا هو أكبر سواعد نهر سافا، ويتألف هذا النهر من فرعينه صغيرين هما بيفا وتارا اللذان ينبع أولها من جبل ميتور وينبع الثاني من جبال كوموفي، وهو يسير من الجنوب إلى الشمال مسافة 333 كيلومترًا (أو 461 إذا حسب فرع تارا). ولا يصلح نهر درينا للملاحة حتى في مجراه الأسفل، بسبب انحداره الكبير، ولكنه يستعمل كثيرًا في عوم قاطرات الخشب. وقد أنشئت عليه محطة توليد كهرباء ضخمة، قرب زفورنيك عام 1955 (المترجم).

(2) فيشيغراد بلدة واقعة عند ملتقى درينا ورزاف. كانت في القرون الوسطَى نقطة استراتيجية هامّة (المترجم).

الصغيرة وضواحيها وقرًى مائلة على جنبات روابٍ صغيرةٍ تغطّيها حقول ومراعٍ وبساتين خوخ، وترَى أسيجة تفصل أجزاءَ الوادي بعضها عن بعض، وغابات صغيرة قد نثرت فيها نثرًا، وغياضًا قليلة من أشجار الصنوبر. فإذا نظرت من أول الأفق خُيّل إليك أنّ ما يتدفّق من قناطر الجسر الأبيض الواسعة وينتشر ليس أمواه النهر فحسب، بل كذلك هذه الرحاب الواسعة من الأرض المزروعة الغارقة في ضياء الشمس، مع كلّ ما ينبت فيها من خضرة، ومع هذه السماء الصاحية التي تعلوها.

وعلى الضفة اليمنَى من النهر، عند الجسر نفسه، يقع مركز المدينة وسوقها التركي الذي يمتدّ جزءٌ منه في السهل ويثوي جزءٌ آخر على منحدرات الرُّبَى. وفي الجهة الأخرَى من الجسر، على طُول الضفّة اليُسرَى، ينبسط سهل مالوخين، وهو ضاحية تنتشر بيوتها حول الطريق المؤدّي إلى ساراييفو، فالجسر الذي يضمّ شقّي طريق ساراييفو يجمع إذن بين المدينة وضاحيتها.

والحقّ أنّ قولك «يجمع» لا يقلّ صدقًا عن قولك إنّ الشمس تشرق في الصباح لنستطيع نحن البشر أن نرَى ما حولنا، وأن نمضي إلى أعمالنا، وأنها تغرُب في المساء لنستطيع أن ننام وأن نرتاح من عناء النهار.

ذلك أنّ هذا الجسر الحجريّ الكبير، الثمين في بنائه، الفريد في جماله، الذي لا تملك مثله مُدُن تتفوّق على هذه المدينة تفوُّقًا كبيرًا في الثراء والتجارة (وقديمًا كان يقال إنّ المملكة كلها ليس فيها إلاّ جسران اثنان من هذا الطراز)، الحقّ أنّ هذا الجسر هو الممرّ الوحيد الدائم المضمون، على المجرَى الأوسط والأعلَى من نهر درينا، وهو العقدة اللازمة التي تربط بين البوسنة والصرب، وتربط من خلال الصرب بين البوسنة وسائر أجزاء الأمبراطورية العثمانية حتى استانبول. إنّ هذه المدينة الصغيرة وضواحيها هي التجمّع الذي لا بدّ أن ينشأ عند نقاط المواصلات الأساسية، وعلى جانبَي الجسور الكبرَى الهامّة.

لذلك تكاثرت البيوت وازداد عدد السكان على جانبَي الجسر مع مرور الزمن، وعاشت المدينة بفضل هذا الجسر، وخرجت منه خروجها من جذر لا يفنَى.

ومِن أجل أن ترَى صورة هذه المدينة رؤية واضحة، ومِن أجل أن تفهم طبيعة العلاقات بينها وبين المجر فهمًا كاملاً، يجب أن تعلم أنّ في المدينة

جسرًا آخر على نهرٍ آخَر، هو الجسر الخشب الذي على نهر رزاف. ففي أقصَى المدينة يصبّ رزاف في درينا، وهذا ما يجعل مركز المدينة مع أكبر جزء من التجمّع واقعًا على اللسان الصغير من الأرض الرملية بين النهرَين، بينما تمتدّ الضواحي المتناثرة في الجهة الأخرَى من الجسرَين على الضفّة اليُسرَى من نهر درينا والضفة اليسرَى من نهر رزاف. فالمدينة قائمة فوق الماء. ولكن، رغم أنّ هناك نهرًا آخَر وجسرًا آخَر، فإنّ قول القائل: «على الجسر» لا يعني أبدًا الجسر الذي على نهر رزاف، وهو جسر خشب بسيط لا جَمال فيه، ولا تاريخ له وليس له من معنًى إلاّ أنه ممرّ للناس ودوابّهم، وإنما يعني الجسر الحجريّ الذي على نهر درينا.

إنّ طول الجسر يبلغ نحوًا من مائتين وخمسين خطوةً، وعرضه نحوًا من عشر خطوات، إلاّ في وسطه حيث يتوسّع رصيفين متناظرَين تمامًا، على جانبَي الطريق الذي تسير عليه العجلات، فيتضاعف هناك عرضه. وهذا الجزء من الجسر هو الذي يطلقون عليه اسم «الكابيا». فالعمود المركزي الذي يتّسع في أعلاه، قد عزّز هنالك بإسناد من الجهتَين، فإليه يستند من شمال الطريق ومن يمينه رصيفان ينتصبان في الفضاء جريئين منسجمَين فوق الماء الأخضر المصطخب. إنّ طول كلٍّ من الرصيفين نحوًا من خمسة أقدام، وكذلك عرضه، وهما محاطان بإفريز من حجر، كسائر الجسر طولاً، لكنهما طليقان تمامًا بلا سقف. إنّ الرصيف الذي يقابلك على يمينك حين تأتي من المدينة يطلَق عليه اسم «الصوفا» وهو مرتفع درجتين، وقد أُحيط بمقاعدَ جُعل إفريز الجسر ظهرًا لها، كما أنّ الدرجتين والمقاعد والإفريز قد نحتت جميعًا من حجر واحد ناصع. والرصيف الأيسر كالرصيف الأيمن لكنه خالٍ من المقاعد. وفي وسط الإفريز ينتصب جدار أعلى من قامة الإنسان، تقوم على قمّته مسلّة من المرمر الأبيض نُقشَت عليها كتابة تركيّة غنيّة تؤرّخ بثلاثة عشر بيتًا من الشعر اسم باني الجسر والسنة التي تمّ فيها بناؤه. وفي أسفل الجدار ينبوع يسيل منه خيط رقيق من الماء يخرج من فم تنّين من الحجر. وعلى هذا الرصيف أقام رجل يصنع القهوة، مع ركائه وأقداحه وكانونه الدائم الاشتعال، وصبيّ يقدّم القهوة للناس على الصوفا، تلك هي الكابيا.

ففوق الجسر والكابيا، وحوله أو على صلة به، تجري وتنمو حياة سكّان

المدينة الصغيرة، كما سنرَى. إنّك تسمع منهم دائمًا، في كلّ ما يقصّونه من أحداث حياتهم الشخصية أو العائلية والعامّة، هاتين الكلمتين: «على الجسر». فعلَى جسر درينا إنما تتمّ في الواقع أُولَى النزهات التي يقوم بها الصغار، وأُولَى الألعاب التي يتعاطاها الصبية، والأطفال المسيحيون الذين يُولَدون على الضفة اليُسرَى من نهر درينا يجتازون الجسر منذ الأيام الأولَى من حياتهم، لأنهم يؤخَذون إلى الكنيسة للتعميد منذ الأسبوع الأول... كما أنّ سائر الأطفال، حتى الذين وُلدوا على الضفّة اليُمنَى وحتى المسلمين الذين لا يعمّدون، يقضون الجزء الأكبر من حياتهم على مقربة من الجسر، كآبائهم وأجدادهم من قبلهم: يصطادون السمك بالسنارة قرب الجسر، أو يلتقطون الحَمام تحت قناطره. لقد ألِفَت عيونهم منذ نعومة أظافرهم تلك الخطوط المنسجمة من هذا البناء الذي صُنع من حجر ناصع ذي مسامّ منحوت نحتًا منتظمًا جميلاً. إنهم يعرفون جميع ما يشتمل عليه من تداوير وتقاعير رائعة الشكل، ويعرفون جميع الأقاصيص والأساطير التي ترتبط بمولده وبنائه، والتي يختلط فيها الخَيال بالواقع، وتختلط فيه الحقيقة بالحُلم اختلاطًا عجيبًا وثيقًا. لقد عرفوا هذه الحكايات والأساطير على غير شعور، معرفة لا تستطيع أن تحدّد لها تاريخًا، كأنهم قد حملوها معهم إلى هذا العالم يوم وُلدوا. إنهم يعرفونها معرفتهم بصلواتهم، لا يتذكّرون ممّن تعلّموها ولا متَى سمعوها أوّل مرّة.

يعرفون أنّ الجسر قد بُني بأمر من الوزير الأكبر محمد باشا، الذي تقع قريته التي وُلد فيها، وراء أحد هذه الجبال التي تحيط بالجسر والمدينة. فما كان في وسع أحد أن يهبَ كلّ ما لزم لبناء هذه المعجزة الحجرية الخالدة إلاّ أن يكون وزيرًا (الوزير في ضمير الصّبيَة شيءٌ لامِع، عظيم، رهيب، غير واضح). وهم يعرفون أنّ الجسر قد بناه راضي، المهندس المعماري الذي لا بدّ أنه عاش قرونًا برمّتها حتى استطاع أن يبنِيَ كلّ تلك الأشياء الجميلة الخالدة في أراضي الصّرب... إنّ راضي مهندس أسطوري صنعه خيال الجمهور على ما يحبّ ويشتهي، وأطلق عليه هذا الاسم لأنّ الناس لا يريدون أن يثقلوا ذاكرتهم بأسماء عديدة، ولا أن يكونوا مدينين بالفضل لرجال كثيرين، ولو بالخيال. وهم يعرفون أنّ جنّية الماء قد عرقلت البناء - كما يعرقل أحد ما كل بناء في كلّ زمان ومكان- فكانت هذه الجنية تخرب في الليل ما تمّ صنعه في النهار، إلى أن ارتفع

صوتٌ من الأمواه ينصح راضي، معلّم العمارة، أن يجيء بتوأمين رضيعين، أخ وأخت، يسمّيان ستويا وأوستويا، وأن يدفنهما في جدران الأعمدة من الجسر، فما أن سمع راضي هذه النصيحة حتى بدأ يبحث عن هذين الطفلين في البوسنة كلّها، ووعد مَنْ يعثر عليهما ويجيء بهما بجائزة.

واستطاع جنود الدرك أخيرًا أن يجدوا في قرية بعيدةً من القُرَى طفلَين رضيعَين، فجاؤوا بهما عنوةً، بما للوزير من سُلطة. لكنّ أمهما لم تشأ حين أخذوهما أنْ تنفصل عنهما، فتبعتهما متعثّرة مترنّحة حتى فيشيغراد، وهي تنتحب وتبكي ولا تحسّ بالشتم والضرب، وهناك، في فيشيغراد، استطاعت أن تتسلل حتى وصلت إلى المهندس.

وتقول الأسطورة إنّ الطفلَين دُفنا في العمود لأنّ ذلك كان أمرًا لا بدّ منه، لكنّ المهندس أشفق على الطفلَين، فيما يقال، فترك في العمود فتحتَين كانت الأم البائسة تستطيع أن تُرضع منهما طفلَيها الضحيّتَين. إنّ هاتَين الفُتحتَين ثغرتان كالنافذتين، جُعلتا في العمود على صورة فنّية، وهما ضيّقتان تُشبهان ما يُجعل في جدران الأسوار من كُوًى للرَّمي.. وتتخذ منهما اليمامات أعشاشًا لها في هذا الزمان. إنّ لبن الأم يسيل من الجدار منذ مئات السنين تخليدًا لهذه الذكرَى، فثمّة قطرات صغيرة بيضاء تنضح من مفاصل الحجارة في موعد معيّن من كلّ عام حتمًا، فترَى على الصخر منها آثارًا لا تندثر (إنّ فكرة حليب المرأة تُوقظ في ضمير الأطفال ذكرَى شيء قريب لا مذاق له، شيء غامض عجيب، كالوزراء والمهندسين، يقلقهم وينفّرهم) والناس يحكّون هذه الآثار اللبنية التي تغشَى الأعمدة، فيجعلون منها مسحوقًا طبّيًا يبيعونه للنساء اللاتي ينضب حليبهن بعد الولادة.

وهناك، في العمود المركزي، تحت الكابيا، فتحة أكبر، تشبه أن تكون بابًا ضيّقًا بلا مصراع، تشبه أن تكون كُوّةً ضخمةً من كُوَى الرمي. ويقال إنّ في هذا العمود غرفة كبيرة، قاعة مظلمة يعيش فيها عربيّ أسود. إنّ الأطفال يعرفون هذا، وهو يلعب دورًا كبيرًا في أحلامهم وفي أقاصيصهم التي يتنافسون فيها على الكذب والتلفيق. والذي يظهر له هذا العربيّ الأسود، لا بدّ أن يموت. وما من طفل رآه حتى الآن لأنّ الأطفال لا يموتون. لكنه في ذات ليلة من الليالي قد رآه حامد، ذلك العتّال المُصاب بمرض الربو، السكران دائمًا، الذي يعاني داءً مقيمًا في شَعره وفي عينيه المحتقنتين بالدم، فمات في تلك الليلة نفسها، هناك، قرب

الجدار. الواقع أنّ الرجل كان قد سَكِر حتى قارب الموت، وقضَى ليلته كلّها هناك، على الجسر، تحت سماءٍ صافية في درجة من البرودة جاوزت الخامسة عشرة تحت الصفر. إنّ الأطفال كثيرًا ما كانوا ينظرون في هذه الفتحة الحالكة الظلام كهوّة تخيف وتجذب: كانوا يتّفقون على أن يحدّقوا جميعًا حتى إذا شعر أحد بشيءٍ صرخ. فكانوا يغرقون أبصارهم في الشقّ الواسع المظلم وقد فغرت أفواههم، وارتعشت فرائصهم استطلاعًا وخوفًا، إلى أنّ يُحسّ صبيّ ضعيف منهم أنّ الفتحة أخذت تهتزّ كستارةٍ سوداء وأخذت تتحرّك، أو إلى أن يصرخ رفيق له ساخر شاطر (وهناك دائمًا واحد من هذا النوع)، صائحًا: «الأسود» ويتظاهر بالهرب. فكان ذلك يُحدث الاضطراب في اللعب، ويثير الخيبة والاستياء لدَى أولئك الذي يحبون تراكيب الخيال ويكرهون السخر ويعتقدون أنّهم إذا أنعموا النظر فقد يرون شيئًا أو يحسّون بشيء. غير أنّ كثيرًا منهم كانوا في الليل، أثناء النوم، يصارعون عربيَّ الجسر هذا، كأنهم يصارعون القَدَر، إلى أن توقظهم أمهاتهم من نومهم فتنقذهم من ذلك الكابوس، وفيما تُسقي الأم ابنها جرعة من الماء البارد «لطرد الخوف»، وتحمله على أن يذكر اسم الله، يعود الصبيّ الذي هدّت ألعاب النهار قواه، فينام نومه الثقيل، نوم الطفل الذي لا تنمو فيه المخاوف بعد ولا تدوم مدّة طويلة.

وأمام الجسر على الضفة الوعرة ذات الحجارة الكلسية الرمادية، ترَى من الجبهتين حفرتان مدوّرتان، ثم حفرتان، ثم حفرتان، وهكذا دواليك، والمسافة بين الحفرتين واللتين بعدهما مسافة واحدة، فكأنّ هذه الحفر آثار حوافر حصان ضخم ضخامة خارقة. إنّ الحفر آتية من أعلى «البلدة القديمة»، هابطة على المنحدر الصخري، إلى أن تصل إلى النهر، ثم هي تظهر مرّة أخرَى بعد النهر، على الضفة الثانية، ثم تغيب تحت الأرض السمراء وتحت النباتات.

إنّ الأطفال الذين يقضون النهار كلّه، في الصيف، في صيد أسماك صغيرة على طول هذه الضفّة الصخرية، يعرفون أنّ هذه الحفر هي آثار خُطَى رجال مقاتلين يرجع عهدهم إلى ماضٍ قديم مغرق في القِدَم، فلقد كان يعيش على الأرض في ذلك الزمان أبطال عمالقة، ولم تكن الصخور في ذلك الزمان قد تصلّبت وإنما كانت رخوة كالأرض، وكانت الخيل في ذلك الزمان كأولئك الأبطال ضخمة ضخامة هائلة. غير أنّ أطفال الصرب يعتقدون أنّ هذه الحفر هي

آثار حوافر شاراتس[1]، قد بقيت منذ الزمان الذي هرب فيه ماركو من سجنه هناك في أعلى الجبل «في المدينة القديمة»، فهبط الرابية، ثم اجتاز بوثبة جبارة نهر درينا الذي لم يكن عليه جسر في تلك الأيام. أمّا الأطفال المسلمون فيعرفون أنّ هذه الحفر ليست آثار كراليفتش ماركو، ولا يمكن أن تكون كذلك (فأنّى لمسيحي أن يملك قوّة كهذه القوّة، وأن يكون له حصان كهذا الحصان)، وإنما هي آثار السيدة عليّة فوق صهوة جوادها المجنّح الذي كان، كما هو معروف، يحتقر المراكب وسائقيها، ويجتاز الأنهار بوثبة واحدة كأنها جداول صغيرة. وكان كلّ فريق من هؤلاء الأطفال قد بلغ من قوة إيمانه بصدق اعتقاده أنهم كانوا لا يتجادلون في هذا الأمر. فما من مرّة استطاع أحد أن يزحزح آخَر عن رأيه، وما من مرّة بدّل أحد رأيه.

وفي هذه الحفر المدوّرة الواسعة العميقة، كأنها طاسات كبيرة يبقى الماء مدّة طويلة بعد المطر، كأنه في آنية من حجر. ويطلق الأولاد على هذه التجاويف الملأى بالماء اسم الآبار، ويضع فيها الفريقان كلاهما، دون تمييز في المعتقدات، أسماكهم الصغيرة المتنوّعة التي يصطادونها بالسنارة.

وعلى الضفة اليسرَى، فوق الطريق رأسًا يوجد قبر منعزل مبنيّ من تراب ولكن التراب صلب أشهب متحجّر، فلا ينبت أو يزهِر عليه إلاّ عُشب صغير قاسٍ شائك كأنه خيوط من فولاذ. إنّ هذا القبر هو المكان الذي يتخذه الأولاد مرمًى لهم، وهو الحدود التي تقف عندها ألعابهم حول الجسر. لقد كان هذا المكان يسمّى في الماضي قبر راديسلاف، الذي يُحكَى أنه زعيم من زعماء الصرب، ورجل قويّ جبار، فحين قرّر الوزير بناء جسر على نهر درينا وأرسل رجاله لتنفيذ الأمر، خضع جميع الناسن ومثلوا أمام رجال الوزير ليعملوا مسخّرين، إلاّ راديسلاف هذا، فقد تمرّد، وأثار الشغب، ونصح الوزير بترك هذا العمل، لأنه سيلقَى صعوبات كثيرة تحُول بينه وبين بناء جسر على نهر درينا. وقد قاسَى الوزير عناءً كبيرًا قبل أن يستطيع القبض على راديسلاف، لأنّ راديسلاف كان رجلاً قويًا شجاعًا لا يشبهه غيره من الرجال، فما من بندقية يمكن أن تصرعه، وما من

(1) شاراتس هو اسم الحصان الأنيق الذي يمتطي صهوته كراليفتش ماركو البطل الشهير في الشِّعر الشعبي (المترجم).

سيف يستطيع أن يقتله، وما من حبل أو جنزير يمكن أن يكبّله، لأنّه كان يقطّع الحبل ويحطم الجنزير كأنهما خيط واهن.. فإلى هذه الدرجة كانت قوة التميمة التي كان يحملها. من ذا الذي يعرف ماذا كان يمكن أن يحدث، وهل كان يستطيع الوزير أن يُتِمّ بناءَ هذا الجسر، لولا أنّ أحد أتباعه وهو رجل محتال ماكر، رشى خادم راديسلاف وأنطقه، ففوجئ راديسلاف على حين بغتة أثناء النوم، وذُبح بعد أن كُبّل بحبال من حرير، لأنّ الحرير هو الشيء الوحيد الذي يستعصي على تميمته؟ إنّ نساءنا تعتقد أنّ بين ليالي السنة ليلة يستطيع المرء فيها أن يرَى هبوط ضياء ناصع قوي على هذا القبر، وذلك في فصل الخريف، بين عيد ميلاد العذراء وعيد انتقالها. والصبية الذين سهروا مطلّين من النوافذ على قبر راديسلاف سواء أكانوا يصدّقون هذه الأسطورة أم كانوا لا يصدّقونها، لم يستطيعوا في يوم من الأيام أن يرَوا النار تهبط من السماء على القبر، لأنّ النوم كان يُغمض أجفانهم حتى قبل أن ينتصف الليل. غير أنّ أناسًا مسافرين قد رأَوْا نورًا أبيض على القبر وراء الجسر، حين كانوا عائدين إلى المدينة في الليل دون أن يفكّروا في الأمر.

ولكنّ أتراك المدينة يقصّون منذ أزمنة بعيدة جدًا أنّ وليًا من الأولياء اسمه الشيخ تركمان قد استشهد في هذا المكان في سبيل الله، وكان بطلاً من الأبطال حارب ها هنا جيشًا من الكفرة ليصدّهم عن اجتياز نهر درينا. وإذا لم يكن ثمّة ضريح ولا شاهد، فلأنّ الوليّ نفسه هو الذي رغب في ذلك، فقد أراد أن يُدفَن على هذه الصورة من دون أن توضَع على قبره علامة تميّزه، حتى لا يعرف أحد أنه دفن هنا، وذلك لأنه سيستطيع، إذا اتّفق زحف جيش من جيوش الكفرة على هذا المكان مرّة أخرَى، أن يخرج من قبره وأن يُوقِف الزحف، كما أوقفه من قبل، فما يقدر الجيش أن يمضي في زحفه إلى أبعد من جسر فيشيغراد، غير أنّ السماء تضيء قبره بنورها من حين إلى حين.

كذلك كانت تجري حياة الصبية إذاً تحت الجسر وحوله، في لعب عابثٍ أو أحلام أطفال، حتى إذا شبّوا عن الطّوق انتقلت حياتهم إلى الجسر، منذ السنين الأولى من سِنِي النُّضج: إنها تنتقل رأسًا إلى الكابيا حيث تجد أخيلة المراهقين غذاءً جديدًا وآفاقًا جديدةً، وحيث تبدأ أيضًا الهموم وضروب الكفاح وأعباء الحياة.

فعلَى الكابيا وحولها تنطلق أُولَى أحلام الحُب، وأُولَى الغمزات العابرة والملاحظات والوشوشات، هنا تتمّ أُولَى الصفقات وتقوم أُولَى الأسواق، هنا تقع المشاجرات والمصالَحات، هنا اللقاءات والانتظارات، هنا يعرض العارضون للبيع على أفاريز الحجر أُولَى ثمار الكرز والبطّيخ.. هنا يقدّم للآكلين سحلب الصباح وخبز القمح ساخنَين، هنا يجتمع الشحاذون والمُقعَدون والمجذومون كما يجتمع الشباب الأصحّاء الذين يريدون أن يظهروا لغيرهم أو يروا غيرهم، أو الذين يريدون أن يقدّموا شيئًا من الأشياء، فاكهة أو لباسًا أو سلاحًا. هنا يجلس في كثير من الأحيان ناس محترَمون في سنّ النُّضج، ليتحدَّثوا قليلاً في الشؤون العامّة وفي الهموم المشتركة، لكن الشباب الذين لا يعرفون إلاّ الغناء والمزاح يلتقون هنا أكثر من ذلك أيضًا.. وهنا، إبان الأحداث الكبرَى والقلاقل التاريخية، علّقت البيانات والنشرات على الجدار العالي تحت مسلّة المرمر التي نقشت عليها كتابة تركية، فوق ينبوع الماء. وهنا أيضًا، حتى سنة 1878 كان يُشنق أو يُرفع على الخازوق كلّ أولئك الذي يُعدَمون لسبب من الأسباب. ولقد كان الإعدام كثيرًا في هذه المدينة التي تقع على الحدود، وخاصة إبان تلك السنين المضطربة، حتى لقد كان كلّ يوم يشهد تنفيذ الإعدام في بعض الفترات.

ومواكب الأعراس والجنائز لا تجتاز النهر إلاّ وتقف وقفة على الكابيا. فهنا كانت مواكب الأعراس تتهيّأ وتصطفّ قبل دخولها إلى مركز المدينة، فإذا كان الزمان هادئًا غير ذي هموم، تناقل الناس زجاجة الراكيا[1] من فم إلى فم وغنَّوا ورقصوا رقصة الكولو[2] وظلّوا على هذه الحال في كثير من الأحيان مدّة أطول مما يظنّون. أمّا في مواكب الجنائز فإنّ الذين يحملون نعش المتوفَّى ينزلونه هنا عن أكتافهم لحظة ليستريحوا عند الكابيا التي كان قد قضَى فيها هو نفسه شطرًا من حياته.

إنّ الكابيا هي أهمّ موضع في الجسر، كما أنّ الجسر هو أهم مكان في المدينة أو كما كتب سائح تركي أحسن أهل فيشيغراد معاملته، فكتب في يوميات رحلاته يقول: «الكابيا هي عندهم قلب الجسر، والجسر قلب المدينة التي يجب

(1) الراكيا شراب كحولي.

(2) الرقص الشعبي اليوغوسلافي.

أن تظلّ في قلوب الجميع». إنّ الكابيا تدلّنا على أنّ المهندسين القدماء الذين تُروَى الحكايات أنهم صارعوا الجنّ وأنواعًا من الشياطين واضطرّوا إلى أن يدفنوا طفلين من الأطفال الأحياء، قد برهنوا على أنهم على جانب عظيم من الذكاء، حين لم يُعنَوا بمتانة البناء وجماله فحسب، بل عنَوا أيضًا بالفائدة وضروب الراحة التي ستجنيها منه الأجيال القادمة البعيدة. إننا إذا عرفنا الحياة التي يحياها أهل هذه المدينة في الحاضر، وفكّرنا في الأمر تفكيرًا صحيحًا، اضطررنا أن نعترف بأنّ قليلاً من الناس، في هذه البوسنة، يملكون من فرص اللذّة والمتعة ما يملكه على الكابيا كلّ ساكن من سكان فيشيغراد ولو كان آخرهم شأنًا.

وبديهي أنّ فصل الشتاء لا يُعَدّ في حساب ما نقوله عن الجسر، إذ ما من أحد يجتاز الجسر في فصل الشتاء، إلاّ من اضطر إلى ذلك اضطرارًا، وهذا الذي يضطر إلى اجتيازه اضطرارًا يغذّ الخطَى ويحني الرأس اتّقاءً للريح الباردة التي ما تنفكّ تهبّ على النهر. أمّا في ما عدا فصل الشتاء من فصول السنة، فإنّ الكابيا نعمة من النعم الكبار والصغار جميعًا.. إنّ كلّ واحد من السكان يستطيع في غير فصل الشتاء أن يذهب إلى الكابيا في أي ساعة من ساعات النهار أو الليل، ليجلس على الصوفا أو حولها، سواء لقضاء أعمال له أو للحديث مع أصدقائه فحسب.

إنّ هذه الصوفا الحجرية الممتدة على النهر الأخضر المصطخب، والعالية فوقه خمسة عشر مترًا، تبدو كأنها محلّقة في الفضاء فوق الماء، بين رواب خضر قاتمة من ثلاث جهات، وتحت السماء والغمائم أو النجوم، وأمامها أفق طلق من جانب كأنه مدرج ضيق مغلق في أعماق جبال زرق.

كم من وزير أو ثريّ في العالم يستطيع أن يبسط أفراحه أو همومه أو لذاته أو فراغه في مكان كهذا المكان. لا شكّ أنهم قليلون، قليلون جدًا، ولكن ما أكثر ذوينا، خلال قرون وأجيال، الذين انتظروا الفجر جالسين هنا على الصوفا أو انتظروا ساعة صلاة المساء، أو ساعات الليل التي يخيّل للناظر إلى السماء فيها أنّ السماء تتحرّك فوق الرؤوس على مهل. كثيرون بيننا أولئك الذين جلسوا هنا ، دافنين وجوههم في راحات الأيدي، متّكئين على الصخر الأملس المصقول، تحت تراقص الأضواء على الجبال وتراقص السحاب في السماء إلى ما لانهاية،

مفكّرين في تلك الخيوط التي تنسج منها أقدار سكان مدينتنا، تلك الخيوط التي لا تتبدّل عبر الزمان، لكنها تتلاحم في كلّ مرّة على صورة جديدة. فأحد الناس، منذ مدّة طويلة، (صحيح أنّه أجنبي وأنه كان يمزح) قال: إنّ هذه الكابيا قد أثرت في مصير المدينة، بل أثّرت أيضًا في طباع أهلها، فهذه الوقفات الساكنة الطويلة هي مفتاح ما يلاحَظ في سكان فيشيغراد من مَيل إلى التأمّل والاسترسال في الأحلام، وهي أحد الأسباب الرئيسية في ذلك الهدوء الساجي الحزين الذي هو سمة معروفة في طبع أهل هذه المدينة.

والحَقّ أننا لا نستطيع أن ننكر أنّ أهل فيشيغراد، إذا قيسوا بسكان مدن أخرَى، قد عدوا أناسًا خفافًا يميلون إلى الملذّات وإلى الإنفاق. إنّ مدينتهم تقع في موقع ممتاز، والقرَى من حولهم غنية خصبة، والمال يتدفّق غزيرًا على مدينة فيشيغراد والحَقّ يقال، لكنه لا يلبث فيها مدّة طويلة أبدًا. فإذا رأيت في هذه المدينة رجلاً مقتصدًا يجيد إدارة أعماله من دون أن يستبدّ به هوًى من الأهواء، فاعلم أنه وافد من الوافدين الجدد، ولكنّ ماء فيشيغراد وهواءها من شأنهما أن يجعلا أولاده يولَدون مبسوطي الأيدي، متباعدي الأصابع ثم إذا بعدوَى التبذير والاستهتار تسرِي إليهم من سائر الناس، فيعيشون حياةً شعارها: «يوم جديد، رزق جديد».

ويُروَى أنّ نوفاك القديم حين نضبت قواه واضطرّ إلى الانسحاب من القتال، هاجراً مهنة «الحيدوق»[1] برومانيا، قد أسدَى إلى الفتى غروتسا الذي حلّ محلّه النصائح التالية:

«حين تقبع في كمينك متربّصًا، أنعم النظر في المسافر الذي يقترب، فإن رأيت أنه يتطاول مزهوًا وأنه يرتدي صديرة حمراء ويعلّق على صدره أوسمة من فضّة، وفي قدميه مسماة بيضاء، فاعلم أنه من فوتشا[2]، واهجم عليه فورًا، لأنه يحمل مالاً في جيوبه وفي خرجه. وإن رأيت الرجل وضيع الملبس، خافض

---

(1) «الحيدوق» أو قاطع الطريق ليس رجلاً تافهًا من قطّاع الطرق، وإنما هو إنسان اعتصم بالجبال هربًا من مضايقات التُرك. وكان يهبّ دائمًا لمساعدة المضطهدين من أبناء وطنه. إنّ قصائد شعبية كثيرة تصور ستارينا نوفاك (نوفاك القديم) والفتى اليافع جروتسا، ورومانيا منطقة جبلية تقع في غرب سارايفو (المترجم).

(2) مركز تجاري (4500 نسمة) على الضفة اليمنَى من نهر درينا، فيها مسجد جميل (المترجم).

الرأس، قاعيًا على حصانه كأنه ماضٍ للتسوُّل، فاضرب ولا تتردَّد، لأنه من سكّان روجانتسا، فكذلك شأن سكان هذه المدينة: بخلاء مراؤون، لكنهم محشوون مالاً، أمّا إذا رأيت مجنونًا قد تربّع على سرج حصانه، وأخذ ينقر على دفّه ويغنّي ملء صوته، فلا تضرب ولا تلطّخ يديك في ما لا طائل تحته، بل دَع هذا الوغد يمضي في سبيله، لأنه من أهل فيشيغراد، لا يملك شيئًا، لأنّ أهل فيشيغراد لا يبقَى في أيديهم مال».

ذلك كلّه يؤيد الفكرة التي أوردها ذلك الأجنبيّ. ومع هذا يصعب أن نحدد على وجه اليقين مدَى الصدق في تلك الفكرة. ذلك أنه ليس من السهل لا هنا ولا في شؤون أخرَى، أن نميّز بين العلّة والمعلول، فهل الكابيا هي التي جعلت السكان على هذه الشاكلة، أم السكان هم الذين تخيلوها بالفكر والعقل على هذا النحو، فبنيت على ما يناسب حاجاتهم وعاداتهم؟.. وذلك سؤال زائد باطل على كلّ حال. فما من بناء إلاّ وله غرض، ما من بناء منفصل عن البيئة التي شُيّد فيها، منفصل عن حاجاتها ورغباتها وأفكارها، ما من خط من الخطوط ولا شكل من الأشكال إلاّ وله في العمارة هدف، ولكن أصل كل بناء عظيم وجميل ومفيد، وحياة كل بناء عظيم وجميل ومفيد، وعلاقة كل بناء من هذا النوع بالناس الذين شُيّد بينهم، كل ذلك يحمل في كثير من الأحيان درامات وقصصًا معقدة غريبة. وثمة شيء محقق على كل حال، هو أنّ بين هذا الجسر وبين حياة أهل هذه المدينة رابطة حميمة عمرها قرون. إنّ مصير الجسر ومصير المدينة قد بلغا من التداخل أنّ المرء لا يستطيع أن يتخيلهما وأن يرويهما منفصلين. لذلك فإنّ مَن يحكي قصة أصل هذا الجسر وقصة مصيره، يحكي في الوقت نفسه قصة حياة المدينة وسكانها من جيل إلى جيل، كما أنّ جميع الحكايات التي يمكن أن نرويها عن هذه المدينة ينظمها خيط الجسر الحجري ذي القناطر الإحدَى عشرة التي تتوسطه الكابيا كأنها له تاج.

الفصل الثاني

يجب أن نرتدّ الآن إلى الزمان الذي لم تكن تخطر فيه بالبال حتى فكرة بناء جسر، أو فكرة بناء جسر كهذا الجسر القائم اليوم.

لعلّ بعض المسافرين قد تمنّوا، في ذلك الزمان القديم، حين كانوا يمرّون بهذا المكان متعَبين مبللين، أن يتمكّنوا بمعجزة من المعجزات من اجتياز النهر العريض المصطخب حتى أن يصلوا إلى خاتمة رحلتهم وصولاً أسرع وأسهل. وما من شكّ في أنّ المسافرين في جميع الأزمان، منذ وُجد البشر ومرّوا بهذا المكان واصطدموا بعقبات الطريق، قد حلموا بالوسائل التي تكفل لهم ممرًا في هذا الموضع، كما يحلم المسافرون منذ الأزل بطريق جيدة، وصحبة مأمونة، ومأوَى دافئ يقضون فيه الليل. ولكنّ أحلام كلٍّ امرئ ليست خصبة دائمًا، والفكرة التي تراود كلّ ذهن من الأذهان لا تصحبها الإرادة والقوة اللتان تحققان الرغبات في جميع الأحوال.

إنّ الصورة الأولَى للجسر الذي كُتب له أن يقوم على هذا النهر إنما انبثقت كالشهاب الساطع (على شيء من الغموض والإبهام بطبيعة الحال) في خيال صبيّ في العاشرة من عمره، من قرية مجاورة هي قرية سوكولوفتش، في ذات صباح من عام 1516، بينما كان يمرّ في هذا المكان مسوقًا من قريته التي وُلد فيها إلى المدينة البعيدة البرّاقة المخيفة، استانبول.

في ذلك الحين، كان نهر درينا هذا نفسه يتدفّق هنا بين ضفّتيه العاريتين المقفرتين الصخريتين الرمليتين، كسيل عارم يهبط من الجبال «ثائرًا في كثير من الأحيان». وكانت المدينة قائمة منذ ذلك العصر، ولكن في صورة أخرَى وأبعاد أخرَى. فعلَى الضفة اليمنَى من النهر، فوق ذروة الرابية الوعرة التي ترى فيها اليوم أطلال، كانت تقوم بلدة قديمة بقيت على الزمان، لها قلعة ذات فروع يرجع عهدها إلى العصر الذي بلغت فيه مملكة البوسنة درجة مجدها، ولها أبراج وأقبية

وحصون مما بناه بافلوفيتش، أحد الحكام الأقوياء في ذلك العصر. وعلى جنبات القلعة وفي حماها يقوم الحيان المسيحيان، حيّ الميدان، وحيّ بيكافاتس، كما تقوم قرية صغيرة تركت حديثًا، هي قرية دوشتشه. وفي أسفل، في السهل، بين نهر درينا ونهر رزاف، حيث نشأت بعد ذلك المدينة الحقيقية، لم يكن ثمّة إلاّ سهول يملكها سكان المدينة، وتقطعها طريق يلتقي السائر فيها بفندق من خشب، وعدد من طواحين الماء، وبضعة أكواخ.

وفي المكان الذي يقطع فيه نهر درينا الطريق، كان يوجد المركب الشهير، مركب فيشيغراد. إنه قارب عتيق أسود يقوده رجل بطيء متجهّم اسمه ياماك. وكان لَفْتُ انتباه هذا الرجل، حتى حين يكون يقظان غير نائم، لا يقلّ صعوبة عن إيقاظ أيّ رجل آخر من أعمق نوم. كان ياماك ضخم الجثة ذا قوة جبارة، لكنه فقد شيئًا من قوّته خلال حروب كثيرة خاضها ولمع نجمه فيها. ولم تكن له إلا عين واحدة، وأذن واحدة، وساق واحدة (أمّا الساق الأخرَى فمن خشب). وكان ينقل البضائع والركاب، دون تحية ودون ابتسامة، على ما يحب له هواه، بطيئًا لا يتقيد بنظام، ولكن على شرف وأمان، فكان ما يوحي به إلى الناس من ثقة به وركون إلى صدقه يشبه الأساطير، وكذلك بطئه ومزاجه العجيب. كان لا يحب أن يدور بينه وبين الركاب الذين ينقلهم حديث، ولا أن تنعقد بينه وبينهم صلة. حتى إنّ القروش النحاسية التي يدفعونها أجرًا، كانوا يلقونها في قاع المركب الأسود، حيث تظل طوال النهار في الرمل والماء، فإذا جاء المساء جمعها على غير اهتمام في وعاء كان يستعمله في إفراغ القارب من الماء، ومضَى بها إلى كوخه على ضفة النهر.

كان المركب لا يعمل إلاّ حين يكون تيار الماء وارتفاع النهر على حال طبيعية، أو حال تشبه أن تكون طبيعية، حتى إذا اعتكرت مياه النهر أو زاد ارتفاعها عن حدٍّ معيَّن، جرّ ياماك مركبه الثقيل الضخم، فربطه ربطًا قويًا إلى سياج الشاطئ، وبذلك يصبح اجتياز نهر درينا أمرًا مستحيلاً، كأنه محيط.

وفي مثل هذه الأحوال، كان ياماك يصمّ حتى أذنه السليمة عن سماع أيّ كلام، أو يمضي إلى البلد يعمل في حقله. فترَى المسافرين يتوافدون طوال النهار على الضفة الأخرَى من البوسنة، فيقفون على الشاطئ يائسين ينتظرون المركب وصاحبه في غير طائل، وقد استبدّ بهم البرد وبلّلتهم مياه الأمطار، ويصيحون من

حين إلى حين، عبر النهر المعتكر المصطخب، صيحات طويلة: «يا.. يا.. ما..ك..».

فما يجيبهم أحد ولا يظهر لهم أحد، ما ظلت مياه النهر عالية لم تنخفض. إنّ ياماك وحده هو الذي كان يحدد موعد إقلاع المركب من دون مناقشة ومن دون شرح، متجهّم الوجه لا يرحم.

إنّ المدينة التي لم تكن أيامها أكثر من قرية صغيرة، كانت تقع على السفوح المطلّة على الضفة الوعرة من نهر درينا، تحت خرائب القلعة القديمة، ولم تكن لها هذه الأبعاد ولا هذه الملامح التي لم تكتسبها إلا فيما بعد، حين زادت المواصلات ونمت التجارة عقب بناء الجسر.

في ذلك اليوم من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) وصلت قافلة من الخيول المحمّلة إلى الضفة اليسرَى من النهر، وحطّت هناك لقضاء الليل. كان آغا الحرس عائدًا مع كتيبته المسلّحة إلى تساريجراد[1] بعد أن جمع من قُرَى البوسنة الشرقية العدد المعيّن من الأطفال المسيحيين، وذلك ما كان يُطلَق عليه اسم «ضريبة الدم».

كانت قد انقضت ستّ سنين على آخر مرّة جُبِيَت فيها ضريبة الدم هذه. لذلك كان الاختيار في هذه المرّة سهلاً وافرًا. فقد أمكن العثور، بدون صعوبات، على العدد المطلوب من الأولاد الذكور، الأصحّاء، الأذكياء، الأقوياء، الذين تتراوح أعمارهم بين العاشرة والخامسة عشرة، رغم أنّ كثيرًا من الآباء أخفَوْا أبناءهم وألبسوهم أسمالاً بالية، وتركوهم في القذارة، لا لشيء إلاّ ليوقوهم وقوع الاختيار الآغا عليهم. حتى إنّ بعض الآباء عمدوا إلى تشويه أبنائهم، فبتروا، مثلاً، إحدَى أصابع اليد.

إنّ الأطفال الذين وقع عليهم الاختيار على هذا النحو قد شُحنوا على أفراس صغيرة من البوسنة، واقتيدت الأفراس قافلة طويلة. إنّ كلّ فرس من الأفراس تحمل سلّتين من الأغصان المضفورة، كالسلال التي تنقل فيها الفاكهة، فعلَى كلّ جانب من جانبَي الفرس سلّة وُضع فيها طفل، ووُضعت مع الطفل صرّة وقرص من الفطائر هو آخر حلوَى يحملها هؤلاء الأطفال من بيوت آبائهم. ومن هذه السلال المتأرجحة ذات الصرير، كنت ترَى الوجوه الغضّة المذعورة، وجوه

(1) الاسم الصربي لمدينة استانبول.

هؤلاء الأطفال الذين سيقوا عنوةً.. وقد أخرجوا أنوفهم من السلال. إنّ بعضهم ينظر إلى الأفق في هدوء، من فوق أرداف الخيل، يبحث بنظراته عن أبعد ما يمكن أن تصل إليه الأبصار من البلد الذي وُلد فيه، بينما أخذ بعض آخر يأكل ويبكي، في آنٍ واحد، وبينما نام بعض ثالث مسنِدًا رأسه إلى البردعة.

وعلى مسافة، وراء آخر الأفراس، يسير، في عناءٍ، عدد من الآباء والأمهات والأقرباء، متعثّرين، لاهثين، يشيّعون هؤلاء الصبيان الذين أُخذوا إلى غير رجعة، وكُتب عليهم أن يعيشوا في عالم أجنبي، وأن يعتنقوا الإسلام وأن يُختَنوا فينسَوا دينهم وبلدهم وأصلهم، ويقضوا حياتهم في كتائب من حرس السلطان أو في إدارة عُليا من الإدارات بالإمبراطورية العثمانية. إنّ أكثر المشيّعين نساء، هنّ أمّهات الصبية المختَطَفين أو جدّاتهم أو إخواتهم. فإذا اقتربن من القافلة أكثر مما ينبغي لهن، نهرهن فرسان الآغا وفرّقوهن بالسوط وهم يندفعون نحوهن بخيولهم صارخين، فكانت النساء تهرب، وتختفي في الغابة على طول الطريق، ثم تتجمّع من جديد وراء القافلة وتحاول كلٌّ منهن أن ترَى، لآخر مرّة، بعينيها الدامعتين، رأس ابنها المخطوف، مطلاً من السلّة. وكانت الأمهات أشدّهن عنادًا وأعزّهن زجرًا، فكنّ يركضن بخطًى سريعة دون أن ينظرن أين يضعن الأقدام، وقد تعرّت صدورهنّ وتشعّثت شعورهنّ ونسين كلّ شيء حولهن، ورُحن يبكين وينتحبن كبكائهن على ميت.. وكان بعضهن أشبه بمن أصابهن جنون، فهنّ يصرخن ويعولن كأنّ أرحامهن تتمزّق من آلام ولادة، وكنّ من فرط عماهن بالدموع يواجهن السياط مواجهة، فكلّما نزلت على أجسادهن ضربة سوط أجبن قائلات: «إلى أين تأخذونه؟»، وكان بعضهن يحاولن أن ينادين أبناءهنّ بأسمائهم واضحة متميّزة، ليعطينهم من أنفسهن شيئًا مما يمكن أن يقال بكلمتين، كوصية أخيرة أو نصيحة للسفر، فهذه واحدة تنادي:

- راضي، ابني، لا تنسَ أمّك.

وهذه أخرَى تعولُ قائلة: «إيليا، إيليا، إيليا»، وهي تبحث بنظرها، يائسة، عن الرأس الغالي الذي تعرفه، وتردد صرختها بلا توقّف، كأنما لتطبع في ذاكرة الطفل هذا الاسم المسيحي الذي سيُنتزَع منه بعد بضعة أيام إلى الأبد.

ولكن الطريق طويلة، والأرض صلبة، والجسم ضعيف، والأتراك أقوياء لا يرحمون. فكانت النساء تتوقف شيئًا فشيئًا وقد أعياهنّ المسير وطردتهن السياط،

وكن يتركن هذا الجهد الطائش واحدة بعد أخرَى. وهنا، عند مركب فيشيغراد، اضطرت إلى التوقّف أواخرهنّ وأشدّهن عنادًا، لأنّهن منعن من ركوب المركب، وليس ثمّة غيره وسيلة لاجتياز النهر. إنّ في وسعهنّ الآن أن يجلسن هنا على الشاطئ الوعر في هدوء، وأن يسترسلن في البكاء، فما بقي أحد يلاحقهن في هذا المكان. هنا وقفن، كأنما جمّدهن البرد وأصبحن لا يشعرن بالجوع والظمأ، ليرين مرّة أخرَى، على الشاطئ الصخريّ الآخر، قافلة الخيل والفرسان، التي تستطيل وتغيب نحو دوبرون، وليَحْزَنَّ بين القافلة، مرة أخرَى، الطفل الحبيب الذي يختفي عن الأبصار.

في ذلك اليوم من شهر تشرين الثاني كانت إحدَى هذه السلال الكثيرة تضمّ صبيًا أسمر في العاشرة من عمره، من قرية عالية في جبال سوكولوفتش. وكان الصبيّ ينظر حوله صامتًا جافّ العينين. كان يمسك بيده المقرورة المحمرّة من شدّة البرد موسًى صغيرة محدودبة، يقلّم بها حافّة السلّة ذاهلاً، وينظر في الوقت نفسه إلى ما حوله. لا شكّ أنه احتفظ في ذاكرته بصورة الضفّة الحجرية التي تغشاها صفصافات عارية فقيرة شهباء، واحتفظ بصورة ذلك الرجل الشاذّ، صاحب المركب، وبصورة طاحونة الماء الهزيلة الملأَى بأنسجة العنكبوت والتي تتناوح فيها الرياح، حيث قضَى الصبية ليلتهم ريثما يُتاح لهم جميعًا أن يجتازوا مياه درينا المصطخبة التي ينعق فوقها الغربان.

لقد ظهر في الصبيّ داء هو نوع من أخدود أسود يشقّ صدره شقّين من حين إلى حين، خلال ثانية أو ثانيتين، ويعذّبه عذابًا شديدًا. وقد ظلّ هذا الألم مرتبطًا في ذاكرته بصورة هذا المكان الذي ينكسر فيه الطريق ويتجمّع فيه الألم واليأس والكرب عند الضفّتين من هذا النهر الذي كان اجتيازه شاقًا باهظَ الثمن غير مضمون العواقب. إنه لمكان مُوجِع مؤلم للأعصاب، في بلد يمتاز كله، من جهة أخرَى، بأنه بلد جبليّ بائس، لا يخفَى ما يعانيه أهله من شقاء، بلد تتصدّى فيه عناصر الطبيعة للإنسان، لأنها أقوَى منه فيستكين ويشعر بعجزه، ويزداد إدراكًا لشقائه وشقاء غيره، ويزداد إحساسًا بتخلّفه وتخلّف غيره.

كلّ هذا أدّى إلى ذلك الداء الذي أصاب الصبيّ في ذلك اليوم من تشرين الثاني، ثم لم يتركه بعد ذلك أبدًا، حتى حين غيّر حياته ودينه واسمه، واستبدل بوطنه وطنًا آخر.

أمّا ما حدث لهذا الصبيّ في ما بعد، فتذكره كتب التاريخ كلها في جميع اللغات. والناس في العالم يعرفونه خيرًا مما نعرفه نحن في هذا البلاد. لقد أصبح الصبيّ، مع تقدم الزمن، ضابطًا شابًا مغوارًا من ضبّاط بلاط السلطان، فقائدًا ورجلاً من رجال الدولة الذين يتمتّعون بشهرة عالميّة، إنه محمد علي باشا سوكولي الذي قاد حروبًا في ثلاث قارّات، وخرج من أكثر هذه الحروب منتصرًا، فوسّع حدود الدولة التركية وكفل لها الأمن في الخارج وحصّن الإدارة في الداخل. لقد خدم ثلاثة سلاطين، خلال حياته التي تجاوزت الستين ببضع سنين، وخبر من الخير والشرّ ما لا يتاح إلاّ لقلّة مصطفاة من الرجال، وارتقَى في طريق السلطة والقوّة ذُرًى لا نعرفها نحن ولا يصل إليها ولا يحافظ عليها إلا قليل من أفذاذ الناس. إنّ هذا الرجل الجديد الذي أصبحه الصبيّ في عالم غريب لا نستطيع نحن أن نصاحبه فيه ولو بالخيال، كان لا بد له أن ينسَى كلّ ما خلّفه وراءه في البلد الذي أُخذ منه. ولا شكّ أنه نسي أيضًا ممرّ نهر درينا عند فيشيغراد، والضفة المقفرة التي يرتعد عليها المسافرون من شدّة البرد والقلق، والمركب البطيء النخر، وصاحبه الشاذّ العجيب، والغربان الساغبة فوق الماء المعتكر. لكن ذلك الألم الجسميّ الذي بقي له من ذلك كلّه لم يختفِ اختفاءً تامًا في يوم من الأيام، حتى لقد أصبح بمرور السنين وموافاة الشيخوخة أكثر ظهورًا من حين إلى حين، فكان يصاب بذلك الأخدود الأسود نفسه الذي يشطر صدره شطرين، وكان يعاني من ذلك الألم الخاص نفسه الذي عرفه منذ طفولته حق المعرفة، والذي يختلف اختلافًا بيّنًا عن كلّ ما حملته إليه الحياة بعد ذلك من ألوان الألم، فكان الوزير عندئذ يغمض عينيه، وينتظر أن تنقضي الشفرة السوداء، وأن يهدأ الألم. وإنه لفي لحظة من اللحظات، إذا به يخطر بباله أنّه قد يتخلّص من هذا الداء إذا هو أزال عن نهر درينا البعيد ذلك المركب الذي ما ينفكّ الشقاء وما تنفكّ ضروب العناء تتجمّع فيه وتُنْقَلُ عليه، إذا هو بنَى جسرًا يجمع الضفّتين الصخريّتين والماء الذي يتدفّق بينهما، إذا هو ضمّ طرفي الطريق الذي ينقطع في هذا المكان، إذا هو ربط بذلك بين البوسنة والشرق ربطًا قويًا إلى الأبد، إذا هو ربط بين البلد الذي كان مرتع طفولته وبين البلد الذي أصبح حلبة حياته في الرجولة. هكذا كان محمد باشا سوكولي أول من تراءت له في لحظة من اللحظات من وراء الجفنين المغمضين صورة الجسر الحجري الكبير،

القوي الرشيق، الذي يجب أن يُشاد في هذا المكان.

ومنذ تلك السنة، بدأ بناء الجسر الكبير على نهر درينا، بأمر من الوزير وعلى نفقته. ودام العمل في البناء خمس سنين. كانت تلك المدّة زاخرة بالحياة والخطورة إلى أبعد الحدود، بالنسبة إلى المدينة وبالنسبة إلى البلاد كلّها، مليئة بالتبدّلات والأحداث صغيرها والكبير. ولكن من معجزات الدهر أنّ المدينة التي يتذكر الناس فيها، خلال القرون، شتّى الأحداث، ويتناقلون أخبارها- ومنها ما هو مرتبط بالجسر ارتباطًا غير مباشر- لم يبقَ فيها كثير من التفاصيل عن سير الأعمال في بناء هذا الجسر.

إنّ الشعب لا يتذكّر ولا يروي إلاّ ما يستطيع أن يفهمه وأن يحيله إلى أسطورة. أمّا كل ما عدا ذلك فيجرى على مقربة منه من دونِ أن يخلف فيها أثرًا ودون أن يستثير خياله ودون أن ينقش في ذاكرته، وتبقَى الأحداث الطبيعية المغفلة خرساء لا تبالي. لقد كان هذا البناء في نظره عملاً يقوم به شخص آخر، ويتم على نفقة شخص آخر. حتى إذا انبثق الجسر ثمرة لهذه الجهود، أخذ الناس عندئذ يتذكرون التفاصيل، أخذوا يزخرفون مولد الجسر القائم الذي بُنِي بناءً بارعًا بموادّ قوية لا تزول، أخذوا يزخرفونه بحكايات أسطورية عرفوا كيف يؤلّفونها تأليفًا جديدًا فيه فنّ، وكيف يحتفظون بها في ذاكرتهم مدّة طويلة.

الفصل الثالث

في ربيع السنة التي اتخذ فيها الوزير قراره، وصل رجاله إلى المدينة مع أتباعهم ليهيّئوا كلّ ما ينبغي أن يهيّأ لبناء الجسر. كان عددهم كبيرًا، وكان معهم خيل وعربات وآلات وخيام. وقد أحدث وصولهم خوفًا واضطرابًا في المدينة الصغيرة وفي القُرَى التي تجاورها، وخاصة بين النصارَى من السكان.

كان عابد آغا على رأس هذه الفرقة، وهو الرجل الذي يعتمد عليه الوزير أكثر ما يعتمد في أمر بناء الجسر. وكان يعاونه في ذلك مهندس يقال له طوسون أفندي. كان الناس يتحدثون عن عابد آغا قبل وصوله حديثهم عن رجل لا يراعي أحدًا، ولا يعرف الرحمة، قد قسا قلبه وتجاوزت خشونته الحدود. ومنذ وصل هؤلاء القادمون واستقرّوا في خيامهم تحت حيّ الميدان دعا عابد آغا ممثلي السلطات وجميع الأعيان المسلمين إلى اجتماع يتداولون فيه الأمر. ولم يطُل الاجتماع، لأنّ عابد آغا انفرد بالكلام لم يشاركه فيه أحد. إنّ الأشخاص الذين حضروا الاجتماع رأَوْا أنفسهم أمام رجل قوي البنية، أخضر العينين، على وجهه حُمرة من مرض، قد لبس رداءً غنيًا من تساريجراد، وله لحية قصيرة شقراء، وشاربان صفّفا تصفيفًا غريبًا على طريقة أهل المجر. والحديث الذي وجّهه هذا الرجل العنيف إلى المجتمعين أدهشهم أكثر من مظهره أيضًا، قال: «لا شكّ أنّ إشاعات عنّي قد وصلتكم قبل أن أصل، وإني لأعرف أنّ هذه الإشاعات ليست بالجميلة ولا بالسارّة. لعلّكم سمعتم مَن يقول عني إنني أطلب العمل والطاعة من كلّ فرد، وإنني أضرب وأقتل كلَّ مَن لا يعمل كما ينبغي أن يعمل، أو لا يطيع طاعة عمياء بلا جواب، وإنني لا أفهم معنى «لا يمكن» و «لا يوجد»، وإنني أطيح بالرأس بسبب كلمة، أي أنني، بإيجاز، رجل متعطّش للدماء شرّير. إني لأحرص على أن أقول لكم إنّ هذه الإشاعات ليست من صنع الخيال، وليس فيها شيء من المبالغة. وقد حصّلت هذه السمعة بخدمة الدولة خلال سنين

طويلة، وبتنفيذ أوامر الوزير الأكبر تنفيذًا أمينًا. وإنني أريد، بالاعتماد على الله، أن أنفّذ أيضًا هذا العمل الذي أُرسِلتُ من أجله، حتى إذا فرغت منه فذهبت كنت أرجو أن تكون الإشاعات التي تبقَى بعدي أشدّ حلكة وسوءًا من الإشاعات التي وصلت إليكم».

وبعد هذه المقدّمة الشرسة التي أصغَى إليها المجتمعون صامتين خافضي الأبصار أعلن عابد آغا لهم أن الأمر أمر إقامة بناء خطير الشأن لا تملك مثله أكثر البلدان ثراءً، وأن الأعمال ستدوم خمس سنين، وقد تدوم ست سنين، غير أنّ إرادة الوزير متحققة على أدقّ صورة في الموعد المضروب. ثم ذكر لهم الأشياء الأولَى التي سيحتاج إليها وشرح الأعمال التحضيرية وما ينتظره في هذه المناسبة من أتراك المنطقة، وما يطلبه من الكفرة النصارَى.

وكان طوسون أفندي جالسًا إلى جانبه، وهو رجل شاحب الوجه، وُلد في جزر اليونان واعتنق الإسلام. إنه مهندس بارع بنَى لمحمد باشا عددًا من المباني الخيرية في تساريغراد. كان طوسون أفندي جالسًا إلى جانب عابد آغا في هدوء وغير مبالاة، كأنه لا يسمع كلامه أو كأنه لا يفهمه. إنه يطيل النظر إلى يديه، ولا يرفع رأسه إلاّ من حين إلى حين، فيستطيع المرء عندئذ أن يرَى عينيه السوداوين اللتين تلتمعان التماع المخمل، وهما عينان جميلتان حسيرتان، عينا رجل لا ينظر إلا إلى عمله، ولا يرَى أو يحسّ أو يفهم شيئًا آخر غير هذا العمل في الحياة وفي العالم.

خرج الرجال مضطربين محطّمين من تحت الخيمة الضيقة الخانقة، وكانوا يشعرون بالعرق يسيل قطرة قطرة تحت ثيابهم الجديدة التي يلبسونها للأعياد، ويحسّون بالخوف والهمّ يستقران في قلوبهم استقرارًا سريعًا لا سبيل إلى مغالبته.

إنّ شقاءً كبيرًا لا يُفهم قد انصبّ يومئذ على رأس المدينة والبلاد كلّها.. مصيبة لا يرَى الناس لها نهاية. قطعت أشجار الغابة في أول الأمر، وبدأ نقل الأخشاب، وبلغ من تجمّع هذه الأخشاب على ضفّتَي النهر أنّ الناس ظنّوا، خلال مدّة طويلة، أنّ الجسر سيُبنَى بالخشب. ثم بدأت أعمال ركم التراب والحفر ونقب الضفة الصخرية. وقد تمّ أكثر هذه الأعمال سخرةً. واستمرّ الأمر على هذه الحال إلى وقت متأخر من الخريف، ثم توقف الشغل عندئذ إلى حين، بعد أن أُنْجِزَ الجزء الأول من العمل.

وكان كلّ شيء يجري بمراقبة عابد آغا، وتحت تهديد عصاه الطويلة الخضراء التي صارت موضوع أغنية شعبية. ذلك أنّ من كان يشير إليه عابد آغا بهذه العصا، لأنه لاحظ أنه يضيّع وقته سدًى أو لا يعمل كما ينبغي أن يعمل، كان الحرس يقبضون عليه فورًا، فلا يزالون به ضربًا وهو في مكانه إلى أن يُغمَى عليه وتسيل منه الدماء، فيُحمَل عندئذ ويغطس في الماء، ثم يُعاد إلى العمل. وحين أصبح عابد آغا على وشك أن يترك المدينة في وقت متأخّر من الخريف استدعَى زعماء المدينة وأعيانها مرّة أخرَى وقال لهم إنه ذاهب أثناء الشتاء إلى مكان آخر، لكنّ عينيه ستظلان ساهرتين في هذا المكان. وأجابوا جميعًا عن كلّ شيء. قال لهم إنه إذا عاد فوجد أيّ أذًى قد لحق بالأعمال، إذا وجد مثلاً أنّ كسرة واحدة من الخشب انتُزعت من البناء فسيفرض غرامة على المدينة كلها. فلمّا قالوا له إنّ فيضان النهر يمكن أيضًا أن يلحق بعض الأذى، أجابهم في برود وبلا تردد بأنّ البلد بلدهم والنهر نهرهم وأنّ كلّ أذًى يلحقه الفيضان بالبناء سيكون إذاً من صنع أيديهم.

لذلك حرس السكان البناء طوال فصل الشتاء، ورعَوْه كأنه بؤبؤ العين. فلمّا أطلّ الربيع عاد عابد آغا وإلى جانبه طوسون أفندي، وجاء نحاتو الحجارة الدلماسيون الذين كان الشعب يطلق عليه اسم «الصناع الرومانيين». كان عددهم في أول الأمر نحوًا من ثلاثين نحّاتًا، على رأسهم صانع يقال له أنطوان، وهو مسيحي من بلدة أولتسيجنه[1]، رجل جميل فارع القامة، واسع العينين، جريء النظرة، أقنَى الأنف له شعر أسمر متهدّل على الكتفين، ويرتدي ملابس على الزيّ الصربي. وكان مساعده رجلاً زنجيًا، زنجيًا حقيقيًا، هو امرؤ شاب مرح كانت المدينة كلها تطلق عليه اسم الزنجي، وكذلك جميع العمّال.

لئن بدا لسكان المدينة في العام الفائت أنّ عابد آغا ينوي أن يشيد جسرًا من خشب، وذلك لكثرة ما نقل من أخشاب، فقد بدا لهم الآن جميعًا أنّ عابد آغا يريد أن يبني هنا على نهر درينا قسطنطينية جديدة. لقد بدأ بنقل الحجارة من المقلع الذي سبق أن رسموا حدوده على الجبال قرب بانيا على مسير ساعة من المدينة.

---

(1) بلدة صغيرة، سكانها 4000 نسمة تقريبًا، طابعها شرقي وفيها مسجد كانت مقرًا للباشا التركي، فيها برج مثل أبراج البندقية، وشاطئ رملي، وهي آخر مرفأ يوغوسلافي قبل ألبانيا (المترجم).

أطلّت السنة الجديدة قرب مركب فيشيغراد بربيع لا عهد لها بمثله من قبل. فإلى جانب ما ينبت ويزهر في هذا الوقت من كلّ عام، نبعت من الأرض مجموعة كبيرة من أكواخ الخشب.. وظهرت طرق جديدة.. وشقت ممرات توصل إلى الماء.. وأخذ المكان يعجّ بعربات لا حصر لعددها تجرّها أبقار وخيول. وصار الناس المقيمون في حي الميدان وفي أوكولشته يُرَون في الأسفل عند النهر كلّ يوم، ظهور حفل جديد متحرّك من الناس والدوابّ وأدوات العمل من كلّ نوع.

كان النحاتون يعملون على الضفة الحجرية، فأصبح هذا الجزء كله من البلد أصفر من الغبار المتطاير. وغير بعيد، في السهل الرملي، كان العمّال من أبناء المنطقة يطفئون الكلس سائرين، في أسمال بيّضها الغبار، عبر الدخان الأبيض المتصاعد من الفرن. إنّ الطرقات تتخدد من فرط ثقل العربات المحمّلة التي تسير عليها. والمركب يعمل طوال النهار، يحمل خشب البناء من ضفة إلى أخرَى، وينقل المراقبين والعمال. والأخصائيون يخوضون في الماء الربيعي الأسمر حتى الخصور، ويغرزون الأعمدة والأوتاد، ويملأون بالغضار القفف التي يجب أن تغير مجرَى النهر.

كل هذا كان ينظر إليه هؤلاء الناس الذين عاشوا حتى ذلك الحين عيشة هادئة في هذه المدينة الصغيرة ذات البيوت المتناثرة على جنبات الجبل قرب المركب الذي في نهر درينا. وكان يهون الأمر لو أنهم استطاعوا أن يكتفوا بالنظر، غير أن الأعمال قد بلغت من الاتساع والاندفاع أنّها جرّت في زوبعتها جميع الأحياء والأشياء لا في المدينة وحدها بل في ما حولها بعيدًا عنها. لقد زاد عدد العمال في السنة الثانية حتى أصبح يساوي عدد جميع السكان الذكور في المدينة. وأصبحت جميع العربات وجميع الخيول وجميع الأبقار تعمل من أجل الجسر. كل ما كان يمكن أن يدبّ أو يجري أُخِذَ للعمل، تارةً بأجر، وتارة بدون أجر على سبيل السخرة. وزاد المال عما كان قبل ذلك، غير أنّ غلاء المعيشة والجدب كانا أسرع في الزيادة من تكاثر المال، فما يكاد يصل المال إلى أيدي العمال حتى يكون نصفه قد تبدّد. وأصبح القلق والفوضَى وافتقاد الأمن أثقل عبئًا على أكتاف أهل البلد من غلاء المعيشة ومن القحط.. فقد غرقت المدينة في القلق والفوضَى وافتقاد الأمن من تراكم هذا الجيش اللجب من العمال الذين لا يعرفون من أين

يجيئون. وما كان أكثر المنازعات بين هؤلاء العمال، رغم قسوة عابد آغا، وما كان أكثر حوادث السرقة في البساتين والبيوت. وكان على النساء المسلمات أن يغطّين وجوههن حتى حين يخرجن إلى فناء البيت، لأنّ أولئك العمال الأجانب وغير الأجانب، الذين لا يحصَى لهم عدد، يمكن أن تنبجس نظراتهم فجأةً من كلّ جهة. ولقد كان أتراك المدينة يلتزمون قواعد الدين التزامًا دقيقًا، بخاصة وأنهم قد استتركوا منذ عهد قريب، فما من واحد منهم إلاّ ويتذكر أنّ أباه أو جده كان مسيحيًا أو حديث العهد بالإسلام. فمن أجل هذه الأسباب كلها كان الشيوخ من المستتركين يستاؤون صراحةً مما آلت إليه حال المدينة، ويشيحون بأنظارهم عن هذا الخليط المضطرب من العمّال والدوابّ والأخشاب والتراب والحجارة، هذا الخليط الذي كان يزداد اتّساعًا وتعقّدًا يومًا بعد يوم ويفسد شوارعهم وبيوتهم منذ الآن.

لقد كانوا في أول الأمر يعتزون بهذا العمل الخيري الذي أراد أن يقوم به وزير من بلادهم، لأنهم كانوا لا يعرفون يومئذ ما تراه أعينهم الآن: كانوا لا يعرفون أنّ بناءً عظيمًا كهذا البناء يؤدّي إلى مثل هذه الفوضَى ومثل هذا القلق ومثل هذه الجهود والنفقات. كانوا يقولون لأنفسهم: جميل أن ينتمي المرء إلى الدين الصحيح، وجميل أن يكون لنا في استانبول وزير من وطننا، وجميل أن نتخيل فوق النهر جسرًا قويًا ثمينًا، لكن ما يقع الآن لا يشبه شيئًا ولا يشبهه شيء. لقد استحالت المدينة إلى جحيم، إلى حركة مجنونة: أعمال لا تفهم، ودخان، وغبار، وصياح، وجلبة. وتمضي السنون، والأعمال تتسع وترتفع، ولكن المرء لا يرَى لها نهاية، ولا يفهم لها معنَى. إنّ هذا كلّه يشبه كلّ شيء إلاّ أن يكون جسرًا.

هذا ما كان يقوله المستتركون الجدد لأنفسهم، فإذا خلا أحدهم بآخر، والتقت عيون أربع، أخذوا يعترفون بأن الوجاهة والزهوّ والأمجاد المنتظرة قد أثقلت ظهورهم، وأنكروا الوزير والجسر، ودَعَوْا الله أن ينقذهم من هذه الكارثة، وأن يردّ إليهم وإلى بيوتهم الطمأنينة التي كانوا ينعمون بها، والحياة البسيطة التي كانوا يعيشونها قرب المركب العتيق على النهر.

هذا كله كان يزعج الأتراك والمسيحيين معًا في منطقة فيشيغراد كلها، مع فارق واحد هو أنّ المسيحيين لم يكن يسألهم أحد رأيهم، ولا كانوا يعبرون عن

استيائهم. ثم جاءت السنة الثالثة التي يجهد فيها الناس مسخرين في إقامة البناء الجديد، واقفين عليه عملهم وخيولهم وأبقارهم، فلم يقتصر ذلك على نصارَى فيشيغراد، بل شمل أيضًا نصارَى الأقضية الثلاثة المجاورة. فكان جنود عابد آغا يمضون على خيولهم إلى كلّ مكان، يقبضون على المسيحيين فلاّحين وسكّان مدن ويسوقونهم إلى العمل على الجسر وكانوا يفاجئونهم، عادة، أثناء النوم، ويقبضون عليهم قبضهم على دجاج. وأصبح المسافر ينصح المسافر، في البوسنة كلها، ألاّ يمرّ بنهر درينا، لأنّ الدرك يقبضون على كلّ من يذهب إلى هناك مصادفة، من دون أن يسألوه من هو، ولا ماذا هو ولا أين هو ذاهب، ويجبرونه على العمل بضعة أيام في أقلّ تقدير. وأصبح نصارَى المدن يفتدون أنفسهم بأباريقَ من الخمر. وأصبح شباب البراري يحاولون الفرار إلى الغابات، لكنّ رجال الدرك ما يلبثون أن يقبضوا على رهائنَ من أفراد أُسَرهم، يختارونهم من بين النساء خاصّة، لتحلّ محلّ الشبان الهاربين.

هذا ثالث خريف يشتغل فيه الناس سخرة على الجسر، ولا شيء يدلّ على أنّ العمل يتقدّم. وعلى أنّ نهاية الكارثة تقترب. الخريف في أوْجِه. أوراق الأشجار قد سقطت. الطرق بلّلتها الأمطار. نهر درينا الفائض تجري مياهه معتكرة. والحقول عارية إلاّ من بقايا تبن الحصاد، وقد امتلأت بالغربان تطير فيها طيرانًا كسولاً. ولكنّ عابد آغا لم يوقف العمل. فتحْتَ الأشعة الشاحبة من شمس تشرين الثاني ينقل الفلاحون الخشب والحجارة ويخوضون في الطريق الموحل حُفاةً أو بنعال الأوبانشي[1] المصنوعة من جلود غير مدبوغة دامية، ويتصبب عرقهم من فرط الجهد، كما يرتعشون بردًا من قرص الريح، ويشدّون على أجسامهم سراويلهم المسودّة من الوساخة، المليئة بثقوب جديدة ورُقَع قديمة، ويعقدون مزق قميصهم الوحيد المصنوع من غليظ القطن المسوَدّ من المطر والوحل والدخان، والذي لا يجرأون أن يغسلوه خشية أن يتقطّع في الماء خيوطًا. إنّ العصا الخضراء التي يحملها عابد آغا معلّقة فوق رؤوسهم جميعًا، لأنّ عابد آغا يفتّش مقلع الحجارة في بانيا، كما يفتّش جميع الأعمال حول الجسر عدّة مرات في النهار. وهو حانق ساخط على العالم كلّه، لأنّ الأيام تنقضي والعمل لا

(1) الأوبانشي: نعال غليظة ينتعلها الفلاحون (المترجم).

يجري سريعًا على ما يجب، وهو يرتدي معطفًا ثقيلاً من فراء روسي، وينتعل حذاءين طويلين، ويتسلّق السقالات القائمة فوق النهر من أولها إلى آخرها محتقن الوجه، ويدخل الأكوار وأكواخ العمال وخصاصهم، ويشتم الناس جميعًا جملة واحدة حتى المراقبين والمقاولين.

- الأيام قصيرة. وهي ما تنفكّ تقصر. آه منكم يا أولاد الكلب.. إنكم تأكلون خبزكم بالمجان.

كان ينفجر غاضبًا كأنما الذنب ذنبهم إذا طلعت الشمس متأخرة وهبط الليل مبكرًا. إلاّ أنّ حنق عابد آغا كان يصل إلى أوْجِهِ قبيل الغسق، غسق فيشيغراد الحاقد اليائس، حين تنطوي الروابي الوعرة على المدينة، ويهبط الليل سريعًا ثقيلاً أصمَّ كأنه آخر ليل. فعند ذلك لا يبقَى ثمّة من يصبّ عليه عابد آغا حنقه فيعتمل الحنق في نفسه وينهشه نهشًا، ويعجز عن النوم من تفكيره في الأعمال الكثيرة التي لم تُنجز بعد، وفي هؤلاء الناس الكثر الذين يضيّعون الوقت، ويأخذ عابد آغا يصرّ بأسنانه. ويستدعي المراقبين ويحسب لهم كيف أنّ النهار يمكن أن يُستغَلّ في الغد استغلالاً أحسن، وكيف أنّ العمال يمكن استخدامهم استخدامًا أجدَى.

إنّ الناس في هذا الوقت ينامون في أكواخهم وزرائبهم، ويرتاحون، ويجددون قواهم. غير أنّ منهم من لا ينام: إنّ منهم مَن يعرف كيف يسهر على ما تريده له مشيئته. ففي زريبة واسعة جافة كانت هناك نار متّقدة في وسطها، أو بقايا نار إذ لم يبقَ إلاّ بضع جمرات في الغرفة التي تشبه أن تكون مظلمة. إنّ المكان كله مليء بالدخان وبرائحة ثقيلة حادة هي رائحة الثياب المبللة والأجساد التي يقارب عددها الثلاثين. إنهم جميعًا رجال مسخّرون فلاحون من القرَى المجاورة، أناس فقراء، مسيحيون عبيد. إنهم جميعًا وسخون، مبللون، منهوكون، مهمومون. إنّ هذا العمل الذي لا يتقاضون عليه أجرًا، ولا يمنحهم أي أمل، ينهش قلوبهم نهشًا، بينما حقولهم، هناك في الأعالي، في القرى تنتظر حراثة الشتاء. إنهم يجففون الأوبوجاك[1] قرب النار، ويشبكون الأوبانشي، أو يكتفون بالنظر إلى جذوات الموقد. إنّ بينهم رجلاً من الجبل الأسود لا يعرف أحد من أين أتَى. فقد

(1) الأوبوجاك مربع من قماش غليظ يستعمله الجنود الفلاحون أجربة لأقدامهم (المترجم).

قبض عليه رجال الدرك في الطريق، وهو يعمل سخرةً منذ بضعة أيام، وما ينفكّ يروي للجميع ويبرهن لهم على أنّ هذا العمل يشقّ عليه ويزعجه وأنّ شرفه لا يطيق احتمال مثل هذه العبودية.

إنّ معظم الفلاحين الساهرين وخاصة الشباب متحلقون الآن حوله. وها هو ذا يمدّ يده إلى جيبه العميقة في صديرته المصنوعة من جلد الخروف، فيستلّ منها على مهله جوزلا[1] بائسة المظهر صغيرةً كراحة اليد، ويسلّ معها قوسًا قصيرًا. ويخرج أحد الفلاحين من الزريبة يحرسها، مخافة أن يصل أحد الأتراك. وينظر الحضور جميعًا إلى رجل الجبل الأسود كأنهم يرونه الآن لأول مرّة وينظرون إلى الجوزلا التي تختفي بين يديه الكبيرتين. وينحني الرجل على الجوزلا التي أسندها إلى ركبتيه، ويشدّ على مقبضها بذقنه، ويدهن الوتر بالصمغ، وينفخ على القوس بأنفاسه. إنّ كلّ شيء رطب رخو. إنه يقوم بهذه الأعمال بانتباه وهدوء، كأنه وحيد في العالم، والناس جميعًا يرقبونه محدّقين. وينطلق أول صوت أجشّ. ويزداد الانفعال، ويكيّف الرجل صوته، ويأخذ يغني من الأنف عازفًا على آلته أثناء الغناء. وينسجم كلّ شيء، وينبئ كل شيء بأنّ الرجل سيغني قصة رائعة وما هي إلاّ لحظة، إذا به فعلاً، بعد أو وَفَّق بين صوته وبين العزف على الجوزلا، يقلب رأسه بعنف وزهو إلى الوراء، فتبرز تفاحة آدم على عنقه النحيل، ويلتمع جانب وجهه في الضياء، ويطلق من صدره صوتًا مخنوقًا بطيئًا: «آ آ آ آه..»، ثم يغنّي بصوت واضح رنّان:

قيصر الصرب ستيفان، يشرب الخمر
في بريزرن، الأرض الخصبة،
وإلى جانبه البطاركة الشيوخ..
إنهم أربعة، البطاركة الشيوخ..
وهناك أيضًا تسعة مطارنة،
وعشرون وزيرًا من أعلَى الرُتب في الجيش
وسادةً من الصرب، على تفاوت في الأقدار،
ميخائيلو، الساقي، يقدم الخمر

(1) آلة موسيقية ذات وتر واحد ترافق غناء المغنّين الشعبيين في يوغوسلافيا.

وأخته كاندوزي تضيء الحجرة
ببريق الأحجار الكريمة
المتلألئة على نحرها.

أخذ الفلاحون يزدادون اقترابًا من المغنّي، ولكن دون أن يحدثوا أي ضوضاء، إنك لا تسمع أنفاسهم. إنهم يتغامزون جميعًا مفتونين مسحورين. إنّ ظهورهم تنمل، وأصلابهم تنتصب، وصدورهم ترتفع، وأعينهم تتقد، وأصابعهم تتباعد ثم تتصلّب، وعضلات وجوههم تتقبّض. وكان رجل الجبل الأسود يزيد سرعته في غناء لحنه الذي ما ينفكّ يرتفع، وما ينفكّ يزداد جمالاً وجسارة، بينما المسخَّرون المخضّلة جسومهم، الذين أصبحوا لا يرغبون في النوم، يرافقون الأغنية كأنها تحكي مصيرهم الشخصي وقد ازداد ضياءً وجمالاً.

بين هؤلاء الفلاحين المسخّرين، كان ثمة رجل يقال له راديسلاف، وهو من قرية أونيشه الصغيرة التي تقع فوق المدينة رأسًا. إنه رجل قصير القامة أسمر الوجه، متقد العينين، محنيّ الظهر. إذا سار أسرع في السير مباعدًا رجلية مؤرجِحًا رأسه وكتفيه من الشمال إلى اليمين ومن اليمين إلى الشمال، كأنه ينخل دقيقًا. ليس هذا الرجل بالفقير كما يبدو، ولا هو بالساذج كما يتظاهر. إنّ أسرته تسمّى باسم الكيراك وهي تملك أرضًا جيدة، وفي بيتها رجال كثيرون. لكن قريتهم كلها تقريبًا قد اعتنقت الإسلام خلال السنوات الأربع الأخيرة، فأصبح رجال أسرته محاصَرين معزولين. إنّ راديسلاف هذا القصير المنطوي على نفسه يبذر بذور الثورة والتمرد في هذه الليالي من ليالي الخريف، متنقلاً من زريبة إلى زريبة، منسلاً بين صفوف الفلاحين انسلال الإبرة، هامسًا في آذانهم واحدًا بعد واحد. وكانت أحاديثه هي التالية على وجه العموم، «أيها الإخوة.. كفَى كفَى. يجب أن نذافع عن أنفسنا. إنكم لترون أنّ هذا البناء سيدفننا، سيلتهمنا. أولادنا أيضًا سيتعبون من العمل فيه سخرةً، إذا بقي منا بعضنا. إنما تُهيأ لنا هنا الإبادة، لا شيء آخر. إنّ الحفاة والمسيحيين ليسوا في حاجة إلى جسر. الأتراك هم الذين يريدون الجسر. نحن لا نسوق قطعانًا من الماشية ولا نقوم بتجارة واسعة، والمركب يكفينا بل يزيد عن حاجتنا. لذلك اتفق نفر منا على أن نذهب في الليل تحت جنح الظلام نقلب ما بُنِي وشُيّد ونحطمه ما وسعنا التحطيم، وعلى أن نروِّج بين الناس أن الجنّ هي التي تهدم البناء وأنها لن تسمح بإقامة جسر على

نهر درينا. سنرَى هل يساعدنا هذا بعض المساعدة. ما من طريق آخر نسلكه ويجب أن نعمل شيئًا ما».

وقد وجد بين الناس، كما يوجد بينهم دائمًا، أفراد يخافون ولا يصدّقون، فرأوا أنّ هذه الفكرة عقيمة لأنّ الأتراك الأقوياء الماكرين لا يمكن أن يثنيهم عن عزمهم شيء، وقدّروا أنّ من الخير أن يواصلوا العمل الشاق سخرةً إلى آخر يوم، وألاّ يزيدوا الحال سوءًا على سوء. ولكن وجد بين الناس أيضًا من رأَوْا أنّ كلّ شيء خير من الاستمرار في حمل العبء كالبهائم، وخير من الانتظار إلى اللحظة التي تسقط فيها عن جسومهم آخر مزقة من مزق الأسمال البالية، وخير من فَقْدِ قواهم بهذا العمل الشاق شيئًا بعد شيء، وخير من هذا الخبز البائس الذي يقدمه لهم عابد آغا، وأنّ عليهم أن يتبعوا أيّ إنسان يقودهم إلى مخرج من هذه الحال التي هم فيها.. وكان الشبان خاصة هم الذين يقولون هذا الكلام، غير أنّ أناسًا رصينين من المتزوجين وأرباب الأسر قد وافقوا أيضًا على هذا الرأي دون اندفاع أو اهتياج، قائلين وقد لاح على وجوههم الهمّ: «لنحطم البناء وليلتهمه الدم قبل أن يلتهمنا. ولكن إذا كان هذا العمل لا يفيد في شيء..».

ثم يلوحون بأيديهم، علامة الشك في جدوَى ما عزموا عليه يائسين..

هكذا راج خلال الأيام الأولَى من الخريف، بين العمال أولاً وفي المدينة بعد ذلك، أنّ جنّ الماء قد تدخّلت في أمر الجسر، وأنها تهدم وتخرّب في الليل ما بُنِي في النهار، وأنّ هذا العمل الذي يبذل في البناء لن يثمر. وفي الوقت نفسه بدأ يظهر شيء من التخريب فعلاً، في مواضع السدود، بل وفي أعمال التعمير. والأدوات التي كان يتركها البنّاؤون حتى ذلك الحين على الأعمدة التي شرعوا في بنائها على طرفي الجسر منذ قليل أصبحت تختفي وتنقص، وأخذت أعمال الطين تنشقّ وتجرها المياه.

والإشاعة القائلة بأنّ الجسر لن يُبنَى وصلت في انتشارها بعيدًا، وأصبح الأتراك ينشرونها كما ينشرها المسيحيون، وغدت اعتقادًا يزداد رسوخًا في نفوس الناس يومًا بعد يوم. وكانت «الرعية»[1] المسيحية تتهلل طربًا في أعماق القلوب، على صمت واستخفاء. بل إنّ كثيرًا ممن اعتنقوا الإسلام ولم يجدوا بعد تغيير دينهم ما

---

(1) بالعربية في النص.

كانوا يتوقعونه، وإنما استمرّوا يجلسون إلى مائدة هزيلة واستمرّوا يتعبون ويجهدون، كانوا يسمعون ويرددون الأقاصيص التي تُروَى عن هذا الإخفاق الكبير مسرورين، وكانوا يجدون لذّة مُرة في التحقق من أنّ الوزراء أنفسهم لا يستطيعون أن يصلوا إلى ما يريدون. وأخذ الناس يقولون إنّ الصُنّاع الأجانب يتأهّبون للسفر، وأنّ الجسر لن يُبنَى في هذا المكان الذي لم يكن فيه وما كان ينبغي الشروع في بنائه فيه. واختلفت هذه الإشاعات كلها وذاعت بين الناس وفي المنطقة ذيوعًا سريعًا.

إنّ الشعب يختلق الحكايات بسهولة، وينشرها بسرعة، لكن الواقع يختلط بالحكايات اختلاطًا عجيبًا ويشتبك بها اشتباكًا لا انفصام له، فالفلاحون الذي يصغون في الليل إلى العازف على الجوزلا كانوا يقصّون أنّ الجنّ التي تهدم البناء قد أبلغت عابد آغا أنها لن تكفّ عن عمل التخريب هذا الذي تقوم به ما لم يدفن في جدران الأسس التي يُبنَى عليها الجسر توأم من أخ وأخت يسمّيان ستويا وأوستويا. وحلف كثير منهم أنهم رأوا رجال الدرك بأعينهم يبحثون في القرَى عن هذين التوأمين (كان رجال الدرك يطوفون في القُرَى فعلاً، لكنهم لا يبحثون عن أطفال وإنما يتجسسون ويسألون السكان هل يعرفون أولئك الرجال المجهولين الذين يخربون الجسر).

وحدث في تلك الفترة أنّ فتاةً رثّاء بلهاء، من قرية فوق فيشيغراد أصبحت حُبلَى. إنها مخلوقة بائسة كانت خادمة في بيت رجل أجنبي. ولم تكن تريد أن تقول اسم الرجل الذي حملت منه، أو لعلها كانت هي نفسها لا تعرف من هو الرجل الذي حملت منه. إنه لحادث نادر لم يسبق مثله، أن تحمل فتاة- كهذه الفتاة خاصة- وأن يظلّ الأب مجهولاً. وأحدث الأمر ضجّة انتشرت إلى بعيد. ففي تلك الأيام التي نتحدث عنها ولدت هذه المرأة الصبية في حوش من الأحواش توأمين، ولكن التوأمين وُلدا ميتين. وقد ساعدتها نساء القرية في مخاضها الذي كان صعبًا إلى أبعد حدود الصعوبة. ودفن الطفلان في بستان من بساتين الخوخ. لكن هذه الإنسانة البائسة التي لم تخلق لتكون أمًا نهضت من فراشها في اليوم الثالث وطفقت تبحث عن طفليها في كل مكان بالقرية. وعبثًا حاول الناس أن يقنعوها بأنّ الطفلين وُلدا ميتين وأنهما دُفنا. ولكي يتخلّصوا من أسئلتها التي لا تنقطع قالوا لها أو أفهموها بالإشارة أنّ طفليها قد نُقلا إلى المدينة حيث يبني الأتراك الجسر.

وهكذا هامت على وجهها نحو المدينة ضعيفة بائسة، وأخذت تحوم حول السقالات والورش، وتنظر في أعين الرجال مذعورة وتسألهم أين طفلاها بتمتمة لا تُفهَم. فكان الرجال ينظرون إليها دهشين، أو يطردونها حتى لا تعطّلهم عن عملهم. فلمّا لاحظت أنهم لا يفهمون ما تريد أن تقول، فكّت أزرار قميصها الفلاحي الخشن، وأظهرت لهم ثدييها الموجَعين المحتقنَين اللذين أخذت أطرافهما تتشقق وتدمَى من فرط امتلائهما بالحليب في إصرار لا يغالب ولم يعرف أحد كيف يستطيع أن يساعدها، وكيف يشرح لها أنّ الطفلين لم يُشدَّا إلى الجسر، لأنها كانت لا ترد على كلّ ما يقال لها من كلام طيب، وكل ما يُبذَل لها من تأكيدات، وكلّ ما يوَجّه إليها من شتائم أو تهديدات، إلاّ بتمتمة شاكية متوجعة، وبنظرة حادّة مرتابة تتّجه بها إلى كلّ ركن من الأركان باحثة مستطلعة، وكفّ الناس أخيرًا عن نهرها وزجرها، وتركوها تحوم حول الورش، وصاروا إذا أرادوا أن يتحاشوها يتحولون عنها وقد امتلأت قلوبهم عطفًا ورحمة. وكان الطباخون يعطونها قحاطات من مسلوق الذرة، الطعام البائس الذي يقدّم للعمال ويبقَى في قاع القدر محروقًا في كثير من الأحيان. وأطلق العمال عليها اسم إيلنكا المجنونة، وتبعتهم المدينة كلها في هذه التسمية. وكان عابد آغا نفسه يمر بها دون أن ينهرها، وإنما يشيح بنظره متطيّرًا، ويأمر لها بصدقة. هكذا ظلّت تعيش هنالك، قرب الجسر، كمجنونة مسالمة. وبسببها بقيت هذه الأسطورة التي تقول إنّ الأتراك دفنوا الطفلين في الجسر. وكان بعض الناس يصدّق هذه الأسطورة، وكان بعضهم الآخر لا يصدّقها، ولكنهم كانوا جميعًا يردّدونها ويذيعونها.

غير أنّ التخريب استمرّ، فكان يزداد حينًا ويقلّ حينًا آخَر، وفي الوقت نفسه كانت الإشاعات التي تقول إنّ الجنّ لن تسمح بإقامة الجسر على نهر درينا، تزداد انتشارًا ورسوخًا.

كان عابد آغا خارجًا عن طوره دائمًا. إنه ليقرح قلبه غيظًا أن يوجد في الدنيا إنسان يجرؤ، رغم ما عُرف به من قسوة أصبحت مضرب المثل، قسوة يحرص عليها ويتباهَى بها، أن يقدم على أمر يخالف ما شرع فيه وما عقد النية عليه. وكذلك كان لا يشعر إلاّ بالاشمئزاز من هذا الشعب (مسلمين ومسيحيين على السواء)، هذا الشعب البطيء الأخرق في العمل، السريع البارع في التهكّم والاستهتار، الذي لا يُحسِن شيئًا كما يُحسن كلمات السخر والتحطيم في الحكم

على كلّ ما لا يفهمه أو كل ما لا يجيد عمله.

ووضع عابد آغا حرسًا على جانبَي النهر. فانقطع التخريب في أعمال ركم التراب، لكنه استمرّ على الماء نفسه، فما كان ينقطع هنالك إلاّ في الليالي التي ينيرها القمر. وجاء ذلك مؤيّدًا لما يقوله عابد آغا، الذي كان لا يؤمن بالجن، من أنّ هذه الجنّ ليست خافية عن الأنظار ولا هي هابطة من السماء. لقد ظلّ مدّة طويلة لا يريد أو لا يستطيع أن يصدّق أنّ أولئك الذين أكّدوا له أنّ هذه حيلة من حيل الفلاحين.. لكنه يزداد الآن اقتناعًا بأنّ الأمر كذلك حقًا. وألْقاه هذا إلى حنق ما ينفك يشتدّ. غير أنّه كان يدرك في الوقت نفسه أنّ عليه أن يحافظ على هدوئه وأن يخفي غضبه إذا هو أراد أن يتربّص بالمخرّب وأن يقبض عليه، وأن يبدد وأن يجتثّ بأقصَى سرعة جذور هذه الأساطير التي يتناقلها الناس عن الجنّ وعن ترك الأعمال في الجسر، وهي أساطير يمكن أن تصبح على جانب عظيم من الخطر. واستدعَى مأمور الدرك، وهو رجل شاحب الوجه ضعيف الجسم، من مدينة بلافيا[1].

كان هذان الرجلان يشعر كلّ منهما نحو الآخر بنفور غريزي، وكانا في الوقت نفسه يتجاذبان ويتصارعان بغير انقطاع. إنّ عواطف عجيبة من الكره والبغض والخوف والشكّ تنسج بينهما وتهتز. وكان عابد آغا الذي لم يكن ليّنًا ولا عذبًا في معاملة أي إنسان، يحمل لهذا الرجل الشاحب البليد كرهًا لا يخفيه. فكلّ ما يقوله هذا الرجل أو يفعله كان يسخط عابد آغا ويدفعه إلى شتمه وإذلاله. وكلما ازداد الرجل مذلة ورقّة وخضوعًا ازداد عابد آغا كرهًا له ونفورًا منه. لقد شعر مأمور الدرك، منذ اليوم الأول، بخوف رهيب من عابد آغا وتطيّر منه وتشاءم. ثم استحال هذا الخوف، بمرور الزمن، كابوسًا ثقيلاً مؤلمًا لا يبارحه في لحظة من اللحظات، يتساءل: تُرَى ماذا يكون وقعها عند عابد آغا؟

وعبثًا كان يحاول بالمذلّة والخضوع أن يرضيه وأن يحظَى بعطفه. فإنّ كلّ ما يصدر عنه، كان عابد آغا يستاء منه ويستنكره. وكان هذا الكُرهُ الذي لا يُفهَم يشلّ الرجل ويحيره ويفاقم جموده وخراقته. حتى أصبح يعتقد أنه، بسبب عابد آغا، سيفقد في ذات يوم لا رزقه ومنصبه فحسب، بل رأسه أيضًا. لذلك كان يعيش في

---

(1) مدينة صغيرة في الجبل الأسود على الضفة من تشيثوتينا، أحد سواعد نهر درينا.

اضطراب دائم، متنقلاً من يأس قاتل إلى حماسة راعشة كاسرة. وها هو ذا الآن واقف أمام عابد آغا ممتقع اللون متصلّب الجسم، وها هو ذا عابد آغا يقول له بصوت يخنقه الغضب: «اسمع أيها الرأس الفارغ، إنك تعرف هذه العصابة من الخنازير، تعرف لغتها وتعرف دسائسها، ومع ذلك تعجز عن معرفة ذلك الحقير الذي قام يخرب أعمال الوزير، لأنك حقير مثلهم، وأحقر منك من عيّنك مأمورًا ورقيبًا. إنك لم يكافئك أحد المكافأة التي تستحقها. لسوف أتولّى مكافأتك أنا، ما دام لا يتولّى ذلك أحد. فاعلم إذاً أنني سوف أدفنك في الأرض دفنًا فما يبقَى منك ظلّ في الشمس، لا ولا الظلّ الذي تلقيه أصغر عشبة، فإذا لم ينقطع التخريب والأذَى في خلال ثلاثة أيام، إذا لم تخرس جميع هذه الأقاويل السخيفة التي تروّج عن الجنّ وعن وقف الأعمال، في خلال ثلاثة أيام فلأرفعنّك على خازوق في أعلَى مكان من السقّالات حتى يراك جميع الناس فيخافوا ويعودوا إلى الرُشد والصواب. أقسم على ذلك بحياتي وديني، والمرء لا يحلف بحياته ودينه حانثًا، اليوم هو الخميس، وأمامك متّسع من الوقت إلى يوم الأحد. والآن، اذهب إلى الشيطان الذي أرسلك.. هيا.. امشِ..».

إنّ الرجل يصدق تهديد عابد آغا، ولو من دون يمين، فلقد كان يرتعش حتى أثناء النوم حين يخيل إليه أنه يسمع صوته ويرَى نظرته. وها هو ذا يخرج من لقائه مع عابد آغا وقد استبدّت به سورة من سورات ذلك الذعر الرهيب المحطم، وأخذ يشرع في العمل فورًا بهمّة اليائس. فجمع رجاله كلهم، وطفق يشتمهم بعد أن انتقل من حذر قاتل إلى غيظ مجنون، ويصيح بصوت عالٍ، كأنما هو قد رفع حيًا على خازوق، ويزأر في وجه كلٍّ منهم قائلاً: «عميان، كسالَى.. أهكذا يكون الخفر؟ أهكذا تحرس أملاك السلطان؟ خفاف سراع حين ينادَى بكم إلى الطعام، موثقو الأرجل، مشلولو العقل حين تطلبون لعمل.. إنّ وجهي ليَندَى خجلاً بسببكم.. ولكن كفَى الآن اجترارًا أيها الكسالَى.. واعلموا أنني سأجعل من هذه السقالات مشانق لكم، فما يحتفظ أحد منكم برأسه فوق كتفيه بعد يومين، إذا لم تقف هذه الكارثة، إذا لم تقبضوا على هؤلاء اللصوص ولم تقتلوهم.. أمامكم يومان تظلون خلالهما أحياء.. أحلف على ذلك بديني وبالقرآن».

وظلّ يصيح على هذه الصورة مدّة طويلة. فلمّا أصبح لا يعرف أخيرًا ما يضيفه إلى ما قال من كلام وتهديد، لم يسعه إلاّ أن يبصق في وجوههم جميعًا، واحدًا

بعد آخر. لكنه بعد أن انتهَى من هذا الإرغاء والإزباد، وتحرر من ضغط الخوف الذي لبس صورة الغضب، شرع في العمل فورًا بهمّة المستميت. ولبث الليل كلّه يرقب الشاطئ مع رجاله.

فسمعوا، في لحظة من اللحظات، ضربة تقع على موضع من السقالة بعيد في النهر، فهرعوا إلى ذلك المكان. وسمعوا قرقعة لوح من ألواح الخشب، وسقوط حجر في المياه. فلما وصلوا إلى المكان وجدوا السقالات قد تحطمت فعلاً، ووجدوا الجدار مخرّبًا، لكنهم لم يرَوْا أثرًا للمجرم. وشعر رجال الدرك، أمام هذا الفراغ الذي كما لو أنه يعجّ بالأشباح، شعروا برعشة تسري فيهم، مرجعها إلى رطوبة الليل وإلى خوف يحسه مَن يؤمن بالخرافات. فكانوا يتنادَون ويحملق بعضهم في البعض الآخر في الظلام، ويحركون المشاعل الملتهبة. لكن ذلك كله لم يُجدِهم شيئًا.. لقد وقع تخريب جديد، ولم يُقبض على المخرّبين ولا قتلوا، فكأنهم حقًا جنّ لا تُرَى.

وفي الليلة التالية هيّأ مأمور الدرك الكمين تهيئة أكمل، ووضع بضعة رجال على الضفّة الأخرَى، حتى إذا هبط الظلام أخفَى عددًا من جنوده في السقالات كلّها من دون استثناء، وتلبّث هو نفسه مع اثنين منهم في قارب سار به إلى الضفة اليسرَى من دون أن يلاحظ أحد ذلك بسبب الظلام. إنّ في وسعه هناك أن يصل ببضع حركات من المجداف إلى هذا أو ذاك من العمودين اللذين بُدئ بناؤهما، وأصبح في وسعه بذلك، كالطيور المنقضّة، أن يهجم على المخرّب من الجهتين، فما يستطيع أن يهرب، إلاّ إذا كان مخلوقًا يطير أو يغوص تحت الماء.

قضَى مأمور الدرك الليل الطويل البارد كله، مضطجعًا في القارب مغطًّى بجلود الخراف، تعذبه الأفكار السوداء الحالكة، ويضطرب في رأسه هذا السؤال بغير انقطاع: هل ينفذ عابد آغا وعيده حقًا، فينتزع منه الحياة التي لم تكن مع هذا الرئيس بالحياة على كلّ حال، وإنما كانت خوفًا وعذابًا فحسب؟ وفي أثناء ذلك ما من نأمة كانت تسمع على طول البناء، إلاّ هدير المياه التي لا تُرَى، وخريرها الرتيب. كذلك أخذ النهار يطلع، ومأمور الدرك يشعر بأنّ جسمه المقرور المخدور تظلم حياته وتقصر.

وجرت الليلة التالية، وهي الثالثة والأخيرة، كما جرت التي قبلها: السهرة نفسها، استعدادات الرجال نفسها، الانتباه الخائف نفسه. وانتصف الليل. وأحسّ

مأمور الدرك بخدر قاتل يستولي عليه شيئًا بعد شيء. وفي هذه اللحظة سمع اصطخاب خفيف، ثم سمعت ضربة قوية صمّاء تنزل على عوارض السنديان المغروزة في النهر والتي تقوم عليها السقالات. وانطلق من تلك الناحية صوت صفارة حاد. وتحرّك قارب مأمور الدرك. إنه واقف الآن على القارب يحملق في الظلام، ويحرّك يديه، ويصيح بصوت أجشّ: «جدّفوا، جدّفوا بكلّ ما أوتيتم من قوّة».

إنّ الرجال يجدّفون بقوة وقد تيقّظوا نصف تيقّظ، إلاّ أنّ تيارًا قويًا هاجمهم قبل الأوان، فإذا هم يسيرون في اتّجاه الماء، بدلاً من أن يحاذوا السقالات. ولولا أنّ شيئًا قد أوقفهم على نحوٍ لم يكن في الحسبان، لمَا استطاعوا أن يتخلّصوا من التيار، ولانجرفوا معه إلى مكان بعيد.

فهناك، في وسط الدردور، اصطدم قاربهم بشيء ثقيل من خشب، فدوّى دويًا أصمّ، وأوقفهم عن المسير، فلاحظوا عندئذ أنّ الدرك، في أعلَى السقالات قد انقضّوا على شخص فأمسكوا به من عنقه وراحوا يقولون بصوت واحد (إنّ هؤلاء الدرك جميعًا رجال من مناطقنا اعتنقوا الإسلام فكانت صرخاتهم المتقطعة التي لا تُفهم تتصالب في الظلام وتتصادم):

- أمسك به، لا تتركه.

- كاخريمان، تعالَ إلى هنا.

- ها أنذا..

وفيما كانت هذه الأصوات تتعالَى سمع سقوط جسم ثقيل أو جسم إنسان في الماء. فظلّ مأمور الدرك حائرًا مضطربًا خلال بضع لحظات، لا يعرف أين وقف ولا ماذا يجري، حتى إذا استرد شيئًا من صوابه بعد حين، تناول عصا طويلة، فاسندها إلى الأوتاد التي اصطدم بها في الماء، وضغط، فتحرّك القارب في اتجاه مخالف لاتجاه الماء، وما زال يضغط حتى قارب السقالة. إنه الآن عند أوتاد السنديان، فصرخ، متشجّعًا، بأعلَى صوته.

- المشعل، أوقدوا المشعل.. أعطوني حبلاً.

ولم يجبه أحد في أول الأمر. ولكن بعد نداءات متبادلة كثيرة لم يستطع أحد خلالها أن يصغي إلى جاره أو يفهم منه شيئاً، أُوقد في الأعلى مشعل صغير متأرجح خائف، فما كان من هذا الضوء الأول إلاّ أن زاد رجال الدرك اضطرابًا

في الرؤية، وزجّ الرجال والأشياء كلها في زوبعة واحدة: هم وظلالهم وما ينعكس في الماء من أضواء حمراء. إلاّ أنّ مشعلاً جديدًا لم يلبث أن أوقد في يدٍ أخرَى. فاستقرّ الضوء عندئذ، وبدأ الرجال يستردّون هدوءهم وبدأوا يعرفون بعضهم بعضًا. وسرعان ما اتّضح عندئذ كلّ شيء وفُهم.

بين قارب مأمور الدرك والسقالات، كان هنالك طوف مصنوع من ثلاث عوارض، ومجداف حقيقي مما يستعمله ربّان زورق، لا يكاد يقل طولاً ولا قوّة عن الطوف. وكان الطوف مشدودًا بحبل من قشر أشجار البندق إلى أحد أوتاد السنديان تحت السقالات، فكان بذلك يحافظ على مكانه مغالبًا التيار السريع الذي يلطخه بالطين ويجرّه بكلّ قواه إلى تحت. وساعد رجال الدرك رئيسهم في اجتياز الطوف والتسلّق إليهم. كانوا جميعًا يلهثون وقد ظهرت في وجوههم الشراسة. وعلى ألواح الخشب كان يرقد فلاح مسيحي مربّط بالحبال. كان صدره يرتفع ويهبط بسرعة وقوة. وقد خرجت عيناه الجاحظتان من محجريهما وظهر بياضهما المذعور.

وأخذ واحد من رجال الدرك الأربعة، وهو أكبرهم سنًا، يشرح للمأمور ما حدث، وقد بلغ به الاضطراب كلّ مبلغ. قال إنهم كانوا يترقّبون مختبئين في مواضع شتّى من السقالات، فلمّا سمعوا في الظلام صوت مجداف، قدّروا أنّ هذا قارب المأمور، لكنهم كانوا من الحكمة والتبصّر بحيث لم يُظهِروا أنهم هناك، بل ظلوا ينتظرون ما قد يقع. وعندئذ رأَوْا رجلين من الفلاحين يقاربان الأوتاد ويشدان الطوف إلى أحدهما في عناء. وتركوهما يتسلّقان، حتى إذا نفذا في السقالات وصارا بينهم هاجموهما بالفؤوس وضربوهما وربطوهما بالحبال. وكان أحدهما قد أُغمي عليه بسبب ضربة أصابته في رأسه، فأمكن شدّ وثاقه بسهولة، أمّا الثاني الذي تظاهر في أول الأمر بأنه شبه ميت، فإنه انزلق من بين أيديهم كسمكة، وتسلل بين ألواح الخشب إلى الماء.

قال الدركي ذلك، ثم توقّف عن الكلام مذعورًا، وأخذ المأمور يعوي:

من الذي تركه يهرب؟.. قولوا مَن الذي تركه يتسلل.. لسوف أمزّقكم جميعًا إرْبًا إرْبًا.

فصمت الرجال ولم ينطقوا بكلمة، بينما أخذت عيونهم تطرف في الضوء الأحمر المهتزّ. وراح المأمور يدور حول نفسه، كأنه يبحث عن المختفي في

الظلام، وهو يكيل لهم الشتائم بغير انقطاع، ويوجه إليهم من السباب صارخًا بما لم يوجّه إليهم مثله طول النهار. لكنه انتفض فجأة، ومال على الفلاح الموثق كما يميل على كنز ثمين، وقال بصوت ضعيف كأنه يخرج من بين الأسنان، قال وهو يرتعش:

- احرسوا هذا، احرسوه جيدًا، آه منكم يا أولاد القحبة.. لسوف أقطع رؤوسكم إذا تركتموه يفلت.

فأقبل رجال الدرك على الفلاح يضطربون حوله، وهرع اثنان آخران من الضفة عبر السقالات. إنّ المأمور يصدر أوامره، ويحضّ رجاله على شدّ وثاق الفلاح بمزيد من القوة والإحكام. وهكذا نقلوه في رفق وعلى حذر إلى الشاطئ جثة هامدة. وتبعهم المأمور لا يعرف أين يضع قدمه، ولا يحيد ببصره عن الرجل الموثق، فكان كلما خطا خطوة أحس أنه يكبر، وأنه بدأ يحيا الآن فحسب.

وأخذت مشاعل أخرى توقد على الشاطئ وتتحرّك وتنطفئ ثم تشتعل من جديد. ونقل الفلاح المقبوض عليه إلى خصّ من خصاص العمال قد أوقدت فيه النار، وشدّ إلى وتد بحبال وسلاسل.

إنه راديسلاف الأونيشتي نفسه!

وهدأ المأمور قليلاً، وانقطع عن الصهيل وحلف الأيمان، لكنه كان لا يستطيع أن يستقر في مكان. كان يرسل الدرك إلى الضفة السفلَى من النهر يبحثون عن ذلك الفلاح الآخر الذي وثب إلى الماء، رغم أنه كان واضحًا أنّ الوصول إليه والقبض عليه، إذا كان لم يغرق، أمر لا يستطيعه أحد في ليلة حالكة الظلام كهذه الليلة. وكان يصدر أوامر أخرَى أيضًا، ويدخل ويخرج ثم يعود وقد سكر من فرط الانفعال. حتى لقد بدأ يستنطق الفلاح الموثق، غير أنه ما لبث أن عدل عن ذلك. والحقّ أنّ كلّ ما كان يفعله إنما كان الهدف منه أن يسيطر على نفسه وأن يخفي قلقه، ذلك أنّ رأسه كان خاليًا في واقع الأمر إلاّ من فكرة واحدة: إنه ينتظر عابد آغا.

ولم يطُل انتظاره.

ذلك أنّ عابد آغا، بعد أن غفا غفوته الأولَى، استيقظ عند منتصف الليل فورًا، على عادته، فلمّا لم يستطع العودة للنوم، وقف قرب النافذة ينظر في الظلام. إنه من شُرفته على البيكافاتس، يستطيع أن يطلّ في النهار على وادي نهر

درينا، وأن يشاهد البناء كلّه، وأن يرَى الأكواخ الصغيرة والطواحين والزرائب وكل تلك المساحة المخربة المكتظة حول البناء. إنه الآن في الظلام يتصوّر هذا كلّه وقد امتلأت نفسه مرارة، ويفكر قائلاً لنفسه إنّ الأعمال تجري في بطء وصعوبة، وأنّ هذا سيصل يومًا إلى مسامع الوزير لا محالة، فلا شكّ أنّ أحدًا من الناس سينقل أنباء ذلك كله إلى الوزير: سينقلها طوسون أفندي على الأقل، هذا الشخص البارد العاطفة، المرائي، ذو الوجه الأجرد. فإذا وقع شيء من هذا، كان يمكن أن يفقد حظوته عند الوزير. وذلك بعينه ما كان يحرمه من النوم، ويجعله يرتعد خوفًا أثناء النوم إذا نام. كان إذا تصوّر أنّ الوزير سيغضب عليه عافت نفسه الطعام كأنه سمّ، ونَفَرَ من الناس مشمئزًا، وبدت له الحياة كريهة لا تطاق. كان يتخيّل معنى افتقاده الحظوة عند الوزير قائلاً لنفسه: سوف تبعد عندئذ عن الوزير، وسوف يسخر أعداؤك منك (آ.. كل شيء إلاّ هذا)، ولن تكون يومئذ شيئًا يُذكَر... لن تكون إلاّ خرقة بالية.. ستكون منبوذًا بائسًا، لا في نظر غيرك فحسب، بل في نظر نفسك أيضًا.. معنى ذلك أنك ستفقد هذه الثروة التي حصّلتها في كثير من العناء، أو أنك إذا احتفظت بها ستمضي تتبلّغ بها خفية، بعيدًا عن استانبول، في مكان ما بالمنفَى، في إقليم من الأقاليم، منسيًا، زائدًا، مضحكًا، بائسًا.. لا.. لا. كلّ شيء إلاّ هذا.. خير من ذلك ألّا ترَى عيناي الشمس بعد اليوم، وألّا أتنفّس بعد الآن هواء الصباح.. خير من ذلك مائة مرّة ألّا أبقَى إنسانًا وألّا أملك شيئًا على الإطلاق.. هذه هي الفكرة التي كانت تراوده بغير انقطاع، وتدفع دمه إلى رأسه يدقّ منه الصدغين والذروة دقًا موجعًا عدّة مرات كل يوم، ولا تختفي من نفسه اختفاءً كاملاً في لحظة من اللحظات، وإنما تظل ثاوية فيها كثقل أسود. ذلك هو معنَى فقد الحظوة.. وإنّ فقد الحظوة هذه ليمكن أن يقع في كل يوم وفي كل ساعة.. لأنّ كل الأمور تتعاون للوصول إلى ذلك.. وهو وحده يناضل دون ذلك، ويحمي نفسه: إنه وحيد يصارع جميع الناس ويصارع كل شيء منذ خمسة عشر عامًا، منذ أن استطاع أن يكون له اعتبار، وأن يكون له تأثير، منذ أصبح الوزير يعهد إليه بأعمال كبيرة ذات شأن. ومن ذا الذي يستطيع أن يحتمل هذا القلق كله وهذا الخوف كله؟ من ذا الذي يستطيع أن ينام وأن يحافظ على هدوئه في مثل هذه الأحوال؟

وفتح عابد آغا النافذة ونظر في الظلام، رغم أنّ الليلة من ليالي الخريف

الباردة الرطبة، ذلك أنه كان يحسّ بالاختناق في هذه المساحة المغلقة المحبوسة. فلاحظ عندئذ أنّ أنوارًا تشتعل وتتحرّك على السقالات وعلى طول الشاطئ. فلمّا رأى المشاعل تزداد وتكثر شيئًا بعد شيء، قدّر أنّ أمرًا غير مألوف قد وقع: فارتدَى ثيابه، وأيقظ خادمه، ووصل إلى الزريبة المضاءة في تلك اللحظة التي كان قائد الدرك فيها أصبح لا يعرف كيف يشتُمُ، ولا لمن يصدر أوامره، ولا يدري ماذا يعمل اختصارًا للوقت.

فلمّا وصل عابد آغا هذا الوصول الذي لم يكن في الحسبان أوقعه ذلك في اضطراب كامل. كان قد تمنّى هذه اللحظة بصبر فارغ، حتى إذا وافت لم يعرف كيف يستثمرها على نحو ما تخيّل ذلك، بل أخذ يتمتم مضطربًا أشد الاضطراب، ناسيًا الفلاح المثقل بالسلاسل، فلم يزد عابد آغا على أن نظر إليه باحتقار من أعلَى رأسه، ثم اتّجه رأسًا نحو السجين.

وأُسعِرت النار في الزريبة، فازدادت توهّجًا، حتى أصبح أبعد ركنٍ في الحجرة مضاءً، واستمرّ رجال الدرك يزيدون في إشعال النار بإلقاء مزيد من الحطب.

وقف عابد آغا أمام الفلاح الموثق، إنه أطول كثيرًا منه. وقف هادئًا يفكّر. كان الرجال جميعًا ينتظرون أن يتكلّم، لكنه كان يتأمل: أهذا هو الرجل الذي عليّ أن أصطرع معه وأن أقيس نفسي به؟ أهذا هوالرجل الذي يتوقف عليه مركزي ويتوقف عليه مصيري؟ أعلى هذين الرجلين كانت تتوقف حياتي: مأمور الدرك الغبيّ الحقير، وهذه القملة الخبيثة المتصلبة العنيدة المغلقة؟ وارتعش عابد آغا فجأة وأخذ يصدر أوامره ويسأل الفلاح.

وامتلأت الزريبة برجال الدرك. وكانت تسمع في الخارج أصوات المراقبين والعمال الذين استيقظوا من نومهم. إنّ عابد آغا يطرح أسئلته على السجين عن طريق ترجمان هو مأمور الدرك.

قال راديسلاف في أول الأمر إنه كان قد قرر الهرب من رفاقه، وأنهما نزلا إلى الماء لهذا الغرض بعد أن صنعا طوفًا صغيرًا. فلمّا أظهروا له أنّ قوله هذا لا يصدّق، لأنّ المرء لا ينزل في مثل هذه الليلة الحالكة الظلام إلى نهر يعجّ بالأمواج والصخور والرمال- كما أنّ الذين يريدون أن يهربوا لا يتسلقون السقالات ولا يخربون الأعمال- صمت ولم يزد على أنْ قال بلهجة متكبّرة:

- كلّ شيء بين أيديكم.. فاصنعوا ما تشاؤون.

فأجابه عابد آغا بقوة:

- نعم، سترى الآن ماذا نشاء.

ونزع رجال الدرك سلاسله، وكشفوا عن صدره، وألْقَوْا بالسلاسل إلى النار الحامية وانتظروا، وكانت السلاسل ملطّخة بالسناج فاتّسخت بها أيديهم جميعًا، كما تركت آثارًا سوداء في كلّ موضع من جسد الفلاح الذي كان شبه عارٍ، حتى إذا صارت السلاسل حمراءَ أو كادت، اقترب مرجان الغجري، فشدّها من أحد طرفيها بملاقط طويلة، بينما أمسك أحد رجال الدرك بطرفها الآخر على ذلك النحو نفسه.

وترجم قائد الدرك كلمات عابد آغا:

- هيا قل لنا الآن حقيقة الأمر.

- ما عساي أقول لكم؟ إنكم تستطيعون كل شيء وتعرفون كل شيء.

فقرّب الرجلان السلاسل، وأحاطا بها صدره العريض المزغبر، فتقبض فم الفلاح، واحتقنت شرايين عنقه، وبرزت أضلاعه في جنبيه، وأخذت عضلات بطنه تتشنّج، ثم تسترخي، كما يحدث عند التقيؤ. إنه يئنّ من شدّة الألم، ويشدّ الحبال التي تربطه، ويضطرب في غير طائل، محاولاً أن يخفف الْتصاق جسمه بالحديد المحرق، وكانت عيانه تطرفان، وكانت دموع تسيل على خديه.

وأبعدت السلاسل.

- ليس هذا إلاّ بداية، أما كان الأفضل أن تتكلّم من دون ذلك؟

فنفخ الفلاح نفخة قوية من أنفه، لكنه ظلّ ملتزمًا الصمت.

- قل لنا من كان معك؟

- اسمه جان، لكنني لا أعرف بيته ولا قريته.

وقربت السلاسل مرة أخرَى، فتشنج الشعر والجلد المحترقان، ودخل الدخان في أنف الرجل فعطس ثم أخذ يتكلّم على نحوٍ متقطّع وقد تقبّض جسمه من الألم.

كلّ ما فُهم منه أنّ الرجلين اتفقا على أن يُحدثا تخريبًا في الجسر: قدّرا أنّ هذا هو ما يجب عليهما أن يفعلاه ففعلاه، وما من أحد يعرف شيئًا عن ذلك، وما من أحد شارك فيه، وكانا في أول الأمر يأتيان من الضفة، وقد وصلا إلى

مواضع مختلفة، فأحدثا فيها ما أحدثاه من تخريب، حتى إذا لاحظا أنّ في السقالات وعلى طول الضفّة حرسًا خطر ببالهما أن يربطا ثلاثة ألواح من الخشب بعضها ببعض، وأن يصنعا من ذلك طوفًا فيمضيا عليه إلى البناء من النهر دون أن يراهما أحد، حدث ذلك منذ ثلاثة أيام، وأوشكا أن يقبض عليهما منذ الليلة الأولَى، لكنهما استطاعا الإفلات، لذلك لم يخرجا في الليلة التي بعدها، ثم ركبا الطوف في هذه الليلة مرة أخرَى فحدث ما حدث.

- هذا كل شيء. هكذا جرت الأمور، هذا ما عملناه، فاصنعوا الآن ما تشاؤون.

- لا. ليس هذا ما نريد أن نعرفه. قل لنا من دفعك إلى هذا العمل.. إنّ التعذيب الذي أنزلناه بك حتى الآن ليس شيئًا إذا قيس بالتعذيب الذي سوف ننزله بعد الآن.

- افعلوا ما تشاؤون.

عندئذ اقترب الحداد مرجان بملاقطه، وركع قرب الرجل الموثق، وأخذ ينتزع أظافره من قدميه العاريتين. وظلّ الفلاح صامتًا لا يقول شيئًا، وإنما يكزّ على أسنانه. غير أنّ ارتعاشًا غريبًا كان يهزّ جسمه - وهو في وثاقه- حتى الخصر، فيدلّ على أنّ الألم لا بدّ أن يكون رهيبًا خارقًا. وانطلقت من بين أسنان الفلاح دمدمة غامضة في لحظة من اللحظات. وكان مأمور الدرك يرقب كلماته وحركاته وينتظر في كثير من النهم أن يلتقط منه أيّ اعتراف، فأومأ بيده إلى الغجري أن توقّف، ووثب يسأل الفلاح:

- نعم؟ ماذا تقول؟

- لا شيء.. لماذا تعذبونني هذا التعذيب فتضيعون وقتكم في غير طائل؟

- قل من دفعك إلى هذا؟ من حضّك عليه؟

- مَن حضّني عليه؟ الشيطان..

- الشيطان؟

- الشيطان. هو الشيطان حتمًا.. ذلك الشيطان نفسه الذي حضّكم على المجيء إلى هنا وعلى بناء الجسر.

كان الفلاح يتكلّم في هدوء ورفق، ولكن بعزم ووضوح.

الشيطان.. كلمة غريبة تقال بمثل هذه المرارة في ظرف عجيب كهذا الظرف..

الشيطان.. قال مأمور الدرك لنفسه: لا شكّ أنّ هاهنا شيطانًا..

وكان قد انتصب واقفًا وخفض رأسه، كأن الآية قد انقلبت فأصبح السجين سائلاً وهو عليه أن يجيب. لقد مسّت هذه الكلمة وترًا حساسًا في نفسه، وأيقظت في قلبه، على حين فجأة، كل ما يغفو فيه من ضروب القلق والخوف القوية الكبيرة فكأن القبض على المجرم لم يحرره منها.. نعم.. ربما كان هذا كله من صنع الشيطان.. الشيطان.. الشيطان هو الكائن الوحيد الذي ينبغي أن نخشاه.. وارتعدت فرائص مأمور الدرك ومال إلى الوراء، وفي تلك اللحظة نفسها أيقظه صوت عابد آغا قويًا حانقًا، فانتفض. زأر عابد آغا يقول، وهو يضرب بسوطه الجلدي القصير ساق جزمته اليمنَى:

- هيه؟ ماذا؟ أأنت نائم أيها الحقير؟

وظل الغجري راكعًا يمسك الملاقط بيده، وينظر إلى قامة عابد آغا الطويلة بعينيه السوداوين المتّقدتين نظرة مذلّة وخوف، وأذكَى رجال الدرك النار التي كانت ألْسنة لهيبها تتصاعد عالية من قبل أن تذكَى، فأضيء المكان كله، وشاع فيه الدفء، وأصبح منظره مهيبًا. إنّ هذا المكان الذي كان قد لفه الليل مبنى فقير حقير، يكبر الآن فجأة ويتّسع ويتبدّل. إنّ اضطرابًا رهيبًا وصمتًا جليلاً يرينان الآن في الزريبة وحولها، كما يحدث ذلك في كلّ مكان تستخرج فيه الحقيقة. أو يعذب فيه إنسان حيّ أو يحوم فيه قضاء. إنّ عابد آغا ومأمور الدرك والسجين يتحركون ويتكلّمون كالممثلين، والآخرون يسيرون على رؤوس الأصابع، خافضي الأبصار، لا يقولون إلاّ الضروري، يقولونه بصوت خافت. إنّ كل واحد منهم يتمنّى لو كان في غير هذا المكان، غريبًا عن هذا الموضوع كلّه، أما وأنّ ذلك مستحيل، فليخفضوا أصواتهم وليقللوا حركاتهم ما استطاعوا تقليلها، كأنما ليبتعدوا بذلك عن هذه القضية بعض الابتعاد على الأقل.

فلمّا رأى عابد آغا أنّ التحقيق يجري بطيئًا ولا يبشّر بالوصول إلى نتيجة، خرج من الزريبة بحركة من عيل صبره، وأطلق من فمه سيلاً من الشتائم، وخرج وراءه المأمور متبخترًا، وتبعهما رجال الدرك.

كان النهار يطلع. إنّ الشمس لم تشرق بعد، لكن الأفق كله كان مضيئًا. وبين الروابي يرى المرء سحابات تنتشر لفائف طويلة بلون البنفسج القاتم. وبين السحابات سماء صافية رائقة تكاد تكون خضراء. وعلى الأرض الرطبة تتمدد

غمائم من الضباب المنخفض تخرج من بينها رؤوس الأشجار المثمرة مع أوراقها المشتتة المصفرّة. إنّ عابد آغا يصدر أوامره وهو لا يزال يضرب بسوطه الصغير ساق جزمته. يجب الاستمرار في التحقيق مع المجرم، وخاصة ما يتصل بشركائه، ولكن يجب ألا يتجاوز تعذيبه الحدود، فقد يموت، ويجب أن يعد كل شيء ليرفع على الخازوق حيًا في ظهر ذلك اليوم نفسه، ويجب أن يتم رفعه على الخازوق في أعلى موضع من السقالات حتى تراه المدينة كلها، وحتى يراه جميع العمال على ضفتي النهر. يجب أن يهيئ مرجان كل شيء، وأن يمضي المنادي يعلن في جميع أحياء المدينة أنّ في وسع الناس أن ترَى على الجسر عند الظهر كيف تكون نهاية أولئك الذين يخربون البناء، ويجب أن يجتمع هنالك جميع الذكور من السكان، أتراكًا ونصارَى، أطفالاً وشيوخًا.

إنّ النهار الذي يطلع هو نهار يوم الأحد، وفي يوم الأحد يعمل العمال كما يعملون في سائر أيام الأسبوع، ولكن المراقبين أنفسهم كانوا في ذلك اليوم ذاهلين. فما أن طلع الصباح حقًا، حتى انتشر نبأ إلقاء القبض على المجرم، وأنه عذّب وأنه سيُعدم عند الظهر. فإذا الحالة الروحية التي كانت تخيّم في الزريبة، وهي حالة من تحفظ وتهيّب، تنتشر في المكان الواسع الذي يحيط بالبناء. إنّ العمال المسخّرين يعملون الآن صامتين، ويتحاشَون أن ينظر بعضهم إلى بعض. ويحدق كلّ منهم في العمل الذي أمامه كأنّ هذا اليوم هو بداية العمل ونهايته.

وما إن أزفت الساعة الحادية عشرة حتى كان سكان المدينة ومعظمهم من الأتراك، قد تجمّعوا على السفح قرب الجسر، وتسلّق الأطفال على كتل الصخر الكبيرة التي كانت هناك مُعَدّة لأن تُنْحت. والعمال يضطربون حول ألواح طويلة من الخشب الضيق، حيث توزّع عليهم كرات من الخبز لتسدّ رمقهم. إنهم ينظرون في ما حولهم صامتين مذعورين، وهم يمضغون طعامهم. ظهر عابد آغا يرافقه طوسون أفندي، ومعلم العمارة أنطوان، وعدد من وجهاء الأتراك. وقفوا جميعًا في مكان مرتفع جافّ بين الجسر والزريبة التي كان فيها السجين المحكوم عليه بالإعدام. ومضى عابد آغا مرة أخرَى إلى الزريبة، فأبلغوه هناك أنه قد تمّ إعداد كلّ شيء: كان هنالك خازوق من السنديان، يبلغ طوله نحو أربع أرشينات[1]،

(1) الأرشينة مقياس تركي يساوي طوله 66 سم (المترجم).

حاد كما ينبغي أن يكون، قد أُلْبست ذروته بالحديد، نحيل ضامر مدهون بالشحم. وعلى السقالات سمّرت أوتاد، بينها سيثبّت الخازوق ويحصر، وكان ثمة مطرقة من خشب، لدقّ الخازوق وغرزه، وكان ثمّة حبال وكل الأشياء الأخرَى التي يُحتاج إليها.

كان المأمور مضطربًا، وأصبح بلون التراب، واصطبغت عيناه بحمرة. إنه حتى في هذه اللحظة لا يطيق النظرة الملتهبة التي يرشقه بها عابد آغا.

- اسمع جيدًا.. إذا لم يتمّ كلّ شيء كما ينبغي أن يتمّ، إذا جعلتني أضحوكة أمام الناس، فلا تظهرن أمامي بعد الآن، لا أنت ولا الغجري، هذه البعرة من بعر الماعز.. سأغرقكما في نهر درينا إغراق الكلاب العمياء.

قال عابد آغا ذلك، ثم الْتفت إلى الغجري الذي كان يرتعش، فأضاف يقول له بصوت ليّن:

- هذه ستّة دنانير كأجرٍ لك، فإن بقي حيًا إلى المساء نقدتك ستّة أخرَى، فانتبه.

ومن على مئذنة الجامع الرئيسي في مركز المدينة، دوّى صوت الخجا حادًا واضحًا، فانتشر القلق في صفوف الناس المجتمعين، وما هي إلاّ لحظة حتى فتح باب الزريبة، واصطفّ عشرة من رجال الدرك صفّين يضم كلّ منهما خمسة، وبينهم راديسلاف، عاري الرأس. ها هو ذا يتقدم سريعًا منحنيًا على عادته، لكنه لا يباعد ساقيه. يمشي بخطًى قصيرة، مشيًا غريبًا، يكاد يقفز بساقيه الجريحتين قفزًا، والدم يخرج من حفر في أصابع قدميه محلّ الأظافر، وهو يحمل على كتفيه خازوقًا طويلاً أبيض حادًا. ووراءه يسير مرجان، وغجريان آخران سيساعدانه في تنفيذ الحكم. وفجأة ظهر المأمور (لا يدري أحد من أين نبع) ممتطيًا صهوة حصانه الأحمر الضارب إلى سمرة، وسار في طليعة هذا الموكب الذي كان عليه أن يقطع مائة خطوة حتى يصل إلى أولَى السقالات.

مدّ الناس أعناقهم، ونهضوا على رؤوس أصابعهم ليرَوا الرجل الذي دبّر المؤامرة ونظّم المقاومة وأحدث تخريبًا في البناء. فما كان أشدّ دهشتهم حين رأوْا المظهر البائس التافه لهذا الرجل كانوا يتخيلونه على صورة أخرَى. ما من أحد منهم كان يعرف لماذا يتواثب الرجل هذا التواثب المضحك، ولماذا يسير هذا السير المتقطع. فما من أحد منهم كان يرَى تلك الحروق التي أحدثتها

السلاسل في جسمه، فنفذت في صدره كأحزمة كبيرة، وغطيت الآن بقميصه وفروته المصنوعة من جلد الخروف. لذلك بدا لهم جميعًا أبأس وأتفه من أن يقوم بتلك المأثرة التي تقوده الآن إلى الموت. وكان الخازوق الأبيض وحده يضفي على المشهد روعة مشؤومة، ويلفت إليه جميع الأنظار.

لمّا وصلوا إلى المكان الذي تبدأ عنده أعمال ركم الأرض، نزل المأمور عن حصانه، وأسلم خادمه اللجام بحركة متعاظمة مسرحية، ثم اختفَى بين الآخرين في الطريق الموحل المنحدر الذي يهبط نحو الماء. وبعد قليل، أصبح في وسع الناس أن يروهم مرّة أخرَى يظهرون على ذلك النظام نفسه فوق السقالات، ويصعدون في بطء وحذر. وعلى الممرات الضيقة المصنوعة من أوتاد وألواح، كان رجال الدرك يحيطون براديسلاف إحاطة تامّة، ويحاصرونه محاصرة كاملة، حتى لا يقذف بنفسه إلى النهر. كانوا يسيرون على هذا النحو سيرًا بطيئًا، وما زالوا يصعدون حتى وصلوا أخيرًا إلى القمة. وهناك كانت تمتد فوق الماء فسحة من ألواح الخشب بحجم غرفة متوسطة، فعلَى هذا المكان، فوق مسرح مرتفع، وقف راديسلاف، والمأمور، والغجر الثلاثة، بينما ظل رجال الدرك الآخرون مبعثرين حوله خلال السقالات.

كان الناس يتحركون على السفح ويبدلون أمكنتهم. إنّ مائة خطوة تفصلهم عن هذه الألواح، ففي وسعهم إذاً أن يروا كل شخص وكل حركة، لكنهم لا يستطيعون أن يسمعوا الكلام ولا أن يميزوا التفاصيل. وكان الجمهور والعمال على الضفة اليسرَى أبعد من ذلك عن المسرح ثلاث مرات، وكانوا يتحركون ما استطاعوا إلى الحركة سبيلاً، ويبذلون مزيدًا من الجهد ليرهفوا السمع وينعموا النظر. غير أنهم كانوا لا يستطيعون أن يسمعوا شيئًا: حتى أن ما كانوا يرونه بدا في أول الأمر تافهًا لا يشوق، لكن المشهد بلغ من الفظاعة في النهاية أنهم أشاحوا بوجوههم جميعًا، وهرع كثير منهم يعودون إلى بيوتهم نادمين على أنهم جاؤوا.

حين أُمِرَ راديسلاف بأن يستلقي، تردد لحظة في أول الأمر، لكنه لم يلبث أن تقدّم من المأمور من دون أن ينظر إلى الغجر ومن دون أن ينظر إلى الدرك، كأنهم لا وجود لهم، تقدم من المأمور فيما يشبه المسارة، كأنه واحد من ذويه، وقال له بصوت خافت أصمّ:

- اسمع، أستحلفك بحياتك وآخرتك أن تقدم لي هذا المعروف: اخرقني بحيث لا أتألم ككلب.

فانتفض المأمور، وصرخ في وجهه كأنما ليدفع عن نفسه هذه المحادثة المسرفة في المسارة:

- امشِ أيها المجرم.. أأنت، يا أيها الشجاع الذي يخرب بناء السلطان، تأتي فتتضرّع كامرأة.. سوف يتم كلّ شيء كما أمرنا وكما استحققت..

فزاد راديسلاف خفض رأسه، بيْنما اقترب الغجريان منه، وأخذا ينضوان عنه فروته وقميصه. وظهرت في صدره الجروح التي أحدثتها السلاسل، حمراء متورمة. فلم يزد الفلاح على ما قاله شيئًا، بل رقد كما أُمِر، متوجّهًا بوجهه إلى الأرض. فتقدم الغجريان وشدّا يديه إلى ظهره أولاً، ثم ربطا كلّ ساقٍ من ساقيه بحبل، وأخذ كلّ منهما يشدّ الحبل إلى جهته، فتباعد ساقاه تباعدًا كبيرًا، بينما كان مرجان يضع الخازوق على قطعتين صغيرتين من الخشب بحيث يصبح رأس الخازوق بين ساقي الفلاح. وبعد ذلك أخرج مرجان من جيبه سكينًا عريضة قصيرة، وركع قرب الرجل المتمدد، ومال عليه ليقطع قماش سرواله بين الفخذين، وليوسع الفتحة التي سينفذ منها الخازوق إلى الجسم. ومن حسن الحظ أنّ هذا الجزء الرهيب من عمل الجلاد لم يستطع أن يراه المتفرجون. وإنما رأوا الجسم الموثق يرتعش تحت الطعنة السريعة القصيرة، ويرتفع بعض الارتفاع كأنه يريد أن ينهض، لكنه ما لبث أن سقط فجأة، فطرق الألواح طرقًا أصمّ. حتى إذا فرغ الغجري من عمله هذا، نهض واثبًا، فتناول مطرقة الخشب من الأرض، وأخذ يدقّ بها الطرف الأدنَى المدور من الخازوق طرقًا بطيئًا محسوبًا. وكان يتوقف قليلاً بين كل طرقة وطرقة فينظر أولاً في الجسم الذي ينفذ فيه الخازوق، وينظر ثانيًا إلى الغجريين الآخرين، فيحضهما إلى أن يشدّا الحبلين شدًّا رفيقًا بلا هزّ، وكان جسم الفلاح يتشنّج تشنّجًا غريزيًا وقد تباعدت ساقاه، فكلّما نزلت المطرقة بضربة جديدة، انحنَى عموده الفقري وتقوّس، لكن الحبلين يشدّانه ويعيدانه إلى وضعه.

كان الصمت على الضفتين قد بلغ من العمق أنّ الناس كانوا يسمعون الطرقات ويسمعون صداها يترجع في مكان ما على الضفة الصخرية المنحدرة. وكان أقربهم يستطيعون أن يسمعوا الفلاح وهو يضرب الأرض بجبينه، وأن

يسمعوا صوتًا آخر ليس بالأنين ولا بالنحيب ولا بالحشرجة، ولا هو أيّ صوت من أصوات البشر كائنًا ما كان نوعها. لقد كان يخرج من الجسم المتمدد المعذّب صريرٌ أو صريفٌ كأنه صوت سياج من الأوتاد يقرع بالأرجل، أو كأنه صوت شجرة تنكسر. والغجري يمضي إلى الجسد المتمدد بين كلّ ضربة وأخرَى فيميل عليه، ليرَى هل تقدّم الخازوق في الاتّجاه الصحيح، حتى إذا تأكّد من أنه لم يجرح أيّ عضوٍ من أعضاء الحياة، عاد إلى مكانه يُتِمُّ عمله.

كلّ هذا كان يُسمَع ويُرَى من على الضفّة ضعيفًا، لكنّ الأرجل كلها كانت ترتعد، والوجوه كلها كانت تشحب، والأصابع كلها كانت تتجمّد.

وتوقّفت الضربات خلال لحظة. لقد لاحظ مرجان أنّ مشط الكتف الأيمن قد توتّرت عضلاته وارتفع جلده. فاقترب بسرعة، وأحدث في موضع الانتفاخ شقًا على صورة صليب، فخرج من الجرح دم شاحب، كان قليلاً في أول الأمر، ثم ما انفكّ يتزايد. وما هي إلاّ ضربتان أو ثلاث ضربات خفيفة محاذرة، إذا برأس الخازوق يبدأ في الظهور من الموضع المشقوق. وظلّ مرجان يدقّ بمطرقته إلى أن أصبح رأس الخازوق في مستوَى الأذن اليمنَى علوًا.

لقد أدخل الخازوق في الرجل كما يدخل السيخ في الخروف، لا فرق بين الأمرين إلاّ في أنّ الخازوق لم يخرج من الفم، بل خرج من الظهر، كما أنه لم يُصِب الأمعاء ولا القلب ولا الرئتين بكبير أذًى، وعندئذ رمَى مرجان المطرقة، واقترب، ففحص الجسد الساكن، ودار حول الدم الذي كان يتساقط قطرةً قطرة من موضعي دخول الخازوق وخروجه ويتجمّع بُرَكًا صغيرة على ألواح الخشب. وقلب الغجريان الجسم المتخدّر فصار ظهره على الأرض، وأخذا يربطان الساقين إلى أسفل الخازوق. وفي أثناء ذلك كان مرجان يفحص الرجل ليرَى ألا يزال حيًا، وينعم النظر في هذا الوجه الذي ازداد حجمه على حين فجأة فأصبح أعرض وأكبر.. كانت العينان جاحظتين، قلقتين، غير أنّ الحاجبين لا يزالان ساكنين، وكان الفم فاغرًا، والشفتان متصلّبتين منقبضتين، والأسنان البيضاء ملزوزة. لقد أصبح الرجل لا يستطيع التحكم ببعض عضلات وجهه، لذلك كان وجهه يبدو أشبه بقناع. لكن قلبه لا يزال يخفق خفقانًا أصمّ، ولا تزال تخرج من رئتيه أنفاس قصيرة متسارعة. وأخذ الغجريان ينهضانه كما ينهض خروف في سفود، وكان مرجان يصيح بهما أن انتبها ولا تهزّا الجسم، وساعدهما هو نفسه

في ذلك، فوضعوا الطرف الأسفل الغليظ من الخازوق بين وتدين، وثبتا ذلك كله بمسامير كبيرة، ثم دعماه من الخلف على ذلك المستوَى نفسه بقطعة قصيرة من الخشب سمّروها بالخازوق وبأوتاد السقالات.

فلمّا انتهَى الغجر من مهمّتهم، تراجعوا قليلاً إلى وراء، وانضمّوا إلى رجال الدرك، ولم يبقَ على تلك الفسحة الخالية إلاّ الرجل المخوزق، عاليًا مقدار ذراعين، منتصبًا، بارز الصدر عاريه إلى الحزام. وكان الرائي يستطيع من بعيد أن يرَى الخازوق داخلاً في جسمه، وقد ربطت به ساقاه، بينما شُدّت يداه إلى الظهر. لذلك كان يبدو للناس أشبه بتمثال محلّق في الهواء، على ظهر السقالات، فوق قمة عالية مطلّة على النهر..

وتراكضت دمدمات على الضفتين، وماجت في صفوف الجمهور حركة مضطربة. بعض الناس خفض بصره، وبعضهم أسرع يعود إلى بيته من دون أن يلتفت. وأكثرهم ظلّ ينظر، من دون أن ينطق بكلمة واحدة، إلى هذه القامة الإنسانية، المعروضة في الفضاء وقد تصلّبت وانتصبت على نحوٍ غير طبيعي. لقد جمّد الذعر أحشاءهم وسيقانهم تترنح تحتهم، لكنهم لم يستطيعوا أن ينتزعوا أنفسهم من هذا المشهد، ولا أن يحوّلوا عنه أبصارهم.

وبين هذا الجمع المذعور تسللت إيلينكا المجنونة، تنظر في عيني كلّ واحد، وتطيل النظر فيهما، عسَى أن تستدِلّ بهما على المكان الذي قُتل فيه ابناها ودُفنا.

واقترب المأمور ومرجان واثنان من رجال الدرك، من الرجل مرة أخرَى، وأخذوا يفحصونه عن كثب. كان يسيل على الخازوق خيط نحيل من دم. أمّا الرجل فلا يزال حيًا، ولم يُغمَ عليه: جنباه يرتفعان ويهبطان، وشرايينه تخفق على رقبته، وعيناه تستديران ببطء لكنهما لا تثبتان، ومن بين أسنانه الملزوزة تخرج دمدمة يميز سامعها في شيء من العناء كلمات متقطعة:

- أتراك.. أتراك.. أتراك على الجسر.. افطسوا كالكلاب.. موتوا كالكلاب..

كذلك كان يئن الرجل وهو في أعلَى الخازوق..

وجمع الغجر أدواتهم، وهبطوا نحو الشاطئ على السقالات. ونزل في الوقت نفسه الدرك ورئيسهم.. فتراجع الناس أمامهم وأخذوا يتفرقون، ولم يبقَ هناك إلاّ الصبية الصغار، حطوا على كتل الصخر أو على الأشجار، ينتظرون شيئًا آخر ولا يدركون أنّ الأمر قد انتهَى، وأنّ كلّ امرئ قد نال جزاءه، ويتساءلون عما

سيحدث لهذا الرجل الغريب الذي يحلّق فوق الماء، كأنما أوقف وهو يهمّ أن يثب إلى النهر.

اقترب المأمور من عابد آغا، وأنبأه أنّ كلّ شيء قد تمّ على ما يرام وانتهَى إلى ما كان يقدّر، وأنّ السجين لا يزال حيًا، وسيظلّ حيًا، لأنّ أعضاءه لم تُمَسّ، فلم يُجب عابد آغا بشيء، حتى ولا بنظرة، وإنما أومأ بيده أن يؤتَى له بحصانه، وأخذ يودّع طوسون أفندي والمعلم أنطوان، وأخذ الناس يتفرّقون، وكان صوت المنادي يعلن في أرجاء المدينة أنّ الحكم قد نُفّذ، ويهدد بعقاب كهذا العقاب، بل بعقاب أشدّ من هذا العقاب، كلّ من تسوّل له نفسه أن يفعل ما فعله الجاني.

وقف المأمور مضطربًا على السفح الذي خلا من الناس فجأة. إنّ خادمه يمسك حصانه من لجامه، ورجاله ينتظرون أوامره. أحَسّ أنّ عليه أن يقول شيئًا لكنه لم يستطع أن ينبس بكلمة، لأنّ انفعالاً قويًا قد نشب في نفسه وملأ جوانب قلبه. ففي هذه اللحظة فقط تذكّر كلّ ما لم يستطع أن يتذكّره قبل ذلك لانصرافه إلى إعداد تنفيذ الحكم.. في هذه اللحظة فقط تذكر تهديد عابد آغا له بأن يخوزقه حيًا إذا هو لم يستطع القبض على الجاني. صحيح أنه نجا من هذه الكارثة، ولكن لم يكن بينه وبينها إلاّ قيد شعرة، وقد نجا منها في آخر لحظة. إنّ ذلك الرجل المنتصب هناك، على السقالة، قد أعمل كل قواه في الليل، خفية، من أجل أن تقع الكارثة عليه هو. ولكن ها هي ذي الآية انعكست. إنّ المأمور هو من بين جميع الناس الشخص الوحيد الذي ينظر إلى الرجل المعلّق موثقًا حيًا فوق النهر، فتملأه هذه النظرة بذعر ساحق وفرح أليم في آنٍ واحد، ذعر يشبّ في نفسه إذ يتصور ما كان يمكن أن يقع له، وفرح يطير بلبّه إذ يرى أنّ النازلة لم تنزل عليه هو، وأنّ جسمه لا يزال بخير وأنه لا يزال يستطيع أن يتحرّك حرًا. كان وهو يتصوّر هذا كلّه يشعر بقرصات جارفة تنتشر قوية عارمة في صدره، وتبلغ ساقيه وذراعيه، وتدفعه إلى أن يحرّك رجليه، وأن يضحك، وأن يتكلّم، كأنما ليقنع نفسه بأن لا يزال في عافية وأنه يستطيع أن يتحرّك طليقًا، وأن يتحدّث وأن يقهقه قهقهة صاخبة، وأن يغني إذا شاء، وألا يدمدم بلعنات عاجزة وهو في أعلَى الخازوق، ينتظر الموت على أنه الحظ السعيد الوحيد الذي يمكن أن يهبط عليه.

إنّ يديه تتحركان على غير إرادة منه، وساقيه تهمّان برقص، وهذا فمه ينفتح

فتخرج منه ضحكة متشنّجة، وتتدفق منه كلمات غزيرة من تلقاء نفسها:

- هأ هأ هأ.. راديسلاف، يا جنّ الجبل، لماذا تصلّبت هذا التصلّب كأنك جثّة؟ لماذا لا تواصل تخريب الجسر؟ لماذا تدمدم وتئن. غنّ يا جنّ.. هيا ارقص.. يا جنّ..

شدّه رجال الدرك واضطربوا حين رأَوْا رئيسهم يرقص مباعدًا ذراعيه، ويغني ويضحك مقهقهًا، ويغص حلقه بكلمات غريبة، بينما يخرج من حافّتي شفتيه زبد أبيض.

وحتى حصانه رشقه، من جهته، بنظرات وجْلَى..

الفصل الرابع

جميع الذين شاهدوا تنفيذ الحكم من على الضفتين نشروا الخبر الفظيع في المدينة والقُرَى التي تجاورها، فاستولَى على نفوس العمال والسكان ذعر لا سبيل إلى وصفه، ورسخت في ضمائر الناس صورة ما جرَى على مقربة منهم في ذلك اليوم القصير من أيام شهر تشرين الثاني، فأصبحت الأحاديث كلها تدور على ذلك الرجل الذي لا يزال حيًا على الخازوق هناك فوق السقالات. لقد آلَى كل واحد على نفسه ألّا يتحدّث عن هذا الرجل، ولكن ما قيمة ذلك، والتفكير يلتفت دائمًا إليه، والأبصار تشخص دائمًا نحوه مغلوبة على أمرها!

إنّ الفلاحين الذين يصلون إلى بانيا واحدًا بعد آخر، حاملين الحجارة على عرباتهم التي تجرّها الأبقار، يخفضون الآن أعينهم ويستحثون خُطَى دوابّهم بنداء رفيق. والعمال على طول الشاطئ والسقالات يتخاطبون أثناء العمل بصوت مختنق، ولا يتكلّمون إلاّ إذا دعت إلى الكلام حاجة. والمراقبون أنفسهم أصبحوا، وهم يحملون عصيًا من فروع شجر البندق، أقلّ قسوة وأكثر لينًا ورفقًا. والنحاتون الدلماسيون الذين يصقلون الحجارة قد شحبت وجوههم وانقبضت فكاكهم وأداروا للجسر ظهورهم، وراحوا يطرقون الحجر غاضبين، فأزاميلهم تُحدِث في الجوّ الذي خيّم عليه الصمت الشامل نقرًا كأنه نقر سرب من الصردان.

هبط الغسق سريعًا، فهرع العمال إلى مآويهم، رغبة في الابتعاد عن السقالات ما أمكن الابتعاد. وقبل أن ينتشر ظلام الليل مضَى مرجان مع خادم من الخدم الذين يثق بهم عابد آغا فتسلقا السقالات إلى المحكوم عليه، فعرفا أنه لا يزال حيًا وأنه لم يُغمَ عليه بعد أن انقضَى على تنفيذ الحكم فيه أربع ساعات. كان يدير عينيه ببطء ومشقة، وقد أصابته حمّى، فلمّا لمح الغجري تحته أخذ يئنّ أنينًا أقوَى، فلم يستطع الرجلان أن يميزا من خلال هذا الأنين الذي يلفظ به روحه إلا كلمات متقطعة:

- الأتراك.. الأتراك على الجسر..

وسُرّ الرجلان، وعادا إلى جبل بيكافتس إلى بيت عابد آغا، وقصّا في الطريق على مَن لقياه أنّ المحكوم عليه لا يزال حيًا، وأنه يصرّ بأسنانه ويتكلّم من أعلَى الخازوق بصوت واضح جليّ، وأنّ من المأمول أن يبقَى حيًا إلى ظهر غد. وسُرّ عابد آغا هو أيضًا، وأمر لمرجان بالمكافأة التي وعد.

كل حيٍّ في المدينة وحول الجسر نام تلك الليلة في خوف، أو قل لقد نام من استطاع إلى النوم سبيلاً، وما أكثر أولئك الذين لم يقدروا أن يغمضوا الأجفان! وطلع النهار في الغد (الاثنين) يومًا مشمسًا من أيام تشرين الثاني، فما من عين حول الورشة أو في المدينة كلها إلا التفتت نحو ذلك البناء الذي تشابكت فيه الأوتاد والألواح تشابكًا فريدًا فوق الماء، ليخطف بصرها منظر الرجل القاعد على الخازوق منتصبًا وحيدًا، عند الحافة التي تشبه أن تكون مؤخر سفينة. وما أكثر أولئك الذين ظنوا حين استيقظوا أنهم قد رأوْا في المنام ما وقع بالأمس فوق الجسر على مرأى من الناس، فلمّا شاهدوا منظر الرجل جمدت أجسامهم وحدقت عيونهم فكأن المشهد الأليم يكتمل تحت الشمس ويستمرّ حقيقة واقعة.

وكان العمال صامتين صمتهم بالأمس، صمتهم الزاخر بالانكسار والمرارة. وسارت الهمسات في المدينة سيرها بالأمس، وجرَى الاضطراب في نفوس الناس جريانه بالأمس. وصعد مرجان مع ذلك الخادم نفسه مرة أخرَى إلى السقالات، فدارا حول المحكوم عليه عدّة مرات؛ وتبادلوا بعض الكلمات، ورفعا رأسيهما فنظرا إلى وجه الفلاح في أعلَى، وشدّ مرجان سرواله في لحظة من اللحظات.. ثم نزلا. فكان يكفي أن يرَى المرء كيف يهبطان إلى الضفة، وكيف يسيران صامتين بين الناس المنهمكين في عملهم، حتى يدرك أنّ الرجل لفظ روحه. لقد أدرك جميع من رأوهما أنّ الفلاح مات، فشعر الصرب جميعًا بشيء من الارتياح، كأنما هم أحرزوا نصرًا لا يرى.

إنهم الآن أجرأ في الالتفات إلى أعلَى نحو السقالات ونحو المقتول. إنهم يحسّون الآن أن كفّتهم ترجح في هذا الصراع الذي يخوضونه مع الأتراك.

إن الموت أضخم «رصيد». وها هي ذي الأفواه. . . الأفواه التي ظلّ الخوف يكممها إلى ذلك الحين، تنفتح الآن من تلقاء ذاتها. ها هم أولاء العمال، وقد

تلطّخوا بالوحل وتبللوا بالماء وطالت لحاهم وشحبت وجوههم وأخذوا يدحرجون كتلاً كبيرة من حجارة بانيا بواسطة روافع من خشب الصنوبر، يتوقفون لحظة من حين إلى حين، ليبصقوا في راحات أيديهم، فيقول بعضهم لبعض بصوت مختنق:

- غفر الله له وعفا عنه.

- إنه لشهيد.. مساكين نحن..

- ألست ترَى إذاً أنه قديس؟ إنه قديس يا مسكين..

وأصبح كلّ فرد من الأفراد ينظر إلى هذا الرجل الذي ينتصب بقامته عاليًا، فيتصوّر بينه وبين نفسه أنه يسير على رأس فرقة من الجند. أصبح لا يبدو لهم الآن، في هذه الذروة التي يتسنّمها، إنسانًا يثير الخوف في النفس أوِ يستدرّ الشفقة والعطف، بالعكس، إنهم يدركون الآن مدَى ما ارتفع إليه من امتياز وعظمة. ليس هو الآن على الأرض، إنّ يديه لا تتعلّقان بشيء، وهو لا يسبح ولا يطير. إنّ ذاته مركز ذاته. لقد تحرر من روابط الأرض وأثقال الأرض. إنه لا يتألم. ما من شيء يمكن أن يكون له الآن عليه سلطان، لا البندقية ولا السيف، ولا الظنون السيّئة، ولا كلام البشر، ولا محكمة الأتراك.

إنّ هذه القامة العارية حتى الخصر، الموثقة الذراعين والساقين، المتصلبة، المنقلب رأسها على الخازوق، لا تشبه الآن جسمًا إنسانيًا ينتفخ ويتفسّخ، وإنما تشبه تمثالاً فوق ذروة، باقيًا لا يفنى، سيظلّ هناك إلى الأبد.

كان العمّال يلتفتون خلسة ويرسمون إشارة الصليب.

وكانت النساء في الميدان تجتاز أفنية البيوت بخُطًى سريعة، ويذهب بعضهن إلى بعض، ليتهامسن دقيقة أو دقيقتين، وليسكبن بعض الدموع، ثم يعُدن إلى بيوتهن راكضات خشية أن يحترق طعام الغداء. وأشعلت إحداهن قنديلاً صغيرًا أمام أيقونة. فما لبثت القناديل أن أُوقِدَت في جميع البيوت. واختفيت في زوايا الحجرات.

وكان الأطفال يطوفون بأعينهم في هذا الجو المهيب، وينظرون إلى هذه الأضواء، ويصغون بأسماعهم إلى هذه العبارات التي لا يفهمونها مما كان يقوله الكبار في تقطّع: «ارحمنا يا رب، يا ربّ سترك. . .»، «شهيد له عند الله من الأجر ما لباني أعظم كنيسة»، «عونك اللهم أيها الواحد الأحد، اسحق عدوّنا ولا تمكّنه منّا طويلاً«..». فكان الأطفال حين يسمعون هذا الكلام يسألون هذه

الأسئلة دون كلال ولا ملال: «ما معنَى «شهيد»؟ مَن بَنَى كنيسة وأين بناها؟».
كان الأطفال يستطلعون الأمر في كثير من الاهتمام، وكانت الأمهات تحاولن أن تهدئهم بقولها:

- أسكت يا حبيبي.. اسكت.. واحذر الأتراك المناحيس ما حييت.

وقبل أن يهبط الظلام ثانية، فتّش عابد آغا البناء مرّة أخرَى، فسرّه ما أحدثه هذا المثل الرهيب من أثر، وأمر برفع الفلاح عن السقالات:

- ارموا الكلب للكلاب.

في تلك الليلة الرطبة الدافئة كأنها من ليالي الربيع، في تلك الليلة التي هبط ظلامها فجأةً، حدث في صفوف العمال هيجان واضطراب غريبان لا يُفهمان. حتى إنّ أولئك الذين كانوا قبل ذلك لا يحبون أن يسمعوا شيئًا عن التخريب والمقاومة أصبحوا الآن على استعداد لتقديم أكبر التضحيات، وعلى القيام بأي مغامرة من المغامرات. لقد أصبح الجسم الميت موضع اهتمام من الرجال المكدودين تدفعهم غريزة فطروا عليها، وشفقة قوية تجيش في نفوسهم، وعادات قديمة ألِفوها، فأخذوا يتحركون ويتعاونون من تلقاء أنفسهم للحصول على جثمان الشهيد، وإنقاذه من الرجس ودفنه على دين المسيح، فهم يتهامسون في حذر، ويجتمعون في الخصاص والزرائب. لقد انتهَوا إلى جمع مبلغ كبير من المال قدره سبعة دنانير قرروا أن يقدموها رشوة لمرجان.

واختاروا من بينهم لهذا الغرض ثلاثة رجال هم أكثرهم حذقًا وبراعة، فاستطاع هؤلاء أن يتّصلوا بالجلاد. إنهم الآن، وقد بللهم العرق وهدهم التعب، يفاوضونه مفاوضة بطيئة في مكر وحيلة ولفّ ودوران. قال أكبرهم سنًا وهو يحكّ رأسه ويتصنّع الثأثأة: «اسمع.. لقد انتهَى الأمر، تلك مشيئة القدر، لكنك تعلم أنّ هذا بشر، كما يقال، ولن يكون من الخير، مثلاً، أن تأكله الوحوش أو تمزّقه الكلاب».

أدرك مرجان أنّ الأمر أمر صفقة، فأخذ يتمنّع بلهجة فيها من الشكوَى أكثر مما فيها من العناد:

- لا.. لا.. لا تكلّموني.. إنكم تزجّونني في ورطة.. أنتم لا تعرفون أيّ ثعلب هو هذا العابد آغا.

فتألّم الفلاح، وقطّب حاجبيه، وراح يفكّر، قال لنفسه: «هذا غجريّ، رجل

لا دين له ولا روح.. ولا يمكن أن يصادقه المرء أو يؤاخيه، ولا يستطيع أن يحلف لا بأرض ولا بسماء».

وكانت يده اليمنَى في جيب معطفه قابضة على الدنانير السبعة. قال:

- نعم.. أعرف.. نحن نعلم أنّ هذا ليس من السهل عليك.. ولسنا نحب أن نؤذيك.. خذ.. لقد وجدنا أربعة دنانير إكرامًا لك.. أظنّ أنها تكفي..

- لا.. لا.. حياتي أغلى من خيرات الأرض كلها.. وعابد آغا لن يتركني حيًا إذا أنا استجبت لما تطلبون. هذا رجل يرى كل شيء، حتى حين يكون نائمًا. إنني لأموت كلما تصورت هذا الأمر.

فأردف الفلاح يقول من دون أن يهتم بكلام الغجري.

- أربعة.. بل قل خمسة.. أخيرًا.. سنعطيك خمسة.

- لا أجرؤ، لا أجرؤ..

- اسمع.. لقد أُمِرت أن ترمي.. هذا الجثمان.. مثلاً.. للكلاب.. ارمه إذن، ثم لا تهتمّ بما يحدث بعد ذلك، لن يسألك أحد عن شيء في هذا الأمر. سنتولّى عندئذ.. مثلاً.. أخْذ الجثمان.. وندفنه على ما تقتضيه طقوسنا.. ولكن خفية مثلاً.. فما يعلم ذلك أحد من الناس على وجه الإطلاق.. وتقول أنت، في الغد مثلاً، إنّ الكلاب، مثلاً، قد أخذت.. الجثة.. وهكذا لا يرَى أحد شيئًا ولا يعلم أحد بشيء، وتنال أنت حقك..

كان الفلاح يتكلم في احتراس وتفكير، لكنه كان يتوقف منزعجًا انزعاجًا غريبًا كلما كان عليه أن ينطق بكلمة «جثة».

- هل تظنّون أني أعرّض حياتي للخطر من أجل خمسة دنانير؟ لا.. لا..

فقال الفلاح في هدوء:

- فلتكن إذاً ستّة.

فنهض الغجري، وباعد ذراعيه، واصطنع من معاني الجدّ والصدق المؤثر ما لا يقدر على اصطناعه إلاّ الذين لا يميزون بين الكذب والحقيقة، ووقف أمام الفلاح كأنه هو المحكوم عليه وكأن الفلاح هو الجلاد، وقال:

- فلأقدّم رأسي ما دامت هذه مشيئة القدَر، ولتترمّل زوجتي وليتيتم أولادي: هاتِ سبعة دنانير، وخُذ الجثة.. لكن يجب ألّا يرَى أحد شيئًا، وألّا يعلم أحد بشيء.

فهزّ الفلاح رأسه يأسف أعمق الأسف على أنه مضطرّ إلى إعطاء هذا اللص كلّ ما معه. لكأنّ الغجري قد رأى ما في قبضة يده.

واتفقوا عندئذ على التفاصيل. اتفقوا على أن يحمل مرجان الجثة، بعد إنزالها عن السقالات، إلى الضفة اليسرَى من النهر، وأن يرميها هنالك قبل هبوط الظلام بين الحجارة قرب الطريق، بحيث لا يراها خدم عابد آغا ولا يراها المارة. ويكون الفلاحون الثلاثة قد اختبأوا في غابة شوك تقع بعد هذا المكان قليلاً، فمتَى هبط الليل، أخذوا الجثة، ومضوا بها ودفنوها، شريطة أن يتمّ الدفن في موضع خفيّ، وألّا يترك أي أثر، فيكون من الممكن أن يُظَنّ أن الكلاب مزّقت الجثة والتهمتها. واتفقوا على أن يتقاضى مرجان ثلاثة دنانير مقدمًا، وأن يتقاضى الأربعة الباقية بعد أن يتمّ الأمر كله.

وفي تلك الليلة نفسها جرى كلّ شيء وفقًا للاتفاق المبرَم.

فلمّا جاء الغسق نقل مرجان الجثة، ورماها على الضفة تحت الطريق (إنها لا تشبه الآن الجسم الذي كان يراه الجميع خلال هذين اليومين منتصبًا بارز الصدر على الخازوق، وإنما هي، مرّة أخرَى، راديسلاف، كما كان قبل ذلك، دقيق الجسم مقوّس الظهر، لكنه الآن بلا دم ولا حياة)، ثم عاد إلى المدينة مع مساعديه فورًا، بواسطة المركب الذي على الضفة الثانية. وكان الفلاحون الثلاثة ينتظرون في غابة الشوك. كان لا يمرّ في الطريق إلاّ القليل من العمال المتأخرين وعدد من الأتراك يعودون إلى بيوتهم. ثم خيّم الهدوء في المنطقة الغارقة في الظلام. ونبحت كلاب، كلاب ضخمة ساغبة مذعورة لا مأوَى لها ولا صاحب. فرماها الفلاحون المختبئون بين الأدغال بحجارة وطردوها. فهربت الكلاب خافضة أذيالها، لكنها لم تبتعد عن الجثّة أكثر من عشرين قَدَمًا، وتلبّثت هنالك ترقب ما سيقع، فكانت أعينها المتّقدة المستعرة ترَى في الظلام. فلمّا رأى الفلاحون أنّ الظلام قد اجتاح المنطقة وأنّ الأرجح أنّ أحدًا لن يمرّ بعد الآن، خرجوا من مخبئهم يحملون فأسًا ومجرفة، ووضعوا لوحَين من الخشب كانوا قد جاؤوا بهما أيضًا، وضعوا أحدهما فوق الآخر، ثم سحبوا الميت عليهما، وصعدوا به المنحدر.. وهناك، في حوض كانت قد شقّته مياه الربيع والخريف وهي تهبط الرابية نحو نهر درينا، أبعدوا كُتلاً من الحصى تشكّل سحابة كأنها جدول جافّ لا ينضب، فحفروا قبرًا عميقًا، مسرعين صامتين، من دون أن

ينبسوا بكلمة ومن دون أن يحدثوا أي صوت. وأنزلوا إلى القبر الجسم المتخشّب البارد المتغضّن.

وثب أكبرهم إلى الحفرة، فضرب صوانة بقداحة عدة مرات، على حذر، فأشعل في أول الأمر صوفانة، ثم أشعل شمعة نحيلة أخرجها من قطعة من القماش مطوية، ثم غرسها فوق رأس المتوفّى ورسم إشارة الصليب ثلاث مرات، بسرعة، وهو يقول بصوت عالٍ: «باسم الآب والابن والروح القدس»، ورسم الفلاحان الآخران إشارة الصليب بعده، في الظلام، فوق الميت. وحرّك الفلاح يده مرتين فوق الميت كأنما هو يرشه بيده الفارغة بخمرة لا تُرَى، وقال مرّتين بصوت خافت خاشع: «خذ إليك عبدك يا يسوع بين القديسين».

ودمدم أخيرًا ببضع كلمات لا تسلسل فيها ولا يُفهم معناها لكنها كلمات صلاة، كلمات مهيبة وقورة، فكان رفيقاه يرسمان إشارة الصليب بلا توقّف، فلمّا صمت، ناولاه لوحَي الخشب. فوضعهما فوق الجثة طولاً على صورة قبّة، فكانا أشبه بسقف يغطّي الميت، ورسم إشارة الصليب مرة أخرَى، وأطفأ الشمعة، وخرج من القبر. وعندئذ أخذ الثلاثة يهيلون التراب في الحفرة ببطء وحذر، ويمهدونه في عناية، كي لا يبقَى على القبر أيّ ارتفاع يمكن أن يُرَى. حتى إذا فرغوا من ذلك، أعادوا الحصَى فوق التراب الغض كما كان، ثم رسموا إشارة الصليب، وعادوا أدراجهم في دورة طويلة ليرجعوا إلى الطريق من أبعد مكان عن القبر.

هطل في تلك الليلة مطر غزير هادئ، لم ترافقه ريح، وحين طلع الصباح كان زاخرًا بضباب ثقيل بلون الحليب، ورطوبة دافئة ملأت الوادي كله. وفي خلال ضوء أبيض يصعد تارة ويهبط أخرَى، كان يُرَى أن الشمس تصطرع مع الضباب، وأنها لا تظفر بالنفاذ فيه. إنّ كل شيء غامض كأنه مسرح أشباح، وكل شيء جديد غريب. الناس ينبجسون من الضباب فجأة، وفجأة أيضًا يغيبون فيه. وفي هذا الجو من الصباح الباكر، اجتازت مركز المدينة عربة صغيرة تحمل رجلين من رجال الدرك يمسكان بالمأمور موثقًا.. المأمور الذي كان بالأمس رئيسهما.

إنّ المأمور الذي كان منذ أول أمس في فورة غير متوقعة من الحماسة لشعوره بأنه لا يزال حيًا وأنه لم يُرفَع على الخازوق، والذي أخذ يرقص أمام الجميع،

لم يستردّ هدوءه طوال هذه المدّة: كانت عضلاته كلها ترتعش وكان لا يستقرّ في مكان. وكانت لا تنفكّ تعذّبه حاجة لا تقاوَم إلى أن يقنع نفسه ويقنع غيره بأنه سليم لم يمسّه أذًى، معافًى لم ينله ضرّ، وأنه يستطيع أن يتحرّك. وكان يتذكر عابد آغا في بعض اللحظات (كانت هذه الذكرَى ظلاً على فرحه)، فيسدر في تفكير مؤلم. غير أنّ قوة جديدة كانت تتجمع في أثناء ذلك، فتدفعه بقوة لا تقاوم إلى أن يتحرك وأن يضطرب وأن ينطلق كالمسعور، فيقوم يرقص من جديد، مباعدًا ذراعيه، مصفّقًا بأصابعه، مهتزّا بقامته كراقصة، مبرهنًا بحركات جديدة دائمًا، قوية مفاجئة، أنه لم يُرفَع على الخازوق، مردّدًا في لهاث يصاحب إيقاع الرقص:

- هأنذا.. هأنذا.. أفعل ذا، أفعل ذا..

وكان لا يريد أن يتناول شيئًا من طعام، وكان يقطع فجأة كلّ حديث، ويعود يرقص ويؤكّد عند كلّ حركة من حركاته بصوت كأنه صوت طفل:

- هأنذا.. هأنذا..

وحين تجرأوا في الليلة الماضية أن يبلغوا عابد آغا بما آلت إليه حال المأمور، قال في إيجاز وبرود:

- خذوا المجنون إلى بليفييه، وأوثقوه في بيته، حتى لا يتصرف تصرفات حمقاء حول المدينة. إنه لم يخلق لهذا العمل.

وذلك ما فعلوه. واضطر جنود المأمور إلى ربط رئيسهم بالعربة التي تقلّه، لأنه لم يستطع أن يفيء إلى هدوئه. فكان يبكي ويقاوم، فإذا استطاع أن يحرّك جزءًا من جسمه، اضطرب مطلِقًا صرخته:

«هأنذا.. هأنذا..»

واضطروا أخيرًا إلى شدّ ساقيه وذراعيه، وبلغوا من إحكام الشدّ أنه قعد في العربة منتصبًا ككيس قمح أتقن تخييطه، فأخذ يتصور عندئذ، وقد أصبح عاجزًا عن الحركة، أنهم يريدون أن يخوزقوه، فكان يتلوّى ويقاوم ويعوّل عويلاً يائسًا ويقول:

- ما أنا.. ما أنا.. اقبضوا على الجنّ.. لا، يا عابد آغا.. وسمع الناس في البيوت الأخيرة عند طرف المدينة هذا العويل، فهرعوا وراء العربة، لكن الضباب الذي كان يخفي الشمس سرعان ما ابتلع العربة مع المريض وصاحبيه.

وكان من شأن رحيل المأمور هذا الرحيل المباغت أن فاقم الخوف في قلوب الناس وأخذوا يتهامسون أنّ الفلاّح الذي حُكم عليه بالإعدام كان بريئًا، وأنّ المأمور هو المسؤول عن موته. وراحت النسوة تروي: لبعضهن البعض، في حي الميدان، أنّ الجنّ قد دفنت جثمان راديسلاف المسكين تحت صخور بوتكو، وأنّ ضياءً غزيرًا قد هبط في الليل من السماء على قبره: ألوف الألوف من الشموع الموقدة كانت تتلألأ وتتراقص في سرب طويل نازل من السماء إلى الأرض. لقد رأينها بأعينهن من خلال الدموع.

جميع أنواع الإشاعات كان يصدّقها الناس وكانت تنتقل بينهم همسات، غير أنّ الخوف كان أقوَى من كلّ شيء. واستمرّت الأعمال على الجسر سريعة بلا توقّف ولا انقطاع ولا فوضَى، وكان يمكن أن تستمرّ إلى ما شاء الله، لولا أنّ بردًا شديدًا نادرًا نزل في أوائل شهر كانون الأول (ديسمبر)، فلم يستطع عابد آغا أن يقاومه رغم كل ما له من قوّة.

لم يكن للمدينة عهد بمثل تلك الأنواء الباردة وعواصف الثلج التي ظهرت في النصف الأول من شهر كانون الأول، إنّ الجليد يلصق الحجارة بالأرض وإنّ الأشجار تنفجر. إنّ ثلجًا ناعمًا بلّوريًا يغشَى الأشياء والأدوات والخصاص، ثم تهبّ في الغد ريح عاتية فتحمله إلى مكان آخر، وتغطّي به منطقة أخرَى. فتوقفت الأعمال من تلقاء ذاتها، وضعف خوف الناس من عابد آغا ثم زال زوالاً تامًا. وصمد عابد آغا بضعة أيام، لكنه أذعن في آخر الأمر. فصرف العمال وأوقف الأعمال، وفي أثناء زوبعة عنيفة من زوابع الثلج رحل هو نفسه على حصانه مع أتباعه، وفي ذلك اليوم نفسه سافر طوسون أفندي على مركبة من مركبات الفلاحين، متدثرًا بالأغطية مغطًى بالقش، وسافر المعلم أنطوان في اتّجاه آخر.. وتفرّق جيش العمّال المسخّرين في القرَى والوديان العميقة، واختفَى بلا جلبة، كماء غاص في الأرض، وظلّ البناء على مكانه، كلعبة مهجورة.

وقد استدعَى عابد آغا الوجهاء الأتراك قبل رحيله، فقال لهم، والحزن والحنق العاجز يملآن قلبه، ما قاله في السنة الماضية أنه يعهد إليهم بكلّ شيء، ويحملهم تبعة كلّ شيء:

- إنني راحل، لكنّ عيني باقية هنا. فكونوا على يقظة وانتباه ولأن تقطعوا عشرين رأسًا متمرّدًا خير من أن تتهاونوا في ضياع مسمار واحد مما يملكه

السلطان، وسأعود أوّل الربيع، وسيكون عليكم أن تقدموا لي الحساب عن كلّ أمر من الأمور.

فوعده الوجهاء بكل شيء كما فعلوا في السنة الماضية، ثم تفرقوا عائدين إلى بيوتهم مهمومين متزمّلين بأفرائهم ومعاطفهم وشالاتهم، حامدين الله في قرارة نفوسهم على أنه أنزل على الدنيا الشتاء والعواصف، وعلى أنه قد وضع بذلك حدًا لقوة الأقوياء.

ولكن حين جاء الربيع، لم يصل عابد آغا، وإنما وصل رجل آخر ممن يثق بهم الوزير، يقال له عارف بك، وفي صحبته طوسون أفندي، ذلك أنه قد وقع ما كان عابد آغا يخشَى وقوعه، وهو أنّ واحدًا من الناس (واحداً يعرف الوضع حق المعرفة وقد رأى كلّ شيء عن كثب) قد نقل إلى كبير الوزراء معلومات دقيقة ووافية عما يقوم به عابد آغا من أعمال على الجسر، فعرف الوزير أنّ فَعَلة يتراوح عددهم بين مائتين وثلاثمائة كانوا خلال هاتين السنتين يعملون في الجسر سخرةً، من دون أن ينالوا أيّ أجر، وأنهم كانوا في كثير من الأحيان يتناولون طعامهم على نفقتهم الخاصة، بينما كان عابد آغا يحتفظ بمال الوزير لنفسه (وقد حسب المبلغ الذي استولَى عليه حتى ذلك الحين حسابًا دقيقًا)، وعرف الوزير أنّ عابد آغا كان يخفي سوء الأمانة تحت ستار من شدّة الحماسة وفرط القسوة، كما يحدث ذلك كثيرًا في الحياة، وأنّ ذلك جعل جميع سكان المنطقة، لا المسيحيين وحدهم، يلعنون الساعة التي بُدئ فيها بناء الجسر ويلعنون الشخص الذي أمر ببنائه، بدلاً من أن يباركوا هذا العمل العظيم من أعمال البِرّ. ومحمد باشا رجل ظل طوال حياته يحارب السرقة وقلّة الأمانة عند موظّفيه، فأمر هذا الوالي الفاسد من ولاته بأن يردّ المبلغ كاملاً، وبأن يرحل فورًا مع حريمه وما بقي له من ثروة إلى قرية صغيرة من قُرَى الأناضول، وألّا يطلب شفاعة أحد إذا كان يريد ألّا ينزل به عقاب أشدّ.

وبعد وصول عارف بك بيومين وصل المعلم أنطوان من دلماسيا مع العمال الأُوَل. فقدّمه طوسون أفندي للرجل الجديد الذي يثق به الوزير، وفي ذات يوم دافئ مشمس من أيام نيسان (أبريل) طافوا حول الأبنية ونظروا في تصاميم الأعمال الأولَى، فلمّا انسحب عارف بك، وظلّ الرجلان وحدهما على الضفّة، أنعم المعلم أنطوان النظر في وجه طوسون أفندي الذي كان، رغم النهار

المشمس، متدثرًا منكمشًا على نفسه في معطفة الأسود الكبير انكماشًا عصبيًا.

- لا شكّ أنّ هذا الرجل من نوع آخر مختلف عن نوع عابد آغا كل الاختلاف. الحمد لله.. ولكنني أتساءل: من ذا الذي ملك من البراعة والشجاعة ما حمله على إبلاغ الوزير لطرد ذلك الحيوان.

فنظر طوسون أفندي إلى أمام، وقال بصوت هادئ:

- لا شكّ أنّ هذا الرجل أفضل.

- لا بدّ أنّ الذي أبلغ الوزير رجل يعرف أساليب عابد آغا في العمل حق المعرفة ويستطيع أن يصل إلى الوزير، وينعم بثقته.

- لا شكّ أنّ هذا أفضل.

بهذا أجاب طوسون أفندي من دون أن يرفع بصره، وهو يزداد تلفّفًا بمعطفه.

وهكذا بدأت الأعمال تحت إمرة الرئيس الجديد عارف بك.

إنّ عارف بك رجل يختلف حقًا كلّ الاختلاف عن عابد آغا، كان عظيم الساقين محدودب الظهر قليلاً، بارز الخدين، ذا عينين مزمومتين، سوداوين ضاحكتين. وسرعان ما لقّبه الشعب بلقب «الجد». كان لا يصرخ ولا يحمل عصًا، ولا يلفظ كلمات ضخمة، ولا يبذل جهدًا ظاهرًا، وإنما يصدر الأوامر ويوزع الأعمال من عليائه ضاحكًا غير مهموم. ولكن ما من شيء كان يفوته أو يغيب عنه. وكان هو أيضًا يحمل معه ذلك الجو من الحماسة الحازمة لكل ما يتّصل بإرادة الوزير، مع فرق واحد، هو أنه رجل هادئ سليم، شريف، ليس هناك ما يخشاه وليس هناك ما يحب أن يخفيه، فلم يكن لذلك في حاجة إلى أن يخيف الآخرين، وأن يطاردهم، وجرت الأعمال سريعة كما كانت تجري في الماضي (ذلك أنّ السرعة هي ما كان يريده الوزير)، وظلّت الأخطاء تتعاقب بقوّة، غير أنّ السخرة أُلغيت منذ اليوم الأول. فكان العمال ينالون أجرهم جميعًا، ويأخذون طعامهم دقيقًا وملحًا. وسار كلّ شيء سيرًا أسرع وأفضل من سيره في عهد عابد آغا. وحتى تلك المجنونة إيلنكا اختفت، فقد ذهبت في ذلك الشتاء من دون أن تترك أثرًا في أيّ مكان.

كان البناء يكبر ويتّسع. وأصبح الناس يستطيعون أن يرَوْا الآن أنّ العمل الخيري الذي يقوم به الوزير لن يقتصر على بناء الجسر، بل سيشيّد كذلك نزلاً يستطيع المسافرون الذين يجتازون الجسر آتين من بعيد، أن يجدوا فيه مأوًى

لأنفسهم ولخيولهم ولبضائعهم إذا ألمّ بهم الليل وهم في هذا المكان. وبُدئ بناء النزل وفقًا لتوجيهات عارف بك. ففي مدخل الحيّ التجاري، على مسافة مائتي خطوة من الجسر، حيث يبدأ الانحدار الذي يفضي إلى الميدان، كان ثمة سهل عالٍ يقوم عليه سوق البهائم في كل يوم من أيام الأربعاء. فهنالك على هذا السهل بُدئ في بناء النزل الجديد. وكان العمل فيه يجري ببطء، لكن المرء يستطيع أن يتنبأ من مجرّد النظر إلى عناصره الأولَى أنه سيكون بناءً قويًا باقيًا غنيًا رسمت خطته على مقياس ضخم. وكان الناس لا يلاحظون أنّ النزل الكبير يصعد ببطء على غير توقف، لأنّ انتباههم كله كان منصرفًا إلى بناء الجسر.

إنّ الأعمال التي تقوم على نهر درينا قد بلغت الآن من التعقد أنها تحيّر، حتى إنّ المتعطلين من سكان المدينة الذين كانوا ينظرون إلى الأعمال من على الضفة نظرتهم إلى أحداث طبيعية، أصبحوا لا يستطيعون أن يتابعوها فاهمين: سدود تقام، وحفر تحفر في اتجاهات شتّى، والنهر ينقسم وينقطع ترعًا وشعابًا، وينصب من مجرًى إلى آخر. لقد استقدم المعلم أنطوان من دلماسيا عمالاً مختصين في صنع الحبال واشترى مقدَّمًا كلّ محصول القنب حتى من المناطق المجاورة. فكان هؤلاء الصناع يصنعون في ورشات خاصة حبالاً قوية قوة هائلة غليظة غلظًا عظيمًا. وكان نجارون من اليونان يبنون روافع خشبية كبيرة ذات عجلات، على ما يرسمه لهم المعلم أنطوان وطوسون أفندي، ويضعون هذه الروافع على أطواف ويرفعون على الأطواف بتلك الحبال أثقل الأحجار، وينقلونها إلى الأعمدة التي كانت تظهر واحدة بعد أخرى في مجرى النهر. وكان العمل في نقل كل كتلة من تلك الكتل الكبيرة من الضفة إلى مكانها في قاعدة العمود يستغرق أربعة أيام.

ومن فرط ما أَلِف الناس رؤية ذلك كله يومًا بعد يوم وسنة بعد سنة أخذوا يفقدون فكرة الزمن، وأصبحوا لا يفهمون نيّات الباني على حقيقتها. فكان يتراءى لهم أنّ البناء لا يتقدّم، بل كان يتراءى لهم أنه يزداد تلبّكاً وتعقدًا بأعمال إضافية ثانوية، وأنه يبعد في كل يوم عما يجب أن يكون. إنّ الناس الذين لا يعملون هم أنفسهم ينفد صبرهم بسهولة، ويرتكبون أخطاء في الحكم على ما يقوم به غيرهم من عمل. وعاد الأتراك يهزّون أكتافهم ويحركون أيديهم بإشارات الشكّ والريبة حين يتحدثون عن الجسر. أمّا المسيحيون فكانوا يصمتون، لكنهم كانوا ينظرون

إلى البناء وفي نفوسهم أفكار خبيثة وشماتة فرحة، ويتمنون له الإخفاق كما يتمنون كل ذلك لكل مشروع تركي. وفي تلك الفترة إنما سجّل رئيس دير بانيا المجاورة لبلدة بريبوي، سجل على الصفحة الأخيرة البيضاء من كتابه المقدّس، هذه الأسطر: «ليكن معلومًا العهد الذي بنَى فيه محمد باشا جسرًا على نهر درينا. إنّ إرهابًا شديدًا وقع على الشعب المسيحي من قِبَل الآغوات، وكُلِّف الشعب بأعمال ثقيلة على سبيل السخرة. جيء بالصُّنّاع من البحر. فظلوا يبنون خلال ثلاث سنين، وبُددت أموال كثيرة من دون طائل، وقطعوا النهر قسمين وثلاثة، لكنهم لم يستطيعوا أن يمدّوا الجسر».

السنوات تمضي، وفصول الصيف والخريف والشتاء والربيع تتعاقب، والعمال والصنّاع يذهبون ويعودون. إنّ نهر درينا تغطيه الآن القباب، لا قباب الجسر، بل قباب هذه السقالات الخشب التي تشبه شبكًا عجيبًا معقّدًا من الأوتاد وألواح الصنوبر. وعلى الجانبين تتأرجح روافع عالية من خشب، مثبّتة على أطواف مشدودة شدًا قويًا. وفي ضفّتي النهر يتصاعد دخان نيران يصهر عليها الرصاص الذي يصب بعد ذلك في ثقوب البلاطات وتربط الحجارة بعضها إلى بعض ربطًا لا يُرَى.

وفي نهاية السنة الثالثة وقع حادث من تلك الحوادث المشؤومة التي يندر أن يقع مثلها في بناءٍ ضخم. كانوا في النهاية من بناءِ العمود المركزي الذي هو أعلَى قليلاً، وأعرض عند القمّة، من سائر الأعمدة، لأنه سيحمل الكابيا. كان العمال يتحركون في جلبة حول الكتلة الطويلة الضخمة التي كانت معلّقة فوق رؤوسهم وقد ربطت بحبال غليظة. وكانت الرافعة لا تستطيع جرّها إلى مكانها تمامًا. فأسرع الزنجي، مساعد أنطوان، وقد نفد صبره وأخذ يصيح صيحات حانقة (بتلك اللغة الغريبة التي تكونت خلال السنين بين هؤلاء الناس الذين ترجع أصولهم إلى أجزاء شتّى من العالم) أسرع يصدر أوامره للذين كانوا يحركون الرافعة تحت الماء، فإذا بالحبال تنقطع في تلك اللحظة نفسها فتهوي كتلة الحجر، بزاوية من زواياها أولاً وبكل ثقلها ثانيًا، على الزنجي الذي كان من فرط اهتياجه لا ينظر إلى فوق بل ينظر إلى الماء. ومن الأمور المعجزة أنّ الكتلة سقطت حيث يجب أن تسقط تمامًا. لكنها أثناء سقوطها جرفت معها الزنجي فسحقت كل الجزء الأسفل من جسمه. فأخذ الناس جميعًا يركضون، ويصيحون، ويطلبون النجدة. فوصل المعلم أنطوان بعد خمس دقائق. وكان الشاب الزنجي

بعد أن أغمي عليه في أول الأمر، قد عاد إليه شعوره، فكان يئن وقد تقبضت أسنانه ولاح في وجهه اليأس والذعر، وأخذ ينظر إلى عيني المعلم أنطوان.

وراح المعلم أنطوان، وقد تقطب حاجباه واصفرّ وجهه، يصدر أوامره إلى العمال أن يجتمعوا وأن يحملوا آلاتهم وأن يرفعوا الكتلة. لكن ذلك كله لم يفِد في شيء، فما هي إلاّ لحظة حتى تفجّر الدم سيلاً أغرق الفتَى، وأخذت أنفاسه تتقطع، وامتلأت نظرته بالضباب. وبعد نصف ساعة لفظ روحه، وهو يشدّ بيده على يد المعلم أنطوان في حركة متشنّجة.

وكان دَفْن الزنجي حدَثًا مَهيبًا ظلّ الناس يتذكّرونه مدّة طويلة. وقد خرج المسلمون جميعًا ليشيّعوه، وليحمل كلّ منهم، مسافة بضعة أمتار، التابوت الذي كان يرقد فيه النصف الأعلَى من جسمه، لأنّ باقي الجسم ظلّ تحت كتلة الحجر. وقد بَنَى المعلم أنطوان على قبره نُصبًا جميلاً مصنوعًا من حجارة الجسر نفسها، وكان مضطربًا أشدّ الاضطراب لموت هذا الفتَى الذي انتزعه البؤس صبيًا صغيراً ببلدة آولتسيفه التي كان يعيش فيها عدد من أُسَر الزنوج جاءت بهم الصدفة إلى هناك. لكن العمل لم يتوقف لحظة واحدة.

ولم يكن البرد في شتاء هذه السنة وفي شتاء السنة التي تلَتها شديدًا، حتى لقد أمكن الاستمرار في العمل إلى منتصف شهر كانون الأول. فلما أقبلت السنة الخامسة أخذوا يفكّون ذلك الركام المضطرب من الأخشاب والحجارة والأدوات ومختلف الموادّ.

وعلى السهل المرتفع، إلى جانب الطريق المفضي إلى الميدان، كان ينتصب النزل الجديد منذ ذلك الحين طليقًا لا تقيده السقالات. إنه مبنًى كبير من طابق واحد، بُنِي من نوع حجارة الجسر نفسها. كانوا لا يزالون يعملون في النزل، داخله وخارجه، ولكن المرء كان يستطيع منذئذ أن يتخيّل مدى ما سيمتاز به على كل ما أمكن بناؤه وتصوّره في المدينة، بجمال خطوطه وانسجامها وبمتانة الموادّ التي بُنِي بها. كانت هذه العمارة التي بُنيت بحجر ناصع ضارب إلى صُفرة، وسُقفت بقرميد أحمر قاتم، وجُعِلَ فيها صفّ من النوافذ الأنيقة الرشيقة، كانت تبدو للسكان مبنًى لم يسمع بمثله أحد من قبل، مبنًى له من الأبهة والعظمة ما لا يكاد يصدّق، وسيكون بعد الآن جزءًا من حياتهم اليومية متممًا لها. وكانوا يتخيلون أنه، وقد بناه وزير، لن ينزل فيه إلاّ وزراء.

كان يشيع في المبنَى كله من جلال القدْر وحُسن الذوق ومظاهر الترف ما يملأ نفوسهم إعجابًا به.

وفي الوقت نفسه أخذت تلك الكتلة التي لا شكل لها من الأوتاد والألواح المتشابكة فوق النهر، أخذت تصغر وتدق وأصبح الناس يستطيعون إذا هم نظروا من جانب أن يستشفوا بمزيد من الوضوح الجسر الحقّ المبني بجميل حجارة بانيا. وكان العمال لا يزالون، فُرادَى أو جماعات، يواصلون هذه الأعمال التي ظلت تبدو للناس حتى ذلك الحين سخيفة لا يربط بينها رابط، ثم أصبحت منذ الآن، حتى في نظر أبعد الناس عن التصديق، متكاملة يتألف من اجتماعها جسر فريد في صورته رائع في خطته، كامن وراء كل جزء من أجزاء تلك الأعمال المفردة. وقد ظهرت في أول الأمر القناطر، أقصرها وأصغرها وأقربها إلى الضفة، ثم أخذت الأخرَى تظهر واحدة بعد واحدة، إلى أن ظهرت آخر قنطرة فأبعدت الصقالات جميعها، ولاح الجسر كله على قناطره الإحدَى عشرة، القوية، كاملاً رائعًا في جماله، كمنظر جديد عجيب يخطف الأبصار.

وأهل فيشيغراد أناس يسرعون إلى الأفكار الحسنة سرعتهم إلى الأفكار السيّئة، فما لبثوا أن خجلوا مما راودهم من شكوك وريب. وأصبحوا الآن لا يحاولون أن يخفوا إعجابهم ولا أن يلجموا حماستهم ولم يكن المرور فوق الجسر مباحًا بعد، لكن الناس يتجمعون على الضفتين، وعلى الضفة اليمنَى خاصة، حيث يقع الحيّ التجاري والجزء الأكبر من المدينة، فيأخذون ينظرون إلى العمال الذين يجتازون الجسر ويصقلون الحجر على الإفريز وعلى المقاعد القائمة عند الكابيا.. وأخذ أتراك فيشيغراد يرنون بأبصارهم إلى هذا العمل الذي قام به آخرون، وبُنِي على نفقة آخرين، والذي أطلقوا عليه، خلال خمسة أعوام، ما شاء لهم هواهم من أسماء، وتنبّأوا له طوال تلك المدة بأسوَأ مصير. قال قائل منهم في انفعال عظيم مرِح، وهو خُجا قصير القامة من دوشتشيه:

- كنت أقول لكم طوال تلك المدة أنه ما من شيء يمكن أن يعزّ على السلطان وأنّ هؤلاء الناس الأذكياء سينتهون إلى بناء ما أرادوا بناءه، فكنتم تجيبونني بقولكم: لن يبنوا الجسر، ولا يستطيعون أن يبنوه. فانظروا الآن كيف بنَوْه، وانظروا ما أجمله وما أحسنه. فكان الناس يؤيدونه، رغم أنهم لا يتذكرون أقواله، وإنما يعلمون علم اليقين أنه كان يستخفّ بالجسر وبانيه مثلما كانوا يستخفّون.

وكانوا ما ينفكّون يهتفون وقد طافت بنفوسهم نشوة صادقة:

- ما هذا الذي قام في مدينتنا يا جماعة!..

- هل رأيت قدرة الوزير وذكاءه؟ حيثما ينظر الوزير يرتفع عمل من أعمال البِرّ، وتحلُّ السعادة..

ويضيف الخجا القصير المرِح الفرح:.

- كل ما ترَوْنه حتى الآن ليس بشيء. انظروا كيف يحكونه ويجمّلونه كحصان يعدّونه للعرض.

هكذا كانوا يتبارَوْن في إظهار المزيد من الحماسة باحثين عن كلمات الثناء والمديح أجدّ وأجمل وأقوَى. ولم يبقَ إلاّ رجل واحد ينظر إلى البناء وإلى الذين يمدحونه نظرة احتقار. إنه أحمد آغا شيتا، وهو تاجر غنيّ من تجار الحبوب، رجل متجهّم النفس بخيل، طويل، أصفر الوجه، جافّ أسود العينين، حادّ النظرة، رقيق الشفتين حتى لكأنهما ملتصقَتان. كان يطرف عينيه في شمس هذا اليوم الجميل من أيام أيلول (سبتمبر) ويصرّ وحده على آرائه السابقة لا يتزحزح عنها (ذلك أنّ لدَى بعض الناس ضروبًا من الكُره لا سبب لها، وهي أكبر وأقوَى من كل ما يستطيع غيرهم خلقه وابتكاره)، فإذا سمع الذين يمدحون عظمة الجسر وصلابته في حماسة، قائلين إنه أقوَى من أيّ قلعة، قال في احتقار:

- إلا الفيضان.. الفيضان الحقيقي الذي تعرفه فيشيغراد.. انتظروا.. لسوف ترَون ماذا يبقَى من الجسر حين يجيء الفيضان؟

فكانوا يجادلونه في مرارة، ويدفعون آراءه، ويمدحون أولئك الذين عملوا في الجسر، وخاصة عارف بك الذي حقق هذا البناء الجميل العظيم وهو يبتسم ابتسامته الرائعة النبيلة، كأنما هو يلعب.. ولكنّ شيتا يصرّ على ألّا يسلّم لأحد برأي من آرائه:

- ولكنني أسألكم: أكان يستطيع هذا الخصي أن ينهي الجسر بابتسامته، ويداه وراء ظهره، لولا عابد آغا وعصاه الخضراء ونظامه الدقيق واستبداده؟

وأحنقته حماسة الناس كأنها إهانة لشخصه، فمضَى غاضبًا إلى دكانه وجلس من مكانه الذي يجلس فيه كلّ يوم، فما يرَى الشمس ولا الجسر، ولا يسمع هدير هؤلاء الناس المتحمّسين وضوضاءهم.

غير أن حالة شيتا حالة شاذّة وحيدة. فالفرح والحماسة كانا يتعاظمان يومًا

بعد يوم، ويشيعان في القُرَى المجاورة. حتى إذا وافت الأيام الأولَى من شهر تشرين الأول (أكتوبر)، نظم عارف بك احتفالاً مهيبًا بمناسبة الانتهاء من بناء الجسر. إنّ هذا الرجل الذي تتصف عاداته وحركاته بالأرستقراطية، والذي تتصف قسوته بأنها هادئة ومحتشمة وحشمة، والذي أنفق كلّ ما اؤتمن عليه من مال في الوجوه التي قدّرها الوزير، من دون أن يحتفظ بشيء لنفسه، كان في نظر الشعب أهمّ شخص في الموضوع كلّه، حتى إنهم كانوا يتحدثون عنه أكثر مما يتحدّثون عن الوزير نفسه. وهكذا كان الاحتفال الذي تولّى تنظيمه على أعظم جانب من الغِنَى والبريق، والعظمة والأبهة.

وتلقّى المراقبون والعمال الهدايا مالاً وملابس، وأولمت وليمة عامة دامت يومين، اشترك فيها كلّ مَن شاء الاشتراك. فأكل الناس وشربوا وعزفوا ورقصوا وغنَّوْا، تكريمًا للوزير، ونظموا سباق خيل وسباق ركض. وعلى ميدان السوق الذي يربط بين الجسر ومركز المدينة، كانت تُطهَى «الحلاوة[1]» بالقدور، وتوزّع على الشعب ساخنة، فيستمتع بها حتى أولئك الذين لم يذوقوها يومًا في الأعياد. وكانت الحلاوة تصل إلى القُرَى التي حول المدينة، فكلما ذاقها أحد سأل الله أن يُتِمّ على الوزير نعمة العافية، وأن يكفل لمبانيه حياة طويلة مديدة. وكان ثمّة أطفال يعودون إلى القدور مرّة بعد مرّة، إلى أن يعرفهم الطباخون ويهجمون عليهم بمغارفهم فيولّوا هاربين. ومات صبيّ غجريّ من فرط ما أكل من الحلاوة الساخنة.

بقيت هذه الأحداث منقوشة في ذاكرة الناس فكانوا يقصّونها كما يقصّون الحكايات عن نشأة الجسر، خاصة وأنّ الوزراء الكرماء والوكلاء الأمناء في القرون اللاحقة قد اختفوا، وانّ مثل هذه الاحتفالات قد أصبحت بعد ذلك نادرة ثم زالت زوالاً تامًا، وأصبح شأنها شأن الأساطير التي تحكَى عن الجنّ وعن ستويا وأوستويا، والتي تُشبه المعجزات.

وفي أثناء تلك الاحتفالات، وفي الأيام الأولَى بوَجْه عامّ، اجتاز الناس الجسر من ضفة إلى أخرَى عددًا لا يُحصَى من المرات. فالصِّبية يجتازونه راكضين والرجال يسيرون عليه في بطء وهم يتحدثون أو يتأمّلون الآفاق الجديدة التي

(1) بالعربية في النص.

يطلّون عليها من كلّ موضع فيه. وكان العاجزون والمشوهون والعُرج والمقعدون ينقلون إلى الجسر على محامل، لأنه ما مِن أحد يريد أن يفوته الاحتفال وأن يتنازل عن نصيبه من المشاركة في هذا الحدث العظيم. وأحسّ أهوَن سكان المدينة شأنًا أنّ طاقتهم قد تضاعفت على حين فجأة، وأنّ قوّتهم قد زادت، كأن مأثرة من المآثر المعجزة التي تفوق الإنسان قد ارتدت إلى مستوى قواهم وإلى حدود حياتهم اليومية، كأنهم اكتشفوا على حين فجأة عنصرًا جديدًا غير العناصر التي كانوا يعرفونها إلى ذلك الحين، أعني الأرض والماء والسماء، كأنما تحققت فجأة، لجميع الناس ولكل فرد من الأفراد، بهذا العمل الخيري الذي قام به إنسان ما، أمنية من أعمق الأمنيات، هي ذلك الحلم القديم الذي يراود خيال البشر منذ وُجد البشر: أن يسيروا على الماء وأن يسيطروا على الفضاء.

كان الشباب الأتراك يبدأون رقص الكولو حول قدور الحلاوة، ثم يسيرون بالرقص إلى الجسر، إذ يتراءَى لهم هنالك أنهم يطيرون لا يمشون على الأرض، ثم يؤلّفون حلقة في داخل الكابيا، وهناك يقرعون الأرض بنعالهم ويضربون البلاطات الجديدة كأنما ليمتحنوا متانة الجسر. وحول حلقة الرقص المرصوصة المدورة المتكونة من هذه الأجسام الشابة التي تتواثب في غير تعب على إيقاع واحد، كان الصِّبية يحفون بالشباب ويرقصون ويتسللون راكضين بين سيقانهم التي أهاجها الرقص، كأنهم يتسللون من خلال حاجز متحرّك، ويقفون، وسط الحلقة، لأول مرة في حياتهم، فوق الجسر الذي سمعوا الناس يتحدثون عنه خلال سنين، على الكابيا التي دُفن تحتها ذلك الزنجي المسكين الذي كان شبحه يظهر في الليل. كان الصِّبية على تمتّعهم برقص الشباب، لا يزالون يحسون ذلك الخوف الذي كان الزنجي يثيره في نفوس الأطفال دائمًا أثناء حياته وعمله في الجسر.

وكان يتراءَى لهم، وهم على هذا الجسر المرتفع الجديد الرائع، أنهم قد تركوا أمّهاتهم وبيوتهم التي وُلدوا فيها، منذ زمن طويل وأنهم يهيمون على وجوههم في عالم الرجال الزنوج، والمباني العجيبة، والرقصات الخارقة. كانوا يرتعدون، ولكنهم لا يستطيعون أن يتخلّصوا من صورة الزنجي ولا أن ينتزعوا أنفسهم من رقصة الكولو الدائرة فوق الكابيا الرائعة. وما كان يمكن أن يلفت انتباههم إلاّ وقوع معجزة جديدة ما..

وهذا شابٌ أبله، من أسرة من أُسَر الآغوات (هي أسرة وتفرتكوفتش التي يتندّر عليها الناس كثيرًا في المدينة) يقال له مراد ويلقّب بالأخرس، ها هو يتسلق فجأة على إفريز الجسر، فيتصايح الصغار، ويصرخ الكبار دهشين خائفين، ولكن الفتَى الأبله يظل ماشيًا على الأحجار الضيّقة كالمسحور، مباعدًا ذراعيه رافعًا رأسه إلى وراء، واضعًا قدميه إحداهما أمام الأخرَى، كأنه لا يحس أنه فوق الماء والهوّة، وكأنه يشارك في أجمل رقص وعلى محاذاته يسير نفر من الصبية الأشقياء ومن المتعطلين يشجعونه على مواصلة السير. وعلى الطرف الآخر من الجسر ينتظره أخوه علي آغا الذي جلده بعد ذلك كما يجلد طفل صغير.

كان كثير من الناس يسيرون مسافة نصف ساعة في اتجاه النهر، حتى يصلوا إلى كالاتا أو ميزالينو، ليتأملوا من هناك هذا الجسر الذي يلوح لهم أبيض خفيفًا، مع قناطره الإحدَى عشرة المتفاوتة طولاً، كأنه نقش تزييني على الماء الأخضر بين التلال القائمة.

في تلك الفترة أُتِيَ بمسلّة بيضاء كبيرة نُقشَ عليها بعض العبارات فثبّتت المسلّة في الكابيا على الجدار الحجري الضارب إلى الحُمرة الذي يعلو إفريز الجسر بثلاث أذرع.

كان الناس يجتمعون مدّة طويلة حول العبارات المنقوشة ويتأملونها، إلى أن يأتي شيخٌ من شيوخ الدين أو شاب متعلّم بعض الشيء، فيقرأ لهم الكلام المنقوش كيفما اتفق، لقاء قدح من القهوة أو شريحة من البطيخ أو ابتغاء مرضاة الله.

تهجّيت هذه العبارات المنقوشة مائة مرّة خلال هذه الأيام. إنها أبيات من الشعر نظمها ناظم من القسطنطينية يقال له بديع، وفيها إشارة إلى اسم باني الجسر، وأصله، ولقبه، وكذلك إلى السنة السعيدة التي تمّ فيها بناء الجسر، وهي السنة 979 هجرية، أي السنة 1571 ميلادية. إنّ «بديع» هذا كان ينظم أشعارًا خفيفة رنانة لقاء نقود ثقيلة طنّانة، وكان يعرف كيف يفرضها بمهارة على أقوياء هذا العالم الذين يشيدون مباني عظيمة أو يصلحونها ويرممونها. والذين يعرفونه (وهم يحسدونه قليلاً) كانوا يقولون ساخرين: إنّ قبة السماء هي المبنَى الوحيد الذي لم ينقَش عليه حتى الآن كلامٌ بقلمه. ولكن «بديع» كان، رغم العطايا الجزيلة التي ينالها، شيطانًا بائسًا ساغبًا يتضور جوعًا لا يني يصارع ذلك

الفقر الخاص الذي يلازم الشعراء عادة كلعنة من طراز فريد لا يدفعها أجر ولا عطاء.

وبسبب ضعف الثقافة بين أهل بلادنا، وبسبب يبوسة رؤوسهم وحِدّة خيالهم، كان كلّ واحد من أنصاف المتعلمين في المدينة يقرأ أشعار بديع على هواه، ويشرحها على ما يتراءَى له. كان شأن هذا الكلام المنقوش على المسلّة كشأن كلّ نَصٍّ آخر، متى أُلْقِي إلى الناس، ظلّ في مكانه خالدًا على الحجر الخالد، عرضةً لجميع الأبصار يقرؤه جميع الناس ويؤوّله جميع الناس، العقلاء منهم والمجانين، الخبثاء ومَن حسُنت نيّاتهم، فكان كلّ واحد من السامعين يحفظ من الأبيات ما يناسب أذنه، أو ما يتّفق وطبعه، وهكذا فإنّ ما كان منقوشًا في الصخر الصُّلب، على مرأى من جميع الناس، كانت تتناقله الأفواه على صُوَر شتّى، وكان يتبدّل في هذه الأفواه في كثير من الأحيان، حتى ليتشوّه تشوّهًا عجيبًا..

كان النصّ المنقوش هو التالي: «هذا محمد باشا أعظم العظماء وأحكم الحكماء في عصره. لقد وفَى بالعهد الذي قطعه على نفسه، فأقام بعنايته وَجهوده هذا الجسر على نهر درينا. على هذا النهر العميق السريع الجرَيان لم يستطع أن يفعل سابقوه شيئًا. والله أسأل أن يجعل مبناه قويًا متينًا، وأن يرفل بثوب السعادة وألّا يعرف الحزن إلى قلبه سبيلاً، لأنه ظلّ طوال حياته ينفق الفضة والذهب في أعمال البِرّ. وما من أحد يستطيع أن يقول إنّ المال الذي ينفق في هذه الوجوه يذهب سُدًى. إنّ «بديع» الذي رأى كلّ ذلك قد نظم هذه الأشعار حين انتهَى بناء الجسر. بارك الله هذا المبنَى الذي بلغ في جماله الإعجاز».

شبع الشعب أخيرًا من الإعجاب، واكتفَى من السير على الجسر، وملّ الإصغاء إلى الأشعار المنقوشة في الصخر. إنّ الجسر الذي كان في أيامه الأولَى أعجوبة من الأعاجيب، قد دخل الآن في حياة الناس اليومية، فأصبحوا يجتازونه مسرعين غير مبالين، مهمومين، ذاهلين، كذلك الماء المصطخب الذي يجري تحته، حتى لكأنّ الجسر واحد من الدروب الكثيرة التي مهّدوها هم ودوابّهم بالأقدام. وصمتت المسلّة في أعلَى الجدار، ككلّ حجر آخر من هذا النوع.

إنّ الطريق الذي في الضفة اليُسرَى أصبح الآن مرتبطًا بالطريق الصغير الذي في السهل العالي على الجهة الأخرَى. واختفَى المركب الصغير الأسود النّخرِ

وصاحبه العجيب. وفي الأعماق تحت أواخر قناطر الجسر بقيت صخور ورمال، وبقيت ضفّتان منحدرتان، عليهما كان الناس ينتظرون في مشقة، وينادون من ضفّة إلى أخرى في غير طائل. هذا كلّه، مع النهر العارم، أصبح يجتاز الآن بما يشبه السحر. ففي أعلَى، فوق هذا كله، أصبح الناس الآن يسيرون قُدُمًا من ضفّة إلى أخرَى كأن لهم أجنحة تحملهم، يسيرون فوق الجسر العريض الطويل، القوي الباقي كجبل، الذي يرنّ تحت حوافر الخيل كأنه لم يصنع إلاّ من بلاطة حجرية نحيلة.

واختفت أيضًا تلك الطواحين الخشب، وتلك البيوت الصغيرة التي يأوي إليها المسافرون إذا مسّت الحاجة إلى ذلك، وانتصب في مكانها نُزلٌ قوي مترَف يستقبل عددًا من المسافرين ما ينفكّ يزداد يومًا بعد يوم. إنّ المرء يدخل إلى النُزْل من باب عريض ذي خطوط منسجمة. وعلى جانبي الباب نافذتان كبيرتان لهما قضبان ليست من حديد، بل من نَحِيت الحجر، وكلّ قضيب قطعة واحدة، والفناء العريض المستطيل يتّسع لأحمال البضائع والأمتعة، وحول الفناء تصطفّ أبواب ستّ وثلاثين غرفة، وفي خلف، على الرابية، تقع الحظائر. وما كان أشدّ دهشة الناس حين رأَوْا أنّ الحظائر مبنية هي أيضًا من حجر، حتى لكأنها بيت لخيول السلطان. ما من نُزْل كهذا النُزْل من سيراييفو إلى أدرنة. إنّ كلّ مسافر يستطيع أن يقيم في هذا النُزل يومًا وليلة، يلتمس فيه المأوَى والنار والماء له ولخدمه ولخيله، من دون أَجْر.

هذا كله، كالجسر نفسه، إنما هو مبنَى خيري، شاده الوزير الأكبر محمد باشا الذي وُلد منذ ستين سنة هنا وراء هذه الجبال في تلك القرية العالية، قرية سوكولوفتش، والذي اقتيد إلى استانبول «ضريبة دم». وكانت نفقات النُزل تأتي من أملاك بناها محمد باشا بأموال الغنائم التي استولَى عليها من احتلال المجر حديثًا، ثم جعل هذه الأملاك وقفًا على النُزل.

وهكذا أزال بناء الجسر والنُزل كثيرًا من ضروب العداء والعناء. وربما كان ينبغي أن يزول أيضًا ذلك الداء الشديد الذي أصيب به الوزير في طفولته وهو على مركب فيشيغراد، أعني ذلك الأخدود الأسود الحاد الذي يشقّ صدره شقّين من حين إلى حين ولكن الوزير لم يُكتَب له أن يعيش من دون ذلك الألم، ولا أن يستمتع مدة طويلة بصورة ذلك المبنَى الذي شاده في فيشيغراد. فما إن انتهت

أعمال البناء، وما أن بدأ النُزل يستقبل روّاده، وما إن أخذ الجسر يشتهر في العالم، حتى أحسّ محمد باشا بألم «النصل الأسود» مرّة أخرَى في صدره، وكانت هذه المرّة هي الأخيرة.

ففي يوم من الأيام «الجمعة» بينما كان داخلاً إلى أحد المساجد مع أتباعه، اقترب منه درويش رثّ الثياب نصف مجنون، مادًا يده اليسرَى يسأله صدَقة. فلمّا التفت إليه الوزير ليأمر أحد أتباعه بإعطاء الفقير بعض المال، كان الدرويش قد أخذ من كُمّ يده اليمنى ساطورًا ثقيلاً من سواطير الجزارين فطعن به الوزير طعنة قوية بين الأضلاع. وقتل أتباع الوزير الدرويش، فمات القاتل والقتيل في لحظة واحدة، وظلا ممددين على البلاطات السمراء أمام المسجد بضع لحظات، أحدهما قرب الآخر: القاتل والقتيل، البدين، الدموي الذي تمدد على الأرض مباعدًا ذراعيه وساقيه، كأنما هو لا يزال في سورة الغضب من طعنته المسعورة، وإلى جانبه الوزير الأكبر، وقد فُكّت الأزرار عن صدره، وتدحرجت قلادته بعيدة عنه. كان الوزير الأكبر قد نحل جسمه وتقوّس خلال السنين الأخيرة، وكان وجهه قد كبا وتصلّبت قسماته. فإذا نظرت إليه الآن عاريَ الصدر عاريَ الرأس داميًا منطويًا منكمشًا على نفسه، رأيته أشبه بفلاح عجوز من سوكولوفتش ظلّ يضرب إلى أن مات، منه بوزير مهيب صريع كان منذ لحظة يحكم الأمبراطورية التركية.

وانقضت أشهُر قبل أن يصل إلى المدينة نبأ موت الوزير، ولم يصل النبأ واضحًا، بل وصل همسات خفية تقبل التصديق والتكذيب. ذلك أنه لم يكن مباحًا في الأمبراطورية التركية أن تنتشر الأخبار السيئة والأحداث التعيسة بين الناس، وأن تتناقلها أفواههم، حتى ولو وقعت في بلاد مجاورة، فكيف إذا كان الأمر أمر كارثة أصابت الوطن. ثم إنه لم يكن في مصلحة أحد أن يتحدث الناس كثيرًا خلال مدة طويلة عن موت الوزير الأكبر. إنّ حزب خصومه، الذي ظفر أخيرًا بقتله، قد حرص على تشييعه في جنازة فخمة مهيبة، وعلى أن يدفن كلّ ذكرَى حيّة عن شخصه. أمّا أقرباء محمد باشا وأعوانه وأنصاره الذين كان أكثرهم في استانبول، فإنهم لا يعترضون على ألا يتحدث الناس كثيرًا عن الوزير الأكبر السابق، فبذلك يكبر أملهم في التقرُّب من الحاكمين الجدد وفي بلوغ الحظوة لديهم وفي التكفير عن ماضيهم.

ولكنّ البناءَين الجميلين اللذين قاما على نهر درينا، أخذا يحدثان أثرهما في التجارة والمواصلات، وفي مدينة فيشيغراد، وفي جميع ما يحيط بها من قُرًى، وكانا يُحدثان هذا الأثر لا يحفلان بالأحياء وبالأموات، ولا يعبآن بمن يصعدون ولا بمن يسقطون. أخذت المدينة تنزل من الروابي نحو النهر، وتنمو وتتسع يومًا بعد يوم، وتتركّز حول الجسر وحول النُزل الذي أطلق عليه الشعب اسم الفندق الحجري.

هكذا وُلد الجسر والكابيا التي عليه، وهكذا نَمَت المدينة التي حوله. وبعد ذلك، خلال ثلاثة قرون، ظلت منزلته في تطوّر المدنية وظلّ معناه في حياة السكان، على النحو الذي وصفناه في إيجاز. وإنما كان معناه وجوهر وجوده في بقائه ودوامه إن صحّ التعبير. إنّ خطه المضيء في صورة المدينة لم يتبدل، كما لم تتبدل وجوه الجبال على صفحة السماء من حوله. القمر يكبر ويصغر فوقه، والأجيال تولد وتموت حوله، وهو باقٍ لا يتبدّل، كالمياه التي تجري تحت قناطره. ولئن هرم هو أيضًا فإنّ الشيخوخة كانت تدلف إليه على مقياس زمني ليس أكبر من عمر الإنسان فحسب، بل هو أكبر من أعمار أجيال كثيرة أيضًا.. بحيث إنّ العين لا يمكن أن تبصر تقدمه في السِّنّ. ورغم أن مصير الجسر إلى فناء فقد كانت حياته تبدو خالدة، لأنّ نهايته لا يمكن التنبُّؤ بها.

الفصل الخامس

انقضى القرن الأول. ولئن بدا طويلاً، وأجهز على كثير من الناس وعلى عدد من أعمالهم، فإنه ولّى من دون أن يترك آثاراً على المباني الكبرى التي أُحسن تصميمها وبُنيت بناء قوياً متيناً. وبقي الجسر، والكابيا التي عليه، والنزل الذي يجاوره، بقي ذلك كله قائماً، وظل يقوم بعمله كما في اليوم الأول. وكان يمكن أن ينقضي القرن الآخر على هذا النحو نفسه، مع تعاقب الفصول وتعاقب الأجيال، وكان يمكن أن تظل تلك المباني على حالها من دون أن يطرأ عليها تغير، لولا أن ما عجز الزمن عن تحقيقه قد ولده تعاون مترجرج لم يكن في الحسبان، بين ظروف بعيدة بعضها عن بعض.

ففي تلك الفترة، عند نهاية القرن السابع عشر، كانت الأغاني والأحاديث التي تقوم بين الناس وما يهمس به بعضهم لبعض تدور في كثير من الأحيان عن بلاد المجر التي أخذ الجيش التركي يجلو عنها بعد أن احتلها سحابة قرن برمته. على هذا كان يدور الكلام في البوسنة. إن كثيراً من سادة البوسنة قد هبوا يدافعون بالسلاح عن الأراضي التي يملكونها في المجر، فتركوا عظامهم على أرض المجر أثناء الانسحاب. ويمكن أن يقال: إن هؤلاء الذين ماتوا كانوا أسعد حظاً من غيرهم، ذلك أن كثيراً من السادة الآخرين عادوا إلى وطنهم البوسني القديم عراة كالأصابع، تنتظرهم فيه أرض غير خصيبة وحياة ضيقة معسرة، بعد الحياة الثرية الموسرة التي عرفوها في المجر، وبعد السيطرة على أرض واسعة ملكوها في المجر. إن أصداء بعيدة ضعيفة لهذه الأحداث وصلت حتى إلى هنا، ولكن لم يقدِّر أحد أن هذه الهنغاريا، بلاد الأغاني، يمكن أن يكون لها أي صلة بالحياة الواقعية اليومية التي تعيشها المدينة الصغيرة. ومع ذلك فهذا ما كان. فحين انسحب الأتراك من المجر، فإن الأوقاف التي كان يعيش النزل من مواردها أصبحت في خارج حدود الإمبراطورية فضاعت هذه الموارد.

وأهالي المدينة الصغيرة، والمسافرون الذين ينزلون في النزل الحجري منذ قرن، قد تعودوا عليه، فهم لا يفكرون أبداً في الموارد التي يعيش عليها، ولا يتساءلون عن نشأة هذه الموارد ولا عن أصلها. كانوا جميعاً ينعمون بالنزل، وينتفعون به، كأنه شجرة مثمرة مباركة جزيلة العطاء على جانب الطريق، لا يملكها أحد، وإنما هي للناس كافة. كانوا يستمطرون الرحمة على روح الوزير، لكنهم لا يفكرون في أن الوزير قد مات منذ قرن، ولا يتساءلون عمن يحافظ الآن على أراضي السلطان وأملاك الأوقاف ويدافع عنها. ومن ذا الذي يستطيع أن يتصور أن أمور هذا العالم متشابكة هذا التشابك، مرتبطة بعضها ببعض هذا الارتباط كله على بعد الشقة لذلك لم يلاحظ أحد في المدينة أن الموارد قد نضبت. وظل الخدم يعملون في النزل على عادتهم ويستقبلون المسافرين كما كانوا يفعلون، وظنوا أن الأمر لا يعدو أن المال المخصص للنزل قد تأخر وصوله، وهذا ما سبق أن حدث. ومع ذلك ظلت الأشهر والسنون تمضي والمال لا يصل. ترك الخدم العمل. وراح مدير أملاك الوقف الذي كان يعمل في ذلك الوقت، وهو داود خجا متولي (كان اسم متولي يطلق عليه بحكم تولّيه شؤون الأوقاف، ثم أصبح هذا الاسم اسماً لأسرته) راح يسأل جميع الجهات، فما يحصل من أحد على جواب. وأصبح المسافرون يخدمون أنفسهم، أصبحوا ينظفون النزل في حدود حاجتهم وحاجة دوابهم إلى ذلك، فإذا بارح أحدهم النزل خلف للذي بعده كثيراً من الأوساخ والفوضى، فكان على هذا أن ينظف وأن يرتب، كما نظّف الأول ما وجده من وساخة، وكما رتب ما وجده من فوضى. غير أن كل فرد كان يترك وراءه من الوساخة أكثر مما وجد.

وفعل داود خجا كل ما في وسعه لينقذ النزل وليبقيه على قيد الحياة. فأنفق في أول الأمر من جيبه، ثم أخذ يستدين من أقاربه، فكان يرمم المبنى الغالي ويجمله سنة بعد سنة، فإذا قال له بعضهم: إنه يدمر نفسه بالمحافظة على شيء لا يمكن المحافظة عليه، أجاب بأنه يضع المال في محله، وأنه يقرض الله قرضاً حسناً، والله هو ولي الأوقاف، فلا يمكن أن يهجر هذا البناء الخيري الذي كان واضحاً أن الناس جميعاً قد هجروه.

إن هذا الرجل الحكيم التقي، العنيد الصلب، الذي ظلت المدينة تتذكره مدة طويلة، أبى أن يتحول عما يبذل من جهد، رغم أن هذا الجهد كان بغير أمل.

كان يعمل بإخلاص وتفانٍ، لأنه قد علم منذ مدة طويلة بأن الإنسان على هذه الأرض إنما خلق ليصارع الخراب والدمار والفناء والزوال، وأن على الإنسان أن يواصل هذا الصراع، ولو فقد الأمل. وكان إذا جلس أمام النزل الآيل إلى السقوط على مرأى منه، فحاول أحد أن يثنيه عن جهوده أو أن يرثي لحاله، كان يجيب بقوله:

لا ترثوا لحالي. فإنما نحن جميعاً لا نموت إلا مرة واحدة، في حين أن العظماء يموتون مرتين: مرة حين يبارحون هذه الأرض، وأخرى حين يزول ما شادوه من بناء.

وحين أصبح الرجل عاجزاً عن دفع أجور العمال، أخذ يتولى بنفسه، رغم شيخوخته، قلع الأعشاب الضارة التي تنبت حول النزل، والقيام ببعض الترميمات اليسيرة. وهكذا وافته منيته فجأة ذات يوم، بينما كان على السقف يبدل قرميدة مكسورة بأخرى سليمة. إنه لمن طبيعة الأمور أن يعجز رجل بسيط من مدينة صغيرة عن صيانة مبنى شاده وزير كبير، وحكمت عليه أحداث التاريخ بالموت.

بعد موت داود خجا أخذ النزل يتداعى فجأة وظهرت عليه علامات الانهيار في كل مكان: سُدت المجاري فأصبحت تنشر روائح كريهة، وتكسّر قرميد السقف فأخذت الأمطار تنفذ منه، وتهشمت النوافذ والأبواب فأصبحت الرياح تترجع فيها، وغارت الحظائر في الدمن والأعشاب. غير أن البناء الحجري الذي أحسنت عمارته ظل من ظاهره سليماً لم تمتد يد الدمار إلى جماله الهادئ، كما أن النوافذ الكبرى في الطابق الأرضي مع قضبانها المقدودة من كتلة واحدة من طريّ الحجر، المنتصبة كأنها حيطان نحيلة، ظلت تطلّ على العالم في هدوء. أما نوافذ الطابق الأعلى التي كانت بلا زينة فقد أخذت تظهر فيها علائم الشقاء والهجران والفوضى التي في الداخل.

وشيئاً فشيئاً، أصبح الناس يتحاشون قضاء الليل في المدينة، أو أصبحوا يبيتون في فندق آوستامويتشي بأجر. وقلّ عدد المسافرين الذين يأوون إلى النزل يوماً بعد يوم، رغم أن أجر المبيت فيه لا يعدو أن يكون ترحُّماً على روح الوزير. وأخيراً، حين أصبح واضحاً أن المال لا يصل، وأنه ما من أحد سيتولى شؤون هذا المبنى الذي أقامه الوزير، عزف الناس جميعاً، ومن بينهم المدير الجديد لأملاك الأوقاف، عن الاهتمام به، فأصبح النزل أخرس خاوياً، وأخذ

يتضعضع ويسقط، شأنه شأن سائر المباني التي لا يسكنها أحد ولا يعنى بها أحد. وحول النزل كانت تنبت أعشاب برية وأشواك. وعلى السقف أخذت الغربان والزيفان تبني أعشاشها وتتجمع أسراباً سوداء.

وهكذا أخذ النزل الحجري الذي بناه الوزير، يتداعى، وراح يسقط قبل الأوان سقوطاً لم يكن في الحسبان (إن جميع الأمور التي من هذا النوع تقع في الظاهر وقوعاً ليس في الحسبان).

ولكن، لئن خان النزل رسالته وسقط قبل أوانه لظروف خارقة، فإن الجسر، الذي لم يكن يتطلب رقابة ولا صيانة ظل قائماً على حاله لم يتبدل. وظل يربط بين الضفتين المتقابلتين، وظل ينقل من جهة إلى أخرى أثقالاً حية وميتة كما كان يفعل منذ أول يوم.

وعلى جدرانه كانت تبني الطيور أعشاشها، وفي الشقوق المستترة التي صنعها الزمن في حيطانه، كانت تنبت خصل صغيرة من الأعشاب. والحجارة الصفراء ذات المسام التي بني بها الجسر تصلبت واشتدت بتأثير تعاقب الرطوبة والحرارة. ومن طول ما لطمتها الرياح التي تهب على وادي النهر في الاتجاهين، ومن طول ما غسلتها الأمطار وجففتها حرارة الشمس، حال لونها مع الزمن، فأصبحت تضرب إلى بياض كاب شاحب أغبر، وأصبحت تلتمع في الظلام كأنها مضاءة من داخل.

والفيضانات الكبرى الكثيرة التي كانت تنزل على المدينة شقاء ثقيلاً دائماً، لم تستطع أن تنال من الجسر. كانت هذه الفيضانات تحدث كل عام، في الربيع والخريف، لكنها لم تكن دائماً على درجة واحدة من الخطر والأذى بالنسبة إلى المدينة قرب الجسر. ومهما يكن من أمر، فلقد كان نهر درينا يتضخم ويضطرب هادراً مرةً واحدةً في السنة على الأقل، حاملاً خلال قناطر الجسر ما جرف من أسيجة الحقول وأرومات الأشجار المختلطة بأوراق الشجر وأغصان الغابات التي على الضفاف. وكانت البساتين وأقنية البيوت والمخازن تصاب في المدينة أيامها بأضرار.

كان الفيضان يقتصر على هذا.

إلا أن فيضانات كبرى كانت تحدث من حين إلى حين على غير اطراد، مرةً كل عشرين سنة أو كل ثلاثين، فتترك في نفوس الناس ذكرى عميقة كذكرى

الثورات أو الحروب، وتظل خلال مدة طويلة تواريخ يحسب على أساسها عمر المباني وعمر البشر (فيقال مثلاً: «بعد الطوفان الكبير بست سنين» أو «أثناء الطوفان الكبير»).

فبعد هذه الفيضانات الكبرى، لا يبقى إلا قليل من الأموال المنقولة في هذا النصف الكبير من المدينة الذي يمتد في السهل على اللسان الرملي الصغير بين درينا ورزاف. إن طوفاناً ضخماً هذه الضخامة يجعل المدينة كلها تتقهقر بضع سنين إلى وراء، إذ إن الجيل الذي يشهده ينفق ما بقي له من عمر في إصلاح الأذى الذي خلفه «الطوفان الكبير»، وفي مداواة أنواع الشقاء التي أنزلها في الناس. ويظل الناس إلى آخر حياتهم يذكرون في أحاديثهم الذعر الذي أصابهم في تلك الليلة من ليالي الخريف، حين أخذوا، تحت المطر البارد في مهب الريح، وعلى ضوء مصابيح قليلة، يفرغون دكاكينهم ويحملون بضائعهم لينقلوها إلى أعلى، عند حي الميدان، في بيوت ومخازن لغيرهم، حتى إذا طلع الغد، راحوا ينظرون من أعلى الرابية إلى هذه المدينة التي يحبونها حباً قوياً على غير شعور، كأنها دمهم الذي يجري في عروقهم، ويتأملون الماء المُرغي المزبد الذي يتدفق في الشوارع على ارتفاع السقوف وينتزع من هذه السقوف لوحاً من ألواح الخشب بعد لوح، في هدير وقرقعة، ويحاولون أن يحزروا لمن البيوت التي صمدت للطوفان فلا تزال قائمة.

وكان أرباب الأسر، الذين شابت رؤوسهم وأثقلتهم الهموم، كانوا إذا هم جلسوا بعضهم إلى بعض في أعياد السلافا أو أعياد الميلاد أو ليالي رمضان، ينتعشون وتنطلق ألسنتهم في الثرثرة متى مسّ الحديث ذلك الحادث الذي كان أخطر أحداث حياتهم شأناً وأضناها شقاء، أعني: «الطوفان». إن ذكرى الطوفان تظل، بعد انقضاء خمسة عشر عاماً أنفقوها في التوفير وإصلاح البيوت، تظل توافيهم على أنها شيء مخيف، عظيم، عزيز على النفوس، قريب من القلوب. إن هذه الذكرى لهي رابطة وثيقة تصل بين الذين لا يزالون أحياء من أبناء ذلك الجيل، والذين يقلّ عددهم عاماً بعد عام، فما من شيء يربط بين الناس كما تربط بينهم ذكرى شقاء عانوه معاً، واجتازوه معاً، وعاشوا بعده معاً. لذلك كانوا يشعرون بذلك الحب كله نحو ذكريات تلك الضربة التي هي أقسى ضربة نزلت بهم. وكانوا يجدون في بعث هذه الذكريات لذات لا يفهمها الشباب. كانت هذه

الذكريات لا ينضب لها معين، وكان التعب لا يجد سبيلاً إليهم حين يمضون يوقظون هذه الذكريات. وكان كل منهم يكمل ما يقصّه الآخر، ويبعث ذكراه. إن أعينهم الشائخة الحائلة الشاحبة لينظر بعضها في بعض، فترى ما لا يستطيع الشباب أن يحسُّوه. وإنهم ليتحمسّون لما يذكرون، مغرقين همومهم الحاضرة اليومية في ذكرى هموم أكبر زالت منذ زمان طويل لحسن الحظ.

كانوا إذا جلسوا في الغرف المدفأة من بيوتهم التي مر بها الطوفان ذات يوم في الماضي، يجعلون يقصون، للمرة المائة، بلذة خاصة، بعض المشاهدة المؤثرة أو المفجعة من ذلك الحادث. كلما كانت الذكرى أبعث على الألم والعذاب، كانت لذة روايتها أعظم وأقوى. وكانت هذه المشاهد التي يروونها من خلال دخان التبغ أو من خلال قدح من شهي الخمر، تتشوه في كثير من الأحيان، وتدخلها المبالغة، ويزينها الخيال والبعد، غير أن كل واحد من المتحدثين كان لا يلاحظ ذلك، بل كان مستعداً لأن يحلف الأيمان المغلظة على أن الأمر وقع على هذا النحو، لأن كل واحد منهم كان قد ساهم في هذه الزخرفة على غير إرادة أو شعور.

هكذا كان يعيش دائماً عدد من الشيوخ الذين يتذكرون الطوفان الكبير الآخير، فيظلون يتحدثون عنه في ما بينهم، ويرددون على مسامع الشبان إنه لم يبق في هذا الزمان كوارث كالكوارث التي شهدها الزمان الماضي، وإنه لم يبق في هذا الزمان أيضاً ما كان في الزمان الماضي من خير وبركة.

ومن أكبر الفيضانات في تاريخ المدينة، فيضان وقع في السنة الأخيرة من القرن الثامن عشر، وظل منقوشاً في ذاكرة الناس مدة طويلة، وكان مدار كثير من الأقاصيص.

لم يكن بين أفراد ذاك الجيل (على ما روى الشيوخ في ما بعد) أحد يتذكر الفيضانات الكبرى الأخيرة حق التذكر. ومع ذلك كان جميع الناس على حذر أثناء تلك الليالي الممطرة من ليالي الخريف، لأنهم يعرفون جميعاً أن «الماء غدار» ولهذا أفرغوا المخازن القريبة من النهر، وجعلوا يدورون على الضفة أثناء الليل بالمصابيح، ويصيخون بأسماعهم إلى همهمات الماء، (ذلك لأن الشيوخ يؤكدون أن المرء يستطيع أن يعرف من نوع هدير التيار هل الفيضان واحد من تلك الفيضانات التي تحدث كل عام من دون أن تسبب إلا أضراراً يسيرة، أو هو

فيضان من تلك الفيضانات النادرة، لحسن الحظ، التي تغرق الجسر والمدينة، وتجرف معها كل ما لم يُبْنَ بناء متيناً ولم يُقَمْ على أسس قوية جبارة). ولاحظوا في اليوم التالي أن مياه درينا لا تعلو فنامت المدينة في تلك الليلة نوماً عميقاً، لأن الناس قد أضناهم التعب والأرق من قلق ليلة البارحة. كذلك خدعهم الماء عن نفسه. ففي تلك الليلة ارتفعت مياه رزاف على حين فجأة ارتفاعاً هائلاً وجاءت مياهه الحمراء من كثرة الوحل فأوقفت مياه درينا عند التقاء النهرين، وسدت طريقها.. فاختلطت مياه النهرين في المدينة.

كان صولي آغا عثمان أغتش، وهو واحد من أغنى أتراك المدينة، يملك جواداً عربياً أصهب، كريم النسب غالي الثمن عظيم الجمال. فلما أخذت مياه نهر درينا المحجوزة ترتفع، أخذ الحصان يصهل ويصهل، ولم يهدأ إلا بعد أن أيقظ الخدم ورب البيت من نومهم فأخرجوه من الحظيرة التي تقع إلى جانب النهر: وهكذا استيقظ من النوم أكثر السكان. وراح الناس يتراكضون تحت المطر البارد والرياح العاتية يهربون وينقذون من الكارثة كل ما كان في وسعهم أن ينقذوه. إنهم يخوضون في الماء الموحل حتى الركب نصف عراة حاملين على ظهورهم أولادهم الموقظين الباكين. والبهائم مذعورة. وفي كل لحظة تسمع قرقعات صماء. إنها جذوع الأشجار وأروماتها التي انتزعها درينا من الغابات في الماء تصطدم بأعمدة الجسر الحجري.

وهناك في أعلى، عند الميدان، حيث لا يمكن أن يصل الماء أبداً في أية حال من الأحوال، كانت النوافذ مضيئة، وها هي ذي قناديل ضعيفة تهتز بغير انقطاع وهي تخترق الظلمات. لقد فتحت أبواب البيوت كلها، تستقبل المتضررين الذين يدخلونها مبللين مروَّعين، حاملين على أذرعهم أطفالاً وأشياء لا يستغنى عنها. وفي الزرائب تشتعل نيران يتجفف قربها أناس لم يجدوا أماكن لهم في البيوت.

واجتمعت وجوه الحي التجاري ـ بعد أن أدخلوا الناس إلى البيوت.. اجتمعوا في منزل حاجا ريستانوف، في القاعة الكبرى من الطابق الأرضي، فكنت ترى، هنالك، الرؤساء والمديرين من جميع أحياء المدينة، وقد هدّهم التعب وتبللت أجسامهم، بعد أن أيقظوا جميع السكان ووضعوهم في أمان. إنك ترى الأتراك والمسيحيين واليهود مختلطين. إن عنف العناصر وعبء الشقاء قد

قربا بين جميع الناس، وأرسيا جسراً على الهوة التي تفصل ديناً عن آخر، ولا سيما المسيحيون والأتراك. فهاهم أولاء يجتمعون جنباً إلى جنب: صولي آغا عثمان أغتش، والثري بطرس بوغدانوفتش، وموردوبابو، والكاهن ميخائيلو (وهو قس بدين قليل الثرثرة فكه خفيف الظل)، والملا عصمت، وهو رجل سمين جاد، وخجا فيشيغراد (وهو رجل من رجال الدين الأتراك) وإلياس ليفي (الملقب حاجي لياتشو، وهو حاخام عرف حتى في خارج المدينة بسداد رأيه وسماحة طبعه). وهناك أيضاً ما يقرب من عشرة وجوه أخرى من أعيان البلد وممثلي الأديان الثلاثة، قد اختلط بعضهم ببعض. إنهم جميعاً مبللون شاحبون، لكنهم يتظاهرون بالهدوء. إنهم جالسون يدخنون ويتحدثون عما اتخذ من تدابير الإنقاذ وعما يجب اتخاذه منها أيضاً. وفي كل لحظة يدخل عليهم شباب يسيل عليهم الماء أنهاراً، فيعلنون أن جميع الأحياء قد تم نقلهم إلى الميدان وإلى ما وراء القلعة، وأنهم أدخلوا هنالك إلى البيوت المسيحية والتركية، وأن الماء لا يزال يعلو، ويجتاح المدينة شارعاً بعد شارع.

وكلما تقدم الليل (وإنه ليتقدم بطيئاً ويتراءى ضخماً ويعلو ويندفع بغير انقطاع كالماء الذي تحت) أحس الأثرياء والرؤساء بالدفء وهم يحتسون القهوة ويشربون الخمرة. إن حلقة ضيّقة دافئة تتكون، كحياة جديدة واقعية وغير واقعية في آن واحد، فهي ليست الحياة التي كانت في أمس، ولا الحياة التي ستكون في غد. إنها أشبه بجزيرة طافية على فيضان الزمان. ويعلو الحديث ويشتد، ثم يتغير اتجاهه، بما يشبه اتفاقاً مضمراً بين المجتمعين. إنهم يتحاشون حتى الكلام على الفيضانات السابقة التي لا يعرفون عنها شيئاً إلا ما نقل إليهم من حكايات وأقاصيص. إنهم يتحدثون عن أمور لا صلة لها بالماء ولا بالشقاء الذي ينزل في هذه اللحظة.

إن هؤلاء الناس الذين هدهم الكرب يبذلون جهوداً مستميتة من أجل أن يتظاهروا بالهدوء وعدم المبالاة، بل وبشيء من الخفة. فبفضل تفاهم مضمر قائم على تفكير خرافي، ونزولاً على قواعد (غير مكتوبة ولكنها مقدسة) في آداب الرصانة والرزانة، وهي القواعد التي تلتزمها بيئة المالكين الأثرياء والحي التجاري، والتي أصبحت لها قوة القوانين منذ أزمان سحيقة، بفضل ذلك التفاهم، ونزولاً على تلك القواعد، كان كل فرد من هؤلاء الأفراد المجتمعين

يرى أن من واجبه أن يكبح مشاعره، وأن يخفي همومه ومخاوفه في ظاهر الأمر على الأقل، وأن يجعل حديثه، إزاء نازلة لا حيلة له في دفعها، يدور على أمور بعيدة بلهجة مرحة.

وفيما كان الناس قد بدأوا يستردون هدوءهم بهذه الطريقة، ويجدون لحظة من نسيان، ويجدون مع النسيان بعض الراحة وبعض القوة التي سيحتاجون إليها في غدٍ كثيراً، دخل عليهم نفر من الرجال يجيئونهم بكوستا باراناتس. كان هذا المالك الذي لا يزال شاباً، مبللاً كل التبلل، متوحلاً حتى الركبتين، قد سقط عنه حزامه. فلما دخل عليهم شدهه النور، وشدهه وجود هذا العدد الكبير من الناس في القاعة، وأخذ ينظر إلى تحت كأنه في حلم، وراح يمسح عن وجهه الماء الذي يسيل عليه غزيراً. وأفسحوا له مكاناً، وقدموا له قدحاً من الراكيا، لكنه لم يستطع حتى أن يحمل القدح إلى شفتيه. كان جسمه كله يرتعش من أخمص قدميه إلى قمة رأسه. ودار في القاعة الهمس: لقد أراد أن يثب إلى التيار القاتم الذي يتدفق الآن على الضفة الرملية، في المكان الذي تقع فيه عنابره وخزائنه.

إن كوستا باراناتس رجل شاب، لم يكن في الماضي من سكان المدينة، وإنما جاءها منذ عشرين عاماً صبياً أجيراً، ثم تزوج بنت إحدى الأسر الغنية وسرعان ما أصبح على جانب من الثراء. إنه ابن فلاح، لكنه استطاع في السنين الأخيرة أن يجمع ثروة سريعة بصفقات جريئة لم يراعِ فيها أحداً، فأصبح بذلك أغنى من كثير من الأسر الغنية. إنه لم يألف الخسارة قبل ذلك، ولا هو يعرف كيف يحتمل الكوارث. وقد احتكر في هذا الخريف مقادير كبيرة من الخوخ والجوز، مقادير تفوق طاقاته كثيراً، أملا في أن يفرض الأسعار على سوق الفاكهة، فيسدد ما عليه من ديون ويجني أرباحاً طائلة، كما فعل ذلك في العام الماضي. وها هي. . . . ثروته كلها تدمر الآن تدميراً.

مضت فترة من الوقت قبل أن يزول الأثر الذي أحدثه في نفوس المجتمعين منظر هذا الرجل الذي طاش صوابه. ذلك أن الطوفان قد نالهم جميعاً بأذى كبير أو صغير، وبفضل ما فطروا عليه من شعور بالحشمة واللياقة، إنما كانوا يسيطرون على أنفسهم أكثر من هذا الغني الحديث الغنى.

وعاد الرجال المسنون المحترمون يحولون الحديث مرة أخرى نحو أمور لا

تتصل بالطوفان. وأخذوا يقصون حكايات عن الزمان القديم، ليس لها أي علاقة بالكارثة التي جمعتهم هنا قسراً، وجاءت بهم سراعاً من كل صوب.

كانوا يشربون الراكيا المحرقة، ويقصون حكايات عن وجوه طريفة من الأزمان المنصرمة، يوقظون ذكرى أشخاص شاذين من سكان المدينة، ويروون أنوعاً شتى من أحداث شائقة غريبة. وكان كل من الكاهن ميخائيلو وحاجي لياتشو قدوة في هذا. حتى إذا تعرض الحديث مرة أخرى لطوفان ماض على غير إرادة من المتحدثين، لم يذكروا من حوادث هذا الطوفان إلا جوانبها الخفيفة المسلية، أو ما كان يبدو من هذه الجوانب خفيفاً مسلياً بعد انقضاء مثل هذا العدد الكبير من السنين، حتى لكأنهم يعمدون إلى أساليب سحرية يتحدون بها الطوفان.

تحدثوا عن الكاهن يوفان الذي كان في الماضي قساً في هذه المدينة، والذي يصفه الناس بأنه رجل طيب، غير أن يده غير مباركة، كما أن صلواته ودعواته ليست بذات قيمة عند الله. ففي الصيف، أثناء فترات الجفاف والقحط التي كثيراً ما كانت تأتي على المحصول كله، كان الكاهن يوفان يسير في كل مرة على رأس موكب من الناس فيصلي ويدعو الله أن يرسل الغيث، فما يعقب هذا الموكب وهذه الصلوات والادعيات في العادة إلا مزيد من القحط ومزيد من الحر الخانق. وفي أحد فصول الخريف، بعد صيف قاحط، أخذت مياه نهر درينا تعلو، ولاح أن طوفاناً كبيراً سيغمرُ المدينة، فجاء الكاهن يوفان إلى شاطىء النهر، وجمع المؤمنين وأخذ يدعو الله أن يقطع سيل المطر وارتفاع المياه. فما كان من رجل سكير يقال له يوكتش، وقد لاحظ أن الله يفعل عكس ما يسأله الكاهن بوجه عام، ما كان من هذا الرجل إلا أن صاح بأعلى صوته:

ـ لا تقل هذا الدعاء، يا أبت، بل قل دعاء الصيف، دعاء الغيث. . فلا شك أن المطر سينقطع إذا أنت دعوت الله أن يرسل الغيث.

وتحدث عصمت أفندي، السمين البدين، عن أسلافه وعن مكافحتهم للفيضانات فقال: أثناء طوفان حدث منذ مدة طويلة، خرج اثنان من المشايخ لدعاء الله أن يدفع عن المدينة البلاء. وكان بيت أحدهما في الجزء المنخفض من المدينة وهو الجزء المهدد بالطوفان، بينما كان الثاني يسكن على الرابية التي لا يمكن أن يصل إليها الطوفان. وهذا الثاني هو الذي بدأ الدعاء، فلم تنخفض المياه، فما كان من غجري أبيض بدا بيته يغور في المياه، إلا أن أخذ يصيح معولاً:

ـ يا جماعة، يا جماعة، هاتوا الشيخ الذي يسكن في مركز المدينة، هاتوا الشيخ الذي غرق منزله كما غرقت منازلنا. ألا ترون أن هذا الذي يسكن في الرابية تخرج صلاته من أطراف الشفتين؟

وهذا حاجي لياتشو، الأحمر المبتسم، الذي تخرج ضفائر شعره الأشيب غزيرة من تحت قلنسوته الشديدة الانخفاض، ها هو يضحك لهذه الأمازيح، ويصيح بالكاهن والخجا قائلاً:

ـ لا تذكروا الصلوات والأدعية أثناء الفيضانات، وإلا تذكرت جماعاتنا الماضي ودفعتنا إلى خارج هذه القاعة نحن الثلاثة جميعاً، وأجبرتنا على أن نتلو الدعوات والصلوات تحت المطر المنهمر..

هكذا كانت تجري الأحاديث والأقاصيص بينهم، تافهة في ذاتها مستغلقة على أفهام غيرهم من الناس، خالية من المعنى إلا في نظرهم وفي نظر أبناء الجيل الذي هم منه: إنها لا تعدو أن تكون إيقاظ ذكريات بريئة حميمة، يعرفونها هم وحدهم، ذكريات تصور الحياة الرتيبة الجميلة الشاقة في البلدة الصغيرة، هذه الحياة التي كانت حياتهم.. وقد تغير هذا كله منذ زمان طويل، على بقائه مرتبطاً بهم أوثق الارتباط، ولكن ما أبعده الآن عن هذه الكارثة التي ألمَّت بالمدينة ليلاً فجمعتهم قسراً في هذه الحلقة العجيبة الرهيبة.

كذلك كان هؤلاء الرجال المحترمون الذين صلبت أعوادهم وألفوا ضروب الشقاء منذ نعومة أظافرهم، يسيطرون على «ليلة الطوفان الكبير»، ويجدون في أنفسهم من القوة ما يمكنهم من التظاهر بالمزاح في وجه النازلة التي ألمَّت بهم، ومن مخادعة الشقاء الذي لا حيلة لهم في دفعه.

ولكنهم كانوا في قرارة أنفسهم يحسون جميعاً بقلق ثقيل وكان كل واحد منهم، وراء هذا المزاح ووراء هذه الضحكات الصفراء التي تشبه ضحكات الأقنعة، يقلب في نفسه فكرة مغمومة مهمومة، ويصيخ بسمعه إلى هدير المياه والرياح، إلى هذه الهمهمة الآتية من المدينة المنخفضة التي ترك فيها كل ما يملك. وفي صباح اليوم التالي، بعد أن قضوا الليل على هذا النحو، استطاعوا وهم وقوف في الميدان أن يروا بيوتهم في السهل وقد أغرقتها المياه، فبعضها بلغ الطوفان نصفها، وبعضها وصل إلى سقفها.

وعندئذٍ رأوا مدينتهم بلا جسر، لأول مرة وآخر مرة في حياتهم. لقد ارتفع

مستوى الماء عشرة أمتار، فسدت القناطر العريضة العالية، وأصبح الماء يجري فوق الجسر الذي اختفى تحت السيل، فما يرى منه إلا ذلك المكان المرتفع الذي تقع عليه الكابيا. . كان هذا المكان هو الشيء الوحيد الذي يبرز فوق سطح الماء كبيت صغير.

ولكن الماء انخفض فجأة بعد يومين، وصحت السماء وأشرقت الشمس دافئة ساطعة، كما يمكن أن يحدث ذلك في بعض الأيام من شهر تشرين الأول في هذا البلد الخصيب. كان منظر المدينة في ذلك النهار الجميل رهيباً يبعث الأسى والشفقة في النفس. إن بيوت الغجر والفقراء على شفير النهر مائلة في اتجاه التيار، وقد أصبح كثير منها بلا سقف، كما أن الكلس والغضار قد زالا عنها، فما ترى منها إلا العرائش السوداء من أغصان الصفصاف تبدو كأنها هياكل. أما بيوت الأغنياء فقد أصبحت أفنيتها بلا أسيجة، وفغرت وتحطمت نوافذها، وارتسم على كل منها خط أحمر يشير إلى المستوى الذي بلغه منها السيل. وجرفت حظائر وقلبت عنابر. وفي الدكاكين المنخفضة كان الحمأ يصل إلى الركبة، وفي هذا الحمأ كانت تغوص البضائع التي لم يمكن حملها في الوقت المناسب. والشوارع قد انتشرت فيها أشجار برمتها لا يدري أحد من أين جرفها السيل، كما انتشرت فيها جثث منتفخة هي جثث حيوانات أغرقها الطوفان.

تلك كانت حالة المدينة التي كان عليهم أن يهبطوا إليها وأن يستأنفوا حياتهم فيها. وبين الضفتين اللتين عرفتا ذلك الغرق، وعلى الماء الذي يجري هادراً ولا يزال معتكراً غزيراً، كان الجسر ينتصب للشمس أبيض ما تغير. إن الماء يصل من الأعمدة إلى منتصفها، فكأن الجسر قد غطس في نهر آخر أعمق من النهر الذي كان يجري تحت قناطره. وعلى طول الإفريز فوق الجسر امتدت طبقات من الوحل أخذت تجف الآن وتتشقق تحت أشعة الشمس. وعلى الكابيا تجتمع ركام من أغصان صغيرة وثفالات، ولكن ذلك كله لم يغيّر منظر الجسر الذي اجتاز الطوفان وحده من دون أضرار، ثم انبثق بعد الطوفان سليماً ما تبدل ولا تغير.

ما إن انتهى الطوفان حتى أسرع جميع الناس في المدينة يعملون ويكسبون ويصلحون ما أفسده الطوفان، ولم يتسع وقت أحد منهم للتفكير في معنى هذا الجسر المظفر في دلالته، ولكنهم كانوا يعرفون، وهم يمضون إلى أعمالهم في

هذه المدينة السيئة الحظ التي يفسد فيها الماء كل شيء بلا استثناء أو يبدله على أقل تقدير.

وجاء الشتاء قاسياً. فجميع المحاصيل التي أودعت الأفنية والعنابر من خشب وقمح وعلف، قد جرفها الطوفان. وكان لا بد من ترميم البيوت وبناء الزرائب وإعادة الأسيجة، واستدانة بضائع جديدة تحل محل البضائع التي تخربت في المخازن والدكاكين. أما كوستا باراناتس الذي تألم أكثر من غيره بسبب صفقاته الجريئة التي احتكرت ثمار الخوخ، فإنه لم يعش بعد ذلك الشتاء، بل مات حزناً وعاراً، مخلفاً وراءه أطفالاً صغاراً لا يكاد يكون لهم مأوى، وديوناً قليلة متفرقة في جميع القرى، وترك في نفوس الناس ذكرى رجل تطاول إلى ما فوق قواه.

لكن ذكرى الطوفان الكبير بدأت في الصيف التالي تندرس من نفوس المسنين الذين عاشت في خيالهم مدة طويلة، بينما الشباب يغنّون ويتحدثون جلوساً على الكابيا الحجرية البيضاء الملساء، فوق الماء الذي يجري من تحتهم على عمق كبير، ويكمل بهديره غناءهم.. إن النسيان يشفي من كل شيء، والغناء خير وسائل النسيان، لأن الإنسان لا يتذكر في الغناء إلا ما يحبه قلبه.

وهكذا كان على الكابيا بين السماء والنهر والجبال، كانت الأجيال المتعاقبة تتعلم أن على المرء ألا يسرف في الحزن لما يحمله ماء درينا المصطخب من شقاء. وهناك تبنوا تلك الفلسفة اللاشعورية التي تدين بها المدينة الصغيرة وهي: إن الحياة معجزة لا تفهم، فهي ما تنفك في تبدد وذوبان، ولكنها تبقى وتستمر قوية «كالجسر الذي على نهر درينا».

الفصل السادس

أصيب الجسر وأصيبت الكابيا بهجمات أخرى غير هجمات الطوفان، مردها إلى تطور الأحداث ومجرى المعارك بين البشر. ولكن هذه الهجمات لم تستطع أن تصيب الجسر بأذى ولا أن تحدث فيه تبدلاً باقياً، شأنها شأن السيول العارمة.

ففي مطلع القرن الماضي، قامت ثورة في الصرب. وهذه المدينة الصغيرة التي تقع على الحدود بين الصرب والبوسنة كانت في جميع الأزمان ترتبط ارتباطاً مباشراً وتتصل اتصالاً دائماً بجميع أحداث الصرب، وتتجاوب معها تجاوب إصبعي اليد الواحدة، فكل ما يقع في فيشيغراد ـ من فتنة أو وباء أو إرهاب أو ثورة ـ لا يمكن ألا يعبأ به سكان أويتسه، وعكس ذلك صحيح. غير أن القضية لاحت في أول الأمر بعيدة غير ذات شأن، لاحت بعيدة لأنها قامت في الطرف الآخر من ولاية بلغراد، ولاحت غير ذات شأن لأن ما يشاع عن قيام ثورة لم يكن بالأمر الجديد في أية حال. فمنذ كان ثمة امبراطورية كان ثمة ثورات، وما من حكم بلا ثورات وبلا مؤامرات، كما أن ما من ثراء بلا همّ وبلا خسران. إلا أن العصيان أخذ مع تقدم الزمن يزداد تغلغلاً في حياة ولاية البوسنة كلها، وخاصةً في حياة هذه المدينة الصغيرة الواقعة على مسير ساعة من الحدود.

فكلما كان النزاع يشتد في الصرب كان أتراك البوسنة يدعون إلى تقديم مزيد من الرجال للجيش وإلى المساهمة في تجهيزهم ومدهم بالمؤونة على نطاق أوسع. وكان جزء كبير من الجيش ومن قوافل الذخيرة المرسلة إلى الصرب يجتاز المدينة، فكان ذلك يؤدي إلى نفقات ومحاذير وأخطار بالنسبة إلى الترك وبالنسبة إلى الصرب الذين كانوا يطاردون وتفرض عليهم الغرامات في هذه السنين أكثر مما كانت تفرض عليهم في أي وقت مضى. وأخيراً نزل العصيان في ذات صيف إلى هذه المناطق نفسها، فوصل العصاة، بعد أن تحاشوا أويتسه، إلى مكان يبعد

مسير ساعتين عن المدينة، وأخذوا يقصفون بالمدافع قلعة لطفي بك في فيليتيفو، وأحرقوا منازل الأتراك في تسرنتشتش.

وأكد أتراك وصربيون في المدينة أنهم سمعوا بآذانهم صوت مدفع قره جورج[1]. ولكن لئن كان يمكن أن يشك المرء في أن يصل صوت مدفع الثورة إلى المدينة، لأن الإنسان يظن في كثير من الأحيان أنه يسمع ما يخشاه أو يتمناه، فلم يكن ثمة شك في النيران التي كان يشعلها العصاة ليلاً على بانوس، القمة الجرداء الوعرة التي تقع بين فيليتيفو وجوستيليه، والتي يستطيع المرء أن يعد ما عليها من شجرات وهو في المدينة. ولقد كان الأتراك والصربيون يرون هذه النيران رؤية واضحة، وكانوا يرقبونها بانتباه، ولكنهم يتظاهرون جميعاً بأنهم لا يلاحظونها. كانوا يختبئون وراء النوافذ أو في ظلمات حدائقهم الكثيفة ويتابعون بأبصارهم اشتعال النيران وحركتها فانطفاءها. وكانت نساؤنا الصربيات ترسم إشارة الصليب في الظلام، وتبكين وقد استبد بهنّ انفعال لا تعليل له، وتنظرن من خلال الدموع إلى انعكاس هذه النيران التي يشعلها الثوار، كأنها تلك الألسنة من أشباح اللهب التي كانت تنزل في الماضي على قبر راديسلاف فلتمحها جداتهن خلال الدموع منذ ثلاثة قرون، من هذا الميدان نفسه، على هذا النحو نفسه.

هذا التلألؤ وهذه النيران المتفاوتة المبعثرة في ظلام ليل صيف، حيث السماء تبدو أشبه بجبل، هذا كله كان يبدو للصربيين برجاً جديداً من أبراج النجوم يقرأون فيه النبوءات جريئة، فيتصورون ما سيصيبهم من حظ وما سيقع لهم من أحداث راعشين. أما الأتراك فكانوا يرون في ذلك كله أمواجاً أولى من بحر من النار يتدفق الآن على الجبال فوق المدينة بعد أن أغرق الصرب. وكانت رغبات الفريقين وأدعيتهم، أثناء هذه الليالي من ليالي الصيف، تدور كلها حول تلك النيران، ولكن في اتجاهين متعارضين. فأما الصرب، فكانوا يسألون الله أن يجعل هذا اللهيب الطيب الذي يماثل ما يحملونه في صدورهم وما يخفونه بين جوانحهم في أعماق نفوسهم، أن يجعل هذا اللهيب يمتد إلى هذه الجهة فوق روابيهم، وأما الأتراك فكانوا يدعون الله في صلواتهم أن يوقف هذا اللهيب،

---

(1) هو جورج الأسود قائد العصيان الوطني الصربي ضد الأتراك عام 1804 (المترجم).

وأن يدفعه، وأن يطفئه، وأن يحبط النيات الهدامة التي تجيش في صدور الكفرة، وأن يرد الأمور إلى نصابها، وأن يعيد الأمن الصادق الذي يكفله الدين الحق. فكانت الليالي أيامئذ زاخرة بالهمس حَذِراً وجامحاً، ومن هذا الهمس كانت تخرج موجات خفية من الرغبات والأحلام الجريئة. وكانت الأفكار والخطط التي هي أبعد ما تكون عن احتمال الوقوع تتصادم وتنتصر وتتكسر في هذه الظلمات الزرقاء فوق المدينة، حتى إذا جاء الغد وطلع الصباح مضى الترك والصرب إلى أعمالهم، والتقى بعضهم ببعض وقد انطفأت عيونهم وخلت وجوههم من التعبير، وحيّا بعضهم بعضاً، وتحدث بعضهم إلى بعض بمئات العبارات المألوفة التي تقتضيها آداب الريف والتي كانت تجري بها الألسن دائماً في المدينة، ويتناقلها الناس كالنقود المزيفة، ولكنها تتيح قيام العلاقات الاجتماعية وتجعله سهلاً ميسوراً.

فلما اختفت النيران من جبل بانوس بعد عيد القديس إلياس بقليل، وردت الثورة عن منطقة أويتسه، لم يظهر فريق من الفريقين عواطفه. وكان يصعب على المرء أن يعرف ماذا كانت هذه العواطف حقاً عند هذا الفريق وذاك. أما الأتراك فقد سرّهم أن تبتعد الثورة وكانوا يتمنون أن تنطفىء انطفاء تاماً وأن تزول وأن تنتهي هذه الأعمال التي يقوم بها الكفرة الأشرار. غير أن سرورهم هذا كان ناقصاً مظلماً، إذ كان يصعب عليهم أن ينسوا خطراً قريباً كل هذا القرب. حتى أن كثيراً منهم ظلوا خلال مدة طويلة بعد ذلك يرون في أحلامهم تلك النيران المخيفة التي كان يوقدها الثوار كأسراب من شرارات تهيم على جميع الروابي حول المدينة، أو يسمعون مدفع قره جورج لا كصدى بعيد أصم، بل كقصف رهيب يحمل الدمار إلى كل مكان.

وأما الصرب فقد خاب ظنهم وأخفقت أمانيهم، حين اختفت النيران عن جبل بانوس، ولكنهم ظلوا في قرارة قلوبهم، في أعماق نفوسهم، في هذه الأعماق التي لا تنفتح لأحد، ظلوا يتذكرون ما وقع، وظلوا يعتقدون بأن ما تحقق مرة يمكن دائماً أن يتحقق مرة أخرى. فكذلك بقي لهم شيء من أمل، ذلك الأمل الطائش الذي يمتاز به المضطهدون. ذلك أن الذين يحكمون وينبغي لهم أن يضطهدوا من أجل أن يحكموا، مضطرون إلى أن يتصرفوا في الأمور تصرفاً عاقلاً حكيماً، حتى إذا أعماهم الهوى أو اضطرهم الخصم فتجاوزوا في أعمالهم

حدود العقل كانوا ينزلقون في الطريق الهابط ويحددون بذلك بداية السقوط، في حين أن المضطهَدين والمستغَلين يستفيدون من العقل والجنون كلاهما على السواء، والعقل والجنون هما السلاحان الوحيدان اللذان يمكن استعمالهما في ما يخوضونه ضد المضطهِدين من نضال خفي تارة، وصريح تارة أخرى.

وفي تلك الفترة ازداد شأن الجسر خطراً، من حيث إنه الطريق الوحيدة المأمونة التي تصل ولاية البوسنة بالصرب. وقد استقرت في المدينة فصيلة من الجنود لم تسرح أثناء فترات الهدوء الطويلة، بل ظلت هنالك تحرس الجسر. ولكي تنهض هذه الفصيلة بواجبها على أتم نحو وبأقل جهد، أخذت تبني في منتصف الجسر متراساً من خشب، يمكن أن يعد في منظره وفي موقعه وفي مادته آية من آيات القبح. ولكن جميع جيوش العالم تبني لغاياتها الخاصة وحاجاتها الموقتة مباني من هذا القبيل تبدو في ما بعد، من وجهة نظر الحياة المدنية ومن وجهة نظر حاجات السلم، شيئاً سخيفاً لا يفهم. كان ذلك المتراس بيتاً ثقيلاً من طابق واحد، بني بجذوع وألواح كبيرة، وجعل تحته ممر يشبه أن يكون نفقاً. إنه بيت عال يقوم على أوتاد قوية بحيث ينهض على جهتي الجسر ولا يستند إلى الكابيا إلا من طرفين، طرف على الرصيف الأيسر وطرف على الرصيف الأيمن، وفي الوسط ممر للعربات والخيول والمشاة. غير أن الحرس كانوا يستطيعون، من أعلى، من الطابق الذي يبيتون فيه ويصعدون إليه على درجات من خشب العرعر موضوعة في الخارج، كانوا يستطيعون أن يراقبوا كل إنسان يجتاز الجسر، وأن يدققوا في أوراقه وأمتعته، وأن يمنعوه من المرور في كل لحظة إذا مست الحاجة إلى ذلك.

وقد غير المتراس منظر الجسر حقاً. فالكابيا الجميلة قد اختفت تحت هذا المبنى الخشب الجاثم على أوتاده كأنه يقرفص على الكابيا قرفصة طير ضخم أشوَه.

وفي اليوم الذي فرغوا فيه من بناء المتراس، كانت رائحة العرعر لا تزال تفوح منه وكان وقع الخطوات يدوي في الفراغ، فما كاد بناؤه يتم حتى استقر فيه الحرس فوراً، وما كاد يطلع صباح أول يوم حتى كان المتراس قد قبض على أولى ضحاياه كأنه فخ.

مع ظهور الشمس الحمراء المنخفضة، عند اللحظات الأولى من الصباح،

اجتمع تحت المتراس جنود وعدد من المواطنين المسلحين الأتراك الذين يطوفون حول المدينة في الليل حراساً، ويساعدون بذلك فصيلة الجنود، وفي وسط هذا الحفل جلس قائد الحرس على أحد الأوتاد، وأمامه عجوز قصير يشبه الحجاج الأتقياء، أو يشبه الرهبان والمتسولين في آن واحد. خفيف الحركة، باسم المحيا، رغم شعره الأشيب وغضون وجهه. إنه إنسان بسيط طيب غريب الأطوار يقال له: ياليزيبه ويرجع أصله إلى مدينة تشاينتشه. إنه منذ سنين كثيرة يضرب في الأرض باسماً مهيباً دمثاً، فيزور الكنائس والأديرة ويختلف إلى محافل الأتقياء وأعياد القديسين، ويصلي لله ويسجد ويصوم. وكانت السلطات التركية في الماضي لا تلتفت إليه، بل تدعه هائماً على وجهه، كرجل ضعيف العقل تقي صالح، وتسمح له أن يمضي إلى حيث يريد وأن يقول ما يشاء.

أما الآن فإن عهداً جديداً قد بدأ، بسبب الثورة التي اندلعت نارها في الصرب، فأدى ذلك إلى اتخاذ إجراءات أقسى. وكانت تصل من الصرب أسر تركية أحرق الثوار جميع ما تملك، فكانت هذه الأسر تشيع الكره وتطالب بالثأر، ورغم أن المواقع الأمامية في كل مكان أصبحت تعج برجال الحرس، ورغم أن الرقابة عُزّزت، فإن أتراك البلد ظلوا في حالة من القلق والهم، وظلت نفوسهم تفيض حقداً، فكانوا يرشقون جميع الناس بنظرات عطشى إلى رؤية الدم.

كان العجوز القصير قد وصل إلى الجسر قادماً من روجاتتسا، ومن سوء حظه أنه كان أول مسافر يمر بالجسر في ذلك اليوم الذي تم فيه بناء المتراس فاستقر الحرس في هذا المتراس لأول مرة، خاصةً وأنه وصل قبل طلوع النهار تماماً. وكما يحمل الناس شمعة مشتعلة، كان يحمل هو عصاً ثخينة نقشت عليها إشارات وكلمات غريبة، فما إن سار في الجسر حتى ابتلعه المتراس كما يبتلع العنكبوت ذبابة. وهناك وجِّهت إليه أسئلة موجزة: من هو، ومن أين أتى، وما هذه الزخارف والأحرف المنقوشة في عصاه؟ فأخذ يجيب حتى عن أسئلة لم تطرح عليه، وانطلق يتحدث في صراحة كأنه في حضرة «القاضي الأعلى»، لا أمام أتراك أشرار. فقال: إنه ليس شيئاً، وليس أحداً، وإنما هو راحل من الراحلين في هذه الأرض، عابر في هذه اللحظة العابرة، ظل من الظلال في الشمس، وأنه يقضي الأيام القصيرة القليلة التي بقيت له في هذه الحياة، يقضيها

في الصلاة والدعاء، وأنه يمضي من دير إلى دير، وأنه سيظل يطوف هذا الطواف إلى أن يزور جميع الأماكن المقدسة، والمباني الدينية، وأضرحة القياصرة وكبار حكام الصرب، أما الإشارات والأحرف التي تزين عصاه، فهي ترمز إلى مختلف عصور الحرِّية والمجد الصربي، ما مضى منه وما سيأتي، وذلك (قال العجوز هذا وهو يبتسم في تواضع وخجل) لأن زمان الانبعاث قد قرب، بل إنه أصبح قريباً كل القرب إذا صدق ما يقرأه الإنسان في الكتب وما يراه في الأرض والسماوات. إن ملكوت الله يبعث، لأنه افتدي بالمحن، وقام على الحقيقة.

وأضاف العجوز القصير يقول:

ـ أعرف أن هذا الذي تسمعونه لا يسرّكم يا أيها السادة، وأعرف أنه ربما ينبغي ألا أكشف لكم عن هذه الأمور، ولكنكم أوقفتموني وسألتموني أن أقول لكم كل شيء وفقاً للحقيقة فلم يكن بد مما كان. الإله حقيقة، والإله واحد، والآن أرجوكم أن تدعوني أمضي، لأن علي أن أذهب اليوم إلى بانيا، لأزور دير «الثالوث المقدس».

وكان الترجمان شيفكو يتولى نقل كلام العجوز، محاولاً في غير طائل أن يجد في معرفته الهزيلة باللغة التركية التعابير التي تترجم هذه الكلمات المجردة. وكان قائد الحرس، وهو رجل ممراض من الأناضول، يصغي نصف يقظ إلى ما يقوله الترجمان من كلام غامض مفكك، وينظر إلى الشيخ من حين إلى حين، فرمقه الشيخ بنظرة لا تشتمل على شيء من الخوف، ولا تعبر عن أي معنى من سوء الظن، ويؤيد بحركات عينيه كل ما كان يقوله الترجمان، رغم أنه لا يعرف اللغة التركية. وقد أحس قائد الحرس في قرارة ضميره أنه أمام شيخ نصف مجنون، أمام درويش كافر، أمام معتوه مرح لا خطر منه. وكان قد كسر عصا الشيخ قِطَعاً قطعاً، لظنه أنها مجوّفة وأنها تنطوي على رسائل مخبأة، فلم يجد في العصا شيئاً، ولكن ترجمة شيفكو وكلمات الشيخ تدعو إلى الاشتباه، وتفوح منها رائحة السياسة، وتدل على نيات خطرة. ولقد كان يمكن أن يسمح قائد الحرس لهذا الأبله البائس، لهذا الرجل الساذج، أن يتابع طريقه لولا أن هناك عسكريين آخرين وحراساً مدنيين قد تابعوا الاستجواب. وكان هناك أيضاً شيفكو الذي كان واضحاً أنه حين ترجم كلام الشيخ المتحمّس قد حرّفه إلى أسوأ معنى، وشيفكو رجل يحب أن يدسّ أنفه في كل أمر، ويحب الوشاية، ويستطيع أن يقول أو أن

يؤيّد الإشاعات المغرضة من دون برهان. وكان هناك أيضاً أولئك الأتراك من أبناء المدينة، وهم متطوعون يطوفون هنا وهناك مكفهّرين عابسين، فيقبضون على من يشتبهون في أمرهم من المسافرين، ويتدخلون في عمل آمر الحرس لغير ما سبب. كل هؤلاء قد اجتمعوا هناك. وأنهم في هذه الأيام سكرى جميعاً بمرارة الحقد عطشى إلى الانتقام والقصاص والقتل. إنهم يريدون أن يقتلوا من يستطيعون قتله، ما داموا لا يستطيعون أن يقتلوا من يريدون قتله. إن آمر الحرس لا يفهمهم ولا يؤيدهم، ولكنه يدرك أنهم مجمعون على أن يكون للمتراس ضحية منذ أول صباح، وهو يخشى أن تصيبه حماستهم بشيء من الأذى إن هو عارض إرادتهم. ولم يحتمل أن يتصور أن تناله المتاعب بسبب هذا الشيخ المجنون. ومهما يكن من أمر فإن هذا العجوز لن يستطيع بأحاديثه عن الإمبراطورية الصربية أن يمضي بعيداً بين أتراك هذه البلاد الذين يغلون في هذه الأيام غليان النحل الحانق في خلية مقلوبة، فلتأخذه إذاً مياه النهر المعتكرة كما جاءت به.

وما كاد الشيخ يوثَق بالحبال، وما كاد آمر الحرس يهم بالذهاب إلى المدينة كي لا يشهد تعذيبه، حتى أقبل عدد من رجال الدرك والأتراك يجرون فتى صربياً رث الثياب. إن ملابس الفتى ممزقة، ووجهه معفّر، ويديه مجروحتان. هو شاب يقال له ميلي، كان يعيش وحده على رابية ليسكا، ويدير طاحوناً مائية في أوسوينتسا. إن عمره لا يتجاوز التاسعة عشرة، وكان صحيح البنية قوي الجسم يفيض عافية.

ففي ذلك الصباح، قبل شروق الشمس، ملأ ميلي طاحونه بالشعير الذي كان عليه أن يطحنه، وفتح الترعة الكبيرة، ثم مضى إلى أعماق الغابة فوق الطاحون ليحطّب قليلاً. كان يهز فأسه بيده، ويقطع فروعاً طرية من شجر الحور، كأنما هو يقطع سوق القمح. كان يتمتع بطراوة الصباح، ويفرح لسهولة تساقط الحطب تحت فأسه. لم يكن يضرب ضرباً قوياً، ولكن فأسه كانت مشحوذة، وكان الحطب الرقيق أضعف من أن يحتمل القوة التي يحسّها في نفسه، وشعر بشيء يملأ صدره ويدفعه إلى الصياح عند كل حركة. وكانت صيحاته تتكاثر وتترابط أكثر فأكثر. لم يكن للفتى أذن مرهفة، شأنه شأن جميع سكان ليسكا، ولم يكن يجيد الغناء، ومع ذلك كان يغني أو يعوي في ذلك المكان الكثيف الظليل. كان يغني ما سبق أن سمع غيره يغنيه، من دون أن يفكر في شيء، ناسياً أين هو.

ففي إبان الثورة الصربية كان الشعب قد حوّر أغنية من الأغنيات الشعبية التي تبدأ بهذين البيتين:

حين كان علي بك في ريعان شبابه،
كانت فتاة تحمل رايته.

فجعل الأغنية تقول:

حين كان جورج[1] في ريعان شبابه،
كانت فتاة تحمل رايته.

ففي خلال ذلك الصراع الكبير الغريب الذي يقوم منذ قرون، في بلاد البوسنة هذه، بين عقيدتين، ومن أجل الأرض والسلطة ونظرة خاصة إلى الحياة والنظام، كان الخصمان لا يسلب أحدهما الآخر نساء وخيلاً وسلاحاً فحسب، بل يسلبه كذلك أغاني وأشعاراً. وهكذا انتقل شعر كثير من فريق إلى فريق كغنيمة ثمينة.

وتلك كانت هي الأغنية التي يغنيها أهل الصرب في هذه الأزمنة الأخيرة، ولكن على حذر وخفية وبُعْدٍ عن أسماع الأتراك، في البيوت المغلقة أيام الأعياد أو في المراعي البعيدة التي لا يدوسها الأتراك مرة واحدة في السنة، في تلك المراعي البعيدة التي يستطيع الإنسان فيها بالعزلة والفقر في منطقة متوحشة أن يعيش كما يريد وأن يغني ما يشاء.

تلك هي أذاً الأغنية التي رأى ميلي خادم الطحان أن يغنيها في غابة على مقربة من الطريق الذي يسلكه أتراك أولوباك وأوراخوفاك إلى سوق المدينة.

الفجر لا يكاد يضيء قمم الروابي، والظلام لا يزال يخيم حول الحطّاب في هذا المكان الظليل. إن ميلي مبلل بالندى، ولكن نومه العميق في الليل، والخبز الساخن الذي أكله، والعمل البسيط الذي يقوم به، كل ذلك كان يبث في جسمه الدفء والحرارة. إنه يهز الفأس بيده، ويضرب الحورة الرقيقة عند الجذر، فلا تزيد الشجرة على أن تميل وتنحني انحناءة العروس تلثم يد إشبينها. إن شجرة الحور ترشه بندى بارد كأنه رذاذ مطر، ثم تظل مائلة هذا الميل، لأن الخضرة التي في الأرض أكثف من أن يسمح للشجرة بالسقوط. وأنه يشذب الفروع الخضراء بإحدى يديه كأنما هو يلعب. ويغني في الوقت نفسه ملء صدره ويترنم

---

(1) هو قرة جورج الذي سبقت الإشارة إليه.

منتشياً ببعض الكلمات. إن الكلمة «جورج» شيء غامض ولكنه شيء قوي شجاع. وإن كلمتي «فتاة» و«راية» شيئان مجهولان عنده أيضاً، ولكنهما تلبيان أعمق رغبات أحلامه، وهي أن تكون له فتاة وأن تحمل الفتاة راية. وعلى كل حال فقد كان يجد لذة في النطق بهذه الكلمات. إن كل القوة التي فيه تدفعه إلى الجهر بها مرات لا حصر لعددها فكلما نطق بها مرة زادت القوة التي يحسها في نفسه، وحملته على ترديدها بمزيد من الجهر.

هكذا كان يغني ميلي، عند طلوع الفجر وهو يحطب ويشذب الأغصان التي صعد من أجلها إلى الغابة. حتى إذا فرغ من ذلك كله، هبط المنحدر الرطب جاراً وراءه حزمة الحطب. فلما وصل إلى الطاحون وجد الأتراك هناك. لقد ربطوا خيولهم وأخذوا ينتظرون. إن عددهم يقرب من عشرة. لقد عاد ميلي من الغابة مثلما ذهب إليها فتى أخرق رث الثياب مرتبكاً، لا «جورج» أمام ناظريه، ولا فتاة ولا راية قربه. وانتظر الأتراك أن يضع فأسه على الأرض، حتى إذا فعل، انقضوا عليه من الجهات الأربع، فأوثقوه بحبال طويلة من أرسان الخيل بعد صراع قصير، وقادوه إلى المدينة. ولم ينسوا أثناء الطريق أن يهووا بالعصي على ظهره وأن يركلوه بالأقدام في إليتيه، وأن يسألوه أين هو الآن صاحبه جورج، وأن يصبوا الشتائم تلو الشتائم على الراية والفتاة.

تحت المتراس، في الكابيا، حيث كان رجال الحرس قد فرغوا من ربط الشيخ المعتوه، كان قد اجتمع إلى جانب الجنود عدد من متعطلي المدينة رغم أن النهار لم يكد يطلع بعد. كان بينهم لاجئون أتراك متضررون وصلوا من الصرب. وكان هؤلاء جميعاً مسلحين، وقد اصطنعوا المهابة والوقار كأن الأمر حادث جلل ومعركة حاسمة. وكان انفعالهم يزداد عنفاً مع صعود الشمس إلى قبة السماء. والشمس تصعد سريعة يصحبها ضباب صاف مائل إلى حمرة هناك في آخر الأفق فوق غولش. واستقبلوا الفتى المروع كأنه زعيم ثورة، رغم أنه رث الثياب بائس، ورغم أنه آت من الضفة اليسرى من نهر درينا، وهي منطقة لم تكن فيها ثورة.

وشهد أتراك أوراخوفاك وأولوباك الذين أحنقتهم هذه الجسارة المتعاظمة من الفتى ولم يستطيعوا أن يصدقوا أنها غير متعمدة، شهدوا بأن هذا الفتى كان يغني قرب الطريق، على نحو متحدٍّ، أغنيات عن قره جورج والمقاتلين الكفرة. والحق

أن وجه الشاب لم يكن وجه بطل أو وجه زعيم عصابة خطرة، فلقد كان مذعوراً، متعفراً، متهدماً في أسماله البالية المبللة، شاحباً، ينظر إلى آمر الحرس بعينين جعلهما الانفعال حولاوين، كأنما هو ينتظر منه أن ينقذه. ولم يكن يعرف أن متراساً أقيم على الجسر لأنه قلما ينزل إلى المدينة، لذلك كان هذا الذي يقع له يزداد في نظره غرابة وبعداً عن الواقع، حتى لكأنه ضائع في حلم في مدينة غريبة، وسط أناس أشرار خطرين. وكان يؤكد في ثأثأة، وهو خافض بصره، أنه لم يغنّ شيئاً، ولا تهَجَّمَ على شرف الأتراك، فهو خادم فقير يعمل في طاحون وكان في الغابة يجمع قليلاً من الحطب ولا يعرف لماذا جيء به إلى هنا. كان الفتى يرتعد خوفاً. والحق أنه لم يقصد أن يكذب في ما قال، فلقد كان فعلاً لا يفهم ما وقع له، لا يفهم ما الذي جاء به بعد ذلك الانفعال العظيم الذي أحسه قرب طراوة الجدول، ما الذي جاء به فجأة إلى هنا، إلى الكابيا، موثقاً مضروباً فجعله مركز الانتباه، أمام هذه الجمهرة الكبيرة من الناس، الذين ينبغي له أن يجيب عن أسئلتهم. لقد نسي هو نفسه أنه غنى أيّ أغنية، ولو بريئة.

ولكن الأتراك أصروا على أقوالهم، وهي أنه غنى أغاني الثوار، في اللحظة التي مروا فيها، وأنه قاومهم حين أرادوا أن يوثقوه. وكان كل واحد منهم يؤكد ذلك للآمر مقسماً على صدق ما يقول:

ـ هل تحلف بالله على صدق ما تقول؟

ـ أحلف.

ـ أحلف.

ـ والله العظيم.

وذلك ثلاث مرات. ثم وضعوا الفتى إلى جانب ياليزيه، وذهبوا يوقظون الجلاد الذي كان واضحاً أن نومه ثقيل. ونظر الشيخ إلى الفتى الذي كان يطرف عينيه مبهوتاً حائراً خجلاً لأنه لم يتعود أن يقف هذه الوقفة معزولاً في وضح النهار، وسط الجسر، بين مثل هذا العدد الكبير من الناس.

سأل الشيخ الفتى:

ـ ما اسمك؟

فقال الفتى في مذلة كأنه لا يزال يجيب عن أسئلة الأتراك:

ـ ميلي.

ـ فلنتعانق يا بني.

قال الشيخ ذلك ومال برأسه الأشيب على كتف ميلي.

ـ فلنتعانق يا بني، فلنتعانق، ولنرسم إشارة الصليب. باسم الأب والابن والروح القدس. باسم الأب والابن والروح القدس. آمين.

ورسم الشيخ إشارة الصليب على نفسه، بالكلمات وحدها، لأن يديه موثقتان، وقد رسمها بسرعة لأن الجلاد كان يقترب منهما.

وفرغ الجلاد، وهو واحد من الجنود، فرغ من المهمة التي عهد بها إليه بسرعة، فكان أوائل المارة الذين ينزلون من التلال ـ لأن ذلك اليوم كان يوم السوق ـ ويجتازون الجسر، يستطيعون أن يروا رأسيهما معلقين على خازوقين جديدين أعجرين قرب المتراس. وكان المكان الملطخ بالدم، الذي قطع فيه رأساهما، قد فرش بالحصى ومُهّد.

هكذا بدأ المتراس «يعمل».

ومنذ ذلك اليوم أصبح يؤتى إلى الكابيا بجميع المشبوهين أو الجناة الذين يعرف أن لهم صلة بالعصيان، في ناحية الجسر أو في مكان ما على الحدود، وكان الذين يؤتى بهم إلى هناك موثقين ليُستجوبوا تحت المتراس قلما يخرجون من هذا المكان أحياء. ففي ذلك المكان إنما ضربت أعناق العصاة، وضربت أعناق أناس لا ذنب لهم إلا سوء الحظ. وكانت ترفع الرؤوس على خوازيق صفّت حول المتراس. أما الأجسام فكانت ترمى إلى النهر من أعلى الجسر، إذا لم يتقدم أحد لافتداء الجثث المقطوعة الرؤوس ودفنها.

والثورة التي كانت تتخللها فترات هدنة تطول أو تقصر، استمرت سنين طويلة. وكبيراً كان عدد الرجال الذين جيء بهم إلى شفير الماء «ليمضوا باحثين لأنفسهم عن رأس أصح وأقرب إلى العقل». وقد شاءت الصدفة ـ الصدفة التي تضيع الضعفاء ومن ينقصهم الحذر ـ أن يكون في طليعة الموكب ذانك الرجلان البسيطان، ذانك الرجلان البائسان البريئان الأميان، لأن الضحايا التي من هذا النوع هي التي ينتابها الدوار في كثير من الأحيان أمام زوبعة الأحداث الكبرى فتجتذبهم الزوبعة إليها وتبتلعهم من دون أن يستطيعوا مقاومتها. وهكذا فإن الفتى ميلي والشيخ ياليزيه اللذين أعدما في لحظة واحدة، في مكان واحد، متحدين كأخوين، كانا أول من ازدان متراس الجنود برأسيهما، على الكابيا التي لم تحرم

في يوم من الأيام بعد ذلك، طوال مدة العصيان، من زينة كهذه الزينة. وهكذا أتيح لذكرى هذين الرجلين البائسين اللذين لم يرهما أحد ولا سمع بهما أحد قبل ذلك، أن تنقش في ذاكرة الناس أعمق وأبقى من ذكرى كثير من الضحايا الأخرى الشهيرة.

هكذا اختفت الكابيا تحت المتراس القاسي الذي اشتهر بالشؤم والنحس، واختفت باختفائها الاجتماعات والأحاديث والأغاني والمسرات. حتى الأتراك أنفسهم أصبحوا يمرون بهذا المكان من دون متعة. أما الصربيون فكان لا يجتاز منهم الجسر إلا المضطر، وكان يفعل خافض الرأس مسرعاً.

وحول المتراس الخشبي، اسمرّت الألواح بتقدم الزمن، وسرعان ما نشأ ذلك الجو الذي لا بد أن يحيط بالمباني التي يقيم فيها الجيش إقامة دائمة. فعلى الأوتاد ينشر غسيل الجنود ليجف، ومن النافذة تلقى في نهر درينا الأوساخ والمياه الملوثة والأقذار وجميع أنواع الزبالة التي تلفظها الثكنات. ولذلك بقيت على العمود الطويل الذي في منتصف الجسر سحابات قذرة ترى من بعيد.

وظل ذلك الجندي نفسه هو الذي يتولى القيام بعمل الجلاد. إنه رجل من الأناضول ثخين أسمر، أصفر العينين معتكرهما، له شفتا زنجي، ووجه سمين مكتنز أغبر. إنه يبدو مبتسماً على الدوام ابتسامة أولئك الناس الذين صفت أمزجتهم وامتلأت معدهم بطيب الطعام. إن اسمه خير الدين. وسرعان ما اشتهر في المدينة كلها وفي سائر المنطقة التي على الحدود. كان يجد في قيامه بعمله لذة وزهواً. ومهما يكن من أمر فقد كان خبيراً سريعاً إلى أقصى حدود الخبرة والسرعة. حتى لقد كان السكان يقولون عنه: إن يده أخف من يد موشان حلاق المدينة. إن الشبان والشيب يعرفونه، أو يعرفون اسمه على الأقل، وكان هذا الاسم يولد في الناس الارتعاد وحب الاطلاع في آن واحد. كان يظل في الأيام المشمسة جالساً أو مستلقياً على الجسر في ظل المتراس الخشبي، وكان ينهض من حين إلى حين ليتفقد الرؤوس المعروضة على الخوازيق، كما يتفقد البستاني شماماته. ثم يعود فيستلقي على لوحه، متثائباً متمطياً ثقيلاً أعمش العينين، طيب المزاج، أشبه بكلب مشعر هرم من كلاب الرعاة. وعند طرف الجسر، وراء الجدار، كان يتجمع الأطفال مستطلعين وينظرون على خوف واستحياء. ولكن خير الدين، كان إذا جاء العمل، خفيف الحركة نشيطاً مجداً مجتهداً. وكان لا

يحب أن يتدخل أحد في عمله. وهذا التدخل في عمله يزداد بازدياد اشتداد العصيان. فحين أحرق العصاة بعض القرى فوق المدينة، أصبح هيجان الأتراك لا يعرف حدوداً. فكانوا لا يكتفون بأن يقبضوا على ثوار وجواسيس أو على أناس يعتقدون بأنهم كذلك ليجيئوا بهم إلى آمر الحرس على الجسر، بل أصبحوا يريدون، وهم في فورة الحنق، أن يتدخلوا في تنفيذ الحكم عليهم.

وهناك إنما ظهر، في ذات يوم عند الفجر، رأس كاهن فيشيغراد القس ميخائيلو الذي وجد في نفسه أيام الطوفان من القوة ما استطاع به أن يمازح الخجا والحاخام. لقد هلك بريئاً أثناء ذلك الحنق الشديد على الصرب، وجاء أطفال من الغجر فأدخلوا سيجاراً في فم الميت. وتلك أمور كان خير الدين يستنكرها أشد الاستنكار ويمنعها حين يستطيع إلى منعها سبيلاً.

وحين مات الأناضولي السمين فجأة من الفحم، حل محله جلاد جديد يكمل عمله، لكنه أقل مهارةً منه والحق يقال. وظل الناس يرون خلال سنين، ما ظل العصيان قائماً لم يهدأ، ظلوا يرون رأسين أو ثلاثة رؤوس مقطوعة تنبثق على الكابيا في كل يوم. والناس في مثل هذه الظروف تقسو أفئدتهم بسرعة، فما يتأثرون بعد ذلك لمثل هذه المناظر، لذلك بلغ السكان من اعتياد هذا المشهد، أنهم أصبحوا يمرون به لا يبالون ولا ينتبهون، حتى إنهم لم يلاحظوا انتهاء هذا المعرض المشؤوم فوراً يوم انتهى.

ولما هدأت الحالة في بلاد الصرب وعلى الحدود، فقد المتراس شأنه، وزالت علة وجوده. لكن الحرس ظلوا ينامون فيه، رغم أن المرور على الجسر أصبح حراً بلا رقابة منذ مدة طويلة. إن الأمور تتطور تطوراً بطيئاً في جميع الجيوش، لكن تطورها في الجيش التركي أبطأ منه في أي جيش آخر. وكان يمكن أن تظل الحال على هذا النحو إلى ما شاء الله، لولا أن حريقاً شب في المتراس ذات ليلة بسبب شمعة نسيت مشتعلة، فإذا بالمتراس الذي كان قطرانه لا يزال يغلي من شدة حرارة النهار يحترق حتى قواعده، أي حتى البلاطات الحجرية التي تفرش أرض الجسر والكابيا.

انفعل الناس في المدينة أشد الانفعال من منظر اللهيب الضخم الذي كان لا يضيء الجسر الأبيض فحسب، بل يضيء كذلك الروابي المجاورة، وتنعكس أشعته الحمراء المضطربة على صفحة النهر. حتى إذا طلع الصباح، ظهر الجسر

للأبصار مسترداً منظره القديم، متخلصاً من البناء الخشب الثقيل الذي حجب منه الكابيا خلال سنين. إن البلاطات البيضاء قد احترقت واسودت من السناج، لكن الأمطار والثلوج ما لبثت أن غسلت كل ذلك. وهكذا لم يبق من المتراس ومن الأحداث الدامية التي ترتبط به إلا ذكريات بائسة، اندرست شيئاً بعد شيء، وزالت بزوال هذا الجيل، إلا وتداً واحداً من السنديان لم يحترق، وظل مغروزاً في درجات السلم على الكابيا.

عادت الكابيا إلى عهدها الذي كانت عليه في حياة المدينة. وعلى الرصيف الأيسر، عاد صاحب المقهى، فأشعل كانونه ورتّب أدواته. وكانت عين الماء هي الشيء الذي أصيب بأذى، لأن التنين الذي كان يتدفق الماء من فمه قد تحطم. واستأنف الناس وقوفهم على الصوفا. وعادوا يقضون فيها الساعات تلو الساعات يتحدثون ويسوون قضاياهم، أو يسترخون ناعسين عاطلين. وعاد الفتيان يغنون هناك جماعات جماعات. وهناك أيضاً أصبح يجلس الشباب منعزلين يجترون عذاب جهنم أو يجترون رغبةً موجعةً غامضة في السفر إلى مكان بعيد، وفي مواصلة الحياة في ذلك المكان البعيد، وفي القيام بأعمال كبرى ومغامرات خارقة، وهي رغبة كثيراً ما تعذب الشباب في البيئات الضيقة المحدودة.

وبعد عشرين سنة من تلك الأحداث، كان هناك جيل جديد يغني ويمزح على الجسر، جيل جديد لا يتذكر القفص الأسود، المتراس، ولا الصرخات الصماء تخرج من حناجر الحرس الذين يوقفون المسافرين في الليل، ولا خير الدين والرؤوس المنشورة التي كان يقطعها بمهارة أصبحت مضرب الأمثال.

لم يبق إلا بضع عجائز تقول وهي تلاحق الصبية الذين سرقوا ثمارها من الخوخ، تقول لاعنة شاتمة بصوت قوي خانق: «الله يبعث لك خير الدين ليقطع رأسك. إن شاء الله تراك أمك على الكابيا».

غير أن الصبية الذين يهربون من خلال الأسيجة، كانوا لا يستطيعون أن يفهموا المعنى الحقيقي الذي تشتمل عليه هذه الأدعية، وإن كانوا يعلمون أنها ليست من الخير في شيء بطبيعة الحال.

هكذا كانت الأجيال تتعاقب قرب الجسر، فتمحو عنه محو الغبار كل الآثار التي تركتها له نزوات عابرة، أو حاجات طارئة من نزوات البشر وحاجاتهم، ويبقى الجسر بعد ذلك على حاله ما تبدل ولا يمكن أن يتبدل.

الفصل السابع

الزمان يمر على الجسر وعلى المدينة سنين وعشرات السنين. إنها ذلك العدد من عقود السنين التي كانت الإمبراطورية التركية خلالها تحتضر بحمى بطيئة. كانت هذه السنون تبدو لأعين معاصريها هادئة سعيدة بعض الشيء، رغم ما كان فيها من دواعي الهم والخوف، ورغم أنها عرفت فترات قحط وطوفان ووباء وأخطار من كل نوع. غير أن هذه الأحداث كلها كانت تقع ببطء وتدرج، في انتفاضات قصيرة وسط عهود طويلة من الهدوء.

إن الحد الذي يفصل بين ولايتي البوسنة وبلغراد، هذا الحد الذي يمر في هذا المكان، فوق المدينة رأساً، قد أخذ في هذه السنين الأخيرة يرتسم بوضوح آخذاً في التزايد، ويكتسي مظهر ومعنى حدود بين دولتين. وكان هذا الوضع يبدل ظروف الحياة بالنسبة إلى المنقطة كلها، ويؤثر في التجارة، وفي المواصلات، وفي الحالة النفسية العامة، وفي العلاقات المتبادلة بين الترك والصرب.

كان الترك المسنون يقطبون حواجبهم، ويطرفون أعينهم، رافضين أن يصدقوا هذه التغيرات، كأنهم يتمنون أن يبددوا هذا الشبح المزعج، وكانوا يغضبون ويهددون ويجتمعون ويتشاورون، ثم ينسون الأمر بعد ذلك شهوراً، إلى أن جاء الواقع المر فذكرهم به ونبههم إلى خطره من جديد.

ففي ذات يوم من أيام الربيع، جاء تركي من أتراك فيليتوفو هابطاً من جهة الحدود، فجلس على الكابيا وأخذ يقص، وهو منفعل أشد الانفعال، أخذ يقص على وجهاء الأتراك المجتمعين ما وقع منذ مدة قصيرة في فيليتوفو.

قال: في وقت من الأوقات أثناء الشتاء، وصل يوفان متشيتش، سردار رويان، وهو شخص سيئ السمعة، وصل قرية فيليتوفو قادماً من آريل، ومعه جماعة مسلحة، فأخذ يفتش الحدود ويقيسها. فلما سُئل ماذا يريد وماذا يفعل هنا؟ أجاب بغطرسة أنه ليس مضطراً إلى أن يقدم حساباً لأحد، وخاصةً لأناس

كفرة من أهل البوسنة، لكنه مستعد لأن يقول لهم، إذا كانوا يحرصون على ذلك، إنه موفد من قبل الأمير ميلوك، ليرى أين ستمر الحدود، وإلى أي مكان ستمتد بلاد الصرب.

قال الرجل: «فظننا أن المسيحي سكران، وأنه لا يدري ماذا يقول، لأننا كنا نعرف منذ زمان بعيد أنه لص لئيم وشخص قذر، فرددناه كما نرد رجلاً غبياً أحمق، ثم لم نفكر فيه بعد ذلك البتة. لكنه عاد بعد أقل من شهرين، تصحبه في هذه المرة فرقة كاملة من درك ميلوك، مع مندوب من السلطات وهو رجل من استانبول رخو شاحب. لم نصدق أعيننا. ولكن مندوب السلطان أكد لنا كل شيء. كان يخفض بصره خجلاً، ويؤيد ما يقوله يوفان. قال: إن حكومة السلطان تأمر بأن يحكم ميلوك بلاد الصرب باسم السلطان، وبأن تعيّن الحدود لمعرفة المدى الذي يشمله حكمه. وحين أخذ رجال المندوب يغرزون أوتاداً على طول المنحدر الواقع تحت تبريتسا، راح متشيتش يمضي من وتد إلى وتد، فينتزعه من الأرض، ويرميه وراءهم. ووثب المسيحي الحانق (جعل الله لحمه طعاماً للكلاب) وثب في وجه مندوب السلطان، وصاح به كما يصيح بخادم، وهدده بانزال العقوبة الكبرى عليه، قائلاً ليست هذه هي الحدود، وإنما الحدود ما عينه السلطان وقيصر روسيا، وأعطيا به صكاً «للأمير» ميلوك: إنما تمر على طول نهر ليم، ثم تسقط رأساً على جسر فيشيغراد لتحاذي بعد ذلك نهر درينا. فهذه الأراضي كلها جزء من بلاد الصرب. بل إن هذه الحدود نفسها موقتة، إذ يجب في المستقبل أن تتوغل أكثر من ذلك. ولقي مندوب السلطان كثيراً من العناء في إقناعه، حتى إذا اقتنع عيّنا الحدود فوق فيليتوفو. ووقفت الأمور عند هذا الحد، موقتاً على الأقل. غير أن شيئاً من الشك والخوف قد خامرنا، فأصبحنا لا نعرف ماذا نفعل، ولا كيف نستقر.

وتحدثنا بالأمر إلى أهل أويتسه، فرأينا أنهم هم أنفسهم لا يعرفون ما الذي سيقع، ولا ما الذي سيؤدي إليه هذا كله. وقال حاجي زكي الذي حجّ مرتين إلى مكة، والذي بلغ من العمر ثمانين عاماً ونيفاً، قال: إن الحدود التركية ستنحسر، قبل انقضاء جيل واحد، إلى مكان بعيد، هناك على البحر الأسود، مسافة خمس عشرة مرحلة.

ذلك ما قاله رجل فيليتوفو وسمعه الوجهاء الأتراك من سكان مدينة فيشيغراد.

إن مظهرهم هادئ، غير أنهم في قرارة نفوسهم مضطربون قلقون. أصبحوا من تأثير هذا الكلام فيهم لا يستقرون على حال، فكانوا يقبضون بأيديهم على المقعد الحجري، كأنّ تياراً عارماً خفياً جاء من جهة من الجهات يلطمه من تحتهم ويهز الجسر هزاً. ثم ضبطوا أنفسهم شيئاً بعد شيء، ووجدوا من الكلام ما يخفّف من قيمة هذا الحدث ويخفض من شأنه.

إنهم لا يحبون الأنباء التي لا تُسِرّ، ولا الخواطر المؤلمة، ولا الأحاديث الجدية التي تجلب الهم، لكنهم يرون أن الأمر لا يبشر بخير. إنهم لا يستطيعون أن ينكروا ما يرويه رجل فيليتوفو، ولا يعرفون كيف يهدئون روعه وكيف يواسونه. لذلك ضاقوا ذرعاً به، وانتظروا بفارغ الصبر أن يعود إلى أعالي قريته حاملاً معه الأنباء المزعجة التي جاء بها. وذلك لا يُنْقِص الهمّ طبعاً، لكنه يفر به من هذا المكان.

فلما مضى الرجل فعلاً، أسعدهم أن يستطيعوا الرجوع إلى عاداتهم، ومواصلة الجلوس على الكابيا في هدوء، من دون هذه الأحاديث التي تفسد على الإنسان حياته، وتجعل المستقبل مخيفاً، تاركين للزمن أن يخفف وأن يقلل من خطورة هذه الأحداث التي تجري وراء الجبل.

نهض الزمن بمهمته، واستمرت الحياة تجري على حالها من دون تغيير ظاهر. وانقضت ثلاثون سنة أو يزيد على هذا الحديث الذي دار فوق الكابيا. لكن تلك الأوتاد التي غرسها مندوب السلطان وسردار رويان على الحدود، قد أصبح لها جذور، وأفرعت، وآتت ثمراً متأخراً، مُرّ المذاق في أفواه الأتراك. لقد اضطر الأتراك إلى أن يتركوا أواخر مدنهم من بلاد الصرب. وفي ذات يوم من أيام الصيف، ازدحم جسر فيشيغراد بموكب يبعث على الحزن والشفقة من لاجئي أويتسه.

في مثل تلك الأيام الحارة التي تحلو فيها فترات الغسق الطويلة على الكابيا، يأتي الأتراك من حي السوق يملأون الرصيفين فوق الماء. وتصل إلى الجسر سلال الشمّام محمولة على ظهور الحمير. إن ثمار الشمّام والبطيخ الناضجة تظل تبرد هناك طوال النهار، حتى إذا جاء المساء، وفد المتعطلون فاشتروها وأكلوها فوق الصوفا. وفي العادة يتراهن على البطيخة صديقان: واحد يقول: إن داخلها أحمر، والثاني يقول: إنه زهري، حتى إذا قطعت، دفع الخاسر ثمنها، ثم أكلوها

جميعاً وهم يتحدثون ويتمازحون في صخب.

إن سخونة شديدة من حرارة النهار لا تزال تخرج من الرصيفين الحجريين، لكن هواء طرياً يصعد من الماء عند الغسق. والنهر يسطع في وسطه، لكنه على الضفتين تحت أشجار الصفصاف والخيزران ظليل أخضر ضارب إلى سواد. والروابي المحيطة تصطبغ تحت أشعة الشمس بألوان حمراء قانية، لكنها متلألئة في بعضها، كابية في بعضها الآخر. وفوقها، على النصف الجنوبي الغربي كله من المدرج الذي تطل عليه العين من الكابيا، ترى غمائم الصيف التي يتغير لونها من لحظة إلى لحظة. إن هذه الغمائم لهي من أعظم المناظر التي تقدمها الكابيا أيام الصيف، فمنذ يشتد نور الصباح وتصعد الشمس إلى قبة السماء، تظهر هذه الغمائم من وراء الجبال كتلاً كثيفة بيضاء وفضية ورمادية، في مناظر ساحرة، كأنها قباب متنوعة متلونة من مبان فخمة رائعة، حتى إذا بلغت حداً معيناً من الضخامة ظلت على حالها هذه طوال النهار، ساكنة ثقيلة، فوق الروابي التي تحفّ بالمدينة المشتعلة بأضواء الشمس. والأتراك الذين يجلسون جلستهم تلك عند الغسق على الكابيا تكون هذه الغمائم أمام أبصارهم دائماً، كأنها خيام بيضاء من حرير السلطان، وتوقظ في خيالهم رؤى ومشاهد حملات ومعارك غامضة، وتوقظ صوراً لها من القوة والأبهة ما يبهر الأبصار ويتجاوز الحدود. حتى إذا أطفأت الظلمة هذه الغمائم الصيفية حول المدينة وبددتها، ظهرت النجوم في السماء، وظهر القمر، فتراءت أمام العيون ألوان من السحر جديدة.

لا يحس المرء هذا الجمال الغريب النادر وهو على الكابيا، مثلما يحسه في مثل هذه الساعة من أيام الصيف. إن الإنسان ليشعر كأنه راكب أرجوحة سحرية، يجتاز الفضاء، ويمخر عباب الماء، ويطير في السماء، ويجد نفسه مرتبطاً أشد الارتباط بمدينته، وببيته الأبيض القائم هنالك على الضفة، ومن حوله حديقته وبستانه المليء بأشجار الخوخ. في هذا المكان يستطيع كثير من هؤلاء البسطاء المتواضعين من سكان المدينة، أن يشعروا في تلك الساعات، وهم يحتسون القهوة ويدخنون، يستطيعون أن يشعروا بغنى العالم وفيض النعم الإلهية. ذلك كله يستطيع بناء واحد أن يهبه للبشر، وأن يهبه لهم قروناً طويلة، إذا هو كان جميلاً قوياً، إذا تخيله صاحبه في اللحظة المناسبة، وشاده في المكان الملائم، ووفّق في تنفيذه.

وها نحن أولاء في أمسية من هذه الأماسي، مليئة بتلك الأحاديث والضحكات والأمازيج التي يتبادلها الناس في ما بينهم، أو يرشقون بها المارة.

إن الشخص الذي تنصبّ عليه الأمازيج ناشطة صاخبة، شاب قصير قوي الجسم غريب المظهر، يقال له سالكو الأعور.

هذا الأعور هو ابن غجرية وجندي أو ضابط أناضولي كان يقوم بخدمته العسكرية هنا في المدينة، وقد ترك الأناضولي ابنه هذا الذي لم يرغب فيه، تركه من قبل أن يولد. وما لبثت أمه أن ماتت. فشب الولد من دون أسرة تعوله. لكن المدينة كلها كانت تعوله. إنه ينتمي إلى الجميع ولا ينتمي إلى أحد. يعمل في الدكاكين والبيوت ويقوم بأشغال لا يرضى أحد أن يقوم بها، ينزح أوساخ الحفر والمجاري، ويطمر ما يفطس أو ما ينفق من حيوان أو ما يجرفه الماء. لم يكن له بيت خاص به في يوم من الأيام، ولا كان له اسم أسرة يكنّى به، ولا كانت له مهنة معينة يزاولها. كان يأكل حيث يجد طعاماً، يلتهمه واقفاً أو ماشياً، وكان ينام في العنابر، ويرتدي أسمالاً رثة مبرقشة يهبها له الناس. وقد فقد عينه اليسرى منذ طفولته. إنه الآن إنسان غريب، طيّب القلب، حسن المعاشرة، مرح يحب الشراب ويكثر منه: وإذا كان يخدم أهل المدينة إذ يعمل لهم، يخدمهم أيضاً إذ يدور عليه مزاحهم وتهكمهم.

حول هذا الأعور تجمع عدد من الشبان أبناء التجار يضحكون ويرشقونه بأمازيح ثقيلة.

كان الجو مضمخاً برائحة الشمام الناضج والقهوة المحمّصة. لقد غربت الشمس، إلا أن تلك النجمة الكبيرة التي تسطع فوق موليفنيك لم تظهر بعد. ففي هذه اللحظة التي يمكن لأبسط الأشياء فيها أن تكتسي مظهر رؤى مليئة بالروعة والرهبة والمعنى، إنما ظهر على الجسر أوائل اللاجئين من أويتسه.

الرجال يسيرون على الأقدام، وقد غطاهم الغبار وانحنت ظهورهم. وعلى أفراس صغيرة تتأرجح نساء مختفية في براقعها محملقة أعينها، أو يتأرجح أطفال صغار ربطوا بين حُزَم أو شدوا إلى صناديق. وبين هؤلاء وأولئك يرى من حين إلى حين رجل أعلى شأناً، قد ركب حصاناً أجود، لكنه يسير بخطى الجنائز خافض الرأس، حتى إنك حين تراه تشعر شعوراً أقوى بالشقاء الذي دفع بهؤلاء الناس إلى هذا المكان. كان بعضهم يجر معزى وحيدة بحبل، وكان بعضهم الآخر يحمل

خروفاً بين ذراعيه. وكانوا جميعاً صامتين. وحتى الأطفال كانوا لا يبكون. إنك لا تسمع إلا صوت حوافر الخيل وأقدام الرجال، وإلا قرقعة رتيبة هي قرقعة آنية النحاس والخشب على ظهور الخيل التي تنوء بالحمل.

إن ظهور هؤلاء الناس المرهقين المهدمين قد أوقف النشاط والحركة على الكابيا فوراً. الشيوخ فقد ظلوا جالسين على المقاعد الحجر، أما الشباب فقد أخذوا ينهضون واحداً بعد آخر حتى صاروا جداراً من بشر. وسار الموكب في وسطهم. اكتفى بعض أهل المدينة بأن ينظروا إلى هؤلاء اللاجئين في عطف وشفقة صامتين، ورحب بهم بعضهم الآخر وحاولوا أن يستوقفوهم وأن يقدموا لهم شيئاً، لكن اللاجئين لم يلتفتوا ليروا ماذا يقدم لهم، ولم يكادوا يجيبون على كلمات الترحيب التي يستقبلون بها. كل ما فعلوه أنهم اغذّوا الخطى من أجل أن يبلغوا المرحلة قبل هبوط الظلام، من أجل أن يصلوا إلى أوكولشته قبل أن يدهمهم الليل.

كان عددهم زهاء مائة وعشرين أسرة، مضى أكثر من مائة منها إلى ساراييفو أملاً في أن تأويهم. وبقي في المدينة نحو خمس عشرة أسرة، لأكثرها فيها أقارب.

رجل واحد من هؤلاء الرجال الذين هدهم التعب، رجل واحد كان يبدو في الظاهر فقيراً لا أسرة له، توقف لحظة عند الكابيا، وشرب من مائها الغزير، وقبل سيجارةً قُدِّمتْ لهُ. كان أبيض تماماً من غبار الطريق، وكانت عيناه تتقدان كأن به حمى، وكانت نظرته لا تستقر على شيء. إنه ينشق أنفاس الدخان بشراهة، ويلقي على ما حوله تلك النظرة المتقدة المؤلمة، من دون أن يجيب على ما يطرحه عليه بعضهم من أسئلة خجلى مهذبة. واكتفى بأن مسح شاربيه الطويلين، وقدم شكره موجزاً بتلك المرارة التي يولدها التعب والشعور بالضياع، ونطق ببضع كلمات وهو يلقي على الجميع فجأة تلك النظرة التي لا ترى. قال:

- إنكم جالسون هنا تتسلون، ولا تعرفون ما الذي يحدث في ستانيشفاتس. ها نحن أولاء نلتجئ إلى أرض تركية، ولكن إلى أين تهربون ونهرب حين يجيء دور بلدكم؟ ذلك ما لا يعرفه أحد منكم، ولا يفكر فيه.

قال الرجل ذلك ثم توقف بغتة عن الكلام. إن ما قاله هو كثير على هؤلاء الناس الذين كانت قلوبهم خالية من الهموم منذ لحظة، لكنه في الوقت نفسه قليل

إذا قيس بالمرارة التي لا تتيح له لا أن يسكت ولا أن يعبّر عما بنفسه بوضوح. وها هو ذا يقطع الصمت الأليم، فيستأذن ويشكر، ويسرع يلحق بالركب. وها هم أولاء ينهضون ليصيحوا به متمنين له السلامة.

وظل يخيّم على الكابيا أثناء تلك الليلة كلها شعور أليم. كانوا جميعاً صامتين. وحتى الأعور بقي جالساً على إحدى الدرجات الحجر أخرس لا يتحرك، وقد تناثرت على الأرض من حوله قشور البطيخ الذي أكله بفضل رهان. إنه مسند رأسه إلى ذراعه، حزين، خافض البصر، غائب، كأنه لا ينظر في الحجر الذي أمامه وإنما يسرح طرفه في مكان بعيد عميق لا يكاد يستشفه. وأخذ الناس يبرحون الجسر قبل الأوان.

ولكن كل شيء استؤنف في الغد كما في الماضي، لأن أهل المدينة لا يحبون أن يتذكروا الشقاء، ولا يحرصون على أن يحملوا الهموم قبل وقوعها، وكانوا في قرارة نفوسهم يرون أن الحياة الحقة هي فترات الهدوء هذه، وأن من الجنون والعبث أن يعكر المرء هذه الفترات الهادئة النادرة، بطلب حياة أخرى أرسخ وأقر ولكنها لا وجود لها.

في خلال هذه السنين الخمس والعشرين من وسط القرن التاسع عشر، عرفت سارايفو الطاعون مرتين، والكوليرا مرة. وكانت المدينة في مثل هذه الحالات تلتزم الوصايا التي أمر بها النبي المؤمنين لتنظيم سلوكهم أيام الوباء: «إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها».

ولكن الناس لا يراعون قواعد الصحة دائماً ولو قيل لهم: إن رسول الله هو الذي أمر بها، ما لم تكرههم السلطة على ذلك إكراهاً، لهذا كانت السلطة عند انتشار الوباء تقلل مرور المسافرين والبريد أو تمنعه منعاً باتاً. وكان مظهر الحياة على الكابيا يتغير عندئذٍ. فالسكان الذين كانت تعج بهم الكابيا من عاملين أو متعطلين سادرين أو مغنين، يختفون عنها، ويحتل الصوفا، مرة أخرى، نفر من الحرس، كما في أيام الثورات والحروب. فإذا جاء مسافرون من سارايفو أوقفوهم وحملوهم على الارتداد ملوحين لهم ببنادقهم صائحين بصوت قوي. وكان الحرس يتناولون البريد من أيدي السُّعاة، ملتزمين جميع إجراءات الحيطة والحذر. فهم يوقدون على الكابيا ناراً قليلة من حطب معطار ينشر دخاناً أبيض غزيراً، ثم يمسكون الرسائل واحدة واحدة بأطراف الملاقط ويمررونها على

الدخان، حتى إذا تطهرت بهذه الوسيلة، دفعوا بها إلى مراحلها التالية. وما كانوا يقبلون مرور أية بضاعة. غير أن المهمة الكبرى التي ينهضون بها ليست الاهتمام بالرسائل بل بالناس. ففي كل يوم كان يصل عدد من الناس، مسافرين أو تجاراً أو سعاة أو متشرّدين. فكان ينتظرهم عند مدخل الجسر رجل من الحرس ما أن يراهم من بعيد حتى يلوِّح لهم بيده أن الاقتراب ممنوع، فيتوقف المسافر، أو يأخذ بالتفاوض مبرراً مجيئه شارحاً حالته. إن كل واحد منهم يعتقد بأن عليه أن يدخل المدينة حتماً، وكل واحد منهم يؤكد أنه سليم كالعين، لا شأن له بتلك الكوليرا ـ لعنها الله ـ المنتشرة هناك في سارايفو. وكان المسافرون يبلغون وسط الجسر شيئاً فشيئاً وهم يقدِّمون هذه الشروح، ويصلون إلى الكابيا. وهنا يتدخل في الحديث رجال آخرون من رجال الحرس، ويأخذ الجميع يصرخون بصوت عالٍ مشيرين بأيديهم، لأنهم يتحادثون على مسافة أمتار. وكان لصراخهم العالي هذا سبب آخر: فالحرس المعتصمين في الكابيا يقضون نهارهم كله في شرب الراكيا وأكل البصل الأبيض. إن عملهم يمنحهم هذا الحق، لما يظن من أن للراكيا والبصل أثراً في إحداث المناعة ضد الوباء، فكانوا يستغلون هذا الحق على أوسع نطاق.

وكان كثير من المسافرين يتعبون من التضرع، ومن محاولة إقناع رجال الدرك فيعودون عن طريق أوكولشته محطمين، من دون أن يحققوا ما جاؤوا من أجله. إلا أن بينهم أناساً يملكون روح الاستمرار والقتال، فكان هؤلاء يظلون في مكانهم على الكابيا ساعات، يرقبون لحظة ضعف أو غفلة، أو يتوقعون صدفة طيش موفقة. أما إذا كان رئيس حرس المدينة هناك عرضاً، فلا أمل عندئذٍ في أن يحصل المسافرون على شيء. إن رئيس الحرس هذا، واسمه سالكو هيدو، هو السلطة الحقيقية المقدسة، وهو لا يرى الشخص الذي يتحدث ولا يسمعه، ولا يحفل به إلا ليوضح له واجبه وفقاً للأوامر والقواعد المرعية. إنه في ممارسة وظائفه أعمى.... حتى إذا فرغ منها أصبح بالإضافة إلى ذلك أخرساً. وعبثاً يحاول المسافر أن يتضرع إليه أو أن يتملّقه.

ـ صالح آغا، إنني في تمام الصحة والعافية.

ـ إذاً عد من حيث أتيت، وأتمنى لك الصحة والعافية. عد إلى هناك.. شيطان يأخذك..

لا سبيل إلى المناقشة مع هيدو. أما مع رجال الدرك المرؤوسين فمن الممكن أن يصل المرء إلى نتيجة. فيكفي أن يبقى المسافر على الجسر، وأن يستمر على تبادل الصراخ معهم، وأن يتشاجر، وأن يوغل في الحديث، فيقص لهم ما لقي من ضروب الشقاء، ويروي المصيبة التي حملته على السفر، وسائر أنواع المصائب، حتى يصبح أكثر قرباً منهم إن صح التعبير، وحتى يصبحوا أكثر معرفةً به، وحتى يصبح في نظرهم أقل شبهة برجل قد يكون مصاباً بالكوليرا. وعندئذٍ يقترح عليه أحد رجال الدرك أن يتولى عنه الذهاب إلى المدينة فيبلغ الشخص الذي جاء المسافر من أجله، ما يجب أن يبلغه إياه. وهذه أولى درجات التساهل. ولكن المسافر يعرف أن مهمته لا يمكن أن ينهض بها على أحسن وجه أي وسيط، وأن رجال الدرك، على ما هم عليه هنا من حال، بسبب ما يعانون دائماً من صداع، ولكونهم أنصاف سكارى من فرط ما يعالجون أنفسهم بالراكيا، ليسوا على صحو تام، وكثيراً ما يقومون بالمهمة التي يوكل بها إليهم على نحو معكوس مقلوب.

لذلك يطيل المسافر حديثه متوسلاً إليهم، ويقدم لهم العطايا، ويدعو لهم الله بالخير، وهكذا دواليك إلى أن لا يبقى على الكابيا من رجال الدرك إلا ذلك الذي يكون المسافر قد اكتشف أنه أكثرهم تساهلاً، وعندئذٍ تتم اللعبة، فالدركي الطيب القلب يدير وجهه نحو الحائط، متظاهراً بأنه يقرأ الكلام المنقوش عليه، واضعاً يديه خلف ظهره باسطاً كفه اليمن. فيدس فيه المسافر الصبور ما اتفق عليه من مبلغ، وينظر يمنة ويسرة، ثم يجتاز النصف الثاني من الجسر راكضاً، ويغيب في المدينة. ويعود الدركي إلى مركزه فيكسر بصلة بيضاء ويبللها بالراكيا. فذلك يملؤه عزيمة نشوى لا تبالى، ويبث فيه مزيداً من القوة للسهر على المدينة وحمايتها من الكوليرا.

لكن المصائب لا تدوم إلى الأبد (وهذه صفة مشتركة بينها وبين الأفراح)، وإنما هي تنقضي، أو تتبدل صورها على الأقل، وتغيب في ظلام النسيان. وتتجدد الحياة على الكابيا دائماً رغم كل شيء، والجسر لا تغيّره السنون ولا القرون، ولا ما يطرأ على العلاقات بين الناس من تبدلات أليمة. فذلك كله يمر من فوقه كما تمر الأمواه الصاخبة من تحت قناطره الملساء الرائعة.

الفصل الثامن

ليست الحروب والأوبئة والهجرات وحدها هي التي كانت تتعاقب على هذا الجسر وتعطِّل الحياة فوق الكابيا. وإنما هنالك أحداث أخرى نادرة كانت تسمى باسمها السنة التي تقع فيها، وكانت تجعل ذكريات تلك السنة باقية في الأذهان زماناً طويلاً.

إن الافريز الحجري الذي يحفّ بالجسر من جهتيه عن شمال وعن يمين، قد انصقل منذ مدة طويلة، وأصبح أكثر سواداً من سائر أجزاء الجسر. فمنذ مئات السنين يضع الفلاحون أحمالهم على هذا الافريز إذا أرادوا أن يستريحوا قليلاً عند عبور الجسر، ومنذ مئات السنين يستند المتعطلون إلى هذا الإفريز ويتوكأون عليه وهم يتحدثون، ويضعون عليه سواعدهم حين يكونون وحيدين ينظرون إلى الهوة التي تحتهم ويتأملون جريان الماء المزبد السريع الذي يتجدد دائماً ويظل أبداً على ما هو عليه.

لكن المتعطلين المستطلعين الذي يستندون إلى الافريز وينظرون في صفحة النهر ليقرأوها ويدققوا فيها، لم يكثروا يوماً كما كثروا في تلك الأيام الأخيرة من شهر آب (أغسطس) من تلك السنة. كان الماء معتكراً بالأمطار رغم أن نهاية الصيف لم تكد تبدأ. وفي دوارات الماء تحت القناطر يتكون زبد أبيض، ويدور ويختلط بشظايا خشب وأغصان صغيرة وعصافات قش. لكن السكان المتعطلين المتكئين على الجدار المسندين رؤوسهم إلى الأذرع، لم يكونوا في حقيقة الأمر ينظرون الآن إلى النهر الذي يعرفونه منذ زمن طويل والذي ليس لديه ما يقوله لهم، وإنما كانوا يبحثون على صفحة الماء، كما يبحثون في أحاديثهم، عن تعليل يروي ظمأهم إلى الفهم، ويحاولون أن يجدوا ما يشبه أن يكون أثراً واضحاً لهذا القدر الغامض القاسي الذي فاجأهم جميعاً وعكّر نفوسهم في هذه الأيام.

ففي تلك الفترة حدث على الكابيا حادث نادر كل الندرة، حادث من تلك

الحوادث التي ليس لها نظير في الماضي وقد لا تتكرر في المستقبل ما ظل على نهر درينا جسر ومدينة. وقد هزّ هذا الحادث المدينة وأثارها وانتشرت أصداؤه في بعيد، في أمكنة أخرى، كحكاية من تلك الحكايات التي تجوب العالم كله.

والقصة قصة ضيعتين صغيرتين هما ليفي لوج ونيزوكه. إن هاتين الضيعتين الصغيرتين تقعان على الطرفين الأقصيين المتقابلين من ذلك المدرج الذي تكوّنه الروابي السمراء والتلال الخضراء حول المدينة.

إن قرية ستريشته الكبيرة الواقعة في الشمال الشرقي من الروابي، هي أقرب القرى إلى المدينة. وبيوتها وحقولها وبساتينها بعضها منثور على التلال وبعضها غارق في الوديان التي بين التلال. وعلى الجانب المستدير من إحدى هذه التلال يقوم عدد من البيوت يبلغ زهاء خمسة عشر بيتاً، غارقة في بساتين الخوخ محاطة بالحقول من جميع الجهات. فهذه هي ضيعة ليفي لوج. إنها مستعمرة تركية هادئة جميلة غنية واقعة في الأعالي. إنها جزء من مديرية ستريشته، لكنها أقرب إلى المدينة، لأن الناس الذي ينزلون من ليفي لوج هم على مسير نصف ساعة من حي السوق، ولهم في هذا الحي مخازن وأعمال، كأبناء المدينة سواء بسواء. وليس بينهم وبين سكان مدينة فيشيغراد من فرق إلا أن أملاكهم أكثر استقراراً وأماناً، لأنها قائمة على الأرض الراسخة تحت الشمس لا يهددها الطوفان، وإلا أنهم أكثر تواضعاً ويعيشون حياة أدنى إلى العزلة، وليس لهم ما لأهل المدينة من عادات سيئة. إن لضيعة ليفي لوج أرضاً طيّبة، وماء رائقاً، والناس فيها على جانب من الجمال.

هناك، في هذه الضيعة، يعيش فرع من أسرة عثمان آغتش التي تسكن فيشيغراد. ورغم أن الذين يعيشون في المدينة من أفراد هذه الأسرة أكثر عدداً وأوفر ثراء من أولئك، فإن الناس يعتقدون بأنهم «سقط» الأسرة، وأن الذين يعيشون في ليفي لوج، مهد الأسرة، هم الممتازون حقاً، إن هذه الأسرة تضم أفراداً كرام العروق، سريعين إلى ردّ الفعل، مزهوين بمحتدّهم، والأسرة صاحبة ذلك البيت الكبير، أكبر بيت في المدينة، الذي يُرى على الطرف أبيض ناصع البياض، بارزاً عند الجنوب من الغرب، مكلَّساً على الدوام، بسقفه المفروش تبناً، ونوافذه الأربع عشرة ذات الزجاج، إن البيت يُرى من بعيد، وهو أول شيء يعرض لبصر المسافر الذي يهبط الطريق ذاهباً إلى فيشيغراد أو يلتفت إلى وراء

خارجاً من هذه المدينة. إن أواخر أشعة الشمس التي تغرب وراء قمة لشتان تتلبث وتتكسر دائماً على الوجه الأبيض الساطع من هذا البيت. وقد اعتاد سكان المدينة منذ زمان طويل أن ينظروا عند المساء إلى انعكاس أشعة الشمس الغاربة على نوافذ بيت أسرة عثمان آغتش ثم إلى انطفاء هذه النوافذ واحدة بعد أخرى، وكثيراً ما كانوا يرون إحدى هذه النوافذ تظل، حتى بعد أن تغرب الشمس وبعد أن يلف الغسق المدينة، تظل تشتعل بانعكاس أخير ضائع وسط الغمام، وتظل تسطع خلال لحظات كأنها نجمة كبيرة حمراء تطل على المدينة المطفأة.

ورَبُّ هذا البيت رجل مشهور محترم في المدينة. إن عبد آغا عثمان آغتش إنسان باسل شديد البأس في حياته وفي أعماله جميعاً. ولعبد آغا مستودع في حي السوق هو مبنى منخفض يكاد يكون مظلماً، إذا دخلته رأيت الذرة منشورة فيه على ألواح وحصر مجدولة، وكذلك الخوخ والصنوبر. إن عبد آغا لا يبيع إلا بالجملة، لذلك لا يفتح مخزنه في جميع الأيام، بل يفتحه أيام السوق دائماً، وفي بعض أيام الأسبوع إذا اقتضى العمل أو اقتضت الضرورات ذلك. ويعمل في المخزن دائماً أحد أبناء عبد آغا في أكثر الأحيان على مقعد أمام المخزن، يتحدث هنالك مع الزبائن أو مع معارفه من الناس. إنه رجل فارع القامة، مهيب الطلعة، أحمر الوجه، لكن لحيته بيضاء تماماً، وكذلك شارباه، وله صوت أجش مختنق، لأنه مصاب بربو شديد الوطأة منذ سنين، فإذا اهتاج أثناء الكلام ورفع صوته، وهذا ما يقع له كثيراً، سعل سعالاً قوياً، فانقطع كلامه فجأة، وانتفخت أوداجه، وتضرَّج وجهه بحمرة شديدة، وامتلأت عيناه بالدموع، وأَنَّ صدره وصفر ودوى كالصاعقة في الجبال، حتى إذا انقضت نوبة السعال، عاد سيرته الأولى فوراً، وتنشق الهواء تنشقاً عميقاً، واستأنف حديثه من النقطة التي توقف عندها، ولكن بصوت تبدل فأصبح أقرب إلى النحول. إنه معروف في المدينة وما حولها بأنه رجل ذو سن قاطعة، ويد مبسوطة، وقلب جريء. وهو يتصف بهذه الصفات، في جميع الأمور، وفي تجارته أيضاً، رغم أن ذلك يعود عليه بالخسران في كثير من الأحيان. فكم مرة انقص سعر الذرة أو الخوخ أو زاده بكلمة، حين لا يكون له في ذلك مصلحة، من قبيل الاحتقار لقروي يرتعش خوفاً على قروشه، أو من قبيل الاحتقار لتاجر طماع. والناس في حي السوق يطيعونه عامةً، ويأخذون بآرائه، رغم علمهم بأنه كثيراً ما يكون في أحكامه عنيفاً ذاتياً.

وحين ينزل عبد آغا من فيلي لوج ويجلس أمام مخزنه، يندر أن يكون وحده، لأن الناس يحبون حديثه، ويرغبون في سماع آرائه. وهو صريح شديد الحمية، مستعد دائماً لأن يعلن ما يؤثر الناس أن يصمتوا عنه، ولأن يدافع عنه. ولئن كان الربو يقطع بنوبات السعال كلامه في كل لحظة، فمن الغريب أن هذا الربو وهذا السعال لا يفسدان أثر ما يقول، بل يزيدانه قوة إقناع، ويضيفان على طريقته في التعبير وقاراً مهيباً لا تسهل مقاومته.

إن لعبد آغا خمسة أبناء متزوجين، وابنة وحيدة هي آخر من أنجب، وهي الآن في عنفوان سن الزواج. ويعرف الناس عن ابنته فاطمة هذه أنها على حظ رائع من الجمال فهي صورة أبيها تماماً. وأمر زواجها يشغل المدينة، حتى لقد أصبح يشغل ما حول المدينة شيئاً فشيئاً. ومن المألوف في بلادنا، في جميع الأزمان، أن تدور الأقاصيص والأغاني في كل جيل عن فتاة من الفتيات لجمالها ومزاياها ونبل محتدها، فتكون هذه الفتاة خلال بضع سنين محط الرغبات، والمثل الأعلى الذي لا يمكن بلوغه، فاسمها يلهب الأخيلة، وحولها تشيع حماسة الرجال وتنسج غيرة النساء. إن هذه المخلوقات الفذة النادرة هي التي تميزها الطبيعة وترفعها إلى ذرى محفوفة بالأخطار.

كانت بنت عبد آغا هذه تشبه أباها لا بوجهها ومظهرها فحسب، بل بصفاء ذهنها وموهبتها في الكلام أيضاً. والذين يعرفون ذلك خير معرفة إنما هم الشبان الذي يحاولون أثناء الأعراس والاجتماعات أن يخلبوها بتملق مبتذل أو أن يربكوها بمزاح جريء. إن فنها في الكلام لا يقل في شيء عن جمالها. لذلك كانت الأغنية التي تتغنى بفاطمة، بنت عبد آغا (والأغنيات التي تدور على مثل هذه المخلوقات النادرة تنشأ من تلقاء ذاتها في مكان ما) تلك الأغنية تقول:

يا فاطمة، بنت عبد آغا

يا ذات النهى والجمال...

فكذلك كان الناس يغنون ويقولون في المدينة وما حولها، لكن الذين يجرأون أن يطلبوا يد حسناء فيلي لوج قلة قليلة. وقد رُفض هؤلاء أنفسهم واحداً بعد واحد، فسرعان ما قام حول فاطمة ذلك السياج من الإعجاب والبغض والحسد والرغبات الصامتة والانتظار الخبيث، ذلك السياج الذي يقوم عادةً حول المخلوقات ذات المواهب النادرة والمصير الفذ. إن هؤلاء الأشخاص الذين

يتغنى بهم الناس ويتحدثون عنهم، سرعان ما يذهب بهم قدرهم، فما تبقى بعدهم إلا أغنية أو قصة، عوضاً عن حياة واقعة متحققة.

وكثيراً ما يحدث في بلادنا أن الفتاة التي يتحدث عنها الناس يقل الطامعون في حبها لهذا السبب نفسه، وتظل «عانساً» بينما تتزوج، في سهولة وسرعة فتيات هيهات أن يضارعنها في أية ناحية من النواحي. ولكن فاطمة لم تصب بهذا الخطب. فإن أحد المولهين طلب يدها، وكان من الجرأة بحيث طمع فيها، ومن البراعة والإصرار بحيث وصل إلى تحقيق غاياته.

على الدائرة المتعرجة التي تتشكل من حوض فيشيغراد، مقابل فيلي لوج تماماً، تقع ضيعة نيزوكه.

فبعد الجسر، على مسير أقل من نصف ساعة صعوداً نحو منبع النهر في تلك الكتلة من الجبال الوعرة التي يخرج منها درينا في انعطاف مفاجئ كأنما هو يخرج من جدار أسمر، يوجد شريط ضيق من أرض خصيبة على الشاطئ الصخري من النهر: إنها أمواش النهر والسيول التي تهبط على منحدر قائم من صخور بوتكو. وعلى هذه الأرض تقوم حقول وبساتين، وفي طرفها مراع وعرة ذات عشب طري، تغيب نحو الذرى وسط مرتفعات خصيبة وأدغال قاتمة. الضيعة كلها ملك لأسرة البكوات حمزتش الذين يطلق عليهم أيضاً اسم تركوفتش، ففي منتصف الضيعة تعيش خمس أسر من الفلاحين العبيد أو ست، وفي النصف الثاني تقوم بيوت البكوات الأخوة من أسرة حمزتش، وعلى رأسهم مصطفى بك حمزتش. إن الضيعة متطرفة تماماً، متجهة إلى الشمال لا تنصبّ عليها الشمس، ولكن لا تهب عليها الرياح أيضاً، وهي أغنى بالثمار والعلف منها بالقمح. ولأنها محاطة ومحصورة من جميع الجهات بروابٍ عالية قائمة، تظل أكثر النهار في الظل، وتظل طوال النهار في صمت، حتى إن كل نداء يخرج من صدور الرعاة، أو كل صوت من جرس معلّق في عنق دابة، يترجّع في الجبال صدى مدوياً متعدداً. وليس هناك إلا طريق واحدة تؤدي إلى هذه الضيعة، هي الطريق الآتية من فيشيغراد. فحين يخرج المرء من المدينة، ويجتاز الجسر، ويترك الطريق الكبرى التي تنعطف يمنه ثم تتابع مجرى النهر، وينزل حتى الشاطئ، يعثر هنالك على ممر حجير ضيق ينعطف إلى يسار الجسر، ويجتاز مسافة وعرة غير مزروعة، ويصعد نهر درينا محاذياً مجرى الماء، فكأنه حاشية

بيضاء للمنحدر الأسمر الذي يغطس في الماء.. وإذا نظر أحد من أعلى الجسر إلى فارس أو سائر يمضي في هذا الطريق، تراءى له أنه يمشي على جذع شجرة ضيق ألقي بين الماء والصخر، ورأى صورته تنعكس طوال الطريق على صفحة الماء الهادئ الأخضر.

هذا هو الطريق الذي يؤدي من المدينة إلى نيزوكه، وليس ثمة طريق بعد نيزوكه، إذ ليس ثمة مكان يمضي إليه المرء بعدها، وليس ثمة أحد يرحل إلى ما بعدها. غير أن السفح الوعر، المغطى بغابة متناثرة، فوق البيوت، يخدده واديان عميقان أبيضان، عليهما يصعد الرعاة حين يريدون جمع قطعانهم في الجبل.

وهناك يقوم البيت الكبير الأبيض، بيت مصطفى بك أكبر أفراد أسرة حمزتش. ليس هذا البيت أصغر من بيت عثمان آغتش، في فيلي لوج، لكنه يختلف عنه في أنه مختفٍ في ذلك القاع وتلك الغابة التي على ضفة النهر فلا يمكن أن يُرى، وحول هذا البيت اصطفت إحدى عشرة شجرة من أشجار الحور على شكل نصف دائرة، فهي بدمدمتها وتمايلها تبث حركة متصلة في هذا الركن من الأرض، المغلق من جميع الجهات، الذي يصعب الوصول إليه. وفي مستوى تحت هذا البيت يقع بيتا الأخوين الآخرين من أسرة حمزتش، وهما يشبهان البيت الأول، لكنهما أصغر منه قليلاً، وأكثر منه تواضعاً. ولجميع الأخوة من أفراد أسرة حمزتش أولاد كثر، وهم يتصفون جميعاً برشاقة القوام وطول القد، وشحوب الوجه، وبأنهم ميالون إلى الصمت منطوون على أنفسهم، لكنهم متحدون نشيطون في العمل، معتادون على تقدير ما يملكونه وعلى الدفاع عنه. ولهم، كأغنى أغنياء فيلي لوج، مستودعات في المدينة، يُنزلون إليها كل ما يحصدونه في نيزوكه. ففي كل موسم من المواسم يرى ذلك الممر الحجير الضيق الذي يحاذي نهر درينا يعج بهم وبعبيدهم متحركين زاحفين كأنهم النمل، فبعضهم يحمل البضاعة إلى المدينة، وبعضهم يعود بعد إنهاء عمله حاملاً المال في حزامه إلى القرية المختفية وسط الجبال.

إن بيت مصطفى بك حمزتش، ذلك البيت الكبير الأبيض الذي يبدو كمفاجأة جميلة في نهاية الممر الحجير الذي يبدو أنه لا يفضي إلى شيء، يضم أربع بنات وابناً وحيداً اسمه نائل. كان نائل بك هذا من أوائل الذين تطلعوا إلى فاطمة فتاة فيلي لوج. ففي حلة من حفلات الزواج ظل طوال الوقت ينظر إليها معجباً

بجمالها، من خلال باب مشقوق تجمعت عليه جمهرة من الشبان المتحمسين تجمع حبات العنب في عنقود. وفي مرة ثانية استطاع أن يراها بين صويحباتها اللاتي يحطن بها. فألقى إليها بهذه المزحة الجريئة:

ـ أسأل الله أن يخلع عليك مصطفى بك اسم العروس.

فضحكت فاطمة ضحكةً مخنوقة.

فقال لها الفتى مهتاجاً من خلال فتحة الباب الضيقة:

ـ لا تضحكي، فستقع هذه الأعجوبة ذات يوم.

فأجابت الفتاة وهي تضحك ضحكة أخرى، وتميل بجسمها في حركة متغطرسة لا تحسنها إلا نساء مثلها وفي مثل سنها، وهي حركة أبلغ تعبيراً من كلماتها وضحكتها، أجابت تقول:

ـ ستقع هذه الأعجوبة إذا نزلت فيلي لوج إلى نيزوكه.

هكذا المخلوقات التي وهبت لها الطبيعة مواهب فذة، تتحدى القدر في كثير من الأحيان، بجرأة وفي غير تبصر. وانتقل هذا الجواب الذي ردت به على الشاب نائل، انتقل من فم إلى فم، شأنه في ذلك شأن كل ما كانت تفعله وكل ما كانت تقوله.

وأفراد أسرة حمزتش ليسوا ممن توقفهم وتثبط عزيمتهم أول صعوبة. إنهم حتى في ما هو دون هذا الأمر شأناً، لا ينفضون أيديهم فوراً، ولا يباغتون الأمور مباغتة، فكيف في أمر خطير كهذا الأمر.. ولم تنفع وساطة بعض الأقارب الذين يسكنون المدينة. غير أن العجوز مصطفى بك حمزتش أخذ عندئذٍ أمر زواج ابنه على عاتقه. وكانت له دائماً أعمال مشتركة مع عبد آغا. وكان عبد آغا قد حلت به في الآونة الأخيرة خسارات كبرى بسبب طبيعته المندفعة المستكبرة، فتعذر عليه بسبب هذه الخسارات الوفاء ببعض التزاماته، فساعده مصطفى بك في ذلك الظرف وسنده، كما لا يفعل ذلك إلا أهل الشهامة من أبناء حي السوق، الذين يتعاونون ويشد بعضهم أزر بعض على صورة بسيطة طبيعية بلا كلام.

في تلك المخازن المظلمة الرطبة بعض الشيء، على مقاعد الحجر المصقول القائمة أمامها، لا تسوى مسائل المال والتجارة فحسب، بل تعيّن أيضاً مصائر بشر برمتها. أما ماذا جرى بين عبد آغا عثمان آغتش وبين مصطفى بك حمزتش،

وكيف طلب مصطفى فاطمة لابنه الوحيد نائل، وكيف «أعطى» عبد آغا الفتاة وهو على ما عرف عنه من صلابة وكبرياء، فذلك ما لم يعرفه أحد. كذلك لم يعرف أحد على وجه الدقة كيف جرت الأمور هناك في أعالي فيلي لوج بين الأب وابنته الوحيدة الحسناء. وطبيعي أن الفتاة لا يمكن أن تمانع.. كل ما في الأمر أنها نظرت نظرة تفيض بمعنى المفاجأة الأليمة، واهتز جسمها بتلك الحركة الخاصة بها، ثم خضعت لإرادة أبيها خضوعاً أخرس أصم، على ما هو مألوف في بلادنا منذ أقدم الأزمان وإلى أيامنا هذه. وأخذت الفتاة تنشر جهاز عرسها في الهواء. وكانت تكمله وترتبه، وهي تشعر كأنها في منام.

لم ترشح أي كلمة من نيزوكه. فإن رجال حمزتش العقلاء لا يطلبون من الناس أن يسجلوا انتصاراتهم في أحاديث طائشة. لقد ظفروا بما كانوا يبتغون، فاكتفوا بالنصر على عادتهم. ولم يكونوا في حاجة إلى أن يشاركهم أحد أفراحهم، كما كانوا لا يستدرون شفقة أحد حين يصابون بخيبة أو اخفاق.

غير أن ذلك لم يمنع الناس من أن يتحدثوا في الأمر كثيراً في مناسبات شتى على غير تبصر، فكذلك شأن الناس دائماً.

راحت المدينة كلها والقرى التي حولها تروي كيف أن أسرة حمزتش ظفرت بما تريد، وكيف أن بنت عبد آغا، ذات الجمال والكبر والنُّهى، التي لم تجد في بلاد البوسنة كلها خطيباً يليق بها، قد كُبِحَت وقُهِرَت، وكيف أن «فيلي لوج ستنزل إلى نيزوكه»، رغم أن فاطمة أعلنت على رؤوس الاشهاد أن هذا لن يكون.. إن الناس يحبون أن يتحدثوا عن ما يصاب به من انهيار ومذلة أولئك الذين ارتفعوا كثيراً، وطاروا إلى فضاءات عالية مسرفة في العلو.

وظل الناس يشيعون الأقاصيص عن هذا الحادث طوال شهر كامل، فكانوا في أحاديثهم يتمضمضون بالذل الذي ستلقاه فاطمة تمضمضهم بماء لذيذ. وخلال شهر كامل، ظلت تتوالى الاستعدادات ليوم الزواج في نيزوكه وفيلي لوج.

ظلت فاطمة تعمل مع صاحباتها وقريباتها وخادماتها في إعداد جهاز عرسها شهراً برمته. وكانت الفتيات تغني. وكانت هي أيضاً تغنّي. كانت تقوى حتى على الغناء. وكانت تصغي إلى غنائها، مع استمرارها على متابعة جريان أفكارها. ذلك أنها تتصور، عند كل غرزة من إبرتها، أنها لن ترى نيزوكه، لا هي ولا تطريزاتها. كان هذا لا يغيب عنها في لحظة من اللحظات، وكانت تقوله

لنفسها دائماً. كانت تحس أثناء هذا العمل وهذا الغناء، أن الطريق بين فيلي لوج ونيزوكه طويلة، وأن شهراً من الزمان طويل أيضاً. وحين كانت تبقى في الليل وحيدة بحجة أنها تريد إنهاء عمل من الأعمال، كان العالم ينفتح أمامها على مدى البصر، غنياً، زاخراً بالضياء وبالتغيرات الفرحة.

والليالي في فيلي لوج حارة، لكنها مع ذلك طرية. والنجوم منخفضة مضطربة يحف بها ضياء أبيض مهتز. كانت فاطمة تقف أمام النافذة، وتمضي تنظر في هذا الليل. إنها تحمل في جسمها كله قوة هادئة طافحة عذبة. إنها تحس كل جزء من أجزاء جسمها على حدة، كأنه ينبوع خاص من ينابيع القوة والفرح: ساقيها، خصريها، ذراعيها، عنقها، وصدرها خاصة. إن ثدييها السخيين الثقيلين على نهود، يلمسان برأسيهما مصراع النافذة الخشبي. وهناك كانت تحس بالرابية كلها مع كل ما عليها: البيت والمباني والحقول، تحسها تتنفس تنفساً حاراً عميقاً مطرداً وتعلو وتهبط مع السماء المتلألئة والفضاء المظلم. والمصراع الخشبي يعلو ويهبط تحت هذه الأنفاس ويلامس رأس الثديين، ويتركهما ليمضي إلى مكان ما في بعيد، ثم يعود ويلامسهما من جديد، ثم ينخفض ثم يبتعد، وهكذا دواليك.

نعم إن العالم كبير، إن العالم ضخم، وهو كذلك في النهار أيضاً، حين يشتعل وادي فيشيغراد بالحرارة، وحين يكاد يسمع المرء صوت نضج سنابل القمح التي تغطي الوادي، وحين تتراءى المدينة بيضاء ناصعة البياض منتشرة حول النهر الأخضر، مسدودة بالروابي السوداء وبذلك الخط المستقيم، الجسر. ولكن في الليل، في الليل وحده، حين تحيا السماوات مرة أخرى وتتوهج، إنما تنكشف اللانهاية والقوة الجبارة في هذا العالم الذي يضيع فيه الإنسان الحي، ولا يستطيع أن يدرك نفسه ولا المكان الذي يمضي إليه، ولا ماذا يريد، ولا ما الذي يجب عليه أن يفعله. في الليل وحده إنما يحيا المرء حقاً، حياة هادئة طويلة: في الليل، ما من كلمات تربط الإنسان ربطاً ثقيلاً مدى الحياة، ما من وعود قاتلة، ما من ظروف لا مخرج منها، ما من مهلة قصيرة تجري وتنقضي بغير رحمة، دون أن تفضي إلى غير الموت أو العار مخرجاً. أجل، ليست حياة الليل كحياة النهار، التي يصبح ما يقال فيها ذات مرة حكماً مبرماً لا راد له، ووعداً قاطعاً لا يمكن تفاديه. في الليل كل شيء حر لا نهائي غفل أخرس.

وفيما تستسلم فاطمة لخواطرها، إذا هي تسمع، من تحت، صوتاً أليماً مختلقاً كأنه آت من بعيد: آ اااا خ.. خ خ.. آاااا خ.. خ خ.

إنه عبد آغا يصارع، تحت في الطابق الأرضي، نوبات السعال التي توافيه في الليل.

إن فاطمة لا تعرف صوت أبيها فحسب، بل هي ترى أباها رؤية واضحة وقد جلس يدخن، يعذبه السعال ويمضّه الأرق، إنها ترى عينيه الواسعتين السمراوين اللتين تعرفهما كما تعرف موضعاً حبيباً إلى قلبها، عينيه اللتين تشبهان عينيها كل الشبه فلا فرق بينهما وبينهما إلا أن عيني الأب قد أظلمتا من الشيخوخة وغرقتا في بريق دامع ضاحك، عينيه اللتين قرأت فيهما لأول مرة أن قدرها محتوم يوم قال لها: إنه وعد بها رجلاً من أسرة حمزتش، وأن عليها أن تفرغ من استعداداتها ليوم الزواج في خلال شهر، كـ.. خا.. كـ.. خا.. أخ..

وزالت على حين فجأة تلك النشوة التي كانت تحسها منذ بضع دقائق أمام جمال الليل وعظمة العالم. إن تلك الأنفاس العطرة التي تخرج من الأرض قد توقفت. وتقبض ثديا الفتاة في تشنج هادئ عذب. وامّحت النجوم والفضاوات. ولم يبق ثمة إلا القدر، قدرها، محتوماً قاسياً، يوشك أن يتم، بل يتم ويتحقق كلما انقضى الزمان، في هذا الهدوء، هدوء السكون والفراغ، الهدوء الذي يبقى بعد جميع الأشياء.

إن صوت السعال الأصم يصعد من الطابق الأرضي.

نعم إنها تسمع أباها وتراه، كأنه أمامها. إنه أبوها الغالي، القوي، الوحيد، الذي تحس أنها متحدة به اتحاداً لا انفصام له، اتحاداً ناعماً عذباً، منذ وعت وجودها.

وهذا السعال الذي يهزه ويؤلمه تحسّه في صدرها هي. صحيح أن فمه هو الذي قال: «نعم» بينما كانت تقول: «لا»، لكنهما في آخر الأمر واحد، فهي هو وهو هي، حتى في هذا.. إنها تحس أن كلمة «نعم» التي قالها صادرة عنها (مثل كلمة «لا» التي قالتها هي، سواء بسواء). لذلك كان قدرها قاسياً، خارقاً، يوشك أن يتحقق، ولذلك لم تكن ترى مخرجاً، وإذا كانت لا ترى مخرجاً فلأنه ليس ثمة مخرج.. إنها تعرف شيئاً واحداً، هو أنها بسبب كلمة «نعم» التي قالها أبوها، والتي تربطها كما تربطها كلمة «لا» التي تقولها هي، ستمر أمام القاضي

مع ابن مصطفى بك، إذ ليس من المعقول إلا يفي عبد آغا بما قطع على نفسه من وعد، لكنها تعرف في الوقت نفسه وتوقن في الوقت نفسه أنها لن تضع قدمها في نيزوكه، لأنها إن فعلت كانت تتراجع عما قالت من كلام، وذلك مستحيل، لأن كلامها هو أيضاً كلام فرد من أفراد أسرة عثمان آغتش. وهنا في هذه النقطة الساكنة بين «لائها» و «نعم» أبيها، بين فيلي لوج ونيزوكه، هنا في هذه النقطة المعقدة يجب أن تبحث عن حل. وفي ذلك إنما تفكر هي الآن. إنها لا تفكر الآن في آماد العالم الكبير الغني، في الطريق بين فيلي لوج ونيزوكه، وإنما هي تفكر في ذلك الجزء القصير المحزن من الطريق، ذلك الجزء الذي يمتد بين المحكمة حيث سيزوجها القاضي من ابن مصطفى بك، وبين آخر الجسر، حيث يهبط المرتفع الحجير إلى الدرب الضيق المفضي إلى نيزوكه. . هذا الدرب الذي لن تطأه قدماها، فهي تعلم ذلك علم اليقين. إن ذلك الجزء الصغير من الطريق لم ينقطع فكرها عن اجتيازه من طرف إلى آخر كمكوك الحائك. كان يسير بها خيالها من المحكمة إلى مركز المدينة فإلى السوق فالجسر، ثم ما تلبث أن تعود القهقرى فوراً، كأنها رأت هنالك هوة، فتجتاز الجسر فالسوق فمركز المدينة حتى تصل إلى المحكمة. . وهكذا دواليك، ذهاب فإياب فذهاب. وهناك كان ينسج مصيرها.

وكان فكرها الذي لا يستطيع أن يتوقف، ولا يعرف إلى الفرج سبيلاً، كان يتلبث عند الكابيا في أكثر الأحيان، يتلبث عند تلك الصوفا الحجرية، الجميلة الوضاءة التي يتحدث الناس عليها جلوساً، التي يغني فيها الشباب، التي تجري من تحتها أمواه النهر الأخضر سريعة عميقة، حتى إذا أفزع فكرها هذا المخرج، طار من جديد كأنما فاجأه خطب، فجعل يمضي من أول الطريق إلى آخره، ثم إذا هو يتلبث مرة أخرى على الكابيا، لأنه لم يجد حلاً آخر. وأصبح خيالها يزداد تلبثاً على الكابيا ليلة بعد ليلة، وأخذ يطيل المكوث هنالك شيئاً بعد شيء. إن تصور ذلك اليوم الذي سيكون عليها فيه أن تجتاز هذا الطريق في الواقع لا بالخيال كما تفعل الآن، وأن تجد حلاً من قبل أن تصل إلى آخر الجسر، إن تصور ذلك اليوم كان يحمل في ذاته كل ما في الموت من رهبة وهول، وكل ما في الحياة التي يذويها العار من رعب وهلع فكانت تحس، وهي على ما هي عليه من عجز ووحدة، أن هول هذا التصور خليق وحده أن يبعد ذلك اليوم، أو أن يرجئه في أقل تقدير. .

فلما جاء آخر خميس من شهر آب (وهو الموعد المضروب) وصل أفراد أسرة حمزتش على صهوات خيولهم لأخذ العروس. فأركبت فاطمة على حصان. واقتيدت إلى المدينة، ملفعة بحجاب ثقيل جديد كأنه درع، وفي الوقت نفسه حُمّلت صناديق الجهاز في فناء البيت على ظهور عدد من الخيول. وتمت مراسيم الزواج في المحكمة أمام القاضي، وبذلك بر عبد آغا بوعده، فزوج ابنته لابن مصطفى بك. ويمم الركب شطر نيزوكه، حيث تُهيّأ الاحتفالات بالعرس.

اجتاز الركب مركز المدينة، ثم اجتاز السوق، أي قطع جزءاً من ذلك الدرب الذي ليس له مخرج، الذي طوفت فيه فاطمة بخيالها مرات كثيرة. إنه صلب واقعي مألوف، يكاد يكون أسهل من صورته في الخيال. لا نجوم الآن ولا فضاء ولا سعال أصم، ولا رغبة في أن يسرع الزمان أو يبطئ. فلما وصلوا إلى الجسر، أحست الفتاة مرةً أخرى. كما كانت تحس في تلك الليالي من ليالي الصيف، وهي واقفة عند نافذتها، أحست بكل جزء من أجزاء جسدها إحساساً قوياً واضحاً، وخاصةً بصدرها الذي تقبض قليلاً كأنه في درع. ووصلوا إلى الكابيا فمالت الفتاة على أخيها الأصغر كما فعلت ذلك بخيالها مرات كثيرة في الليالي الماضيات، مالت على أخيها الأصغر الذي كان على جواده إلى جانبها، وطلبت إليه هامسةً أن يرفع ركابها قليلاً، لأنهم يقتربون الآن من المنحدر الصلب الذي يهبطون عنده من الجسر إلى الدرب الحجير المفضي إلى نيزوكه. وتوقف الأخ والأخت فتوقف بعدهما سائر الركب، ولا عجب في هذا، فما هي المرة الأولى ولا الأخيرة التي يتوقف فيها ضيوف عرس من الأعراس على الكابيا. وبينما كان الأخ ينزل على الأرض، ويدور حول حصانه، ويضع لجامه على ذراعه، مضت الفتاة بحصانها سريعة إلى حافة الجسر، فوضعت قدمها اليمنى على الإفريز الحجري، ووثبت على سرجها، خفيفة كعصفور، واعتلت الجدار، وقذفت بنفسها من أعلاه إلى النهر الهادر تحت الجسر، فهرع أخوها وراءها وامتد جسمه كله على الإفريز الحجري، فاستطاع أن يلمس بيده حجابها المنشور، لكنه لم يستطع أن يمسك بها. ووثب سائر المدعوين عن خيولهم إلى الأرض، وهم يصيحون صياحاً عجيباً، ووقفوا على طول الإفريز، في أوضاع غريبة كأنهم متجمدون.

في ذلك اليوم نفسه، عند اقتراب المساء، أخذ المطر ينهمر انهماراً غزيراً،

وكان بارداً برودة لا عهد للناس بمثلها في هذا الفصل من فصول السنة. وارتفعت مياه درينا، واعتكرت: واضطربت. وفي اليوم التالي لفظت مياهه الفائضة الصفراء جثة فاطمة على مكان مرتفع من ضفته قرب كالاتيه. وهناك لمح الجثة أحد الصيادين، فمضى من فوره يخبر الملازم بما رأى. فما هي إلا لحظات حتى وصل الملازم إلى ذلك المكان يصحبه المختار[1] والصياد وسالكو الأعور. إن سالكو لا يغيب أبداً في ظرف كهذا الظرف.

الجثة راقدة على الرمل الرخو الرطب. الأمواج تأتي فتبللها وتلطخها وتغمرها بمائها المعتكر من حين إلى حين. والحجاب الجديد الأسود الذي لم يستطع الماء أن ينتزعه، قد ارتفع عن جسمها وارتمى وراء رأسها، فكان باختلاطه هذا مع شعرها الكثيف كتلة سوداء غريبة إلى جانب الجسد الأبيض الذي نضا عنه الماء ثوب العرس وانتزعه. نزل الصياد والأعور إلى ماء الضفة غير العميق وقد اكفهر وجهاهما وتقبضت فكاكهما، فأمسكا بالفتاة العارية، وحملاها إلى الشاطئ في كثير من الحذر والحرج، كأنها لا تزال حية. وهناك أسرعا فغطياها بحجابها المبتل بالماء الملطخ بالحمأ.

ودفنت الغريق، في ذلك اليوم نفسه، في أقرب مقبرة تركية على الشاطئ العالي تحت الرابية التي تقوم عليها ضيعة فيلي لوج. وفي المساء تحلق المتعطلون حول الصياد والأعور في الخانات، وقد فار في نفوسهم ذلك الفضول الخبيث الكريه، القوي خاصةً لدى من فرغت حياتهم وخلت من كل جمال وافتقرت إلى الإنفعالات والأحداث. كان هؤلاء المتعطلون يدللون الرجلين بالخمرة ويقدمون لهما التبغ، عسى أن يعرفوا منهما شيئاً عن الجثة والدفن. لكن ذلك لم يجدهم شيئاً، فالخمرة لم تستطع أن تحلّ عقدة لسانهما، وحتى الأعور لم يقل شيئاً. كان يدخن بلا انقطاع، ويتابع بعينه الوحيدة المتقدة، الدخان الذي كان ينفثه بقوة، ويقصيه عنه إلى أبعد مدى. لكن الرجلين، الصياد والأعور، كان ينظر كل منهما إلى صاحبه من حين إلى حين، ويرفعان قدحيهما صامتين، كلاهما في آن واحد، كأنهما يدقان القدح بالقدح دقاً لا يُرى، ثم يفرغان الكأسين في جوفيهما دفعة واحدة.

---

(1) بالعربية في النص الأصلين.

هكذا حدث على الكابيا ذلك الأمر الخارق الذي لم يسبق أن حدث مثله من قبل. لم تهبط فيلي لوج إلى نيزوكه، ولم تصبح فاطمة بنت عبد آغا زوجة رجل من أسرة حمزتش.

ولم ينزل عبد آغا عثمان آغتش إلى المدينة بعد ذلك. لقد لفظ روحه في شتاء تلك السنة نفسها مختنقاً بسعاله، من دون أن يقول لأي إنسان كلمة واحدة عن الكرب الذي كان يميته.

وفي الربيع التالي زوج مصطفى بك ابنه فتاة أخرى من أسرة برانكوفتش.

وظل الناس يتحدثون في الأمر بعض الوقت، ثم أخذوا ينسونه. ولم يبق ثمة إلا أغنية عن الفتاة التي يتلألأ جمالها ونهداها فوق كل شيء كأنها خالدة لا تموت.

الفصل التاسع

بعد انقضاء زهاء سبعين عاماً على ثورة قره جورج اندلعت الحرب مرةً أخرى في بلاد الصرب، ثم سرعان ما استجابت لهم مناطق الحدود بعصيان. فإذا ببيوت الترك والصرب تشتعل من جديد على الأعالي في بليب وغوسيتليا وتسرتشتشي وفيليتوفو. ولأول مرة بعد ذلك العدد الكبير من السنين، أصبحت ترى على الكابيا عند طلوع النهار رؤوس أناس من الصرب مقتولين، رؤوس فلاحين ضمر قصار الشعر، معروقي الوجه، طويلي الشارب، كأنهم أولئك الذين كانوا يرون في هذا المكان نفسه منذ سبعين عاماً. لكن ذلك كله لم يطل، فما ان انتهت الحرب بين تركيا والصرب حتى هدأ الناس. والحق أن هذا السلم لم يكن إلا مظهراً يختبئ تحته كثير من الخوف، وتختفي وراءه أصوات مهتاجة وهمسات قلقة. وأصبح الناس يتحدثون بمزيد من الوضوح والصراحة، عن دخول الجيش النمسوي إلى البوسنة. وفي بداية الصيف من عام 1878 اجتازت المدينة وحدات من الجيش التركي النظامي ذاهبة من سارابيفو في اتجاه بريبوي. ورسخ في الأذهان أن السلطان يسلم البوسنة بلا مقاومة. واستعدت الأسر للهجرة إلى السنجق، وكان بينها أسر جاءت إلى المدينة منذ ثلاثة عشر عاماً مهاجرة من أويتسه لأنها لم تشأ أن تعيش تحت حكم الصرب، فها هي ذي الآن تتهيأ للرحيل مرةً أخرى هرباً من سيطرة مسيحية جديدة. غير أن سواد الناس ظلوا في المدينة ينتظرون الأحداث، ويتظاهرون بأنهم لا يبالون للأمر، رغم أنهم نهب لاضطراب أليم.

وفي أول تموز يوليو وصل مفتي بليفيا مع فئة قليلة من الرجال، عازماً عزماً قوياً على تنظيم حركة المقاومة في البوسنة ضد النمسويين. وجلس هذا الرجل الرصين الأشقر الذي تختفي وراء مظهره الهادئ طبيعة عنيفة، جلس في ذات يوم من أيام الصيف على الكابيا، وجمع عيون أتراك المدينة، وحاول أن يثير فيهم

حمية القتال ضد النمسويين. كان يؤكد لهم أن القسم الأكبر من الجيش النظامي سيظل في البلاد ولو خالف في ذلك التعليمات الرسمية. وذلك ليقاوم الغازي الجديد مع الشعب. وأنه يهيب بهم أن يلتحق به جميع الشباب فوراً، وأن يُمَدّ بالمؤن ترسل إلى ساراييفو. كان المفتي يعلم أن أهل فيشيغراد لم يشتهروا يوماً بأنهم مقاتلون ذوو حماسة، وأنهم يؤثرون أن يعيشوا حياة مجنونة على أن يموتوا موتاً مجنوناً، ومع ذلك استغرب ما لاحظه فيهم من فتور وامتناع عن الكلام. وكان لا يستطيع أن يبقى معهم مدة أطول من ذلك، فهددهم بنقمة الشعب وعقاب الله إذا هم امتنعوا عن القتال، وعهد إلى مساعده عثمان قره مانليا أفندي بأن يستمر في إقناع أتراك فيشيغراد بضرورة اشتراكهم في المقاومة الشاملة.

حين كان الحديث لا يزال يدور مع المفتي كان علي خجا متولتش أكثر الناس إظهاراً للمقاومة. إن أسرة هذا الرجل من أعرق أسر المدينة، وأكثرها حظوة باحترام الناس. ولم يتميز أفراد هذه الأسرة يوماً بالثراء الطائل، وإنما تميزوا بالصدق والصراحة. فقد اشتهروا منذ أقدم الأزمان بأنهم أناس عنيدون، ولكن لا يمكن أن يتسرب إليهم الفساد أو الخوف أو التزلف أو التملق أو أي اعتبار من الاعتبارات الوضيعة أو أي دافع من الدوافع الخسيسة. وكان أكبر أفراد هذه الأسرة سناً هو الذي يتولى رعاية البناء الخيري الذي أقامه محمد باشا في المدينة، ويتولى حراسته وتدبير شؤونه، وذلك خلال أكثر من مائتي عام، وكان يُعنى أيضاً بالنزل الحجري الشهير القائم على مقربة من الجسر. وقد رأينا كيف أن النزل الحجري فقد موارده التي كانت تتيح صيانته، وذلك بعد ضياع المجر، وكيف أنه تداعى على أثر تعاون عدد من الظروف، وكيف أنه لم يبق من البناء الخيري الذي شاده الوزير إلا الجسر، من حيث هو منفعة عامة لا تقتضي أية صيانة ولا تعود بأي ربح. وقد بقي اسم متولتش[1] لأفراد هذه الأسرة ذكرى اعتزاز بتلك الوظيفة التي ظلوا ينهضون بأعبائها في أمانة تامة خلال ذلك العدد كله من السنين. والواقع أن هذه الوظيفة قد زالت منذ أخفق داود خجا في صراعه من أجل الحفاظ على النزل الحجري، ولكن الاعتزاز بقي، وبقيت معه

(1) من الكلمة العربية «متولي». . وكانت تطلق على من يتولى إدارة مبنى من المباني الخيرية (المترجم).

عادةً أفراد هذه الأسرة في اعتبار أنفسهم أوصياء على الجسر قبل كل إنسان آخر، وفي اعتبار أنفسهم مسؤولين عن مصير هذا الجسر بمعنى من المعاني، لأن الجسر كان، من الناحية المعمارية على الأقل، جزءاً مكملاً لذلك «الوقف» العظيم الجميل الذي أداروا شؤونه، ثم نضبت موارده وذهب على ذلك النحو المؤسف. وبقيت لهذه الأسرة عادةً أخرى ترجع إلى ماضٍ بعيد: هي أن واحداً من أفرادها على الأقل لا بد له في كل جيل أن يتلقن العلم ويصبح من رجال الدين. وعلي خجا هو الآن ذلك الواحد. ويجب أن نذكر من جهة أخرى أن ثروة أفراد هذه الأسرة كانت قد نقصت، ولم يبق لهم إلا بضعة عبيد، ودكان يملكونه منذ عهد بعيد في أحسن مكان من حي السوق، في الميدان نفسه قرب الجسر. وقد مات أخوا علي خجا الأكبران في الحرب، مات أحدهما في روسيا، ومات الآخر في الجبل الأسود.

إن علي خجا لا يزال شاباً، وهو جم النشاط، باسم الوجه، دموي المزاج، له دائماً، كفرد من أفراد أسرة متولتش حقاً، رأي خاص في كل أمر من الأمور، يدافع عنه في إصرار وعناد، ولا يحيد عنه قيد أنملة. وكان بسبب طبعه الصريح وإصراره على رأيه يختلف مع رجال الدين ومع رؤسائه في كثير من الأحيان. ولئن كان يحتل منزلة خجا ويلقب بخجا، فإنه كان لا يزاول أي عمل من أعمال هذه الرتبة، وكان لقبه لا يعود عليه بأي ربح. ومن أجل أن يكون مستقلاً إلى أبعد حدود الاستقلال كان يدير بنفسه أعمال الدكان الذي ورثه عن أبيه.

إن علي خجا يقاوم فكرة القيام بمقاومة مسلحه، كأكثر مسلمي فيشيغراد. ولا يمكن أن يكون مرد ذلك عنده إلى جبن ولا إلى فتور في عاطفته الدينية. إنه لا يقل عن المفتي ولا عن أي واحد من الثائرين كرهاً للسلطة الأجنبية المسيحية التي كانت تصل، وكرهاً لكل ما يمكن أن تأتي به هذه السلطة الأجنبية. لكنه يرى أن السلطان قد ترك البوسنة للنمسويين فعلاً، وهو يعرف مواطنيه حق المعرفة، لذلك كان يعارض فكرة القيام بمقاومة غير منظمة ستؤدي إلى الهزيمة وتزيد الشر لا محالة. فما أن رسخ هذا الرأي في رأسه حتى أعلنه صراحة ودافع عنه دفاعاً قوياً. وفي هذه المرة أيضاً طرح أسئلة ماكرة وأبدى ملاحظات مرهفة أحرجت المفتي خاصة. وهكذا كان من بين سكان فيشيغراد الذين يتحمسون للقتال ولا يميلون إلى التضحيات كثيراً، مَنْ يعارض ما انعقدت

عليه نية المفتي من خوض غمار الحرب، ويعارض ذلك صراحة.

وحين بقي عثمان قره مانليا أفندي لمواصلة الحديث مع أهل فيشيغراد، وجد علي خجا يقف له. وعلى أن البكوات والآغوات كانوا على اتفاق كامل في الرأي مع علي خجا، فإنهم كانوا يتأنون في كلامهم ويزينون عباراتهم، فتركوا الخجا الصادق الفائر يفصح بنفسه، ويخوض صراعاً مع قره مانليا.

كان وجهاء أتراك فيشيغراد جالسين على الكابيا، متربعين، مصطفّين في دائرة على حسب ترتيبهم لجهة خطورة الشأن وعلو المنزلة، وبينهم عثمان أفندي، وهو رجل طويل القامة نحيل شاحب. إن كل عضلة من عضلات وجهه متوترة توتراً غريباً، وإن عينيه محمومتان، وقد امتلأ جبينه وامتلأ خداه بالندوب شأن المصابين بالصرعة. وأمامه وقف علي خجا أحمر الوجه، أميل إلى القصر، لكنه مهيب الطلعة، حامي الرأس، وراح يلقي بصوته الصافر أسئلة جديدة بغير انقطاع: ما حجم القوى؟ إلى أين ذاهبة؟ ما وسائل النقل التي تملكها؟ كيف تذهب؟ ما هو هدفها؟ ما عسى أن يحدث في حال الإخفاق؟ إن هذا البرود المتخابث الذي يعالج به علي خجا الأمر، لم يكن يخفي وراءه إلا ما يشعر به الرجل من هَمّ ومرارة بسبب تفوق المسيحيين وبسبب ما يرى في الأتراك من ضعف ظاهر وفوضى شاملة. لكن عثمان أفندي الشديد الحماسة القاتم النفس ليس ممن يستطيعون أن يلاحظوا مثل هذه الأمور ولا أن يفهموها. إن طبيعته عنيفة متطرفة متعصبة. وإن أعصابه مريضة.. فكان يفقد صبره وهدوءه بسرعة، وينقض انقضاضاً على كل علامة من علامات الشك والتردد لدى علي خجا، حتى لكأنه أمام رجل من الأعداء. إن هذا الخجا يزعجه، فكان يحييه بغضب مكظوم، ولا يذكر إلا أموراً عامةً، ولا يقول إلا ألفاظاً ضخمة، كان يقول: نحن ماضون إلى حيث يجب أن نمضي، بالوسائل التي نستطيعها، وإنما المهم أن لا ندع العدو يدخل أرضنا من دون معركة، والذي يلقي أسئلة كثيرة يعرقل الأمر ويساعد العدو. وخرج عثمان أفندي عن طوره أخيراً، فكان يجيب عن كل سؤال من أسئلة الخجا باحتقار لا يكاد يخفيه، قائلاً: «لقد آن أن نموت»، «يجب أن نقدم أرواحنا»، «سنهلك جميعاً حتى آخر فرد منا».

فقال الخجا يقاطعه:

ـ كنت أظن أنك تريد طرد النمسويين من البوسنة، وأن هذا هو الذي من

أجله جمعتنا. أما وأن المسألة مسألة موت، فنحن، يا أفندي، نستطيع بأنفسنا أن نموت، دون أن يكون بنا حاجة إليك. فلا شيء أسهل من الموت!

فقال قره مانليا في غلظة وخشونة:

ـ لكنني لا أرى أنك تسير في طريقه.

فأجابه علي خجا بصوت قاطع:

ـ أما أنا فأرى أنك تسير حقاً في طريق الموت، لكنني لا أعرف لماذا تبحث عن رفاق لك في هذا الطريق، من أجل قضية طائشة هذا الطيش كله.

واستحال الحديث عندئذ إلى شجار حقيقي، فوصف عثمان أفندي خصمه بأنه مسيحي قذر، وأنه خائن وأنه واحد من أولئك الخونة الذين كان يجب أن تدمى رؤوسهم كرؤوس المسيحيين فوق هذه الكابيا، بينما ظل الخجا محافظاً على هدوئه، يجادل في الأمر جدالاً دقيقاً، ويصر على المطالبة بالحجج والبراهين كأنه لا يسمع ما كان يرشقه به عثمان أفندي من تهديدات وشتائم.

والحق أن من الصعب على المرء أن يجد متفاوضين أسوأ من هذين المتفاوضين وأن يجد رجلين أعند من هذين الرجلين. ولا يمكن أن ينتظر المرء منهما إلا أن يتفاقم الاضطراب الشامل، وأن يضاف إليه نزاع جديد. وذلك أمر يؤسف له، ولكن لا حيلة في دفعه، ففي اللحظات التي يتزعزع فيها مجتمع من المجتمعات، وتحدث فيه تبدلات كبرى لا مفر منها، فإن رجالاً من هذا الطراز هم الذين يبرزون عامة، فيمضون بالأمور في غير طريقها الصحيحة ويتيهون في مهمة الضلال، لما يفتقدونه من توازن وكمال.

ومع ذلك أدت هذه المشاجرة العقيمة إلى ما كان يريده البكوات والأغوات، لأن أمر اشتراكهم في العصيان ترك بذلك من غير حل، ولم يسألوا أن يدلوا برأيهم فوراً في الموضوع. وسافر عثمان أفندي في الغداة مع عدد من رجاله ليقابل المفتي، وهو يرتعش غضباً ويجأر مهدداً.

ووصلت الأنباء أثناء هذا الشهر تؤيد، يوماً بعد يوم، ما ارتآه البكوات والأغوات من رأي حسن، وهو أن من الأفضل أن يحافظوا على مدينتهم وعلى بيوتهم. وفي منتصف شهر آب (أغسطس) يدخل النمسويون سرايیفو. وبعد ذلك بقليل قامت معركة تعيسة على سفح غلاسيناتس. وكانت هذه المعركة نهاية كل مقاومة في الوقت نفسه. وأخذت فلول القطعات التركية المهزومة تصل إلى

المدينة، من الطريق المنحدر الوعر، الهابط من رابية ليسكا ماراً ببلدة أولكولشته. إنهم خليط من جنود الجيش النظامي الذين تحملوا تبعة المشاركة في المقاومة رغم أوامر السلطان، ومن ثائرين من أهل البلاد. كان الجنود لا يزيدون على أن يطلبوا خبزاً وماء، سائلين عن طريق أوفانس، أما الثائرون فكانوا رجالاً تزخر نفوسهم بالحماسة وروح القتال ولم تحطمهم الهزائم، فكانوا وقد اسودت وجوههم وغطاهم الغبار وتمزقت ثيابهم، يجيبون عن أسئلة أتراك فيشيغراد الذين لا يميلون إلى الحرب البتة بلهجة فظة لاذعة، ويستعدون لحفر الخنادق ومنع مرور العدو على نهر درينا.

وبرز علي خجا مرةً أخرى، وأعلن بلا تحرج ولا هوادة أن هذه المدينة لا تستطيع أن تدافع عن نفسها، وأن الدفاع عبث لا طائل تحته، بعد أن توغل النمسويون في البوسنة من أقصاها إلى أقصاها. وكان الثوار أنفسهم يدركون ذلك، لكنهم لا يريدون أن يعترفوا به، لأن هؤلاء الناس الذي يرتدون أنظف الثياب ويأكلون أطيب الطعام، والذين حافظوا على بيوتهم وعلى أملاكهم وظلوا بعيدين عن الثورة والكفاح في جبن وتعقل، كانوا يحنقونهم ويثيرون حفيظتهم. وفي غضون ذلك وصل عثمان أفندي كالمجنون، وقد زاد شحوبه ونحوله، واشتدت حمياه، واشتد ميله إلى الحرب والقتال. إنه لا يتحدث إلا عن المقاومة في كل مكان وبأي ثمن، وما يني يتكلم في ضرورة الموت. وكان جميع الناس يبتعدون وينسحبون أمام حماسته المستمرة، إلا علي خجا، فكان يواجه عثمان أفندي، من دون شماتة فرحة، بل بهدوء وخشونة، ويبرهن له على أن الثورة انتهت إلى ما تنبأ به لها منذ أكثر من شهر على هذه الكابيا نفسها. ونصحه بأن يرحل مع رجاله إلى بليفيا بأقصى سرعة ممكنة، حتى لا يتفاقم الموقف.

إن علي خجا هو الآن أقل عنفاً، وهو يداري قره مانليا مداراة حزينة متأثرة، كأنه يداري مريضاً من المرضى، ذلك لأنه، في قرارة نفسه، وراء هذه المظاهر الفائرة، كان متألماً أشد الألم من الشقاء الذي يقترب. كان يشعر بعذاب وسخط لا يستطيع أن يشعر به إلا مسلم مؤمن يرى اقتراب قوة أجنبية لن يستطيع النظام الإسلامي القديم أن يصمد لها مدة طويلة. وكان هذا الحزن المستتر يظهر في كلماته رغم إرادته.

كان لا يرد على جميع شتائم قره مانليا إلا بما يشبه الحزن، قائلاً:

ـ هل تظن، يا أفندي، أنه يهون في نفسي أن أنتظر هنا لأرى النمسويين يدخلون بلادي وأنا على قيد الحياة؟ أتظن أننا لا ندرك ما سيحل بنا، ولا نرى هذه الأزمنة العصيبة التي تصل؟.. نحن نعرف الضَرّ الذي سيلحق بنا، ونعرف الخسارة التي سنمنى بها.. نعرف ذلك كله حق المعرفة. فإذا كانت غايتك أن تشرحه لنا، فما كانت بك حاجة إلى أن تعود مرة أخرى، ولا ولا كان من الضرورة بمكان أن تأتي من بليفيا. ولكنني أرى أنك لم تقدِّر هذه الأمور، ولو كنت تقدرها لما فعلت ما فعلت، ولما قلت ما قلت. إنه لعذاب أعظم كثيراً مما تظن، يا أفندي. ولست أعرف له دواء لكنني أعرف أن هذا الدواء ليس ما تنصح به.

غير أن عثمان أفندي كان يصم أذنيه عن سماع كل ما لا يتفق مع تولهه الصادق العميق بالمقاومة، وكان يحتقر هذا الخجا احتقاره للنمسويين الذين ثار عليهم. هكذا كلما دنا عدو متفوق، واقتربت هزائم كبرى، ظهرت في المجتمع أحقاد بين الأخوة ووقعت انشقاقات داخلية. أصبح عثمان أفندي لا يجد كلاماً آخر يقوله، فكان ما ينفك ينعت علي خجا بالخيانة وينصحه ساخراً بأن يتنصَّر قبل أن يصل النمسويون، وكان الخجا يجيبه بهدوء:

ـ لم يتنصَّر آبائي وأجدادي، ولن أتنصَّر أنا أيضاً. أنا، يا أفندي، لا أريد أن أتنصر، لكنني لا أريد كذلك أن أحارب مع أحمق.

كان جميع وجهاء الأتراك من أهل فيشيغراد يرون ما يرى علي خجا، لكنهم كانوا يرون أيضاً أنه ليس من الخير أن يعلنوا رأيهم، أو أن يعلنوه بهذه الخشونة وهذا الوضوح على أي حال. كانوا يخشون النمسويين الذين يقتربون كتلة ضخمة، ولكنهم كانوا يخشون أيضاً قره مانليا الذي أصبح مع فرقته مسيطراً على المدينة، لذلك كانوا يحبسون أنفسهم في بيوتهم، أو يخرجون إلى أملاكهم في ظاهر المدينة، فإذا لم يستطيعوا تحاشي لقاء قره مانليا ورجاله تهرّبت نظراتهم والتبست كلماتهم، وبحثوا عن حجّة مناسبة مضمونة يتعللون بها للانصراف.

وكان قره مانليا يعقد اجتماعاً دائماً من الصباح إلى المساء على السفح الصغير أمام خرائب النزل. فكان يتوافد إلى ذلك المكان جمهور متعدد الألوان ما ينفك يجيء ويذهب: رجال قره مانليا، أشخاص مروا بالمكان عرضاً، رجال جاؤوا يسألون سيد المدينة الجديد عن أمر من الأمور وكذلك أناس يقودهم الثوار في كثير

أو قليل من القسر والإكراه ليسمعوا كلام القائد. وكان قره مانليا لا ينقطع عن الكلام. وكان حين يوجه كلامه إلى شخص واحد بعينه، يصرخ صراخ من يتوجه بالكلام إلى مئات من الأشخاص. وكان وجهه قد ازداد شحوباً على شحوب، وكانت عيناه تدوران من غير توقف وقد اصفرّ بياضهما اصفراراً واضحاً، وكان يتجمع زبد أبيض في زاويتي شفتيه. وحدثه أحد أهل المدينة عن عقيدة شعبية شائعة بين المسلمين، تتصل بالشيخ تركمانيا الذي هلك في العصور القديمة في هذا المكان حين كان يمنع جيوش الكفرة من عبور درينا، والذي يثوي الآن في قبره على الضفة الأخرى فوق النهر ويستعد من غير شك للنهوض متى وضع أول كافر من الكفرة قدمه على الجسر. فما أن سمع قره مانليا الأسطورة حتى استولى عليها في حماسة وتوتر، وأصبح يحدث بها الناس على أنها معونة واقعية لم تكن في الحسبان. كان يقول:

- أيها الأخوة، إن هذا الجسر مبنى خيري شاده وزير. وقد كتب على قوى الكفرة ألا تستطيع عبوره. ولسنا ندافع عنه وحدنا، وإنما يدافع عنه أيضاً ذلك الولي من أولياء الله الذي لا تفعل فيه بندقية ولا يفعل فيه سيف. فسينهض من قبره متى وصل عدونا، فينتصب في وسط الجسر باسطاً ذراعيه، فإذا رآه الأعداء اصطكت ركبهم، وانهارت قلوبهم فجأة، فعجزوا حتى عن الهرب من فرط الخوف. أيها الأخوة الأتراك، لا تتفرقوا، تعالوا جميعاً معي، تعالوا إلى الجسر.

هكذا كان قره مانليا يصرخ أمام الناس المحتشدين. وكان بانتصابه الصلب في سرواله الطويل الأسود البالي وبمباعدته ذراعيه تمثيلاً للوقفة التي سيقفها الولي، أشبه بصليب عالٍ أسود رقيق على رأسه طربوش.

هذا الكلام كان يعرفه أهل فيشيغراد، بل كانوا يعرفونه خيراً مما يعرفه قره مانليا، لأن كل واحد منهم قد سمع هذه الأسطورة في طفولته ثم رواها هو نفسه مرات كثيرة، ولكنهم لم يظهروا أي رغبة في أن يخلطوا بين الحياة والأسطورة، وأن يعتمدوا على معونة الأموات في أمر لا يستطيع أن يساعدهم فيه أي حي من الأحياء. وكان علي خجا الذي لا يبتعد عن دكانه، وإنما يقص عليه الناس ما يقال وما يجري أمام النزل الحجري، كان لا يزيد على أن يحرك يده مستنكراً وقد ظهر في وجهه الحزن والاشفاق، ويقول:

ـ كنت أعرف أن هذا الأحمق لن يدع راحة لأحياء ولا لأموات كان الله في عوننا . .

وها هو ذا قره مانليا، العاجز أمام العدو الحقيقي، يصبّ غضبه كله على علي خجا. إنه يهدِّد، ويصرخ، ويحلف ليسمرّن الخجا العنيد على الكابيا، قبل أن يضطر إلى ترك المدينة، حتى ينتظر على هذه الحال وصول النمسويين الذين لم يشأ أن يقاتلهم ولا سمح للناس بأن يقاتلوهم.

وظهر النمسويون على روابي ليسكا، فانقطعت هذه المناقشات كلها، ورأى الناس عندئذٍ أن المدينة لا تستطيع حقاً أن تدافع عن نفسها. وكان قره مانليا آخر من بارح المدينة تاركاً على السفح الصغير الممتد أمام النزل مدفعين من حديد جرهما إلى هناك. لكنه قبل أن ينسحب وضع وعيده موضع التنفيذ. فأمر أحد خدمه، هو حداد له جسم عملاق وعقل عصفور، أن يوثق علي خجا، حتى إذا أوثقه سمّره من أذنه اليمنى بوتد السنديان الذي كان قد بقي من المتراس القديم محصوراً بين درجتين حجريتين على الكابيا.

ولقد سمع الناس هذا الأمر يصدره قره مانليا بصوت قوي، وسط الهرج والمرج والاضطراب الشامل الذي كان يسود ميدان السوق وما حول الجسر، ولكن لم يخطر ببال أحد أن الأمر سينفذ على تلك الصورة نفسها، فما أكثر الألفاظ الكبيرة والشتائم المدوية التي يسمعها المرء في مثل هذه الظروف. وكانت الفكرة تبدو في الوهلة الأولى غير معقولة، وما ينبغي أن تفهم إلا على أنها تهديد أو إهانة أو شيء من هذا القبيل. حتى إن علي خجا نفسه لم يأخذها مأخذ الجد كثيراً. والحداد نفسه الذي أمر بأن ينفذها وكان مشغولاً بتسمير المدفعين ظهر عليه التردد والتفكير، غير أن فكرة تسمير الخجا على الكابيا قد ألقيت في الناس، فأصبح هؤلاء الناس المضطربون المغمومون يحسبون في أذهانهم احتمالات اقتراف مثل هذه الجريمة واحتمالات عدم اقترافها. . ورأى معظم الناس في البداية أن الأمر سخيف كريه ومستحيل، وأنه لكذلك حقاً. . ولكن في هذه اللحظات التي شاع فيها اضطراب عام شامل كان لا بد من فعل شيء ما، شيء ضخم خارق، وهذا الأمر هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يفعل. . يفعل؟ لا يفعل؟ وتجسد هذا الاحتمال شيئاً فشيئاً، فكلما انقضت دقيقة أو تمت حركة بدا معقولاً طبيعياً أكثر من ذي قبل. علام لا يفعل؟ وجاء رجلان

فأمسكا بالخجا، فلم يدافع الخجا عن نفسه.. وشدا ذراعيه إلى ظهره.. إن هذا كله لا يزال بعيداً عن واقع يبلغ ذلك المبلغ كله من الهول والجنون. ولكن الاقتراب من هذا الواقع يتم خطوة بعد خطوة. وكأن الحداد شعر فجأةً بالخجل والعار من ضعفه وتردده، فإذا هو يخرج مطرقة كان قد استعملها منذ قليل في تسمير المدفعين، يخرجها لا يدري أحد من أين، ذلك أنه حين تصور أن الأعداء قد وصلوا أو كادوا، فَهُم من المدينة على مسير نصف ساعة، بثّ فيه هذا التصوّر قوة العزيمة، ودفعه إلى المضي بالأمر حتى النهاية. وهذا التصور الأليم نفسه هو الذي جعل الخجا لا يبالي بأي شيء من الأشياء، حتى ولا العقاب الظالم المجنون المنحط الذي يراد إنزاله فيه.

هكذا تم في خلال لحظات ما كان يبدو في كل لحظة من هذه اللحظات على حدة مستحيلاً لا يمكن أن يقع. ولئن لم يكن بين الناس أحد يرى أن هذا الفعل حسن أو ممكن، فإن كل واحد قد أسهم من جهته بعض الأسهام في أن يُسمّر الخجا من أذنه اليمنى بوتد السنديان على الكابيا. وحين تفرق جميع الناس أمام النمسويين الذين كانوا يهبطون إلى المدينة، ظل الخجا على هذا الوضع الغريب المؤلم المضحك، مضطراً إلى الركوع والسكون، لأن أقل حركة كانت تسبب له ألماً وتهدد بانخلاع أذنه التي كان يحسها ثقيلة كبيرة كأنها جبل. وكان يصرخ، ولكن ليس ثمة من يسمع صراخه وينقذه من هذا الوضع الأليم. لأن جميع الأحياء قد اعتصموا ببيوتهم أو تفرقوا في القرى، خوفاً من النمسويين الذين سيصلون، وخوفاً من الثوار الذين يقاتلون وهم يتراجعون. كانت المدينة تبدو ميتة، وكان الجسر مقفراً كأن الموت محا فيه كل شيء. ليس هناك من يحمي الجسر، وعلي خجا يقبع وحده على الكابيا لمرة ساكنة، ملتصق الرأس بالوتد، يئن من الألم، ويتخيل حتى وهو على هذه الحال براهين جديدة يدحض بها آراء قره مانليا.

وكان النمسويون يقتربون ببطء. وقد رأت طلائعهم، من على الضفة الأخرى، المدفعين الموضوعين أمام النزل قرب الجسر، فتوقفت تنتظر وصول مدفعيتها الجبلية. حتى إذا حان الظهر قذفوا النزل المهجور ببضع قنابل من غابة صغيرة، فأحدثوا فيه أضراراً كان من قبلها مترنحاً، وحطموا تلك القضبان الرائعة الجمال التي في نوافذه والتي نحتت من كتلة واحدة من طري الصخر. ولم يتوقف

النمسويون عن إطلاق النار، إلا حين بعثروا المدفعين التركيين وقلبوهما ولاحظوا أنهما مهجوران وأن أحداً لا يرد عليهم، فعندئذٍ أخذوا يقتربون من الجسر والمدينة على حذر. ووصل عدد من جنود المجر بخطى بطيئة إلى الكابيا، وهم يمسكون ببنادقهم على أهبة إطلاق النار. فلما رأوا الخجا توقفوا أمامه مشدوهين. كان الخجا منكمشاً على نفسه خوفاً من القنابل التي كانت تمر فوق رأسه هادرةً، حتى لقد نسي ما يسببه له تسمير أذنه من ألم، نسيه إلى حين.. فلما رأى هؤلاء الجنود الذين يكرههم، ورأى بنادقهم مصوَّبة إليه، أخذ يئن أنيناً شاكياً متصلاً، قائلاً لنفسه: هذه لغة يفهمها كل إنسان. وبفضل ذلك لم يطلق الجنود النار. وبينما راح بعضهم يستمر في السير على الجسر خطوة خطوة، ظل بعضهم الآخر إلى جانبه ينظرون فيه عن كثب ولا يفهمون وضعه. حتى إذا وصل أحد الممرضين أخرج كماشة وسلّ المسمار في حذر، وهو مسمار من تلك المسامير التي تستعمل في حدو الخيل.. فتحرر علي خجا.. وكان قد بلغ من فرط الألم والأعياء أنه تدحرج على الدرجات الحجر، وهو لا يزال يئن ويتوجع. ووضع الممرض على أذنه الجريحة سائلاً كاوياً فكان الخجا ينظر، من خلال الدموع، كأنه في حلم عجيب، إلى الشريط العريض الذي يطوّق الذراع اليسرى لهذا الجندي، وعليه الصليب الكبير المقدود من قماش أحمر. إن المرء لا يمكن أن توافيه كوابيس تبلغ هذا المبلغ من الهول والشناعة إلا حين يكون مصاباً بحمى. كان هذا الصليب يسبح في دموع علي خجا ويتراءى من خلالها شبحاً ضخماً. إنه يحجب عنه الأفق. وبعد ذلك ضمد الممرض جرح علي خجا، ووضع فوق الضماد أحمديته[1]. فنهض الخجا معصوب الرأس على هذا النحو، محطَّم الظهر، وظل على هذه الحال لحظات مستنداً إلى افريز الجسر، لا يسترد هدوءه ولا يثوب إلى رشده، إلا في كثير من العناء.

وأمامه، على الجهة الأخرى من الكابيا، تحت الكتابة التركية المنقوشة في الحجر، كان أحد الجنود يلصق ورقة بيضاء كبيرة، فلم يستطع الخجا رغم أن رأسه كان لا يزال يدوّي من الألم، لم يستطع أن يكبح جماح فضوله الذي طبع عليه وأن يمتنع عن النظر في الإعلان الأبيض. إنه نداء يوجهه الجنرال فيليبوفتش، باللغتين

(1) بالعربية في النص، وهي «العمامة البيضاء».

العربية والتركية، إلى أهل البوسنة والهرسك بمناسبة دخول الجيش النمسوي إلى البوسنة. وضع علي خجا يده على عينه اليمنى وأخذ يتهجى النص التركي، فلم يستطع أن يقرأ منه إلا العبارات التي كانت مكتوبة بأحرف كبيرة:

«يا سكان البوسنة والهرسك:

إن جيش امبراطور النمسا ملك المجر، قد اجتاز حدود بلادكم. وهو لا يجيئكم عدواً يحتل البلاد بالقوة، وإنما يجيئكم صديقاً ليضع حداً لضروب الفوضى التي تعيث فساداً منذ سنين طويلة، لا في البوسنة والهرسك، وحدهما، بل كذلك في مناطق حدود النمسا ـ المجر.

. . .

«إن الإمبراطور الملك لم يعد يطيق أن يرى العنف والاضطرابات على مقربة من أراضيه، وأن يرى البؤس والشقاء يقرعان حدود بلاده. . .

«لقد لفت نظر الدول الأجنبية الكبرى إلى وضعكم، فقرر مجلس من الأمم بالإجماع أن ترد إليكم النمسا - المجر السلام والرخاء اللذين فقدتموهما منذ مدة طويلة.

«وشعر صاحب الجلالة السلطان، الذي يحرص على سعادتكم، بأن عليه أن يعهد بكم إلى حماية صديقه العظيم الإمبراطور الملك

. . . .

إن الإمبراطور الملك يأمر بأن يتمتع جميع أبناء هذه البلاد بحقوق واحدة، وفقاً لأحكام القانون، وبأن تصان حياتهم وعقاراتهم وأملاكهم جميعاً.

. . . .

يا أهل البوسنة والهرسك، ضعوا أنفسكم باطمئنان تحت حماية رايات النمسا- المجر المظفرة. استقبلوا جنودنا استقبال أصدقاء، وأخضعوا للسلطات، وعودوا إلى أعمالكم، واعلموا أن ثمرات عملكم مصونة».

كان الخجا يقرأ هذه العبارات واحدة واحدة، ولا يفهم معنى جميع كلماتها، ألا أنها جميعاً آلمته. وإنه لألم خاص يختلف كل الاختلاف عن تلك الآلام التي كان يحسها في أذنه الجريحة ورأسه وظهره. وعندئذٍ فقط، بتأثير «كلمات الإمبراطور» هذه، إنما أدرك إدراكاً واضحاً أنه قد قضي عليه، وقضي على ذويه، وقضي على كل من يمت إليهم بنسب، قضاء مبرماً لكنه عجيب: فالأعين تظل تنظر، واللسان يظل يتكلم، والمرء يظل يعيش، ولكنه لا يحيا، لا يحيا حياة حقة. إن امبراطوراً أجنبياً قد وضع يده عليهم، وأن ديناً جديداً قد غلبهم على أمرهم. ذلك واضح في هذه الكلمات الكبيرة وفي هذه الأوامر الغامضة، ويزيده وضوحاً ذلك الألم الثقيل في الصدر الذي هو أقسى وأشق من كل ما يمكن أن يتصوره الخيال من آلام يحسّها البشر. ولن تقدر بضعة ألوف من هؤلاء الحمقى أمثال عثمان قره مانليا أن تقدم أية معونة، ولا أن تبدّل في الأمر شيئاً (ذلك ما استمر الخجا يناقشه بينه وبين نفسه) «سوف نهلك جميعاً، فلنهلك»: ما قيمة هذا الصباح في عصر ينهار فيه الإنسان هذا الانهيار، فلا هو يموت ولا هو يحيا، وإنما هو يعفن كما يعفن وتد مغروس في الأرض، ثم إذا هو ينتمي إلى العالم كله إلا نفسه. إنه لشقاء حق، شقاء كبير لا يراه أمثال قره مانليا ولا يفهمونه، وإنما يجعلونه بسوء الفهم أقسى في النفس وأدعى إلى الخزي.

وخرج علي خجا من الجسر ببطء وهو غارق في هذه الأفكار. فلم يلاحظ أن ذلك الجندي من جنود الإسعاف يصاحبه. إن أذنه لا تؤلمه الآن كما تؤلمه تلك الكرة الرصاصية الثقيلة المرة التي استقرت في صدره فجأة بعد قراءة «كلمات الإمبراطور». إنه يسير على مهل، ويشعر بأنه لن ينتقل بعد اليوم إلى الضفة الأخرى أبد الدهر، وأن هذا الجسر الذي هو مفخرة المدينة، والذي ارتبط بأسرته أوثق ارتباط منذ وجد، والذي شبّ وترعرع هو فوقه، وقضى حياته قربه، قد هُدَّ فجأة في مركزه هناك قرب الكابيا، وأن هذه الورقة البيضاء العريضة التي كتب عليها النداء النمسوي، قد شقت الجسر شقاً كأنها انفجار صامت، وأن ثمة عند هذا الشق هوة هائلة، وأن أعمدة متفرقة لا تزال قائمة على شمال هذا الشق وعلى يمينه، ولكن المرور أصبح مستحيلاً، لأن الجسر أصبح لا يربط بين الضفتين، وأن على كل امرئ أن يبقى بعد الآن إلى الأبد في الجهة التي هو فيها.

إن علي خجا يسير ببطء غارقاً في هذه الرؤى المحمومة، ويترنح ترنح من أصيب بجرح خطير، وما تنفك عيناه تمتلئان بالدموع.. إنه يسير بخطى مترددة، سير متسول يجتاز الجسر مريضاً لأول مرة ويوشك أن يدخل مدينة غريبة مجهولة.

وانطلقت أصوات، فانتفض. إن عدداً من الجنود يمرون قربه. ورأى بينهم، مرةً أخرى، ذلك الوجه الضخم الهادئ الساخر، وجه الجندي الذي حلَّ المسمار عن أذنه، وقد التفت ذراعه بصليب أحمر. ونظر إليه الجندي مبتسماً تلك الابتسامة نفسها، وأشار بيده إلى الضماد يطلب منه شيئاً ما بلغة غير مفهومة.. فقدر الخجا أنه يعرض عليه خدمة أخرى من الخدمات، فتصلب فجأةً وأظلم وجهه، وقال: «أقدر على هذا بنفسي، أقدر عليه بنفسي. لست في حاجة إلى أحد».

وبخطى أسرع وأحزم، عاد إلى بيته.

الفصل العاشر

لم تدخل الجيوش النمسوية إلى المدينة دخولها الرسمي الاحتفالي إلا في اليوم التالي.

لا يذكر أحد أن المدينة عرفت صمتاً كصمت ذلك اليوم. حتى الدكاكين لم تفتح، والبيوت ظلت أبوابها ونوافذها مغلقة في ذلك النهار القائظ المشمس من أواخر شهر آب/أغسطس. الأزقة مقفرة، وأفنية البيوت والبساتين خاوية كأنها ميتة. في بيوت الأتراك يخيم اليأس والاضطراب، وفي بيوت المسيحيين يسود الحذر والشك. والخوف قد سيطر على نفوس الناس جميعاً. فالنمسويون الداخلون يخشون الكمائن، والأتراك يخشون النمسويين، والصربيون يخشون النمسويين والأتراك معاً، واليهود يرتعدون خوفاً من الجميع، لأن الجميع أقوى منهم في أيام الحرب خاصةً ولا يزال الناس يحتفظون في آذانهم بأصداء دوي مدافع الأمس. ولو أنهم لم يطيعوا إلا صوت الخوف لما أخرج أحد منهم أنفه في ذلك اليوم. ولكن للإنسان سادة أُخر. إن فرقة النمسويين التي دخلت إلى المدينة أمس أخرجت الملازم ورجال الشرطة من أوكارهم. والضابط الذي كان قائد هذه الفرقة ترك للملازم سيفه، وأمره أن يستمر على القيام بوظائفه، وعلى إقرار الأمن بالمدينة، وأبلغه أن الكولونيل سيصل غداً في الساعة الحادية عشرة، وأن على الأعيان، أي ممثلي الديانات الثلاث، أن يستقبلوه عند دخوله إلى المدينة، فأذعن الملازم للأمر ثملاً، وما لبث أن استدعى من فوره ملا إبراهيم، وحسين آغا المدرس[1]، والقسّ نيقولا، والحاخام داود ليفي، وأبلغهم أن عليهم أن يستقبلوا القائد النمسوي في ظهر غدٍ على الكابيا، وأن يحيوه باسم السكان، وأن يرافقوه إلى مركز المدينة.

---

(1) بالعربية في النص.

وقبل الموعد المضروب بمدة طويلة اجتمع «رجال الدين الأربعة»، واتجهوا نحو الكابيا بخطى بطيئة. وكان سالكو هيدو، مساعد الملازم، قد تعاون مع رجل من رجال الشرطة، ففرش سجادة تركية طويلة غطى بها الدرجات ووسط المقعد الحجر الذي كان يجب أن يجلس عليه القائد النمسوي. وظل الرجال واقفين في ذلك المكان فترة طويلة في مهابة ووقار وصمت، فلما لم يروا أثراً للقائد على الطريق الأبيض الهابط من أوكولشته، نظر بعضهم إلى بعض في آن واحد، ثم جلسوا، بعد هذا الاتفاق الصامت، على الجزء العاري من المقعد الحجر، وأخرج القس نيقولا كيسه الجلدي الكبير الذي يضع فيه التبغ، وقدمه لأصحابه.

إنهم جالسون على الصوفا جلستهم عليها حين كانوا شباباً بلا هموم يزجون الوقت فوق الكابيا على غرار سائر الشباب. لقد تقدموا في السن جميعاً، فالقس نيقولا والملا إبراهيم قد بلغا الشيخوخة، والمدرس والحاخام في سن الكهولة. إن كلا منهم قد ارتدى اليوم أحسن ما عنده من ثياب، وهو الآن لا يفكر إلا في نفسه وفي ذويه. وتحت أشعة شمس الصيف القاسية أنعم كل منهم النظر في وجوه أصحابه، فرأى أنهم يظهرون طاعنين في السن أكثر من أعمارهم، وأنهم فقدوا ما كان لهم من نضارة. وتذكر كل منهم أصحابه كم كان يعرفهم أيام الشباب وأيام الطفولة، يترعرع كل منهم مع جيله قرب هذا الجسر شجرة خضراء لا يعرف أحد ما الذي سيحلّ بها الآن.

وكانوا يدخنون، ويتحدثون عن شيء من الأشياء وهم يديرون في أذهانهم أفكاراً أخرى، ويلقون في كل لحظة نظرة إلى جهة أوكولشته التي سيظهر منها القائد. . إن كل شيء مرهون الآن بهذا القائد الذي يستطيع أن يحمل إليهم، إلى عالمهم، إلى مدينتهم كلها، الخير أو الشر، والهدوء أو أخطاراً جديدة.

لا شك أن القس نيقولا كان أكثر هؤلاء الرجال الأربعة هدوءاً، وأكثرهم سيطرة على نفسه، أو هذا ما يحسه المرء إزاءه. لقد تجاوز السبعين من عمره، لكنه لا يزال قوياً. إنه ابن القس الشهير ميخائيلو الذي قطع الأتراك رأسه على هذا الجسر نفسه. وقد عاش في شبابه حياة مضطربة. وهرب إلى الصرب عدة مرات يعتصم بها من كره بعض الأتراك ومن انتقامهم. فقد كان هدفاً للكره والانتقام بسبب طبعه الجامح وسلوكه العنيف، غير أنه استقر أخيراً في أبرشية

أبيه، حين هدّأت السنون العواصف، وتزوج وسكنت نفسه. لقد ابتعدت تلك الأزمنة ونسيها الناس (كان يقول هذا القس مازحاً: تغيّر طبعي من زمان بعيد، ولان الأتراك). إن القس نيقولا يدير شؤون أبرشيته المتعبة، الواسعة، المبعثرة على الحدود، منذ خمسين عاماً، يديرها في هدوء، وحكمة، فلم تعرف من الاضطرابات والخطوب غير ما تحمله الحياة نفسها، وإنه ليحكمها بإخلاص الخادم ووقار الأمير، في عدل وإنصاف تجاه الأتراك والشعب ورؤسائه.

ما عرف الناس قبله، ولا بعده، في أي بيئة ولا في أي ديانة، رجلاً حظي باحترام أجمع عليه الناس هذا الإجماع كله، وتقدير بلغ من العلو هذا المبلغ كله، لدى المواطنين كافة، دون تفريق في الدين أو الجنس أو السن.. كهذا القس الذي لم ينقطع أحد عن تسميته باسم «الجد». كان في نظر المدينة كلها، وفي نظر المنطقة كلها، يجسد الكنيسة الصربية ويجسِّد كل ما يطلق عليه الشعب اسم المسيحية، وكل ما يرى الشعب أنه هو المسيحية. وفوق ذلك كله، كان الشعب يرى فيه مثال الكاهن والرئيس كما يتخيّله الناس في هذه المدينة وفي هذه الظروف.

إن القس نيقولا فارع القامة، على جانب نادر من القوة، ولئن لم يكن واسع الثقافة إنه لذو قلب كبير وعقل راجح ونفس هادئة شجاعة، وله ابتسامة تأسر اللب، وتهدي النفس، وتذكي العزيمة. إنها تلك الابتسامة التي لا توصف ولا تقدّر، ابتسامة الرجل القوي الكريم الذي يعيش في سلام مع نفسه ومع كل من يحيطون به. إن عينيه الخضراوين لتضيقان في بعض الأحيان حتى تصبحا أشبه بخيطين دقيقين أسمرين تنبع منهما شرارات من ذهب. هكذا ظل حتى أيام شيخوخته. وكان حين يجتاز السوق، ملفّعاً بمعطفه المصنوع من جلد الثعلب، محاط الوجه بلحية حمراء لم يكن يخطها الشيب مع تقدم السن، لحية تغطي صدره كله، وعلى رأسه قلنسوته الضخمة التي تتدلى من ورائها غديرة كبيرة مضفورة من شعره الغزير، كان حين يجتاز السوق على هذه الحال، لا يبدو أنه كاهن هذه المدينة المتكئة على الجسر وكاهن هذه المنطقة الجبلية منذ خمسين سنة فحسب، للكنيسة الأرثوذكسية وحدها، بل يبدو أنه كاهن هذه المنطقة كلها منذ أقدم العصور، منذ العصر السابق على طوفان نوح، أيام كانت الديانات المختلفة والكنائس المختلفة التي نراها الآن، لا تقسم العالم شِيَعاً. البائعون

يحيونه من دكاكينهم على جانبي الشارع مهما تكن دياناتهم، والنساء تبتعد محنية رؤوسها في انتظار أن يمر «الجد»، والأطفال (حتى اليهود منهم) يقطعون لعبهم ويكفون عن الصراخ، ويتقدم كبارهم في خشية ووقار يقبلون يد «الجد» الضخمة الخشنة، ليحسوا خلال لحظة من اللحظات على رؤوسهم المحلوقة ووجوههم المحمرة من اللعب، ندى صوته القوي البش المنعش يقول:

ـ أمد الله في عمرك يا بني، أمد الله في عمرك.

وغدا هذا الاحترام للجد عادةً يتوارثها الناس جيلاً بعد جيل، حتى لكأنها غريزة من الغرائز، فأجيال المواطنين تخرج إلى الحياة مزوّدة بهذه العادة.

غير أن ظلاً من الظلال قد أكبى حياة القس نيقولا: إنه لم ينجب من زواجه أطفالاً. وذلك أمر رهيب من غير شك، ولكن لا يتذكر أحد أنه سمع منه أو من زوجه أي شكوى، بل لا يتذكر أحد أنه رأى في أعينهما نظرة مصطبغة بشيء من المرارة. وكان بيتهما يأوي دائماً اثنين على الأقل من أولاد أقاربهما الريفيين، يتبنيانهما ويعولانهما إلى أن يتزوجا، فيعمد القس وزوجته عندئذٍ إلى تبني غيرهما.

وإلى جانب القس نيقولا جلس ملا إبراهيم. إنه رجل طويل نحيل معروق، له لحية قليلة وشاربان متدليان. إنه ليس أصغر سناً من القس بكثير. وله عائلة كبيرة وثروة طيبة ورثها عن أبيه، لكنه قد بلغ من إهمال نفسه ومن نحوله ومن خجله، مع عينيه الزرقاوين الصافيتين اللتين تشبهان عيني طفل، إنه كان أشبه بناسك من النساك أو بفقير من فقراء الحجاج منه برجل هو سليل أسرة عريقة وهو خجا مدينة فيشيغراد. وكان ملا إبراهيم مصاباً بتأتأة قوية (حتى لقد كان الناس يقولون مازحين: إذا أراد المرء أن يتحدث مع ملا إبراهيم، فيجب أن يكون خالياً من العمل). غير أن ملا إبراهيم قد اشتهر في المدينة وما حولها بسماحة نفسه وكرمه، وكانت رقة الحاشية ودماثة الخلق ورباطة الجأش تتجلى في شخصه كله، وحسب المرء أن يلتقي به مرة أولى، حتى ينسى مظهره وآفته في النطق فوراً. كان يجذب إليه جذباً قوياً جميع أولئك الذين أرهقهم المرض أو العوز أو ألم بهم أي خطب آخر من الخطوب.

كان الناس يأتون إليه من أبعد القرى يسألونه النصح، فأمام بيته دائماً أناس ينتظرونه. وكثيراً ما كان الرجال والنساء الذي يلتمسون عنده الرأي أو المعونة

يستوقفونه في الشارع. وكان لا يدفع منهم أحداً، ولا يعطي أحجبة غالية الثمن ولا تعاويذ ولا تمائم كغيره من رجال الدين. كان إذا اعترضه في الشارع معترض، لم يلبث أن يتفيأ أول ظل يصادفه، أو يجلس على أول حجر يلقاه بعيداً عن الناس: فيشرح له الشخص همومه في دمدمة خافتة، ويصغي إليه ملا إبراهيم بانتباه وعطف، ثم يقول له في آخر الأمر بضع كلمات طيبة تشتمل دائماً على خير حل للمشكلة، أو يدسَّ يده النحيلة في جيب معطفه العميق، حتى إذا تأكد من أن أحداً لا يراه، أخرج بعض الدراهم ووضعها في يد الرجل. لا شيء يبدو له صعباً أو كريهاً أو مستحيلاً، حين يكون الأمر أمر مساعدة رجل من رجال المسلمين. كان يتسع وقته دائماً لمثل هذه المساعدة، وكان يجد دائماً ما يقدمه من مال على سبيل المعونة. وكانت تأتأته تزول عنه في مثل هذه المناسبات. كان في تهامسه مع الرجل المعوز ينسى أن يتأتىء. وإذا لم يخرج الناس من بيته وقد سرى عنهم جميعاً، فإن كل واحد منهم كان يحس بشيء من الراحة، موقتاً على الأقل، لشعوره بأن أحداً قد شاركه آلامه كأنها آلامه.

وكان وهو يعنى بهموم الناس وحاجاتهم بغير انقطاع ولا يفكر في نفسه أبداً، قد قضى حياته كلها صحيح الجسم، سعيداً، غنياً، أو هذا ما كان يظهر عليه.

أما حسين أفندي، مدرّس فيشيغراد، فهو رجل أقرب إلى القصر، بدين رغم أنه لا يزال شاباً، أنيق الملبس حسن الهندام، له عينان سوداوان مدورتان، ولحية قصيرة سوداء مقصوصة على شكل بيضوي منتظم تحيط بوجه أبيض وردي. إنه رجل متعلم، يعرف أموراً كثيرة، ويُعَدُّ مثقفاً من المثقفين، ولكنه يقدّر ثقافته فوق قدرها. إنه يحب أن يتحدث في الناس، وأن يصغي إليه الناس. كان يعتقد بأنه يجيد الكلام. فكان لذلك يحب أن يتكلم كثيراً. وفي حديثه تصنّع وتكلّف، ويستعين فيه بإشارات مدروسة: يرفع ذراعيه قليلاً، ويجعل يديه في مستوى الذراعين (وهما يدان بيضاوان طريتان، لهما أظافر وردية، وتظللهما غابات كثيفة قصيرة سوداء). كان وهو يتكلم، يتصرف تصرف من ينظر إلى نفسه في مرآة. وهو يملك أكبر مكتبة في المدينة، خزانة محاطة بحديد، مقفلة في عناية، مملوءة بكتب أورثه إياها أستاذه (عرب خجا الشهير) قبل أن يموت، فهو لا يصون هذه الكتب من الغبار والعث فحسب بل يصونها أيضاً من القراءة، لا يقلب بعض صفحاتها إلا في مناسبات نادرة، وبروح اقتصادية. غير أن مجرد امتلاكه لهذا

العدد الكبير من الكتب كان يضفي عليه مهابةً في نظر أولئك الناس الذين لا يعرفون ما الكتب، ويرفع من شأنه في نظر نفسه. وكان الناس يعرفون أنه يؤرخ أبرز الأحداث التي تقع في المدينة. لذلك اشتهر بين الناس بأنه عالم فذ، وكانوا يرون أنه يهيمن بذلك على سمعة المدينة كلها وعلى سمعة كل فرد من أهلها. والواقع أن ذلك التاريخ الذي يكتبه لم يكن مفصّلاً ولا كان على جانب عظيم من الضخامة. لقد بدأ المدرس كتابة تاريخه هذا منذ خمس سنوات أو ست، ولما يزل في الصفحة الرابعة من دفتر صغير. ذلك أن المدرس كان يرى أن أكثر أحداث المدينة ليست جديرة بأن تحتل مكاناً في تاريخه، لأنها ليست بذات شأن أو قيمة. لذلك ظل تاريخه عاقراً، يابساً، خالياً، كعانس مزهوة.

والرجل الرابع من الرجال الذين يمثلون الأديان المختلفة كان هو داود ليفي، حاخام فيشيغراد، حفيد الحاخام الشهير، حاجي لياتشي القديم الذي أورثه اسمه، وكهنوته، وثروته، ولكنه لم يورثه ذكاءه ولا رباطة جأشه.

إنه رجل قميء شاحب، ذو عينين سمراوين تفيضان حزناً. إنه خجول صامت فوق ما يتصور الخيال من خجل وصمت. وما كاد يرتقي إلى مرتبة حاخام حتى تزوج. وكان يرتدي رداء واسعاً ثرياً من سميك الجوخ حتى يبدو للناس أعظم شأناً وأقوى جسماً، وكانت له لحية وشاربان. إلا أن المرء يدرك أن وراء اللباس الفضفاض المضحك جسماً ضعيفاً هزيلاً، ويرى من خلال اللحية السوداء القليلة، الشكل البيضوي من وجه صبياني ممراض. وكان يتألم أشد الألم حين يكون عليه أن يمضي إلى الناس وأن يشارك في المناقشات والقرارات، لأنه يظل يحس أنه قصير مسرف في القصر ضعيف متخلف عن غيره.

إن هؤلاء الرجال الأربعة جالسون الآن جميعاً في الشمس، تنضح جسومهم عرقاً من ثقل ملابس الاحتفال التي يرتدونها، ويعانون من الانفعال والهَمّ فوق ما يريدون أن يظهر عليهم من كل ذلك.

ـ هيا نشعل سيجاراً آخر، أحلف بروح جدتي أن في الوقت متسعاً، فليس هذا الرجل طائراً حتى يهبط على الجسر فجأة.

هكذا قال القس نيقولا الذي تعلّم منذ زمان طويل أن يخفي تحت المزاح ما في نفسه ونفس غيره من أفكار وهموم.

والتفتت أنظارهم إلى جهة أوكولشته ثم عادوا يدخّنون.

كان الحديث يجري بطيئاً، مليئاً بالحيطة والحذر، وكان ما ينفكّ يدور حول مسألة استقبال القائد. وانعقد إجماعهم على أن القس هو الذي سيتولى تحية القائد والترحيب به. نظر القس إلى الثلاثة صامتاً، وأنعم النظر فيهم مدة طويلة، وقد أغمض جفنيه نصف إغماض، فأصبحت عيناه أشبه بخيطين دقيقين تنبع منهما شرارات من ذهب، شأنه حين يبتسم.

كان الحاخام الشاب خائفاً أشد الخوف، حتى إنه لا يقوى على نفث الدخان بعيداً عنه، فكان الدخان يدخل في لحيته وشاربه مكوّناً سحائب حلزونية ضخمة. ولم يكن المدرس أقرب منه إلى الطمأنينة كثيراً. إن كل ما يمتاز به من فصاحة وكل ما يتصف به من وقار المثقفين قد بارحه في هذا الصباح على حين فجأة، ولكنه كان لا يدرك، ولو على وجه التقريب، مدى ما أَلَمَّ به من خوف ومدى ما استبدّ به من ذعر، لأن الرأي العظيم الذي يراه في نفسه كان يحول بينه وبين ذلك. كان يحاول أن يحدّث أحاديثه الأدبية مع إشاراته الموزونة التي تشرح كل شيء، ولكن يديه الجميلتين كانتا تهبطان على حضنه، وكان كلامه يتعثر ويتقطع. وأدهشه أن يفر منه وقاره المعهود، فكان يحاول أن يسترده بغير انقطاع، ولكن ذلك لم يُجْدِهِ شيئاً، شأن امرئٍ أَلِفَ أمراً من الأمور منذ مدة طويلة فإذا بهذا الأمر يختفي حين تَمُسُّ الحاجة إليه.

وكان ملا إبراهيم قد ازداد شحوبه قليلاً، رغم أنه ساكن هادئ النفس. وكانت نظراته تلتقي بنظرات القس نيقولا من حين إلى حين، فتلك كانت وسيلتهما إلى التفاهم. إنهما صاحبان قديمان، صديقان من أصدقاء الطفولة، إذا صح أن يتحدث المرء عن صداقة تقوم في ذلك الزمان بين ترك وصرب. وحين لحقت بالقس نيقولا بعض المتاعب من أتراك فيشيغراد في شبابه، فإن ملا إبراهيم الذي كان أبوه من ذوي القوة والسلطان في المدينة، قد قدم له خدمة ما. وبعد ذلك، حين قَلَّت الاضطرابات في المدينة، وأصبحت العلاقات بين الفريقين محتملة أكثر من ذي قبل، كان الرجلان قد بلغا سن الكهولة فانعقدت بينهما الصداقة. كان كل منهما ينادي صاحبه باسم «الجار» على سبيل المزاح، لأن بيتيهما يقعان في الطرفين الأقصيين المتقابلين من المدينة، وفي أيام القحط أو الطوفان أو الوباء، أو حين تنزل كارثة أخرى من الكوارث، كانت تجمع بينهما مهمة واحدة يقوم بها كل منهما بين جماعته. فإذا التقيا في ظروف أخرى في

الميدان أو في أوكولشته حيا كل منهما الآخر تحية لا يتبادلها في غير هذا المكان قسٌّ وخجا، وتحدث كل منهما إلى الآخر حديثاً لا يتبادله في غير هذا المكان قس وخجا وكان القس نيقولا ينتهز هذه الفرصة في كثير من الأحيان ليسدد جذع غليونه إلى المدينة المنبسطة على طول النهر تحت الجسر ويقول نصف جاد ونصف ضاحك:

ـ كل من يتنفس ها هنا أو يدب على الأرض أو يتكلم بصوت إنساني، نحن المسؤولان عنه، أنا وأنت.

فيجيبه ملا إبراهيم متأنياً:

ـ كلامك صحيح يا جار، نحن حقاً مسؤولان عنهم جميعاً.

وكان أهل المدينة الذي يجدون سبيلاً إلى السخرية من كل شيء، كانوا يقولون عن الأشخاص الذين يعيشون متفاهمين كل التفاهم: إن بينهم من الحب ما بين القس والخجا.

وقد أصبحت هذه العبارة من الكلمات المأثورة.

الآن، كان كل منهما يفهم الآخر، رغم أنهما لم ينطقا بكلمة كان القس نيقولا يدرك مدى ما يشعر به ملا إبراهيم من ألم، وكان ملا إبراهيم يدرك أن الأمر ليس هيّناً على القس. وكان ينظر أحدهما إلى الآخر، كما حدث ذلك مرات كثيرة، خلال حياتهما، في مناسبات شتى، من حيث إنهما مسؤولان عن جميع من يسيرون على قدمين في هذه المدينة، فأحدهما مسؤول عن الذين يرسمون إشارة الصليب، والثاني مسؤول عن الذين يسجدون.

في تلك اللحظة سُمِعَ وقع حوافر حصان يعدو، وظهر رجل من رجال الحرس مسرعاً على فرس هزيلة. كان يلهث مذعوراً، فصاح من بعيد صياح رسول قائلاً:

ـ هذا هو القائد، هذا هو على حصان أبيض.

وبرز الملازم محتفظاً بهدوئه ووداعته وصمته.

هذه سحابة من عجاج تهبط من أوكولشته.

إن هؤلاء الرجال الذين ولدوا وترعرعوا في عصر الانحطاط التركي في القرن التاسع عشر. لم يتح لهم طبعاً أن يعرفوا قبل الآن جيشاً حقيقياً قوياً منظماً من جيوش الدول العظمى، وكل ما سبق أن أتيحت لهم رؤيته إنما هو وحدات ناقصة

من جيش السلطان، سيئة التموين، محزنة الملبس، تتقاضى مرتباتها على غير انتظام، أو رجال ممن يطلق عليهم اسم باش بُزُق، وهم أناس من أهل البوسنة جندوا قسراً، فلا يخضعون لنظام وليست في قلوبهم حماسة.

هذه إذاً أول مرة يرى فيها هؤلاء الرجال الواقفون على الجسر القوة الواقعية المظفرة المتلألئة الواثقة بنفسها التي تملكها امبراطورية ما. وكان لا بد أن تبهر هذه القوة أعينهم، وأن تقطع أصواتهم. فما أن ألقوا نظرة على عدد الخيل وعلى أزرار قمصان الجنود، حتى تصوروا، وراء هؤلاء الفرسان والمشاة المرتدين ملابس الاستعراض، بلاداً عميقة قوية، وعالماً آخر ينعم بالقوة والنظام والرخاء. كبيرة كانت دهشتهم وعميقاً كان تأثرهم.

في الطليعة كان يتقدم بوقان على حصانين أرقطين شبعين، ووراءهما فصيل من الفرسان على خيول سوداء. والخيول ممسوحة منظفة، تختال اختيال العذارى بخطى صغيرة مدلّلة. والفرسان يضعون على رؤوسهم قلانس حمراء بلا حواف، وصدورهم مزدانة بأشرطة صفراء. إنهم جميعاً شباب في ميعة العمر، لهم بشرة وردية ملوحة، وشوارب مجعدة، وتبدو عليهم النضارة والراحة، كأنهم خارجون من الثكنة رأساً. ووراءهم تتطاول كوكبة من ستة ضباط يتقدمهم الكولونيل، فالأبصار كلها مشرئبة نحوه. إن حصانه أكبر من سائر الأحصنة، وهو حصان أرقط ذو عنق طويلة منحنية إلى حد يبعث على الدهشة. وعلى مسافة من الضباط كانت تقبل فرقة من المشاة والمدرعات يلبس رجالها أردية خضراء وعلى خوذهم الجلدية باقات من ريش وفوق صدورهم سيور بيضاء متصالبة. إنهم يحجبون الأفق، كأنهم غابة تتحرك.

مر البوقان والفرسان أمام رجال الدين والملازم، ثم توقفوا عند ميدان السوق واصطفوا على الجانبين.

كان الرجال الأربعة واقفين على الكابيا في وسط الجسر وقد اصفرّت وجوههم واضطّربت نفوسهم والتفتت أعينهم نحو الضباط المقبلين. وتقدم أحد الضباط الشباب من الكولونيل، وخاطبه ببعض الكلام، وأبطأ الضباط سيرهم، حتى إذا سار الكولونيل على مسافة بضع خطوات من «ممثلي الأديان» توقف فجأة، ونزل عن حصانه، فإذا بسائر الضباط يفعلون مثلما فعل، كأنما بإيعاز. وهرع بعض الجنود فأمسكوا بأزِمّة الخيل، وارتدّوا بها بضع خطوات إلى وراء.

منذ وطأت قدما الكولونيل الأرض، بدا كأنه استحال شخصاً آخر. إنه رجل قصير القامة، مظهره لا يُرضي، مهدود القوى، بشع المنظر، متوحش، حتى لكأنه بين هؤلاء الضباط والجنود هو الوحيد الذي قاتل عنهم جميعاً. إنه يظهر الآن على حقيقته، بسيط اللباس، قليل الأناقة، بل مُهْمَلُ المظهر، على خلاف ضباطه ذوي الوجه الأبيض والهندام المحكم. إن صورة الرجل الذي ينفق من جسمه بلا حساب، ويهدم نفسه تهديماً، وقد تلوَّح وجهه وطالت لحيته وبان في عينيه الاضطراب والقلق، ومالت خوذته العالية قليلاً إلى جانب، ورَثَّ رداؤه الذي يتموج فيه بدنه النحيل، واندسّ قدماه في حذاءين قصيرين من أحذية الفرسان ليس لجذعيهما صلابة ولا بريق. اقترب الكولونيل وهو يباعد ساقيه ويهز سوطه. وأشار أحد الضباط إلى الرجال المصطفّين أمامه معرّفاً بهم؛ فتفرس الكولونيل وجوههم بنظرة خاطفة مظلمة حانقة، نظرة نافذة من نظرات إنسان تقع عليه تبعات كبيرة وتتربص به أخطار ضخمة. وسرعان ما اتضح بعد ذلك أنه لا يعرف أن ينظر غير هذه النظرة.

في تلك اللحظة بدأ القس نيقولا يتكلم بصوت هادئ عميق. فرفع الكولونيل رأسه، وأوقف نظرته على وجه هذا الرجل المهيب ذي الجبة السوداء. لقد لفتت هذه الطلعة الهادئة العريضة انتباهه لحظة. ربما لم يفهم ما كان يقوله العجوز، أو ربما تظاهر بأنه لا يفهم، لكن وجه القس لا يمكن إلا أن يلفت نظر من يراه.

وتحدث القس نيقولا بسهولة وطلاقة لا تكلّف فيها، متجهاً إلى الضابط الشاب الذي كان عليه أن يترجم، أكثر من اتجاهه إلى الكولونيل نفسه، فقال: إنه باسم جميع رجال الدين الحاضرين هنا، يؤكد للكولونيل أنهم وسائر الشعب يرغبون في الخضوع لإرادة الوافدين، وأنهم لن يدخروا وسعاً لتحقيق ما تريده السلطة الجديدة من إقرار الأمن والنظام، وأنهم يطلبون أن يحميهم الجيش، هم وأسرهم، وأن يسمح لهم بأن يعيشوا في سلام وأن ينصرفوا إلى أعمالهم صادقين شرفاء.

تكلم القس نيقولا بإيجاز، وتوقف عن الكلام فجأة، فلم يتح للكولونيل العصبي أن ينفد صبره وأن يضيق ذرعاً بالكلام. ومع ذلك لم ينتظر الكولونيل أن يتم الضابط الشاب ترجمة ما قاله القس نيقولا، بل قاطعه بصوت حازم متقطع:

ـ طيب.. طيب.. سنحمي جميع أولئك الذين يسلكون سلوكاً حسناً، ولكن

يجب أن يسود النظام والأمن كل مكان. ولن يكون الأمر على غير ذلك ولو شاءوا.

قال الكولونيل ذلك وهو يهز رأسه، ثم استأنف سيره إلى أمام، من دون تحية ومن دون نظرة. وابتعد رجال الدين الأربعة. ومرّ الكولونيل أمامهم يتبعه الضباط والسُّواس، ولم يَحْفَل أحد «بمّمثلي الأديان» الذين ظلوا وحدهم على الكابيا. لقد خاب ظنهم جميعاً، إذ إنهم في ذلك الصباح وطوال الليلة البارحة التي لم يستطع أحد منهم خلالها أن ينال حظه من النوم، ظلوا يتساءلون مائة مرة كيف ستنقضي تلك اللحظة التي سيستقبلون فيها قائد الجيش الأمبراطوري على الكابيا. لقد تخيلوا هذه اللحظة في ألف صورة وصورة، على حسب طبيعتهم وعلى حسب ذكائهم، وأعدوا أنفسهم لأسوأ الاحتمالات. بعضهم تخيل نفسه مسوقاً أو منفياً إلى تلك البلاد الألمانية البعيدة التي لن يعود منها ليرى بيته ومدينته. وبعضهم تذكر ما كان يقصه الناس عن خير الدين الذي قطع الرؤوس في الماضي على هذه الكابيا نفسها. لقد تخيّلوا الأمر على جميع الصور، إلا على هذه الصورة التي هم عليها في الواقع مع هذا الضابط الذي كان ضعيف الجسم لكنه قاطع الرأي حاد الطبع، والذي كانت الحرب أهمّ ما في حياته، فهو لا يفكر في نفسه ولا يفكر في غيره ولا يرى الناس والبلاد من حوله إلا موضوع حرب وقتال أو أداة حرب وقتال، ويتصرف تصرف من يقاتل لنفسه وباسمه.

ظلوا هناك ينظر بعضهم إلى بعض حائراً قلقاً. كانت كل نظرة من نظراتهم أشبه بتساؤلات خرساء. أما نزال أحياء؟ هل انقضى الاحتمال السيئ حقاً؟ ما الذي ينتظرنا بعد؟ ماذا نعمل؟..

كان رئيس الشرطة أول من عاد إلى رشده هو والقس فخلصا إلى أن مهمتهم «كممثلين للأديان» قد انتهت، وإنه لم يبق عليهم إلا أن يعودوا إلى منازلهم، وأن يقنعوا الناس بألا يخافوا وألا يفروا وإنما عليهم أن يراقبوا أعمالهم. وقَبِلَ الثلاثة الآخرون هذه النتيجة، وقد هرب الدم من وجوههم وخلت رؤوسهم من التفكير، فقبلوا هذه النتيجة كما كان يمكن أن يقبلوا أي نتيجة أخرى، لأنهم كانوا عاجزين عن أي مبادرة كائنة ما كانت.

ومضى رئيس الشرطة، وهو رجل لا يمكن أن يخرجه عن هدوئه أي أمر من الأمور، مضى إلى أعماله. وطوى الحارس السجادة الطويلة المتعددة الألوان

التي لم يقدَّر لها أن تستقبل قائداً، وكان يقف إلى جانبه سالكو هيدو بارداً لا يحس. وتفرق «ممثلو الأديان» كل على طريقته، وكل في سبيله. أما الحاخام فكان يهرول هرولة، ويريد أن يصل إلى بيته بأقصى سرعة ممكنة ليتأسّى بدفء البيئة العائلية قرب أمه وزوجته. وأما المدرِّس فكان يتمهل في سيره غارقاً في أفكاره: كان يرى، بعد أن انتهى كل شيء بسهولة لم تكن في الحسبان، أنه لم يكن ثمة داع إلى الخوف، وتراءى له أنه لم يخش في حياته إلى ذلك اليوم أحداً من الناس، وكان يتساءل عن خطورة هذا الحادث وعن المنزلة التي يجب أن يحتلها في تاريخه الذي يكتبه، فقال في نفسه: يكفيه عشرين سطراً، وربما يكفيه خمسة عشر، أو أقل من ذلك أيضاً، وكان كلما اقترب من مسكنه ينقص عدد الأسطر فكلما انقص سطراً أحس بكل شيء من حوله تقل قيمته بينما يزداد هو شأناً ويعلو في نظر نفسه مقاماً.

وأما ملا إبراهيم والقس نيقولا فقد سارا معاً حتى وصلا إلى أول الميدان. كانا صامتين دهشين، لقد صعقهما مظهر قائد الجيش الأمبراطوري وسلوكه. كانا حريصين على أن يصلا إلى بيتيهما وأن يدركا ذويهما بأقصى سرعة. فلما وصلا إلى حيث يفترق طريقهما وقفا لحظة ينظر كل منهما إلى الآخر صامتاً. كان ملا إبراهيم يحملق ويحرك شفتيه كأنه يجتر كلمات معينة لا يتوصل إلى النطق بها. واسترد القس نيقولا ابتسامته المرصعة بشرارات الذهب، فكان من شأن ذلك أن تشجع الرجلان كلاهما، فأفصح القس عندئذٍ عن رأيه الشخصي الذي هو رأي الخجا أيضاً. قال:

ـ إنها لمهمة دامية، مهمة هذا الجيش، يا ملا إبراهيم.

ـ صـ.. صـ.. صـ.. صحيح.. د.. د.. دامية.

هكذا تأتأ ملا إبراهيم وهو يرفع ذراعيه. ثم استأذن صديقه بالانصراف بتحية من رأسه وتعبير في وجهه.

وعاد القس نيقولا بخطى ثقيلة إلى بيته أمام الكنيسة، واستقبلته امرأته من دون أن تسأله عن شيء. أسرع يخلع حذاءيه، وينضو جبته، وينزع قلنسوته عن الغديرة الكثيفة من شعره الأشهب الأحمر الناضح عرقاً. وجلس على الأريكة الصغيرة الواطئة.

كانت امرأته قد أعدّت على إطار الأريكة الخشبي قدحاً من الماء وقطعةً من

السكر، فلما شرب وارتوى، أشعل سيجارةً، ثم أغمض عينيه تعباً. غير أن طيف الكولونيل العصبي كان ينبجس أمام عينيه المغمضتين بغير انقطاع، ينبجس ساطعاً كالبرق الذي يبهر أعيننا ويملأ ساحة بصرها كلها، بحيث لا يرى غيره ولا يستطيع مع ذلك أن يميز صورته. ونفث القس الدخان متنهداً وهو يقول لنفسه في هدوء:

ـ يا له من بندوق..

ومن المدينة كانت تصل إليه، على لحن جديد لا عهد له به من قبل، دمدمة الطبول وأصوات الأبواق من فصيل الجنود المشاة.

الفصل الحادي عشر

هكذا، فإن هذا الانقلاب الكبير الذي أصاب حياة المدينة قرب الجسر قد تم من دون أن يُمَسَّ أحداً بسوء، إلا علي خجا. وبعد بضعة أيام عادت الحياة إلى مجراها المألوف وبدا أنها لم يطرأ عليها في جوهر الأمر أي تبدل وحتى علي خجا نفسه استرد رباطة جأشه، وفتح دكانه القريب من الجسر كسائر البائعين، وكل ما في الأمر أنه أصبح منذ ذلك الحين يضع الضماد المائل قليلاً إلى اليمين، إخفاء للندبة التي بقيت في أذنه الجريحة. والحق أن تلك «الكتلة الرصاصية» التي أثقلت صدره حين رأى الصليب الأحمر على كم الجندي النمسوي وحين قرأ «نداء الأمبراطور» من خلال دموعه، لم تختف تماماً، لكنها صغرت حتى أصبحت بحجم حبة السبحة، بحيث يستطيع أن يعيش مع بقائها في صدره، ولم يكن علي خجا الشخص الوحيد الذي يحمل في قلبه «رصاصة» كهذه الرصاصة.

وفي ظل الاحتلال بدأت فترة جديدة كان الناس لعجزهم عن منعها يقدرون في قرارة نفوسهم أنها موقتة. ما أكثر الأحداث التي وقعت على هذا الجسر خلال السنين الأولى من الاحتلال! كانت المركبات العسكرية الصفراء تجتاز الجسر قوافل طويلة هادرة، تحمل مؤناً وملابس وأثاثاً وأدوات وتجهيزات لم تكن معروفة إلى ذلك الحين.

ولم ير الناس في أول الأمر إلا الجيش. كان الجنود ينبعون من كل ركن ومن كل دغل كما ينبع الماء من الأرض. إن ميدان السوق يعج بهم، والمرء يلتقي بهم في كل مكان من المدينة. وفي كل لحظة كانت تدوي صرخات امرأة مذعورة وقعت فجأة على جندي في فناء المنزل أو في بستان الخوخ وراء البيت. كان يسعد هؤلاء الجنود الذين أضناهم السير والقتال خلال شهرين أنهم لا يزالون على قيد الحياة. كانوا يرغبون في الراحة والمتعة إلى حد الشراهة، وما ينفكون

يتجولون في المدينة وما حولها بملابسهم العسكرية الزرقاء الداكنة. إن المرء يجد على الجسر عدداً منهم في كل ساعة من ساعات النهار. وأصبح لا يؤم الكابيا من المواطنين إلا قليل، لأنها ملأى بالجنود دائماً. كان هؤلاء الجنود يجلسون على الكابيا، ويروحون يغنون بلغات شتى، ويمزحون، ويشترون فاكهة يضعونها في قبعاتهم الزرقاء ذات الحافة الجلدية التي تعلوها شارة من حرير أصفر نسجت فيها الأحرف الأولى من الاسم الأمبراطوري فرانسوا جوزيف الأمبراطور.

لكن الجنود أخذوا يذهبون منذ مطلع الخريف. وأصبح عددهم يقل شيئاً بعد شيء. ثم لم تبق إلا فصائل الدرك. وبحث هؤلاء عن مساكن لهم، واستقروا فيها من أجل إقامة دائمة. وفي الوقت نفسه أخذ يصل إلى المدينة موظفون، وأناس من كبار المستخدمين وصغارهم مع أسرهم وخدمهم، وبعدهم وصل رجال من أهل الحرف والصناعات في أعمال ومهن كانت مجهولة في بلادنا إلى ذلك الحين. وكان بين هؤلاء تشيكيون وبولنديون وأوكرانيون ومجريّون وألمان.

بدا في أول الأمر أنهم جاؤوا إلى المدينة عرضاً، كأن ريحاً قذفت بهم إليها، كأنهم وفدوا موقتاً ليعيشوا معنا الحياة التي عاشها الناس دائماً في هذا المكان، كأن هذه السلطات المدنية عليها أن تطيل الاحتلال الذي بدأه الجيش مدة أخرى من الزمن. ومع ذلك كان عدد الأجانب يزداد شهراً بعد شهر. غير أن الأمر الذي يفاجئ الناس ويملأ قلوبهم دهشة وريبة أكثر من غيره لم يكن تزايد عدد هؤلاء الأجانب، بل هذه المشاريع الضخمة التي لا تفهم، وهذا النشاط الذي لا يكل، وهذه المثابرة التي يظهرونها في متابعة تنفيذ خططهم. كان هؤلاء الأجانب لا يهدأون لحظة، ولا يدعون لغيرهم أن يهدأ. وكأنهم بهذه الشبكة الخفية التي تظهر شيئاً بعد شيء، هذه الشبكة من القوانين والأنظمة والأوامر، قد قرروا أن يحيطوا بالحياة كلها، بالناس والبهائم والأشياء، وأن يبدلوا كل شيء، وأن يبلبلوا كل شيء: مظهر المدنية وعادات الناس وأخلاقهم من المهد إلى اللحد.

كانوا يفعلون ذلك كله في هدوء، من دون كلام كثير، وبدون عنف، ومن دون تحدٍّ أو إثارة، بحيث لا يشعر أحد بما يدعو إلى مقاومتهم. فإذا اتفق أن اصطدموا بسوء الفهم، أو لاحظوا شيئاً من المقاومة، توقفوا فوراً، وناقشوا الأمر خفية في مكان ما، ثم لم يزيدوا على أن يغيّروا اتجاه عملهم أو طريقته، فيحققون ما عقدوا النية على تحقيقه رغم كل شيء. وكل ما كانوا يشرعون به

كان يبدو للناس غريباً، بل سخيفاً. كانوا يقيسون الحقول البور، ويضعون إشارات على بعض الأشجار في الغابة، ويفتشون المراحيض والبلاليع، ويفحصون أسنان الخيول والأبقار، ويتحققون من صحة الأوزان والمكاييل، ويسألون عن الأمراض التي يصاب بها الأهالي، وعن عدد الأشجار المثمرة وأسمائها، وعن أجناس الماعز والطيور (لكأنهم يلهون ويعبثون. . لقد كانت هذه الأعمال كلها سخيفة تافهة لا تفهم في نظر الشعب). وفجأةً، تتلاشى هذه الأعمال التي قاموا بها في كثير من العناية والحماسة، وتختفي من دون أن تخلف أي أثر، كأنها ماتت إلى الأبد. ولكن ما هي إلا بضعة أشهر أو سنة كاملة في كثير من الأحيان، إذا بالشعب الذي يكون قد نسي الأمر نسياناً تاماً، يلاحظ فجأةً معنى تلك الإجراءات التي بدت له في أول الأمر سخيفة ونسيها منذ زمان طويل. فها هم شيوخ الأحياء يُسْتَدعون إلى دار الحكومة ذات يوم ليبلِّغوا أوامر جديدة تتصل بقطع الأشجار في الغابات، أو بمكافحة مرض التيفوس، أو بطريقة بيع الثمار والحلوى، أو بتراخيص مرور البهائم. وهكذا كان كل يوم جديد يشهد صدور قرار جديد. وبصدور كل قرار جديد كان يحسُّ كل إنسان أن حريته الفردية تضيق بعض الضيق، أو أن التزاماته تزداد، ولكن حياة المدينة والقرى وجميع سكان المدينة والقرى كانت تتسّع.

أما في البيوت، لا بيوت الأتراك فحسب بل بيوت الصرب أيضاً، فلا شيء تبدل. الناس في البيوت يعيشون ويعملون ويلهون كما كانوا يعيشون ويعملون ويلهون. الخبز يُصْنَعُ في المعجن، والقهوة تُحَمَّصُ في الموقد، والغسيل يُغْلى في قواديس ويُغْسَلُ بمحلول الصودا الذي يأكل أصابع النساء، والأقمشة تُنْسَجُ بأنوال وتطرَّز على طارات، والعادات القديمة في الأعياد والأعراس على حالها لم تتغير. أما العادات الجديدة التي جاء بها الأجانب، فالناس يكتفون بالتهامس عنها كأمور غريبة لا يصدقها العقل. وخلاصة القول: إن الناس في أكثر البيوت ظلوا يعيشون ويعملون كما كانوا يعيشون ويعملون في الماضي، وكما سيظلون يعيشون ويعملون خلال خمسة عشر عاماً أو عشرين عاماً بعد وصول المحتلين.

ولكن مظهر المدينة كان يتبدل تبدلاً واضحاً سريعاً. وكان هؤلاء الناس الذين حافظوا في بيوتهم على تقاليدهم القديمة ولم يفكروا في تبديلها، كانوا يتلاءمون بسهولة مع هذه التغيّرات التي تطرأ في المدينة، ويقبلونها بعد دمدمة كثيرة أو

قليلة وبعد دهشة تطول أو تقصر. وطبيعي أن طراز الحياة الجديد يعني في واقع الأمر مزيجاً من قديم ومن جديد، كما يحدث هذا في كل مكان في ظروف كهذه الظروف، فالنظرات القديمة والقيم القديمة تصطدم بالجديدة وتعارضها، ثم تمتزج بها، أو تعيش معها جنباً إلى جنب كأنهما تنتظران أيهما تَغْلِبُ الأخرى وتعيش بعدها. أصبح الناس يحسبون المال بالعملة المحلية وبالعملة الأجنبية على السواء، وأصبحوا يقيسون الأطوال بالمقاييس المحلية وبالمقاييس الأجنبية في وقت واحد، ويعيّنون آجال الدفع والتسليم على التواريخ الجديدة وعلى الطريقة القديمة (عيد القديس جورج، أو عيد القديس ديمتري) سواء بسواء. وإذا كان القانون الطبيعي هو أن يعارض الناس كل تجديد، فإن هذه المعارضة لم تكن تبلغ أقصى حدودها، لأن أكثر الناس يرون الحياة أخطر شأناً وأقوى إلزاماً من الصورة التي تكتسبها. وليس هناك إلا فئة قليلة من الأفراد تحس حقاً من الصراع بين القديم والحديث، بمأساة عميقة، وهؤلاء ترتبط صورة الحياة عندهم بالحياة نفسها ارتباطاً عميقاً غير مشروطٍ بشرط.

وإلى هذه الفئة كان ينتمي شمسي بك برانكوفتش من تسرنتشا، وهو واحد من أغنى بكوات المدينة وأبرز وجوهها. له ستة أبناء تزوج أربعة منهم، وكانت بيوتهم تشكل قرية بأسرها تحيط بها الحقول وبساتين الخوخ والحدائق. وكان شمسي بك رئيساً غير منازع لهذه العشيرة كلها، وكان رجلاً قاسياً صامتاً. طويل القامة، قد أحنت ظهره السنون، وكان لا ينزل إلى المدينة بعمامته البيضاء المطرزة بالذهب إلا يوم الجمعة للصلاة في المسجد. ومنذ أول يوم من أيام الاحتلال أصبح لا يتوقف في أي مكان بالمدينة، ولا يكلّم أحداً، ولا يلقي نظرة حوله. وفي بيوت أسرة برانكوفتش كان لا يجرؤ أحد على أن يدخل أي ملبس من الملابس الجديدة، ولا أي حذاء جديد، ولا أية أداة جديدة، ولا أي كلمة جديدة. وما من أحد من أبنائه يقوم بأي عمل ذي صلة بالحكم الجديد، وما من أحد من أحفاده يرتاد المدرسة. وكانت العشيرة كلها تتألم من هذا الوضع. إن الاستياء من عناد الشيخ العجوز يظهر بين الأبناء، ولكن لا يجرؤ أحد ولا يستطيع أحد أن يعبر عن استيائه بكلمة ولا بنظرة. وكان أتراك الحي التجاري الذين يتفاعلون مع الوافدين الجدد ويختلطون بهم، كانوا إذا مر شمسي بك بالسوق يحيونه باحترام صامت، فيه خوف وفيه إعجاب وفيه قلق ضمير.

وكان الشيوخ من فضلاء أتراك المدينة يذهبون في كثير من الأحيان إلى تسرنتشا، كأنهم يحجون إلى مكان مقدس، ليجلسوا إلى شمسي بك وليتحدثوا معه. ففي بيته كان يلتقي أولئك الذين يصرون على الاستمرار في المقاومة حتى النهاية، ويرفضون أن يذعنوا للواقع مهما كلف الأمر، والحق أن الاجتماعات كانت جلسات طويلة لا يتبادل فيها المجتمعون إلا كلاماً قليلاً، ولا يخرجون منها بنتائج ملموسة.

كان شمسي بك يجلس على سجادته الصغيرة الحمراء متدثراً بفرائه عاقداً أزرار معطفه في الصيف والشتاء جميعاً، يدخن ومن حوله ضيوفه. وكان الحديث يجري في العادة رصيناً وقوراً حول إجراء جديد من تلك الإجراءات الكريهة غير المفهومة التي تتخذها السلطات. أو يدور أيضاً على أولئك الأتراك الذين يتلاءمون مع الأوضاع الجديدة تلاؤماً ما ينفك يزداد يوماً بعد يوم. وكان جميع الحضور يشعرون إزاء هذا الرجل العنيف الوقور بالحاجة إلى إظهار ما يحسونه من مرارة وقلق وحيرة. وكان كل حديث ينتهي إلى مثل هذا:

«إلى أين يؤدي هذا كله؟ أين يقف هذا كله؟ من هم وماذا يريدون، هؤلاء الأجانب الذين لا يبدو أنهم يعرفون راحة ولا هدنة ولا اعتدالاً ولا حدوداً؟ ما هي الأهداف التي ابتغوها من مجيئهم؟ من أين تأتيهم هذه الأشياء التي تتدفق ولا ينقطع سيلها، وما عساهم صانعين بهذا كله؟ ما هذا القلق الذي يلاحقهم كاللعنة ويدفعهم إلى كل هذه الأعمال الجديدة وهذه المشاريع الجديدة التي لا يرى المرء لها نهاية؟».

وكان شمسي بك لا يزيد على أن ينظر إلى ضيوفه، ويظل صامتاً أكثر الوقت. إن وجهه مظلم معتم، لا لأن الشمس لوحته، بل لأنه يعكس ما في قرارة نفسه. ونظرته قاسية، لكنها غائبة تائهة، وعيناه مضطربتان، لهما حدقتان سوداوان تحف بهما دوائر بيضاء وشهباء كحدقتي نسر عجوز هرم، وله فم طويل كأنه يزن كلمة من الكلمات، ولكنه لا يتوصل إلى النطق بها. ومع ذلك كان الناس يخرجون من عنده بشيء من الارتياح، فلئن لم يجدوا الدواء أو الهدوء، قد تأثروا وانتعشوا تأسّياً بما يرونه من صمود قاس يائس لا هوادة فيه.

وحين كان شمسي بك ينزل إلى الحي التجاري في يوم الجمعة التالي، كان ينتظره هناك تبدّل جديد في الناس والمباني لم يكن له وجود في يوم الجمعة

الماضي. فكان ينظر إلى الأرض حتى لا يرى ذلك التبدل، ولكنه كان عندئذٍ يرى في الوحل الجاف الذي يغشى الشارع آثار حوافر الخيل، فيلاحظ إلى جانب آثار النعال المدورة المليئة من حوافر الخيول التركية، يلاحظ آثار النعال المنحنية المؤسلة في أطرافها من حوافر الخيول النمسوية، ويلاحظ أن آثار هذه النعال الأخيرة يزداد عددها يوماً بعد يوم، وهكذا كانت عيناه تقرآن، حتى في الوحل، ما كانتا تقرآنه في الوجوه والأشياء حوله، وهو أن قضاء هذا الزمان قد حلَّ بغير رحمة، ولا راد له.

ولما أدرك شمسي بك أنه أصبح لا يستطيع أن ينقل بصره إلى أي مكان، انقطع عن النزول إلى المدينة انقطاعاً تاماً، وحبس نفسه في تسرنشتا التي يتربع على عرشها رئيساً صامتاً لكنه صلب لا يشفي غليله، قاسياً على ذويه لكنه على نفسه أقسى. وظل شيوخ المدينة ووجهاؤها من الأتراك يزورونه كما يُزار وليٌّ حيٌّ من أولياء الله (ومن بين هؤلاء علي خجا متولتش خاصة). ومات شمسي بك في السنة الثالثة من الاحتلال من دون أن يصاب بمرض، مات قبل أن يستطيع النطق بتلك الكلمة المُرّة التي كان لا ينفك يلوكها بأطراف شفتيه، شفتي الشيخ الهرم، مات من دون أن تطأ قدماه مرة أخرى الحي التجاري الذي كان يتجه كل شيء فيه اتجاهاً جديداً.

والحق أن المدينة كانت تتبدل تبدّلاً مفاجئاً، لقد أخذ الأجانب يقطعون الأشجار، ويغرسون أشجاراً جديدة في أماكن أخرى، ويُصْلحون الطرق، ويَشُقّون طرقاً أخرى، ويحفرون الأقنية، ويشيدون مباني عامة. ومنذ السنين الأولى، أزالوا من دكاكين السوق تلك التي لا تصطف على خط مستقيم (رغم أنها لم تزعج أحداً في يوم من الأيام إلى ذلك الحين)، وأقاموا في مكان الدكاكين القديمة ذات الأبواب الخشب دكاكين جديدة قوية الأسس، ذات أسقف من قرميد أو صفيح، وذات أبواب مغلقة بمعدن (وكان ينبغي أن تكون دكان علي خجا ضحية من ضحايا هذه الإجراءات، وأن يُهْدَمَ كما هُدِمَ غيره، لولا أن علي خجا قاوم ذلك في إصرار وعناد، ورفع الأمر إلى القضاء، ولجأ إلى ألف وسيلة ووسيلة حتى ظفر بأن يُتْرَكَ دكانه كما هو حيث هو). ووسّع ميدان السوق ومُهّد. وبني «قناق» كبير جديد، اتُخِذَ مقراً للمحكمة وجهاز الإدارة في المنطقة. أما الجيش فكان يمضي في الأعمال المتصلة به أيضاً، وكان في ذلك أسرع من

السلطات المدنية، وأقل منها مراعاة ومداراة للناس. كان يبني البيوت الخشب، ويعزق الأرض، ويزرع، ويبدِّل وجه رواب برمَّتها.

كان الشيوخ من أهل المدينة لا يستطيعون أن يتلاءموا مع هذه الأحوال الجديدة، ولا ينفكّون يعبرّون عن دهشتهم. وما أن يُخَيَّل إليهم أن هذه الحماسة العجيبة شارفت على نهايتها، حتى يشرع هؤلاء الأجانب بعمل أعجب مما سبق. وكان السكان يقفون أمام هذه الأعمال لينظروا فيها، لا وقفة الأطفال الذين يحبون أن يتأملوا أعمالاً يقوم بها الكبار، بل وقفة الكبار يلقون نظرة على عبث الصغار. غير أن هذه الحاجة المستمرة التي تتأجج في نفوس هؤلاء الأجانب فتدفعهم إلى البناء والهدم، والحفر والتعمير، والتشييد والتغيير، هذه الرغبة الدائمة في التنبؤ بتأثير القوى الطبيعية، وفي محاولة تفادي هذا التأثير والحيلولة دونه. كل ذلك لم يكن أحد هنا ليفهمه أو يقدره، وأكثر من ذلك إن جميع أهل المدينة، وبخاصةً الشيوخ، كانوا يرون أن هذا كله وبال وإنه ينذر بِشَرّ مستطير. فالمدينة يجب أن تحافظ في رأيهم على طابع سائر المدن الشرقية: فإذا بليَ شيء أصلح، وإذا تداعى شيء دُعِّم، أما أن يقوم أحد قبل ذلك وفي ما عدا ذلك بأعمال لا داعي إليها، على أساس خطط وتنبؤات، وأن يمس أسس المباني وأن يغير المظهر الذي أراده الله لهذه المدينة، فذلك ما لا يجوز بحال من الأحوال.

غير أن الأجانب كانوا يسيرون بأعمالهم إلى نهايتها بعضاً وراء بعض، على نحو سريع متكامل، وفقاً لخطط مجهولة أُحْكِمَت دراستها، فكان ذلك يدهش سكان المدينة ادهاشاً ما ينفك يتعاظم.

وهكذا، على نحو لم يكن في حسبان أهل مدينتنا أبداً، جاء دور ذلك النزل الحجري المهمل الهرم الذي كان يكمل الجسر قبل ثلاثة قرون. والحق أن هذا الذي كان يطلق عليه اسم النزل الحجري قد أصبح أنقاضاً منذ مدة طويلة، فأبوابه تفسَّخت وتكسَّرت، والقضبان المقدودة من لين الحجر في نوافذه تحطمت، وسقفه تداعى إلى الداخل. وأفرعت في فنائه شجرة كبيرة من أشجار الأكاسيا، وقامت كتلة من أدغال العوسج، ونبتت أعشاب كثيرة لا اسم لها. غير أن جدرانه الخارجية ما زالت على حالها كاملة، وما زالت حجارتها البيضاء المستطيلة منتصبة على اتساق وانسجام. وكان سكان المدينة، منذ يولدون إلى أن يموتوا، لا يرون في هذا المبنى أنقاضاً كسائر الأنقاض، بل يرون فيه تتمة

للجسر، بل جزءاً من المدينة متمماً لها كبيوتهم سواء بسواء، وما كان يخطر ببالهم، ولو في المنام، أن تمتد يد أحد إلى هذا النزل القديم فتغير أي شيئ فيه مما لم يغيره الزمان ولم تغيره الطبيعة. ولكن ها هو ذا دوره يجيء في ذات يوم من الأيام. ففي أول الأمر أخذ المهندسون يقيسون المسافات حوله، ثم جاء العمال والفعلة فأخذوا يرفعون الحجارة بعضها وراء بعض، فيخيفون ويطردون أنواع الطيور وصغار الحيوان التي عشّشت فيه. وما هي إلا فترة وجيزة إذا بالمكان الواقع فوق ميدان السوق قرب الجسر يخلو من التراب المتراكم فيه. ولم يبق من النزل إلا كتلة من جيد الحجر أُحْكِمَ تنفيذها.

وبعد سنة أو تزيد قليلاً، قامت في مكان النزل الحجري الأبيض القديم، ثكنة ذات طابق واحد، عالية ضخمة، مدهونة بلون أزرق شاحب، مغطاة بصفائح من حديد، وعلى جنباتها كوى للرمي. فكان الجنود يقومون بتمارينهم طوال النهار على الفسحة الترابية الموسعة أمام الثكنة، يصدر إليهم العرفاء أوامرهم الراعدة فينبطحون على الأرض كالقتلى، أو يهوون برؤوسهم على التراب كالأشقياء. وفي المساء، يخرج من النوافذ الكثيرة من البناء القديم دوي أناشيد حربية غير مفهومة تصاحبها أنغام الهارمونيكا.. إلى أن يصدح البوق بأصواته الحادة التي تجعل جميع كلاب المدينة تستجيب لها بنباح، فتصمت عندئذٍ تلك الضجات كلها، وتنطفئ الأنوار في النوافذ. هكذا زال البناء الخيري الجميل الذي شاده الوزير، وهكذا بدأت الثكنة التي ظل الناس يطلقون عليها اسم النزل الحجري على عادتهم، بدأت حياتها على الأرض الممهدة قرب الجسر، متنافرة كل التنافر مع كل ما يحيط بها.

لقد أصبح الجسر الآن معزولاً تماماً.

وعلى الجسر إنما تمت الأمور التي جعلت عادات أهل هذه المنطقة تصطدم بالتجديدات التي جاء بها الأجانب وجاء بها حكمهم. ونشأ عن ذلك أن كل ما هو قديم، وكل ما هو من عادات البلاد قد اضطر إلى التراجع وإلى التلاؤم.

لقد استمرت الحياة على الجسر تجري من دون تبدّل، في حدود توقفها على أهل المدينة أنفسهم. كل ما هنالك أن الصربيين واليهود أصبحوا الآن أكثر حرية في الاختلاف إلى الكابيا، فأصبح عدد من يرتادها منهم في كل ساعة من ساعات النهار يزداد يوماً بعد يوم، من دون أن يحفلوا بالأتراك وعاداتهم

وامتيازاتهم كالماضي. إن الجسر يعجّ من أول النهار إلى آخره برجال نشطين من رجال الأعمال، يجلسون هنالك للقاء الفلاحات، يشترون منهن الصوف والطيور والبيض، إلى جانبهم متنزهون عاطلون ممن ينتقلون تحت أشعة الشمس من أحد أطراف المدينة إلى طرفها الآخر. وفي المساء يجيء أناس آخرون من أهل المدينة، ويجيء رجال الأعمال أنفسهم ليتحدثوا قليلاً أو ليتأملوا، صامتين، النهر الكبير الذي تحف به أشجار الصفصاف القصيرة والمقاعد الرملية. أما الليل، فللشباب الذين يزجون الوقت.

لقد تبدلت حياة الليل تبدلات أثارت الخلاف، في أول الأمر على الأقل. ذلك أن السلطات الجديدة أدخلت على المدينة إضاءة دائمة، فعلقت على أعمدة خضراء في الشوارع الرئيسية ومفارق الطرق، مصابيح تشتعل بالزيت. كان فرحات هو الذي ينظف هذه المصابيح، ويملؤها، ويشعلها، وهو رجل طويل فقير كان بيته مليئاً بالأطفال الصغار، وكان يعمل قبل ذلك خادماً في الإدارة، يطلق مدافع رمضان ويقوم بأعمال من هذا القبيل من دون أجر محدد مضمون. وأضيء الجسر في عدة مواضع على هذا النحو وأضيئت كذلك الكابيا. وسُمِّرت العارضة التي عُلِّق بها المصباح هناك على عمود من السنديان في جدار المتراس القديم. وخاض هذا الصباح الذي أضاء الكابيا صراعاً طويلاً مع عادات «المستهترين» الذي يحبون أن يغنوا وأن يدخنوا وأن يتناقشوا في الظلام، ومع غرائز التخريب لدى الشباب الذين يختلط في نفوسهم أسى الغرام وحب الوحدة والميل إلى الخمر. فكان هذا النور المهتز يثير حنقهم، فما أكثر ما حطموا المصباح مرةً بعد مرة.. كان تحطيم المصباح سبباً لفرض غرامات كثيرة، وإصدار أحكام مختلفة، حتى لقد عُيِّن لحراسة هذا المصباح في وقت من الأوقات خفير خاص، فكان وجود هذا الخفير أكثر إزعاجاً لرواد الكابيا في الليل من المصباح غير أن الزمن فعل فعله، فاعتادت الأجيال الجديدة على المصباح شيئاً بعد شيء، وبلغت من تلاؤمها مع الوضع الجديد، إنها أصبحت تستطيع إطلاق العنان لمشاعرها الليلية تحت الضوء الضعيف الهابط من مصباح البلدية، وأصبحت لا ترميه كل مرة بالحجارة أو العصي أو أي شيء يقع بين أيديها. ومما سهل هذا التلاؤم أن المصابيح كانت لا تشعل في الليالي المقمرة، وهي الليالي التي يكثر فيها رواد الكابيا كثرة خاصة.

وكان الجسر يضاء إضاءة كبيرة مرة واحدة في السنة، وذلك في ليلة الثامن عشر من شهر آب (أغسطس)، وهو يوم عيد ميلاد الأمبراطور. ففي ذلك اليوم كانت السلطات تزيّن الجسر بأكاليل الأزهار وأغصان الصنوبر، حتى إذا هبط الليل أشعلت سلاسل من المصابيح والشموع: مئات من علب الصفيح (فوارغ الطعام العسكري المحفوظ) تُملأ شحماً ودهناً، وتصف صفوفاً طويلة، وتوقد، فتتصاعد ألسنة اللهب على الجانبين. وكانت هذه المصابيح تضيء مركز الجسر، بينما يغيب طرفاه وتغيب أعمدته في الظلام، فيبدو الجزء المضاء كأنه محلِّق في الفضاء.

ولكن ما من مصباح إلا وينطفئ بسرعة، وما من احتفال إلا وينقضي.. فما كان يأتي الغد حتى يعود الجسر إلى سابق عهده. ولا يبقى لأبناء الجيل إلا هذه الصورة المستحدثة الجديدة للجسر وقد غرق في الأضواء والظلال، وهو منظر رائع مؤثر، لكنه قصير خاطف كأنه حلم.

وقد فرضت السلطات الجديدة على الجسر أشياء أخرى غير الإضاءة الدائمة، فمن ذلك النظافة، أو نوع من النظافة يتفق مع نظرتها إلى الأمور. فأصبحت قشور الفاكهة وبذور البطيخ وقشور البندق والجوز لا تنتثر على بلاط الجسر عدة أيام إلى أن تذروها الرياح والأمطار، وإنما يكنسها في كل صباح كنّاس عيّنته البلدية خصيصاً للقيام بهذا العمل. ولم ينزعج أحد من هذا آخر الأمر، لأن الناس يعتادون النظافة ولو لم تكن من حاجاتهم وعاداتهم، شريطة أن لا يتولوا القيام بها بأنفسهم.

وهناك شيء جديد آخر جاء به الاحتلال، وهو أن النساء أصبحن يرتدن الكابيا، لأول مرة منذ وجدت الكابيا. أصبحت نساء الموظفين وبناتهن وخادماتهن ومربيات أولادهن تتوقفن على الكابيا لتتحدثن قليلاً، أو تجلسن عليها في أيام الأعياد مع الرجال من المدنيين أو العسكريين.

صحيح أن بين الكابيا وجنس النساء في المدينة علاقة وجدت دائماً، لكن هذه العلاقة لا تعدو أن الشباب الذين يجيئون إلى الكابيا كانوا يوجهون بعض الكلمات إلى الفتيات اللاتي يجتزن الجسر، أو يُفضي بعضهم إلى بعض بعواطفه ولواعج قلبه. أو يسوّي بعضهم مع بعض ما قام بينهم من خصومات سببها النساء، أو يتحدثون فيما أصابهم منهن من أذى متأسين. وما أكثر المتوحدين

الذين كانوا يجلسون هنالك ساعات وأياماً يغنون غناء حنوناً «لأنفسهم وحدها»، ويدخنون، ويتأملون الأمواه المصطخبة السريعة صامتين. تلك زكاة عن العواطف لا بد لكل منا أن يدفعها ولا يمكن لأحد أن يفلت منها. ما أكثر ما سويت هناك من منازعات بين الشباب وما أكثر ما تخيلت مغامرات غرام! ما أكثر ما جرت الأحاديث هناك عن النساء، وعن الحب!.. وما أكثر ما طافت بالرؤوس هناك أحلام!. ما أكثر ما التهبت هناك أهواء!.. وما أكثر ما انطفأت هناك أهواء.. كل هذا صحيح.. ولكن النساء أنفسهن لم يجلسن يوماً على الكابيا، ولا توقفن عندها، لا المسيحيات منهن ولا المسلمات. أما الآن فذلك كله قد تغير.

ففي أيام الآحاد والأعياد، أصبح الناس يرون على الكابيا طباخات قرمزيات الوجوه، مشدودات الأجسام، طافحات الأرداف فوق المشدات وتحت المشدات التي تقطع أنفاسهن. وإلى جانبهن يجلس عساكرهن، بملابسهم الرسمية النظيفة، ذات الأزرار المعدنية اللامعة، مع النياشين الحمراء، والبنود التي يزين بها الجنود الرماة صدورهم. وفي غير أيام الآحاد والأعياد يخرج الموظفون والضباط عند المساء للنزهة بصحبة نسائهم، فيتوقفون على الكابيا، ويتحدثون بلغتهم غير المفهومة، ويضحكون ضحكاً صاخباً، ويروحون ويجيئون على ما يحبون.

كان منظر أولاء النسوة العاطلات عن العمل، المنطلقات في الكلام، الباشات، المداعبات، يثير دهشة الناس كثيراً أو قليلاً. ولكن الناس الذي دهشوا وبهتوا من هذا المنظر في أول الأمر لم يلبثوا أن ألفوه كما ألفوا كثيراً من الأمور الجديدة الأخرى وإن لم يقبلوها.

ويمكن أن نقول بوجه عام: إن جميع هذه التبدلات التي طرأت على الجسر كانت تافهة سطحية وقصيرة. إن التغيرات الهامة التي قامت في أذهان أهل المدينة وفي عاداتهم وفي مظهر المدينة قد تمت قرب الجسر من دون أن تمسّه. وكان يبدو أن هذا الجسر الأبيض القديم الذي اجتازه الناس خلال ثلاثة قرون من دون أن يبقى منهم فيه أثر، ظل على حاله لم يتبدل حتى في عهد الأمبرطور الجديد، وأنه ينتصر على هذا الطوفان من الأشياء الجديدة ومن التبدلات، كما انتصر قبل ذلك على أكبر الفيضانات وخرج من الأمواج العارمة القائمة التي أغرقته، خرج في كل مرة سليماً وناصعاً ما مسّه أذى، حتى لكأنما انبث فيه مزيد من الحياة.

الفصل الثاني عشر

هكذا أصبحت الحياة على الكابيا أكثر حركة وحياة، وأصبحت مليئة بالتنوع. إن جميع هؤلاء الناس الكثر المتعددة ألوانهم، من أهل مدينتنا ومن الأجانب شباناً وشيوخاً، كانوا يتعاقبون عليها طوال النهار، بل وفي بعض ساعات الليل. إنهم لا يهتمون إلا بأنفسهم ويغرقون غرقاً تاماً في أفكارهم وملذاتهم وأهوائهم التي قادت خطاهم إلى ذلك المكان. لذلك كانوا لا ينتبهون أي انتباه إلى غيرهم من المارة الذين تقودهم إلى هناك أفكار أخرى وهموم أخرى فيجتازون الجسر خافضي الرؤوس تائهي النظرة لا ينظرون يمنة ولا يسرة ولا يحفلون بالجالسين على الكابيا.

لا شك أن ميلان غلاسنتشانين (من أوكولشته) كان أحد هؤلاء المارة. وهو رجل طويل القامة، جاف، محدودب الظهر، شاحب الوجه. إن جسمه كله يبدو شفافاً وبلا وزن، مثبتاً على عقبين من رصاص. لذلك كان يتأرجح وهو يمشي، وينحني كبيرق من بيارق الكنيسة بين يدي طفل من أطفال «الكورس» أثناء الطواف. إن شعره رمادي، وكذلك شاربيه، كأنه شيخ هرم. وعينيه مسبلتان دائماً. وهو يمشي بخطى أشبه بخطى السائر في نومه، لا يلاحظ أن شيئاً من الأشياء قد تغير على الكابيا وفي سلوك الناس. والناس الذين جلسوا على الكابيا يحلمون أو يغنون أو يبيعون أو يناقشون أو يقتلون الوقت، لا يكادون يلاحظون مروره بهم أيضاً. الطاعنون في السن منهم نسوة، والشباب لا يتذكرونه، والأجانب لا يعرفونه. ومع ذلك فإن مصيره وثيق الصلة بالكابيا فيما كان يقصّه الناس في المدينة، ويتهامسون به منذ عشر سنين أو اثنتي عشرة سنة خلت.

إن أباه العجوز، نيقولا غلاسنتشانين كان قد استقر في المدينة أيام كانت الثورة في أشد غليانها. فاشترى أرضاً جيدة في أوكولشته. وكان الناس يقدِّرون

أنه فرّ من مكان ما بثروة ليست حلالاً. ولم يكن أحد يملك الدليل على هذا، لذلك كان الناس لا يصدقون هذا الافتراض إلا نصف تصديق، ولكن أحداً منهم لا يرفضه رفضاً تاماً. وقد تزوج الرجل مرتين، ومع ذلك لم ينجب كثيراً من الأولاد، فلم يكن له إلا إبن وحيد، ميلان، وقد أورثه كل ما يملك، ما كان يراه الناس وما كان مخبأ لا يراه أحد. وكان لميلان ولد وحيد اسمه بطرس. وكان يمكن أن تكفي ميلان أملاكه، وأن يورث منها لولا أنه كان مصاباً بداء قوي هو داء الميسر (القمار).

إن سكان هذه المدينة ليسوا مقامرين بطبيعتهم. وقد سبق أن رأينا أن الأهواء التي تستبد بهم هي من نوع آخر مختلف عن هوى المقامرة كل الاختلاف: الإسراف في حب النساء، الميل إلى الشراب، الغناء، التعطل والتجول والاسترسال مع الأحلام قرب نهر مدينتهم. ومن المعروف أن طاقة الإنسان محدودة في كل شيء، حتى في هذه الأمور، فالأهواء تصطدم في نفس الإنسان ويدفع بعضها بعضاً، وكثيراً ما يفني بعضها بعضاً. وليس معنى هذا أن أحداً من سكان المدينة كان لا يتعاطى القمار، ولكن عدد المقامرين فيها كان أقل من عدد المقامرين في غيرها من المدن، وهؤلاء أنفسهم كان أكثرهم من الأجانب أو من الوافدين الجدد. ومهما يكن من أمر، فقد كان ميلان غلاسنتشانين من الذين يدمنون القمار. لقد اندفع إلى المقامرة اندفاعاً قوياً منذ ميعة الصبا. وكان إذا لم يجد في المدينة من يقامر معه، يمضي إلى مديرية أخرى من المديريات المجاورة، فيعود منها إما مثقلاً بالمال كتاجر عائدٍ من سوق، وإما خالي الوفاض، بلا ساعة، وبلا سلسلة، وبلا علبة دخان، وبلا خاتم، ولكنه يعود في الحالتين أصفر الوجه مفكك القسمات كأنه مريض.

إن مكانه المألوف كان في خمارة أوستاموئتش، عند الطرف الأقصى من الحي التجاري بمدينة فيشيغراد. كان في هذه الخمارة حجرة صغيرة ضيقة، بلا نافذة، تشتعل فيها شمعة حتى أثناء النهار، ويجتمع فيها دائماً ثلاثة أو أربعة من أولئك الرجال الذين يحبون اللعب أكثر مما يحبون أي شيء آخر في هذا العالم. فكان هؤلاء الرجال يصلون الليل بالنهار على مذبح هذا الهوى، وقد أغلقوا عليهم الحجرة، واستنقعوا في دخان التبغ وفاسد الهواء، واحتقنت أعينهم بالدم، وجفت حلوقهم وارتعشت أيديهم. في هذه الحجرة، قضى ميلان

شطراً كبيراً من شبابه، وأودع جزءاً كبيراً من قواه وثروته. ولم يكن قد جاوز الثلاثين كثيراً حين وقع له ذلك التبدل المفاجئ الذي لم يستطع الناس أن يعللوه، والذي شفاه من دائه إلى الأبد، ولكنه في الوقت نفسه غيّر حياته وقلبها رأساً على عقب.

ففي فصل من فصول الخريف منذ أربعة عشر عاماً وصل إلى الخمارة رجل أجنبي، لا هو بالعجوز ولا هو بالشاب. لا هو بالجميل ولا هو بالدميم. كهلٌ ربع القامة، قليل الكلام، ولكن عينيه وحدهما تبتسمان. إنه رجل عملي غارق في الأمر الذي جاء من أجله غرقاً تاماً، فبعد أن قضى الليلة في المدينة، وقع عند انبلاج الفجر على تلك الحجرة الضيقة التي كان اللاعبون قد قبعوا فيها منذ الأصيل بالأمس، فاستقبله هؤلاء في حذر وشك، لكنه كان من الوداعة والرزانة في سلوكه بحيث إنهم لم يحفلوا به حين أخذ يراهن على إحدى ورقات اللعب بمبالغ متواضعة. وكان يخسر أكثر مما يربح، وكان يقطب حاجبيه مضطرباً، ويدس يده في جيوبه الداخلية متعثراً ليخرج منها بعض قطع الفضة.

فبعد أن خسر مبلغاً طائلاً، جاء دوره في توزيع الورق، فوزعه في أول الأمر بطيئاً محاذراً، ثم ما لبث أن أخذ يسرع في التوزيع حراً طليقاً شيئاً بعد شيء. وأصبح لا يلعب هادئاً رابط الجأش فحسب، بل أصبح يلعب في جرأة وجسارة، ويمضي في الرهان إلى النهاية. وأخذت أكوام القطع النقدية الفضية تكبر أمامه، وأخذ اللاعبون يتركون اللعب واحداً بعد آخر، وراهن أحدهم على سلسلته الذهبية، ولكن الرجل الأجنبي رفض ذلك في برودة، قائلاً: إنه لا يلعب إلا على نقود.

وانتهى اللعب في ساعة صلاة العشاء، لأن أحداً لم يكن يملك مزيداً من المال. وكان ميلان غلاسنتشانين آخر من استمر في اللعب، لكنه اضطر إلى الانسحاب أخيراً، فاعتذر الرجل الأجنبي عندئذٍ في أدب ومضى إلى غرفته.

فلما جاء اليوم التالي استؤنف اللعب، فكان الأجنبي يخسر ثم يربح ثم يخسر ثم يربح، ولكن الربح كان أكثر من الخسارة، بحيث إن اللاعبين من أهل المدينة انفضوا مرة أخرى وقد جُرِّدوا من كل ما كان معهم من مال. وكانوا ينظرون إلى يدي الرجل ويفحصون كميه، ويراقبونه من كل جهة من الجهات، ويبدلون الورق بورق آخر، ويغيرون أمكنتهم على المقعد المغطى بسجادة، ولكن ذلك كله لم

يُجْدهم شيئاً. لقد لعبوا الأوطوز بير[1]، وهي لعبة خبيثة بسيطة كانوا يلعبونها منذ الطفولة. ولم يستطيعوا مع ذلك أن يكتشفوا طريقة هذا الرجل الأجنبي في اللعب، فأحياناً كان يصل إلى 29 وحتى إلى 30، وأحياناً أخرى يقف على 25، وكان يكسب كل رهان، صغيراً أو كبيراً، وكان يتغاضى عن المخاتلات الصغيرة التي يعمد إليها بعض اللاعبين كأنه لا يلاحظها. ولكنه يفضح كبراها، بهدوء وإيجاز.

كان وجود هذا الرجل الغريب في الخمارة يعذب ميلان ويثير حنقه. وأصبح ميلان في الأيام الأخيرة يحس بمزيد من الحمى والانكسار. وقطع على نفسه عهداً بأن يكف عن اللعب، ولكنه استمر يلعب، فكان يظل يخسر حتى يفقد آخر قرش، فيعود إلى بيته وهو يشعر بالمرارة والعار. وفي اليوم الرابع أو الخامس استطاع أن يكبح جماح نفسه فظل في البيت، بعد أن هيأ المال وارتدى ثيابه. إنه يشعر بثقل في رأسه وتقطع في أنفاسه. تناول عشاءه بسرعة، من دون أن يعرف ماذا يأكل، ثم خرج عدة مرات إلى ظاهر البيت، ودخّن وتجوّل، وتأمّل المدينة الساكنة تحته في هذه الليلة المضيئة من ليالي الخريف. وبينما هو يتجول إذا به يلمح قامة غير واضحة تمشي في الطريق، ثم تبطئ الخطى أمام سياج بيته.

صاح الرجل المجهول قائلاً:

ـ مساء الخير يا جار.

فعرفه ميلان من صوته. إنه الرجل الأجنبي الذي لعب في الخمّارة. كان واضحاً أن الرجل آت إليه، وأنه يريد أن يتحدث معه. فاقترب ميلان من السياج.

قال الرجل الغريب بهدوء وغير مبالاة، كأنه يقول ما يقول عرضاً:

ـ لم تجئ هذا المساء إلى الخمارة.

---

(1) تعني هاتان الكلمتان باللغة التركية لعبة بالورق. الرابح فيها هو الذي يحصل على 31 نقطة أو يقترب منها أكثر من غيره. ويستطيع اللاعب أن يطلب ما يشاء من أوراق اللعب، ولكنه إذا تجاوز الواحد والثلاثين خسر نهائياً. وهكذا فإن اللاعب الذي يصل إلى ثلاثين، مثلاً، يكون احتمال خسارته كبيراً لأن حظه في الحصول على «الآس» الذي يكفل له الربح المؤكد، حظ قليل إذا هو طلب ورقة أخرى. لذلك فكلما اقترب من الواحد والثلاثين كان من المخاطرة أن يطلب ورقة لتحسين وضعه (المترجم).

ـ مزاجي الليلة لم يشجعني على الذهاب. هل الآخرون هناك؟ . . .

ـ بل انصرفوا جميعاً ولم يبق منهم أحد، لقد انفضوا قبل الأوان المألوف. ولكن هيا بنا نحن الاثنين.

ـ لكن الوقت متأخر. ولم يبق ثمة مكان نمضي إليه.

ـ إن شئت ذهبنا إلى الكابيا تحت. إن القمر سيطلع بعد قليل.

ـ لكن الوقت غير مناسب.

قال ميلان ذلك ممانعاً، ولكن شفتيه جمدتا، وأحس بأن كلامه غريب عنه، كأن شخصاً آخر هو الذي ينطق به.

وظل الرجل الغريب واقفاً ينتظر، كأنه يقدر أن اقتراحه لا يمكن إلا أن ينفذ. وفعلاً فتح ميلان باب الحديقة، ومضى مع الرجل رغم ممانعته، ورغم ما يشعر به نحو هذا الرجل الغريب من كره، رغم أنه بكلماته وأفكاره وآخر انتفاضات إرادته كان يود لو يتحرر من هذه القوة المخاتلة التي تخنقه ولا يستطيع منها إفلاتاً.

هبط الرجلان منحدر أوكولشته بسرعة. كان القمر يطلع حقاً من وراء ستانشيفاتس ضخماً مقطوعاً. وكان الجسر يبدو بلا حدود، غير واقعي، لأن طرفيه غارقان في ضباب بلون الحليب، في حين أن أعمدته عند القاعدة غائبة في الظلمات. كما أن إحدى الجهتين من كل عمادٍ ومن كل قنطرة كانت تسقط عليها أضواء قوية، في حين أن الجهة الأخرى ظليلة تماماً. كانت هذه السطوح المضاءة والمظلمة تتكسر وتتقاطع خطوطاً حادة بحيث إن الجسر كان يبدو أشبه برسوم تزيينية يخطها تلاعب النور والظل.

وليس على الكابيا أحد. جلس الرجلان. وأخرج الأجنبي الورق. وكادت تقول هيئة ميلان مرة أخرى أن الوقت غير مناسب، وأن المرء لا يستطيع أن يرى الورق رؤية واضحة، ولكن الأجنبي لم ينتبه إليه. وبدأ اللعب.

ظلا في أول الأمر يتبادلان بعض الكلام، ولكنهما ما لبثا أن صمتا تماماً حين حمي اللعب. فكانا لا يزيدان على أن يلفا السجائر ويشعلا بعضها من بعض. وانتقل الورق من يد إلى يد، إلى أن استقر أخيراً بين يدي الرجل الغريب. إن النقود تهبط من دون ضجة على الحجر الذي يغشيه ندى رقيق. وتعاقبت تلك اللحظات التي يعرفها ميلان حق المعرفة، اللحظات التي يحصل

فيها الأجنبي على نقطتين حين يكون مجموع ما معه 29 أو يحصل على نقطة واحدة حين يكون مجموع ما معه 30، وكان حلق ميلان ينقبض انقباضاً تاماً، وكانت نظرته تحتجب. وكان وجه الأجنبي الغارق في ضياء القمر لا يزداد إلا هدوءاً. وفي أقل من ساعة، أصبح ميلان صفر اليدين. فاقترح عليه الأجنبي عندئذٍ أن يذهب إلى بيته ليجيء بنقود جديدة، وقال له: إنه مستعد لأن يرافقه إلى هناك.

ومضى الرجلان ثم عادا يستمران في اللعب. كان ميلان يلعب كأخرس وكأعمى. كان يرى الورق كالخيال، ويطلب ما يريده منه بإشارات. وأصبح الورق الموضوع بينهما أشبه بشيء ثانوي، أشبه بحجة أو ذريعة في هذا القتال اليائس الذي يخوضانه بلا هوادة. فلما نفدت نقود ميلان مرة أخرى، أمره الأجنبي أن يذهب إلى البيت ليجيء بمال آخر، وظل هو على الكابيا يدخن. لم ير حاجة إلى مرافقة ميلان، إذ لا يمكن أن يتصور المرء أن ميلان يستطيع الآن أن يعصي أمره أو أن يخدعه فيبقى في بيته. وأطاعه ميلان: وعندئذٍ دار الحظ فجأة. استرد ميلان كل ما كان خسره. والعقدة التي كانت تخنق حلقه أخذت تزداد انقباضاً بتأثير الانفعال. وأخذ الرجل الأجنبي يضاعف مقدار الرهان مثنى فثلاث. واللعب لا ينفك يزداد سرعة وحدة. كان الورق يصفر بينهما وتتراكم قطع الفضة والذهب. وكان كلاهما صامتين. إلا أن ميلان يتنفس في عناء، وهو يعرق تارة وتسري فيه قشعريرة من البرد تارةً أخرى، في هذه الليلة الهادئة الساكنة تحت ضياء القمر. إنه يلعب ويوزع الورق ويخفيه، لا تلذذاً باللعب، بل لأنه مكره على ذلك إكراهاً. وكان يتراءى له أن هذا الرجل الأجنبي لا ينتزع منه ماله، ديناراً بعد دينار، فحسب، بل ينتزع منه أيضاً نخاع عظامه ودم شرايينه، قطرة قطرة، وأن قواه تبارحه عند كل خسارة جديدة، وكذلك إرادته.

وكان من حين إلى حين يلقي نظرة على خصمه من جانب، متوقعاً أن يرى وجهاً شيطانياً ناتئ الأنياب ذا عينين من جمر، فإذا هو لا يرى أمامه إلا ذلك الأجنبي نفسه، بوجهه الهادئ المعبر دائماً عن أن الرجل يقوم بعمله الذي يقوم به كل يوم، محاولاً أن يفرغ بسرعة من مهمة ليست بالسهلة ولا بالممتعة.

ومرة أخرى خلت يدا ميلان بسرعة، فاقترح الأجنبي عندئذٍ أن يكون الرهان على الماشية والأملاك.

- خمس ليرات ذهب مجرية رنانة راجحة في مقابل حصانك الكميت وسرجه.

ـ طيب.

وهكذا خسر ميلان حصانه الكميت، وخسر بعده حصانين من أحصنة الحمل فأبقاراً وعجولاً. وكان الأجنبي يعد جميع الدواب الموجودة في اسطبل ميلان بأسمائها، ويقدر لها أثمانها الصحيحة رأساً رأساً، كأنه ولد وترعرع في هذا البيت، وكان يفعل ذلك فعل تاجر دقيق هادئ.

ـ والآن، أحد عشر ديناراً في مقابل حقلك المسمى «سالكوشا». موافق؟

ـ موافق.

وكشر الرجل الغريب. إن مجموع نقط الأوراق الخمسة التي أخذها ميلان 28 نقطة.

ـ ورق؟

ـ واحدة..

دمدم ميلان بهذه الكلمات دمدمة لا تكاد تسمع، واندفع دمه كله إلى قلبه.

وقلب الأجنبي ورقة في رفق. إنها اثنان. ورقة طيبة. قال ميلان بين أسنانه، من دون مبالاة.

ـ يكفي.

وجمع أوراقه بتشنج، وأخفاها. حاول أن يضفي على صوته وعلى وجهه مظهر عدم المبالاة، حتى لا يستطيع خصمه أن يحزر مجموع النقط التي في يده.

وعندئذٍ أخذ الأجنبي يسحب ورقاً لنفسه، على المكشوف. حتى إذا وصل إلى 27 توقف، ونظر إلى عيني ميلان بهدوء. ولكن ميلان أسبل جفنيه. وقلب الأجنبي ورقة أخرى. إنها اثنان. وزفر زفرة قصيرة لا تكاد تسمع. وبدا أنه يريد التوقف على 29، فأخذ الدم يصعد إلى رأس ميلان من جديد استباقاً لفرحة النصر. ولكن الأجنبي انتفض، وتمطى، وقلب رأسه إلى وراء فالتمع جبينه والتمعت عيناه في ضوء القمر، ثم قلب ورقة أخرى. إنها اثنان أيضاً. هل كان يحتمل أن تجيء الورقة (اثنين) أيضاً؟ هل كان يحتمل أن تتعاقب ثلاث ورقات (اثنين)؟.. ومع ذلك فهذا ما كان.. وهذا هو ميلان ينظر إلى الورقة حين قلبها صاحبه، فإذا هو يرى عليها حقله في الربيع وقد حرث وزرع واكتسى أبهج حلة.. ودارت أخاديد الحقل من حوله، كأنه أصيب بغثيان، ولكن الصوت الهادئ، صوت الرجل الأجنبي، أثاب إليه شعوره:

ـ أوطوزبير. الحقل لي.

ثم جاء دور الحقول الأخرى، فدور البيتين، فدور غابة السنديان الصغيرة في أوسونيتسا. وكانا يتفقان دائماً في تقدير الأثمان. وكان ميلان يربح من حين إلى حين فيجمع بضعة دنانير بحركة نهمة متعجلة، ويشرق في نفسه الأمل إشراق الذهب. ولكنه يعود صفر اليدين بعد «ضربتين» أو ثلاث «ضربات» تعيسة، ويعود يراهن على الأملاك.

فلما جرف اللعب كل شيء كالسيل، توقف اللاعبان لحظة، لا ليستردا أنفاسهما، إذ يمكن أن يقال: إن ذلك كان يبدو لكليهما مخيفاً، وإنما ليفكرا في ما يمكن أن يتخذاه رهاناً بعد الآن. وكان الأجنبي محافظاً على هدوئه، وكانت هيئته هيئة رجل يعمل مهموماً فهو يستجم قليلاً بعد انتهائه من الجزء الأول من عمله، ولكنه يتعجل الشروع في الجزء الثاني. وظل ميلان جامداً متخدراً تماماً. إن الدم يقرع أذنيه. إنه يحس أن المقعد الحجري الذي يجلس عليه يرتفع ثم يغوص. وفي هذه اللحظة تكلم الأجنبي، فقال بصوته الرتيب الممل الأخنّ قليلاً.

ـ هل تعرف ماذا نفعل الآن أيها الصديق؟ نلعب مرة أخرى. ولكننا في هذه المرة نراهن على كل شيء: أنا على كل ما ربحت، وأنت على حياتك. إن أنت كسبت رددت إليك كل شيء، فأصبح ملكك كما كان من قبل: المال، والماشية، والأرض، وإن أنت خسرت كان عليك أن تلقي بنفسك إلى درينا من على هذه الكابيا.

قال الرجل الأجنبي ذلك كما يقول كل شيء آخر، بلهجة جافة، لهجة رجل عملي، كأن الأمر أمر اتفاق على أيسر شيء مما يتفق عليه لاعبان منهمكان في اللعب. وقدر ميلان أنه على وشك أن يفقد حياته، وأن عليه أن ينقذ نفسه، فحاول أن ينهض ليتخلص من هذه الزوبعة العجيبة التي انتزعت منه كل شيء، وتحاول الآن أن تجرفه هو نفسه بأمواجها التي لا تقاوم. ولكن الرجل الأجنبي رده إلى مكانه بنظرة واحدة، وخفض ميلان رأسه، ومد إلى صاحبه يده، كأنما هما يلعبان في الخمارة على ثلاثة قروش أو أربعة.

اختار كل منهما ورقة. فكانت ورقة الأجنبي «أربعة» وجاءت ورقة ميلان «عشرة». إن على ميلان إذاً أن يوزع الورق. ملأه ذلك أملاً. ووزع. إن الأجنبي ما ينفك يطلب ورقاً جديداً.

ـ ورقة أيضاً . . ورقة أيضاً.

سحب الرجل خمس ورقات ثم قال.

ـ يكفي.

وسحب ميلان، فلما وصل إلى 28 توقف لحظة، ونظر إلى الورق الذي جمعه الأجنبي ونظر إلى وجهه اللغز. إن المرء لا يستطيع أن يحزر مجموع النقط التي حصل عليها، ولكن من المحتمل جداً أن تكون أكثر من 28، أولاً لأنه كان في هذه الليلة لا يتوقف على أقل من ذلك، وثانياً لأن معه خمس ورقات. واستجمع ميلان آخر قواه، وسحب ورقة أخرى. إنها «أربعة». المجموع 32. إذاً لقد خسر.

كان ينظر إلى الورق ولا يستطيع أن يصدق عينيه. كان يبدو له أن من المستحيل أن يفقد كل شيء بضربة واحدة. إن شيئاً كاوياً صاخباً يجتاز جسمه من قمة الرأس إلى أخمص القدم. واتضح له فجأة كل شيء: قيمة الحياة، قيمة الإنسان، وحقيقة هذا الداء اللعين العجيب الذي يدفعه إلى المقامرة مع أصدقائه ومع أجانب، مع نفسه أو مع أحد ممن يحيطون به. أصبح كل شيء مضيئاً واضحاً، كأن النهار قد طلع، وكأن اللعب والخسارة كانا حلماً رآه في نومه. ولكن كل شيء كان في الوقت نفسه واقعاً لا مفر منه ولا سبيل إلى تداركه. وأراد ميلان أن ينطق بشيء، أن يئن، أن يستنجد، ولو بآهة، لكنه لم يقدر حتى على ذلك.

وإلى جانبه، كان الرجل الأجنبي ينتظر. وفجأة، في مكان على الضفة، صاح ديك، صياحاً عالياً واضحاً . . مرة أولى فمرة ثانية. إن الديك قريب، حتى لكأن المرء يسمع خفق جناحيه. وفي هذه اللحظة نفسها طار الورق المبعثر كأن زوبعة عصفت به، وتناثر المال، واهتزت الكابيا كلها حتى أسسها. فأغمض ميلان عينيه مذعوراً، وقدر أن ساعته الأخيرة قد حانت. حتى إذا عاد ففتح عينيه وجد نفسه وحيداً . . . لقد تبخر خصمه كفقاعة صابون، وتبخر معه ما كان على البلاطة من ورق ومال.

كان القمر المقطوع الأحمر بلون البرتقال، يسبح في آخر الأفق. وهبت ريح طرية. وازداد اصطخاب الأمواه في الأعماق. وتلمس ميلان، على حذر، الحجر الذي كان جالساً عليه، محاولاً أن يعود إلى صوابه، وأن يعرف أين هو، وأن

يتذكر ما جرى، ثم نهض في عناء، واتجه إلى بيته في أوكولشته كأن ساقين غير ساقيه تحملانه.

فما إن وصل أمام بيته وهو يئن ويترنح، حتى سقط كجريح، صدم الباب بجسمه صدمة ثقيلة، فاستيقظ أهله، فحملوه إلى سريره. وظل نهباً للحمى والهذيان خلال شهرين كاملين. وظن أنه لن يبرأ من مرضه. ولكنه شفي مع ذلك ونهض، غير أنه أصبح شخصاً آخر غير ميلان القديم، لقد دبت فيه الشيخوخة قبل الأوان، وهو الآن إنسان شاذ الأطوار يعيش في عزلة، ولا يتكلم إلا قليلاً، ويضيِّق علاقاته بالناس إلى أبعد حد. وأصبح وجهه الذي لا يعرف الابتسام سبيلاً إليه يعبر عن انتباه أليم متوتر إلى أقصى حدود التوتر. وأصبح لا يهتم إلا ببيته، وهو يمضي الآن إلى أعماله كأنه لم يعرف يوماً صحبة أحد من أصدقائه.

وقص على القس نيقولا أثناء مرضه كل ما وقع له في تلك الليلة على الكابيا، وأفضى بعد ذلك بهذا الأمر إلى اثنين من خيرة أصدقائه. إذ كان يحس بأنه يستحيل عليه أن يعيش كاتماً هذا السر في نفسه. فعرف الناس من الأمر ما عرفوا، ولكنهم أضافوا إليه تفاصيل من خيالهم ونسجوا حوله وطرّزوه، كأن ما حدث في الواقع لم يكن كافياً، ثم انتقلوا بانتباههم إلى مصير شخص آخر، وانتهوا إلى نسيان ميلان وما وقع له. وهكذا أخذ الرجل الذي ليس إلا طيف ميلان غلاستنشانين القديم، أخذ يعيش الآن ويعمل ويتطور بين أهل المدينة. إن الجيل الجديد لا يعرفه إلا على الحال التي هو عليها الآن، ولا يقدر أنه كان في يوم من الأيام شخصاً آخر، بل إنه ليسلك هو نفسه سلوك من نسي من الماضي كل شيء. فإذا ترك بيته لينزل إلى المدينة، كان يجتاز الجسر بمشيته الثقيلة البطيئة التي تشبه مشية السائر في نومه، من دون أن يحس بأي انفعال، ومن دون أن يذكر أي شيء من الأشياء. كان لا يخطر بذاكرته أن هذه الصوفا ذات المقاعد الحجر التي يجلس عليها أناس غير مبالين، لها علاقة بذلك المكان الرهيب الواقع في آخر الدنيا، الذي لعب فيه ذات ليلة من الليالي لآخر مرة، مقامراً على تلك الورقة الخائنة بكل ما يملك، وحتى بشخصه، بحياته في هذا العالم وفي العالم الآخر.

وكان ميلان يتساءل في كثير من الأحيان: ألا يمكن أن يكون ما وقع له في تلك الليلة كابوساً وافاه حين سقط مغشياً عليه أمام بيته؟ ألا يمكن أن يكون ذلك

كله نتيجة لمرض لا علة له؟ الحق أن القس نيقولا، والصديقين الآخرين اللذين أفضى إليهما ميلان بالأمر، كانوا أميل إلى الاعتقاد بأن كل ما قصه عليهم ميلان كان أخيلة وأوهاماً تراءت له أثناء الحمى.

ذلك أنهم كانوا لا يصدقون أن الشيطان قد لعب لعبة «الأوطوز بير» وأنه قاد إلى الكابيا ذلك الذي كان يريد إهلاكه. غير أن ما يقع لنا من مغامرات يبلغ من الإبهام وشدة الألم في كثير من الأحيان حداً لا يستغرب معه أن يتصور الناس أنه من فعل الشيطان نفسه، فبذلك يحاولون أن يعللوه أو أن يجعلوا أنفسهم أقدر على احتماله في أقل تقدير.

ومهما يكن من أمر، سواء أتم ذلك بتدخل الشيطان أم من دون تدخله، وسواء أتم ذلك في الحلم أم في الواقع، فإن الشيء الثابت الذي لا مراء فيه، هو أن ميلان غلاسنتشانين، بعد أن فقد في ليلة من الليالي صحته وشبابه ومبلغاً طائلاً من المال، قد تخلص من داء القمار إلى الأبد بما يشبه المعجزة. غير أن ذلك لم يكن كل شيء. إن قصة ميلان غلاسنتشانين تضاف إليها وترتبط بها ارتباطاً وثيقاً قصة مصير آخر تبتدىء أولى خيوطها بالكابيا.

كان غد تلك الليلة التي لعب فيها ميلان غلاسنتشانين (في الحلم أو في الواقع) لعبته الأخيرة الرهيبة تلك، نهاراً ضاحياً مشمساً من أيام الخريف. كان ذلك اليوم يوم سبت. وكان يهود فيشيغراد يجتمعون مع أولادهم على الكابيا في كل يوم من أيام السبت. إنهم في أيام السبت يتعطلون عن العمل، ويرتدون ملابس الأعياد من سراويل حرير وصديرات صوفة وطرابيش مسطحة قاتمة الحمرة، ويمضون يحتفلون بيوم الرب على ضفاف النهر كأنهم يبحثون على هذه الضفاف عن أحد، ويجلسون في أكثر الأحيان على الكابيا، يديرون باللغة الاسبانية أحاديث حية صاخبة، ولا يتكلمون بالصربية إلا في قذف بعض الشتائم.

واتفق أن كان بوكوس جاوون، وهو الابن الأكبر للحلاق التقى أبراهام جاوون، أول من جاء إلى الكابيا في ذلك الصباح. إنه في السنة السادسة عشرة من عمره، ولم يهتد حتى الآن إلى عمل معين أو مهنة محددة. لقد كان هذا الفتى، خلافاً لجميع أفراد أسرة جاوون، طائشاً بعض الطيش، وهذا ما حال بينه وبين الاستقرار على عمل بذاته، فكان لا ينفك يبحث لنفسه في كل شيء وفي

كل مكان عما يرى أنه يعود عليه بالنفع وأجمل. فلما أراد أن يجلس على المقعد الحجر، وأن يتأكد من أنه نظيف، لمح في الشق الذي بين بلاطتين شيئاً رقيقاً يلتمع. إن لهذا الشيء بريق الذهب الذي يحبه البشر كثيراً. وأنعم النظر فلم يخالجه شك: هذا دينار من ذهب قد سقط هنا في هذا الشق. وأدار الفتى بصره في ما حوله، ليرى هل يلاحظه أحد، وليبحث عن شيء يمكن أن يستعين به في إخراج الدينار الذي يبتسم له في الشق. ولكنه لم يلبث أن تذكر أن اليوم سبت، وأن القيام بعمل من الأعمال في يوم من أيام السبت عار عظيم وخطيئة كبرى. فانفعل واضطرب ثم جلس فوق الشق، لا ينهض عنه حتى الظهر. فلما أزف وقت الغداء وانصرف جميع اليهود إلى بيوتهم شيوخاً وشباباً، رأى عوداً من أعواد الشعير، فأخرج به الدينار الذهب من مكمنه، ناسياً أن اليوم يوم سبت وأن عمله هذا خطيئة. إنه دينار من الدنانير الذهبية المجرية الرقيقة التي لا يزيد وزن أحدها كثيراً على وزن ورقة من أوراق الأشجار الميتة. وعاد الصبي إلى بيته متأخراً عن موعد الغداء. فلما جلس إلى المائدة الواطئة الفقيرة التي يتحلق حولها ثلاثة عشر شخصاً (أحد عشر ولداً والأب والأم) لم ينتبه إلى تقريع أبيه الذي أخذ يعيّره بأنه عاطل عن العمل، وبأنه عاجز حتى عن الوصول إلى البيت في موعد الطعام. كانت أذناه تدويان. وكانت عيناه مبهورتين. إن الحياة المترفة التي طالما حلم بها تتحقق له الآن. كان يحس بأنه يحمل الشمس في جيبه.

وفي اليوم التالي ذهب بوكوس إلى خمارة أوستاموئتش من دون أن يفكر طويلاً، وتسلل إلى تلك الحجرة الضيقة التي يدور فيها لعب الورق في كل لحظة من لحظات النهار والليل تقريباً. إذ طالما حلم بهذا الأمر، ولكنه لم يملك يوماً من المال ما يشجعه على الدخول إلى هذا المكان لتجريب حظه. أما الآن فهو يستطيع أن يحقق هذا الحلم.

قضى هناك ساعات زاخرة بالاضطراب والانفعال. وقد استقبل في أول الأمر بازدراء وسوء ظن. وحين رآه اللاعبون يبدل الدينار المجري، قدروا فوراً أنه سرقه من أحد، ومع ذلك قبلوا أن يلعب معهم (إذ لو حاول اللاعبون أن يعرفوا مصدر المال الذي مع كل واحد منهم، لما استطاعوا أن يلعبوا أبداً). وبدأ اللاعب المبتدئ يعاني تجارب جديدة: فإذا ربح صعد الدم إلى رأسه وغامت نظراته من تأثير الحرارة والعرق، وإذا مني بخسارة أكبر من الربح أحس بأن

أنفاسه تنقطع وبأن قلبه ينهار. غير أنه بعد كل تلك الأوجاع التي كان يتراءى له كل منها بلا مخرج، خرج في ذلك المساء من الخمارة وفي جيبه أربعة دنانير. ورغم أنه كان بتأثير الانفعال مهدود القوى محموماً، كأنه جلد بسياط ملتهبة، فقد سار في طريقه منتصب القامة مزهواً. كانت تنفتح أمام نظراته المستمرة آفاق بعيدة براقة، تسقط على فقر أسرته ضياء باهراً، وتبدل المدينة كلها من أسسها. كان يختال في مشيته اختيالاً وقد سكر من النشوة. أصبح يستطيع، لأول مرة في حياته، ألا يقدر بريق الذهب ورنينه فحسب، بل ووزنه أيضاً.

في أثناء ذلك الخريف أصبح بوكوس، رغم أنه في ريعان الشباب وغير ذي خبرة، أصبح فتى متشرداً ومقامراً ومحترفاً، وترك بيت أسرته. وأنهدّ العجوز جاوون خجلاً وحزناً على ابنه الأكبر، وأحست الطائفة اليهودية كلها بالكارثة إحساسها بشقاء ألمّ بها جميعاً. وبعد مدة ترك الفتى المدينة، وجعل يضرب في الأرض إنساناً كتب عليه هذا المصير البائس، مصير مقامر. ولم يسمع أحد عنه شيئاً منذ ذلك الحين، بعد انقضاء أربعة عشر عاماً. وقال اليهود: إن السبب في ذلك كله إنما هو ذلك «الدينار الشيطاني» الذي وجده على الكابيا، وأخرجه من الشق في يوم سبت.

الفصل الثالث عشر

نحن الآن في السنة الرابعة من الاحتلال. كان يبدو أن كل شيء قد هدأ بعض الهدوء، وأن كل شيء يجري على طبيعته. ولئن لم ترجع أيام السكينة العذبة التي عرفها العهد التركي (وذلك مستحيل) لقد أخذ النظام يستتب وفقاً للمفاهيم الجديدة. غير أن اضطرابات جديدة تقع الآن في البلاد، وها هم جنود الحرس يظهرون مرة أخرى على الكابيا. وإليك كيف وقع ذلك:

في هذه السنة أدخلت السلطات الجديدة إلى البوسنة والهرسك نظام التجنيد، فأثار ذلك اضطراباً شديداً بين السكان، وخاصةً الأتراك منهم. وقديماً، منذ خمسين عاماً، حين قرر السلطان تشكيل جيش نظامي يرتدي الملابس العسكرية ويدرب ويجهز على الطريقة الأوروبية، رفع هؤلاء السكان راية التمرد وخاضوا حروباً حقيقية، صغيرة لكنها دامية. لأنهم لا يريدون أن يرتدوا الملابس التي يرتديها الكفرة، ولا أن يعلّقوا على صدورهم سيوراً تتصالب عليها فيتشكل من تصالبها ذلك الرمز المقيت: الصليب. وها هم يُراد منهم الآن أن يرتدوا تلك الملابس العسكرية نفسها، تلك الملابس «الضيقة» الكريهة، وسيرغمون فوق ذلك على أن يكونوا جنوداً في خدمة امبراطور أجنبي ينتمي إلى دين آخر.

ومنذ السنة الأولى من سني الاحتلال، حين أخذت السلطات ترقم البيوت وتحصي السكان، أثارت هذه الإجراءات في نفوس الأتراك مشاعر الشك والريبة، وأيقظت مخاوف غير واضحة لكنها عميقة.

وكما يحدث دائماً في مثل هذا الظرف، اجتمع الوجهاء والمتعلمون من أتراك المدينة من دون أن يلاحظهم أحد، ليتفقوا على فهم معنى هذه الإجراءات، وعلى السلوك الذي يجب أن يسلكوه ازهاءها.

ففي ذات يوم من شهر أيار (مايو) التقت هذه الشخصيات الأولى من المدينة على الكابيا بما يشبه الصدفة، وجلست على الصوفا. وفيما كانوا يشربون القهوة

في هدوء، وينظرون إلى أمام، أخذوا يتحدثون في شبه همس عن هذه الإجراءات الجديدة المشبوهة التي عمدت إليها السلطات. إنهم مستاؤون جميعاً من هذه الإجراءات. فهي بطبيعتها تنافي كل ما لهم من آراء ومن عادات، وكان كل منهم يحس بأن تدخل السلطات هذا في شؤونه الشخصية وحياته العائلية إذلال لا داعي له ولا يمكن أن يفهم. ولكن أحداً منهم لم يستطع أن يؤول المعنى الحقيقي لهذا الإحصاء الذي تقوم به السلطات، ولا أن يقول كيف تجب معارضته والحيلولة دونه.

وكان بينهم علي خجا، الذي كان لا يختلف إلى الكابيا إلا نادراً، لأنه كلما رأى تلك الدرجات الحجرية التي تفضى إلى الصوفا شعر بحكة أليمة في أذنه.

أخذ حسين آغا، مدرس فيشيغراد، الرجل المتعلم المكثار، يشرح المعنى الذي يمكن أن يشتمل عليه ترقيم البيوت وإحصاء الصغار والكبار، من حيث إنه أطولهم باعاً في العلم، قال:

ـ يبدو أن هذه عادة من عادات الكفرة درجوا عليها منذ أقدم الأزمان. فمنذ ثلاثين سنة أو يزيد كان في مدينة ترافنيك وزير اسمه طاهر باشا، وهو في الأصل من سكان استانبول، وقد دخل الإسلام، لكنه لم يكن صادقاً بل كان منافقاً، فظل في قرارة نفسه نصرانياً على ما كان، حتى لقد روى الناس أنه كان يضع إلى جانبه جرساً، فإذا أراد أن ينادي أحد خدمه قرع الجرس كما يقرعه قس نصراني، إلى أن يجيب الخادم. طاهر باشا هذا هو أول من أخذ يرقم البيوت في ترافنيك، فكان يسمّر في باب كل بيت من البيوت لوحة عليهما رقم (ومن أجل ذلك لقب بالمسمر).

غير أن الشعب ثار، ونزع تلك اللوحات كلها، وجمعها في مكان من الأمكنة وأحرقها. وكادت تهرق الدماء، لولا أن استانبول علمت بالأمر من حسن الحظ، فاستدعت الوزير من البوسنة.. نسأل الله أن يمحو أثره.. وما يقع الآن إنما هو شيء من هذا القبيل. فالنمسويون يريدون أن يكون بين أيديهم سجل يحصي كل شيء، حتى رؤوسنا.

كان جميع الحاضرين ينظرون إلى أمام، وهم يصغون إلى كلام المدرِّس الذي عرف بأنه يؤثر الإفاضة في سرد ذكريات غيره، على أن يعرض رأيه في ما يقع اليوم عرضاً واضحاً موجزاً.

وكان علي خجا أول من ضاق ذرعاً بكلام المدرس، على عادته، فقال:

ـ مدرس أفندي، هذا لا يرجع إلى ديانة النمسويين، بل إلى مصالحهم. هؤلاء أناس لا يعبثون ولا ينفقون وقتهم سدى، حتى حين ينامون. إنهم لا يغفلون عن مصالحهم لحظة من اللحظات. إننا لا نرى الآن ماذا يريدون، ولكننا سنراه بعد بضعة أشهر أو بعد سنة. صدق المرحوم شمسي بك حين كان يقول: «إن لألغام النمسويين فتيلة طويلة». وفي رأيي أن ترقيم البيوت وتعداد الناس تمهيد لفرض ضرائب جديدة، وربما كانوا ينوون جمع الناس لتسخيرهم في بعض الأعمال أو لتجنيدهم في الجيش.. وربما كان ذلك للأمرين معاً.. أما أن نثور فوراً، فما نحن بجيش قادر على ذلك. هذا أمر يراه الله ويعرفه الناس. ولكن يجب علينا ألا نخضع لكل ما نؤمر به. يجب ألا يحافظ أحد على الأرقام التي يضعونها، وألا يذكر أحد تاريخ ميلاده، فليحزروا بأنفسهم التاريخ الذي ولد فيه كل واحد منا. أما إذا تجاوزوا الحد ومسوا أولادنا وسعادتنا، كان علينا ألا نذعن، وأن ندافع عن أنفسنا، وليفعل الله يومئذٍ ما يشاء..

وظلوا يتناقشون مدة طويلة في أمر هذه الإجراءات المزعجة التي تتخذها الحكومة، ولكنهم وقفوا عند ما قاله علي خجا: الدفاع السلبي. فأصبح الرجال يكتمون أعمارهم أو يقدمون بيانات كاذبة، معتذرين عن ذلك بأنهم أميون لا يقرأون ولا يكتبون. أما النساء فلم يكن أحد يجرؤ أن يسألهن شيئاً، لأن في ذلك إهانة للعرض دونها دماء. وأخذوا يسمرون لوحات الأرقام في مواضع لا ترى، أو يسمرونها مقلوبة، رغم جميع التعليمات التي أصدرتها الحكومة، ورغم جميع التهديدات التي وجهتها.. أو أصبحوا يرشون بيوتهم بالكلس فيغطون به الأرقام، كأن ذلك تمَّ عَرَضاً ومصادفة.

فلما رأت السلطات أن المقاومة عميقة صادقة رغم أنها متخفية، أظهرت شيئاً من التسامح، وأغضت عن تطبيق القانون تطبيقاً صارماً، فتفادت بذلك النتائج التي كان لا بد أن تنجم، وتحاشت ألوان الصراع التي كان لا بد أن تقع.

وانقضت على ذلك العهد سنتان. وكان القلق الذي نشأ عن التعداد قد نسي، حين بدأ تجنيد الشباب فعلاً، دون تمييز بينهم على أساس الدين أو الطبقة الاجتماعية. فقامت عندئذٍ في بلاد الهرسك الشرقية ثورة صريحة شارك فيها الصربيون إلى جانب الترك هذه المرة. وحاول قادة الثائرين أن يقيموا علاقات

بينهم وبين البلاد الأجنبية وخاصةً تركيا، قائلين إن الدولة المحتلة قد تجاوزت السلطات التي عهد إليها بها في مؤتمر برلين، وإنه ليس من حقها أن تعمد إلى التجنيد في مناطق محتلة كانت تابعة لتركيا دائماً. ولم تقم في البوسنة مقاومة منظمة، إلا أن الثورة قد وصلت عن طريق فوتشا وجورايده إلى المناطق الواقعة حول مديرية فيشيغراد، وحاول بعض الثائرين الذين كانوا يقاتلون فرادى كما حاولت فلول من القطعات المنكسرة، الالتجاء إلى السنجق أو إلى الصرب باجتياز جسر فيشيغراد. وكما يقع دائماً في مثل هذه الحالات، شهدت البلاد إلى جانب الثائرين مجموعات من قطاع الطرق.

وعندئذٍ وضعت حراسة دائمة على الكابيا من جديد، بعد أن غابت عنها خلال ذلك العدد كله من السنين، فأصبح يخفرها في الليل والنهار رجلان من رجال الدرك، رغم أن الفصل شتاء، ورغم هطول الثلج، كان هذان الحارسان يوقفان المارة المجهولين والمشبوهين، ويستجوبانهم ويفتشانهم.

وبعد أسبوعين وصلت إلى المدينة مفرزة من طابور الشترايفكوربس[1]، فحلّ جنودها محل الدرك على الكابيا. وكان هذا الطابور قد نظم حين اتسعت الثورة اتساعاً جدياً، فشُكّل من عناصر متحركة، اختيرت وجُهّزت من أجل العمل في مناطق صعبة، وأفرادها من المتطوعين الذين يؤجرون أجراً حسناً. وبين جنود هذا الطابور رجال كانوا قد جاؤوا مع جيوش الاحتلال صفاً احتياطياً أول، ثم لم يشاؤوا أن يعودوا، فانخرطوا في الشترايفكوربس. ومن بين أفراد هذا الطابور أيضاً جنود من رجال الدرك ألحقوا به. ومن بين أفراده أخيراً عدد من المجندين ضموا إليه كأشخاص يوثق بهم ويمكن أن يكونوا أدلاء.

ففي خلال هذا الشتاء الذي لم يكن سهلاً ولا قصيراً، كان يحرس الكابيا رجلان من رجال هذا الطابور. وقد جرت العادة أن يكون أحدهما أجنبياً والثاني من أهل البلاد. ولم يبن ثمة متراس كما فعل الأتراك في الماضي أثناء ثورة قره جورج في الصرب، ولم يُقتَل أحد ولا قُطعت رؤوس. ومع ذلك وقعت، في هذه المرة أيضاً كما يقع دائماً حين تغلق الكابيا، وقعت أحداث خارقة تركت آثاراً في المدينة، ذلك أن الأوقات الحرجة لا تنقضي من دون أن تحمل شقاء لبعض الناس.

---

(1) باللغة الألمانية في الأصل، ومعنى الكلمة: الطابور المتنقل (المترجم).

إن من الجنود الذين كانوا يتناوبون حراسة الكابيا، شاباً روسياً من غاليسيا الشرقية اسمه غريغوار فيدون. إنه في الثالثة والعشرين من عمره، ضخم الجسم، لكن نفسه نفس طفل، له قوة الدببة وحياء العذارى. كان هذا الشاب يقوم بخدمته العسكرية حين وُجّهت فرقته إلى البوسنة فاشترك في معارك مالاغاي وغلاسيناك. وقضى سنة ونصف سنة في حاميات شتى بالبوسنة الشرقية. وحين انتهت مدة خدمته العسكرية، شق عليه أن يعود إلى مدينته الغاليسية، كولوبيا، شقّ عليه أن يعود إلى بيت أهله الذي يكثر فيه الأولا، ويقل فيه كل ما عدا الأولاد. فلما أذيع النداء الموجه إلى المتطوعين من أجل الانضمام إلى طابور الشترايفكوربس، وكان قد مضى مع فرقته إلى بيست، تقدم بطلب للالتحاق بهذا الطابور، فقبل فوراً، لأنه جندي عرف بلاد البوسنة خلال معارك دامت شهوراً عدة. وقد سر سروراً صادقاً حين تصور أنه سيعود فيرى تلك البقاع وتلك المدن الصغيرة البوسنية التي قضى فيها أياماً كان بعضها شاقاً وكان بعضها الآخر مؤلماً، ولكن تلك الأيام المؤلمة نفسها تبدو له الآن من خلال الذكرى أنصع جمالاً وأزخر بالحياة من الأيام المفرحة ذاتها، فهو يرتبط بهذه وتلك على السواء. وأصبحت نفسه تذوب عذوبة وتمتلئ اعتزازاً وهو يتخيل وجه أبويه وإخوته وأخواته حين سيتلقون منه أولى النقود التي سيرسلها إليهم من مرتبه الضخم كمتطوع. وأكثر من ذلك إنه بانضمامه إلى هذا الطابور يأمل أن يرسل لا إلى بلاد الهرسك التي كانت المعارك فيها ضد الثوار تضني القوى وتضعها في مخاطر مهلكة، بل إلى مدينة على نهر درينا لا يزيد عمل الجندي فيها على أن يكون عسساً أو حارساً.

وقضى هنالك الشتاء كله، يقرع بنعليه أرض الكابيا ساعات طويلة في كثير من الأحيان، وينفخ في أصابعه خلال الليالي المتجمدة الساكنة، بينما الصخر يتشقق من شدة البرد والسماء تصفر فوق المدينة، وتصبح نجوم الخريف الكبيرة شموعاً صغيرة خبيئة. وهناك استقبل الربيع ولاحظ أولى بوادره من على الكابيا: من تشقق الجليد على نهر درينا ثقيلاً أصم، إلى ذلك الدوي الذي يحس المرء أنه ينفذ إلى روعه، إلى تلك الهمهمة الضعيفة همهمة الريح الجديدة تترجع طوال الليل في الغابات العارية التي تكسو الجبال المتكاثفة في أعلى النهر.

كان الفتى يتولى الحراسة حين يجيء دوره، ويحس بأن الربيع الذي يتجلى من خلال الأرض والماء ينفذ فيه على مهل، ويغرقه، ويثير حواسه كلها ويسكر

أفكاره ويشوّشها، وكان أثناء الحراسة يترنم بأغنيات أوكرانية يغنيها الناس في بلاده، وكان وهو يغني يتراءى له يوماً بعد يوم من أيام الربيع هذه، إنه ينتظر أحداً في هذا المكان الذي تسفعه الرياح.

وفي أول شهر آذار (مارس) أرسلت القيادة تنبيهاً إلى المفرزة التي تتولى الحراسة على الجسر تأمرها فيه بأن تضاعف الانتباه، إذ تدل معلومات يوثق بها على أن قاطع الطريق المشهور جداً، ياكوف تشيكرليا، قد نزل من الهرسك إلى البوسنة، وأنه يختبئ الآن في مكان ما حول فيشيغراد، وأن من المحتمل جداً أن يحاول الوصول من هناك إلى الحدود الصربية أو التركية. وتلقى جنود الشترايفكوربس معلومات عن أوصاف تشيكرليا، كما تلقوا تنبيهاً إلى أن هذا اللص، رغم أنه قصير القامة وهيئته قميئة، فهو قوي بارع، ماكر إلى أبعد حدود المكر، وأنه خدع الدوريات عدة مرات بعد أن حاصرته، فاستطاع أن يفلت.

وسمع فيدون هذا التقرير، فأخذه مأخذ الجد، كسائر البلاغات الرسمية. ولكنه رأى فيه شيئاً من المبالغة: إنه لا يتخيل أن في وسع أحد أن يجتاز هذا الجسر الذي لا يزيد عرضه على عشر خطوات، من دون أن يلاحظه. وها هو ذا يقضي بضع ساعات من الليل والنهار على الكابيا، هادئاً لا يقلقه هم من الهموم. لقد ضاعف انتباهه حقاً، ولكن هذا الانتباه لم يكن متجهاً إلى احتمال ظهور ذلك الياكوف الذي لا يعرف أحد أين هو، وإنما كان هذا الانتباه غارقاً في تأمل تلك التبدلات والحوادث الطبيعية التي يتجلى بها الربيع على الكابيا.

ليس سهلاً على المرء أن يركّز انتباهه على شيء واحد بعينه، حين يكون في الثالثة والعشرين من عمره وحين يحس بنمل في جسمه كله، أمارة من أمارات القوة والحياة، وحين يهدر الربيع من كل جهة حوله، ويتلألأ، ويعطر. إن الثلج يذوب في الفجاج، والنهر تجري أمواجه سريعة شهباء كزجاج أدكن، والريح التي تهب من الشمال الغربي تحمل على أجنحتها أنفاس ثلوج الجبال وأول براعم الوادي. إن ذلك كله يسكر فيدون ويذهله عن نفسه وهو يذهب ويجيء من رصيف إلى رصيف في النهار، أو يستند بظهره إلى الجدار في الليل، ويمضي يترنم مع الريح بأغنياته الروسية الحبيبة. وفي الليل والنهار كلاهما كان لا يبارحه الشعور بأنه ينتظر أحداً، وهو شعور معذّب وعذب معاً، وكأنما يعزه كل ما يقع على الماء والأرض وفي السماء.

وفي ذات يوم، عند وقت الغداء، مرت قرب الحارس فتاة تركية. إنها في السن التي تسبق تحجّب بنات الأتراك، ولكنها السن التي لا يسمح لهاته البنات فيها أن يخرجن سافرات تماماً، وإنما هن يتلفعن بملاءة رقيقة تستر الجسم كله والذراعين والشعر والذقن والجبين. ولكنها تكشف عن جزء من الوجه هو العينان والأنف والفم والخدان. إن هذه السن هي الفترة القصيرة التي تقع بين الطفولة والمراهقة، فالفتاة التركية في هذه السن تكشف في براءة ومرح عن فتنة وجهها الذي لا يزال وجه طفلة، ولكنه مع ذلك وجه أنثى قد يحجبه الحجاب منذ الغد إلى الأبد.

لم يكن على الكابيا أحد. وكان يشترك في الحراسة مع فيدون رجل يقال له ستيفان برتشا، وهو فلاح من الفلاحين الذين انخرطوا في الشترايفكوربس. إن هذا الرجل المسن الذي لا يكره الخمرة، كان يجلس على الصوفا الحجر وسنان، خلافاً لما يقضي به النظام.

ألقى فيدون على الصبية نظرة حذرة خجلى. إن ملاءتها المتعددة الألوان تموج حولها وتتثنى وتلتمع في الشمس كأنها كائن حي، على هبوب الريح وإيقاع الخطى. ووجهها الوديع الجميل يحف به نسيج الملاءة مشدوداً حوله شداً محكماً واضحاً. وعيناها مسبلتان لكنهما خافقتان. هكذا مرت الفتاة قربه، وغابت في جهة مركز المدينة.

استمر الشاب يذهب ويجيء من رصيف إلى آخر. وكان ينظر دائماً إلى جهة ميدان السوق. إنه ليتراءى له الآن أنه ينتظر أحداً. وبعد نصف ساعة ـ والجسر لا يزال هادئاً في رابعة النهار ـ عادت الفتاة التركية من السوق، ومرت ثانية أمام الشاب المضطرب فنظر إليها هذه المرة نظرة أطول قليلاً وأجرأ قليلاً، فما كان أشد دهشته حين لاحظ أنها نظرت إليه هي أيضاً نظرة خاطفة سريعة، ولكن لا وجل فيها، وابتسمت ابتسامة ماكرة بعض المكر، لكنه مكر من ذلك المكر البريء الذي يعمد إليه الأطفال ليخادع بعضهم بعضاً في اللعب. وغابت مرة أخرى بمشيتها المتثنية وخطواتها البطيئة، مبتعدة رغم ذلك بسرعة، مع تموجات وحركات ملاءتها الواسعة التي تغطي قامتها الفتية على اكتناز، وظلت الزينات الشرقية والألوان القوية التي توشّي ملاءتها، ظلت ترى مدة طويلة بين البيوت على الضفة الثانية.

عندئذٍ ثاب الفتى إلى نفسه منتفضاً. إنه لا يزال في ذلك المكان نفسه، على ذلك الوضع نفسه، كما كان لحظة مرت قربه. فلما صحا هذا الصحو، تلمس بندقيته، ونظر حوله، وهو يشعر أنه غفل عن شيء ما. وكان ستيفان يغفو في أشعة الشمس الخداعة من شهر آذار(مارس). وأحس الفتى أنهما قد اقترفا كلاهما ذنباً وأن من الممكن أن تكون فئة من الجند قد مرت قربهما أثناء هذه المدة التي لا يستطيع أن يقدّر طولها، ولا أن يقدّر خطورتها بالنسبة إليه وبالنسبة إلى غيره. فخجل من نفسه، وأيقظ ستيفان في حماسة شديدة، واستمر الرجلان في الحراسة إلى أن انتهت نوبتهما.

ظل الفتى، طوال ذلك النهار، سواء أثناء فترات الراحة أو أثناء ساعات الحراسة، ظل يستعرض بخياله طيف الفتاة التركية يختال أمامه ذاهباً آيباً مرات لا تعد ولا تحصى. وفي الغداة، عند الظهر أيضاً، حين لا يحفل الجسر ولا يحفل السوق إلا بأقل عدد من الناس، اجتازت الفتاة الجسر مرةً أخرى في الواقع لا في الخيال. فنظر فيدون، من جديد إلى الوجه الذي يلفّه النسيج المتعدد الألوان، كأنما هو يشارك في لعبة لا يعرف قواعدها إلا نصف معرفة. وتم كل شيء على نحو ما تم أمس. غير أن النظرات كانت أطول، والابتسامات كانت أزخر بالحياة وأجرأ. وكأن ستيفان كان يشارك هو أيضاً في هذه اللعبة، فقد نام على المقعد الحجر من جديد، وإن حلف بعد ذلك، على عادته، أنه لم ينم، وأنه لا يغمض له جفن حتى في الليل. وكادت الفتاة في عودتها تقف، ورمت الجندي بنظرة في عينيه رأساً، فأسمعها كلمتين مضطربتين لا معنى لهما، بينما كان يحس بساقيه تترنحان تحته من فرط الانفعال، ناسياً أين هو كل النسيان.

إن المرء لا يندفع مثل هذا الاندفاع الجسور إلا في الأحلام. وحين غابت الفتاة من جديد في الضفة الثانية ارتعد الشاب خوفاً. إذ ليس يعقل أن تتجرأ فتاة تركية على أن تنظر إلى جندي نمسوي. إن هذا الشيء الذي لم يسمع به من قبل، ولا سبق أن وقع مثله، لا يمكن أن يحدث إلا في الحلم أو أثناء الربيع على الكابيا. والشاب يعلم حق العلم أنه لا شيء في هذه البلاد لمن كان في مثل وضعه، ادعى إلى الفضيحة وأشد خطراً من أن يمسّ امرأة مسلمة. لقد حدّثوه عن ذلك في الجيش، وحدثوه عنه في الشترايفكوربس. إن عقوبة هذه الجرائم عقوبة ثقيلة. حتى إن هناك رجالاً دفعوا حياتهم ثمن مثل هذه الجرائم،

إذ قتلهم الأتراك ثائرين حانقين من شدة محافظتهم على العرض الذي يجب ألا يثلم.

إنه يعرف ذلك كله، ويريد صادقاً مخلصاً أن يحافظ على النظام وأن يخضع للأوامر، وها هو ذا مع ذلك يفعل العكس تماماً. إن قوام شقاء الأشقياء من الرجال أن الأشياء المحرمة عليهم، التي لا سبيل لهم إلى الوصول إليها، تصبح سهلة المنال في لحظة من اللحظات (أو تبدو لهم كذلك) ثم تعود فتظهر على حقيقتها: عسيرة ممنوعة، ويجني عواقبها أولئك الذين مدوا إليها أيديهم رغم كل شيء.

ففي اليوم الثالث، عند الظهر، مرت الفتاة التركية من جديد. وكما يحدث في الأحلام، تمت الأمور كلها على ما تشتهي رغبة الفتى كأنها واقع وحيد يخضع له كل شيء: ستيفان نائم، على اقتناعه واستعداده الدائم لإقناع غيره بأنه لم يغمض له جفن، وما من أحد على الكابيا. ودمدم الفتى ببضع كلمات كما في المرة السابقة. وأبطأت الفتاة خطاها، وأجابته خائفة وجلة بكلمات لا تقل غموضاً عن كلماته.

واستمرت هذه اللعبة الخطرة التي لا يصدقها العقل. ففي اليوم الرابع، حين مرت الفتاة بعد أن ارتقبت لحظة ليس فيها على الكابيا أحد، توجهت إلى الشاب الملتهب حباً، فسألته هامسة عن موعد نوبته التالية في الحراسة. فأجابها بأنه سيكون على الكابيا مرة أخرى عند الغسق في موعد صلاة المغرب.

- سآخذ جدتي العجوز إلى مركز المدينة لتقضي الليلة هناك، وسأرجع وحدي.

بهذا همست الفتاة من دون أن تتوقف، ومن دون أن تدير رأسها، وإنما نظرت إليه نظرة بليغة من جانب. إن كل كلمة من هذه الكلمات العادية التي نطقت بها تدل على فرحها بأنها ستعود فتلقاه.

وبعد ست ساعات، كان فيدون على الكابيا مع صديقه الوسنان، مرة أخرى. إن هذا الغسق الطري الذي أعقب المطر يبدو له مليئاً بالوعود. وقَلَّ المارة شيئاً بعد شيء وظهرت الفتاة التركية على الطريق الآتي من أوسونيتسا، متدثرة بملاءتها التي أطفأ الغسق ألوانها. وإلى جانبها تسير عجوز تركية متقوسة الظهر، ملفعة بملاءة كثيفة. إنها من شدة انحنائها تكاد تمشي على أربع، مستندة بيدها اليمنى إلى عكازها، وبيدها اليسرى إلى ذراع الفتاة.

مرت الاثنتان قرب فيدون. وأبطأت الفتاة خطاها بحيث تساير الخطوات البطيئة، خطوات العجوز التي تجرها. كانت عيناها قد اتسعتا بظلال الظلمات الأولى، وهي الآن تثبت نظراتها بجرأة وصراحة في نظرات الفتى كأنها لا تستطيع منها فكاكاً. حتى إذا غابت المرأتان في المدينة، سرت في جسم الشاب رعدة قوية، وأخذ يذهب ويجيء من رصيف إلى آخر بخطى سريعة، كأنه يريد أن يستدرك ما فاته، وظل ينتظر عودة الفتاة بانفعال يشبه أن يكون خوفاً، وستيفان نائم.

تساءل الفتى:

- ما عساها قائلة لي حين تعود؟ وماذا أقول لها؟ ربما دعتني إلى اللقاء ليلاً في مكان ما.

وارتعش الشاب وهو يتصور الملذات والمخاطر التي تشتمل عليها هذه الفكرة.

انقضت على هذا الانتظار ساعة، ثم انقضى نصف ساعة أخرى، والفتاة لما تعد. غير أن في هذا الانتظار نفسه لذة عذبة. وهذه اللذة العذبة تزداد كلما ازدادت حلكة الظلام. وأنه لفي ذلك إذا بالحرس الذي يتولى الحراسة بعده يأتي قبل أن تعود الفتاة. والحرس في هذه المرة ليسا جنديين فحسب، بل جنديان معهما الرقيب دراجينوفتش نفسه. وتقدم هذا الرجل القاسي ذو اللحية القصيرة السوداء فأمر فيدون وستيفان بأن يذهبا إلى المنامة متى وصلا إلى الثكنة، وأن يبقيا فيها إلى أن يأتيهما أمر آخر. قال لهما ذلك بصوت خبيث حاد كريه. فتصور فيدون، على نحو غامض، بأنه قد ارتكب ذنباً ما، فشعر بالدم يصعد إلى رأسه.

إن المنامة الواسعة الباردة التي يصطف فيها اثنا عشر سريراً، كانت فارغة. فالرجال لا يزالون في المدينة، أو هم في المطعم يتناولون طعام العشاء. وانتظر فيدون وستيفان على قلق وصبر نافد، يفكران ويحاولان أن يحزرا السبب الذي من أجله حجزهما الرقيب بهذه اللهجة القاسية على هذا النحو المباغت. وبعد ساعة، حين أخذ الجنود يتوافدون للنوم، دخل أحد العرفاء مقطب الحاجبين، فأمرهما بصوت عال خشن أن يتبعاه. فأحسا من هذه القرائن بأن الخشونة في معاملتهما تزداد، وأن ذلك كله لا يبشر بخير. وما أن خرجا من المنامة حتى فُصِل أحدهما عن الآخر، تمهيداً لاستجوابهما.

إن الليل يتقدم. وشيئاً فشيئاً جاءت الساعات التي ينطفئ فيها آخر نور بالمدينة، غير أن نوافذ الثكنة لا تزال مضاءة. ومن حين إلى حين، يسمع جرس باب الدخول، وتسمع قرقعة المفاتيح، ويسمع صرير الأبواب الثقيلة. والجنود من أتباع الضباط يصلون ثم يذهبون، ويجوبون المدينة المظلمة النائمة مسرعين، ويتنقلون كالمكوك بين الثكنة ومقر القيادة في الطابق الأول الذي لا تزال مصابيحه مشتعلة أيضاً. إن المرء يستطيع من هذه القرائن الخارجية وحدها أن يقدر أن حادثاً غير مألوف قد وقع في المدينة.

وحين اقتيد فيدون، في نحو الساعة الحادية عشرة، إلى مكتب الضابط المقدم كان يحس بأن ما حدث على الكابيا قد انقضت عليه الآن أيام بل أسابيع. إن على المنضدة مصباحاً معدنياً من المصابيح التي وقودها الزيت، يعلوه حاجز من خزف أخضر يُسقط النور إلى تحت. وإلى هذه المنضدة يجلس الضابط المقدم كرتشمار. إن نور المصباح يضيء ذراعيه حتى الكوعين، بينما جذعه ورأسه غارقان في الظل الذي يتشكل من وجود الحاجز الأخضر. إن الشاب يعرف هذا الوجه الأصفر المكتنز الذي يشبه أن يكون وجه امرأة، هذا الوجه الأصلت الأمرد ذا الشاربين الصغيرين اللذين لا تكاد تبصرهما العين، هذا الوجه ذا العينين الشهباوين اللتين تحف بهما أخاديد مظلمة كالدوائر المنتظمة. إن جميع الجنود يخافون هذا الضابط البدين الهادئ، البطيء الكلام، الثقيل الحركات، يخافونه خوفهم من النار. وما أقل الرجال الذين يستطيعون يصمدوا مدة طويلة لنظرات هاتين العينين الشهباوين، ويستطيعون ألا يتأتئوا حين يجيبون عن أسئلته التي ينطق بكل كلمة من كلماتها نطقاً هادئاً، منفصلاً، واضحاً، متميزاً من أول حرف إلى آخر حرف، كما في المدرسة أو على المسرح. وإلى جانبه جلس الرقيب دراجينوفتش. أن جسمه غارق في الليل هو أيضاً، فما ترى منه إلا يداه وقد سقط عليهما نور قوي، وهما يدان مشعرتان متدليتان على استرخاء، وفي إحداهما يسطع خاتم ثقيل من ذهب.

بدأ دراجينوفتش الاستجواب، قال:

- قل لنا كيف قضيت الوقت بين الساعة الخامسة والساعة السابعة، حين كنت أنت والجندي المساعد من جنود الشترايفكوربس: ستيفان كالاتسان، تتوليان الحراسة على الكابيا.

أحس فيدون بالدم يصعد إلى وجهه. أن كل إنسان يقضي وقته على ما يحب ويستطيع، وما من أحد يخطر بباله أنه سيسأل عن ذلك أمام محكمة قاسية تطلب إليه أن يروي كل ما حدث حتى أدق التفاصيل وحتى أخفى المشاعر من أول لحظة إلى آخر لحظة. ما من أحد يخطر بباله ذلك، وخاصةً شاب في الثالثة والعشرين من عمره قضى تلك الساعات من ساعات الربيع على الكابيا. بماذا يجيب؟ إن هاتين الساعتين من ساعات الحراسة قد قضاهما كما يقضي غيرهما من الساعات في كل يوم.. كأمس وكأول أمس.. ولكنه في هذه اللحظة لا يتذكر شيئاً من الأشياء المألوفة التي تقع كل يوم مما يمكن أن يجيب به، وإنما هو يتذكر أموراً أخرى محرمة تقع لكل إنسان في العالم، ولكن المرء لا يستطيع أن يبوح بها لرؤسائه، وهي أن ستيفان قد نام قليلاً على عادته، بينما تبادل، هو، بضع كلمات مع فتاة تركية لا يعرفها، وأنه عند هبوط الليل قد دندن في حنان وحماسة جميع أغاني بلاده بانتظار عودة الفتاة.. وهي عودة كانت ستحمل إليه شيئاً مثيراً غير مألوف. آه ما أصعب الإجابة!.. إنه ليستحيل عليه أن يقول كل شيء، ولكنه لا يستطيع أن يظل صامتاً.. وعليه أن يسرع، فالوقت يمضي، واضطرابه وحرجه في ازدياد.. لم يعرف فيدون كم طال صمته..

ـ نعم...

كذلك قال الضابط المقدم. إن جميع الناس يعرفون هذه «النعم» الواضحة المدوية، القوية، التي تشبه صوت آلة ضخمة معقدة أُحْسِنَ تزييتها.

وأخذ فيدون يدمدم بسرعة وارتباك منذ البداية، كمجرم.

وتقدم الليل، غير أن المصابيح لم تنطفئ لا في الثكنة ولا في مقر القيادة. وتعاقبت الاستجوابات، والمحاضر، والمواجهات. واستجوب جنود آخرون ممن تولوا الحراسة على الكابيا في ذلك اليوم نفسه، بل جيء أيضاً ببعض المارة الذين اجتازوا الجسر في ذلك اليوم. كانت الدائرة تدور حول فيدون وستيفان وحول المرأة التركية العجوز التي قادتها على الجسر فتاة صغيرة.

كان يبدو للشاب أن على رأسه تقع جميع التبعات الشيطانية المستغلقة التي نجمت عن أحلامه، وعند الفجر ووجه بستيفان. كان الفلاح يطرف عينيه في مكر ويتكلم بطريقة مصطنعة، وصوت مفتعل، وما ينفك يؤكد أنه فلاح أمي لا يقرأ

ولا يكتب، وأنه يعتمد في كل شيء على هذا «السيد فيدون» (كذلك كان يسمي رفيقه في الحراسة دائماً).

قال الفتى لنفسه: هكذا يجب أن تكون الإجابة. وكانت معدته تصرخ من الجوع، وكان يرتعد من فرط الانفعال، رغم أنه لم يدرك إلى الآن إدراكاً واضحاً ما هي المسألة على وجه الدقة، وما هو الإهمال الذي ارتكبه، وما هو الجرم الذي اقترفه. غير أن الصباح أوضح الأمر إيضاحاً كاملاً.

ظلت هذه الحلقة العجيبة تدور طوال الليل، وفي مركزها ذلك الضابط البارد الذي لا يرحم. كان الضابط ساكناً صامتاً وحده، ولكنه لا يدع لأحد أن يهدأ وأن يصمت. إنه بسلوكه ومظهره لا يشبه كائناً إنسانياً وإنما يشبه تجسد الواجب، يشبه كاهناً مخيفاً من كهنة العدالة، لا سبيل لأنواع الضعف وللعواطف إلى قلبه، أوتي قوة فوق قوة البشر، وخلا من حاجة الإنسان إلى الطعام والنوم والراحة. وحين طلع النهار جيء بفيدون مرة ثانية إلى الضابط المقدم. إن في المكتب الآن عدا المقدم وعدا دراجينوفتش، جنديا مسلحاً من جنود الدرك وامرأة خيل إلى الشاب في أول الأمر أن وجودها ليس واقعياً. كان المصباح قد اطفئ والغرفة المعرضة للشمال باردة، وتشبه أن تكون في ظلمة. أحس الشاب بأن حلمه المضطرب الذي رآه في الليل يتتابع الآن ويأبى أن يتبدد وأن يزول حتى في وضح النهار.

سأل دراجينوفتش المرأة:

ـ أهذا هو الجندي الذي كان يحرس الجسر؟

عندئذٍ بذل فيدون جهداً أليماً ونظر إلى المرأة في انتباه. إنها تلك الفتاة المسلمة التي رآها في الليلة البارحة، غير أنها الآن بلا ملاءة، عارية الرأس، لا تكاد تستقر ضفائر شعرها الكثيفة السمراء على رأسها. إنها ترتدي سروالاً تركياً متعدد الألوان، غير أن ملابسها الأخرى، القميص والحزام والصديرة، كملابس الفتيات الصربيات في السهل الأعلى فوق المدينة. وهي تبدو من دون الملاءة أكبر سناً وأكثر سمنة. لقد تغير وجهها تغيراً تاماً، فمها واسع شرير، وجفناها محمران، وعيناها ساطعتان مضيئتان ذهبت منهما الظلال التي كانت تظللهما بالأمس.

ـ نعم.

قالت ذلك بلهجة قاسية غير مبالية ظهرت لفيدون جديدة غير مألوفة كسائر مظهر هذه المرأة الآن.

واستمر دراجينوفتش يستجوبها: كيف اجتازت الجسر؟ كم مرة اجتازته؟ ماذا قالت لفيدون؟ ماذا قال لها فيدون؟ فكانت تجيب إجابات صحيحة بوجه عام، ولكن بإهمال وغطرسة.

- يالنكا، ماذا قال لك آخر مرة حين عبرت الجسر؟

- قال بعض الكلام، ولكنني لا أعرف ماذا قال على وجه الدقة، لأنني لم أصغ إليه، وإنما كنت أفكر في الوسائل التي تمكنني من تهريب ياكوف.

- في هذا كنت تفكرين؟

- في هذا.

كذلك أجابت المرأة على مضض، وكان واضحاً أنها مرهقة، وأنها لا تريد أن تقول أكثر مما يجب أن تقول. غير أن الرقيب أصرّ، وطلب إليها بصوت ينم عن التهديد وعن رغبته في الإجابة الصريحة، أن تكرر ما قالته أثناء الاستجواب الأول في مقر القيادة.

فكانت تمانع، وتوجز في الكلام، وتغفل بعض الفقرات من تصريحاتها السابقة، ولكنه كان يوقفها في كل مرة، ويضطرها بأسئلته البارعة اللاذعة أن تعود إلى وراء.

وشيئاً فشيئاً ظهرت الحقيقة كلها واضحة. إن اسمها يالنكا وهي من أسرة تازتش في منطقة ليسكا العليا. وقد وصل إلى هذه المنطقة في الخريف الماضي «الحيدوق» تشيكرليا، وقضى فيها الشتاء مختبئاً في اسطبل بأعلى القرية. وكان يؤتى إليه بالطعام وبغيار الملابس من بيتها. وكانت هي التي تُكلَّف بذلك في أكثر الأحيان. فأحب كل منهما الآخر، وأصبحا خطيبين. حتى إذا أخذ الثلج يذوب وزادت ملاحقات الشترايفكوربس قرر ياكوف أن ينتقل إلى الصرب مهما يكلف الأمر. إن عبور نهر درينا في تلك الفترة من السنة صعب حتى حين لا يكون مخفوراً فكيف وعليه حراسة دائمة. وقرر أن يجتاز الجسر، وتخيل خطة لمخادعة الحرس، وعزمت هي على أن تساعده، ولو دفعت حياتها ثمناً لذلك، فرافقته. نزلا في أول الأمر إلى ليسكا، ثم إلى مغارة فوق أوكولشته. وكان ياكوف قد حصل قبل ذلك عند نهر غلاسيناتس على ثياب نسوية تركية من الغجر: ملاءة

وسروال وحزام وأخذت تجتاز الجسر وفقاً لتعلمياته في الأوقات التي لا يؤم الجسر فيها أتراك كثيرون، حتى لا يتساءل أحد منهم عن هذه الفتاة المجهولة، وحتى يألف الحرس رؤيتها. وهكذا عبرت الجسر ثلاثة أيام متتالية وقررت أن تمر ومعها ياكوف.

ـ ولماذا جعلت مروره في اللحظة التي كان فيها هذا الجندي بحرس الجسر؟

ـ لأنه بدا لي أضعفهم؟

ـ لهذا السبب؟

ـ نعم.

استمرت المرأة تروي القصة بإلحاح من الرقيب. قالت إن ياكوف تدثر بملاءته بعد أن أعدت الأمور على هذا النحو، فقادته إلى الجسر عند أول هبوط الظلام كأنها تقود جدتها العجوز، ومرت معه قرب الحارسين فلم يلاحظا شيئاً، لأن فيدون كان ينظر إلى الفتاة لا إلى المرأة العجوز، ولأن رفيقه الذي يكبره سناً كان جالساً على الصوفا وكأنه نائم.

فلما وصلا إلى السوق لم يجتازا مركز المدينة رأساً بل سلكا طرقاً صغيرة جانبية على سبيل الحيطة والحذر. وهذا ما كشف أمرهما. ذلك أنهما ضلا في المدينة التي لا يعرفانها، فبدلاً من أن يصلا إلى جسر رزاف ليبلغا الطريق المفضي إلى الحدود، وجدا نفسيهما أمام مقهى تركي كان يخرج منه في تلك اللحظة عدد من الرجال. وكان بين هؤلاء الرجال جندي تركي من جنود الدرك هو من سكان المدينة، فاشتبه في أمر المرأة العجوز المحجبة التي تقودها فتاة لم يسبق له أن رآها، فأخذ يتعقبهما وظل يرافقها على هذا النحو إلى أن وصلا إلى رزاف، وهناك اقترب منهما ليسألهما من هما، وإلى أين تذهبان، وكان ياكوف يتابع حركاته بانتباه من خلال الحجاب الذي يغطي وجهه، فاعتقد أن لحظة الهرب قد وافت، فرمى الحجاب، ودفع الدركي بيالنكا دفعة قوية ففقدا التوازن كلاهما (ذلك أنه صغير قصير القامة لكنه قوي كالأرض، وليس قلبه كقلوب سائر الرجال). أما هي فقد تشبثت بساقي الدركي (اعترفت بذلك صادقة في هدوء) وبينما كان الدركي يحاول أن يتملص منها، كان ياكوف قد اجتاز رزاف كما يجتاز بركة صغيرة، رغم أن الماء وصل إلى ما فوق ركبتيه، وغاب على الضفة الثانية في غابة من غابات الصفصاف، واقتيدت هي إلى مقر القيادة، فضربت

وهددت ولكنها لم تقل شيئاً، ولم تشأ أن تقول شيئاً.

عبثاً حاول الرقيب، بأسئلة غير مباشرة وبملاطفات وتهديدات، أن يستدرجها إلى ذكر شيء آخر، ليعرف الأعوان والشركاء، وليعرف ما ينويه ياكوف في المستقبل. فلم تؤثر فيها هذه المحاولات كلها أي تأثير. إنها تقول أشياء كثيرة في النقاط التي ترضى أن تتحدث عنها. أما النقاط التي كانت لا تريد أن تتحدث عنها فلم يمكن استدراجها إلى قول كلمة واحدة بصددها، رغم إلحاح دراجينوفتش.

ـ قولي كل ما تعرفينه، فهذا خير من أن يعذب ياكوف الذي لا شك أنه قبض عليه الآن عند الحدود.

ـ قبض على من؟ عليه؟ هه!..

قالت الفتاة ذلك ونظرت إلى الرقيب نظرة إشفاق، نظرتها إلى رجل لا يعرف ماذا يقول، ورفعت الزاوية اليمنى من شفتها العليا احتقاراً. كانت حركات هذه الشفة العليا التي تشبه علقة منقبضة، تعبّر عن مشاعر الغضب أو الاحتقار أو الوقاحة، كما أصبحت هذه المشاعر أقوى من أن تعبّر عنها الكلمات التي تستعملها.

وكانت هذه الحركة المتشنجة تضفي على وجهها كله في تلك اللحظات معنى مزعجاً كريهاً، رغم أن هذا الوجه جميل منسق القسمات في ما عدا تلك اللحظات.

ونظرت من خلال النافذة نظرة طفلية مأخوذة، تتعارض كل التعارض مع تلك الحركة التشنجية الدميمة من شفتها العليا كأنها فلاح ينظر إلى حقله المزروع ليعرف تأثير الجو في بذاره.

ـ في أمان الله. ها قد طلع النهار. لا شك أنه في هذه الفترة الممتدة من مساء أمس إلى هذه الساعة قد اجتاز البوسنة كلها، لا الحدود فحسب، وهي لا تبعد عن هذا المكان إلا مسير ساعتين، إنني على يقين من هذا. وفي وسعكم أن تضربوني وأن تقتلوني، من أجل هذا إنما ذهبت معه. أما هو فلن تروه أبداً. ومن العبث أن تفكروا في ذلك.. آ..

وتقبصت شفتها العليا، وارتفعت عند الجهة اليمنى، فإذا بوجهها يصبح على حين فجأة هرماً متغطرساً دميماً. حتى إذا عادت هذه الشفة فاسترخت وانخفضت استرد وجهها تعبيره الطفولي وشاع فيه لطف جسور على غير شعور.

ولم يعرف دراجينوفتش ماذا يفعل بعد ذلك، فنظر إلى الضابط المقدم، فأومأ إليه بإعادة الفتاة. ثم بدئ استجواب فيدون. فاعترف الشاب بكل شيء، ولم يقدم شيئاً في الدفاع عن نفسه، حتى ولا ما كان يوحي به إليه دراجينوفتش عامداً من خلال أسئلته. ولم تستطع كلمات الضابط المقدم التي كانت تنم عن ألم كظيم بسبب خطورة الموقف، وتدين الفتى إدانة لا راد لها ولا رحمة فيها، لم تستطع هذه الكلمات أن تخرج الفتى عن ذهوله وخدره. وقال له كرتشمار باللغة الألمانية:

ـ كنت أعدك شاباً رصيناً، شاعراً بواجباته، عارفاً بهدفه في الحياة، وكنت أقدر أنك ستصبح في يوم من الأيام جندياً كامل الرجولة تفخر بك مفرزتنا. وها أنت ذا وقعت في غرام صبياني أعماك عن كل شيء، وتهالكت أمام أول أنثى مرت بك. لقد سلكت سلوك رجل رخو ضعيف، سلوك رجل لا يمكن أن يعهد إليه بأي مهمة جدية. ولا بد من أحالتك إلى القضاء. ولكن مهما يكن حكم القضاء، فعقابك الأكبر هو أنك لم تبرهن على جدارتك بالثقة التي أوليتها، ولم تستطع أن تظل في مركزك رجلاً وجندياً. والآن اذهب.

إن هذه الكلمات الهادئة، المتبرمة، الموزونة، لم تحمل إلى ضمير الفتى شيئاً جديداً. لقد كان يشعر بهذا كله من قبل أن يقال له. إن ظهور هذه المرأة، خليلة الحيدوق، والكلام الذي قالته، وسلوك ستيفان، ومجرى هذا التحقيق القصير، كل ذلك قد دله فجأة على أن سلوكه على الكابيا كان لعباً من ألعاب الربيع طائشاً ساذجاً لا يغتفر. ولم تكن كلمات الضابط المقدم إلا تأييداً رسمياً لصحة ذلك كله. والضابط المقدم أحوج إلى قول تلك الكلمات من حاجة فيدون إلى سماعها، وذلك وفاء ببعض الواجبات التي لم ينص عليها كتابة، ولكنها قواعد خالدة من قواعد القانون والنظام. كان الشاب يحس بما يحس به المرء أمام مشهد عظيم ليس لعظمته مثيل، كان يحس بأنه إزاء اكتشاف لا تستطيع عيناه أن تدركا كل آماده، هو ما يترتب من نتائج خطيرة على بضع لحظات من غفلة في وقت سيئ ومركز خطر. فلو أن تلك اللحظات انقضت هنالك على الكابيا وظلت مجهولة، لما كان لها أي شأن ولما كانت إلا مغامرة من تلك المغامرات الصغيرة التي يقوم بها الشباب ويرويها بعضهم لبعض في ساعات الحراسة المملة أثناء الليل. ولكن لهذه اللحظات قيمة حاسمة حين تقدر على أساس التبعات

المحسوسة الملموسة. إنها عندئذٍ كالموت، تعني نهاية كل شيء، والنهاية ها هنا حقيرة وضيعة. ولن يستطيع بعد الآن أن يبرئ نفسه تبرئة كاملة صحيحة لا أمام نفسه ولا أمام غيره. ولن يتلقى بعد الآن رسائل من كولوبيا، ولن يستقبل صوراً من أهله، ولن يرسل حوالة من تلك الحوالات البريدية التي كان يرسلها إلى بيته في كثير من الفخر والاعتزاز. هذه نهاية رجل خدع نفسه وأتاح لغيره أن يخدعه.

لذلك كله لم يجد فيدون كلمة يجيب بها على كلام الضابط المقدم.

المراقبة التي فرضت على فيدون لم تكن بالمراقبة القاسية. وقُدِّم إليه طعام الفطور، فأكله بفم غير فمه إن صح التعبير. ثم أُمر بأن يهيئ أمتعته، وأن يردّ سلاحه والأشياء المتعلقة بالخدمة. وكان عليه أن يركب عربة البريد في الساعة العاشرة يصحبه رجل من رجال الدرك، متجهاً إلى سارايفو، ليمثل أمام محكمة الحامية.

بينما كان الفتى يرفع أمتعته عن الرف فوق سريره، خرج رفاقه القلائل الذين كانوا لا يزالون في ثياب النوم، خرجوا على رؤوس الأصابع، وأغلقوا الباب وراءهم على حذر وفي غير ضوضاء. إن تلك الدائرة من العزلة والصمت الثقيل، التي تنشأ حول إنسان نزل به الشقاء كما تنشأ حول حيوان مريض، هذه الدائرة كانت تتسع حول فيدون. انتزع في أول الأمر تلك اللوحة السوداء التي كتب عليها بالألمانية اسمه ورتبته ورقم مفرزته ووحدته، فوضع اللوحة على ركبته موجهاً وجهها المكتوب إلى الأرض، ثم أسرع فكتب بالطبشور على ظهرها الأسود بضعة أحرف: «أرجو إرسال كل ما يبقى بعدي إلى أبي في كولوبيا. أحيي جميع الرفاق، وأطلب الصفح من رؤسائي: ج. فيدون».

ثم ألقى نظرة أخرى من خلال النافذة، وعانق بعينيه كل ما يمكن أن يرى من هذا العالم في ثانية واحدة من زاوية ضيقة كل هذا الضيق. وبعد ذلك أنزل بندقيته فحشاها برصاصة ثقيلة مزيتة ثم خلع جوربه وجاء بموسى فثقب الجورب في موضع الإبهام من القدم اليمنى، واستلقى على سريره، قابضاً على بندقيته بيديه وركبتيه بحيث تستند فوهة البندقية إلى ما تحت الذقن، ووضع قدمه بحيث يستطيع الإبهام أن يشد الزناد، وأطلق الرصاص، فدوى صوت الانفجار في الثكنة كلها.

أصبح كل شيء سهلاً وبسيطاً بعد هذا القرار الضخم. وصل الطبيب، وأثبتت

الوفاة رسمياً. وأضيف محضر الانتحار إلى وثائق الاستجواب.

ثم جاءت مسألة الدفن. أُمر دراجينوفتش بأن يذهب إلى القس نيقولا وأن يباحثه في الأمر: هل يمكن دفن فيدون في المقبرة، رغم أنه مات منتحراً؟ هل يوافق القس نيقولا على أن يصلي على ميت من ملة مسيحية أخرى؟..

ولكن القس نيقولا كان في تلك السنة الأخيرة قد هرم فجأة، وبدأ يشعر بضعف في ساقيه. لذلك اتخذ له في هذه الأبرشية الكبيرة مساعداً هو القس يوسو. إن القس يوسو رجل صموت ولكنه مضطرب كثير الحركة، نحيل أسود كجذوة منطفئة. كان في هذه الأشهر الأخيرة قد تولى القيام بجميع الأعمال الكهنوتية والاحتفالات الدينية في المدينة والقرى، بينما أصبح القس نيقولا لا يقوم إلا بما يستطيع القيام به دون أن يبارح بيته، أو الكنيسة القريبة كل القرب من هذا البيت.

ذهب دراجينوفتش إلى القس نيقولا عملاً بأوامر الضابط المقدم. فاستقبله الشيخ الوقور مستلقياً على السرير الذي يرتاح عليه وإلى جانبه القس يوسو. فلما بسط له دراجينوفتش قضية موت فيدون وقضية دفنه، ظل القسان صامتين بعض الوقت. وإذ لاحظ يوسو أن نيقولا لا يتكلم، بدأ هو الكلام. فقال بصوت غامض وجل: إن هذه القضية أمر استثنائي غير مألوف، وهي تتعارض مع القواعد الكهنوتية ومع الأعراف المقدسة، ولا يمكن القيام بأي شيء ما لم يثبت الدليل القاطع أن المنتحر لم يكن مالكاً لقواه العقلية حين انتحر.

ولكن القس نيقولا نهض عندئذٍ عن مرقده الصلب الضيق المغطى بسجادة عتيقة مهترئة، وظهر جسمه التمثالي كما كان يظهر دائماً حين كان يجتاز مركز المدينة فيحييه الناس هنالك من يمين ومن شمال. ومنذ أول كلمة قالها أشرق وجهه العريض الذي لا يزال بلون الأرجوان، وجهه ذو الشاربين الغارقين في لحيته، والحاجبين الكثيفين الأشعثين اللذين اختلطت فيهما الحمرة بالبياض.. منذ أول كلمة قالها أشرق هذا الوجه الذي تدرك إذ تراه أنه وجه رجل تعلم منذ ولد أن يفكر تفكيراً مستقلاً، وأن يعبر عن تفكيره تعبيراً صادقاً، وأن يدافع عنه دفاعاً قوياً.

نهض القس نيقولا وقال: يوجه الكلام إلى القس يوسو وإلى الرقيب دراجينوفتش من دون تردد، ومن دون كلمات طنانة رنانة..

ـ حين تقع كارثة من الكوارث، لا يبقى هناك ما يجب أن يقوم عليه الدليل.

لا أحد يقتل نفسه وهو مالك قواه العقلية. ومن ذا الذي يستطيع تحمل تبعة دفنه، كإنسان كافر، في مكان ما وراء سياج ما، من دون كاهن؟ إذهب أيها السيد عافاك الله، واعمل على إعداد الميت لنتولى دفنه بأقصى سرعة ممكنة. وسندفنه في المقبرة، لا في غيرها. سأصلي عليه. فإذا وجد في المستقبل قس من ملته، فليضف ما يريد إضافته، أو فليصحح ما يريد تصحيحه إن هو رأى أن هناك أموراً لم تعمل على الوجه الصحيح.

وحين خرج دراجينوفتش، التفت القس نيقولا مرةً أخرى إلى القس يوسو الذي اضطرب ودهش، فقال له..

ـ كيف أحرم مسيحي من أن يدفن في المقبرة؟ ولماذا أرفض أن أصلي عليه؟ يكفيه أن حظه كان سيئاً في هذه الحياة. أما في الآخرة فسيحاسبه على خطاياه من سيحاسبنا جميعاً على خطايانا نحن أيضاً.

وهكذا فإن الشاب الذي ارتكب خطيئة على الكابيا، ظل في المدينة إلى الأبد، فقد دفن في صباح اليوم التالي، بعد أن صلى عليه القس نيقولا العجوز يساعده القندلفت ديمتري.

مر جنود الشترايفكوربس أمام حفرة القبر واحداً واحداً، وأهال فيها كل منهم قبضة من تراب ناعم، وأتم اثنان من الحفارين عملهما بسرعة. وظلا واقفين حول القبر بضع لحظات كأنهما ينتظران أمراً من الأوامر، وهما ينظران إلى عمود مستقيم من الدخان الأبيض يتصاعد على الضفة الأخرى من النهر قرب الثكنة.. فهنالك كان يحرق فراش القش الملطخ بالدماء، فراش فيدون.

هذه الضربة القاسية من ضربات القدر، التي ذهبت بالجندي الشباب الذي أصبح لا يعرف أحد اسمه، والذي دفع حياته ثمناً للحظات من الغفلة والهيجان على الكابيا، أخذت مكانها بين الأحداث التي ظل أهل المدينة مدة طويلة يتذكرونها في تأثر ويتحدثون عنها أحياناً كثيرة. إن ذكرى الشاب الحساس السيئ الحظ قد بقيت مدة أطول من مدة بقاء الحرس على الكابيا.

وأحبطت ثورة الهرسك في الخريف التالي. وفرّ عدد من الزعماء المعروفين من المسلمين والصربيين إلى الجبل الأسود أو إلى تركيا. وظل في هذه البقاع عدد من قطاع الطرق الذين لم يكن لهم في حقيقة الأمر أي صلة بالثورة التي دفع إليها التجنيد، وإنما كانوا أناساً يقومون بأعمال النهب والسلب لأنفسهم. ثم

قبض على هؤلاء أيضاً واحداً بعد واحد، أو فُرقوا وبُعثروا حتى ساد الهدوء في الهرسك. وقدمت البوسة المجندين بلا مقاومة. غير أن رحيل أولى قوافل الجنود من الشباب لم يكن سهلاً ولا بسيطاً.

لم تجد السلطات من المديرية كلها إلا زهاء مائة شاب، ولكن اليوم الذي جمع فيه هؤلاء الشباب أمام مقر القيادة (الفلاحون منهم يحملون الأكياس والمدنيون يحملون حقائب من خشب) كان يتراءى للمرء فيه أن في المدينة وباءً أو نفيراً. إن كثيراً من المجندين قد أسرفوا في الشراب منذ الصباح الباكر، مازجين خمراً بخمر. الفلاحون منهم يرتدون جميعاً قمصاناً بيضاء نظيفة. قليلون أولئك الذين لم يشربوا بل ظلوا جالسين بين أمتعتهم مسندين ظهورهم إلى الجدران وقد استبد بهم النعاس. معظمهم مهتاجون، يضجّون ويصخبون من تأثير الشراب، وأجسامهم تنضح بالعرق من حرارة النهار. أربعة أو خمسة من قرية واحدة يتماسكون بالأكتاف ويتقابلون بالرؤوس ويترنّحون ترنّح شجيرات متحركة، ويصدحون بأغنيتهم البطيئة الغليظة، كأنهم وحيدون في العالم: «أووو.. يا بنت.. يا بنت.. أووو...». إنهم يحدثون شيئاً من الفوضى.

ولكن ذلك لا يعد شيئاً إذا قيس بالفوران الذي تسببه النساء أمهات هؤلاء الشباب وأخواتهم وقريباتهم، اللاتي جئن من قرى بعيدة ليصحبنهم وليرينهم مرة أخرى، وليبكين وينتحبن من أعماق قلوبهن، وليقدمن إليهم أثناء الطريق فطيرة أخيرة من الحلوى.

كان ميدان السوق يعج بجنس النساء. إنهن جالسات في جمود كأنهم ينتظرن صدور حكم، وهن يتبادلن بعض الحديث من حين إلى حين، ويجفّفن دموعهن بأطراف مناديل الوجوه. عبثاً أعلن قبل ذلك في القرى أن هؤلاء الشباب لا يؤخذون لا إلى حرب ولا أعمال شاقة، وإنما هم يذهبون إلى فيينا لخدمة الإمبراطور، وأنهم سيأكلون هناك أطيب الطعام، وسيرتدون أحسن الملابس، وسينتعلون أجود الأحذية وأنهم سيعودون إلى بيوتهم بعد خدمة سنتين، وأن شباب جميع المناطق الأخرى من الإمبراطورية يقومون بخدمتهم العسكرية أيضاً، وأن خدمة هؤلاء تدوم ثلاث سنوات لا سنتين. عبثاً أعلن هذا كله. فلقد كانت جميع هذه الإيضاحات تمر إلى جانب هذه النسوة مرّ النسيم، كشيء لا يعنيهن ولا يفهمنه البتة. كن لا يصغين إلا إلى صوت غرائزهن التي تنفرد بتوجيههن

وكانت هذه الغرائز القديمة الموروثة تصعد بالدموع إلى عيونهن، وتحرك النحيب في صدورهن، وتدفعهن إلى الإصرار على أن يرافقن هؤلاء الشباب الذين يحببنهم أكثر مما يحببن حياتهن نفسها، على أن يرافقنهم ما استطعن إلى مرافقتهم سبيلاً، وعلى أن يشيّعنهم بنظرة أخيرة.. هؤلاء الشباب الذين يسوقهم امبراطور مجهول إلى بلاد مجهولة، لأعمال لا يعرفن عنها شيئاً. وعبثاً يطوف بينهن الآن رجال من الدرك والموظفين بالقيادة العامة، ليؤكدوا لهن أنه ما من داعٍ إلى هذا الحزن الشديد كله، لينصحونهن بألا يعرقلن المرور، وبألا يركضن وراء المجندين، وبألا يحدثن فوضى واضطراباً، لأن هؤلاء الشباب جميعاً سيعودون إليهن على خير حال من السلامة والعافية. عبثاً كان كل ذلك. إن النساء يصغين إليهم، ويؤمن على كلامهم بنظرة متبلدة مطواعة، ولكنهن ما يلبثن ينفجرن باكيات، وأن ينتحبن انتحاباً ممزقاً. كان يبدو أنهن يحببن دموعهن وانتحاباتهن كما يحببن هؤلاء الشباب الذين يبكينهم.

فلما حان وقت المسير، واصطف الشباب على عادة الاصطفاف أربعاً أربعاً، واجتازوا الجسر، حدث من البلبلة ومن الركض ما لم يستطع معه أهدأ رجال الدرك أن يحافظ على رشده. النساء يجرين، وينتزعن أنفسهن من بين أيدي رجال الدرك لتسير كل واحدة منهن إلى جانب حبيبها الغالي، ويصطدم بعضهن ببعض، ويسقطن على الأرض، وتختلط صيحاتهن بالنداءات، والضراعات، والتوصيات الأخيرة. وركض بعضهن، حتى جاوزن قافلة المجندين التي يتقدمها أربعة من رجال الدرك مصطفين، فانبطحن أمام أقدامهم وهن يضربن صدورهن المكشوفة ويصرخن: «على جسمي على جسمي».

فكان الرجال يُنْهِضونهن بغير قليل من العناء ويخلصون أحذيتهم ومهاميزهم من شعورهن المشعثة وملابسهن المنفوشة، في رفق وحيطة.

وخجل بعض الشباب من هذا الوضع فصاروا ينهرون النساء بحركات حانقة ويهيبون بهن أن يرجعن إلى بيوتهن، ولكن أكثر المجندين كانوا يغنون أو يطلقون صرخات قصيرة، فكان ذلك يفاقم الجلبة والضوضاء. وأخذ بعض سكان المدينة ينشدون معاً على طريقة أهل المدينة هذا النشيد، وقد شحبت وجوههم من فرط الانفعال:

في سارايفو والبوسنة

كل أم حزينة
من فراق ابنها
الذي بُعِثَ إلى الإمبراطور مجنداً.

وجاء هذا الغناء فجعل البكاء أقوى وأشد.

حتى إذا اجتازت القافلة الجسر على نحو من الإنحاء، بعد أن تعطل سيرها عليه مدة من الزمن، ثم سلكت الطريق المفضي إلى سارايفو كان ينتظرها هنالك أهل المدينة على الصفَّين، وقد خرجوا لتشييع المجندين والبكاء عليهم كأنهم ذاهبون إلى الإعدام. وكان هناك عدد كبير من النساء: يبكين جميعاً بلا استثناء، رغم أنه ليست بينهن واحدة تمت بصلة القربى إلى أحد من المجندين الراحلين. وإنما كن يبكين لأن في قلب كل واحدة منهن سبباً يدفع إلى البكاء، وإنه ليحلو للمرء أن ينفّس عن كربه بسبب شقاء حلَّ في غيره.

غير أن هذه الصفوف على جانبي الطريق أخذت تَقِلّ شيئاً بعد شيء. كانت الفلاحات تترك مرافقة الركب واحدة بعد أخرى. ثم لم يبق ثمة إلا أمهات المجندين، يتراكضن حول القافلة كأنهن في الخامسة عشرة من أعمارهن ويقفزن فوق الحفرة التي على حافة طريق متنقلات من جهة إلى أخرى، ويحاولن مخادعة رجال الدرك ليبقين أقرب ما يمكن من أبنائهن. وضاق الشباب أنفسهم ذرعاً بهذا الذي يرون، فأخذوا يلتفتون وقد امتقعت وجوههم ويصرخون قائلين: «عودي إلى البيت. أقول لك عودي إلى البيت».

ولكن الأمهات ظللن يمشين مدة طويلة، وقد عميت أبصارهن إلا عن أبنائهن، وصمّت آذانهن إلا عن نحيبهن.

ثم انقضت هذه الأيام المضطربة كما انقضى غيرها. وتفرَّق الناس في القرى وساد الهدوء في المدينة. وحين بدأت تصل من فيينا أولى الرسائل والصور الفوتوغرافية التي يبعث بها المجندون، هانت الأمور وأصبحت محتملة. ولئن ظلت النساء مدة طويلة تبكي فوق هذه الرسائل وهذه الصور، إلا أن بكاءهن الآن أرفقُ وأهْدَأ.

وحل الشترايفكوربس، وترك المدينة. ها قد مضت على الكابيا مدة طويلة بلا حرس، وها هم أولاء الناس يجلسون على الكابيا الآن كما كانوا يجلسون عليها في ما مضى من أيام.

انقضت سنتان بسرعة. وها هي ذي طلائع الجنود الشباب تعود فعلاً إلى المدينة في هذا الخريف، نظيفة مقصوصة الشعر شبعة. وتجمَّعَ الناس حول العائدين. وأخذ العائدون يحكون للناس عن حياتهم العسكرية، وعن عظمة المدن التي رأوها، مقحمين في كلامهم أسماء غير مألوفة وتعابير أجنبية. فلما رحلت قافلة جديدة من المجندين، كان البكاء والقلق أقل حدة.

وغدا كل شيء أسهل وأقرب إلى المألوف بوجه عام. وكبر شباب ليس في أذهانهم ذكريات واضحة كثيرة عن عهد الأتراك، شباب تبنوا طرز الحياة الجديدة في كثير من النواحي، لكنهم ظلّوا يعيشون فوق الكابيا وفقاً للعادات القديمة التي تعرفها المدينة، دع عنك أنهم أصبحوا يرتدون ملابسهم على زي جديد، ودع عنك أنهم أصبحت لهم مهن جديدة ومشاغل جديدة.. إنهم، في أحاديثهم التي أصبحت حاجة حقيقية من حاجات القلب والخيال، وهم من سكان هذه المدينة، لا يختلفون عن أسلافهم الذين كانوا سكانها منذ أقدم الأزمان.

إن المجندين يسافرون الآن من دون تمرد ومن دون بلبلة. وعصابات قطاع الطرق أصبح لا يرد ذكرها إلا في الحكايات التي يرويها الشيوخ، ونسي الناس حرس الشترايفكوربس، كما سبق أن نسوا الحرس التركي القديم الذي حفر الجسر من قبل، حين كان على الكابيا متراس.

الفصل الرابع عشر

أصبحت الحياة في المدينة قرب الجسر أزخر بالحركة والنشاط، وأصبح يبدو أنها تزداد نظاماً وثراء يوماً بعد يوم، واكتست مظهراً منسجماً، ونَعُمَت بتوازن لم تعرفه قبل الآن، وهو توازن تصبو إليه كل حياة في كل زمان ومكان، ولا تصل إليه إلا نادراً. وعلى نحو جزئي مؤقت.

وفي البلاد البعيدة التي نجهلها، البلاد التي تحكم بلادنا وتدير دفة الأمور فيها، كان قد تحقق إبان هذه الفترة ـ وهي الربع الأخير من القرن التاسع عشر ـ عهد من تلك العهود الهادئة النادرة القصيرة في العلاقات الإنسانية والأحداث الاجتماعية. فكان الناس في مناطقنا التائهة هذه، يحسّون هذا الهدوء بعض الإحساس أيضاً، كما يُحِسّ المرء بالصمت الكبير الذي يرين على البحر، وهو في أبعد الخلجان.

تلك هي العقود الثلاثة من السنين التي شاع فيها رخاء نسبي، وسلام ظاهري ـ على طريقة عهد فرنسوا جوزيف ـ والتي اعتقد خلالها كثير من الأوروبيين أنهم وجدوا الصورة الصحيحة لتحقيق الحلم القديم، أعني نمو الشخصية الإنسانية نمواً كاملاً موفقاً في ظل الحرية الشاملة والتقدم. كان القرن التاسع عشر يبسط خيراته الكثيرة الوهمية أمام أعين الملايين من البشر، ويصور لهم سرابا من الرخاء والأمن والسعادة يتمتع بها جميع الناس وينعم بها كل فرد، بأسعار معقولة وبالتقسيط. ولكن لم يصل إلى هذه المدينة التائهة في البوسنة، من كل حياة القرن التاسع عشر هذه، إلا أصداء ضعيفة، في حدود قدرة هذه البيئة الشرقية المتخلفة على استقبال هذه الأصداء، وفي الصورة التي تناسبها، ففهمتها على طريقتها الخاصة.

فبعد أن انقضت السنون الأولى التي سيطر عليها الشك والتردد والشعور بأن الأمر موقت إلى حين، أخذت المدينة تتلاءم مع الحياة الجديدة، وأخذ الشعب

يجد فيها النظام والربح والأمن. وكان هذا كافياً من أجل أن تسير الحياة، الحياة الخارجية، في طريق التحسن والتقدم، هنا أيضاً. أما كل ما عدا ذلك فحبس في ذاك القاع المظلم من الشعور، الذي تعيش فيه وتفور فيه العواطف الأولية والمعقدات الراسخة، معتقدات مختلف الأجناس والأديان والطبقات، التي يبدو في الظاهر أنها ماتت ودفنت، ولكنها في حقيقة الأمر تهيئ لعصور مقبلة بعيدة تبدلات وكوارث يظهر أن الشعب لا يستطيع الاستغناء عنها، وخاصةً شعب هذه البلاد.

بعد ضروب سوء التفاهم وأنواع الصراع التي قامت في أول الأمر، شعر الناس أن الحكومة الجديدة صلبة العود طويلة الأجل (وكانت الحكومة نفسها ممتلئة بهذا الوهم الذي لا يمكن أن تقوم من دونه سلطة ثابتة قوية). كانت الحكومة غير شخصية، وكانت تمارس السلطة على نحو غير مباشر، فكان هذا وحده كافياً لأن يجعل احتمالها أسهل من احتمال النظام التركي. إن كل ما يشتمل عليه الحكم الجديد من قوة ومن شراهة، كان متخفياً تحت ستار من الوقار والمهابة والتقاليد. كان الناس يخشون بأس السلطات، إلا أنهّم كانوا يخشونها كما يخشى المرء الموت أو المرض، لا كما يرتعد خوفاً أمام الخبث والشقاء والعنف. وكان معظم ممثلي الحكومة الجديدة، العسكريين منهم والمدنيين، أجانب عن البلاد، لا يعرفون السكان.

وكان عددهم قليلاً، إلا أن المرء يحس عند كل خطوة يقومون بها، إنهم دواليب صغيرة في آلة ضخمة كبيرة، وأن وراء كل واحد منهم رجالاً أقوى ومنظمات أعلى، بأعداد كبيرة ودرجات لا حصر لها ولا عد. فكان هذا يهب لهم سلطاناً يفوق شخصيتهم كثيراً، ويهب لهم نفوذاً سحرياً يخضع له الناس بسهولة. وكانوا بألقابهم التي تبدو هنا ضخمة، وبهدوئهم وبعاداتهم الأوروبية، يفرضون على الشعب الذي يختلفون عنه كل الاختلاف، ويعرضون عليه الثقة والاحترام، ولا يثيرون في نفوس الأفراد حسداً ولا نقداً حقيقياً، رغم أن هؤلاء الأفراد لا يشعرون نحوهم بشيء من المودة أو الحب.

ومن جهة أخرى، فإن هؤلاء الأجانب أنفسهم، لم يستطيعوا، بعد مدة من الزمن، أن يفلتوا افلاتاً تاماً من تأثير هذه البيئة الشرقية فيهم. لقد كان أولادهم يدخلون بين أولاد المدينة تعبيرات أجنبية وأسماء أجنبية، وكانوا يحملون إليهم

تحت الجسر أنواعاً جديدة من اللَّعِبِ والألعاب، ولكنهم كانوا في الوقت نفسه يأخذون عن أطفال البلاد، بمثل تلك السرعة، أغانينا وأساليبنا في الكلام. وطريقتنا في حلف الإيمان، وألعابنا القديمة، كالقفز فوق الظهر وغيره. وكذلك كان شأن الكبار. لقد جاؤوا هم أيضاً بحياة جديدة، وتعبيرات وعادات غير مألوفة، ولكنهم كانوا في الوقت نفسه يضيفون إلى لغتهم وإلى طريقتهم في المعيشة شيئاً جديداً يستمدونه من أهل البلاد يوماً بعد يوم. الحق أن السكان، وخاصةً المسيحيين واليهود، أخذوا يقلدون الأجانب الذين جاء بهم الاحتلال، في أزيائهم وفي سلوكهم، ولكن هؤلاء الأجانب قد تأثروا أيضاً بالبيئة التي كان عليهم أن يعيشوا فيها. إن عدداً من هؤلاء الموظفين، مثل ماجيار العنيف أو يولوني المتكبر، كانوا يجتازون الجسر قلقين أو يدخلون المدينة مشمئزين، وكانوا في أول الأمر معتصّبين منعزلين كقطرات زيت في الماء، ولكن ما هي إلا بضع سنين حتى أصبحوا يجلسون على الكابيا ساعات طويلة، يدخِّنون سجائرهم الموضوعة في حمالاتها السميكة من العنبر، ويروحون ينظرون في الدخان وهو يتبدد ويضيع تحت السماء الزرقاء في الهواء الساكن عند الغسق، كأنهم سكان قدماء من سكان المدينة. أو ينتظرون المساء في صحبة وجهائنا وبكواتنا على سفح أخضر وأمامهم باقة صغيرة من الريحان، ويمضون يتحدثون حديثاً بطيئاً ليس بذي خطورة وليس له اتجاه خاص، ويحتسون شرابهم على مهل ويتناولون لقمة طعام من حين إلى حين، كما لا يحسن ذلك إلا أهل فيشيغراد. ووجد بين هؤلاء الأجانب موظفون أو صُنّاع تزوجوا في مدينتنا، وقرروا أن يقيموا فيها وألا يتركوها مدى الحياة.

كانت هذه الحياة الجديدة لا تعني في نظر أي فرد من سكان المدينة، تحقيق ما يحمله في دمه وما يشتهيه في أعماق نفسه منذ الأزل. وبالعكس: إن جميع الناس سواء أكانوا مسلمين أم مسيحيين، يدخلون هذه الحياة الجديدة بتحفظات متنوعة مطلقة، ولكن هذه التحفظات ظلت مكتومة مختبئة، بينما كانت الحياة مبسوطة أمام جميع الأعين، قوية بإمكانياتها الجديدة التي تبدو كبيرة.. وبعد ضروب من التردد الطويل أو القصير انساق أكثر الناس مع التيار الجديد، وأخذوا يزاولون أعمالاً جديدة، ويجنون أرباحاً شتى، ويعيشون وفقاً للآراء الجديدة ووفقاً للأساليب الجديدة التي تحقق لكل فرد مزيداً من الحركة

والاندفاع وتقدم له مزيداً من الفرص والحظوظ.

لم تكن الحياة الجديدة أقل تقيداً أو ارتباطاً من الحياة القديمة في عهد الأتراك، غير أنها أسهل وأكثر انسانية، كما أن هذه القيود وهذه الروابط قد تمّ إزاحتها قليلاً على نحوٍ بارع، بحيث لا يحس بها الفرد إحساساً مباشراً. لذلك كان كل إنسان يشعر أن كل شيء قد أصبح حوله أوسع وأملأ بالهواء وأكثر تنوعاً وغنى.

كانت الدولة الجديدة، بجهازها الإداري، تستطيع أن تخرج الضرائب والرسوم من جيوب الناس من دون ألم أو خشونة، خلافاً للأتراك الذين كانوا يجبون هذه الأموال بأساليب فظة غريبة، أو بالنهب وحده. وهذه الدولة الجديدة تجبي من الأموال مثل ما كان يجبيه الأتراك بل أكثر، وهي تجبيه بمزيد من السرعة والضمان.

لقد وصل رجال الدرك بعد الجيش، ثم وصل بعدهم الموظفون، كذلك وصل بعد الموظفين التجار. وبدئ قطع أشجار الغابات، وجاء مقاولون أجانب ومهندسون وعمال، وأتاح هذا فرصاً مختلفة لأرباح يجنيها صغار الناس والبائعون، وجاء بعادات جديدة وأحدث تبدلات جديدة في الملبس واللغة بين أفراد الشعب. وبُني أول فندق (سنتحدث عن هذا الفندق في ما بعد) وقامت حانات ودكاكين كانت مجهولة إلى ذلك الحين. وإلى جانب اليهود الاسبان (السفارديم) الذين يعيشون في هذه البلاد منذ قرون، لأنهم استقروا فيها من أيام بناء الجسر على نهر درينا تقريباً، أخذ يتوافد الآن يهود غاليسنا (الأشكنازي).

أخذ المال يجري مبالغ لا عهد للبلاد بمثلها من قبل، كأنه دم جديد. وأهم من ذلك أن الناس يتداولونه الآن على رؤوس الإشهاد في جرأة وصراحة. فكان كل امرئ يستطيع أن يدفئ يديه بنار هذا التداول للذهب والفضة وأوراق النقد، أو أن يمتّع بذلك بصره على الأقل، لأن هذا التداول يوهم حتى أفقر فرد من الأفراد بأن فقره شيء مؤقت، فيستطيع إذاً أن يحتمله.

صحيح أن العهد الماضي كان فيه مال، وكان فيه أغنياء، غير أن هؤلاء الأغنياء كانوا قلة قليلة، وكانوا يخفون أموالهم كما يخفي الأفعوان قوائمه. وكانوا يظهرون نبالتهم ويحملونها كصورة من صور السلطة والدفاع متعبة لهم ولغيرهم على السواء. أما الآن فالثراء (أو ما كان يعد ثراء أو يسمى ثراء)

شائع بين الناس، وما ينفك يعبِّر عن نفسه بمتع وملذات شخصية. لذلك كان أكثر الأفراد يستطيعون أن يملكوا شيئاً من بريقه من فُتاته.

وكانت الحال على هذا المنوال في سائر ما عدا ذلك. إن جميع الملذات التي كان يتذوقها الناس من قبل خفية واختلاساً، أصبحوا يستطيعون الآن أن يقتنوها وأن يظهروها صراحة، وكان ذلك يزيد ما لها من قوة الجذب ويضاعف عدد الذين ينشدونها ويسعون إليها. إن ما كان في الماضي عزيز المنال، بعيداً، باهظ الثمن، تحرِّمه القوانين وتحرِّمه اعتبارات قاهرة، أصبح الآن في كثير من الحالات ممكناً يستطيع أن يصل إليه كل واحد من أولئك الذين يملكون المال أو المكر. إن كثيراً من الميول والشهوات والمطالب التي كانت حتى ذلك الحين تختبئ في مواضع مختفية، أو لا ترتوي البتة، أصبحت الآن تستطيع أن ترتوي وتجرؤ على طلب الارتواء صراحة، فإن لم تحصّل ارتواء كاملاً، حصّلت بعض الارتواء في أقل تقدير. والواقع أنه دخل على هذا كله مزيد من النظام والترتيب والحواجز المشروعة، فالرذائل يعاقب عليها، والملذات أصعب وأبهظ ثمناً، غير أن القوانين والأساليب قد اختلفت، فأصبحت تدع الناس في هذا المضمار وفي غيره، أن يتوهموا أن الحياة غدت أكثر اتساعاً وأكثر ترفاً وحريةً.

الحق أن الملذات الحقيقية، والسعادة خاصةً، لم تزدد عما كانت عليه في الماضي، ولكن مما لا شك فيه أن الوصول إلي بعض الملذات أصبح أسهل، وأصبح يبدو للناس أن هناك متسعاً لسعادة كل فرد من الأفراد. إن ما في أنفس أهل فيشيغراد من ميل فطري قديم إلى حياة اللهو والمتع أصبح يجد الآن ما يحفزه وما يهيئ له إمكان التحقق، في العادات الجديدة وفي الإشكال الجديدة من التجارة والربح التي أدخلها الأجانب الوافدون حديثاً.

كان اليهود البولنديون الذين هاجروا إلى البلاد مع أسرهم الكثيرة العدد يقيمون جميع أنواع نشاطهم على هذا. فهذا شرايبر يفتح سوقاً أو محل بقالة، وهذا غونتغلان يفتح حانة للجنود، وهذا تسالر يدير فندقاً، وهذه عائلة شبرلنغ تقيم مصنعاً لصناعة الصودا وورشة للتصوير الفوتوغرافي، وهذا تسفهير يفتح محلاً للساعات والصياغة.

وبعد الثكنة التي حلّت محل النزل الحجري، شيد بالحجارة المتبقية مبنى أقامت فيه الإدارة المحلية والمحكمة. وكان فندق تسالر أكبر مبنى في المدينة بعد

هذين المبنيين. إن فندق تسالر يقوم على الضفة قريباً كل القرب من الجسر. كانت هذه الضفة اليمنى معززة بجدار قديم يدعم شفير النهر من جهتي الجسر. وقد بني هذا الجدار يوم بني الجسر نفسه. وبذلك كان ينبسط على يمين الجسر وعلى شماله سهلان كأنهما رصيفان يعلوان النهر فعلى هذه الأرض التي كان يسميها الشعب ميادين السباق كان يلعب أطفال المدينة جيلاً بعد جيل. إن سلطات المديرية قد احتلت الآن السهل الأيسر، وأحاطته بسياج وغرست فيه أشجاراً مثمرة وأدغالاً وجعلته أشبه بمشتل للمنطقة.

وعلى السهل الأيمن بنى الفندق. قبل ذلك كان خان زارياً أوّل بناء عند مدخل الحي التجاري. وكان هذا الخان حسن الموقع لأن المسافر المتعب الظمآن الذي دخل إلى المدينة من الجسر قد يقع عليه أول ما يقع. أما الآن فإن الخان القديم المنخفض أصبح يبدو أشد انخفاضاً ومذلة يوماً بعد يوم، كأنما هو يغور في الأرض.

إن الفندق الجديد يحمل، رسمياً، اسم الجسر الذي كان قربه. ولكن الشعب يطلق على جميع الأشياء أسماء تتفق مع منطقه الخاص. وتتفق مع المعنى الحقيقي الذي تدل عليه هذه الأشياء في نظره، وقد امّحت الكتابة التي سطرت على لافتة فوق فندق تسالر (وهي باللغة الألمانية Hotel Zur Brucre ومعناه «فندق الجسر»)، وكانت قد كتبت أحرفاً بدهان مائي، وتولى كتابتها جندي خبير في هذه الأمور، فأطلق الناس على الفندق اسم فندق لوتيكا، وظلّ الفندق يسمى بهذا الاسم إلى الأبد. ذلك أن تسالر، صاحب الفندق، وهو يهودي ضخم بارد له زوجة ممراض وبنتان صغيرتان (منيا، وإيرين)، لم يكن له بالفندق شأن، وإنما كانت أخت زوجته هي صاحبة الفندق حقاً والروح التي تسري فيه، وهي امرأة شابة على جانب عظيم من الجمال، أرملة ذربة اللسان صريحة الكلام، ذات نِشاط أشبه بنشاط الرجال.

كان الطابق الأعلى من الفندق يحتوي على ست غرف نظيفة ومرتبة، مخصصة للزبائن، وكان الطابق الأرضي يحتوي على قاعتين، إحداهما واسعة والأخرى ضيقة. أما القاعة الكبرى فيرتادها الناس العاديون المتواضعون، من صف الضباط وأصحاب الحرف. أما الصغرى فيفصلها عن الكبرى باب ذو مصراعين من زجاج غير شفاف، فعلى المصراع الأول كتبت كلمة Exta وعلى المصراع

الثاني كتبت كلمة Zimmer[1]. إن هذه الحجرة هي مركز الحياة الاجتماعية للموظفين والضباط وأثرياء المدينة. إن الناس، في فندق لوتيكا، يشربون ويلعبون الورق، ويغنون ويرقصون، ويديرون أحاديث جدية، ويعقدون صفقات، ويأكلون طيب الطعام، وينامون على سرر نظيفة. وكثيراً ما كان يتفق لهذا المجتمع نفسه من البكوات والتجار والموظفين أن يصلوا الليل بالنهار والنهار بالليل وهم يشربون ويمرحون إلى أن يأخذ منهم التعب والخمر كل مأخذ، وإلى أن يبلغ بهم الإعياء من اللعب أنهم يصبحون عاجزين عن رؤية الورق (إن المقامرين لا يلعبون الآن خفيةً وسراً في الحجرة الصغيرة الحالكة الخانقة بخمارة أوستاموئتش).

وكانت لوتيكا تطرد في أدب وظرف أولئك الذين أسرفوا في الشراب أو خسروا كل ما يملكون، وتستقبل الزبائن الجدد الذين لم يسكروا بعد والذين هم في شوق شديد إلى الخمر واللعب.

لم يكن يعرف أحد، ولم يكن يتساءل أحد متى ترتاح هذه المرأة، ومتى تنام، ومتى تأكل، ومتى تجد من الوقت ما تنفقه في ارتداء ملابسها والعناية بجمالها. ذلك أنها حاضرة دائماً (أو هذا ما كان يبدو) تخدم كل فرد، وتتودد إلى جميع الزبائن، لا تفرِّق بين الواحد والآخر منهم، ولا تتخلى عن جسارتها وحشمتها في لحظة من اللحظات.

إنها فارعة القامة، ممتلئة الجسم، عاجية اللون، سوداء الشعر، حادة العينين. وهي تعرف كيف تحسن التصرف مع هؤلاء الزبائن الذين يتركون في الفندق مالاً كثيراً، ولكن يدفعهم الشراب إلى العنف والوقاحة في كثير من الأحيان. إنها تتحدث إلى الجميع حديثاً حلواً، جسوراً، فَكِهاً، قارصاً، ملاطفاً، مهدئاً، (صوتها أجش متفاوت، لكنه يستحيل في بعض اللحظات إلى سجع كسجع الحمام عميق مدغدغ. وهي ترتكب في كلامها أخطاء، لأنها لم تحسن تعلم الصربية، فهي تتكلم لغة لذيذة إشارية. لا تحفل بقواعد اللغة أبداً، ولا تفرِّق بين مذكر ومؤنث، ولكنها رغم كل هذا تتفق بالنبرة والمعنى كل الاتفاق مع الطريقة الشعبية في الكلام).

كان كل واحد من الزبائن ينتفع بحضورها فيغازلها ويذكي نار شهواته ما ظل

---

(1) أي غرفة باللغة الألمانية.

ينفق في الفندق من ماله ووقته. غير أن هذين الشيئين ـ أعني انفاق المال وانفاق الوقت ـ هما الأمران الوحيدان الدائمان المضمونان، أما كل ما عداهما فإنه يبدو موجوداً، لكن وجوده غير مضمون. كانت لوتيكا، عند جيلين من المبذرين أو الأثرياء أو البكوات، أشبه بسراب، أشبه بطيف ساطع، باهظ التكاليف، بارد، يعبث بحواسهم. وفي الحكايات التي يرويها الناس بعضهم لبعض، كانت تذكر أسماء عدد قليل نادر من الأفراد استطاعوا أن يحظوا بعطفها، ولكن هؤلاء أنفسهم لا يستطيعون أن يقولوا: ما الذي حصلوا عليه حقاً، وما هي حدوده.

لم يكن بالأمر البسيط أو اليسير أن تصطرع هذه المرأة مع هؤلاء الرجال الأثرياء السكارى الذين كثيراً ما كانت تستيقظ فيهم غرائز وحشية ليست في الحسبان. غير أن لوتيكا، هذه المرأة التي لا يعرف التعب إليها سبيلاً، هذه المرأة الحاذقة، الباردة الحواس، الحاضرة الذهن، التي يشبه قلبها أن يكون قلب رجل، كانت تكبح كل حنق وتُسكت كل شهوة في نفوس هؤلاء الرجال الهائجين، وذلك بتعاون عجيب بين جسدها الجميل ومَكْرها العميق وحذقها البارع، فكانت تستطيع دائماً أن تجعل بينها وبين كل فرد من هؤلاء الأفراد مسافة ما، تزيد في تأجيج شهواتهم وترفع قيمتها في نظرهم. كانت تتلاعب بهؤلاء الرجال الهائجين، في أشد لحظات سكرهم وفي أعنف لحظات حنقهم، كما يتلاعب مصارع الثيران بالثور، ذلك لأنها سرعان ما عرفت هذا العالم واهتدت بسهولة إلى سر هذه الشهوات المعقدة في ظاهر الأمر. إنها تعرف جميع الجوانب الضعيفة في هؤلاء الرجال العاطفيين القساة الشهوانيين. كانت تعرض لهم كل شيء، وتعدهم بكل شيء، ولكنها لا تعطيهم إلا قليلاً، أو قل لا تعطيهم شيئاً البتة، لأن رغباتهم كانت بطبيعتها لا يمكن أن تشبع، فكان لا بد لهم أخيراً من الاكتفاء بالقليل. كانت تسلك مع أكثر زبائنها سلوكها مع مرضى، سلوكها مع أناس تنتابهم أزمات واضطرابات من حين إلى حين، ويمكن أن يقال على وجه الإجمال إنها رغم أن مهنتها ليست بالمهنة الجميلة ولا بالمهنة الشريفة جداً بطبيعة الحال، كانت امرأة ذات حس سليم وقلب طيب وطبع لطيف، فهي تعرف كيف تواسي وتساعد رجلاً أسرف في الشراب فوق ما ينبغي له أن يسرف، أو خسر في اللعب فوق ما ينبغي له أن يخسر. كانت تجنِّنُ زبائنها، لأنهم كانوا مجانين بطبيعتهم، وكانت تخدعهم لأنهم يريدون أن يُخدعوا، وكانت لا تسلبهم

في آخر الأمر إلا ما هم على استعداد أن يبذّروه ويضيّعوه. وصحيح أنها جنت مالاً كثيراً، وأنها كانت حريصة على أموالها، وأنها لذلك جمعت منذ السنين الأولى ثروة لا بأس بها، ولكنها كانت تعرف في الوقت نفسه كيف تتنازل عن دين من الديون، أو كيف تنسى خسارة من الخسائر في كرم ومن دون كلام. وكانت تتصدق على المتسولين والمرضى، وتساعد الأسر الغنية التي جار عليها الدهر، تساعدها في لباقة وحذر ولطف، من دون كبير ضجة، وتعين اليتامى والأرامل من أبناء البيوت الكريمة، وتنجد كل أولئك الفقراء الخجولين الذين لا يسألون صدقة ويؤذيهم أن يقبلوا صدقة ويترددون في قبولها.

كانت تفعل ذلك كله بحذق كحذقها في إدارة الفندق، وكانت تنأى عن السكارى والمتدعرين والوقحين من زبائنها، تأخذ منهم كل ما تستطيع أخذه، ثم لا تعطيهم شيئاً، ولكنها لا تصدهم صداً كاملاً إلى الأبد.

وكان الذين يعرفون الناس ويعرفون التاريخ يقولون في كثير من الأحيان إنها لخسارة حقاً أن القدر لم يهب لهذه المرأة إلا هذا المجال الضيق الواطئ من مجالات العمل. فلو أن هذه المرأة العاقلة الإنسانية التي لا تفكر في نفسها، هذه المرأة الطماعة الغيورة في آن واحد، هذه المرأة التي تمتاز بالجمال والإغراء من جهة، وتمتاز بالعفة والبرودة من جهة أخرى، هذه المرأة التي تدير فندقاً من فنادق الريف وتفرغ جيوب اللاهين من أبناء المدينة، لو أنها كانت غير ما كانت، ولو أن الظروف وضعتها في غير هذا الموضع، لكان يمكن أن يكون لها شأن آخر، ولكان يمكن أن تحقق أعمالاً لا تخطر ببال أحد.. فلربما أصبحت واحدة من تلك النساء الشهيرات اللاتي يتحدث عنهن التاريخ، اللاتي يتحكمن بمصائر أسر كبيرة، وبمصائر عروش ودول، ويسرن بالأمور دائماً نحو ما هو أفضل.

في ذلك العهد، في نحو عام 1885، بينما كانت لوتيكا في أوج قوتها، كان هناك شباب من أبناء الأثرياء يقضون أيامهم ولياليهم في تلك القاعة الصغيرة ذات البابين الزجاجيين غير الشفيفين. كانوا يجلسون هناك عند الغسق قرب المدفأة، وقد ذبلت عيونهم من النعاس والوسن، لم يستيقظوا تماماً ولا صحوا من سكر الليلة البارحة، نسوا من فرط التعب والنعاس أين هم من الدنيا وماذا ينتظرون. فكانت لوتيكا تنتهز هذه الهدنة، فتنسل إلى الطابق الأول من الفندق، إلى غرفة

صغيرة مخصصة للخادمات، اتخذتها لوتيكا مكتباً لها، ومنعت أن يدخلها أحد. إن الغرفة مزدحمة بأنواع شتى من الأثاث، والصور الفوتوغرافية، والأشياء الذهبية والفضية والبللورية. وفي هذه الغرفة كان يختبئ، وراء ستارة، صندوق حديد مدهون بلون أخضر، ومكتب صغير غارق في أوراق وبطاقات وإيصالات وحسابات وجرائد ألمانية وقصاصات عن أسعار البورصة وقوائم بأرقام أوراق اليانصيب الرابحة.

ففي هذه الحجرة الصغيرة الضيقة، المزدحمة الخانقة، التي تطل نافذتها (وهي أصغر من سائر النوافذ) إطلالاً قريباً مباشراً على القنطرة الأولى أضيق قناطر الجسر، كانت لوتيكا تقضي ساعات فراغها، وتعيش ذلك النصف الآخر السري من حياتها الذي لا شأن به لأحد غيرها.

هناك كانت لوتيكا، أثناء لحظات الحرية التي تختلسها من عملها، تقرأ أخبار البورصة، وتدرس الإعلانات، وتنظم حساباتها، وتجيب على رسائل المصارف، وتتخذ قراراتها، وتصدر أوامرها، وتعد أموالها، وترسل ودائع جديدة. هناك كان يتم الجانب المجهول من عملها، هناك كان ينقضي الجزء الخفي الحقيقي من حياتها، لا يعلم به أحد تحت، ولا يعلم به أحد من سائر الناس.

هناك كانت تخلع عن وجهها القناع الباسم، فإذا بالوجه قاس، وإذا بالنظرات حادة مظلمة. من تلك الغرفة كانت تكتب رسائلها إلى أفراد أسرتها الكبيرة العدد، أفراد أسرة آبفلماير بمدينة تارنوفو، من أخوة متزوجين وأخوات متزوجات ومن أقرباء وقريبات، وهم جميعاً يهود فقراء جداً يرجع أصلهم إلى غاليسيا الشرقية، وقد تفرق شملهم الآن، فبعضهم في غاليسيا، وبعضهم في النمسا؛ وبعضهم في المجر. كانت توجه من هذه الغرفة مصير اثنتي عشرة عائلة يهودية. تتدخل في أدق التفاصيل من حياة أفرادها، تقضي في شؤون زواجهم، وترسل الأولاد إلى المدرسة أو إلى تعلم صناعة من الصناعات، وتداوي المرضى، وتوبخ الكسالى والمبذرين، وتثني على المقتصدين والعاملين النشيطين، وتغضّ الخصومات بين أعضاء الأسرة، وتسدي بالنصح في حالات الخلاف أو الحيرة، وتحض الجميع على أن يسلكوا في الحياة سلوكاً أعقل وأحسن وأكرم، وتهيئ لهم في الوقت نفسه أسباب ذلك، إذ تشفع كل رسالة من رسائلها بحوالة تمكن من اتباع نصيحتها وتنفيذ وصاياها، واشباع حاجة من الحاجات المادية أو

الروحية، واتقاء شر من الشرور. وكانت لوتيكا تجد في رفع شأن أسرتها على هذا النحو وفي تسيير أمور كل فرد من أفرادها، كانت تجد في ذلك لذتها الحقيقية الوحيدة، وتجد فيه ثوابها عن كلّ ما تتحمل من أعباء، وعن كل ما تنازلت عنه من متاع هذه الحياة. كانت كلما ارتفع فرد من أفراد أسرة آبفلماير، رجلاً كان أو امرأة، كلما ارتفع في سلم المجتمع ولو درجة واحدة، تشعر بأنها هي التي ترتفع، وتجد في ذلك عزاء عن عنائها الكثير، وحافزاً إلى بذل مزيد من الجهود في المستقبل.

وكان يتفق في بعض الأحيان أن تصعد من القاعة الصغيرة إلى حجرتها، وقد بلغت من التعب والاشمئزاز أنها لا تقوى على كتابة رسالة من الرسائل، ولا على قراءة رسالة من الرسائل، ولا على مراجعة حساباتها، فكانت في مثل تلك الأحوال تكتفي بالجلوس إلى النافذة الصغيرة تستنشق ملء رئتيها الهواء الطري الذي يتصاعد من النهر ويختلف كل الاختلاف عن هواء القاعة تحت. وكانت نظراتها تقع عندئذٍ على القنطرة الحجرية القوية الرشيقة التي تحجب الأفق كله، وعلى الماء السريع الذي يجري تحتها، والقنطرة هي نفسها، سواء في وضح النهار، وعند المساء، وساعة طلوع الفجر، وفي ضوء قمر الشتاء، وتحت أشعة النجوم الهادئة. إن جانبي القنطرة يشد كل منهما الآخر إليه، ويلتقيان في ذروة حادة، ويتساندان في توازن كامل لا يتزعزع. وتعودت لوتيكا مع مرور السنين أن تكون هذه القنطرة أفقها الوحيد المألوف والشاهد الأخرس الذي تتجه إليه هذه اليهودية ذات الوجهين في اللحظات التي تنشد فيها الراحة، وحين تصل في أعمالها وشؤونها العائلية التي تحلها دائماً وهي وحيدة، حين تصل في هذه الأعمال والشؤون إلى عقدة تستعصي على الحل، أو إلى طريق مسدودة.

غير أن لحظات الراحة هذه كانت لا تدوم مدة طويلة، إذ كان يتفق دائماً أن يقطعها صياح آت من المقهى تحت، فإما أنه نداء زبائن جدد يطلبون حضورها، وإما أنه صياح سكّير صحا وذهب سكره. فهو يريد شراباً جديداً، ويطلب إشعال المصابيح، واستدعاء الموسيقيين، وينادي لوتيكا. وعندئذٍ كانت لوتيكا تخرج من مكمنها، وتحكم إقفال الباب بمفتاح خاص، وتنزل لاستقبال الزبون أو لتهدئة السكير بابتسامتها المعهودة ولغتها الخاصة، كما يُهَدَّأُ طفل استيقظ، ولتُجْلِسه إلى المائدة، فيستأنف القصف، والشراب، والحديث، والغناء، وانفاق المال.

ذلك أن الأمور تكون قد فسدت أثناء غيابها، وتشاجر الزبائن، فهذا شاب من بكوات تسرنتشا، شاحب الوجه، متوحش النظرة، يسفح على الأرض كل ما تقدم له من شراب، ويتشكى ويتذمر من كل شيء، ويشاجر الخدم والزبائن. إنه منكب على الشرب في الفندق منذ أيام إلا في فواصل قصيرة، وما ينفك يرغب في لوتيكا رغبةً عنيفة، إلا أنه يشرب شرباً يتضح منه أنه مدفوع إلى ذلك بألم يجهله هو نفسه؛ ألم أعمق كثيراً وأكبر كثيراً من حبه ليهودية تارنوفو الجميلة التي لا تبادله إياه، وأكبر من غيرته عليها.

وهذه لوتيكا تقترب منه على غير وجل، تقترب منه اقتراباً يسيراً طبيعياً وتقول لي:

ـ ماذا حصل يا أيوب؟ لماذا تصرخ يا عزيزي؟

فيقول لها السكير مدمدماً، وقد هدأ صوته وطرفت عيناه، ونظر إلى شبح ظهر له فجأة:

ـ أين كنت؟ أريد أن أعرف أين كنت.. إنهم يقدمون لي هنا سموماً لأشربها.. إنهم يسمّمونني.. ولكنهم لا يعلمون أنني أنا إذا..

فتقول المرأة مهدئة، وهي تحرك يديها البيضاوين المعطرتين قرب وجه البك:

ـ ابق جالساً، ابق جالساً في هدوء.. سأجيء لك بلبن العصفور إذا أردت.

وتنادي الخادم، وتأمر الشاب بشيء باللغة الألمانية.

ـ لا تتكلمي أمامي بشيء لا أفهمه.. لا ترطني.. فرتسين.. فوفتسين.. لأنني.. أنت تعرفينني..

ـ أعرفك، أعرفك، يا أيوب. لا أعرف أحداً مثلما أعرفك.

ـ طيب.. مع من كنت؟ قولي..

ويستمر الحديث هكذا بين السكير والمرأة الموجزة، يستمر هكذا بلا نهاية، ولا هدف، ولا نتيجة، إلى جانب زجاجة من الخمر الغالي الثمن وقدحين: قدح للوتيكا يظل ملآن، وقدح لأيوب ما ينفك يمتلئ ويفرغ بغير انقطاع.

ها هي ذي لوتيكا بينما يمضي الفتى التنبال مدمدماً متمتماً بلسانه الذي أثقلته الخمر، هاذراً أنواعاً من الهذر عن الحب والموت وعذاب الحب الذي لا دواء له وغير ذلك من أمور تعرفها لوتيكا عن ظهر القلب، لأن كل واحد من سكارى البلد يرددها على هذا النحو نفسه، ها هي ذي لوتيكا تنهض وتقترب من الموائد الأخرى التي يجلس إليها زبائن أخر ممن يجتمعون بالفندق عند المساء بغير تخلف.

إن حول مائدة من هذه الموائد عدداً من الأثرياء الشباب الذين لم يبدأوا ارتياد المقاهي وتعاطي الشراب إلا منذ عهد قصير. إنهم ريفيون أدعياء، رأوا أن خان زاريا أصبح مملاً كثير الأملال وأصبح لا يليق بمقامهم، ولا يزالون مع ذلك يشعرون في الفندق بشيء من الخجل والحرج. وحول مائدة أخرى جلس عدد من الموظفين الأجانب، وجلس ضابط ترك الحلقة العسكرية في هذا اليوم وارتضى أن يهبط إلى مستوى فندق المدنيين، لأنه ينوي أن يطلب إلى لوتيكا امداده بقرض مستعجل. وحول مائدة ثالثة جلس المهندسون الذين يمدّون الخط الحديدي خلال الغابات لتصدير الأخشاب.

وفي الركن تماماً جلس بافلي رانكوفتش وهو من أصغر الشباب سناً، لكنه في الوقت نفسه من أوسع المالكين ثراء، وجلس معه مقاولٌ نمسوي يعمل في الخط الحديدي، وقد انكبّ الاثنان على المائدة يحسبان. . إن بافلي يرتدي ثياباً من الزي التركي، وعلى رأسه طربوش أحمر لا يخلعه في المقهى. إن له عينين صغيرتين سوداوين (أشبه بشقين ملتمعين) مائلتين في وجهه الضخم الشاحب، لكنهما تستطيعان أن تتسعا اتساعاً كبيراً وأن تصبحا كبيرتين متَّقدتين ضاحكتين ضحكاً شيطانياً في اللحظات النادرة من الفرح أو النصر.

أما المقاول فهو يرتدي بدلة رمادية رياضية، وينتعل جزمتين صفراوين عاليتين لهما بندان يصلان إلى الركبة. إنه يكتب بقلم مذهّب ذي سلسلة من الفضة، بينما يكتب بافلي بقلم ضخم من أقلام الرصاص كان قد نسيه في دكانه منذ خمس سنين نجار من النجارين العسكريين حين كان يشتري منه مسامير ورَزّات. إن الرجلين يعقدان اتفاقاً على إطعام العمال الذين يعملون في مد الخط الحديدي. إنهما غارقان في عملهما، يضربان ويقسمان ويجمعان، ويرتبان أرقاماً بعضها يرى على الورق، وهو ما يحاول كل منهما أن يقنع صاحبه وأن يخدعه، وبعضها لا يرى وإنما يحتفظ به كل منهما في ذهنه، وهو ما يحسب كل منهما لنفسه، على أساسه، بجهد وسرعة، ما يستطيع أن ينتهز من فرص وأن يحقق من أرباح.

طافت لوتيكا على هؤلاء الزبائن ووجدت لكل منهم كلمة طيبة، أو ابتسامة كريمة، أو نظرة صامتة مليئة بالإدراك والفهم. ثم عادت إلى البك الشاب الذي استأنف صياحه وعنفه.

وفي خلال الليل، بينما القاعة تعجّ بالشاربين مع كل ما يتعاقب أثناء الشراب

من فترات الصياح العاصف والحماسة والتباكي والوحشية، مما تعرفه لوتيكا أتم معرفة، لا بد أن توافي لحظة من هدوء تستطيع لوتيكا في أثنائها أن تعود إلى غرفتها. فتستأنف راحتها في الضوء الشاحب الذي ينشره مصباحها الخزفي، أو تعاود كتابة رسائلها إلى أن يقع حادث جديد يستدعيها إلى تحت.

وتتكرر الحكاية نفسها في اليوم التالي، مع ذلك البك القاصف السكران ذي النزوات أو مع شخص آخر مثله.. ويستمر بالنسبة إلى لوتيكا ذلك الهم نفسه الذي يجب أن تواجهه باشّة مبتسمة، وذلك العمل نفسه الذي يظل يبدو لعباً خفيفاً لا يهدأ.

إنه ليتراءى للمرء أن من غير المفهوم ومن غير المعقول أن تستطيع لوتيكا تدبير أمورها ومواصلة القيام بعملها في زحمة هذه الأعباء المتنوعة التي تملأ أيامها ولياليها، وتقتضيها من سعة الحيلة ما لا تملكه امرأة ومن القوة ما لا يطيقه رجل. ومع ذلك كانت لوتيكا تقوم بذلك كله من دون شكوى، وكانت في معالجة أمورها لا تشرح لأحد شيئاً، ولا تحدِّث أحداً عما فعلته أو عما ستفعله. وإلى جانب هذا كله كانت تستطيع في توزيع وقتها أن تقف ساعة من كل يوم على صديقها علي بك باشتش.

إن علي بك باشتش هو الرجل الوحيد الذي يقال في المدينة إنه حظي بمودة لوتيكا حظوة حقيقية لا شأن لها بأي حساب. ولكن هذا الرجل أشد الناس انطواء على نفسه وأكثرهم صمتاً في المدينة كلها. إنه أكبر أخوته الأربعة، ولكنه لم يتزوج (والناس في المدينة يقدِّرون أن لوتيكا هي السبب في بقائه بلا زواج). وهو لا يُعنى بشؤون أعماله، ولا يشارك في الحياة العامة بالمدينة، ولا يتعاطى الشراب، ولا يقصف ولا يلهو مع الأصدقاء الذين هم في سنه. يضاف إلى ذلك أن مزاجه واحد لا يتقلب، فهو لطيف محبب دائماً، متحفظ دائماً، مع جميع الناس على السواء، بلا تفريق. وهو رغم سكوته وانطوائه على نفسه، لا يهرب من لقاء الناس ولا يتحاشى الحديث معهم، ومع ذلك لا يذكر له أحد رأياً من الآراء، ولا ينقل أحد عنه كلاماً قاله. إنه مكتف بنفسه، راضٍ كل الرضا عن حاله وعن رأي غيره فيه. إنه ليس في حاجة إلى أن يكون أو إلى أن يبدو على غير ما هو عليه، ولا ينتظر أحد منه ولا يطلب أحد منه شيئاً آخر. إنه واحد من أولئك الرجال الذين يحملون نبالتهم لقباً ثقيلاً وقَدَراً يملأ حياتهم تماماً، وهي نبالة فطرية، كبيرة،

جليلة، تبريرها في ذاتها، ولا يمكن تعليلها ولا إنكارها ولا تقليدها.

ولم يكن للوتيكا كبير شأن بزبائن القاعة الكبرى. فإنما كانت القاعة الكبرى من اختصاص الساقية مالتشيكا والساقي غوستاف. أما مالتشيكا فهي معروفة في المدينة كلها بأنها مجريّة راجحة العقل أشبه بزوجة مروِّض من مروِّضي الحيوانات الكاسرة. وأما غوستاف فهو ألماني من بوهيميا أحمر الشعر، قصير القامة، نزق الطبع، محتقن العينين بالدم، متباعد الساقين، مسطح القدمين. إن هذين الخادمين يعرفان جميع الزبائن بل وجميع سكان المدينة على وجه الإجمال، يعرفان من يدفع ما عليه بانتظام، ويعرفان مزاج كل واحد من الزبائن حين يستبد به السكر، ويعرفان من يجب أن يستقبلاه في فتور، ومن يجب أن يستقبلاه في حرارة، ومن يجب أن يمنعاه من الدخول لأنه ليس أهلاً لدخول «هذا الفندق». وهما يحرصان على أن يشرب الزبائن كثيراً وعلى أن يدفعوا ما عليهم باطراد، ولكنهما يحرصان أيضاً على أن ينتهي كل شيء بحشمة كما يجب أن ينتهي، لأن مبدأ لوتيكا هو: «لا فضائح[1]» حتى إذا ما اتفق في بعض الأحيان من قبيل الاستثناء أن خرج أحد عن صوابه نتيجة السكر، أو حاول أحد أن يدخل إلى الفندق عنوة بعد أن شرب في خمارات أخرى من خمارات الطبقة الثانية، فعندئذٍ كان يظهر الخادم ميلان، وهو فتى فارع القامة عريض المنكبين بارز العضلات. إن ميلان هذا الذي يرجع أصله إلى مدينة ليكا، رجل يملك قوة هرقلية، ويتكلم قليلاً، ولكنه يقوم بجميع الأعمال. إنه يرتدي دائماً ما يليق بخادم فندق أن يرتديه من ثياب (لوتيكا تسهر على كل شيء): صديرة فوق قميص أبيض، مئزر من جوخ أخضر في الشتاء وفي الصيف على السواء، والكمان مشموران إلى الكوعين بحيث يرى الزندان الضخمان الأشعران الأسودان كأنهما فرشاتان كبيرتان. ولميلان شاربان صغيران مصففان، وشعر أسود خشن مدهن بعطر مما يتدهن به العسكريون. إن ميلان هو الذي يخنق كل فضيحة في مهدها.

لهذه العملية المزعجة الكريهة التي يقوم بها ميلان خطة وضعت منذ مدة طويلة وأصبحت عادةً معروفة. فإذا سكر أحد الزبائن حتى أصبح عنيفاً، أخذ غوستاف يلاطفه إلى أن يصل ميلان، فيقترب عندئذٍ ميلان من وراء ظهره، ويبتعد

---

(1) باللغة الألمانية في النص.

عنه غوستاف فجأة، فيمسك ميلان بالرجل السكران من حزامه بإحدى يديه، ويمسك باليد الأخرى ياقته، وهو يبلغ من البراعة والسرعة في ذلك أن أحداً لم يستطع يوماً أن يرى كيف «ينشب» ميلان يديه في الرجل، ثم إذا بالسكران، ولو كان أقوى أقوياء المدينة، يطير كعروسة من عرائس القش نحو الباب الذي تفتحه مالتشيكا في اللحظة المناسبة، ثم إذا هو يمضي من الباب إلى الشارع رأساً، فيرمي إليه غوستاف بطاقيته أو عصاه أو غير ذلك مما يكون قد بقي من متاعه، ويندفع ميلان بكل ثقله، فيرخي ستارة الباب الحديد. يتم ذلك كله بغمضة عين، على نحو متسق منسجم، فما يكاد يلتفت الزبائن حتى يكون الزائر المطرود قد أصبح في الشارع، فلا يسعه، إذا كان قد جن جنونه تماماً، إلا أن يأخذ يضرب الستارة الحديد بسكينة أو بحجر، كما تدل على ذلك آثار باقية في الستارة، غير أن الفضيحة لا تكون عندئذٍ في الفندق بل في الشارع، ويكون إخمادها عندئذٍ من شأن رجال الشرطة، ومنهم من يقف دائماً قرب الفندق على كل حال.

لم يحدث لميلان يوماً ما يحدث لغيره من عمال الفنادق الآخرين، كان يقاومه السكران الذي يراد طرده، فإذا هو يقلب وراءه الموائد والكراسي أو يبلغ من قوة التشبث بالباب بيديه وقدميه أن زوجين من الثيران لا يستطيعان عندئذٍ أن يجراه إلى الخارج. كان ميلان لا يظهر في هذه العملية لا حماسة شديدة ولا مزاجاً عكراً ولا ميلاً عنيفاً إلى القتال، ولا زهواً شخصياً. لذلك كان يتمها على هذا النحو من الإحكام والإسراع. وما أن تنقضي دقيقة واحدة على طرد الزبون، حتى يكون ميلان قد عاد إلى مكانه في المطبخ أو المغسل، كأن شيئاً لم يقع.

ولكن غوستاف كان يجتاز الباب عندئذٍ إلى القاعة الصغرى، كأنما يفعل ذلك عرضاً، فينظر إلى لوتيكا الجالسة إلى إحدى الموائد مع زبائن أرقى، ويغمض عينيه فجأة، فتفهم لوتيكا أن شيئاً ما قد وقع، وأن الأمر قد سوي، فتطرف لوتيكا عندئذٍ بكلتا عينيها، من دون أن تقطع حديثها ومن دون أن تفارقها ابتسامتها، تطرف بسرعة كسرعته، لا يفطن إليها أحد، وكان ذلك يعني: «طيب شكراً، ولتظل يقظاً منتبهاً إلى النهاية».

ولا يبقى بعد ذلك إلا أمر ما شربه الزبون المطرود وما كسره. فكانت لوتيكا تعفي غوستاف من المبلغ، حين يجردان حساب النهار في ساعة متأخرة من الليل وراء حاجز أحمر.

الفصل الخامس عشر

ثمة طرق عدة يمكن أن يلجأ إليها الزبون الصاخب الذي طرد من الفندق على ذلك النحو البارع - إذا هو لم يقتد من الفندق إلى السجن رأساً - ليسترد قواه ويهدأ مما وقع له. فأما أن يمضي مترنحاً إلى الكابيا يبترد بطراوة الهواء الذي يتصاعد من النهر ويهب من الروابي المجاورة، وأما أن يستبدل بالحانة التي كان فيها حانة أخرى، فيذهب إلى خان زاريا الذي لا يبعد عن الفندق بميدان البلدية، وهناك يأخذ يصر أسنانه على ما يشاء له هواه، ويهدد ويشتم اليد التي أمسكت به على غفلة وطردته من الفندق ذلك الطرد الغادر الخؤون الذي لم يستطع دفعه.
في هذا الخان، بعد أن يهبط الظلام ويتفرق أرباب الأسر والرجال العاملون الذين لا يجيئون إلى هذا المكان إلا ليشربوا النصيب الذي اعتادوا أن يشربوه من الخمر، لا تقع فضيحة من الفضائح ولا يمكن أن تقع، لأن كل إنسان هنا يشرب ما شاء له هواه أن يشرب في حدود قدرته على دفع الثمن، وكل إنسان هنا يتصرف كما يحب، ويقول ما يشتهي أن يقول. هنا لا يطلب من الزبائن أن ينفقوا وأن يسكروا شريطة أن يتصرفوا تصرف من لم يشرب. وإذا جاوز أحد الحدود، كان هنالك زاريا، الرجل الثقيل الصموت، المتجهم الوجه المعتكر المزاج، الذي يفل سلاح السكارى والمتشاجرين ويثبط عزائمهم مهما بلغوا من شدة الهياج، فهو يهدئهم بحركة بطيئة من ذراعه الثقيلة، وبصوته المنخفض.

- هيا.. هيا.. دع هذا.. لا تلعب بالنار.. دع هذا الأمر السخيف.

ولكن حتى في هذه الخمارة العتيقة التي ليس لها قاعة منفصلة، وليس فيها نادل «غرسون» مقهى (لأن فتى من السنجق هو الذي يتولى الخدمة فيها دائماً بملابس الفلاحين) حتى في هذه الخمارة كانت تختلط العادات الجديدة بالعادات القديمة اختلاطاً غريباً.

إن المشهورين والقدامى من شاربي الراكيا ينزوون هنا في أركان مظلمة

صامتين، يكرهون الضوضاء والفوضى، ويحبون الظل والصمت في هذا الركن الذي يجلسون فيه إلى قدح الراكيا جلوسهم إلى شيء مقدس. إنهم جالسون جلستهم هذا يشربون وقد احترقت معدهم والتهبت أكبادهم وتوترت أعصابهم وطالت لحاهم ورثّت ملابسهم ولم يحفلوا بأحد واشمأزوا حتى من أنفسهم، يشربون وهم ينتظرون أن يشتعل في نفوسهم أخيراً ذلك الضياء المعجز العجيب الذي يحمله الشُرّاب لمن انقطعوا إليه انقطاعاً كاملاً، ذلك الضياء الذي يستعذبون في سبيله العذاب والسقوط والموت، والذي كلما انقضت السنون أصبح ابنجاسه ـ وا أسفاه ـ أندر وأضعف.

ولكن المبتدئين أميَل إلى الثرثرة والصخب، وخاصةً أبناء الأثرياء الشباب الذين يجتازون السن الخطرة، الذي يخطون في طريق الشر خطواتهم الأولى، الذين يدفعون ضريبة يدفعها جميع الناس لآفة الشراب وآفة الفراغ، فبعضهم إلى حين، وبعضهم إلى الأبد. على أن أكثر الناس لا يبقون في هذه الطريق مدة طويلة، بل يتحولون عنها، وينشؤون أسرة، ويسعون إلى الربح، والعمل، والحياة البرجوازية، والرذائل المتخفية، والأهواء المتوسطة. ولا يبقى في هذه الطريق إلا قلة قليلة من الأشقياء الذين كتب عليهم الشقاء، فهؤلاء يواصلون خطاهم فيها، لأنهم آثروا على الحياة الخمر، وهي في هذه الحياة القصيرة الخادعة وهم أقصر وأخدع. إنهم يعيشون للخمر ويفنون فيها، إلى أن يصبحوا كهؤلاء الجالسين هنا في الركن قاتمين بلهاء متورمين.

منذ استقرت هذه العادات الجديدة ـ الحياة التي لا نظام فيها ولا مراعاة، والتجارة التي ازدادت حركة ونشاطاً، والأرباح التي ربت وارتفعت ـ أصبح يجيء إلى حانة زاريا، عدا الغجري سومبو الذي يرافق جميع احتفالات المدينة بشبّابته البدائية، منذ ما يقرب من ثلاثين عاماً، أصبح يجيء الآن فرانتس فورلان ويعزف على الأكورديون. إنه رجل نحيل أحمر، في أذنه اليمنى قرط من ذهب. إن مهنته هي النجارة، ولكنه يحب الموسيقى والخمر حباً جماً. والجنود والعمال الأجانب يحبون أن يستمعوا إلى موسيقاه.

ويتفق في كثير من الأحيان أن يكون في الحانة عازف على الجوزلا، هو رجل من الجبل الأسود، نحيل كناسك، رثّ الملبس لكنه منتصب القامة مضيء النظرة، جائع ولكنه متحفظ، متكبر متغطرس ولكنه مضطر أن يعيش على

الصدقات. إنه يظل خلال بعض الوقت جالساً في ركن من الأركان، منزوياً عن الناس صراحة لا يطلب شراباً وينظر إلى أمام، يتظاهر بأنه لا يلاحظ شيئاً، ولا يحفل بشيء، ومع ذلك يدرك المرء أن في ذهنه أفكاراً أخرى ونيات أخرى تختلف كل الاختلاف عن تلك التي يوحي بها مظهره.

إن عدداً من العواطف المتناقضة يصطرع في نفسه، وخاصةً عظمة ما يحمله في قلبه وبؤس ما يمكن أن يظهره للناس. وهو لذلك يحس دائماً أمام الناس بشيء من الاضطراب والخجل والحرج. إنه يجلس في مكانه متكبراً صبوراً، ينتظر أن يطلب أحدهم أغنية، حتى إذا طلب أحدهم أغنية ما، سل شبّابته من كيسه في تردد، ثم نفخ فيها، وتأكد من أن القوس لم ترتخ من الرطوبة، وأخذ «يدوزن» الآلة الموسيقية، راغباً رغبة واضحة في ألا يلفت انتباه أحد إلى إعداداته الفنية هذه. وحين يسحب القوس على الوتر أول مرة، لا يسمع المرء إلا صوتاً مرتجفاً، متفاوتاً كطريق بللته مياه الأمطار. ولكنه يأخذ يصاحب الجوزلا بغناء رقيق من أنفه مع بقاء فمه مطبقاً، مكملاً بذلك صوت الجزولا موفقاً بينه وبين صوته، حتى إذا انصهر الصوتان انصهاراً تاماً في صوت شاك مطرد ينسج للأغنية فراشاً مظلماً، رأيت هذا الشيطان البائس يتحول تحولاً مفاجئاً بما يشبه السحر، فالخجل الأليم يزول، والتناقضات الداخلية تهدأ وتَمَّحي، والصعوبات الخارجية تُنْسى جميعاً. إن العازف يرفع رأسه عندئذٍ دفعة واحدة، كرجل ينزع عن وجهه قناع التواضع لأنه لم يعد في حاجة إلى أن يخفي عن الناس من هو وماذا يصنع. ويبدأ يغني بصوت لا يتوقع المرء أن يكون على هذا القدر من القوة، منشداً بعض الأبيات الاستهلاكية:

أخذ فرع الريحان يبكي قائلاً:

يا أيها الندى الرقيق، لماذا لا تسقط علي؟

فيسكت الزبائن فجأة، بعد أن كانوا يتظاهرون بأنهم لا يلاحظون شيئاً بل يتحدثون. إنهم منذ سمعوا هذين البيتين الأولين، قد سرت في نفوسهم جميعاً رعدة واحدة، لا فرق في ذلك بين أتراك ومسيحيين، من شدة ظمئهم إلى ذلك الندي الذي يعيش في الأغنية كما يعيش في أنفسهم، دون فرق أو تمييز:

ولكن حين أردف المغني يقول بصوت أخفض:

لم يكن هذا فرع ريحان.

وحين نزع حجاب الاستعارة والتشبيه، وأخذ يعدد الرغبات والمصائر الحقيقية، التركية والصربية، التي تختبئ وراء صورة الندى وصورة فرع الريحان انقسمت العواطف لدى المستمعين وسارت في طرق مختلفة باختلاف ما يشعر به كل فرد وما يرغب فيه وما يعتقد به. ومع ذلك فإنهم جميعاً يصغون إلى الأغنية بهدوء حتى النهاية. وفقاً لقانون غير مكتوب، ويصبرون ويكتمون ما في أنفسهم ولا يظهرون شيئاً مما يعتلج في صدورهم، وإنما يكتفي كل منهم بالنظر إلى القدح الصغير الذي أمامه حيث يتراءى له على صفحة الراكيا الرائقة النصر الذي يرغب فيه، وتتراءى له المعارك والأبطال، والمجد والسنا، وغير ذلك مما لا وجود له في أي مكان بالعالم.

وحين يظل السادة الصغار وأبناء الأثرياء يشربون مدة طويلة، تبلغ الحركة أوجهاً في الحانة. وعندئذٍ يكون هناك عمل لسومبو، وفرانتس فورلان، والأعور وشيخة الغجرية.

إن شيخا غجرية حولاء، مسترجلة، وقحة، تشرب مع جميع من يستطيعون أن يدفعوا، ولكنها لا تسكر أبداً، ولا يمكن أن يتصور المرء حفلة من حفلات السكر تخلو منها ومن أمازيحها البذيئة.

إن الناس الذين يتسلون مع الأعور وسومبو وشيخاً يتغيرون من حين إلى حين، ولكن الأعور وسومبو وشيخة لا يغيبون. إنهم يعيشون بالموسيقى والمزاح والراكيا. إن عملهم الذي يقومون به هو تسلية الآخرين، وأن الربح الذي يجنونه هو ما يبدده الآخرون، وأن حياتهم الحقيقية هي أثناء الليل، في تلك الساعات الشاذة التي يخلد فيها الأصحاء والسعداء إلى النوم، في تلك الساعات الشاذة التي تخلق فيها الراكيا والغرائز المكبوحة إلى ذلك الحين حالة نفسية عاصفة براقة، وحماسات غير متوقعة، تظل هي نفسها في كل مرة، ولكنها تبدو في كل مرة أيضاً جديدة، وتبدو في كل مرة أجمل منها في أي وقت مضى. إن أولئك الثلاثة هم الشهود الصامتون المأجورون الذين يتجرأ كل إنسان أن يظهر أمامهم على حقيقته (أو كما يقول التعبير الصربي ـ الكرواتي أن «يظهر الدم الذي تحت جلده») من دون أن يشعر بعد ذلك بندامة أو خجل. إن كل شيء مباح معهم وأمامهم، كل شيء مما لو ظهر لغيرهم لعد فضيحةً وعاراً، ومما لو قارفه المرء في بيته نفسه لكان إثماً ولكان شيئاً مستحيلاً. إن جميع أولئك الآباء وأولئك

الأبناء، الموسرين، المعتبرين، الذين ينتمون إلى أسر طيبة، يستطيعون بالتستر وراء اسم هؤلاء المسلمين ووراء مسؤولية هؤلاء المسلمين، يستطيعون خلال لحظة من اللحظات أن يظهروا بما يجرؤون أن يظهروا به أمام أحد من الناس. وهم عندئذٍ يظهرون على حقيقتهم أو على جزء من حقيقتهم من حين إلى حين في أقل تقدير: فالقساة يستطيعون أن يسخروا بهم وأن يضربوهم، والهيابون يستطيعون أن يشتموهم، والمبذرون يستطيعون أن يقدموا إليهم الهدايا، والمزهوون يستطيعون أن يشتروا منهم الثناء والمديح، والمكتئبون وأصحاب النزوات يستطيعون أن يتمتعوا بأمازيجهم وأعمالهم الشاذة، والفاجرون والعَهَرة يستطيعون أن يتلذذوا بتصرفاتهم الجريئة أو بما يقدمون لهم من خدمات أخرى.. إنهم حاجة أبدية لا يعترف بها أولئك الذين كبحت حياتهم الروجية وتشوهت من سكان المدينة. إنهم أشبه بفنانين في بيئة لا تعرف الفن والمدينة لا تخلو يوماً من رجال ونساء من هذا الطراز، مغنين أو ماجنين أو شاذين أو مهرجين، حتى إذا اهترأ أحد منهم ومات، حل محله غيره. إذ إلى جانب المعروفين منهم والمشهورين ينشأ ويترعرع دائماً جدد يساعدون على قتل الوقت ويشيعون المرح في حياة الأجيال الجديدة. ولكن سينقضى وقت طويل قبل أن يظهر رجل مثل سالكو الأعور.

حين وصل إلى المدينة بعد الاحتلال أول «سيرك»، توله الأعور بفتاة كانت ترقص على الحبل، وبسبب هذه الفتاة ارتكب أنواعاً من الحماقات وضروباً من الشذوذ سُجِنَ من أجلها وضُرِبَ، كما أن الأغنياء الذين لم يمنعهم خلق من التغرير به ودفعه إلى تلك التصرفات فرضت عليه غرامات كبيرة.

وقد انقضت الآن على تلك الأيام بضع سنين، وتعود الناس أموراً كثيرة، وأصبح وصول الموسيقيين والبهلوانات والحواة من الأجانب لا يحدث إثارة عامة شاملة معدية كما كان الأمر في الماضي يوم وصول أول سيرك، غير أن الناس لا يزالون يتحدثون عن غرام الأعور بالراقصة.

إن الأعور لا يزال منذ مدة طويلة يفنى في خدمة الناس، يخدمهم في النهار جميعاً في كل شأن من الشؤون، وفي الليل يخدم البكوات منهم بتسليتهم إذ يشرب ويطيش صوابه ويتصرف تصرفات تحدث الفوضى. وهكذا دواليك من جيل إلى جيل، فكلما هجر بعضهم هذا النوع من الحياة واحتل مكانته في

المجتمع وتزوج وهدأ، شبَّت أجيال جديدة تتبع هذه المراحل نفسها. وقد ضوى الأعور الآن، وشاخ. وهو الآن ينفق من وقته في الحانة أكثر مما ينفق منه في العمل، ويعيش على ما يجنيه من ربح أقل مما يعيش على ما يقدمه إليه الأغنياء من صدقات وشراب وفتات.

والناس المجتمعون في خمارة زاريا في الليالي الممطرة من ليالي الخريف، يغرقون في الملل والضجر، وهؤلاء بعض الأغنياء قد جلسوا إلى إحدى الموائد. إن فكرهم بطيء، ما ينفك يدور حول أمور حزينة مزعجة، وكلامهم ثقيل محنق يدوي في فراغ، ووجوههم باردة غائبة مرتابة. إن الراكيا نفسها عاجزة عن تنشيط مزاجهم. وهذا هو الأعور قد جلس على مقعد في ركن من الخمارة، وراح النعاس يغمض جفنيه. إنه مهدود القوى من التعب ومن الحر الرطب ومن أولى أقداح الراكيا. لقد تبلل اليوم بمياه المطر حتى العظام وهو يحمل بعض الأشياء إلى أوكولشته.

وهذا أحد الزبائن المكتئبين على مائدة الأغنياء يذكر الغرام القديم الشقي الذي وقع فيه الأعور، ويذكر راقصة السيرك. إنه يذكر ذلك كأنما بمصادفة. وهذه هي النظرات جميعاً تتجه إلى الركن الذي يقبع فيه الأعور. غير أن الأعور يظل ساكناً ويتظاهر بأنه لا يزال غافياً. فليقولوا ما يشاؤون أن يقولوه: لقد قرر الأعور حازماً ـ وذلك في صباح هذا اليوم نفسه أثناء صداع شديد ألم به ـ أنه لن يجيب بشيء على تهكمهم وعلى استهزاءاتهم المُرّة، وأنه لن يسمح بعد الآن بأن تدبر له «مقالب» قاسية كتلك التي دبرها له هؤلاء الأغنياء ليلة البارحة في الخمارة نفسها.

قال أحدهم:

ـ أظن أنهما لا يزالان يتراسلان.

وأضاف ثان:

ـ انظر إلى هذا الزنيم: يكتب رسائل غرامية إلى امرأة، وله في الوقت نفسه امرأة أخرى قريبة منه.

ويحاول الأعور أن يظل ساكناً، غير أن هذا الحديث عنه يهزّه ويؤثّر فيه. وكأن الشمس أخذت تدغدغ وجهه، فعيناه تريدان أن تتفتحا عنوة، وعضلات وجهه تسترخي في ابتسامة سعيدة. إنه لا يطيق أن يظل ساكناً صامتاً. وها هو ذا

يحرك يده في أول الأمر حركة من لا يبالي بالأمر ولا يحفل به، ولكنه لا يلبث أن يقول أخيراً:

ـ كل هذا مضى وانقضى..

ـ مضى وانقضى؟ هه.. اسمعوا يا جماعة، ألا إن هذا الأعور لمجرم غريب. هناك، في بعيد، تضوي من أجله امرأة، وهنا تجن بسببه امرأة أخرى. مضت وانقضت الأولى، وستمضي وتنقضي الثانية، ثم تجيء ثالثة.. إلى أين يمكن أن تذهب روحك أيها الشقي، إذا كنت تذهب بعقولهن بعضاً وراء بعض؟

كان الأعور قد وقف واقترب من مائدة الجماعة. لقد نسي النوم، ونسي التعب، ونسي العهد الذي قطعه على نفسه ألا ينجرّ إلى حديث. وها هو ذا يضع يده على قلبه مؤكداً لهؤلاء السراة أنه ليس بالعاشق ولا بالمغوي الذي يتصورون. إن ثيابه لا تزال مبتلة، ولا يزال وجهه مخضلاً قذراً (لأن طربوشه من نوع رديء يحول لونه) غير أنه غارق في ابتسامة جذلى منفعلة. وها هو ذا يجلس إلى جانب مائدة الأثرياء.

صاح سانتو بابو، وهو يهودي سمين خفيف الحركة، ابن منتو وحفيد موردبابو، وهما تاجران مشهوران من تجار الأواني المعدنية، صاح يقول:

ـ هات كأس روم للأعور..

ذلك أن الأعور أصبح في الأيام الأخيرة يشرب الروم بدلاً من الراكيا كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً. فهذا الشراب الجديد إنما وجد لأناس مثله إن صح التعبير، فهو أقوى من الراكيا، وأسرع تأثيراً، وأطيب مذاقاً. إن الروم يقدم في زجاجات صغيرة سعة الواحدة منها عُشْر لتر، وعلى الورقة الملصقة بها صورة امرأة خلاسية شابة، غليظة الشفتين ملتهبة العينين على رأسها قبعة كبيرة من قش، وفي أذنيها قرطان كبيران من ذهب، وقد كتب تحت هذه الصورة بأحرف حمراء: جامايكا (وذلك شيء يذكي الميل إلى الغربة لدى أهل البوسنة حين يكون أحدهم في مرحلة الإدمان قريباً من الهذيان. وهو من صنع آيسلر وسيروفاتكا وشركاؤهما في سلافونسكي برود). إن الأعور ما يكاد يرى صورة المرأة الخلاسية حتى يشعر بنار الشراب الجديد ورائحته وحتى يتصور أنه لو مات قبل هذا الوقت بسنة واحدة لحرم من تذوق هذه النعمة من نعم الحياة (وما أكثر ما في العالم من جمال كهذا الجمال!). وما أن يتصور هذا حتى يرقّ قلبه، ولذلك فهو حين يفتح

زجاجة من الروم يتلبث دائماً خلال بضع لحظات سادراً يفكر. وبعد اللذة التي يستشعرها من هذا التصور، تأتي متع الشراب نفسه.

إنه الآن ممسك بالزجاجة أمام وجهه كأنه يتحدث إليها حديثاً مداعباً غير مسموع. وهذا هوذا الشخص الذي بدأ باستدراجه إلى الحديث وظفر به، يسأله بقسوة:

ـ ماذا تنوي أن تصنع بالفتاة أيها الشقي؟ أتنوي أن تتزوجها أم أنت تعبث بها كما عبثت مع غيرها؟

إن الفتاة التي يعنيها السائل هي بنت من دوشتشه يقال لها باشا. إنها أجمل فتاة في المدينة، مات عنها أبوها وهي تعمل مطرّزة كأمها.

وقد كان الشباب في الصيف الماضي، أثناء جولاتهم وسكرهم، يتحدثون كثيراً عنها، ويؤلفون الأغاني فيها، وفي جمالها الذي لا سبيل إليه. فإذا بالأعور يتحمس لها معهم شيئاً فشيئاً، من دون أن يعرف لماذا ولا كيف.. وهكذا أخذوا يتندرون عليه.

وفي ذات يوم من أيام الجمعة أراد الشباب أن يقصفوا وأن يلهوا فقادوا الأعور إلى ضاحية يستطيعون فيها أن يسمعوا ضحكات مخنوقة وهمسات ووشوشات تخرج إليهم من خلال الأبواب والأسيجة.. ضحكات وهمسات فتيات لا يرون وجوههن. وإنهم لفي ذلك إذا بباقة من الزهر ترمى من فناء كانت فيه باشا مع صاحباتها، فتقع الباقة بين قدمي الأعور، فيتوقف الأعور مضطرباً حتى لا يدوس الأزهار، ولا يجرؤ على التقاط الباقة. وأخذ الفتيان الذين جاؤوا به إلى هذا المكان، أخذوا يربتون على ظهره، ويهنئونه على هذه الحظوة العظيمة التي نالها، فإن باشا قد اختارته من بين جميع الشبان، واهتمت به اهتماماً لم يسبق لأحد أن حظي منها بمثله.

وشربوا، تلك الليلة، في ميزالين، على شاطئ النهر تحت أشجار الجوز، حتى الفجر. فكان الأعور جالساً قرب النار، منتصب القامة متفخماً، فتارةً يندفع في فرح شديد حتى لكأنه خرج عن طوره، وتارةً يطوف في وجهه هم وحزن ويطرق مفكراً. ولم يقبل صحبه في تلك الليلة أن يتولى تقديم الشراب والاهتمام بالقهوة والطعام.

قال له أحدهم:

ـ هل تعرف أيها المسكين ما معنى أن ترمي فتاة فتى بباقة من الزهر؟ معناه أن باشا تقول لك: إنني أضوي حباً بك، كهذه الزهرة المقطوعة، وأنت لا تخطبني، ولا تدع لي أن أتزوج؟ هذا هو المعنى.

وأخذ الشبان جميعاً يحدثونه عن باشا، عن هذه الفتاة الفريدة العفّة البيضاء، التي تتثنى في مشيتها تثني العنقود الناضج فوق الجدار من فناء البيت، ينتظر من يقطفه. وقالوا له: إن الشخص الذي تنتظر باشا أن يقطفها إنما هو الأعور نفسه.

وتظاهروا بالغضب وأخذوا يصيحون قائلين: كيف يمكن أن تلقي بنظراتها عليه؟ ودافع عنه آخرون.

وظل الأعور يشرب ويشرب. فكان تارةً يصدِّق المعجزة، وتارةً يكذِّبها قائلاً لنفسه: إن ذلك مستحيل. وكان في أثناء الحديث يدفع عن نفسه تهكم صحبه من السُّراة، ويحاول أن يفهمهم أن هذا الحب ليس له، فما هو إلا قرد فقير عجوز لا يغري. ولكنه كان في لحظات الصمت يحلم هو نفسه بالفتاة، وبجمالها، وبالسعادة التي يمكن أن تهبها له دون أن يتساءل هل يمكن أن يصل إليها أو لا. غير أن كل شيء ممكن في مثل هذه الليلة الرائعة من ليالي الصيف التي توسع الراكيا والأغاني والنار آفاقها إلى غير نهاية. ولئن لم يكن ثمة شيء واقع، فليس ثمة شيء غير ممكن، وليس ثمة شيء مستبعد استبعاداً تاماً. إن الأعور يعرف أن هؤلاء الأثرياء يتندّرون عليه ويتفكّهون به. إن هؤلاء السادة لا يستطيعون أن يعيشوا بلا ضحك، ولا بد لهم من مناكدة أحد الناس، فليكن هو المهرج الذي يضحكهم، فلقد كان لهم كذلك ولا يزال إلى الآن. ولكن لئن كان ذلك كله مزاحاً لا أكثر، فهناك شيء ليس بالمزاح البتة، هو تلك المرأة الفاتنة، وهذا الحب العسير المنال الذي طالما حلم به ولا يزال يحلم به إلى الآن. وليست بالمزاح أيضاً تلك الأغاني التي يعيش فيها الحب واقعياً وغير واقعي معاً، تلك الأغاني التي تبدو فيها المرأة قريبة وبعيدة في آن واحد، كما هي في خياله. كل شيء، حتى هذا، كان في نظر هؤلاء السراة مزاحاً، أما في نظره فقد كان هو الحقيقة، وكان شيئاً مقدَّساً انطوت نفسه عليه دائماً، ووجد وجوداً واقعياً بصرف النظر عن تسليات هؤلاء الأغنياء، وعن الشراب والأغاني، وعن كل شيء، وعن باشا نفسها.

إنه يعرف هذا كله، ولكنه أيضاً ينسى هذا كله. لأن نفسه تذوب، وعقله يسيل كما يسيل الماء.

هكذا، بعد انقضاء ثلاث سنين على حبه العظيم وقِصّته الفاضحة مع النمسوية التي كانت ترقص على الحبل، وقع الأعور في سحر غرام جديد. . ووجد الأغنياء والمتعطلون لعبة جديدة فيها من من القسوة والإثارة ما يكفي لتوفير المرح لهم خلال أشهر وسنين.

وقع ذلك في منتصف الصيف. ثم انقضى الصيف وجاء الشتاء، والمزاح حول غرام الأعور بباشا الحسناء يملأ السهرات ويقصر الأيام للناس في مركز المدينة. أصبح الأعور لا يسمى الآن إلا باسم «العريس الشاب» أو باسم «العاشق». وكان الأعور، أثناء النهار، حين يمضي يشتري من الدكاكين مصدوعاً تعساً ما يُكلِّف بشرائه، ويطوف من مكان إلى مكان حاملاً أشياء شتّى، كان يدهشه أن يُسَمَّى بهذا الاسم، كما كان يحنقه أن يسمى بهذا الاسم، وكان لا يزيد على أن يرفع كتفيه ساخراً. حتى إذا هبط الليل، واشتعلت الأنوار في خمارة زاريا، وصاح أحدهم يطلب كأس روم «للأعور»، وأخذ ثانٍ يغني بصوت خافت كأنما هو يغني عرضاً ومصافةً:

حانت صلاة المغرب. وغابت الشمس

فهي لا تستطيع الآن في وجهك

تغير عندئذٍ كل شيء على حين فجأة. فلا أحمال الآن ولا أثقال ولا أكتاف ترتفع، ولا مدينة، ولا خمارة، بل ولا أعور. . لا أعور جمده البرد وطالت لحيته، وتدثر بأسمال بالية ومِزَقٍ من ثياب غيره. . لا شيء من هذا كله الآن. لا شيء الآن في خيال الأعور إلا شرفة عالية، تضيئها أشعة الشمس الغاربة، وتزينها كرمة وفتاة تنظر وتنتظر الرجل الذي سترميه بباقة الأزهار. صحيح أن حوله أيضاً ضحكات صاخبة وملاحظات شتى وأمازيح فظة، غير أن ذلك كله بعيد، كأنه في ضباب، في حين أن الشخص الذي يغني قريباً منه كل القرب، هنا إلى جانب أذنه:

ليتني أستطيع أن أستدفئ

بأشعة الشمس، قربك.

وها هو ذا يستدفئ بأشعة الشمس، التي غربت منذ مدة، كما لم يستدفئ في حياته كلها بأشعة الشمس الواقعية التي تطلع على المدينة وتغرب عنها كل يوم.

ـ كأس روم للأعور.

هكذا انقضت ليالي الشتاء. وفي آخر الشتاء حدث أن تزوجت باشا. إن مطرّزة دوشتشه المسكينة، الفاتنة الجمال، التي لم تكمل التاسعة عشرة من عمرها، قد تزوجت حاجي عمر الذي يسكن وراء القلعة (وهو رجل غني محترم، في الخامسة والخمسين من عمره) تزوجته على ضُرَّة.

إن حاجي عمر متزوج منذ ثلاثين عاماً. وزوجته من أسرة كبيرة. وقد اشتهرت ببراعتها وذكائها. إن الأرض التي يملكها حاجي عمر وراء القلعة لهي قرية حقيقية زاهرة ملأى بجميع أنواع الثروات. وأن دكاكاينه التي في المدينة مبنية بمواد متينة، وهي تُدرُّ عليه أرباحاً ضخمة مضمونة. وهذا كله ليس بفضل حاجي عمر، الرجل الهادئ البطيء الذي يكتفي بالنزول من القلعة إلى المدينة مرتين في النهار ويعود منها، بقدر ما هو بفضل امرأته النشيطة، الذكية، الدائمة، الابتسام، التي كانت جميع النساء التركيات في المدينة تُعُدُّ رأيها في كثير من الأمور القول الفصل ومقياس كل شيء..

إن هذه الأسرة هي من جميع النواحي أحسن الأسر وأكثرها حظوة باعتبار الناس. ولكن هذين الشخصين اللذين تقدما في السن لم يرزقا أولاداً، لقد ظلا مدة طويلة يأملان أن ينجبا، حتى إن حاجي عمر حج إلى مكة ووزعت امرأته صدقات كثيرة على الفقراء، أملاً في أن يَمُنَّ عليهما الله بالولد. ثم انقضت السنون، وزادت ثروتهما، وازدهرت أملاكهما، ولم ينعم عليهما بما كانا يرغبان فيه، وصبر حاجي عمر، وصبرت زوجته الراجحة العقل، غير أن الأمل قد زال الآن، فقد بلغت المرأة الخامسة والأربعين من عمرها.

إن الثروة الضخمة التي سيخلفها حاجي عمر بعد مماته هي الآن في خطر. وذلك أمر لا يشغل بال أقربائه وأقربائها الكثر فحسب، وإنما يشغل بال المدينة كلها تقريباً. فبعض الناس يتمنى أن يظل هذا الزواج بلا ولد إلى الأبد، وبعضهم يرى أنها خسارة أن يموت رجل كهذا الرجل من دون أن يكون له وريث، فتنقسم ثروته وتتبعثر بين عدد من أقربائه، لذلك كان هؤلاء يحاولون أن يقنعوه بالزواج من امرأة أخرى شابة، ما دام في الوقت متسع، وما دام ثمة أمل في الخلف. هكذا كان أتراك المدينة منقسمين في الأمر فريقين.

وجاءت امرأة حاجي عمر العاقر، فحلت بنفسها المشكلة. قالت في عزم وصدق، على عادتها في كل شأن من الشؤون، قالت لزوجها المتردد:

ـ لقد وهبنا الله كل شيء.. حمداً له وشكراً.. وهب لنا الوفاق والصحة والغنى.. ولكنه لم يهب لنا ما ينعم به على كل فقير من الفقراء: وهو أن نرى لنا ابناً، وأن نعرف لمن سيؤول هذا كله بعدنا. ولكن إذا شاءت إرادة الله أن أصبر أنا على هذا العذاب، فليس عليك أن تصبر أنت. وإني لأرى أن المدينة قد انتوت أن تزوجك، وأن تحمل عنا ما تحمل من هموم، فإذا كانوا يريدون أن يزوجوك، فأنا أحق أن أفعل ذلك، لأنني خير صديق لك.

قالت له زوجته هذا الكلام، ثم عرضت عليه الخطة التي في ذهنها. ما دام الأمل في أن تلد له ولداً قد زال. فيجب أن يتزوج عليها امرأة أخرى شابة يمكن أن تنجب له ذرية. إن الشرع يبيح هذا. وستظل هي في بيته ربة المنزل تسهر على أن تجري الأمور على خير حال.

ظل حاجي عمر يتمنَّع مدة طويلة، قائلاً: إنه لا يريد صحبة غير صحبتها، وأنه ليس في حاجة إلى امرأة أخرى شابة. غير أن زوجته لم تُصِرّ على خطتها فحسب، بل أنبأته باسم المرأة التي اختارتها له. قالت: ما دام الغرض من الزواج هو الأولاد فخير شيء أن يقع الاختيار على فتاة صحيحة الجسم جميلة فقيرة، تنجب له أولاداً صحاحاً، وترضى بما يقسم لها مدى الحياة، وأنها قد اختارت له الحسناء باشا، بنت مطرّزة دوشتشه.

وذلك ما تم. فبإرادة الزوجة القديمة وبمعاونتها، تزوج حاجي عمر الفتاة الجميلة باشا. وبعد أحد عشر شهراً وضعت باشاً غلاماً جميلاً. وهكذا حُلَّتْ مشكلة الوريث، وتبددت الآمال الكثيرة التي كان أقرباء حاجتي عمر يُمَنّون أنفسهم بها وسُدَّت أفواه الناس بالمدينة. وسعدت باشا، ورضيت ربة البيت القديمة، وعاشت المرأتان على وفاق، كأم وابنتها.

ذلك الحل السعيد كان للأعور بداية آلام مبرحة. وكانت آلام الأعور في ذلك الشتاء بسبب زواج باشا هي التسلية الرئيسية التي يدور عليها مزاح المتعطلين في خمارة زاريا. إن العاشق المُخْفِق يشرب كما لم يشرب من قبل، والأغنياء الذين يدفعون ثمن شرابه يستطيعون بهذا الذي يدفعونه أن يضحكوا حتى الدموع. إن الساخرين يحملون إليه من باشا رسائل ملفقة ويؤكدون له أنها تبكي ليل نهار، وأنها تذوب شوقاً إليه، ولكنها لا تطلع أحداً على سر ما تعاني من عذاب. والأعور يجن جنونه، ويغني، ويبكي، ويجيب عن جميع الأسئلة جاداً بتفصيل،

ويندب حظه على أن القدر جعله دميماً كل هذه الدمامة، فقيراً كل هذا الفقر.

- قل لنا يا أعور، أنت أصغر من حاجي عمر بكم سنة؟

هكذا كان يبدأ أحد الأثرياء الحديث. فيجيب الأعور قائلاً بمرارة:

- لا أعلم، ولكن ماذا ينفعني أن أكون أصغر منه سناً؟

ويقول آخر:

- لو كان الحكم على أساس القلب والحب، لما نال حاجي عمر ما نال، ولما بقي الأعور حيث هو الآن.

وليس الأعور في حاجة إلى أكثر من هذا حتى تتأثر نفسه وتَرِقّ عواطفه. وها هم أولاء يصبون له روماً فوق روم، ويؤكدون أنه ليس فقط أصغر سناً وأجمل وأقرب إلى باشا بالقلب من حاجي عمر، ولكنه أيضاً، في آخر الأمر، ليس فقير إلى الحد الذي يتصوره الناس، بل ليس فقيراً كما يتراءى للناس. لقد اختلق هؤلاء المتعطلون، خلال الليالي الطويلة التي يقضونها أمام أقداح الراكيا، اختلقوا قصة طويلة عريضة ما ينفكون يروونها. إن أب الأعور ضابط تركي مجهول لم يره ابنه أبداً. فقالوا: إن هذا الضابط قد ترك في الأناضول لابنه غير الشرعي الموجود في فيشيغراد، وهو وريثه الوحيد، قد ترك له مساحات كبيرة من الأراضي التي يملكها، ولكن أقرباء له هناك قد حالوا دون إنفاذ وصيته. ويكفي أن يذهب الأعور بنفسه إلى تلك المدينة الغنية البعيدة، مدينة بروسه، حتى يحبط مؤامرات ومكائد أولئك الورثة الكاذبين وحتى يحصل على حقوقه كاملة. فإذا فعل ذلك كان قادراً عندئذٍ على أن يشتري حاجي عمر نفسه، وعلى أن يشتري كل ما يملكه حاجي عمر من ثراء.

إن الأعور يصغي إلى كلام هؤلاء الناس، ويشرب، ولا يزيد على أن يتنهد. إن هذا كله يحزنه أشد الحزن، غير أنه يُسِرُّه في الوقت نفسه أن يحس وأن يتصرف إحساس وتصرف رجل خُدِعَ وسُرِقَ هنا في هذه المدينة وخدع وسرق هناك في تلك البلاد البعيدة الجميلة التي جاء منها أبوه المجهول. وها هم هؤلاء الناس يهيئون له سفره المزعوم إلى بروسه. إن تهكماتهم تطول وتقسو، وتتناول أدق التفاصيل.

ففي ذات ليلة جاؤوا بأوراق سموها جواز سفر، ودفعوا الأعور إلى وسط الخمارة، وأخذوا هنالك يديرونه ويفحصونه ويسجّلون على جواز السفر علاماته

المميزة بمزاح فظ وضحك صاخب. وفي مرة أخرى حسبوا ما سيحتاج إليه من مال حتى يصل إلى بروسه وأخذوا يتساءلون عن طريقة السفر وعن المكان الذي سيبيت فيه ليلته. وبهذا انقضى جزء من الليل الطويل.

إن الأعور يعترض ما دام لم يشرب: إنه يصدّق ولا يصدّق هذا الكلام الذي يقال له. إنه يشك أكثر مما يصدق، أو قل إنه لا يصدّق شيئاً البتة ما دام لم يسرف في الشراب. ولكنه متى سكر أخذ يسلك سلوك من يصدق. إنه حين تطيش الخمر بلبه، لا يتساءل عما هو حقيقة وعما هو مزاح وكذب. إنه بعد أن يشرب الزجاجة الثانية من الروم، يحس بهواء معطر يأتي إليه من بروسه البعيدة، ويرى ـ نعم يرى ـ حدائقها الخضراء ومبانيها العالية. أجل، إنه امرؤ غُدر به وعُذّبَ منذ ولادته في كل أمر من الأمور، في أسرته، وفي ماله، وفي الحب. لقد أسيء إليه، أساء إليه البشر وأساءت إليه السماء. ومن المؤكد أنه ليس كما يبدو، وليس كما يعده الناس. وكلما شرب الأعور كأساً جديدة قويت حاجته المعذبة إلى أن يعلن ذلك لمن حوله من الناس، رغم أنه يدرك مدى الصعوبة في البرهان على حقيقة هي عنده واضحة جلية لكن ما فيه وما حوله يكذبها. ومع ذلك فإنه ما يكاد يشرب أول قدح من الراكيا حتى يصارح بذلك كل واحد، طوال الليل، بكلمات متقطعة وحركات ثقيلة، من خلال دموع السكر. وكلما أوغل في المصارحة أغرق الذين حوله بالضحك، وأمعنوا في السخر منه. إنهم يبلغون من الضحك ويبلغون من التلذذ بالضحك أن خواصرهم تنتفخ، وأن فكاكهم تأخذ تصر صريراً من تلك القهقهة المعدية التي لا سبيل إلى مقاومتها، والتي هي ألذ من كل طعام ومن كل شراب. إنهم ينسون بالضحك ضجر الليل في الشتاء، ويأخذون يشربون إلى جانب الأعور على غير قصد واعتدال.

وقال له مكي آغا سراج الذي يعرف أكثر من غيره كيف يثير الأعور وكيف يحنقه بأسلوبه البارد ومظهره الوقور:

ـ انتحر. . انتحر يا أعور. . فإنك لا تستحق الحياة ما دمت لم تستطع أن تنتزع باشا من ذلك العاجز حاجي عمر! انتحر يا أعور، فتلك نصيحتي إليك.

فيقول الأعور متفجعاً:

ـ هه. . انتحر. . انتحر. . أتظن أنني لم أفكر في هذا؟ فقد ذهبت إلى الكابيا مائة مرة لألقي بنفسي في نهر درينا، ومائة مرة صَدَّني عن ذلك شيء ما. .

ـ ما الذي صدّك؟ لا شك إنه الخوف يا أعور. إن فرائصك ترتعد خوفاً يا أعور.
ـ لا والله.. ليس هو الخوف.. ليس هو الخوف.
ويقفز الأعور وسط الضجيج والضحك، ويضرب صدره، ويقتطع كسرة من الخبز الذي أمامه، ويحملها إلى وجه مكي آغا الساكن البارد، ويقول له:
ـ هل ترى هذه؟ أحلف لك بهذه النعمة إنه ليس الخوف.
وفي هذه اللحظة ينطلق أحدهم يغني بصوت رقيق:

غابت الشمس

فهي لا تسطع الآن في وجهك.

وتمضي الجماعة كلها تصدح بالأغنية جوقة واحدة، فيغطي صوتها صوت مكي آغا الذي يصيح بالأعور قائلاً:
ـ انتحر.. انتحر..
وإذ كانوا ينطلقون في هذا الغناء، كان يستبد بهم هم أنفسهم ذلك الهياج الذي يريدون أن يدفعوا إليه ذلك المسكين، ثم إذا بكل شيء يستحيل أخيراً إلى هرج ومرج وجنون مطبق.
وفي ذات ليلة من ليالي شباط، ظلوا على حالهم تلك إلى الفجر، وقد استبدَّ بهم الجنون كما استبد بضحيتهم، حتى إذا طلع الصباح خرجوا جميعاً من الحانة، ومضوا إلى الجسر، وقد دفئت أجسامهم وخرجوا عن أطوارهم وامتلأت أوردتهم بالشراب.. كان الجسر شبه خال من الناس تغطيه غشاوة من جليد.
وفي وسط الصياح العالي والضجيج العاصف والضحك الصاخب، تراهنوا هذا الرهان: من ذا الذي يجرؤ أن يجتاز الجسر سائراً على الإفريز الحجري الضيق الذي تلتمع عليه غشاوة الجليد؟
قال أحد السكارى:
ـ الأعور يجرؤ.
فصاح آخر:
ـ الأعور؟ مستحيل..
فصرخ الأعور وهو يلطم صدره بيده:
ـ من لا يجرؤ؟ أنا؟ سترى يا مسكين.. إنني أجرؤ على ما لا يجرؤ عليه رجل.

ـ لاتجرؤ. . هيا افعل إن كنت تجرؤ. .

ـ صحيح والله.

ـ الأعور يجرؤ. . نعم يجرؤ. .

ـ لا. . كذاب.

هكذا كان يتبارى هؤلاء السكارى صائحين متفاخرين، رغم أنهم كانوا يجدون عناء في الثبات على أقدامهم فوق الجسر العريض. إنهم يترنحون ويتأرجحون ويتشبث بعضهم ببعض.

لم ينتبهوا إلى اللحظة التي صعد فيها الأعور على الإفريز الحجري، يحاول أن يحتفظ بتوازنه، وأن يتقدم في سيره فوق البلاطات على الجدار.

إن عرض الإفريز الحجري لا يزيد على شبرين. والأعور يسير مائلاً إلى اليسار تارةً إلى اليمين تارةً أخرى، على شماله الجسر، وعلى الجسر تحت ساقيه جمهرة من السكارى ترافق كل خطوة من خطواته، وتصيح بكلمات لا يكاد يميزها، فهي أشبه بضوضاء غير مفهومة.

أما على يمينه فليس ثمة إلا الفراغ، وفي هذا الفراغ، في مكان ما في أعماق هذا الفراغ، تحت، يهدر النهر الذي لا يرى. ومن النهر يتصاعد بخار كثيف يشبه أن يكون دخاناً أبيض ينتشر في الفضاء في هذا الصباح البارد.

وتوقف المارة القلائل مذعورين وحملقت عيونهم وهم ينظرون إلى الرجل السكران الذي لا يمشي على الجسر، بل يسير فوق الإفريز الضيق الزلج المرتفع فوق الهاوية، وهو يحرك ذراعيه في اضطراب ليحافظ على توازنه. وبين هذا الحفل من السكارى، تجمَّد بعضهم في أمكنتهم كأنهم يفيقون من حلم، وجعلوا ينظرون إلى هذه اللعبة الخطرة وقد امتقعت وجوههم خوفاً. إن هؤلاء هم الذين لم يبلغوا من السكر ما بلغه الآخرون، فهم لا يزالون يحتفظون بشيء من صحو الذهن. أما الآخرون فكانوا لا يدركون الخطر، وهم يسيرون في محاذاة الإفريز، ويرافقون بصياحهم ذلك السكران الذي يترنح ويتراقص فوق الهوة محاولاً أن يتوازن.

أحس الأعور فجأة أنه انفصل عن رفاقه بحكم وضعه الخطر. إنه الآن أشبه بعفريت ضخم يعلوهم جميعاً. إن خطواته الأولى محاذرة بطيئة. وأن نعليه الثقيلين ينزلقان في كل لحظة على البلاطات التي تغطيها غشاوة رقيقة من الجليد.

إنه يحس بأن قدميه تركضان تحته، وأن الهاوية تجذبه جذباً لا سبيل إلى مقاومته، وأنه يهم أن يسقط، وأنه يسقط حقاً.

غير أن هذا الوضع الغريب، وإحساسه بأن خطراً كبيراً يهم به، قد بثّا فيه قوى جديدة، وقدرة لا عهد له بمثلها من قبل. وأصبح في كفاحه من أجل الاحتفاظ بتوازنه، يقفز قفزات قصيرة ما تنفك تزداد قوة ونشاطاً، وأصبح يزداد انحناء عند مستوى الجذع والركبتين. وبدلاً من أن يمشي أصبح يرقص رقصاً بخطوات قصيرة، لا يدري هو نفسه لماذا، أصبح يرقص هذا الرقص من دون اهتمام، كأنما هو في فسحة من غابة، فسحة عريضة خضراء، لا على حافة ضيقة مغطاة بجليد. وفجأة، أصبح خفيف الحركة مرناً كما يصبح المرء كذلك في الأحلام. إن جسمه الكبير المتعب قد تخلص الآن من ثقالته. إن الأعور السكران يرقص الآن رقصاً، ويتموَّج ويتثنى فوق الهاوية كأن له جناحين. إنه يحس بأن جسمه يخرج من موسيقى يرقص هو على نغماتها، وأن من جسمه تنبع قوة فرحة تهب له الأمن وتمده بالتوازن. إن الرقص يمضي به إلى حيث لا يستطيع المشي أن يقوده. وأصبح لا يفكر في الخطر، ولا يخطر بباله أن من الممكن أن يسقط، وراح يقفز من ساق إلى ساق، ويغني مباعداً ذراعيه كأنما هو يرافق رقصه بالضرب على طبل.

- ترلم ترلم تر تر تر ترلم، ترلم ترلم..

إن الأعور يغنيّ، ويوجد لنفسه إيقاعاً يرقص عليه، فيجتاز طريقه الخطر في أمان. إنه يحني فخذيه على ركبتيه، ويميل برأسه تارةً إلى يسار وتارةً إلى يمين.

- ترلم ترلم.. آ.. آ..

إنه الآن وقد علا فوق الجميع في هذا الوضع الفذ الفريد المحفوف بالأخطار، لم يعد ذلك الأعور الذي يسلي أهل المدينة ويضحك رواد الخمارة. إنه لا يحسّ أن ما تحته هو ذلك الإفريز الحجري، الضيق الزلج من جسر يعرفه وطالما مضغ خبزه عليه آلاف المرات، وطالما غفا في ظل الكابيا منه وهو يفكر في موت عذب بين الأمواج. لا، وإنما هو الآن في تلك الرحلة البعيدة العسيرة التحقق، التي يحدثونه عنها كل يوم في الخمارة هازئين به هزءاً فظاً وضاحكين عليه ضحكاً ساخراً.. هو الآن في تلك الرحلة التي استطاع أخيراً أن يمضي فيها. إنه الطريق اللاحب المنشود، طريق المشروعات الكبرى، فهناك، في نهاية

هذا الطريق، تتراءى له مدينة بروسه العظيمة، وثرواتها الكبيرة، وإرثه المشروع، والشمس التي غربت، وباشا الجميلة مع ابنها، زوجته مع ابنه.

هكذا ظل يتراقص على الإفريز في نشوة فوصل إلى الكابيا، ثم اجتاز الجزء البارز الذي يحيط بالصوفا، ثم أكمل اجتياز الإفريز كله حتى نهاية الجسر. فلما وصل إلى خاتمة المطاف وثب عن الإفريز فصار على الجسر، وأخذ ينظر حوله منفعلاً أشد الانفعال، يدهشه أن المغامرة قد انتهت بسلام، ويدهشه أشد الدهشة أن يجد نفسه مرةً أخرى على الطريق المأمون المعروف، طريق فيشيغراد. واستقبله الحفل الذي كان يرافقه صائحاً ومشجعاً ومازحاً. وسرعان ما خف إليه أولئك الذين كانوا قد توقفوا عن السير خائفين وجلين، فأخذوا يقبلونه، ويربتون على كتفيه، وعلى طربوشه الحائل لونه. ويصيحون جميعاً بصوت واحد..

- مرحى للأعور، مرحى للصقر..

- مرحى للمنتصر..

وصرخ سانتو بابو يقول بصوت أجش ولهجة اسبانية، وهو يظن أنه في الخمارة ويباعد ذراعيه كما لو كان يصلب:

- كأس روم للأعور.

وفي غمرة هذا التصادم وهذا التزاحم اقترح أحدهم ألا يتفرق الشمل، وألا يعود كل واحد إلى بيته، وإنما يستمرون على الشراب احتفالاً بمأثرة الأعور.

إن الأطفال الذين كانوا أيامئذٍ في السنة الثامنة أو التاسعة من أعمارهم، وكانوا في ذلك الصباح مسرعين إلى مدارسهم البعيدة عبر الجسر الذي تغطيه غشاوة الجليد، قد توقفوا وأخذوا ينظرون إلى ذلك المشهد الغريب، وفغرت أفواههم التي يخرج منها بخار أبيض من فرط الدهشة. إنهم حين وقفوا وقفتهم تلك صغاراً مقمطين بالفراء متأبطين ألواحهم الحجرية، وكتبهم، لم يفهموا شيئاً من هذه اللعبة التي يلعبها الكبار، ولكن صورة الأعور فوق افريز الجسر بقيت ماثلة في أذهانهم مدى الحياة.

نعم، لم تبارح خيالهم صورة هذا الأعور الذي يعرفونه حق المعرفة، والذي استحال يومئذٍ إنساناً آخر خفيفاً رشيقاً، يثب وثبات قصيرة جريئة، فيمشي فرحاً، كأنما يحمله سحر، يمشي في مكان يحظر فيه المشي. وليس يمشي فيه أحد بوجه عام.

الفصل السادس عشر

انقضت عشرون سنة على اليوم الذي أخذت فيه أوائل العربات النمسوية المطلية باللون الأصفر تجتاز الجسر. انقضت عشرون سنة على بداية الاحتلال. إنها سلسلة طويلة من الأيام والشهور. إن كل يوم من هذه الأيام وكل شهر من هذه الشهور يبدو متحيراً موقتاً إذا نظر إليه على حدة، لكن هذه الأيام والشهور كانت أطول فترة تتذكرها المدينة من فترات الأمن والتقدم المادي، وكانت أكبر شطر من حياة الجيل الذي كان قد بلغ سن الرشد عند بداية الاحتلال.

كانت تلك السنين عهد ازدهار ظاهر وربح مضمون وإن يكن لا يزال قليلاً في كثير من الأحيان. وكانت الأمهات أثناء تلك الفترة إذا تحدثن عن أبنائهن أضفن قولهن: «أسأل الله أن يطيل عمره وأن يمتّعه بالعافية، وأن ينعم عليه بخبزه سهلاً ميسوراً». وفي إبان تلك السنين إنما كانت امرأة فرحات (وهو رجل طويل القامة، أبدّي الفقر، يشعل مصابيح الشوارع ويتقاضى أجره على هذا العمل من البلدية اثنتي عشرة فلورينة في الشهر) تقول في اعتزاز وفخر: «الحمد لله.. زوجي موظف بالبلدية».

هكذا انقضت السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، من دون انفعالات كبيرة ومن دون أحداث ضخمة، فكانت أشبه بنهر هادئ يفيض قبل أن يصل إلى مصبه المجهول. كان يبدو أن الفواجع قد اختفت من حياة الشعوب الأوروبية، كما اختفت من هذه المدينة قرب الجسر، فإذا وقع منها شيء في مكان ما من العالم، لم تصل أصداؤه إلينا، أو بدا لنا بعيداً غير مفهوم.

وهكذا، في ذات يوم من أيام الصيف، بعد ذلك العدد الكبير من السنين، ظهر مرة أخرى على الكابيا، إعلان رسمي بلون أبيض. إن الإعلان قصير محاط هذه المرة بسواد حالك، ينعى للناس صاحبة الجلالة الأمبراطورة إليصابات التي توفيت بمدينة جنيف في حادث اغتيال أثيم على يد فوضوي إيطالي اسمه لوكيني.

ويعبّر الإعلان بعد ذلك عن الاستنكار الشديد والحزن العميق من قبل جميع شعوب مملكة النمسا ـ المجر الكبرى، ويطلب إلى جميع المواطنين المخلصين أن يزدادوا التفافاً حول العرش، فذلك خير عزاء للملك الذي طعنه القدر هذه الطعنة القاسية.

لقد عُلّق الإعلان تحت المسلة البيضاء التي عليها الكتابة التركية، كما عُلّق في الماضي بيان الجنرال فيليبوفتش الذي أعلن احتلال البلاد. وقرأ الناس هذا الإعلان في تأثر، لأن القتيل أمبراطورة، لأن القتيل امرأة، ولكنهم لم يفهموا حق الفهم، ولا أشفقوا عميق الاشفاق.

وفي خلال بضع أمسيات، لم تشهد الكابيا غناء ولا مرحاً صاخباً، فكذلك كانت أوامر السلطات.

هناك رجل واحد في المدينة أصابه النبأ إصابة قاسية. إنه بيترو سولا، الإيطالي الوحيد بين سكان فيشيغراد، وهو مقاول وبنّاء ونحّات ودهّان، أي هو المعلم الاخصائي في مدينتنا. إن المعلم بيرو (بهذا الاسم كانت تسميه المدينة كلها) قد وفد إلى المدينة أيام الاحتلال، واستقر فيها، لأنه تزوج فتاة منها يقال لها ستانا، وهي فتاة فقيرة لم تكن على جانب عظيم من حسن السمعة. إن ستانا امرأة حمراء سمينة، أطول من زوجها مرتين، والناس يصفونها بأنها سليطة اللسان ثقيلة اليد، يحسن بالمرء ألا يشاجرها. أما المعلم بيرو فهو رجل صغير الجسم مقوَّس الظهر طيّب الطبع ذو عينين زرقاوين متواضعتين وشاربين متهدلين. وكان يجيد العمل، ويجني منه مالاً كثيراً، وقد أصبح بمضي الزمن مواطناً حقيقياً من مواطني فيشيغراد، غير أنه لم يتوصل أبداً إلى امتلاك ناصية اللغة والنطق، شأنه في ذلك شأن لوتيكا. وكان جميع الناس في المدينة يحبونه لبراعته في عمله، ولما يمتاز به من بساطة. وكانت امرأته، القوية كأنها بطلة من أبطال الرياضة، تقوده في الحياة كما تقود الأم ابنها الطفل في قسوة.

فلما عاد المعلم بيرو من عمله مغطى بغبار الحجارة وملطخاً بألوان الدهان وقرأ الإعلان المعلق على الكابيا، أغطس قبعته حتى غطت عينية وعضّ على شفتيه في شيء من التشنج. وصار كلما لقي أحداً من وجهاء القوم، يمضي يبرهن له على أنه، رغم إنه إيطالي، لا شأن له البتة بالقاتل لوكيني، ولا بالجريمة المنكرة التي اقترفها. فكان الناس يصغون إليه، ويهدئون من روعه،

ويؤكدون له أنهم يصدقونه، وأنه لا يخطر ببالهم أن ينسبوا إليه شيئاً مما وقع، ولكنه كان يظل يشرح لكل واحد من الناس أنه أصبح يستحي من الحياة، وأنه لم يقتل طوال عمره دجاجة، فكيف يقتل إنساناً، وبخاصةً إذا كان هذا الإنسان امرأة، وإذا كان شخصية لها تلك المنزلة السامية التي للأمبراطورة.

واستحال خوفه أخيراً إلى مرض حقيقي. فأخذ سكان المدينة يسخرون من قلقه وحماسته وأقواله الكثيرة التي يؤكد بها أن لا صلة له بالمجرمين والفوضويين. وسرعان ما ابتكر أطفال المدينة لعبة قاسية، فكانوا يختبئون وراء حاجز من الحواجز، حتى إذا مر أخذوا يصيحون: «لوكيني». فكان المسكين يدفع عن نفسه تلك الصيحات كأنها زنابير صغيرة لا ترى، ويغطس قبعته حتى تلامس عينيه، ويهرول عائداً إلى بيته، فإذا وصل أخذ يبكي وينتحب في حضن زوجته الواسع العريض.

كان الرجل الصغير ينشج قائلاً:

ـ أنا خجلان، خجلان.. إنني لا أجرؤ أن أنظر إلى عيني أحد من الناس.

فكانت زوجته تقول له:

ـ دعك من هذا يا غبي. مم أنت خجلان؟ من أن إيطاليًا قتل الأمبراطورة؟ إن ملك إيطاليا هو الذي يجب أن يخجل. أما أنت، فمن أنت حتى تخجل؟

ـ خجلان، خجلان.

هكذا كان المعلم بيرو يردد شاكياً لزوجته التي تهزه وتحاول أن تبث فيه الشجاعة والعزم وأن تعلمه كيف يجتاز المركز التجاري بالمدينة رافع الرأس منطلقاً دون أن يغضّ طرفه أمام أحد من الناس.

وفي ذلك الوقت، كان يجلس على الكابيا رجال متقدمون في السن، يصغون، وقد سكنت وجوههم وانخفضت أبصارهم، إلى الأنباء المستمدة من الصحف عن مقتل أمبراطورة النمسا. لم تكن هذه الأنباء إلا فرصة لأحاديث عامة عن مصير الهامات المتوجة، والشخصيات الكبيرة. وكان حسين أفندي، مدرس فيشيغراد، يشرح لطائفة من وجهاء الأتراك، المستطلعين الجهلة من سكان الحي التجاري، من هم هؤلاء الفوضويون وما شأنهم.

إن المدرس لا يزال حتى الآن على ما كان عليه في الماضي من تفخم، وتصلب، ونظافة، وعناية بهندامه.. إنه لا يزال على تلك الحال نفسها التي كان

عليها منذ عشرين عاماً، يوم استقبل على هذه الكابيا نفسها النمسويين الأوائل، بصحبة ملا إبراهيم والقس نيقولا اللذين يرقدان منذ مدة طويلة، كل في مقبرته.

لقد ابيضّت لحيته، لكنها لا تزال كما كانت مشذّبة مدورة في كثير من العناية. ولا يزال وجهه كله هادئاً مشرقاً، لأن الرجال الذين أوتوا عقلاً متصلباً وقلباً جامداً يدلفون إلى الشيخوخة في بطء. والرأي العظيم الذي كان يراه في نفسه دائماً قد ازداد ترسّخاً خلال هذه السنوات العشرين الأخيرة. ويجب أن نذكر عابرين أن «سحّارة» الكتب التي يستند إليها الجزء الأكبر من شهرته كعالم، لا تزال على حالها، ما نفدت ولا قُرئت، كما أن التاريخ الذي يكتبه عن مدينة فيشيغراد لم يزد عدد صفحاته أكثر من أربع صفحات ذلك أن صاحبنا كان كلما تقدم في السن يزداد إعجابه بشخصه وتاريخه، ويقل تقديره للأحداث التي تجري من حوله. وها هو ذا يتكلم الآن بصوت منخفض بطيء، كأنه يقرأ في مخطوطة غامضة، وفي كلامه تكبّر وتصنّع وقسوة. إنه يتخذ مصير الأمبراطورة «الكافرة» مناسبة للحديث لا أكثر، فليس لذلك المصير أي شأن بما يسوق من كلام. قال يشرح (وليس هذا الشرح من عنده، وإنما هو وجده في كتب قديمة ممتازة ورثها عن أستاذه الشهير عرب خجا).
قال: إن هؤلاء الذين يسمون الآن باسم: الفوضويين قد وجدوا منذ الأزل، وسيظلون موجودين إلى الأبد. ذلك لأن حياة البشر قد كتب عليها هذا، ولأن مشيئة الله الواحد الأحد قد أرادت ذلك، فكل درهم من خير يقابله درهمان من شر، ما من نبل إلا ويقابله كره، وما من عظمة إلا ويقابلها حسد، كما أنه ما من شيء مهما يكن صغيراً إلا وله ظل، وهذا يصدُق خاصةً على عظماء الناس وتقاتهم والمشهورين منهم، فكل واحد من هؤلاء يتربص به سفّاك، فتارةً يتأخر انقضاضه عليه وتارةً يتقدم. انظروا مثلاً إلى ابن هذه المدينة محمد باشا الذي يسكن الجنة منذ زمان بعيد (قال المدرس ذلك وهو يشير بيده إلى المسلة الحجرية فوق الإعلان الأبيض): لقد خدم ثلاثة سلاطين، وكان أحكم الحكماء، وبنى هذا الجسر الذي نجلس عليه الآن بما كان له من حَوْل وطَوْل وما كان يملك من روح البرّ وحب الخير. لقد مات هو أيضاً بسكين واحد من هؤلاء الفوضويين. إنه رغم قوته كلها، ورغم حكمته كلها لم يستطع أن يتفادى تلك اللحظة. إن أولئك الذين كان الوزير الأكبر يحبط خططهم ـ وكانوا حزباً كبيراً قوياً ـ قد استطاعوا أن يسلحوا وأن يرشوا درويشاً مجنوناً، فدفعوه إلى قتله لحظة خرج للصلاة في ظهر يوم من أيام الجمعة.

استطاع الدرويش، وهو يتدثر بمعطف بالٍ ويمسك بيديه سبحة كبيرة، استطاع أن يسد الطريق وراء الوزير، وتظاهر بطلب الصدقة في مذلة ومكر، فلما أراد الوزير أن يضع يده في جيبه ليتصدق عليه طعنه بسكينه. هكذا هلك محمد باشا شهيداً من الشهداء.

إن الرجال يصغون إلى كلام المدرِّس، وهم ينفثون دخان سجائرهم، وينظرون تارةً إلى المسلة الحجرية التي عليها كتابة تركية، وتارةً إلى الإعلان الأبيض المحفوف بالسواد. إنهم يصغون إلى شروح المدرِّس بانتباه، رغم أنهم لا يفهمون كل كلمة من كلماته. لكنهم كانوا، وهم يتابعون انطلاق الدخان إلى بعيد، وراء الكتابة التركية ووراء الإعلان الأبيض، يتخيلون في مكان ما من العالم، حياة أخرى مختلفة عن حياتهم، حياة فيها صعود كبير وهبوط عميق، حياة تمتزج فيها العظمة بالكوارث، حياة هي نقيض هذه الحياة البسيطة الهادئة الرتيبة التي يعشيونها هم هنا على هذه الكابيا.

وانقضت هذه الأيام كما انقضت قبلها أيام أخرى. وعادت الحياة تجري على الكابيا كما كانت تجري مع أحاديثها المألوفة الصاخبة، ومع أمازيحها وأغانيها، وانقطع الكلام عن الفوضويين. والإعلان الذي أنبأ بموت تلك الأمبراطورة الأجنبية المجهولة حال لونه بتأثير الشمس والمطر والغبار، ثم مزقته الرياح وبددته قطعاً قطعاً على طول الشاطئ.

وظل العابثون من الناس، خلال مدة من الوقت، يطلقون وراء المعلم بيرو صرختهم: «لوكيني»، دون أن يعلموا هم أنفسهم ما معنى هذه الصرخة، ولا لماذا يطلقونها، تدفعهم إلى ذلك تلك الحاجة الصبيانية إلى معاكسة المخلوقات الضعيفة الحساسة وإلى تعذيبها. ظلوا يطلقون صرختهم تلك، إلا أنهم كفوا عنها بعد ذلك لأنهم وجدوا تسلية أخرى غيرها. وقد أسهمت ستانا في إنقاذ زوجها، إذ أمسكت باثنين من أشد الصبية صخباً، وجعلت تضربهما ضرباً مبرحاً.

ما إن انقضى شهر أو شهران حتى أصبح الناس لا يشيرون بكلمة إلى موت الأمبراطورة ولا إلى الفوضويين. كان يبدو في نهاية القرن أن الحياة قد انكسرت حدّتها وهدأت أحوالها إلى الأبد. كانت هذه الحياة تغطي بمجراها العريض الرتيب كل شيء، وتُشْعِرُ الناس بأن عصراً جديداً يبدأ، عصراً من نشاط هادئ يقود البشر إلى مستقبل بعيد لا يستطيع البصر أن يبلغه.

لقد استطاع ذلك النشاط الدائم المستمر الذي كان يبدو أنه كتب على هذه الإدارة الأجنبية، والذي لم يستطع أهل مدينتنا أن يألفوه إلا في كثير من العناء - رغم أنهم يدينون له بما يحققون من ربح وما يتمتعون به من رخاء - استطاع ذلك النشاط أن يغير في خلال عشرين عاماً كثيراً من الأمور في مظهر المدينة وفي أزياء السكان وعاداتهم، لكنه لم يمس الجسر القديم من قريب أو بعيد، فلا يزال الجسر على حاله، ولا يزال منظره كما كان لم يتغير.

وجاء عام 1900. جاءت نهاية القرن السعيد وبداية القرن الجديد الذي كان يرى كثير من الناس ويحسّون أنه سيكون أحفل بالسعادة من القرن المنصرم. وفي تلك الفترة جاء مهندسون جدد، فأخذوا يفتشون الجسر. كان الناس قد ألفوا منظر هؤلاء المهندسين، وكان الأطفال يعرفون معنى وصول هؤلاء الذين يرتدون معاطف من جلد وتمتلئ جيوبهم الظاهرة بأقلام من شتى الألوان ويأخذون يدورون حول رابية من الروابي أو مبنى من المباني.

كان معنى وصولهم أن شيئاً من الأشياء سيهدم أو سيبنى أو سيحفر أو سيبدَّل. ولكن لم يكن في وسع أحد أن يقدِّر ما عساهم صانعين بالجسر الذي كان يبدو لجميع الأحياء في هذه المدينة شيئاً أبدياً لا يمكن أن يتغير، كالأرض التي يطأونها بأقدامهم وكالسماء التي تعلو هاماتهم.

أخذ المهندسون إذاً يدورون، ويقيسون، ويسجلون، ثم ذهبوا ونُسي الأمر كله. ولكن ما إن حلّ منتصف الصيف، وهو الفترة التي تكون فيها المياه أخفض ما تكون، حتى وفد على حين فجأة مقاولون وعمال، وأخذوا يبنون خصاصاً موقتة من خشب، ليودعوها آلاتهم وأدواتهم. وما كاد يذيع في المدينة أن الجسر سيصلح حتى كانت أعمدة الجسر قد أحيطت بسقالات، وحتى وضعت على الجسر آلات لرفع الأثقال ذات بكرات، يتيح تحريكها للعمال أن يتنقلوا على طول الأعمدة فوق شرفة ضيقة من خشب، فيقفون من الجسر على المواضع التي توجد بها شقوق أو توجد بها كشش من العشب تنبت في شقوق الحجارة.

ما تركت فجوة صغيرة من الفجوات إلا ملئت، وانتزع العشب، وأزيلت أعشاش الطيور. حتى إذا انتهوا من ذلك العمل، أخذوا يصلحون الأسس التي تلطمها المياه: أوقف مجرى الماء وحُوّل، فانكشفت الحجارة المسودة المتآكلة للأبصار، وأصبحت ترى أوتاد السنديان مهترئة ولكنها متجمدة، في الماء الذي

وضعت فيه منذ ثلاثين وثلاثمائة عام. وأخذت الروافع التي لا تتعب، تنزل الأسمنت والحصى صندوقاً بعد صندوق، فتملأ بهما الأعمدة المركزية الثلاثة المعرضة لفعل التيار السريع أكثر من غيرها، تملأ بهما عند أسسها كأنها أضراس أصيبت بالنخر عند الجذور.

لم يستطع الناس في ذلك الصيف أن يجلسوا على الكابيا، وانقطعت الحياة المألوفة التي اعتادوا أن يعيشوها حول الجسر. أصبح كل شيء يعج بالخيول والعربات التي تنقل الاسمنت والرمل. وأصبحت صرخات العمال وأوامر المراقبين تُسمع في كل مكان. وجعلت الكابيا نفسها مستودعاً للألواح الخشب.

إن الناس ينظرون إلى الأعمال الجارية على الجسر الكبير، فيدهشون ويظلون من أمرهم في حيرة، فبعضهم يلقي نكتة من النكت، وبعضهم يكتفي بحركة من يده، ولكنهم جميعاً يحسون بأن هؤلاء الأجانب يقومون بهذا العمل كما يقومون بسائر الأعمال لا شيء إلا لأن عليهم أن يقوموا بعمل من الأعمال أياً كان، فذلك لهم ضرورة لا غنى عنها، وهم لا يستطيعون أن يعيشوا بغير ذلك. لم يكن أحد يقول هذا، ولكنهم كانوا يحسونه جميعاً.

إن جميع الذين اعتادوا أن يقضوا أوقاتهم على الكابيا، يجلسون الآن أمام فندق لوتيكا أو خمارة زاريا، أو أمام أبواب الحوانيت الموجودة على مقربة من الجسر: يشربون هناك الشاي ويتحدثون منتظرين أن تتحرر الكابيا، وأن يبرأ الجسر من هذه الهجمة التي نزلت عليه، كما ينتظر المرء نهاية مطرة وابلة أو نهاية أي عائق آخر من هذا القبيل.

ولقد اجتمع في هذا الصباح، أمام حانوت علي خجا المنحصر بين النزل الحجري وخمارة زاريا بحيث يرى الجسر من هناك رؤية مواربة، اجتمع في ساعة مبكرة من هذا الصباح تركيان متعطلان ممن يتحدثون عن كل شيء وخاصةً عن الجسر.

إن علي خجا يصغي إلى كلامهم صامتاً مقطباً. وينظر سادراً إلى الجسر الذي يتحرك عليه العمال كأنهم النمل.

لقد تزوج علي خجا في خلال هذه السنين العشرين الأخيرة ثلاث مرات. وله الآن امرأة أصغر منه في السن كثيراً. وألسنة السوء في حَيّ السوق تقول إن هذا هو السبب في أنه يظل معتكر المزاج دائماً قبل الظهر. وقد أنجب من هذه النساء

الثلاث أربعة عشر ولداً يُحْدِثون في البيت من الصخب الشديد طوال النهار ما يصم أذنَيْ علي خجا. ويقول الناس في السوق على سبيل المزاح إن علي خجا لا يعرف جميع أولاده بأسمائهم. حتى لقد لفقوا ورووا هذه القصة وهي أن أحد أولاده لقيه مرة في زقاق من الأزقة فتناول الصبي يد أبيه ليقبلها فقال له علي خجا: «صباح الخير.. صباح الخير.. ولكن من أي عائلة أنت؟».

لم يتغير علي خجا كثيراً. لكنه ازداد سمنة، وازداد وجهه احمراراً. إنه لا يسير الآن سيراً خفيفاً كما كان يسير في الماضي. إنه يصعد الآن إلى بيته الواقع في حي الميدان بخطى بطيئة، لأنه أصبح يحسّ منذ مدة باختناق في قلبه يراوده من حين إلى حين، ويراوده حتى أثناء النوم. ومن أجل هذا إنما ذهب يستشير طبيب المقاطعة الدكتورماروفسكي الذي كان، بين جميع الوافدين الجدد، الشخص الوحيد الذي يعترف به علي خجا ويقدره. وقد وصف له الطبيب دواء لا يشفي من المرض، ولكن يساعد المريض على احتماله. وتعلم علي خجا من الطبيب الاسم اللاتيني الذي يسمى به مرضه: Angina pectoris[1].

إن علي خجا واحد من الأتراك القلائل الذين لم يقبلوا شيئاً من الأشياء الجديدة ومن التبدلات التي جاء بها الأجانب، لا في ملبسه، ولا في آرائه، ولا في اللغة ولا في التجارة والأعمال. وكما اعترض في الماضي على مقاومة لا جدوى منها اعتراضاً عنيداً، كذلك هو يعارض معارضة عنيدة، منذ سنين، كل ما هو نمسوي وأجنبي، ويقاوم كل هذه الأمور التي تزداد من حوله قوة انتشار يوماً بعد يوم. ومن أجل ذلك تشاجر مع بعض الناس عدة مرات، واضطر إلى أن يدفع غرامات للشرطة. ولئن تعب الآن بعض التعب، وصحا بعض الصحو، فإن طبعه لا يزال طبعه، لا يختلف الآن عما كان عليه يوم فاوض قره مانليا على الكابيا. إنه رجل عنيد ذو آراء خاصة دائماً وفي كل أمر من الأمور. غير أن صراحته التي كانت مضرب المثل قد استحالت الآن إلى حدة، كما أن روح المشاكسة والقتال قد صارت عنده إلى مرارة قاتمة لا تكفي أعنف الألفاظ للتعبير عنها. ولا تهدأ إلا في الصمت والعزلة.

وشيئاً فشيئاً هبط الخجا إلى نوع من التأمل الهادئ لا يحتاج فيه إلى أحد،

---

(1) الذبحة الصدرية.

بل يزعجه ويضايقه فيه وجود شخص آخر، سواء أكان هذا الشخص من متعطلي الحي التجاري أم كان من الزبائن أم كان امرأته الشابة، أم كان ذلك العدد الغفير من أولاده الذين يضجّ بهم البيت. إنه يهرب من بيته قبل شروق الشمس، يمضي إلى حانوته فيفتحه قبل أن يفتح سائر التجار حوانيتهم. وهناك يصلّي. وهناك يؤتى إليه بطعامه. حتى إذا أضجرته الأحاديث وأضجره المارة. وأضجرته الأعمال، أغلق باب دكانه، وانزوى في ركن صغير بآخر الحانوت كان يسميه «تابوته». إنه موضع مختبئ، ضيق، واطئ، مظلم، يكاد الخجا يملأه كله حين يندسّ فيه. إن به مقعداً من ألواح خشبية عليها سجادة، يستطيع المرء أن يجلس فوقه متربعاً. وإن به عدداً من الرفوف وضعت عليها علب فارغة وأوراق قديمة وأشياء صغيرة كثيرة لم يجد لها الخجا مكاناً في الدكان. ففي ذلك المكان الضيق المظلم كان الخجا يسمع من خلال جدار حانوته الرقيق صخب الحياة بحي السوق، ووقع حوافر الخيل، وصراخ الباعة.. يصل ذلك كله إلى أذنيه كأنه يصل من عالم آخر.. بل إنه ليسمع صوت بعض المارة يقفون أمام دكانه المغلق فيقولون عنه بعض الملاحظات اللاذعة، ويتندرون عليه. ولكنه يصغي إلى كلامهم هادئاً، لأن هؤلاء الناس هم في نظره أموات لم يسكنوا بعد. إنه ما يكاد يسمعهم حتى ينساهم في اللحظة نفسها. إنه في ملجأه ذاك بين ألواح الخشب، تحميه أفكاره حماية قوية من كل ما يمكن أن تأتي به هذه الحياة التي فسدت في رأيه منذ مدة طويلة وسارت في سبيل ضالة. إن الخجا يجد هنا نفسه ويعود إلى آرائه عن مصير العالم وسير الأمور الإنسانية وينسى كل ما عدا ذلك: ينسى حي السوق، وينسى همومه الناشئة عن ديونه، وينسى الهموم التي يسببها له أقنانه الذين لا يردون إليه ما اقترضوه، وينسى الهموم التي تولدها له امرأته الشابة المسرفة في شبابها، امرأته التي يستحيل شبابها وجمالها فجأة إلى مزاج سيئ أحمق جهنمي، وينسى همومه الناشئة عن ذلك القطيع من الأولاد الذين يمكن أن تنوء بحمله ثروة السلطان نفسه. والذي لا يفكر فيه الخجا إلا ويتنابه ذعر.

حتى إذا رجع إليه هدوؤه وارتاح، عاد ففتح حانوته كأنه عائد من مكان آخر.

إن الخجا يصغي الآن إلى الحديث الفارغ الذي يجري بين جاريه.

قال أحدهما: (وهو من الكسالى المعروفين في حي السوق) يتفلسف بينما هو يحتسي قهوة علي خجا:

ـ هل ترى آثار الزمن وعطايا الله؟ لقد اهترأ الحجر بالماء كما يهترئ الجراب بالحذاء، لكن النمسويين لا يرضيهم ذلك، فهم يبادرون إلى ترقيع كل ما يتهشم.

فأجابه الثاني الذي يعنى بنفس الشؤون التي يعنى بها الأول:

ـ دعك من هذا الكلام يا مسكين. ما ظل نهر درينا هو نهر درينا فسيظل الجسر هو الجسر. وهب النمسويين لم يمسوا الجسر بأيديهم، فسيبقى ما كتب له أن يبقى. لا فائدة من هذه النفقات كلها، ومن هذا الاضطراب كله.

ولولا أن علي خجا قاطعهما لظلا في هذا الحديث مدة طويلة. قال علي خجا:

ـ وأنا أقول لكم، إنه ليس من الخير أن يمسّوا الجسر. سترون أن هذا الإصلاح لن يخرج منه خير. لئن أصلحوا الجسر اليوم، لسوف يخربونه غداً. لقد حدثني ملا إبراهيم أنه قرأ في الكتب أن من يعترض الماء المتدفق ويحوّل مجراه، ولو يوماً واحداً أو ساعة واحدة، فقد أثم. ولكن النمسوي لا يحس أنه يحيا إن لم يطرق شيئاً من الأشياء. يود النمسوي لو يدق الأعين نفسها.. يود النمسوي لو يقلب الأرض نفسها إذا استطاع..

قال أحد الرجلين المتعطلين:

ـ إنه ليس شراً، في نهاية الأمر، أن يصلح النمسويون الجسر، فذلك لن يضر بالجسر، هذا إذا لم يطل عمره.

قال علي خجا في غضب:

ـ وكيف عرفت أن ذلك لن يؤذي الجسر؟ من قال لك هذا؟ هل تعلم أن كلمة واحدة يمكن أن تدمر مدناً برمتها، فكيف بهذا الاضطراب كله؟ لو كنت تعرف القراءة والكتابة، لو كنت عالماً ـ وما أنت بعالم ـ لأدركت أن هذا المبنى ليس كغيره من المباني، وإنما هو من تلك الأبنية التي شيدت في سبيل الله وبإرادة الله. شاده بعض الناس في عصر من العصور، وها هم أولاء ناس آخرون يهدمونه في عصر آخر. أنت تعلم ما يرويه الشيوخ عن النزل الحجري. لم يكن بالمملكة كلها نزل آخر من نوعه، فمن الذي هدمه مع ذلك؟ إنه من ناحية متانة البناء وفن البناء كان ينبغي أن يعمر ألف سنة، ومع ذلك زال كأنه من شمع.. وفي المكان الذي كان فيه النزل، تهمهم الآن الخنازير، وتدوي أبواق النمسويين.

فاعترض الرجل يقول:

ـ أما أنا، فأقول.. فأرى أن..

ـ أنت مخطئ.. ولو صدق رأيك لما بني في المستقبل شيء ولما تهدم في الماضي شيء. أعود فأقول لك: إن ذلك كله ليس من الخير، وليس يبشر بخير لا للجسر ولا للمدينة ولا لنا نحن الذين نراه بأم أعيننا.

قال الآخر مذكراً في خبث بالآلام التي تحمَّلها علي خجا قديماً على الكابيا:

ـ صحيح.. إن الخجا يعلم ما هو الجسر أكثر من أي شخص آخر.

فقال الخجا:

ـ لا تظنن أنني لا أعلم..

ثم أخذ يقص، هادئاً في هذه المرة، حكاية من تلك الحكايات التي يستخف بها الناس، ولكنهم يحبون أن يسمعوها، بل يحبون أن يسمعوها مرات كثيرة، قال:

ـ قديماً سمع المرحوم والدي من الشيخ داريه قصة الجسور في هذا العالم من أين جاءت وكيف بني أول جسر منها. وقد قص عليَّ المرحوم والدي هذه القصة أيام كنت صبياً. قال: حين خلق الله القدير هذا العالم كانت الأرض مسطحة ملساء كطبق جميل منقوش. فاستاء من ذلك إبليس الذي حسد الإنسان على هذه الهبة من هبات الله. فما إن خرجت الأرض على ذلك النحو من بين يدي الله رطبة لينة كالعجين، حتى تسلل إبليس فأخذ يخدش بأظافره وجه الأرض التي خلقها الله، يخدشها أعمق خدش يستطيعه، وهكذا ظهرت الأنهار العميقة والوديان التي تفصل البلاد بعضها عن بعض، وتفصل البشر بعضهم عن بعض، ومنعت هؤلاء البشر من أن يجوبوا في هذه الأرض التي وهبها لهم الله بستاناً يطعمهم ويعيلهم، وقد غضب الله حين رأى ما صنعت يد الشيطان الرجيم، لكنه لم يشأ أن يعيد خلق هذه الأرض التي أفسدها إبليس، فأرسل ملائكته يساعدون البشر وييسرون لهم الأمور. فلما رأت الملائكة أن البشر البؤساء لا يستطيعون أن يجتازوا تلك الهوات والأعماق السحيقة ولا يستطيعون أن يقوموا بأعمالهم في سهولة ويسر، وإنما هم يتعذبون وينظرون آسفين وينادي بعضهم بعضاً من ضفة إلى أخرى، بسطت الملائكة أجنحتها فوق تلك الأماكن، فاستطاع الناس بذلك أن يجتازوها على أجنحة الملائكة. هكذا تعلّم البشر من ملائكة الرحمن

كيف تبنى الجسور. ومن أجل ذلك كان بناء جسر من الجسور أقرب الأعمال إلى البر والتقوى بعد عيون الماء، ومن أجل ذلك أيضاً كان مد الأيدي إلى الجسور إنما من الآثام، لأن كل جسر، مهما يكن شأنه، من أبسط جذع من جذوع الأشجار التي توضع لاجتياز سيول الجبال إلى هذا الجسر العظيم الرائع الذي بناه محمد باشا، له ملاك يحرسه ويصونه ما شاءت إرادة الله أن يبقى.

قال الرجلان في أدب وقد انتشيا من سماع هذا الكلام:

ـ الله.. الله..

هكذا كان يزجي هؤلاء الرجال أوقاتهم، بينما العمل يتقدم هناك على الجسر الذي تأتيهم منهم أصوات صريف العجلات وقرقعة الآلة التي تخلط الاسمنت بالرمل.

لقد انتصر الخجا في هذه المناقشة كما ينتصر في مثلها دائماً، إذ ما من أحد يريد أو يستطيع أن يتابع مجادلته إلى النهاية، وبخاصةً أمثال هذين المتعطّلَيْن السخيفَيْن اللذين يشربان قهوته ويعرفان أنهما سيقضيان في الغد شطراً من يومهما في حانوته.

وهكذا كان يتحدث الخجا إلى جميع الذين يقتربون من باب حانوته لعمل من الأعمال أو من قبيل المصادفة عابرين. وكانوا جميعاً يصغون إلى كلامه باستطلاع ساخر وانتباه ظاهر، ولكن ما من أحد في المدينة كان يشاركه الرأي أو يفهم تشاؤمه، ويفهم هذه المخاوف المظلمة التي كان هو نفسه لا يستطيع أن يعللها ولا أن يدعمها بالحجة والبرهان. ثم إنهم جميعاً قد تعودوا منذ مدة طويلة أن ينظروا إلى الخجا نظرتهم إلى إنسان عنيد شاذ أصبح بتأثير تقدمه في السن، وبتأثير الظروف القاسية التي يعيش فيها، وبسبب امرأته الشابة، ينظر إلى كل شيء نظرة سوداء، ويضفي على كل شيء معنى غيبياً يبعث على التشاؤم والتطيُّر.

وكان معظم أهل المدينة لا يحفلون بما يجري على الجسر، كما كانوا لا يحفلون بكل ما يصنعه هؤلاء الأجانب في المدينة وفي ما يحيط بها منذ سنين. إن كثيراً منهم يكسبون الآن رزقهم من نقل الرمال والأخشاب أو من نقل الطعام للعمال. غير أن الأطفال قد خاب ظنهم حين رأوا العمال ينفذون من سقالات الخشب إلى الفتحة المظلمة في العمود المركزي، أي إلى «الحجرة» التي كان يعتقد جميع الأطفال أن الزنجي يعيش فيها. لقد خاب ظن هؤلاء الأطفال حين

رأوا العمال ينفذون إلى هذه الفتحة، فيخرجون منها قففاً من زبل الطيور، ثم لا شيء غير ذلك. إن الزنجي لم يظهر. لقد وصل الأطفال في ذلك اليوم إلى المدرسة متأخرين، لأنهم تلبثوا على الضفة ساعات طويلة ينتظرون أن يخرج العبد من ظلماته المألوفة، ليلطم صدر أول عامل يلقاه أمامه، فإذا بالعامل يطير من قوة اللطمة في الفضاء على خط منحنٍ ويسقط في النهر. . لقد انتظر الأطفال خلال تلك الساعات الطويلة على غير طائل، وأحنقهم أن ما كانوا يتوقعون حدوثه لم يحدث. . وحاول بعض صغارهم أن يقصوا أن الحادث وقع فعلاً، لكن حكاياتهم لم تحمل لهجة مقنعة، حتى إن الصبية الكبار هزأوا بهم. . ولم تُجْدهم أيمانهم شيئاً.

ولما انتهى إصلاح الجسر، بدأت أعمال أخرى لجر المياه إلى المدينة بالأنابيب. لم يكن بالمدينة حتى ذلك الحين إلا عينان اثنتان خشبيتان تأتيان بمياه النبع إلى حي الميدان. أما سائر العيون فكانت في المدينة السفلى وكانت مياهها من مياه أحد النهرين، درينا أو رزاف، فكانت هذه المياه تعتكر متى اضطرب أحد النهرين، وتغيض في موسم الحر الشديد من الصيف حين ينخفض مستوى المياه في النهر. وقد وجد المهندسون أن هذه المياه ليست صحية. لذلك جُرَّت المياه من مكان بعيد في الجبل، تحت كابرنيك، وهو مكان واقع على الضفة الثانية من نهر درينا، فكان لا بد إذاً من أن تمر بالجسر.

لذلك شهد الجسر فترة أخرى من الاضطراب والصياح. نزعت منه بلاطات، وحفر عليه مجرى للأنابيب، وأضرمت فوقه مواقد يغلى عليها القطران ويصب الرصاص. فكان الناس ينظرون إلى هذه الأعمال مرة أخرى في سوء ظن وفي حب اطلاع، كما نظروا قبل ذلك إلى الأعمال التي سبقتها. وكان علي خجا يقطب حاجبيه من الدخان الذي يصل إلى دكانه من خلال ساحة السوق، وكان يتحدث في احتقار عن هذا الماء «النجس» الذي يجري في أنابيب من حديد، فلا يصلح لا للشراب ولا للاغتسال، هذا الماء الذي سترفض الخيول أن تشربه إذا كان قد بقي إلى هذا الزمان خيول أصائل. وكان علي خجا يبرهن لجميع الذين يريدون أن يصغوا إلى كلامه، على أن جر المياه بالأنابيب إنما هو نذير كوارث مجهولة ستحل بالمدينة عاجلاً أم آجلاً.

وما جاء صيف السنة التالية حتى كانت الأنابيب قد مدت، وأعمال جر المياه

انتهت كما انتهت قبلها أعمال أخرى، فإذا بماء نقي غزير يتدفق من عيون حديد جديدة، ماء لا شأن له بالجفاف ولا شأن له بالفيضان. وجر عدد كبير من أهل المدينة الماء إلى أفنية البيوت، وجره بعضهم إلى البيوت نفسها.

وفي خريف تلك السنة ذاتها شرع في مد سكة حديد. وذلك مشروع أطول مدى، وأعظم خطراً، ولم يكن له في ظاهر الأمر صلة بالجسر.

إنها تلك السكة الحديد الضيقة التي أطلقت عليها مقالات الجرائد والمراسلات الرسمية اسم «سكة الحديد الشرقية». وكان عليها أن تربط ساراييفو بحدود الصرب، وفارتشته، وحدود السنجق التركي في نوفيبازار إلى أوفاتس. وكان على هذا الخط الحديد أن يمر بمدينة فيشيغراد التي ستكون أهم محطاته.

لقد كتبت مقالات كثيرة وقيل كلام كثير في العالم كله عما لهذا الخط من شأن سياسي واستراتيجي خطير، وعن إلحاق البوسنة بالهرسك قريباً، وعن الأهداف البعيدة التي تهدف إليها إمبراطورية النمسا ـ المجر عبر السنجق نحو سالونيك، وعن جميع المشكلات المعقدة التي يطرحها هذا المشروع. أما هنا، في هذه المدينة، فقد كان كل شيء يبدو بسيطاً وجذاباً، مقاولون جدد يصلون، وجماهير جديدة من العمال تعمل، ومصادر رزق جديدة لكثيرين.

وكان كل شيء في هذه المرة من مقياس كبير. إن مد هذا الخط الذي يبلغ طوله 166 كيلومتراً، والذي يمر بزهاء مائة جسر ومعبر وبنحو مائة وثلاثين نفقاً، والذي كلف الدولة 74 مليوناً من الكورونات الذهب. قد استمر العمل فيه أربع سنين. كان الناس ينطقون بهذا الرقم الضخم وهم يسرِّحون طرفهم في غموض إلى مكان بعيد ما، كأنما يبذلون جهوداً عقيمة من أجل أن يلمحوا هناك ذلك الجبل من الذهب الذي لا يُعدّ ولا يحصى. «74 ميلوناً».. هكذا كان يردد كثير من سكان فيشيغراد بمظهر العالم العارف، كأنّ المبلغ قد عُدّ على راحات أيديهم. ذلك أن الناس، حتى في هذه المدينة التائهة التي كانت الحياة في ثلثي مظاهرها لا تزال شرقية تماماً، كانوا قد أخذوا يصبحون عبيداً للأرقام، وكانوا قد أخذوا يصدقون الاحصاءات. «74 مليوناً» أي أقل قليلاً من نصف مليون كورون للكيلومتر الواحد، أو بالضبط: 445783. هكذا كان الناس يتمضمضون بالأرقام الضخمة، من دون أن يصبحوا بسبب ذلك أكثر غنى أو أقرب إلى التعقل.

وقد أحس الناس في الفترة الأولى من مد الخط الحديدي، أحسوا لأول مرة أنهم ليسوا بصدد ذلك النوع من الأرباح السهلة المضمونة الخالية من الهموم، التي جنوها في الأوقات الأولى من الاحتلال. ثم إن الأسعار، أسعار البضائع والغلال الضرورية، قد وثبت منذ السنين الآخيرة وثبات كبيرة. كانت هذه الأسعار ترتفع ثم لا تنخفض، ثم ترتفع مرة أخرى بعد مدة تطول أو تقصر. صحيح أن الناس كانوا يكسبون، صحيح أن أجور العمل كانت طيبة، غير أن هذه الأجور كانت دائماً دون أثمان الحاجات الحقيقية بما يعادل عشرين في المائة على الأقل. وكانت تلك لعبة مجنونة خفية، تسمم حياة عدد من الناس ما ينفك يزداد، ولكن لا حيلة لأحد في دفعها، لأنها تستمد أصولها من مكان بعيد جداً، لأنها تأتي من تلك المصادر البعيدة المجهولة نفسها التي جاءت منها خيرات السنين الأولى. إن كثيراً من أرباب العمل الذين اغتنوا بعد الاحتلال فوراً، منذ خمسة عشر عاماً أو عشرين عاماً، قد حل بهم الفقر، وأصبح أبناؤهم يعملون عند آخرين. صحيح أن هناك وافدين جدداً قد أصابوا ثراء، غير أن المال كان ينزلق من أكفهم هم أيضاً انزلاق الزئبق، حتى لكأنهم في لعبة من تلك الألعاب التي يمكن أن يجد المرء نفسه بعدها وقد صفرت يداه وتلطخ شرفه.

واتضح للناس شيئاً بعد شيء أن الأرباح وما تجيء به من حياة سهلة، لها وجهها السيئ، وأن المال والذي يملك المال، ليسا إلا رهاناً في مقامرة كبرى متقلبة لا يعرف أحد قواعدها ولا يستطيع أحد أن يتنبأ بنتائجها، وأنهم يشاركون في هذه المقامرة دون أن يدركوا ذلك، يشاركون فيها بمبالغ قد تكون كبيرة وقد تكون صغيرة، لكنها معرضة للخسران بغير انقطاع.

وفي صيف السنة الرابعة اجتاز المدينة القطار الأول مزداناً بالأوراق الخضراء والرايات. كان مرور القطار فرحة شعبية كبرى. وأولمت للعمال وليمة فاخرة فتحت فيها براميل من البيرة. والتقطت للمهندسين صور فوتوغرافية قرب القاطرة الأولى. وجعل السفر في ذلك اليوم بالمجان. وقال علي خجا معقباً على ذلك: «يوم بالمجان.. وطوال الحياة بأجر»، قال ذلك ساخراً بأولئك الذين ركبوا القطار الأولى.

وعندئذٍ فقط، بعد أن مُد الخط الحديدي وأخذ يعمل، أدرك الناس قيمته

بالنسبة إلى الجسر ودوره في حياة المدينة وفي مصيرها جملة. إن الخط الحديدي يصعد الآن نهر درينا على طول الضفة المنحدرة تحت جبل الميدان. وهو يدور حول المدينة مخترقاً الرابية، ويهبط في السهل قرب آخر البيوت إلى ضفة نهر زراف. وهنالك توجد المحطة. فجميع المواصلات التي تؤدي إلى سارايفو وتؤدي عن طريق سارايفو إلى سائر العالم الغربي تبدأ الآن على الضفة اليمنى لنهر درينا، سواء بالنسبة إلى الناس أو بالنسبة إلى البضائع. ومعنى ذلك أن الضفة اليسرى والجسر أصبحا الآن معطلين تماماً، فليس يجتاز الجسر بعد اليوم إلا فلاحون قادمون من القرى الواقعة على الضفة اليسرى من النهر مع خيولهم الصغيرة المحملة أحمالاً ثقالاً، ومع عرباتهم التي تجرها الأبقار، أو مع دوابهم التي تنقل الأخشاب من الغابات إلى المحطة.

إن الطريق الذي كان يصعد من الجسر على رابية ليسكا نحو سيمتش، ويمضي من هنالك إلى سارايفو ماراً بغلاسيناتس ورومانيا، إن هذا الطريق الذي كانت تدوي فيه قديماً أغنيات السائقين وجلاجل خيول العربات، قد أخذت تغطيه الأعشاب وأخذت تغطيه تلك الطبقة الرقيقة من الطحلب الأخضر الذي يصحب احتضار بعض الطرق وبعض المباني احتضاراً بطيئاً. أصبح الجسر لا يُسلك في الأسفار، وأصبح لا يشيَّع إليه أحد، ولا يودَّع فيه المسافرون، ولا يجتازه أحد على حصان، ولا يصب فيه الناس الخمر عند السفر ركوباً على خيولهم.

والحوذيون والخيول والعربات المغطاة بسقوف من الجلد والمركبات القديمة التي كان الناس يسافرون بها إلى سارايفو، ذلك كله أصبح عاطلاً عن العمل. وأصبحت الرحلة لا تستغرق يومين كاملين، مع التوقف للمبيت في روجاتسنا، بل تستغرق أربع ساعات لا أكثر من ذلك. وأصبحت هذه الأرقام تدعو الناس إلى التفكير والتأمل. أصبحوا يحسبون الفوائد وأنواع التوفير التي تحققها السرعة للإنسان، يحسبون ذلك في انفعال شديد. وسافر رجال من فيشيغراد إلى سارايفو لبعض الأعمال، ثم إذا هم يعودون إلى مدينتهم في مساء ذلك اليوم نفسه الذي سافروا فيه، فنظر الناس إليهم نظرتهم إلى أحداث فذة عجيبة، إلا علي خجا الشكّاك، العنيد، الصريح المسرف في الصراحة، المنفرد المسرف في الإنفراد، سواء في هذا الأمر وفي غيره من الأمور دائماً، فكان يجيب جميع أولئك الذين

يغبطون أنفسهم على سرعتهم الآن في القيام بأعمالهم، والذين يحسبون ما يوفرونه من وقت وجهد ومال بفضل ذلك، كان علي خجا يجيب جميع هؤلاء مستاءً بقوله: ليست العبرة في مقدار الوقت الذي اقتصد، وإنما العبرة في طريقة إنفاق هذا الوقت، فإن كان ينفق في الشر، فخير للمرء أن لا يوفره. وكان يحاول أن يبرهن للناس على أن الأمر الأساسي ليس هو أن يمضي الإنسان بسرعة، وإنما أن يعرف إلى أين هو ماضٍ، ومن أجل ماذا، فالسرعة ليست إذاً بالخير دائماً.

قال ذات يوم لتاجر شاب، في مرارة:

ـ إذا كنت ذاهباً إلى الجحيم، فمن الخير أن تذهب إليه ببطء. إن من الغباء أن تظن أن النمسويين أنفقوا المال وأدخلوا القطار من أجل أن تستطيع السفر بسرعة، ومن أجل أن تستطيع قضاء أعمالك بسرعة. أنت لا ترى من الأمر إلا أنك تنتقل من مكان إلى مكان، أما أن تتساءل ما الذي تأخذه هذه الآلة وما الذي تجلبه، في ما عداك وفي ما عدا أمثالك، فذلك سؤال لا تلقيه على نفسك، وذلك أمر لا يمكنك أن تفهمه. سافر يا عزيزي، سافر حيث تشاء، ولكني أخشى أن يحمل إليك هذا السفر في يوم من هذه الأيام القريبة خيبة مرة. لسوف يأزف الموعد الذي ينقلك فيه هؤلاء النمسويون بقطارهم إلى مكان لن تحب أن تذهب إليه ولا خطر ببالك يوماً أن من الممكن أن تذهب إليه.

وكان كلما سمع صفير القاطرة التي تدور حول المنحدر الوعر وراء النزل الحجري، يقطب حاجبيه، ويدمدم بكلمات لا تفهم، ويستمر يغزل فكرته القديمة وهو ينظر من خلال باب دكانه إلى الجسر الحجري الذي يراه رؤية مواربة دائماً، يستمر يغزل فكرته القديمة: وهي إن كبرى المباني قد شيدت بكلمة، وأن طمأنينة مدن برمتها وحياة مدن برمتها يمكن أن تطوّح بها وأن تطوح بسكانها صفرة.. أو هكذا كانت تبدو الأمور لهذا الرجل المضني الذي يملك ذكريات كثيرة، والذي شاخ على حين فجأة.

غير أن علي خجا كان في هذا الأمر وفي غيره من الأمور شخصاً منفرداً ينظر إليه الناس نظرتهم إلى إنسان شاذ معقد. والحق أن الفلاحين أنفسهم لم يألفوا السكة الحديد بسهولة. كانوا يركبون القطار ولكنهم لم يستطيعوا أن يعتادوه ولا أن يعرفوا مزاجه وعاداته. كانوا يهبطون التلال عند الفجر، ويصلون إلى المدينة

عند شروق الشمس، ويأخذون يسألون أول من يلقونه عرضاً عند أولى الحوانيت:

ـ هل سافرت «الماكينة».

فيجيبهم البائعون المتعطلون الذين لا يصدهم عن الكذب شيء:

ـ عافاك الله يا مسكين. لقد سافرت منذ مدة طويلة.

ـ والله؟

ـ ولكن ستسافر ماكينة أخرى غداً.

كان الفلاحون يلقون هذه الأسئلة دون أن يتوقفوا، ويستمرون يغذون الخطى ويصيحون بالنساء والأطفال أن أسرعوا.

هكذا كانوا يصلون إلى المحطة مهرولين. فيهدئهم هنالك أحد الموظفين قائلاً لهم إن الناس قد كذبوهم الخبر، وأن القطار لن يتحرك قبل ثلاث ساعات، فيتنفسون الصعداء، ويجلسون على طول جدار المحطة، يفرغون أكياسهم ويأكلون ويتحدثون أو يغفون قليلاً، ولكنهم يظلون متأهبين، فما أن تصفر قاطرة من قطر البضائع في مكان ما حتى يهبوا واقفين واحداً بعد آخر، ويأخذوا يجرون أمتعتهم صائحين معولين.

ـ هيا هيا. . الماكينة مسافرة.

فيصدهم الموظف الذي على الرصيف ويخرجهم من المحطة قائلاً:

ـ ألم أقل لكم إن القطار لن يسافر قبل ثلاث ساعات؟ إلى أين أنتم مسرعون؟ أأنتم مجانين؟

فيعودون إلى أماكنهم يجلسون من جديد، ولكن الشك والحذر لا يبرحانهم: فما إن يسمعوا أول صفرة، وما إن يسمعوا أول صوت مريب، حتى يثبوا مرة أخرى، وحتى يتدافعوا نحو الرصيف، فيصدهم هنالك الموظف مرة ثانية ويطلب إليهم أن يصبروا وأن يحسنوا الإصغاء إلى ما يسمعون من أصوات. وإذا كان هؤلاء الفلاحين يسلكون هذا المسلك فلأنهم كانوا في قرارة نفوسهم، رغم ما يبذل لهم من تطمينات، لا يستطيعون أن يمتنعوا عن تصور هذه «الماكينة» على أنها آلة سريعة سحرية مراوغة اخترعها النمسويون، فإن لم يتأهب لها المرء كل التأهب أفلتت منه بمثل لمح البصر. إنها ليس لها إلا همّ واحد: هو أن تخادع الفلاح المسافر وأن ترحل قبل أن يركبها.

على أن ذلك كله لم يكن إلا أموراً تافهة، سواء هذه السخافات التي تدور في رؤوس الفلاحين، وذلك التشاؤم الذي يملأ قلب علي خجا، وتلك التمتمات التي تتحرك بها شفتاه. كان الناس يتندرون بذلك، وكانوا في الوقت نفسه يألفون القطار بسرعة، كما كانوا يألفون سائر الأشياء الجديدة المريحة الممتعة. وظل الناس يذهبون إلى الجسر ويجلسون على الكابيا، كما كانوا يفعلون دائماً. إنهم يجتازونه الآن لشؤونهم اليومية، ولكنهم يسافرون في الاتجاه الذي تمليه عليهم الأعصر الجديدة، وبالطريقة التي تمليها عليهم هذه الأعصر الجديدة. وسرعان ما ألف الناس أن يتصوروا أن الطريق التي تسلك الجسر لا تؤدي إلى العالم الكبير الواسع، وأن الجسر نفسه ليس هو الآن ما كان في الماضي، ليس هو الآن الصلة التي تربط الشرق بالغرب. . . أو قل إنهم كانوا لا يفكرون حتى في هذا.

وظل الجسر منتصباً كما كان دائماً، شاباً أبدي الشباب. . شاباً شباب عمل من الأعمال الكبيرة التي يحققها الإنسان بعد أن يحسن تصورها ويحسن تنفيذها، الأعمال لا تعرف ما هي الشيخوخة ولا تعرف ما هو التغير، ولا تشارك ـ أو هذا ما توهم به على الأقل ـ في مصير الأشياء العارضة في هذه الحياة الدنيا.

الفصل السابع عشر

ولكن، هناك، قرب الجسر، في المدينة التي ربطه القدر بها، كانت ثمرات الأعصر الجديدة تنضج. وجاء عام 1908، فجاء معه قلق كبير وتهديد غامض ظل جاثماً على صدر المدينة منذ ذلك الحين.

الواقع أن هذا التغير قد بدأ قبل ذلك بكثير، كان قد بدأ منذ الشروع في بناء خط سكة الحديد، في السنين الأولى من القرن الجديد. وحين أخذت الأسعار ترتفع، وحين أخذت العملة والإيرادات والأموال تصعد وتهبط، أخذ الناس يتحدثون في شؤون السياسة أكثر فأكثر.

كان الناس حتى ذلك الحين لا يعنون إلا بما يتصل بهم من قرب وإلا بما يعرفونه من أمر، كانوا يتحدثون في الأرباح التي يجنونها وفي التسليات التي يتمتعون بها. كانوا لا يعنون على وجه الإجمال إلا بالأمور التي تصل بأسرهم أو أحبائهم أو مدينتهم، أو طائفتهم الدينية، وكان حديثهم في هذه الأمور كلها مباشراً محدوداً، لا ينظر كثيراً إلى أمام، ولا ينظر كثيراً إلى خلف. أما الآن فإن أحاديثهم تشتمل على نصيب متزايد من الاهتمام بشؤون تتجاوز أفقهم المألوف وتخرج عن دائرة تلك المشاغل.

لقد نشأت في سارايفو أحزاب ومنظمات دينية ووطنية، في صفوف الصرب وفي صفوف المسلمين، وسرعان ما انشئت لهذه الأحزاب ولهذه المنظمات فروع في المدينة. وأصبحت تصل إلى فيشيغراد جرائد جديدة تصدر في سارايفو. ونشأت قاعات للمطالعة، وفرق للغناء. وقامت جمعيات بين صفوف الصرب أولاً، فالمسلمين ثانياً، فاليهود أخيراً. وأصبح تلاميذ المدارس الثانوية وطلاب جامعات فيينا وبراغ الذين يعودون لقضاء العطلة الدراسية في المدينة بين أهلهم يحملون كتباً جديدة، وكراسات مطبوعة وطريقة جديدة في التعبير. كانوا بسلوكهم يضربون مثلاً لمن هم أصغر منهم سناً من سكان المدينة، على أن المرء يجب ألا

يسكت دائماً، وألا يحتفظ بآرائه لنفسه، كما يعتقد بذلك ويردد ذلك الكبار، وظهرت أسماء منظمات جديدة، منظمات دينية ووطنية، تقوم على أسس أوسع، وتنادي بأهداف جريئة، وظهرت بعد ذلك منظمات عمالية. وسمعت المدينة حينئذٍ لأول مرة كلمة «الإضراب». واصطبغ سلوك جماعة من الشباب بطابع الجد، وأصبحوا يتحدثون في المساء على الكابيا في أمور لا يفهمها الآخرون، ويتبادلون كراسات غير مجلدة عناوينها: «ما هي الاشتراكية؟»، «ثماني ساعات عمل، ثماني ساعات راحة، ثماني ساعات ثقافة»، «أهداف البروليتاريا العالمية وطرقها».

وأصبح الحديث إلى الفلاحين يدور على المشكلة الزراعية، والعلاقات بالأقنان، وأراضي البكوات. فكان الفلاحون يصغون إلى هذه الأحاديث، وقد مالت أعينهم تنظر إلى جانب، وأخذت شواربهم تتحرك حركة يسيرة لا ترى، وراحت جباههم تتقبض، كأنهم يبذلون جهداً من أجل أن يسجلوا في ذاكرتهم كل شيء، ليفكروا فيه بعد ذلك حين يخلون إلى أنفسهم، أو ليتكلموا فيه بعد ذلك مع ذويهم.

ولئن ظل كثير من الناس يلزمون الصمت من قبيل الحذر، أو يرفضون هذه الآراء الجديدة، أو يرفضون هذا التطرف في الفكر والكلام، فإن الذين يقبلون هذه الأمور كلها ويعدونها بشائر خير، كانوا أكبر عدداً من أولئك، وخاصةً بين صفوف الشباب والفقراء المتعطلين، فقد كانت هذه الآراء تناسب حاجاتهم النفسية التي ظلت إلى ذلك الحين صامتة مكبوتة، وكانت تدخل إلى حياتهم ذلك الشيء العظيم الموقظ للحماسة، الذي أعوزهم إلى الآن. فكان كل منهم، حين يقرأ الخطب والمقالات والاحتجاجات والمذكرات التي تصدر عن المنظمات الدينية أو عن الأحزاب، يحس بأن شيئاً فيه ينطلق من عقاله، وأن أفقه يتسع، وأن أفكاره تتحرر، وأن قواه تنضم إلى قوى أناس آخرين، وإلى قوى أخرى بعيدة لم يفكر فيها قبل الآن، وأصبح يبدو لهم، في هذا نفسه، أن الحياة غدت أوسع وأغنى، وأن حدود المحرم والمستحيل قد تراجعت: وأن آمالاً جديدة وإمكانيات لم يكن لها وجود قد أطلت الآن حتى على من لم يكن يملكها قبل ذلك الحين.

والحق أنهم لايملكون الآن شيئاً جديداً، ولا يرون شيئاً أفضل، إلا أنهم

يستطيعون الآن أن ينظروا إلى ما وراء حياتهم اليومية بالمدينة، وأن يروا السعة والقوة بأوهامهم رؤية تذكي الحماسة. ولم تتغير عاداتهم، ولا تغير طراز معيشتهم، ولا تبدلت علاقات بعضهم ببعض، إلا أن جلستهم المتعطلة التقليدية على الكابيا، لشرب القهوة وتدخين السجائر واحتساء الراكيا، أصبحت تخالطها الآن مناقشات فكرية، وكلمات جريئة، وطريقة جديدة في الحديث. أخذ الناس ينقسمون ويتكتلون، ويتنابذون ويتجاذبون، على أساس من معايير جديدة وقواعد جديدة ولكنهم يخضعون في ذلك كله لتأثير أهواء قديمة، وغرائز من غرائز الآباء والأجداد.

وفي تلك الفترة أيضاً أخذت أحداث الخارج تتراجع أصداؤها في المدينة. لقد تبدلت الأسرة الحاكمة في الصرب عام 1903، وتبدل نظام الحكم بعد ذلك في تركيا[1]. ومدينة فيشيغراد التي تقع على حدود الصرب ولا تبعد عن الحدود التركية، والتي كانت تربطها بهذين البلدين صلات عميقة لا ترى، قد شعرت بهذه التبدلات وعاشتها وفسرتها، رغم أن الناس لم يعلنوا بوضوح ولا عبروا بصراحة عن كل ما دار في أذهانهم وقام في نفوسهم بصدد هذه التبدلات.

وأخذ الناس في المدينة يحسون إحساساً أقوى بما تقوم به السلطات من نشاط وما تحدثه من ضغط، السلطات المدنية أولاً، فالسلطات العسكرية بعدئذٍ، وذلك في صورة جديدة. كانت هذه السلطات قبلئذٍ تراقب ما يعمله كل فرد من الأفراد، وتراقب سلوكه، أما الآن فهي تسأل عما يعتقد به من آراء، وعما يقوله من كلام. وأصبح عدد رجال الدرك يزداد بغير انقطاع في القرى المجاورة الواقعة على طول الحدود. وانضم إلى قيادة المنطقة ضابط من ضباط المخابرات أصله من ليكا. وأصبحت الشرطة تعتقل الشباب وتفرض عليهم الغرامات، لأنهم لم يتحفظوا في كلامهم، أو لأنهم غنوا أناشيد صربية ممنوعة. وأبعد الأجانب

---

(1) على أثر قيام عدد من الضباط ببلجراد باغتيال الملك ألكسندر (من أسرة أوبرينوفتش) وزوجته دراغا، في اليوم العاشر من شهر حزيران/يونيو من عام 1903، انتقل تاج الصرب إلى أسرة قره جورجفتش بشخص بطرس الأول. وفي شهر حزيران/يونيو من عام 1908 جاءت ثورة «تركيا الفتاة»، فأنهت حكم السلطان عبد الحميد. إن الأتراك الشباب الذين تقودهم «جمعية الاتحاد والترقي» قد استمالوا إليهم حامية سالونيك وقاموا بثورة على السلطان عبد الحميد وخلعوه. وكان هؤلاء الشباب الأتراك يريدون بعث الأمبراطورية ليجعلوها أقدر على مقاومة أوروبا.

المشبوهون. وبين الوطنيين أنفسهم أصبحت الخلافات في الرأي تؤدي أحياناً إلى مشاجرات وإلى تماسك بالأيدي.

ولم يقتصر قيام الخطوط الحديدية على جعل الأسفار أقصر، وعلى جعل نقل البضائع أسرع، بل أصبحت الأحداث نفسها في تلك الفترة تجري جرياناً متسارعاً. وكان أهل المدينة لا يلاحظون هذا التسارع لأنه يتم تدريجياً ولا يلفت انتباههم جميعاً. واعتاد الناس الأمور المثيرة. أصبحت الأنباء المثيرة شائعة غير نادرة، بل أصبحت غذاءً يومياً وحاجة حقيقية. غدت الحياة كلها حثيثة الخطى وأصبحت تتسارع على حين فجأة تسارع السيل قبيل أن يتكسر فيهبط الصخور المنحدرة ويستحيل إلى شلال.

كانت قد انقضت أربع سنين على بدء سير أول قطار، حين عُلق في ذات صباح من شهر أكتوبر (تشرين الأول) على الكابيا، تحت اللوحة التي عليها كتابة تركية، إعلان أبيض كبير. لقد ألصق الإعلان هنالك موظفٌ من موظفي الإدارة بالمنطقة اسمه دراغو. فتجمع الأطفال والمتعطلون حول الإعلان في أول الأمر، ثم أخذ يتوافد عليه الأشخاص الآخرون. فكان الذين يعرفون القراءة والكتابة يقرؤون الإعلان بصوت عال، يتهجونه ويتوقفون منه عند التعابير الأجنبية والمصطلحات الجديدة، وكان الآخرون يصغون صامتين، خافضي الطرف، حتى إذا فرغوا من سماع الإعلان كله، تلبثوا بضع لحظات ثم انصرفوا دون أن يرفعوا أبصارهم عن الأرض، وهم يمسدون بأيديهم شواربهم ولحاهم، كأنما هم يمسحون كلمة همّوا أن يلفظوها.

وصل علي خجا بدوره بعد صلاة الظهر، تاركاً دكانه، مكتفياً بأن يضع الحاجز على بابه، إشارةً إلى أنه مغلق. إن الإعلان في هذه المرة لا يشتمل على نص تركي، والخجا لا يقرأ اللغة الصربية. وكان أحد الصبية يقرأ الإعلان بصوت عال، قراءة آلية تماماً كقراءته في المدرسة:

بيان لشعب البوسنة والهرسك

«نحن» فرنسوا جوزيف الأول، إمبراطور النمسا وملك بوهيميا.. إلخ، والملك الرسولي للمجر، نعلن لأهالي البوسنة والهرسك ما يلي:

«حين اجتاز جيشنا حدود بلادكم منذ جيل..».

سمع علي خجا هذا الكلام فأحس بقرص في أذنه اليمنى تحت العمامة

البيضاء، وطافت في خياله صور مناقشته مع قره مانليا، والعقوبة القاسية التي وقعت عليه، والصليب الأحمر الذي كان يهتز أمام عينيه المغرورقتين بالدموع حين جاء أحد الجنود النمسويين فنزع المسمار من أذنه في حذر، والإعلان الأبيض الذي يشتمل على نداء موجه إلى الشعب، طافت في خياله صور ذلك كله كأنما هو حدث بالأمس القريب.

واستمر الصبي يقرأ:

«لقد أكدنا لكم يومئذٍ أننا لم نأت إليكم أعداء بل أصدقاء، وأننا نعزم عزماً قوياً على إزالة جميع الشرور التي أثقلت كا كا كاهل وطنكم خلال سنين».

فأخذ الناس جميعاً يندون بالقارئ الأخرق، فاضطرب الصبي واحمر وجهه، وما لبث أن غاب في صفوف الجمهور، فحلَّ محله شخص مجهول يرتدي سترة جلدية، كأنه كان ينتظر هذه الفرصة، فأخذ يقرأ في تدفق سريع متصل، كأنما هو يتلو دعاء من الأدعية حفظه عن ظهر قلب منذ مدة طويلة:

«إن ذلك الوعد الذي قُطع لكم في تلك اللحظة الحرجة قد نُفِّذ في الواقع تنفيذاً صادقاً. فقد جهدت حكومتنا طوال هذه المدة في أن تسير بوطنكم إلى مستقبل أسعد، بالعمل المستمر في ظل السلام والقانون.

وأنه ليسرّنا كثيراً أن نستطيع اليوم أن نقول في صراحة: إن البذور التي بذرت في أرض أُحسن حرثها قد أنبتت نباتاً طيباً كثيراً. ولا شك أنكم تحسون بهذه الوقائع إحساسكم ببركة حلت بكم. فبدلاً من العنف والاضطهاد قام النظام والأمن، وأصبح العمل وأصبحت الحياة في تقدم مطرد، وانتشر التعليم انتشاراً يدعو إلى الفخر، وصار في وسع كل إنسان أن يتمتع بثمرات عمله في حماية إدارة نظامية.

وأنه ليقع على عاتقنا جميعاً واجب مواصلة التقدم في هذه الطريق.

ومن أجل تحقيق هذا الهدف رأينا أنه قد آن لنا أن نقدّم لسكان البلدين برهاناً جديداً على ثقتنا بنضجهم السياسي فقررنا في سبيل أن نرفع البوسنة إلى درجة من الحياة السياسية أرقى، أن نمنح هذين البلدين أنظمة دستورية ـ تتفق مع ظروفهم ومع مصالحهم العامة ـ وأن نضع بذلك أساساً شرعياً لتمثيل أمانيهم ومصالحهم.

فليسمع صوتكم حين تتخذ في المستقبل قرارات تتصل بشؤون وطنكم الذي ستكون له إدارة مستقلة كما كانت له إدارة مستقلة حتى الآن.

ولكن الشرط الأول الضروري لإدخال هذا الدستور الوطني هو أن يعين الوضع القانوني للبلدين تعييناً واضحاً لا يتطرق إليه الشك. وعلى أساس هذا المبدأ، وعلى أساس الاحتفاظ بذكرى الصلات التي كانت قائمة منذ أزمنة بعيدة بين هذين البلدين وبين أسلافنا الأماجد الذين تعاقبوا على عرش المجر، فقد جعلنا حقوق سيادتنا تشمل البوسنة والهرسك، ونريد أن يطبق على هذه البلاد نظام توارث الملك الذي هو من حقوق أسرتنا.

وبذلك يستطيع أهالي هذين البلدين أن ينالوا نصيبهم من الخيرات التي يمكن أن يكفلها لهم هذا التعزيز الدائم للروابط التي كانت تجمعهم إلينا حتى الآن، فمن شأن هذا الوضع الجديد أن يضمن لوطنكم الرقي والرفاهية.

يا أهالي البوسنة والهرسك،

لن يكون اهتمامنا برخائكم المادي والمعنوي آخر الاهتمامات الكثيرة التي تشغل عرشنا. واعلموا أن المساواة بين الجميع أمام القانون، والمشاركة في وضع القوانين وإدارة البلاد، وحماية جميع الأديان، وجميع اللغات وجميع الخصائص القديمة، على حد سواء، اعلموا أن كل هذه الخيرات العظيمة، ستتمتعون بها كاملة غير منقوصة.

حرية الأفراد، وخير الجماعة، ذلك هو النجم الهادي الذي سيقود خطوات حكومتنا في هذين البلدين».

كان علي خجا فاغراً فمه قليلاً، مائلاً برأسه إلى أمام، وهو يصغي إلى هذه الكلمات التي لم يألف أكثرها أو هو يجهله كل الجهل، وكذلك الكلمات الأخرى التي لم تكن في ذاتها غريبة عنه، لكن ورودها في هذا السياق غريب لا يفهم «البذور. . في أرض أحسن حرثها»، «الشرط الضروري لإدخال هذه الدساتير الوطنية»، «تعيين الوضع القانوني تعييناً واضحاً لا يتطرق إليه الشك»، «النجم الهادي الذي سيقود خطى حكومتنا». نعم، هذه هي «الكلمات الإمبراطورية» تعود مرةً ثانية. كان الخجا، حين يسمع كل كلمة من الكلمات على حدة، يطل بخياله تارةً على أفق بعيد عجيب خطر، ويرى تارة أخرى حجاباً أسود بلون الرصاص ينسدل أمام حدقتيه. فهو حيناً لا يرى شيئاً ألبتة، وحينا يرى شيئاً لا يفهمه ولا يبشر بخير. ولا شيء في هذه الحياة مستحيل. . وكل معجزة في هذه الحياة ممكنة. رُبَّ شخص يصغي إلى بعض الكلام في انتباه فلا يفهم

شيئاً من التفاصيل. لكنه يدرك المعنى إدراكاً كاملاً، ويفهم جملة الأمر فهماً صحيحاً. البذور، والنجم الهادي، واهتمامات العرش، كل هذا الكلام يمكن أن يقال بلغة أجنبية، دون أن يمنع الخجا من فهم المراد منه، فيما يتراءى له، ودون أن يمنعه من معرفة الغاية التي تستهدف من ورائه. إن هؤلاء الملوك يلقون النداء تلو النداء، منذ ثلاثين عاماً، إلى البلاد والمدن وأفراد الشعوب. وكل كلمة في كل نداء لكل إمبراطور مثقلة بالنتائج. لقد تمزقت البلاد. وإن الرؤوس في هذه البلاد لتطير بسبب هذه الكلمات الإمبراطورية. فإذا قيل «البذور والنجم الهادئ واهتمامات العرش»، فإنما يقال ذلك حتى لا تسمى الأشياء بأسمائها، وحتى لا يُعلَن ما يحدث في حقيقة الأمر: وهو أن بلاداً وأقطاراً ومن عليها من أحياء وسكان، تنتقل من يد إلى يد، انتقال العملة الصغيرة، وأن الإنسان الذي دان بدين الحق وحسنت نياته، لن يجد بعد الآن أمنا على هذه الأرض، وأن حاله وأملاكه تتبدلان بغير إرادته على نقيض رغباته ونياته الصادقة.

كان علي خجا يصغي إلى هذا الكلام فيحس بأن هذه الكلمات هي تلك الكلمات نفسها التي سمعها منذ ثلاثين عاماً، وأن ما يجثم على صدره الآن من ثقل كالرصاص هو عين ما شعر به إذ ذاك. إنه ذلك البلاغ نفسه الذي أعلن أن عهد الأتراك قد ولّى، وأن «الشعلة التركية قد ذوت». وإنما هو يُرَدَّد على مسامعهم، لأنهم لا يريدون أن يفهموا، ولا أن يدركوا الوقائع، بل يخادعون أنفسهم ويتجاهلون تجاهل العارف.

«وفي مقابل ذلك لا شك ستبرهنون على جدارتكم بهذه الثقة التي نوليكم إياها، وذلك حتى يكون الانسجام بين الملك والشعب، هذا الانسجام الذي هو أكبر ضمان لتقدم الدولة، مصاحباً لعملنا المشترك على الدوام».

صدر في عاصمتنا ومقرنا الملكي بودابست.

فرنسوا جوزيف، ش[1]

هكذا أتم الرجل الذي يرتدي السترة الجلدية قراءته، ثم ما لبث أن صاح على حين فجأة صياحاً قوياً غير متوقع:

ـ عاش صاحب الجلالة إمبراطورنا.

---

(1) اختصار لكلمة «شخصياً» ومفادها أن النداء كتب بيد الملك نفسه (المترجم).

فإذا بفرحات، الرجل الطويل الذي يشعل قناديل البلدية، يصيح وراءه كأنما كانا على خطة مبيتة:

ـ عاش.. عاش.. عاش.

وتفرق الآخرون في تلك اللحظة نفسها صامتين.

ولم تهبط ليلة ذلك اليوم إلا وكان الإعلان الأبيض الكبير قد مزق، ورمي في نهر درينا، وفي الغداة، اعتقل عدد من الشباب الصربيين اشتبه في أنهم هم الذين فعلوا هذا الأمر، وعلق على الكابيا إعلان أبيض آخر، وكلف خفير من خفراء البلدية بحراسته.

متى شعرت حكومة من الحكومات بحاجتها إلى بذل وعود الأمن والرخاء لرعاياها عن طريق الإعلانات، كان ينبغي أن يكون المرء على حذر وأن يتوقع خلاف ذلك تماماً. فما إن انتهى شهر تشرين الأول (أكتوبر) حتى أخذ الجيش يصل، لا بالقطارات فحسب، بل كذلك عن طريق الدرب القديم المهجور. وكما حدث منذ ثلاثين عاماً، كان الجيش يهبط عقبات الطريق الآتي من سارايفو، ويدخل إلى المدينة عابراً الجسر مع معداته وذخائره. وكان يضم جميع أنواع الأسلحة، عدا سلاح الفرسان. امتلأت جميع الثكنات. وعَسْكَرَ بعض الجنود في خيام. وظلت تصل إلى المدينة وحدات جديدة، فتمكث فيها بضعة أيام، ثم تنتشر منها في القرى الواقعة على طول الحدود المواجهة للصرب. وكان أكثر الجنود من جنود الاحتياط، وهم ينتمون إلى جنسيات مختلفة، ويحملون مبالغ لا بأس بها من المال. فكانوا يبتاعون مشترواتهم الصغيرة من الدكاكين، ويبتاعون الفاكهة والحلوى من أركان الشوارع. وارتفعت الأسعار. حتى لقد نفد العلف والشوفان كليًّا وشرع في بناء قلاع على الذرى المحيطة بالمدينة. وبُدئ على الجسر نفسه عمل غريب. ففي وسط الجسر. بعد الكابيا رأساً. في الاتجاه الذاهب من المدينة إلى الضفة الثانية من نهر درينا، أخذ عدد من العمال الذين جيء بهم لهذا الغرض خاصةً، أخذوا يحفرون في أحد الأعمدة حفرة مساحتها متر مربع. إن المكان الذي كان يتم فيه هذا العمل قد غطي بخيمة خضراء، تُسمع من تحتها ضربات المطارق لا تنقطع وما تنفك توغل عمقاً. والحجارة التي ينزعونها كانوا يرمونها فوراً إلى النهر من فوق الإفريز. وعلم الناس في المدينة، رغم أن العمل يتم في خفاء، أن هؤلاء العمال يلغمون الجسر، أي يحفرون في

أحد أعمدته حفرة عميقة تصل إلى قاعدته، ثم يضعون في قاع هذه الحفرة مواد متفجرة، من أجل اليوم الذي تصل فيه الأمور إلى نشوب حرب. ويصبح فيه نسف الجسر ضرورة لا بد منها. وقد أنزلوا في الحفرة سلالم حديدية طويلة، حتى إذا فرغوا من عملهم كله وضعوا على فتحة الحفرة لوحاً من حديد. وما مضت إلا أيام معدودة، حتى التصق لوح الحديد بالحجر والغبار، وصارت العربات تمر فوقه، وحوافر الخيل تقرعه، والمارة يسيرون عليه مسرعين إلى أعمالهم، دون أن يفكروا في اللغم أو في المتفجرات. غير أن الصبية كانوا يقفون على هذا المكان أثناء ذهابهم إلى مدارسهم، ويضربون هذا الباب الحديدي ضربات صغيرة مستطلعين، ويحاولون أن يحزروا ما يختفي وراءه، ويتخيلون عبداً آخر مختبئاً في الجسر ويتشاجرون وهم يتساءلون عن المتفجرات ما هي؟ وما الآثار التي تنجم عنها؟ وهل يمكن أن تهدم بناءً ضخماً كهذا البناء هدماً كاملاً؟

إن علي خجا متولتش هو بين الكبار الشخصُ الوحيد الذي دار حول تلك الخيمة الخضراء في أول الأمر، وحول لوح الحديد الذي بقي على الجسر بعد ذلك، ينعم النظر ويدقق وقد أظلم وجهه وثارت الشكوك والريب في نفسه. وكان يصغي إلى كل ما يقال وإلى كل ما يتهامس به الناس، وهو أن حفرة قد حفرت في هذا العمود وأن متفجرات قد ربطت بالضفة بسلك كهربائي بحيث يمكن في أية لحظة من لحظات النهار أو الليل أن ينسف الجسر من وسطه كأنه من سكَّر لا من حجر. كان الخجا يصغي، ويهز رأسه، ويفكر.. يفكر نهاراً حين يأوي إلى «تابوته»، ويفكر ليلاً حين يستلقي على فراشه ساعة النوم. وكان تارةً يصدّق هذا الاحتمال، وتارةً يرفضه لأنه جنون وكفر، ولكن الأمر يشغل باله بغير انقطاع، حتى لقد كان يرى في الأحلام أسلافه الذين تعاقبوا على إدارة وقف محمد باشا، يأتون إليه ويسألونه في قسوة عما يجري. وعما يصنع بالجسر. إن علي خجا يحّرك هذا الهم في نفسه. ولا يريد أن يسأل عن الأمر أحداً من أعيان المدينة، لأنه يرى أن الإنسان العاقل لم يبق له أحد يسأله النصح في المدينة كلها منذ مدة طويلة، ولم يبق له من يستطيع أن يناقشه مناقشة إنسانية، فإن جميع الرجال في المدينة أصبحوا أحد اثنين: إما رجل فقد الكرامة والعقل، وإما رجل حائر مستاء مثل حيرته ومثل استيائه.

ومع ذلك عرضت له في ذات يوم فرصة السؤال عن هذا الأمر. إن أحد بكوات برانكوفتش (من تسرفتشا)، واسمه محمد، قد قام بخدمته العسكرية في فيينا، ثم ظل منخرطاً في سلك الجيش فوصل إلى رتبة رقيب أول (إن محمد هذا هو حفيد شمسي بك الذي حبس نفسه بعد الاحتلال في بلدته تسرفتشا، ومات فيها حزناً وأسى، ولا يزال يذكر إلى الآن بين شيوخ الأتراك مثلاً رفيعاً على سمو الخلق وسلامة الموقف). وقد جاء محمد بك في تلك السنة إلى المدينة في إجازة. إنه رجل طويل ضخم أحمر، يرتدي بزة عسكرية زرقاء أنيقة، عليها أشرطة صفراء، وأهداب حمراء، ونجوم صغيرة من فضة عند الياقة، ويضع في يديه قفازين جلديين أبيضين كالثلج، ويضع على رأسه طربوشاً أحمر. كان محمد بك يتجول في الحي التجاري متلطفاً مع الناس، مبتسماً، نظيفاً كل النظافة، أنيقاً كل الأناقة، يصدم الأرض بسيفه الطويل على استخفاء، ويُظهر المودة والثقة لكل واحد من الناس، كشخص يأكل من خبز الإمبراطور، ولا يشك في نفسه ولا يشفق من أحد.

فلما جاء محمد بك هذا إلى دكان الخجا أيضاً، يسأله عن صحته، ويجلس يشرب قهوته، انتهز علي خجا هذا الفرصة ليسأله عن هذا الأمر الذي يرهقه، بصفته رجلاً من رجال الإمبراطور يعيش بعيداً في فيشيغراد، ذكر له الأمر، ووصف له ما جرى على الجسر، وقال له ما يرويه الناس بالمدينة، وسأله هل مثل هذا الأمر الخارق ممكن حقاً: هل يمكن أن يُهيأ، وفقاً لخطة، تهديم مبنى خيري ذي فائدة عامة كهذا المبنى.

فما إن سمع الرقيب الأول موضوع السؤال، حتى ظهر عليه الجد: اختفت ابتسامته العريضة، وعبس وجهه الأحمر الحليق (كأنه في استعراض ساعة إصدار هذا الأمر: استعد)، وصمت خلال لحظة قصيرة كأنه مرتبك، ثم أجاب بصوت خافت:

- ما يُروى لا يخلو من صحة. ولكن إذا أردت أن أعلن لك ما في قرارة نفسي. فإنني أقول لك أن من الأفضل ألا يلقي المرء أسئلة من هذا الموضوع، وألا يتحدث عنه، لأن ذلك من الاستعدادات الحربية، والأسرار العسكرية، إلى آخره إلى آخره.

إن الخجا يكره جميع هذه التعابير الجديدة. وخاصةً تعبير «إلى آخره» هذا،

لا لأن هذا التعبير يثير أعصابه فحسب، بل لأنه يحس إحساساً واضحاً بأن هذا التعبير ينوب في كلام الأجانب مناب الحقيقة التي يصمتون عنها، فكأن كل ما قيل قبل ذلك لا قيمة له البتة.

ـ ناشدتك الله لا تستعمل معي تعبير «إلى آخره، إلى آخره» هذا الذي يستعملونه هم، بل قل لي ما الذي يعملونه على الجسر، واشرحه لي إن استطعت. ثم إن الأمر ليس بسر. أي نوع من الأسرار يمكن أن يكون هذا الأمر الذي لا يجهله حتى أطفال «الكتاب»؟

بهذا قاطع الخجا صاحبه في حنق، وأضاف يقول.

ـ ثم أية علاقة للجسر بحربهم؟

فأجاب برانكوفتش وقد عاد إلى هيئته الباسمة، يقول:

ـ طبعاً له علاقة.

ثم أخذ يشرح له، في تودد وفي شيء من الملاطفة التي يخاطب بها الأطفال، إن هذا كله ملحوظ في القواعد العسكرية، وأن له جنوداً اختصاصيين، وأن لكل امرئ في الجيش الإمبراطوري عملاً لا يعرف غيره، وأن على كل فرد في الجيش ألا يهتم بشؤون غيره، وألا يتدخل في شؤون غيره.

فكان الخجا يصغي إليه، وينعم النظر فيه، لكنه لا يفهم كثيراً. ثم لم يطق صبراً، فقال:

ـ طيب طيب. . كل هذا الكلام جميل، ولكن هل يعرف هؤلاء الناس أن الجسر مبنى خيري شاده الوزير في سبيل الله، وأن من الإثم أن يُنتزع منه أي حجر؟

فلم يجب الرقيب الأول بكلمة، بل باعد ذراعيه، وهز كتفيه، وعض على شفتيه، وأغمض عينيه، فاكتسى وجهه تعبيراً عن المكر واللياقة والسكون والعمى والصمم لا يقدر عليه إلا أناس عملوا مدة طويلة في الإدارات المتعفنة التي تدهور فيها الكتمان حتى استحال إلى بَلَادَة في الحس، وتدهورت فيها الطاعة حتى استحالت إلى جبن. إن ورقة بيضاء لهي أفصح بياناً من هذا التحفظ الأخرس في هذا الوجه. وما لبث رجل الإمبراطور أن فتح عينيه، وأسبل ذراعيه، ومحا غضون وجهه، وعاد إلى هيئته السابقة الهادئة الباسمة الواثقة التي تمتزج فيها طيبة أهل فيينا بأدب الأتراك امتزاج الماء بالماء. وبعد أن غير

موضوع الحديث، وأثنى بعبارات منتقاة على صحة الخجا ومظهره الشاب، انصرف مستأذناً بذلك التودد نفسه الذي كان يظهر عليه عند وصوله. وبقي الخجا حانقاً مهتزاً ولم تهدأ همومه. وها هو الآن جالس أمام دكانه، غارق في أفكاره المهمومة يتأمل جمال اليوم الأول من شهر آذار (مارس)، وأمامه، من جانب، ينتصب الجسر الخالد، الجسر الذي لا يتغير، فيرى من خلال قناطره البيضاء سطح نهر درينا أخضر نيراً صاخباً، فكأن المرء حين ينظر إلى هذا المشهد يرى عقداً غريباً من لونين، يتلألأ في أشعة الشمس.

الفصل الثامن عشر

إن التوتر الذي كان يطلق عليه في العالم كله اسم «أزمة الإلحاق»، والذي كان يلقي ظله المنذر بشر مستطير على الجسر وعلى المدينة قرب الجسر، هذا التوتر قد زالت حدته الآن على حين غفلة، فهناك، في مكان ما، استطاعت المراسلات الدبلوماسية والمفاوضات بين العواصم المعنية بالأمر، أن تجد لهذا التوتر حلاً سليماً.

ففي هذه المرة لم تشتعل النار على هذه الحدود التي كان التهابها سهلاً في جميع الأزمان. وها هي ذي القطعات العسكرية التي كانت قد ملأت المدينة وقرى الحدود أفواجاً كبيرة، ها هي ذي تنسحب عند مطلع الربيع فيقلّ عددها. لكن التبدلات التي أحدثتها هذه الأزمة ظلت قائمة بعد انقضاء الأزمة، كما يقع ذلك دائماً. فالحامية التي استقرت في المدينة استقراراً دائماً، هي الآن أكبر من الحامية التي كانت مستقرة فيها قبلئذٍ. والجسر لا يزال ملغوماً، وليس يفكر في ذلك أحد، إلا علي خجا متولتش. والأرض التي تقع على السهل المرتفع الأيسر قرب الجسر فوق سور قديم والتي كان يقوم عليها بستان قُطعت منه الأشجار المثمرة، وبُني في مكانها منزل جميل ذو طابق واحد جعل نادياً للضباط، لأن البيت الذي اتخذ قبل ذلك نادياً، وهو طابق أرضي صغير، غدا أضيق من أن يتسع للضباط الذي كان عددهم آخذاً في التزايد.

وهكذا كان يقوم على الجانب الأيمن من الجسر فندق لوتيكا، ويقوم على الجانب الأيسر منه نادي الضباط، والبناءان بيضاوان كلاهما، يكاد كل منهما يكون عين الآخر، وبينهما تقع ساحة السوق، تحيط بها الدكاكين، وفوق السوق على مرتفع صغير تقوم الثكنة الكبيرة التي كان الشعب لا يزال يطلق عليها اسم النزل الحجري. تخليداً لذكرى السراي التي بناها محمد باشا والتي كانت تقوم في هذا المكان نفسه، ثم زالت دون أن تخلف أثراً.

والأسعار التي وثبت في الخريف الماضي، بسبب وجود ذلك العدد الكبير من الجيش، ظلت على حالها لم تنخفض، حتى لقد كانت أميل إلى الارتفاع منها إلى العودة إلى عهدها السابق. وفي تلك السنة فتح مصرفان (بنكان)، أحدهما صربي، والثاني مسلم. وأصبح الناس يستعملون القروض استعمالهم للأدوية. وأصبح من السهل على كل فرد أن يستدين. ولكن الحاجة إلى المال تزداد كلما ازداد المال. إن الذين ينفقون بلا حساب أكثر مما يكسبون كانوا يشعرون وحدهم بأن الحياة لا تزال سهلة جميلة. أما التجار ورجال الأعمال فكانت الهموم تملأ نفوسهم. آجال دفع أثمان البضائع ما تنفك تقصر، والزبائن المستقيمون المضمونون أصبحوا قلة قليلة والسلع التي تربو أثمانها على القوة الشرائية لدى سواد الناس ما تنفك تزداد فيضيق نطاق البيع، لأن الناس يطلبون بضائع رخيصة. وليس يشتري بغير حساب إلا الزبائن الذين يتلكأون في الدفع. إن العمل الرابح المضمون الوحيد إنما هو التوريد للجيش أو لمؤسسة من مؤسسات الدولة، غير أن طلبات التوريد هذه لا يمكن أن يحصل عليها جميع التجار. وضرائب الدولة ورسوم البلدية تثقل وتتكاثر، والقسوة في جباية الضرائب تزداد. إن المرء يحس من بعيد بأن ثمة تأرجحاً في بورصات الأسعار. والفوائد التي تنجم عن هذا الوضع تمضي إلى أيد خفية لا تُرى، بينما الخسارات تمتد إلى أبعد مناطق المملكة وتضرب التجارة الصغيرة وتؤذي صغار البائعين وتسيء إلى المستهلكين.

الحالة الروحية العامة في المدينة ليست أقرب إلى الهدوء والسكينة. إن زوال حدة التوتر فجأة لم يجلب هدوءاً حقيقياً لا للصربيين ولا للمسلمين بالمدينة. وإنما هو خلّف لدى الأولين نوعاً من خيبة خبيثة، وخلف لدى الآخرين مشاعر الحذر والخوف مما يكنه لهم المستقبل. وعاد انتظار وقوع أحداث كبرى تملأ النفوس، بدون سبب ظاهر وبدون داع مباشر. فالشعب يأمل في شيء ما ويشفق من شيء ما (أو أقل إن فريقاً من الشعب يأمل وفريقاً يشفق)، ويستقل كل أمر من الأمور وينظر إلى كل أمر من الأمور على أساس ذلك. إن قلب كل إنسان نهب للقلق، حتى في صفوف العامة والجهلة والسذج، وخاصةً في صفوف الشباب. ما من أحد راضٍ عن الحياة الرتيبة التي يعيشها منذ سنين. كل واحد يرغب في ما هو أكثر من ذلك، ويطلب ما هو خير من ذلك أو يشفق مما هو

شر. والشيوخ لا يزالون يتحسرون على «نعومة البال» تلك التي كانت تعد في عهد الأتراك غاية ما يطمع فيه المرء وأكمل صورة من صور الحياة العامة والخاصة، والتي كانت ما تزال سائدة إبان العقود الأولى من عهد السيطرة النمسوية. إلا أن عدد هؤلاء قليل، أما الآخرون فإنهم يريدون حياة نشطة، صاخبة، مثيرة، متحركة. يريدون أن يعانوا إحساسات قوية، أو أن يعانوا صدى الإحساسات القوية التي يعيشها غيرهم، أو يريدون على الأقل حياة زاخرة بالصخب وشتى المثيرات التي توهم بقوة الإحساس. إن هذه الرغبة لم تبدِّل الحالة النفسية فحسب، بل بدلت كذلك المظهر الخارجي بالمدينة. وتلك الحياة القديمة المطردة التي كان يعيشها الناس على الكابيا، تلك الحياة التي تملأها أحاديث هادئة وتأمل ساج وأمازيح بريئة وأغانٍ غرامية، بين الماء والسماء والجبال، هذه الحياة قد أخذت تتغير هي أيضاً.

لقد اشترى صاحب المقهى جهاز غراموفون، وهو صندوق كبير من خشب، له بوق كبير من صفيح، في صورة زهرة زرقاء ناصعة. إن ابنه يغيّر الاسطوانات والإبر، وما ينفك يعبئ هذه الآلة الصخابة التي تهز الكابيا وتدوي أصداؤها في الضفتين. لقد اضطر صاحب المقهى أن يشتري هذه الآلة حتى لا يكون متخلفاً عن منافسيه، لأن أصوات الغراموفون أصبحت لا تُسمع في النوادي وقاعات المطالعة فحسب، بل أصبحت تُسمع كذلك في أحقر خمارات الريف حيث كان الناس يجلسون قديماً تحت شجرة من أشجار الزيزفون، أو فوق العشب، أو على السطوح المنارة، وحيث كانوا يتحدثون بصوت خافت، وكلام قليل. إن آلات الغراموفون تزعق وتنعب في كل مكان، مرددةً أناشيد تركية، أو أغاني وطنية صربية، أو ألحان أوبريتات نمسوية، وفقاً لما يريده الزبائن الذين تشغل من أجلهم، لأن الناس لا يذهبون إلا إلى الأماكن التي فيها قرقعة، وصخب، وحركة، ولا يشترون ما يريدون شراءه إلا من مثل تلك الأماكن.

والناس يقبلون على قراءة الجرائد في شراهة، لكنهم يقرأونها بسرعة عابرين. ولا يبحث أحدهم إلا عن الجرائد التي تعرض في الصفحة الأولى عناوين مثيرة مطبوعة بأحرف ضخمة. أما المقالات المطبوعة في زوايا من الجريدة بأحرف صغيرة فلا تجد لها قراء. إن كل ما يقع يُعرض الآن بألفاظ طنانة براقة. والشباب لا يحسون بأنهم عاشوا نهارهم كما ينبغي أن يعاش، إذا هم عند

المساء، قبل النوم، لم يدر في آذانهم ولم يسطع أمام أبصارهم ما سمعوه وما رأوه في النهار.

والأغوات والأفندية يجيئون إلى الكابيا وقد بدا على وجوههم الجد، وظهر عليهم أنهم لا يبالون ولا يكترثون، ليسمعوا ما تنشره الصحف من أنباء الحرب الإيطالية التركية في طرابلس. إنهم يصغون في نهم إلى ما يذكر في هذه الصحف عن القائد التركي، الشاب، البطل، أنور بك، الذي يضرب الطليان، ويدافع عن أرض السلطان، كأنه سليل سوكولوفتش أو تشوبريلتش. وهم يقطبون حواجبهم حين يسمعون موسيقى الغراموفون الصاخبة التي تشوش أفكارهم، ويرتعدون من فرط تأثرهم بمصير تلك المنطقة التركية البعيدة من أفريقيا. يرتعدون بعمق وإخلاص، دون أن يظهروا ذلك.

وحدث في لحظة من تلك اللحظات أن مر بالجسر بيترو الإيطالي، المعلم بيرو، عائداً من عمله، بردائه المبيضّ من الغبار الملطخ ببقع الأصباغ والزيت. لقد دب الهرم في المعلم بيرو، وازداد الآن انحناء ظهره، وازداد تواضعه وخوفه. وكما شعر بأنه مذنب يوم اغتال لوكيني الإمبراطورة، وفقاً لمنطق ظل هو نفسه لا يفهمه، فإنه يشعر الآن مرة أخرى بأنه مسؤول عن جريمة ما يقترفها في مكان ما على هذه الأرض مواطنوه الطليان الذين لم تبق له علاقة بهم منذ مدة طويلة. وها هو ذا أحد الشبان الأتراك يصيح به ساخراً:

ـ هل تريد طرابلس؟ طيب..

قال الشاب التركي ذلك، وهو يظهر له ذراعه «من الكف إلى الكوع»، ويقوم بحركات أخرى بذيئة.

فاكتفى المعلم بيرو بأن أغطس قبعته حتى وصلت إلى عينيه، وعض غليونه بأسنانه عضاً قوياً. وأسرع يمضي إلى بيته في أعلى الميدان، متعباً منحنياً إلى أمام متأبطاً أدواته.

وهناك كانت تنتظره زوجته ستانا التي دب فيها الهرم هي أيضاً، وخارت قواها، ولكنها لا تزال عريضة الحلق سليطة اللسان، فاشتكى إليها زوجها مُرّ الشكوى من هؤلاء الشباب الذين يقولون له كلاماً غير لائق، ويطالبونه بطرابلس التي كان منذ بضعة أيام لا يعرف أن لها وجوداً على سطح الأرض. وها هي ذي ستانا ـ على عهدها ـ لا تريد أن تفهم ولا أن ترثي لحاله. وإنما هي تؤكد له مرة

أخرى أنه مخطئ وأنه يستحق ما يرشق به من شتائم.

ـ لو كنت رجلاً حقاً، وما أنت كذلك، لضربتهم بريشتك أو بمطرقتك على وجوههم الوسخة، فما يخطر ببال هذه الحثالة بعدئذٍ أن تهينك، وإنما تنهض أجلالاً لك حين تجتاز الجسر.

فأجابها المعلم بيرو في سكون وحزن:

ـ ولكن يا ستانا، كيف يستطيع إنسان أن يضرب وجه جاره بمطرقته؟

هكذا انقضت تلك السنوات كلها وسط انفعالات صغيرة وكبيرة، وحاجة دائمة إلى إحساسات مثيرة. وهكذا وصل خريف عام 1912، ثم جاءت سنة 1913 مع الحروب البلقانية والانتصارات الصربية. ومن الأمور العجيبة النادرة، أن ما كان له شأن خطير في مصير الجسر ومصير المدينة ومصير كل من يعيش في المدينة، قد وقع في صمت من دون أن يُلاحظ.

كانت أيام شهر أكتوبر تنقضي أرجوانية في أول النهار وآخره، ذهبية في وسطه، بينما المدينة تنتظر حصاد الشعير والخمر الجديد. إن الجلوس على الكابيا بعد الظهر لا يزال جميلاً ممتعاً، حتى لكأن نسمات الهواء قد توقفت فوق المدينة. وفي ذلك الحين إنما وقع ذلك الأمر.

فقبل أن يستطيع الناس الذين يعرفون القراءة والكتابة أن يدركوا ما تنشره الصحف من أنباء متناقضة، كانت الحرب بين تركيا وبلاد البلقان الأربعة قد نشبت، وأخذت تتحرك على طول الطرق القديمة في أراضي البلقان. وقبل أن يدرك العالم معنى هذه الحرب إدراكاً دقيقاً، وقبل أن يتصور مداها، كانت قد انتهت بانتصارات الأسلحة الصربية المسيحية. كل ذلك قد تم بعيداً عن هذا المكان، دون طلقات رصاص ودوي مدافع على الحدود، ودون رؤوس مقطوعة تعلق على الكابيا. إن كل شيء في هذه الأحداث الكبرى يجري في بعيد بسرعة لا تصدق، كالتجارة والمال سواء بسواء. فهناك، في مكان ما في العالم، تسحب ورقة يانصيب، أو تضرم نار معركة، فيتعين قدر كل منا.

ولكن لئن ظل مظهر المدينة ساكناً لم يتبدل، لقد ولّدت هذه الأحداث في النفوس عواصف حقة، وزوابع من حماسة عنيفة ويأس عميق. لقد استقبلت هذه الأحداث في المدينة بمشاعر متعارضة أشد التعارض، بين صفوف الصربيين والمسلمين، شأنها في ذلك شأن كل ما كان يجري في العالم إبان هذه السنين

الأخيرة. ولعل تلك المشاعر لم تكن متساوية إلا في الشدة والعمق. لقد تجاوزت تلك الأحداث كل ما كان يأمله البعض، وبررت كل المخاوف التي كان يحسها البعض الآخر. إن الرغبات التي تطير منذ قرون أمام التاريخ، أصبحت الآن لا تستطيع أن تسايره في سرعة جريانه، ولا أن تدركه في طيرانه العجيب على طريق تحقيق أجرأ الأعمال.

إن كل ما تستطيع المدينة أن تراه وأن تحسه من هذه الحرب المقدرة كان يتم بسرعة السهم وبساطة لا عهد بمثلها من قبل.

ففي أوفاتس حيث الحدود بين النمسا ـ المجر وبين تركيا ينبع النهر الصغير الذي يسمى بذلك الاسم نفسه، وحيث يقوم جسر خشبي صغير يفصل الثكنة النمسوية عن المخفر التركي، اجتاز أحد الضباط الأتراك هذه الحدود، وانتقل إلى الجهة النمسوية.

وهناك، بحركة مسرحية، حطم سيفه على افريز الجسر، وسلّم نفسه لرجال الدرك النمسويين. وفي تلك اللحظة كانت عساكر الصرب تهبط الرابية بملابسها الرمادية، وتحل محل القطاعات النظامية التركية، ذات العتاد القديم، على طول الحدود بين البوسنة والسنجق. واختفت النقطة التي كانت تلتقي عندها حدود النمسا وتركيا والصرب. وتراجعت الحدود التركية التي كانت بالأمس على مسافة خمسة عشر كيلومتراً من فيشيغراد، تراجعت إلى بعيد، إلى مكان ما وراء أدرنه.

إن هذه الأحداث الكثيرة الكبيرة التي تمت في فترة قصيرة من الوقت قد هزت المدينة إلى الأعماق.

وكان هذا الانقلاب أمراً حاسماً بالنسبة إلى الجسر الذي على نهر درينا. لقد سبق أن ذكرنا أن الاتصال بسارايیفو بواسطة الخط الحديدي كان قد أعدم علاقات الجسر بالغرب، وها هوذا اتصاله بالشرق يقطع الآن في مثل لمح البصر. إن هذا الشرق الذي أوجد الجسر، وكان بالأمس القريب موجوداً هنا، باقياً واقعياً كالسماء والأرض، ولو أنه مهاجم مصدع، هذا الشرق قد اختفى الآن كما يختفي طيف. وأصبح الجسر لا يربط إلا بين شطري المدينة وبين ما يقرب من عشرين قرية على جهتي نهر درينا.

إن الجسر الحجري الكبير الذي كان عليه، في ما تصوره الوزير سوكولوفتش وفي ما حققه من عمل خيري مبرور، أن يربط بين شطري الإمبراطورية، وأن

يسهل على الناس مرورهم من الغرب إلى الشرق ومن الشرق إلى الغرب، قد قُطع الآن عن الشرق والغرب كلاهما، وأصبح مهجوراً، كالسفن الغريقة والمعابد المتروكة. لقد ظل خلال ثلاثة قرون يتحمل كل شيء، ويبقى بعد كل شيء، وقام بوظيفته على أكمل وجه لم يتبدل ولم يتغير. ولكن الحاجات الإنسانية دارت وتغيرت الأمور في العالم فخانته الآن رسالته. لقد كان من الممكن، لما يتمتع به من ضخامة ومتانة وجمال، إن تظل الجيوش تجتازه وأن تظل القوافل تتعاقب عليه خلال قرون أيضاً، ولكن البناء الخيري الذي شاده الوزير أصبح بين عشية وضحاها، بسبب ما يطرأ على العلاقات الإنسانية من حركات عجيبة غير متوقعة، أصبح مهجوراً خارجاً عن تيار الحياة. إن الدور الذي يقوم به الجسر الآن لا يتناسب أبداً مع ما له من مظهر أبدي الشباب، ومع ما له من أبعاد ضخمة على إنسجام. ولكنه لا يزال منتصباً كما كان، كما رآه الوزير بخياله، وهو مغمض عينيه، وكما صنعه مهندسه: قوياً، جميلاً، متيناً، لا يصيبه تبدل.

كان لا بد من وقت ومن جهود حتى يفهم السكان كل ما نذكره هنا ببضعة أسطر، وكل ما تحقق فعلاً خلال بضعة أشهر. حتى في الحلم لا تنتقل الحدود بهذه السرعة كل هذه المسافة.

إن كل ما كان يغفو في نفوس الناس، عتيقاً أخرس ساكناً كهذا الجسر، قد انبعث الآن فجأة، وأخذ يؤثر في الحياة اليومية، أخذ يؤثر في الحالة النفسية العامة وفي مصير كل فرد من الأفراد شخصياً.

الأيام الأولى من صيف عام 1913 ماطرة رطبة. وعلى الكابيا جلس مسلمو المدينة مكتئبين متجهمين. كان عشرة من شيوخهم قد تحلّقوا حول فتى يقرأ لهم الجرائد، ويشرح التعابير الأجنبية ويترجم الأسماء الغريبة ويبسط لهم بعض المعلومات الجغرافية. إنهم جميعاً يدخنون في هدوء، وينظرون إلى الأمام ساكنين، ولكنهم لا يستطيعون أن يخفوا ما بهم من هَمّ واضطراب كل الإخفاء. إنهم يحاولون أن يسيطروا على أنفسهم، ويميلون على الخريطة الجغرافية التي تشير إلى التقسيم الجديد لشبه جزيرة البلقان. إنهم ينظرون إلى الورقة، فلا يرون شيئاً في هذه الخطوط المتثنية، لكنهم يعرفون كل شيء، ويفهمون كل شيء، لأن جغرافيتهم تجري في دمائهم، ولأنهم يحسون بصورة العالم إحساساً عضوياً.

توجه عجوز منهم إلى الشاب الذي يقرأ بالسؤال. قال:

- لمن ستكون أوشتشوب[1]؟
- للصرب..
- أوه..
- ولمن سالانيك[2]؟
- لليونان.
- أوه... أوه...
- ولمن أدرنه[3]؟
- ربما لبلغاريا.
- أوه أوه أوه..

لم تكن تلك آهات مدوية حزينة، كآهات النساء والضعفاء من الناس، بل كانت تنهدات مخنوقة عميقة تضيع في هواء الصيف مع دخان التبغ الخارج من الشوارب الكثيفة. إن كثيراً من هؤلاء الشيوخ قد تجاوزوا السبعين من العمر. لقد كانت السيطرة التركية في أيام شبابهم تمتد من ليكا والكوردون حتى استامبول ومن استامبول حتى الحدود الصحراوية غير المعينة من الجزيرة العربية البعيدة التي لا يمكن اجتيازها. (والسيطرة التركية كانت تعني في أذهانهم تلك الجماعة الكبرى التي لا تنقسم ولا يمكن أن تُحَطّم، الجماعة الكبرى التي يجمعها دين محمد، ذلك الجزء من الكرة الأرضية الذي يؤذّن فيه المؤذنون للصلاة). إنهم يتذكرون هذا تماماً، لكنهم يتذكرون أيضاً أن هذه السيطرة التركية قد تراجعت بعد ذلك أثناء حياتهم من الصرب إلى البوسنة، ثم تراجعت من البوسنة إلى السنجق. وها هي ذي تتراجع الآن، على مرأى منهم، إلى مكان ما لا تصل إليه أبصارهم، كأنما أَلَمَّ بها جزر عجيب على حين فجأة، بينما هم يبقون هنا، كأعشاب مائية في أرض يابسة، مخدوعين مهددين متروكين لأنفسهم ولحظهم السيئ. لا شك أن كل شيء من الله. ولا شك أن كل ما يحدث إنما يتم بمشيئة الله. ولكن الإنسان لا يستطيع أن يفهم هذه الأمور بسهولة. إن ما يقع الآن يقطع الأنفاس ويهزّ الضمائر، وإن المرء ليشعر في الوقت نفسه بأن الأرض تنسحب

---

(1) هو الاسم التركي لبلدة سكوبليا.

(2) سالانيك.

(3) أندرينوبل.

من تحت قدميه خلسة كأنها بساط، وإن الحدود التي كان ينبغي أن تظل ثابتة وطيدة تتحرك الآن وتتغير وتبتعد وتغيب، كجداول الربيع ذات النزوات.

تلك هي العواطف والأفكار التي تضطرب في نفوس الشيوخ، وقد جلسوا على الكابيا وأخذوا ينصتون إلى ما هو مكتوب في الصحف. إنهم يصغون صامتين رغم أن الألفاظ التي تستعملها الصحف في الكلام على الممالك والدول تبدو لهم وقحة مجنونة في غير محلها، ورغم أن هذا الأسلوب كله في الكتابة يتراءى لهم كفراً ومخالفة للقوانين الأزلية وخروجاً على منطق الحياة. ويبدو لهم نازلة مستفحلة لا يمكن أن يذعن لها إنسان شريف عاقل. وفوق رؤوسهم يتلفف دخان التبغ، وفي السماء العالية تتهرب غمامات بيضاء متقطعة من سحب صيف ماطر، فتجري ظلالها على الأرض سريعة عريضة.

وكان شباب من الصرب يظلون جالسين على الكابيا في الليل إلى ساعات متأخرة: ينشدون بأصوات عالية وبشيء من الوقاحة، أناشيد تتغنى بالمدفع الصربي، فما يفرض عليهم أحد غرامة، ولا يعاقبون. وبينهم يرى في كثير من الأحيان فتيان من طلاب الجامعات ومن تلاميذ المدارس الثانوية. إن أكثرهم شباب ضامرو الأجسام، صفر الوجوه، طويلو الشعور، يضعون على رؤوسهم قبعات سوداء مسطحة عريضة الحواف. إنهم يتوافدون في هذا الخريف كثيراً، رغم أن السنة الدراسية كانت قد بدأت: يصلون في قطار سارايفو مع توصيات وشعارات، ويقضون الليل هنا على الكابيا، ولكنهم لا يمكثون بالمدينة في النهار، لأن شباب فيشيغراد ينقلونهم إلى الصرب سالكين طرقاً معينة.

وفي أشهر الصيف، حين يأزف موعد العطلة، تعج المدينة وتعج الكابيا بالتلاميذ والطلاب الذين ولدوا في المدينة وعادوا يقضون عطلة الصيف بين ذويهم. إن وصولهم يؤثر في حياة المدينة كلها تأثيراً واضحاً.

ففي نهاية شهر حزيران (يونيو) يصل تلاميذ المدارس الثانوية من سارايفو جماعة، وفي النصف الأول من شهر تموز (يوليو) يبدأ توافد طلاب الحقوق والطب والآداب الذين يدرسون في جامعات فيينا وبراغ وغراتس وزغرب. وبوصولهم يتغير حتى المظهر الخارجي للمدينة. ففي حي السوق وعلى الكابيا، يرى المرء قامات شابة، متبدلة، غريبة، تختلف في سلوكها وفي لغتها وفي ملابسها عما ألفه أهل المدينة من عادات مقررة وأعراف لا تتغير. إنهم يرتدون

ملابس ذات ألوان قاتمة، فضّلت على زي حديث، هو زي «الغلوكنفاسون» الذي كان يعد في أوروبا الوسطى كلها آخر أنواع الموضة وذروة الذوق الأنيق. وقبعاتهم من قش لين، على طريقة قبعات بناما ذات الحواف الواطئة، وقد ازدانت بشريط من ستة ألوان قاتمة. ونعالهم أحذية عريضة ذات أبواز مرتفعة كثيراً. ومعظمهم يحمل عصا من الخيزران سميكة جداً. وفي ظهور الياقات من السترة وضع شعار السوكول أو شعار جمعية من جمعيات الطلاب.

وأنهم يجيئون أيضاً بكلمات جديدة وأمازيح جديدة وأغان جديدة، ورقصات جديدة شهدوها في «بالات» الشتاء الماضي، ويجيئون خاصةً بكتبٍ جديدة وكراسات جديدة صربية وتشيكية وألمانية.

قبل ذلك أيضاً، في الأزمة الأولى من الاحتلال النمسوي، كان يحدث أن يذهب بعض شباب المدينة إلى خارجها للدراسة، ولكن لم يكن عددهم وافراً هذه الوفرة في يوم من الأيام، ولا كانت تسيطر عليهم الآن. وقد تخرج بعضهم، خلال العقدين الأخيرين، من دار المعلمين بساراييفو، كما أن اثنين أو ثلاثة درسوا الحقوق أو الآداب في فيينا، ولكنهم كانوا قلة قليلة، وكانوا شباباً متواضعين ينجحون في امتحاناتهم على استخفاء دون أن يلفتوا إليهم الأبصار، حتى إذا أنهوا دراستهم غابوا في الجيش الكثيف الغفير الذي تتألف منه بيروقراطية الدولة. ولكن عدد طلاب المدينة قد ازداد منذ مدة زيادة كبيرة مفاجئة، وأصبح أبناء الفلاحين وأبناء صغار أصحاب الحرف يستطيعون بعد ذلك بفضل الجمعيات الثقافية أن يتموا دراستهم في الجامعات. وتبدلت روح الطلاب أنفسهم وتبدل طبعهم تبدلاً كبيراً.

ليسوا الآن كأولئك الطلاب القدامى، طلاب السنين الأولى التي أعقبت الاحتلال، شباباً خجولين سذجاً غارقين في دراستهم بأضيق معاني هذه الكلمة، ولا هم أيضاً كأولئك الشباب العابثين أو أولئك الفتية المستهترين الذين عرفتهم المدينة قديماً، الذين كانوا، بانتظار أن يصبحوا أرباب أعمال، ينفقون على الكابيا قواهم الشابة الطافحة، والذين كان ينصح أهلهم بأن يزوجوهم حتى يكفوا عن الغناء. وإنما هم شباب من طراز جديد يدرسون في مدن شتى ودول مختلفة ويتأثرون بمؤثرات متنوعة. إن هؤلاء الطلاب يعودون من المدن الكبرى والجامعات والمدارس الثانوية التي يدرسون فيها وقد فاضت نفوسهم بجرأة

مزهوة، وألهبت حماستهم الأفكار المتصلة بحق الشعوب في الحرية وبحقوق الفرد في السعادة والكرامة. إنهم في كل إجازة من إجازات الصيف يحملون معهم إلى المدينة آراء حرة في الشؤون الاجتماعية والدينية، كما يحملون إليها حماسةً قوية لبعث القومية التي أصبحت في هذه الأيام الأخيرة، وخاصةً بعد الانتصارات الصربية في حروب البلقان، عقيدة عامة، وأصبحت لدى عدد من الشبان اندفاعاً عنيفاً إلى العمل وإلى التضحية.

إن الكابيا هي المكان الرئيسي الذي يعقدون فيه اجتماعاتهم، إنهم يتجمعون على الكابيا بعد العشاء. ففي الظلام، تحت النجوم المتلألئة أو ضوء القمر، في سكينة الليل، فوق النهر المصطخب تدوي عندئذٍ أغنيات وأمازيح، وأحاديث متأججة ومناقشات لا تنتهي، مناقشات جديدة، جريئة، بريئة، صادقة، دفاقة.

ومع الطلاب يجلس رفاق طفولتهم الذين تابعوا معهم المدرسة الابتدائية، ثم بقوا في المدينة يتعلمون حرفة من الحرف، أو يعملون في بعض البيوت التجارية، أو يشغلون وظيفة سكرتير متواضع في البلدية، أو مستخدم في مشروع من المشاريع، إن هؤلاء فريقان. فريق راضٍ عن حظه وعن حياته في المدينة التي سيبقى فيها إلى الأبد، وهؤلاء ينظرون إلى رفاقهم المتعلمين نظرة استطلاع وحب ويحترمونهم دون أن يقرنوا أنفسهم بهم، ودون أن يحسدوهم، بل هم يشاركون في تطورهم وفي رسالتهم. وفريق آخر لم يرض عن الحياة التي فرضت عليه الظروف أن يعيشها في المدينة، فهو يرغب في شيء آخر يعده أعلى منزلة وأفضل قيمة، شيء آخر يصبح في كل يوم جديد أبعد وأعز منالاً.

وهؤلاء، رغم أنهم يظلون أصدقاء لرفاقهم الطلاب، ينفصلون عنهم إما بسخريتهم الفظة وأما بصمتهم المعادي. إنهم لا يستطيعون أن يشاركوا في أحاديثهم مشاركة الند للند، وشعورهم بالتقصير ما ينفك يعذبهم، فإذا شاركوا في الحديث رأيتهم يشيرون، مبالغين غير صادقين، إلى أنهم أناس متأخرون جهلة بالقياس إلى رفاقهم الذين أوتوا من الحظ ما لم يؤتوه، أو رأيتهم يعتزون بجهلهم ويهزأون بكل شيء في مرارة، والحسد في كلتا الحالتين يتدفق منهم قوياً عارماً يكاد يُرى ويُلمس. غير أن الشباب يسهل عليه أن يحتمل وجود أسوأ الغرائز، وأن يعيش معها وأن يتحرك بينها تحركاً حراً طليقاً لا يكترث ولا يبالي.

ما أكثر ما شهدت المدينة قبل الآن من ليال ترصعها النجوم أو ينيرها ضوء

القمر، ولكن المدينة لم تشهد قبل الآن، ولا يعلم إلا الله هل ستشهد بعد الآن، شباباً كهؤلاء الشباب يسهرون على الكابيا مع أحاديث كهذه الأحاديث، وأفكار كهذه الأفكار، وعواطف كهذه العواطف. إنهم جيل من الملائكة المتمردين الثائرين في هذه اللحظة القصيرة التي لا يزالون يملكون فيها كل ما للملائكة من قوة ومن حقوق وكل ما للثائرين العصاة من كبر عنيف. إن هؤلاء الشباب من أبناء الفلاحين والتجار وأصحاب الحرف الذين نشأوا في مدينة صغيرة ضائعة من البوسنة قد وهبت لهم الأقدار، دون أن يبذلوا جهداً خاصاً، منفذاً إلى العالم ووهماً كبيراً عن الحرية. فكانوا يمضون إلى العالم حاملين صفاتهم الريفية التي فطروا عليها، ويختارون بأنفسهم موضوع دراساتهم بحسب استعداداتهم أو بحسب ميول اللحظة الحاضرة أو نزوات المصادفة العابرة، كما يختارون بأنفسهم نوع تسلياتهم ودائرة رفاقهم وأصدقائهم. ولئن كان معظمهم لا يستطيعون أن يدركوا ما أتيح لهم أن يروه ولا أن ينتفعوا به كثيراً، فما من واحد منهم إلا كان يحس أنه يستطيع أن يحصل ما يشاء، وأن كل ما يحصله إنما هو ملك له. كانت الحياة (وكلمة الحياة هذه تتردد كثيراً في أحاديثهم، كما تتردد في الأدب والسياسة في ذلك العصر، وتكتب بحرف كبير من قبيل الاحترام) كانت الحياة أمامهم أشبه بموضوع لغرائزهم الطليقة وأشواقهم العقلية ومغامراتهم العاطفية التي لا تعرف حدوداً. كانت جميع الطرق مفتوحة أمامهم إلى غير نهاية. ولئن كانوا لا يضعون أقدامهم في أكثر هذه الطرق، فإن نشوة الحياة كانت تقوم عندهم على أنهم يستطيعون (نظرياً على الأقل) أن يختاروا منها الطريق التي يريدون، وأن ينتقلوا من طريق إلى طريق على ما يحبون. إن كل ما استطاع رجال آخرون أو أجناس أخرى، في بلاد أخرى وأزمنة أخرى، أن يخلفوه وأن يحصلوه مع تعاقب الأجيال بجهود قرون وقرون وبأنواع من التضحية بالحياة، ومن التضحية بما هو أعظم وأغلى من الحياة أيضاً، إن كل ذلك يبسط الآن أمامهم ميراثاً عارضاً، وهبة وافرة من هبات القدر. إن هذا الأمر يبدو خيالياً لا يصدق، لكنه واقعي مع ذلك: لقد كانوا يستطيعون أن يصنعوا بشبابهم ما يريدون أن يصنعوه به، في عالم كانت فيه قواعد الأخلاق الاجتماعية والشخصية حتى ما اتصل منها بالجريمة، تعاني في تلك السنين بالذات أزمة كبيرة، فكل فئة من الناس وكل فرد من الأفراد يؤولها ويقبلها أو

يرفضها كما يشاء. كانوا يستطيعون أن يفكروا كما يريدون، وأن يفصلوا في جميع الأمور على ما يحبون فلا حدود ولا قيود، وكانوا يجرأون أن يقولوا ما يريدون، وكان الكلام عند أكثرهم بمثابة أفعال، فهو يرضى ما يتأجج في النفوس من حاجة قديمة إلى البطولة والمجد وإلى العنف والتهديد، ولكنه لا يؤدي إلى إلزام بعمل، ولا يحمِّل قائله تبعة ما قال. وكان أكثرهم موهبة يحتقرون ما يجب عليهم أن يتعلموه ويهونون من شأن ما يقدرون أن يعملوه، لكنهم يتباهون بما لا يعرفون ويتحمسون لما يتجاوز حدود طاقتهم.

إن من الصعب على المرء أن يتخيل صورة من صور الدخول إلى الحياة أخطر من هذه الصورة، ولا أن يتخيل طريقاً إلى القيام بأعمال فذة أو إلى الانحلال انحلالاً كاملاً أضمن من هذا الطريق. غير أن الممتازين الأقوياء منهم كانوا يندفعون إلى العمل حقاً في حماسة كحماسة المتصوفين ويحترقون في العمل احتراق الشموع، فلا يلبث معاصروهم أن يمجدوهم تمجيد الشهداء والقديسين (ما من جيل إلا له قديسوه) وأن يرفعوهم إلى مصاف الأبطال الذين يعز الارتقاء إلى مستواهم.

إن لكل جيل من أجيال البشر أوهامه عن الحضارة، فبعض الناس يظنون أنهم يساهمون في وثبة من وثبات الحضارة، وبعضهم يظنون أنهم يشهدون أفولها. وواقع الأمر أن الحضارة تشتعل أو تختفي تحت الرماد أو تنطفئ، تبعاً للمكان الذي ننظر منه إليها. إن الجيل الذي كان في هذه اللحظة يثير على الكابيا تحت النجوم، وفوق الماء، أسئلة فلسفية واجتماعية وسياسية، كان لا يختلف عن غيره من الأجيال إلا في أن أوهامه أكثر، أما في كل ما عدا ذلك فهو يشبه سائر الأجيال، إنه يشعر هو أيضاً بأنه يشعل النيران الأولى لحضارة جديدة، وإنه يطفئ آخر ألسنة اللهب لحضارة أخرى تذوي. والشيء الخاص الذي يمكن أن نقوله عنه هو ما يلي: منذ مدة طويلة لم يوجد جيل حلم بالحياة واللذة والحرية بجرأة كجرأة هذا الجيل ثم كان حظه من الحياة أسوأ من حظ هذا الجيل، أو تألم أكثر مما تألم هذا الجيل، أو عرف عبودية أثقل من العبودية التي عرفها هذا الجيل.

ولكن ذلك كله كان لا يزال خلال تلك الأيام من صيف 1913، غير واضح المعالم، رغم ما فيه من اندفاع. كان كل شيء يبدو لعباً جديداً مثيراً على هذا

الجسر القديم الذي يلوح تحت ضوء القمر في ليالي حزيران/يونيو أبيض ناصع الخطوط شاباً لم يتغير، جميلاً كل الجمال متيناً كل المتانة. . أمتن من كل ما كان يمكن أن يجيء به الزمان، وأقوى من كل ما كان يمكن أن يفكر فيه الناس وأن يعملوه.

الفصل التاسع عشر

كما تشبه ليلة من الليالي الحارة إبان الاعتدال الصيفي ليلة أخرى من تلك الليالي الحارة، كذلك كانت أحاديث هؤلاء التلاميذ وهؤلاء الطلاب لا تتبدل ولا تتغير، أو يشبه بعضها بعضاً في أقل تقدير.

فما إن يلتهموا عشاءهم بسرعة وشهية (لأنهم قضوا نهارهم في سباحة وتعرض للشمس) حتى يصلوا إلى الكابيا واحداً بعد آخر.

هذا يانكو ستيكوفتش أول الواصلين إلى الكابيا. إنه ابن خياط من حي الميدان يدرس العلوم الطبيعية في غراتس منذ أربعة فصول دراسية: شاب نحيل، إذا نظرت إلى وجهه من جانب رأيته بارزاً، وهو أسود الشعر أملسه، محب للظهور، سريع الانفعال، غير راضٍ عن نفسه، وغير راضٍ عن كل ما حوله. إنه يقرأ كثيراً، ويكتب مقالات، بتوقيع مستعار أصبح معروفاً في صحف الشبيبة وفي النشرات الثورية التي تصدر في براغ وزغرب. ولكنه ينظم الشعر أيضاً وينشر قصائده باسم مستعار آخر. وقد هيأ من قصائده مجموعة ستنشرها له «دار الفجر» (وهي دار تنشر مطبوعات قومية). وهو عدا ذلك خطيب مفوه، ومحدث متقد الحماسة في الاجتماعات التي يعقدها الطلاب. وهذا فيليمير ستيفانوفتش: شاب سليم الجسم قوي البنية، لا يُعرف له أصل معين لأنه ولد مُتَبنى. إنه ساخر، واقعي، مقتصد، دؤوب. إنه ينهي دراسته للطب في براغ. وهذا ياكوف كيراك: ابن ساع طيب القلب معروف محبوب في فيشيغراد. إن ياكوف كيراك يدرس القانون، وهو فتى أسمر، نحيل، ثاقب النظرة، سريع الكلام، اشتراكي، يملك روح الجدل ويخجل من طيبته ويخفي جميع عواطفه.

وهذا رانكو ميخائيلوفتش: شاب صموت محبب يدرس الحقوق في زغرب، ويفكر منذ الآن في أن يصبح موظفاً. إنه لا يشارك إلا مشاركة ضعيفة رخوة في ما يدور بين الأصدقاء من من مناقشات عن الحب والسياسة، وما يتداولونه من

آراء في الحياة والنظام الاجتماعي. إنه من ناحية أمه، أحدُ أحفاد كبير القساوسة ميخائيلو الذي عُلق على خازوق وعُرض على هذه الكابيا نفسها مع سيجارة في فمه، منذ زمان.

وهناك أيضاً عدد من تلاميذ المدارس الثانوية الذين يدرسون في سارايفو. إنهم يصغون في شراهة إلى رفاقهم الكبار، وإلى أقاصيصهم عن الحياة في المدن الكبرى، فإذا هم يتصورون بالخيال الذي يلهبه غرور الشبان وتلهبه رغباتهم الخفية، يتصورون كل شيء أكبر أيضاً وأجمل أيضاً من كل ما هو واقع ومن كل ما هو ممكن. وهناك نيقولا غلاسنتشانين، وهو شاب شاحب الوجه متصلب اضطر بسبب فقره وبسبب صحته المعتلة وضعف نجاحه، أن يترك المدرسة الثانوية بعد السنة الرابعة، وأن يرجع إلى فيشيغراد وأن يعين كاتباً في مؤسسة ألمانية لتصدير الأخشاب. إنه سليل أسرة من أوكولشته أصابها الفقر بعد غنى. لقد مات جده ميلان غلاسنتشانين عقب الاحتلال في ملجأ للمجانين بسارايفو، بعد أن خسر في شبابه بالقمار الجزء الأكبر من ثروته. وفي تلك السنة نفسها مات أبوه بطرس غلاسنتشانين، وهو رجل ممراض، ضعيف الإرادة، عديم القوة، قليل الحظوة باحترام الناس.

إن نيقولا يقضي الآن نهاره كله على ضفة النهر الوعرة قرب العمال الذين يدحرجون جذوع السنديان الثقيلة ويربطونها ببعضها البعض. إنه يحصي أحجام الأخشاب التي سبق قياسها، ثم يحسبها بعد ذلك في المكتب ويسجلها في قوائم. إنه يحس بهذا العمل الرتيب الذي يقوم به بين أناس بسطاء، هذا العمل الذي لا يذكي الحماسة في نفسه ولا يطل به على أمل في المستقبل، إنه يحس به على أنه عذاب وذل، كما أن ضياع أمله في تغيير وضعه الاجتماعي أو تبديله قد جعل من هذا الشاب الحساس إنساناً هرماً قبل الأوان، كئيباً صموتاً. إنه يقرأ أثناء ساعات الفراغ، إلا أن هذا الغذاء الروحي لا يواسيه ولا ينهض به، لأن لكل شيء في نفسه مذاقاً مراً. إن حظه السيئ، ووحدته، وآلامه، إن كل ذلك قد فتح عينيه وأرهف نفسه في كثير من النواحي، غير أن أجمل الأفكار وأثمن المعلومات لا تستطيع إلا أن تزيده يأساً ومرارة، لأنها تقوي أحساسه باخفاقه وتقوي شعوره بأن حياته خالية من الأمل في هذه المدينة الصغيرة.

وهناك أخيراً فلادو مارتش، القفال، وهو شاب مرح شهم، يحبه رفاقه طلاب

المدارس العليا ويدعونه إليهم، سواء لما يمتاز به من صوت جميل قوي ـ باريتون ـ ولما يتصف به من بساطة محببة وطيبة. إن هذا الفتى القوي الذي يضع على رأسه طاقية قفال، هو واحد من أولئك الشبان المتواضعين المكتفين بأنفسهم، الذين لا يقيسون أنفسهم بأحد، ولا يقارنون أنفسهم بأحد، ويقبلون ما تهبه لهم الحياة راضين شاكرين، ويهبون في بساطة كل ما يملكونه وكل ما يستطيعونه.

وهناك أيضاً معلمتان هما: زوركا، وزاجوركا، وكلتاهما من مواليد فيشيغراد. إن جميع هؤلاء الشباب يختصمون على الحظوة برضاهما، ويمثلون أمامهما وحولهما دور الحب الساذج المعقد الساطع المعذب. إنهم يندفعون أمامهما في مناقشات حامية، اندفاع الفرسان إلى القتال بالسيوف أمام سيدات القرون الخوالي. ثم يجلسون بعد ذلك على الكابيا من أجلهما. يدخنون في الظلام أو الوحدة، أو يغنون في صحبة أحد ظل يشرب إلى تلك اللحظة في مكان ما. وبسببهما تقوم بين الرفاق أنواع خفية من الكره وضروب من الحسد يحاولون كتمانها فما يظفرون بذلك، كما تقوم أيضاً منازعات صريحة. إن الفتاتين تغادران الكابيا في الساعة العاشرة. ويبقى الشباب بعد ذلك على الكابيا مدة طويلة، غير أن ذهاب الفتاتين يضعف قوة المرح، ويضعف حدة المناقشات البليغة.

إن ستيكوفتش الذي يلعب الدور الرئيسي في الحديث عادة، صامت في هذا المساء يدخن. إنه مضطرب. إنه في قرارة نفسه منزعج، لكنه يحاول أن يخفي انزعاجه، كما يحاول أن يخفي جميع عواطفه الحقيقية دائماً دون أن يظفر بإخفائها إخفاء تاماً. لقد التقى في أصيل هذا اليوم، لأول مرة، بالمعلمة زوركا، الفتاة المغرية، الممتلئة، الشاحبة الوجه، الحادة النظرات، ففعلاً بعد إلحاح شديد منه، أمراً هو أصعب ما يمكن أن يفعله شاب وفتاة في مدينة صغيرة: أن يلتقيا في مكان مختفٍ لا يراهما أحد، ولا يعلم بلقائهما أحد. التقيا في مدرستها الخالية الآن خلواً تاماً أثناء عطلة الصيف. دخل هو حديقة المدرسة من أحد الشوارع، ودخلت هي من الباب الرئيسي من شارع آخر. ووجدا نفسيهما في حجرة شبه مظلمة، قد امتلأت بالغبار وتراكمت فيها المقاعد بعضها فوق بعض حتى وصلت إلى السقف. هكذا شهوة الحب: كثيراً ما تضطر صاحبها إلى

البحث عن أمكنة مختفية بشعة. لم يستطيعا أن يجلسا ولا أن يستلقيا. وكانا كلاهما مهتاجين مضطربين، قد زخرا بالشهوة الجامحة. فما هي إلا لحظة حتى تعانقا، وتشابكا فوق واحد من تلك المقاعد التي تعرفها الفتاة حق المعرفة، لا يريان شيئاً مما حولهما ولا يلاحظان شيئاً. فلما انتهت نشوته قبلها، أخذ يصلح ملابسه واستأذن بالانصراف في فظاظة دون مداراة ولا تدرج. فأخذت الفتاة تبكي. لقد خاب ظنها. وما إن فرغ من تهدئتها قليلاً كيفما اتفق، حتى خرج نحو الباب الثانوي كالهارب.

فلما وصل إلى بيته رأى الساعي يحمل إليه مجلة من مجلات الشباب فيها مقالته، «البلقان، والصرب والبوسنة والهرسك». فقرأ المقالة قراءة جديدة، فصرفته قراءتها عن المغامرة التي قام بها منذ لحظة، لكنه وجد في المقالة ما يحمله على مزيد من الانزعاج. إن فيها أخطاء مطبعية، كما أن فيها عبارات تبدو له الآن مضحكة. وأحس، بعد فوات الأوان، أن كثيراً من الأفكار كان يمكن أن تكتب كتابة أجمل وأوضح وأوجز.

ها هم أولاء الشباب جالسون على الكابيا، في هذا المساء، يناقشون مقالته طوال السهرة أمام تلك الفتاة زوركا نفسها. إن خصمه الرئيسي هو كيراك الذرب اللسان القوي العارضة الذي يرى جميع الأمور، وينقدها من وجهة النظر الاشتراكية السنية. أما الآخرون فلا يشاركون في الجدال إلا من حين إلى حين. وأما المعلمتان فإنهما صامتتان تعدان للمنتصر في الحجاج تاجاً لا يرى. إن ستيكوفتش يدافع عن نفسه دفاعاً ضعيفاً، أولاً لأنه هو نفسه يدرك الآن فجأة كثيراً من التهافت والخروج عن المنطق في مقالته، ولو أنه لا يمكن أن يعترف بشيء من هذا أمام الناس في أي حال، وثانياً لأنه منزعج من ذكرى هذا الأصيل الذي قضاه في قاعة الدرس الخانقة المليئة بالغبار. منزعج من ذكرى تلك المشاهد التي تبدو له الآن كريهة دميمة، مع أنها ظلت خلال مدة طويلة مثوى رغباته الحارة، وموضوع إلحاحه الشديد على الفتاة (إنها الآن جالسة هناك، في ظلام هذه الليلة من ليالي الصيف، تنظر إليه بعينيها المتقدتين). إن الشاب يشعر الآن بأنه مخطئ آثم، ويتمنى لو أنه لم يذهب في هذا اليوم إلى تلك المدرسة، ويتمنى لو أن الفتاة ليست هنا الآن.

وإنه ليرى كيراك، وهو في ما هو فيه من حالة نفسية خاصة، أشبه بدبور

يصعب على المرء أن يدفعه عن نفسه. وإنه ليحس أن عليه أن يدافع لا عن مقالته فحسب، بل كذلك عما وقع في أصيل هذا اليوم بالمدرسة، وهو يتمنى لو كان الآن وحيداً، في مكان بعيد عن هذا المكان، يفكر كثيراً هادئاً في شيء ليس هو المقالة وليس هو الفتاة. غير أن حب الذات يحمله على الدفاع عن نفسه. لقد استشهد ستيكوفتش بآراء تسفيئتس وستروسماير[1]، واستشهد كيراك بكاوتسكي وبيبل.

صاح كيراك محللاً مقالة ستيكوفتش:

ـ أنت تضع العربة أمام الأبقار. ما دام البلقاني الفلاح غارقاً في البؤس وفي جميع أنواع الشقاء، فإنه يستحيل قيام أي تشكيل سياسي باقٍ متين في أي مكان من الأمكنة، وفي أي ظرف من الظروف. فلا بد أولاً من تحرير الطبقات المستغلة، لا بد أولاً من تحرير الفلاح والعامل، أي أكثرية الشعب، حتى يمكن خلق الشروط الواقعية لقيام دولة مستقلة. هذه هي الخطوات الطبيعية، هذا هو الطريق الذي يجب اتباعه، لا عكسه. لذلك يجب أن يقوم التحرير القومي وأن تقوم الوحدة القومية على أساس التحرير الاجتماعي والتجديد الاجتماعي. وإلا جاء الفلاح والعامل والبورجوازي الصغير، فحملوا إلى التشكيلات السياسية الجديدة فقرهم المدقع وطبيعتهم المستعبدة، كعدوى قاتلة، بينما يجيء المستغلون الذين هم قلة قليلة فيفرضون على هذه التشكيلات السياسية ما تتصف به عقليتهم من طفيلية ورجعية، ويفرضون عليها كل ما في نفوسهم من غرائز منافية لصالح المجتمع. ويترتب على هذا ألا يمكن قيام دولة مستقرة ولا دولة سليمة.

فأجاب ستيكوفتش:

ـ كل هذا يا عزيزي حكمة أجنبية مستعارة من بطون الكتب. . حكمة لا تلبث أن تختفي أمام الاندفاعة الحية، اندفاعة القوى القومية المستيقظة، لدى الصربيين أولاً، ثم لدى الكرواتيين والسلوفيين، الذين يهدفون جميعاً إلى غاية واحدة. إن الأحداث لا تجري وفقاً لتنبؤات أصحاب النظريات الألمان، ولكنها في مقابل

---

(1) يوفان تسفئيتش جغرافي صربي كبير وعالم من علماء الأقوام، وهو المدافع المتحمس عن الفكرة القومية اليوغوسلافية منذ ما قبل عام 1914 ـ أما الكرواتي ستروسماير. أسقف دياكوفو، فهو أيضاً من الأنصار المتحمسين لاتحاد السلافيين الجنوبيين وللتفاهم بين السلافيين عموماً. (المترجم).

ذلك تسير على إتفاق تام مع الاتجاه العميق لتاريخنا ومع رسالة أمتنا. إن المسائل الاجتماعية، منذ أطلق قره جورج نداءه: «ليقتل كل واحد رئيسه التركي»، تحل في بلاد البلقان من تلقاء نفسها بطريق الحروب القومية التحررية. وكل الأمور تجري على نحو منطقي جداً. من صغيرها إلى كبيرها، ومن شؤون المنطقة والقبيلة إلى شؤون الأمة وقيام الدولة. انظر إلى انتصاراتنا في كومانوفو، وعلى نهر بريجالنتسا[1]، ألم تكن في الوقت نفسه أكبر الانتصارات التي حققها الفكر الثوري وحققتها العدالة الاجتماعية؟

- سنرى.

- من لا يرى منذ الآن، فلا يمكن أن يرى في يوم من الأيام، ونحن نعتقد..

- أنتم تعتقدون.. ولكننا نحن لا نعتقد، وإنما نريد أن نقتنع عن طريق البراهين والوقائع.

- أليس أفول الأتراك، وتضعضع النمسا - المجر، كخطوة نحو زوالها، أليس هذان الأمران في الواقع انتصارات تحققها شعوب ديموقراطية صغيرة وطبقات مستعبدة في تطلعها إلى احتلال مكانتها تحت الشمس؟

- لو كانت المطامح القومية تحقق العدالة الاجتماعية أيضاً، لما رأينا في دول أوروبا الغربية التي حقق أكثرها جميع أهدافه الوطنية، وأصبح من هذه الناحية راضياً مكتفياً، لما رأينا في هذه الدول مشكلات اجتماعية كبرى ولما رأينا فيها ما نراه من حركات ومن ضروب الصراع.

قال ستيكوفتش في شيء من الملل:

- أقول لك مرة أخرى: إن «التحرر الاجتماعي» لا يمكن أن يكون موضوع بحث، قبل خلق دول مستقلة على أساس الوحدة القومية، وقبل تحقيق المفاهيم الحديثة في الحرية الفردية والاجتماعية. فكما قال أحد الفرنسيين: «السياسة أولاً»..

- بل معدتي أولاً..

بهذا هتف كيراك مقاطعاً، فأخذ الآخرون يصيحون، وانقلبت مناقشة الطلاب

---

(1) كومانوفو: انتصار حربي على الأتراك عام 1912. وبريجالنتسا نهر هزم الصربيون البلغار على طول شواطئه عام 1913 (المترجم).

البريئة إلى مشاجرة بين شبان، يتحدث فيها الجميع معاً ويقاطع فيها بعضهم بعضاً، مشاجرة ما أن ألقيت بعض النكت حتى تبلدت وغابت في غمرة من الضحك والصياح.

فكان ذلك بالنسبة إلى ستيكوفتش فرصة مؤاتية ليقطع الجدال وبصمت، دون أن يبدو ذلك منه انهزاماً أو تراجعاً.

وفي نحو الساعة العاشرة عادت زوركا وزاجوركا إلى بيتهما بحراسة فيليمير ورانكو، ثم أخذ الآخرون يتفرقون أيضاً، حتى لم يبق إلا ستيكوفتش ونيقولا غلاسنتشانين.

إن هذين الشابين في سن واحدة، وقد كانا رفيقين في المدرسة الثانوية، وسكنا بسارابيفو في بيت واحد. وكل منهما يعرف الآخر معرفة عميقة، لذلك لا يمكن أن يقدر كل منهما الآخر حق قدره، ولا أن يحبه حباً صادقاً، وقد عمقت الهوة بينهما مع تقدم السنين، وازدادت اتساعاً وإزعاجاً. وهما يلتقيان هنا في المدينة الصغيرة كل صيف أثناء العطلة، فيقيس كل منهما نفسه بصاحبه ويتعامل كل منهما مع صاحبه معاملة رفاق أعداء لا ينفصل بعضهم عن بعض. ومما زاد الطين بلة أن دخلت بينهما الآن تلك المعلمة الجميلة القلقة زوركا. ذلك أن زوركا كانت خلال أشهر طويلة من الشتاء الماضي على صلة بغلاسنتشانين الذي كان لا يخفي ولا يستطيع أن يخفي شدة تولهه بها. وقد اندفع في حبها ذلك الاندفاع العنيف الذي لا يقدر عليه إلا أمثاله من الشباب الحانقين الساخطين. فلما جاءت أشهر الصيف وتوافد الطلاب على المدينة لم يخف عن غلاسنتشانين الحساس أن زوركا تنصرف بانتباهها إلى ستيكوفتش. لذلك فإن حالة التوتر التي كانت قائمة بين الشابين منذ مدة طويلة، رغم اختفائها عن أعين الناس، قد تفاقمت في هذه الأوقات الأخيرة. ومنذ أول العطلة، لم يخلُ الصاحبان أحدهما إلى الآخر مرة واحدة، كما يخلوان الآن.

كانت أول فكرة راودتهما، وقد جمعتهما المصادفة عرضاً، هي أن يفترقا بأقصى سرعة، دون أن يشرعا في أي حديث، لأن أي حديث بينهما لا بد أن يكون مزعجاً. غير أن اعتباراً من الاعتبارات السخيفة الخاصة بالشبيبة لم تسمح لهما بتحقيق رغبتهما في الافتراق. وجاء ظرف من الظروف فأنقذهما من الارتباك، أو على الأقل خفف عنهما وطأة الصمت الشاق الذي كان يرهقهما.

ففي الظلام سمعا صوت شخصين كانا يسيران ببطء، ثم وقفا قرب الكابيا وراء زاوية الإفريز، فلا ستيكوفتش ولا غلاسنتشانين يستطيعان أن يرياهما من مجلسهما على الكابيا، ولا هما يستطيعان أن يريا ستيكوفتش وغلاسنتشانين. غير أن الرفيقين يسمعان كل كلمة مما يقوله المتحادثان، وقد عرفاهما من صوتيهما. أنهما اثنان من رفاقهما الذين يصغرونهما سناً: توماس غالوس، وفهيم بختيارفتش. وقد اعتاد هذان الشابان أن يظلا بعيدين بعض البعد عن الجماعة التي تتألف أكثريتها من طلاب وتلاميذ، والتي تجتمع كل ليلة على الكابيا حول ستيكوفتش وكيراك، ذلك لأن غالوس شاعر وخطيب قومي، فهو منافس لصاحبنا ستيكوفتش، لا يحبه ولا يقدره، كما أن بختيارفتش شاب صموت إلى أبعد حدود الصمت، مزهو متعجرف متوحش، كما يليق بحفيد بك من البكوات أن يكون.

توماس غالوس شاب فارع القامة متورد الخدين أزرق العينين، كان أبوه، ألبان غالوس (ألبان فون غالوس)، وهو آخر الأحياء من أبناء أسرة عريقة من بورغنلاند، قد وفد إلى المدينة موظفاً عقب الاحتلال، فظل فيها «محافظاً للمياه والأحراج» مدة عشرين عاماً. إنه الآن في المعاش. وقد تزوج منذ وفد إلى المدينة بنت رجل من عيون أثرياء فيشيغراد (حاجي توماس ستانكوفتس) وهي فتاة قوية الجسم، متقدمة في السن قليلاً، سمراء، قوية الإرادة. فأنجب منها ثلاثة أولاد، ابنتين وابناً، عمدوا جميعاً في الكنيسة الصربية، ونشأوا نشأة أطفال من فيشيغراد، وكانوا أحفاداً لحاجي توماس حقاً، كما أن العجوز غالوس نفسه، وهو رجل طويل جميل الوجه (في شبابه) ذو ابتسامة حلوة وشعر غزير، قد أصبح منذ مدة طويلة مواطناً حقيقياً من مواطني فيشيغراد. إنه يسمى الآن في المدينة باسم «السيد البو»، وليس يخطر ببال الأجيال الشابة أن من الممكن أن يكون أجنبياً وفد إلى المدينة مع من وفدوا إليها من الغرباء.

وهو مولع بشيئين لا يزعجان أحداً: الغليون والصيد. وله في المديرية كلها أصدقاء قدامى، سواء من الصربيين ومن الفلاحين المسلمين الذين يجمعه بهم حب الصيد. وقد تطبع بكثير من طباعهم كأنه نشأ وترعرع بينهم، من ذلك خاصةً عادة الصمت الهانئ والحديث الهادئ، مما يتصف به هواة التدخين وعشاق الصيد والغابات والحياة في الهواء الطلق.

لقد نال الفتى غالوس شهادة البكالوريا من ثانوية سارايفو هذا العام، وعليه

أن يذهب في الخريف إلى فيينا لمتابعة دراسته، والآراء حول هذا الأمر بين أفراد أسرته مختلفة متناقضة. فالأب يريد لابنه أن يدرس العلوم التطبيقية أو علم زراعة الأحراج، والولد يريد أن يدخل كلية الآداب، لأن توماس غالوس هذا لا يشبه أباه إلا بالمظهر الخارجي، أما ميوله الطبيعية فهي متعارضة مع ميول أبيه كل التعارض. إنه واحد من أولئك التلاميذ الناجحين المتواضعين الذين يضرب بهم المثل في كل شيء، يجتازون امتحاناتهم في كثير من اليسر كأنما هم يلعبون، لكنهم لا يعنون عناية حقة صادقة إلا بإرواء أشواقهم الروحية المضطربة المبهمة بعض الإبهام، وهي أشواق تتجاوز نطاق المدرسة والبرامج المدرسية. إنهم أوتوا قلباً بسيطاً هادئاً، لكنهم أوتوا كذلك فكراً قلقاً قوي الميل إلى الاطلاع. إنهم لا يكادون يعرفون تلك الأزمات الأليمة الخطرة، أزمات الحياة الشهوانية والعاطفية التي يعانيها كثير من الشباب في مثل سنهم، ولكنهم في الوقت نفسه لا ينتهون بسهولة إلى تهدئة ما يعانونه من قلق فكري، وكثيراً ما يظلون طوال حياتهم يجربون كل أمر من الأمور ويطرفون الناس بشذوذهم، لا يستقرون على عمل ثابت، ولا يسيرون في اتجاه واحد. وكما يجب على كل فتى أن يستجيب للمطالب الطبيعية الخالدة، مطالب الصبا والنضج، وكما يجب عليه أيضاً أن يدفع ضريبة للتيارات الروحية المعاصرة «وللموضة» وللعادات التي تسيطر على الشبيبة في كل عصر من العصور إلى حين، كذلك كان غالوس يقرض الشعر هو أيضاً، وينتمي عضواً عاملاً إلى منظمة الشباب الثورية القومية. أضف إلى ذلك أنه درس اللغة الفرنسية خلال خمس سنوات كمادة اختيارية، وعنى بالأدب والفلسفة خاصة. وانكب على القراءة في هوى جامح لا يكل ولا يمل. وكان تلاميذ المدارس الثانوية بسارايفو في تلك الأيام يقرأون من المؤلفات الأجنبية ما تنشره خاصة دار ألمانية من دور النشر، شهيرة كبيرة اسمها: Reclam's Universal Bibliothek، فكانت الكتب الصغيرة ذات الغلاف الأصفر، التي تطبعها هذه الدار بأحرف صغيرة جداً، وتبيعها بأسعار بخسة، كانت هي الغذاء الفكري الرئيسي الذي يستطيع أن يصل إليه شبان ذلك الزمان. وكانت هذه الكتب لا تتيح لهم أن يطلعوا على الأدب الألماني فحسب، بل تتيح لهم كذلك أن يطلعوا على عيون مؤلفات الأدب العالمي جميعها، في ترجمتها الألمانية. فمن هذه الكتب إنما استمد غالوس معرفته بالفلاسفة الألمان المحدثين، وخاصة نيتشه وشترنر، وكان

خلال نزهات طويلة يقوم بها مع رفاقه على طول نهر ملياتسكا[1] يدير بصدد هؤلاء الفلاسفة مناقشات لا تنتهي، وذلك بحماسة رصينة وقور، دون أن يربط بين معلوماته وحياته الشخصية كما يفعل الشباب في كثير من الأحيان. إن هذا النوع من حملة البكالوريا الناضجين قبل الأوان، المثقلين بمعلومات متنوعة لكنها مضطربة مبهمة، لم يكن نادراً بين تلاميذ المدارس الثانوية في تلك الأيام. وغالوس شاب عف، وتلميذ مجتهد، لا يعرف من حرية الشباب وانطلاقاتهم إلا ما يتجلى جرأةً في الفكر وإسرافاً في الإكباب على المطالعة.

أما فهيم بختيارفتش فلا ينتمي إلى مدينة فيشيغراد إلا من جهة أمه. إن أباه يرجع أصله إلى روغاتسنا التي يعمل فيها الآن قاضياً، لكن أمه من أسرة كبيرة هنا هي أسرة عثمان آغتش. وهو منذ نعومة أظافره يقضي شطراً من إجازة الصيف مع أمه عند أهلها بفيشيغراد. إنه شاب ممشوق القوام، نحيل القسمات، ضامر الأعضاء، مفاصله دقيقة لكنها قوية. كل شيء عند هذا الفتى تعيس، مطفأ، مخنوق. وجهه يشبه أن يكون محترقاً بأشعة الشمس، وجه مستطيل دقيق أسمر تلوحه خيوط رقيقة من زرقة قاتمة. حركاته موجزة قليلة، عيناه سوداوان لهما حدقتان مظللتان بزرقة، نظرته محرقة، لكنها ليست بذات بريق. وحاجباه كبيران متلاقيان، وعلى شفتيه المرسومتين الدقيقتين زغبة سوداء رقيقة. إن المرء يرى وجوهاً كهذا الوجه في الرسوم الفارسية الصغيرة.

لقد نال هو أيضاً شهادة البكالوريا في هذا الصيف، وهو ينتظر الآن منحة من الدولة حتى يسافر إلى فيينا للتخصص في اللغات الشرقية.

إن الشابين يتابعان حديثاً بدآه قبل ذلك، والحديث يجري على الدراسة التي يجب أن يختارها بختيارفتش. إن غالوس يحاول أن يبرهن لصاحبه على أنه يخطئ إذا هو اندفع إلى الاستشراق. وغالوس يتكلم في العادة أكثر من رفيقه، وفي كلامه من الحرارة ما ليس في كلام رفيقه، وقد تعود أن يصغي إليه الناس وتعود أن يلقي خطباً، بينما بختيارفتش يتكلم قليلاً وفي إيجازه كرجل حصل له الاقتناع وليس في حاجة إلى إقناع أحد. وحين يتكلم غالوس يكون، كأكثر الشباب المتعلمين، سعيداً سعادة ساذجة بما يجري على لسانه من كلام وتعبير

---

(1) نهر يجتاز سارايفو (المترجم).

وما يجيء به خياله من استعارات جميلة غريبة، مع ميل إلى التعميم، في حين أن رفيقه يتحدث حديثاً جافاً، مختصراً بغير اكتراث تقريباً.

إن ستيكوفتش وغلاسنتشانين مختفيان في الظل جالسان على المقاعد الحجرية، صامتان، كأنهما اتفقا ضمناً على أن ينصتا إلى حديث الرفيقين على الجسر دون أن يرياهما.

وهذا غالوس يتم المناقشة التي تدور على اختيار الدراسة، متكلماً في حرارة:

ـ إنكم معشر المسلمين، أبناء البكوات، كثيراً ما تخطئون في ما يتصل بهذه المسألة. لقد أوقعتكم الأزمنة الجديدة في حيرة واضطراب، حتى صرتم لا تدركون مكانكم في العالم إدراكاً صحيحاً كاملاً. ليس حبكم لكل ما هو شرقي إلا تعبيراً معاصراً عن «إرادة السيطرة» التي تضطرم في نفوسكم. إن الأساليب الشرقية في الحياة والفكر ترتبط في أذهانكم ارتباطاً وثيقاً بنظام اجتماعي قانوني كان أساساً لسيطرتكم القديمة. وهذا أمر مفهوم لكنه لا يعني أبداً أنكم تملكون الإحساس بالاستشراق من حيث هو علم. إنكم شرقيون، ولكنكم تخطئون إذا ظننتم أن عليكم من أجل ذلك أن تكونوا مستشرقين. فالحقيقة أنكم لم تؤتوا القدرة على حمل رسالة العلم، ولا أنتم تميلون حقاً إلى العلم.

ـ يا سلام..

ـ نعم نعم. وحين أطلق هذا الحكم لا أقول شيئاً مهيناً ولا مسيئاً. بالعكس، إنكم الحاكمون الوحيدون في هذه الأرض. أو كنتم كذلك على الأقل. لقد استطعتم خلال العصور أن توسعوا سيطرتكم وأن تعززوها وأن تدافعوا عنها، بالسيف والكتاب. بالقانون والدين والحرب. وكان من شأن ذلك أن خلق منكم نموذج المقاتل والحاكم ورجل الدولة. ومن المعلوم، أن هذه الطبقة من الناس لا تتعهد العلوم المجردة في أي بقعة من بقاع العالم وإنما تدع ذلك لمن ليس لهم عمل آخر يقومون به، ولا يستطيعون أن يقوموا بأي عمل آخر غيره. أنتم يجب أن تدرسوا الحقوق والاقتصاد السياسي، لأنكم أصحاب معارف عيانية محسوسة، فكذلك شأن رجال الطبقة المسيطرة، في كل مكان وفي كل زمان.

ـ معنى ذلك أن نبقى بغير ثقافة.

ـ لا.. بل معناه أن عليكم أن تظلوا ما أنتم، أو إن شئت فقل ما كنتم.

يجب عليكم هذا، إذ ما من امرئ يستطيع أن يكون كما هو ونقيض ما هو.

ـ لكننا لسنا بالطبقة الحاكمة الآن. نحن وأنتم متساوون اليوم جميعاً.

قال بختيارفتش ذلك بشيء من السخرية التي تمازجها مرارة ويمازجها تكبّر.

ـ لستم الطبقة الحاكمة، طبعاً لستم الطبقة الحاكمة. إن الظروف التي جعلتكم ما أنتم قد تبدلت منذ مدة طويلة، ولكن هذا لا يعني أنكم تستطيعون أنتم أيضاً أن تتبدلوا بهذه السرعة نفسها. لستم أول ولا آخر طبقة اجتماعية فقدت قاعدتها ثم ظلت هي نفسها. فقد تتغير ظروف حياة طبقة من الناس ثم تظل هذه الطبقة ما هي، فبذلك تحيا وعلى هذا تموت.

وانقطع حديث الشابين الغارقين في الظلام، انقطع لحظة لأن صمت بختيارفتش أطفأه.

وفي السماء الصاحية، سماء شهر حزيران (يونيو)، فوق الجبال السوداء، عند آخر الأفق، ظهر القمر مفلولاً وكأنه غارق في الماء، فسقطت على حين فجأة، المسلة البيضاء على الجدار المرتفع، مع الكتابة التركية عليها، كأنها نافذة يخرج منها نور ضعيف في الظلام الأزرق.

وقال بختيارفتش شيئاً، لكن صوته كان من الضعف بحيث إن ستيكوفتش، وغلاستنشانين لم يصل إليهما من أقواله إلا كلمات متقطعة غير مترابطة لا تفهم. إن موضوعاً آخر يشغلهما الآن، كما يحدث ذلك دائماً في أحاديث الشبان التي تجرى فيها تداعيات الأفكار سريعة جريئة. لقد انتقلا من الكلام على اللغات الشرقية إلى الحديث عن الكتابة المنقوشة على المسلة البيضاء أمامهما، وهما الآن يتحدثان عن الجسر وعن بانيه.

إن صوت غالوس أقوى كثيراً من صوت صاحبه وأبلغ منه تعبيراً. إنه مع مشاركته صديقه في ما يكيله من مديح لمحمد باشا سوكولوفتش وللحكم التركي في عهده الذي شاد أبنية عظيمة كهذا البناء، يبسط الآن في كثير من الحماسة آراءه القومية في ماضي الشعب الصربي ومستقبله، وفي ثقافته وحضارته (ذلك أن كل واحد في أحاديث الطلاب هذه إنما يتبع آراءه الخاصة).

قال غالوس:

ـ صحيح.. لا شك أنه كان رجلاً عبقرياً. وليس هو أول ولا آخر رجل من رجال أمتنا الصربية الذين ظهر نبوغهم في خدمة إمبراطورية أجنبية. لقد أعطينا

استانبول وروما وفيينا مئات من مثل هؤلاء الرجال العباقرة الذين نبغوا في ميدان السياسة والحرب والفن. وليس لتوحيد شعوبنا تحت راية دولة قومية كبيرة قوية حديثة إلا هذا المعنى، وهو أن قوانا ستظل في بلادنا تتفتح بين ربوعها، وتساهم في الحضارة الإنسانية باسمنا نحن لا عن طريق مراكز أجنبية.

ـ هل تظن أن هذه «المراكز» قد قامت مصادفة، وأن في الإمكان إقامة مراكز جديدة مثلها، بالإرادة، حين نشاء وفي المكان الذي نختار؟

ـ مصادفة.. غير مصادفة.. ليس هذا هو السؤال اليوم. ليس مهماً أن نعرف كيف بدأت، وإنما المهم أنها الآن تزول، تذبل، تنهار، وأن عليها أن تتخلى عن مكانها لمراكز جديدة تستطيع فيها الشعوب الفتية الحرة التي تظهر على مسرح التاريخ من أن تعبر عن نفسها من غير وسيط.

ـ هل تظن أن محمد باشا سوكولوفتش، لو بقي فلاحاً بسيطاً على الجبل هناك في سوكولوفتش، كان سيصبح ما أصبح، وكان سيبني مثلاً هذا الجسر الذي نتحدث عليه في هذه اللحظة؟

ـ في ذلك الزمان.. طبعاً لا.. ولكن يجب أن نعترف على كل حال بأنه لم يكن صعباً على تساريغراد (استانبول) أن تشيد مثل هذه المباني، لأن الحكومة التركية كانت تنتزع منا كما تنتزع من سائر الشعوب التي استعبدتها، لا خيراتنا وثمرات عملنا فحسب، بل كذلك خير ما نملك من قوى، وأنقى ما يجري في عروقنا من دم. لو تذكرت قيمة وخطورة كل ما أخذ منا خلال قرون، لبدت لك كل هذه المباني تافهة بالقياس إليه. ولكن متى نال شعبنا حريته القومية واستقلاله السياسي، أصبحت أموالنا ودماؤنا خيرات باقية لنا، وأصبح كل شيء يساهم في بناء حضارة قومية تحمل طابعنا وتسمى باسمنا، وتسعى إلى تحقيق السعادة والرخاء لأوسع طبقات شعبنا.

وكان بختيارفتش صامتاً لا يتكلم، وكان صمته هذا، أقوى وأبلغ مقاومة، بحيث يثير غالوس ويدفعه إلى رفع صوته وإلى مزيد من الحدة في لهجته. وراح يحصي المشاريع والأعمال التي تقع على عاتق الشبيبة الثورية، يحصي هذه المشاريع وهذه الأعمال بالحرارة التي يتصف بها، وبالألفاظ الرائجة في ما كان يكتبه الكتاب القوميون آنذاك:

«سوف تستيقظ جميع القوى الحية الكامنة في أعراق أمتنا، وسوف تتحرك..

فإذا بضرباتها تدك العرش النمسوي ـ المجري، سجن الشعوب، فيتداعى كما تداعت تركية وأوروبا. وسوف يتحطم وتزول جميع القوى المعادية للقومية، جميع القوى الرجعية التي تعرقل اليوم وثبتنا القومية وتشتتها وتنميها. كل ذلك سوف يتحقق، لأن روح العصر الذي نعيش فيه خير حليف لنا، لأن جهود الشعوب المستعبدة الأخرى تسير في هذا الاتجاه نفسه الذي نسير فيه. وسوف تنتصر القومية المعاصرة على الفروق الدينية والأوهام البالية، وسوف يتحرر الشعب من النفوذ الأجنبي والاستغلال الأجنبي وسوف تقوم يومئذٍ دولة قومية».

ثم أخذ غالوس يصف ما سيكون لهذه الدولة القومية الجديدة من مزايا وجمال، هذه الدولة القومية الجديدة التي ستضم حول الصرب (سيكون دور الصرب كدور بييمونت) جميع السلافيين الجنوبيين، على أساس حقوق القوميات، والتسامح الديني، والمساواة بين المواطنين. كان غالوس يجمع في كلامه بين التعبيرات الجريئة التي ليس لها معنى محدد وبين الكلمات التي تعبر تعبيراً دقيقاً عن حاجات الحياة العصرية، عن الرغبات الثانوية في أعمق أعماق قلب الأمة، هذه الرغبات التي كان يقال في أكثر الأحيان. إنها ستظل رغبات، عن المطالب المبررة القابلة للتحقيق من مطالب الحياة القومية عن الحقائق الكبرى التي تنضج خلال الأجيال ولكن لا يدركها ولا يجرؤ أن يعبر عنها مقدماً إلا الشباب، عن الأوهام الخالدة التي لا تنطفئ في يوم من الأيام ولكنها لا تصل إلى التحقق أبداً، وإنما يسلمها جيل إلى جيل كالشعلة التي تتحدث عنها الأساطير. صحيح أن كلام الفتى كان يشتمل على كثير من الآراء التي لا تصمد للنقد وعلى كثير من الافتراضات التي لا تثبت لمحك التجربة، ولكنه كان يشتمل أيضاً على نفحة منعشة، على نسغ ثمين بفضله تبقى الإنسانية ويتجدد شبابها.

وظل بختيارفتش صامتاً.

ـ سترى يا فهيم (هكذا عاد غالوس يلح في حماسة، محاولاً أن يقنع رفيقه بنبوءاته وكأن الأمر سيتم في هذه الليلة نفسها أو في غد) سترى. . سننشئ دولة هي أثمن مساهمة في تقدم الإنسانية. . دولة يكون فيها كل جهد مباركاً، وتكون فيها كل تضحية مقدسة، ويكون فيها كل فكر أصيلاً تحمله لغتنا، وكل عمل موسوماً بطابع اسمنا. سنحقق يومئذٍ آثاراً تكون ثمرة عملنا الحر، وتعبيراً عن عبقرية أمتنا، وأعمالاً إذا قيس بها كل ما سبق خلقه خلال قرون من الحكم

الأجنبي، بدا ركاماً تافهاً من لعب لا قيمة له. سوف نبني جسوراً على أكبر الأنهار وأعمق الوهاد. سوف نبني جسوراً جديدة أكبر وأجمل، لا لكي تربط بين مراكز أجنبية وبلدان مستعبدة، بل لكي نضم مناطقنا بعضها إلى بعض، ولكي نربط دولتنا بسائر العالم. ذلك أمر لم يبق مجال للشك فيه، وهو أن علينا نحن أن نحقق ما كانت جميع الأجيال التي سبقتنا تتطلع إليه، دولة تنشأ في حضن الحرية وتقوم على أساس العدالة، كجزء من الفكر الإلهي يتحقق على هذه الأرض.

وظل بختيارفتش صامتاً. وأخذ صوت غالوس ينخفض. فكلما كان فكره يزداد ارتفاعاً، كان صوته يزداد خفوتاً وبحاحة، حتى صار إلى همهمة هادرة عارمة، ثم غاب في سكون الليل الكبير. إن الشابين كلاهما صامتان الآن. لكن صمت بختيارفتش، يجثم على صدر الليل ثقيلاً عنيداً، إنه ينتصب في الظلمات محسوساً واقعياً، كسور لا يمكن اجتيازه، ويصر إصراراً قوياً على أن يكذب بثقل وجوده نفسه كل أقاويل غالوس، مفصحاً عن فكر أخرس واضح لا يتزعزع.

ـ إن قواعد العالم وأسس الحياة والعلاقات بين البشر معينة لقرون وقرون. هذا لا يعني أنها لا تتغير، لكنها إذا قيست بمدة حياة إنسانية بدت أبدية. إن النسبة بين طولها وطول حياة إنسانية كالنسبة بين سطح النهر المضطرب المتحرك السريع وقاعه الراكن الوطيد الذي يتبدل تبدلات بطيئة لا تدرك. وحتى فكرة تبديل هذه «المراكز» فكرة سقيمة لا يمكن أن تتحقق. مثل الذي يريد ذلك كمثل الذي يريد أن يغير وأن ينقل ينابيع الأنهار الكبرى، أو كمثل الذي يريد أن يبدل مواضع الجبال. إن الرغبة في التغيرات المفاجئة والتفكير في تحقيقها بالقوة، يظهران بين الناس في كثير من الأحيان ظهور المرض، ويشتدان في أكثر الأحيان في رؤوس الشباب. غير أن هذه الرؤوس لا تفكر كما ينبغي أن تفكر ولا تصل في نهاية الأمر إلى شيء، كما أنها لا تستقر فوق أكتاف أصحابها في العادة مدة طويلة. ذلك أن رغبة البشر ليست هي التي تتصرف في الأمور وليست هي التي تقود شؤون العالم. الرغبة كالريح، تثير الغبار من مكان إلى مكان، وقد تحجب الأفق تماماً في بعض الأحيان، لكنها تبدأ في آخر الأمر وتزول، مخلفة وراءها الصورة القديمة الأبدية للعالم. الأعمال الباقية على هذه الأرض إنما تتحقق بمشيئة الله، وليس الإنسان إلا أداته الطيعة الخضوع. إن عملاً ينشأ من رغبة البشر، ميسر لأحد أمرين: فإما أن يصل إلى التحقيق وإما ألا يبقى بعد أن

يتحقق، وهو في كل حال ليس بالعمل الطيب. إن جميع هذه الرغبات الطافحة وهذه الكلمات الفائرة تحت السماء المظلمة على الكابيا لن تغير من جوهر الأمر شيئاً. وستمر مروراً عابراً فوق الوقائع الكبرى الباقية في هذا العالم، وتمضي لتضيع هناك حيث تهدأ الرغبات وتسكن الرياح. إن الرجال العظام، وكذلك المباني العظيمة، تنبت وستظل تنبت حيث تريد لها مشيئة الله أن تنبت، لا شأن في هذا لا للرغبات الفارغة العارضة، ولا لغرور الإنسان.

غير أن بختيارفتش لم ينطق بأي كلمة من هذه الكلمات. إن أولئك الذين تجري فلسفتهم في دمائهم، كهذا الفتى المسلم، يعيشون ويموتون وفقاً لهذه الفلسفة، لكنهم لا يعرفون كيف يعبرون عنها بألفاظ ولا يشعرون بالحاجة إلى ذلك. وبعد لحظة طويلة من صمت، لاحظ ستيكوفتش وغلاسنتشانين أن أحد الرفيقين المختفيين في الظلام وراء الجدار قد ألقى عقب سيجارة، فسقط من الجسر إلى نهر درينا كالشهاب راسماً قوساً كبيراً، وسمعا في الوقت نفسه وقع خطوات الرفيقين يسيران صامتين ببطء نحو ساحة السوق. وسرعان ما زال وراءهما صدى وقع أقدامهما.

فلما أصبح ستيكوفتش وغلاسنتشانين وحيدين من جديد، استيقظا منتفضين، ونظر كل منهما إلى صاحبه كأنهما لم يلتقيا إلا في هذه اللحظة.

إن على وجهيهما، تحت ضوء القمر الضعيف، أضواء وظلالاً تتكسر وتتقاطع. إنهما يبدوان أكبر سناً، وإن لنار سيجارتيهما لمعاناً كلمعان الفوسفور. إنهما في حالة هبوط نفسي. ولئن كانت دواعيهما إلى ذلك مختلفة، فإن الإرهاق الذي يعانيانه واحد. لم يكن لأحد منهما إلا رغبة واحدة هي أن ينهض ويعود إلى بيته. لكنهما ظلا جالسين على المقعد الحجري الذي لا يزال دافئاً من شمس النهار، ظلا جالسين كأنهما مسمران. إن الحديث الذي دار بين رفيقيهما اللذين يصغرانهما سناً، هذا الحديث الذي سمعاه مصادفة دون أن يراهما أحد، كان لهما خير فرصة لإرجاء ما يجب أن يقوم بينهما من كلام، لكنهما لا يستطيعان الآن أن يجتنبا هذا الكلام.

ـ هل رأيت إلى كيراك وإلى الحجج التي أدلى بها؟

هكذا بدا ستيكوفتش الكلام عائداً إلى المناقشة التي كانت تدور رحاها في المساء. وما لبث أن شعر بضعف موقفه.

وأحس غلاسنتشانين بامتياز الموقف الذي يقفه موقتاً، وهو موقف القاضي الذي يفصل في الأمور. ولم يجب على الفور.

فأردف ستيكوفتش يسأله بصبر نافذ:

- قل لي، أرجوك.. أليس من المضحك أن نتحدث اليوم عن صراع الطبقات وأن ندعو إلى هذه الأمور التافهة بينما يشعر كل رجل من رجالنا شعوراً واضحاً بأن الوحدة القومية والتحرير القومي اللذين يجب تحقيقهما بالطرق الثورية هما المهمتان الملحتان اللتان يقع علينا عبء العمل في سبيلهما.

كان في صوت ستيكوفتش أسئلة ودعوات إلى المناقشة. ولكن غلاسنتشانين امتنع مرة أخرى عن الإجابة. وفي سكون هذا الصمت الانتقامي العدائي، وصلت إلى مسامعهما موسيقى آتية هذه المرة من النادي العسكري على الشاطئ. إن نوافذ النادي مضاءة في الطابق الأرضي، مفتوحة على مصاريعها. هذا كمان يرافقه بيانو. إن الدكتور بالاك، الطبيب العسكري، هو الذي يعزف على الكمان، وزوجة الكولونيل باور قائد الحامية هي التي ترافقه بالعزف على البيانو (إنهما يدرسان الجزء الثاني من سوناتا لشوبير تعزف على البيانو والكمان). لقد بدآ بدءاً حسناً، وكانا على توافق تام، ولكن قبل الوصول إلى منتصف المعزوفة تقدم البيانو الكمان، فانقطعت الكمان عن العزف. وبعد فترة قصيرة من صمت لعل العازفين كانا خلالها يتواصيان على بعض الأمور في الفقرة الصعبة، استأنفا العزف. إنهما يعملان هكذا كل مساء تقريباً، ويظلان يعزفان إلى ساعة متأخرة من الليل، بينما الكولونيل يكون منصرفاً إلى اللعب بالورق في حجرة أخرى، أو يكون جالساً إلى قدح من خمر موستار يشربه ناعساً أو يدخن سيجارة نمسوية، وبينما يكون الضباط الشباب يتندرون بالكلام على الموسيقيين العاشقين.

الواقع أن قصة معقدة صعبة تنشأ بين السيدة باور وبين الطبيب الشاب منذ شهور. لكن أشد الضباط نفاذاً إلى دخائل الأمور لا يتوصلون إلى تحديد طبيعة العلاقة التي بينهما على حقيقتها. فبعضهم يؤكد أن هذه الصلة صلة أفلاطونية صرفة (وهم يضحكون من هذا طبعاً) وبعضهم يقول إن للجسد نصيبه في هذا كله من غير شك. ومهما يكن من أمر، فإن هذين الشخصين لا ينفصل أحدهما عن الآخر، وذلك بموافقة تامة أبوية من الكولونيل، وهو رجل طيب بطبيعته قد تبلد كثيراً من الخدمة والتقدم في السن والخمر والتبغ.

إن المدينة الصغيرة كلها تعرف هذين الشخصين على أنهما صاحبان لا يفترقان. وكان مجتمع الضباط كله يعيش حياته الخاصة منعزلاً، لا تربطه أي صلة لا بأهالي فيشيغراد ولا بالموظفين الأجانب، حتى لقد كُتب على لافتة عند مدخل من حدائق الضباط المليئة بالطرائد المدورة والمنجمة من طرائد الأزهار النادرة، كتب أن اصطحاب الكلاب ممنوع، وأن دخول الحديقة محظور على المدنيين. وكانت تسلياتهم، كأعمالهم، من الأمور التي لا يشارك فيها إلا من يرتدون الزي العسكري. وكانت حياتهم في واقع الأمر حياة طبقة ضخمة منطوية على ذاتها كل الانطواء، طبقة أناس يحرصون على انفرادهم هذا حرصهم على أهم جزء مما لهم من بأس وسلطة، ويخفون تحت هذا المظهر الخارجي البراق الصلب كل ما تمنحه الحياة للآخرين من عظمة وشقاء، وحلاوة ومرارة.

غير أن هناك أموراً من طبيعتها أن لا تخفى، فهي تكسر كل إطار مهما يكن قوياً، وتجتاز جميع الحدود مهما تفرض عليها حراسة شديدة (كان العثمانيون يقولون: ثلاثة أمور لا يمكن أن تبقى خافية: الحب والسعال والفقر). فكذلك كان حال هذين العاشقين. ما من شيخ ولا طفل ولا امرأة ولا رجل في المدينة إلا صادفهما خلال نزهة من نزهاتهما يسيران في طرق خالية حول فيشيغراد غارقين في الحديث وقد عميت أعينهما وصمت آذانهما عن كل ما يحيط بهما. تعوّد الرعاة رؤيتهما كما يتعودون رؤية تلك الأزواج من الحشرات التي تُرى كثيراً في شهر أيار (مايو) تحت أوراق الأشجار على طول الطرقات، اثنين اثنين دائماً، وقد التصق كل واحد بالثاني على حب. إن الناس يرون هذين العاشقين في كل مكان: يرونهما حول نهر درينا ونهر رزاف، وتحت خرائب القلعة القديمة، وعلى الطريق الخارج من المدينة، وحول سترايشته، في كل ساعة من ساعات النهار. ذلك أن الوقت قصير دائماً عند العشاق، وما من طريق طويل طولاً كافياً. وكانا يركبان الخيل، أو يقودان عربات خفيفة، لكنهما كانا يسيران على الأقدام في أكثر الأحيان سير شخصين لا يعيش أحدهما إلا للآخر، بخطى خاصة متميزة تدل بذاتها على أنهما لا يحفلان بشيء مما في هذا العالم غير ما يحب كل منهما أن يقول للآخر!

أما هو فأصله سلوفاكي أصبح من المجر. إنه ابن أحد الموظفين، فقير تعلم على نفقة الدولة، شاب موهوب في الموسيقى حقاً، طموح، حساس جداً،

وخاصةً بسبب أصله الذي يمنعه من أن يعد نفسه مساوياً كل المساواة للضباط الألمان أو للضباط المجريين الذين ينتمون إلى أسر أرفع منزلة أو أكثر ثراء. وأما هي فامرأة تجاوزت الأربعين من العمر، أكبر منه بثماني سنوات، طويلة شقراء، قد ذبلت قليلاً، بهيئتها ووضعها تشبه تلك الصورة التي تمثل وجوه ملكات وتفتن الفتيات.

ولكل من هذين الشخصين دواع شخصية (قد تكون واقعية وقد تكون خيالية، لكنها عميقة في كل حال) تجعله غير راض عن الحياة. ومن هذه الدواعي داع مشترك بينهما: فكلاهما يحس، في هذه المدينة الصغيرة مع هذا المجتمع من الضباط الذين يتصف أكثرهم بالسخف والتفاهة، كلاهما يحس بأنه شقي وبأنه يشبه أن يكون في منفى. فهما لذلك يتلاصقان هذا التلاصق القوي، ويشد كل منهما نفسه إلى الآخر، كما يفعل غريقان. إن كلا منهما يهوي في الآخر، ويذوب وينسى نفسه في أحاديث طويلة، أو في الموسيقى كما يفعلان الآن.

ذانك هما الشخصان اللذان كانت موسيقاهما تملأ الصمت المزعج المخيم بين الشابين.

وفي لحظة من اللحظات تعثّرت هذه الموسيقَى التي كانت تنسكب في هدوء الليل، وانقطعت إلى حين. فأخذ غلاسنتشانين، في هذا الصمت الذي قام عندئذ، يتكلّم بصوت صلب، مجيبًا عن الكلام الأخير الذي قاله ستيكوفتش:

- مضحك؟ هناك أشياء كثيرة مضحكة في تلك المناقشة، إذا أردت أن تحكم حكمًا صادقًا.

فسحب ستيكوفتش سيجارته من فمه فجأة، بينما استمرّ غلاسنتشانين يعبّر في بطءٍ، ولكن في عزم، عن رأيه الذي كان واضحًا أنه ليس ابن هذا المساء، وإنما هو يقضّ مضجعه منذ مدة طويلة:

- إنني أصغي بانتباه إلى جميع المناقشات التي تدور بينكما كما تدور بين مثقفين آخرين في هذه المدينة، وأقرأ في الصحف وأقرأ المجلات، فكلما ازددت إصغاءً، ازددت اقتناعًا بأنّ هذه المناقشات التي يدور بها الكلام أو تجري بها الأقلام لا تمتّ بأية صلة إلى الحياة وضروراتها ومشكلاتها الواقعية. ذلك بأنني أنظر إلى الحياة، إلى الحياة الحقّة، من قُرب، أراها لدَى الآخرين، وأحسها في ذات نفسي. قد أكون على خطأ، وقد لا أُحسن التعبير عن رأيي، لكنني أراني في

كثير من الأحيان مضطرًا إلى الاعتقاد بأنّ التقدّم التكنيكي والسلام النسبي في العالم قد أوجَدا نوعًا من الهدوء الموقّت، أوجدا جوًا خاصًا مصطنعًا غير واقعي يُتاح فيه لطبقة من الناس، هي طبقة أولئك الذين يسمَّوْن المثقفين، أن تنصرف بحرّية إلى اللعب بالأفكار، لعب المتعطلين اللاهين، مُلقِيةً «نظرات على الحياة والعالم»، قد أوجدا للفكر ما يُشبه البيوت الزجاجية التي تستنبت فيها نباتات المناطق الأجنبية في جوّ اصطناعي، فليس ثمّة صلة بين هذا كله وبين الأرض، ليس ثمة صلة بينه وبين الأساس الواقعي الراسخ الذي تتحرك فوقه جماهير الكائنات الحيّة. إنكم تظنون أنكم تناقشون مصير الجماهير ووظيفتها في المعارك التي يجب أن تخوضها سعيًا إلى ما ترسمون لها من أهداف سامية، ولكن الواقع أنّ العجلات التي تدور في رؤوسكم ليس لها أيّ صلة بحياة الجمهور ولا بالحياة عامة. ولعبكم ها هنا يصبح خطرًا، أو يمكن أن يصبح خطرًا على الناس وعليكم أنتم.

توقف غلاسنتشانين. وبلغ ستيكوفتش من دهشته لهذا المقال الطويل الواعي، أنه لم يفكّر لا في مقاطعته ولا في الجواب عليه. وكل ما فعله هو أنه حين سمع كلمة «خطر»، حرّك يده حركة خفيفة ساخرة. فأحنق هذا غلاسنتشانين، فأردف يقول بمزيد من العنف:

- يمينًا أنّ المرء حين يسمع كلامكم يظنّ أن جميع المشكلات قد حُلّت حلاً موفّقًا، وانّ جميع الأخطار قد أُبعِدت إلى الأبد، وأنّ جميع الطرق قد شُقّت وعُبِّدَت، فلم يبقَ إلاّ أن تأخذ في المسير.. مع أنه لا شيء في الحياة قد حُلّ، ولا شيء في الحياة يمكن أن يُحَلّ بسهولة، ولا أمل في حلٍّ كامل، بل كلّ شيء صعب معقّد، باهظ الثمن، مرتبط بأخطار كبيرة لا تتناسب والهدف المنشود. ليس في أيّ مكان ظِلٌّ للآمال الجريئة التي يعقدها كيراك، ولا للآفاق الكبيرة التي تطلّ عليها أنت. إنّ الإنسان يتعذّب طوال حياته، ولا يصل يومًا إلى ما هو في حاجة إليه فكيف بما يتمنّاه ويرغب فيه. إنه بنظريات كنظرياتكم لا يزيد على أن يُرضي حاجته الأبدية إلى اللعب. إنه يُرضي غروره، ويخدع غيره، هذه هي الحقيقة، أو هذا ما يتراءى لي على الأقل.

- يكفي أن تقارن بين مختلف العصور التاريخية حتى ترَى التقدُّم وحتى ترَى معنَى النضال الإنساني، وبالتالي معنَى النظريات التي تُوجّه النضال الإنساني.

فاعتقد غلاسنتشانين فورًا بأنّ في هذا الكلام إشارة إلى أنه لم يُكمِل دراسته، فارتعش في أعماق نفسه، كما يحدث له دائمًا في مثل هذه الحالة. فقال:

- أنا لا أدرس التاريخ.

- إذاً لو درسته لرأيت.

- لكنك أنت أيضًا لا تدرسه.

- كيف؟ أنا لا أدرس التاريخ!

- فوق العلوم الطبيعية؟

قال غلاسنتشانين ذلك بصوت يرتعش في خُبث، فاضطرب ستيكوفتش لحظة، ثم استأنف يقول بصوت يشبه أن يكون ميتًا:

- نعم، فوق العلوم الطبيعية، إذا كنت مُصرًّا على أن تعرف ذلك، إنني أعني، إلى جانب العلوم الطبيعية، هناك مسائل سياسية وتاريخية واجتماعية.

- شيء عظيم أن تستطيع الانصراف إلى هذا كله.. ذلك أنك بالإضافة إلى هذا، في ما أعلم، خطيب، وداعية، وشاعر، وعاشق.

فابتسم ستيكوفتش منزعجًا. إنّ ذكرَى الأصيل الذي قضاه اليوم في قاعة الدرس الخالية، قد مرّت بخاطره كشيء بعيد لكنه مؤلم، وعندئذ فقط تذكّر أنّ غلاسنتشانين وزوركا كانا على مودة قبل وصوله إلى المدينة. إنّ الخلِيَّ من القلب لا يستطيع أن يشعر بما يشعر به المُحِبّ، ولا يستطيع أن يقدِّر قوّة الغَيْرة وما يختفي من الغَيْرة من خطر.

وسرعان ما انقلب الحديث بين الشابّين إلى مشاجرة شخصية حادة كانت تهوم في الهواء فوقهما منذ البداية.

إنّ الشباب لا يحاولون اجتناب المشاجرات، شأنهم في ذلك شأن صغار الحيوانات التي تندفع بسهولة إلى ألعاب عنيفة وحشية.

- ما أنا، وما أهتم به، أمر لا يعني أحدًا غيري على كلّ حال. أتراني أتدخّل في شؤون أمتارك المكعّبة وجذوع أشجارك؟

- إنّ الغضب العنيف الذي يثور دائمًا في نفس غلاسنتشانين حين يلمّح أحد إلى حالته، قد أوجعه الآن بقوة خاصة.

- دعك من أمتارك المكعّبة. إنني أعيش من عملي، لكنني لا أغشّ به أحدًا. أنا لا أخدع أحدًا ولا أغوي أحداً.

- وهل أغويت أنا أحدًا؟

- جميع الذين يتأثرون بإغوائك أو جميع اللواتي يتأثرن بإغوائك!

- غير صحيح.

- بل هو صحيح. أنت نفسك تعلم أنّ هذه هي الحقيقة. وما دُمتَ قد تحدَّيتَني فسأقوله لك..

- لستُ حريصًا على أن تقوله.

- لكنني أنا حريص. قد يقضي المرء نهاره كله بين جذوع الأشجار، ثم لا يمنعه ذلك من أن يرَى ويتعلّم ويفكّر ويشعر. سأقول لك رأيي في مشاغلك واختصاصاتك الكثيرة وفي آرائك الجريئة، وكذلك في أشعارك وغرامياتك.

تحرّك ستيكوفتش كمن يهتم أن ينهض، لكنه ظلّ في مكانه. إنّ موسيقَى الكمان والبيانو قد استؤنفت في النادي العسكري منذ مدة طويلة (إنهما يعزفان الآن الجزء الثالث من السوناتينه، وهو جزء مرح متحرّك)، والأصوات تغيب وسط الليل في هدير النهر.

- شكرًا، لقد سمعت في ذلك آراء مَن هم أذكَى منك.

- لا، لا.. الآخرون إمّا أنهم لا يعرفونك، وإما أنهم يكذبونك، وإمّا أنّ رأيهم كرأيي لكنهم يصمتون. جميع نظرياتك، وجميع اهتماماتك الروحية الكثيرة، وجميع علاقاتك الغرامية وصداقاتك، جميع ذلك إنما ينبع من طموحك، وطموحك طموح كاذب فاسد، لأنه خارج من غرورك، من غرورك وحده.

- ها ها..

- نعم، وتبشيرك الحارّ بتلك الفكرة القومية الآن ليس أيضًا إلاّ جانبًا خاصًا من جوانب غرورك. إنك لا تستطيع أن تُحب لا أمّك ولا إخوتك ولا أخاك، فكيف تحب فكرة من الأفكار.. إنك لا يمكن أن تكون طيبًا شهمًا مخلصًا إلاّ من قبيل الغرور.. غرورك هو القوة الكبرَى التي تحرِّكك. إنه زادك الوحيد. إنه الشيء الوحيد الذي تحبه أكثر من نفسك. الذي لا يعرفك يمكن بسهولة أن يخدع بنشاطك وبحماستك في النقاش، وبإخلاصك للمثل الأعلَى القومي، أو للعلم، أو للشعر، أو لأيّ هدف آخر رفيع فوق الفرد. لكنك لا تستطيع أن تخدم شيئًا من الأشياء مدة طويلة، ولا تستطيع أن تظل إلى جانب شخص من الأشخاص مدّة طويلة، لأنّ غرورك لا يسمح لك بذلك.. فمتَى أصبح الأمر لا يعني

غرورك، غدا بالنسبة إليك غريبًا بعيدًا لا تريد أن ترفع في سبيله إصبعك ولا تستطيع أن ترفع في سبيله إصبعك. ولسوف تفضح نفسك بسبب غرورك، فأنت ذاتك عبد لهذا الغرور. إنك لا تعلم إلى أيّ حدٍّ أنت مغرور. أمّا أنا فأعرفك على حقيقتك، وأعرف وحدي أيَّ شيطان من شياطين الغرور أنت.

لم يُجِب ستيكوفتش: في أول الأمر أدهشته هذه الكلمات الواعية الجامحة من رفيقه الذي ظهر له فجأة بمظهر جديد وفي دور لم يكن يتوقعه منه، ثم أخذت تلك الكلمات اللاذعة التي ينطق بها رفيقه بلهجة واحدة، والتي جرحته في أول الأمر وأثارته، أخذت تلك الكلمات تبدو له شائقة حتى لتُشبه أن تكون لذيذة ممتعة. لا شكّ أن بعض التعبيرات قد أصابت منه القلب وأوجعته، ولكن الكلام في مجموعه - أعني هذا السبر الحاد العميق لطبعه- قد تملّقه وأرضاه بمعنًى من المعاني. ذلك أنّ قولك لشابّ من الشباب إنه شيطان غرور إنما يدغدغ زهوه بنفسه وحبّه لذاته. إن ستيكوفتش لَيتمنّى حقًا لو استمرّ غلاستنشانين في نبش كيانه العميق هذا النبش الحانق، وفي تسليط هذا الضوء على شخصيته المختفية، لأنه لا يجد في هذا إلاّ دليلاً جديدًا على ما يملك من مزايا فذّة وعلى ما يتّصف به من تفوُّق. وكانت نظرته الصلبة مستقرّة على المسلّة البيضاء التي برزت في ضوء القمر على الحجر الأحمر.

كان يحدّق في تلك الكتابة التركية التي لا يفهمها تحديق من يقرأها ويحاول أن يجد فيها المعنَى العميق الصحيح لما قاله هذا الرفيق الخبيث الجالس إلى جانبه قولاً نافذًا ذكيًا.

- إنك لا تكترث بشيءٍ البَتّة. أنت في حقيقة الأمر لا تحب ولا تكرَه، لأنّ كِلا الحُب والكُرْه يُوجب على المرء أن يخرج من ذاته، أن يضحّي بذاته، أن ينسَى نفسه، أن يتجاوز نفسه، أن ينتصر على غروره. وذلك ما لا تستطعه، وما من شيء يمكن أن تفعله في سبيله ولو استطعت. إنّ شقاء الآخرين لا يؤثر فيك فكيف يؤلمك! وحتى بؤسك أنت، لا شأن له عندك، إلاّ إذا كان يتملّق غرورك! لست حتى بالحسود، لا لأنك طيّب، بل لأنك تجاوزت في أنانيتك كلّ حدّ من الحدود، فأنت لا تلاحظ سعادة غيرك ولا شقاءه. لا شيء يمكن أن يهزّ قلبك ولا أن يحرّكك. إنك لا تتورّع عن شيء، لا لأنك شجاع، بل لأنّ الغرائز الطيبة قد تجمّدت فيك. إلى جانب غرورك لا وجود عندك لا لروابط الدم ولا للعواطف

الفطرية، ولا لله، ولا للعالم، ولا للأسرة، ولا للرفاق. إنك لا تقدّر حتى كفاءتك الخاصة. انزعاج غرورك لا ألم ضميرك - هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يهزّك، لأنّ غرورك وحده، دائمًا، وفي كلّ أمر، هو الذي ينطق بلسانك ويملي عليك أفعالك.

قال ستيكوفتش فجأة:

- أهذا إلماع إلى زوركا؟

- فلنتحدث أيضاً عن زوركا إذا شئت. نعم هذا الماع أيضًا إلى زوركا. إنك لم تكن تحرص عليها أيّ حرص، ولكن عجزك عن التعفف وعن التوقف أمام شيء، عرض في لحظة من اللحظات مصادفة، وأثار غرورك.. وإنك لتستولي على المعلمة المسكينة المضطربة الغرّة، كما تكتب بمقالات وقصائد، وكما تلقي خطبًا ومحاضرات، فما تكاد تفرغ منها حتى تثقل عليك، وحتى يتثاءب غرورك ضجرًا، ويمضي باحثًا بنظراته في نهم وشراهة عن شيء أبعد. هذه هي اللعنة التي تلاحقك: إنك لا تستطيع أن تتوقف في أيّ مكان، ولا أن تشبع في يوم من الأيام، ولا أن ترتوي. إنك تُخضِع كل شيءٍ لغرورك، لكنك أول عبد لهذا الغرور، وأول شهيد من شهدائه. قد تفوز في المستقبل بأمجاد كثيرة وبنجاح كبير، بنجاح أكبر كثيرًا من نجاحك على ضعف النساء اللواتي تخدعهن عن أنفسهن، ولكن ما من نجاح يمكن أن يشفي غليلك في يوم من الأيام، لأنّ غرورك يطمع دائمًا في ما هو أبعد منه، لأنّ غرورك يبتلع دائمًا كلّ شيء، حتى أكبر نجاح تصيبه، فما يلبث أن ينساه.. ولكنه يظل يتذكر إلى الأبد كلّ إخفاق وكلّ أذًى مهما يكن يسيرًا هيِّن الشأن. وحين ذلك سيتحطم من حولك كلّ شيء، ويتهدّم، ويتلطّخ، وينذلّ، ويتبعثر أو يفنَى، فستجد نفسك يومئذ وحيدًا في تلك الصحراء، وجهًا لوجه أمام غرورك، عاجزًا عن أن تقدّم له أيّ شيء، فلا يسَعُك عندئذ إلاّ أن تلتهم ذاتك، ولكن ذلك لن يجديك شيئًا، لأنّ غرورك الذي اعتاد على ما هو أطيب من ذلك مذاقًا، سيزدريك طعامًا وسيلفظك. هذه حقيقتك رغم أنك تظهر لأكثر الناس غير هذا، ورغم أنّ رأيك في نفسك غير هذا الرأي. ولكنني أعرفك.

وهنا صمت غلاسنتشانين فجأة.

أصبح المرء يشعر على الكابيا ببرودة الليل، وكان السكون المصحوب بهدير

الماء الذي لا ينقطع قد خيّم. إنّ الرفيقين لم يلاحظا أنّ الموسيقَى التي كانت تأتي من على الضفة قد صمتت. لقد نسيا كل النسيان أين هما وماذا يفعلان، لأنّ كلّ واحد قد غرق في أفكاره ذلك الغرق الذي لا يعرفه إلاّ الشبّان. إنّ رجل «الأمتار المكعّبة»، الغيور البائس، قد تحدّث في أمر طالما فكّر فيه تفكيرًا جامحًا عميقًا عنيفًا، دون أن يجد له ما يناسبه من ألفاظ وتعابير. لكنه في هذه المرة تحدّث في انطلاق وتدفّق، وفي مرارة وحرارة. وأصغَى إليه ستيكوفتش من دون أن يتحرّك ومن دون أن يرفع بصره عن المسلة البيضاء التي عليها كتابة تركية، كأنما هو ينظر إلى شاشة سينما. لقد سمع كل كلمة، وأحسّ كلّ وخزة، لكنه لم يجد في كلّ ما كان يقوله رفيقه شيئًا خطِرًا. بالعكس، كان كلما سمع كلمة من كلمات غلاسنتشانين تراءَى له أنه يكبُر، وأنه يطير على أجنحة خفيّة من دون ضوضاء، بسرعة، بجرأة، بانفعال، وأنه يحلّق عاليًا فوق البشر الملتصِقين بالأرض، وفوق الروابط التي بينهم، وفوق القوانين التي تحكمهم، والسعادة (أو بشيء يشبه السعادة). إنه يحلّق فوق كلّ شيء، فما هذا الصوت الذي يسمعه، وما هذه الكلمات التي يقولها خصمه، إلاّ هدير المياه، إلاّ ضوضاء العالَم الذي لا يراه، العالَم الواطئ، الثاوي في مكان ما بالقاعِ تحته. ليس يعنيه أن يعرف ما هو العالَم، وما الذي يفكّر فيه، وما الذي يقوله، لأنه يحلّق فوقه، كما يحلّق الطائر فوق منطقة من المناطِق.

وحين صمت غلاسنتشانين لحظة، بدا أنّ الاثنين كلاهما يصحوان. لم يجرُؤ أحد منهما أن ينظر إلى الآخَر. وليس يعلم إلاّ الله إلى أيّ اتجاه كان يمكن أن تمضي هذه المشاجرة لولا أن ظهر على الجسر من ناحية الساحة، بعض السكارَى يغنّون ألحانًا متقطّعة ويصيحون صيحات مدوّية. كان صوت أحدهم (تينور) يغطّي أصواتهم جميعًا، ويغنيّ أغنية قديمة بنبرة حادّة وفي غير مسلسل:

يـا فـاطـمـة بـنـت عـابـد آغـا   يـا ذات الـنُـهَـى والـجـمـال..

وعرف الرفيقان هؤلاء السكارَى من أصواتهم، فهُم عدد من التّجار الشباب وأبناء الأُسَر الغنية. كان بعضهم يسير سيرًا مستقيمًا بطيئًا، وكان بعضهم الآخر يتأرجح في سيره ويترنّح. وكان واضحًا من أمازيحهم المدوّية أنهم آتون من البيت المعروف باسم «تحت الحور».

لقد نسينا خلال القصة السابقة أن نُشير إلى شيء جديد استُحدِث في المدينة

الصغيرة (لا شكّ أنكم لاحظتم أنتم أيضًا أنّ المرء ينسَى بسهولة أن يذكر ما لا يحبّ ذكرَه).

منذ خمسة عشر عامًا، حتى قبل البدء في مدّ الخط الحديدي، استقرّ في فيشيغراد رجل وامرأته. أمّا الرجل فاسمه ترديك، وأمّا امرأته فاسمها يولكا. والمرأة تتكلم اللغة الصربية لأنها في الأصل من بلدة نوفي ساد. وسرعان ما عُرِف في المدينة أنهما جاءاها بقصد تأسيس محلّ ليس له عند الشعب اسم. وقد فتحا هذا المحلّ فعلاً عند طرف المدينة تحت أشجار الحور العالية التي تنبت في قاعدة جبل سترايشته في بيت قديم من بيوت البكوات غيَّرا معالمه تغييرًا تامًا.

ذلك هو المكان السيئ السمعة في المدينة. إنّ نوافذه تظلّ طوال النهار مغلقة قد أُسدِلت ستائرها. حتى إذا جاء المساء لاح عند مدخله نور أبيض هو نور فانوس من فوانيس المناجم يظلّ مشتعِلاً طوال الليل، وأخذت تدوّي في الطابق الأرضي منه أغنيات، وأصوات بيانو ميكانيكي. إنّ شباب المدينة ورجالها الماجنين يتناقلون أسماء النساء الصبايا اللواتي جاء بهن ترديك، واللواتي يعملن في محلّه، ولقد كنّ في أول الأمر أربعًا: إيرما، إيلونا، فريدا، آرانكا.

وكان الناس في كلّ يوم من أيام الجمعة يرون «بنات يولكا» قد ركبن عربتين تمضيان بهما إلى المستشفَى للكشف الأسبوعي. كنّ يطلِينَ وجوههن بأبيض وأحمر، ويضعن على قبّعاتهن أزهارًا، يحملن شمسيات طويلة تتموّج فيها أجنحة من الدنتيلّا. فإذا مرّت عرباتهن في الطريق أخفَت نساء المدينة بناتهنّ، وأشحن بوجوههن وهنّ يشعرن بعواطف يمتزج فيها الاشمئزاز بالعار بالشفقة.

وحين بدأت أعمال مدّ الخطّ الحديدي، ووصل إلى المدينة سيل جديد من المال والعمال، ازداد عدد هاته النساء. وبنَى ترديك إلى جانب البيت التركي القديم منزلاً جديدًا، وفقًا لتصميم خاصّ، وجعل لسقفه ستائر حمراء تُرَى من بعيد. إنّ في المنزل الجديد ثلاثة أقسام: قاعة مشتركة، وقاعة خاصة، وقاعة للضباط. ولكلٍّ من هذه الأقسام الثلاثة سعره وزبائنه. وهناك، «تحت الحور»، على حدّ تعبير أهل المدينة، كان يستطيع أبناء وأحفاد أولئك الذين كانوا في الماضي يشربون في خمّارة زاريا وفي فندق لوتيكا بعد ذلك، كان يستطيع أبناؤهم وأحفادهم هؤلاء أن يُتلفوا ما ورثوا من مال أو جنَوْا من مال. وهناك كانت تتردد الأمازيح البذيئة وتقوم المنازَعات الشهيرة والدراسات العاطفية،

ويندفع الرواد في شرب محموم. وإلى هذا المكان يرجع عدد من المصائب الشخصية والعائلية التي عرفتها المدينة.

إنّ الشخص الرئيسي بين هذه الطائفة من السكارَى الذين قضَوْا أول شطر من الليل «تحت الحور» وجاؤوا الآن يترددون على الكابيا، شابٌ يقال له بتسيكوزا، وهو فتًى أبلَه طيّب كان أبناء الأغنياء يسقونه الخمر ليعبثوا به.

لقد توقّف هؤلاء الشباب اللاهون على إفريز الجسر قبل أن يصلوا إلى الكابيا، وكانت مشاجرات السكارَى التي تدور بينهم تُسمَع أصواتها عاليةً مدوّية. إنّ نيقولا يزعم أنه قادر على أن يمشي فوق الإفريز الحجريّ حتى نهاية الجسر، والرفاق يزعمون أنه عاجز عن ذلك، وتمّ الرهان أخيرًا على زجاجتين من الخمر تُدفعان له إذا استطاع ذلك حقًا. فما إن تمّت الصفقة على هذا النحو حتى اعتلَى الشابّ الإفريز، وأخذ يسير، باسطًا ذراعيه، واضعًا قدَمًا أمام أخرَى على حذر كالسائر في نومه، فلما وصل إلى الكابيا، رأى الشابين المتأخّرَين، فلم يقُل لهما شيئًا، بل تابع طريقه الخطِرة مدندِنًا مترنّحًا كما يدندن ويترنّح سكّير، بينما رفاقه الفرحون يسيرون وراءه. إنّ ظلّه الكبير تحت ضوء القمر الضعيف يتراقص على طُول الجسر ويتكسّر فوق الإفريز في الجهة الثانية.

وانتقل السكارَى إلى صياح مجنون وملاحظات بلهاء، فنهض الشابان وعادا إلى بيتيهما دون تحية، كلٌّ في جهة.

غاب غلاسنتشانين في الظلام على الضفة اليُسرَى من نهر درينا حيث يقضي به الطريق إلى بيته الذي يقع في أعلَى جبل أوكولشته، ومضى ستيكوفتش بخطًى بطيئة في الجهة الثانية المؤدّية إلى ساحة السوق. إنّ مشيته متردّدة. إنه لا يريد أن يترك هذا المكان الذي يفضل المدينة في هذه الساعة ضياء وطراوة.

وما لبث أن وقف على إفريز الجسر. إنّ به حاجة إلى أن يقبض على شيء، وأن يستند إلى شيء.

كان القمر قد غاب وراء جبل فيد. وأخلد الشاب يتأمّل الظلال الكبيرة والأضواء القليلة بمدينته التي وُلد فيها، أخذ يتأمّل ذلك كأنه يراه أول مرّة، وهو مستند إلى الإفريز الحجري عند طرف الجسر. إنه مُرهَق حزين. وذكّرته المشية الخطِرة التي قام بها ذلك المجنون بتسيكوزا على الإفريز، ذكّرته فجأة بطفولته الصغيرة، حين كان ذاهبًا إلى المدرسة في ذات يوم، فرأى، من خلال ضباب

الخريف عند الصباح، «الأعور» المربوع يتراقص على هذا الإفريز نفسه. إنّ كلّ ذكرَى من ذكريات طفولته تثير في نفسه الأسَى والحزن. وتبدّد ذلك الشعور الذي أيقظته فيه كلمات غلاسنتشانين الحارة القاسية، أعني شعوره بما له من عظمة رائعة فاتنة، وبأنه يحلّق تحليقًا شاملاً فوق كلّ شيء وكلّ إنسان. بدا له أنه ترك السموات العُلَى فجأة، وأنه يزحف على الأرض المظلمة زحفًا شاقًا كسائر الناس. ومما يعذّبه أيضًا ذكرَى ما وقع له مع المعلّمة وكان ينبغي إلاّ يقع (كأن شخصًا آخر قد فعل ما فعل باسمه)، وذكرَى المقالة التي نشرها في المجلّة، التي تبدو له الآن ضعيفة مليئة بالأخطاء (كأن شخصًا قد كتبها عنه ونشرها بتوقيعه رغم إرادته)، وذكرَى الحديث الطويل الذي قام بينه وبين غلاسنتشانين، والذي يبدو الآن مليئًا بالخُبث والحقد، زاخرًا بالشتائم الجارحة والمخاطر الواقعية.

وهنا ارتعش ارتعاشة من داخله ومن البرودة الصاعدة إليه من النهر. ولم يلاحظ إلاّ في تلك اللحظة، كأنما هو يستيقظ من نوم، أنّ النافذتين في النادي العسكري قد أظلمتا. إنّ أواخر زبائن النادي يغادرونه. فمن الساحة المظلمة تسمع قعقعة أسياف طويلة. ويسمع رنين كلام صاخب متكلّف مصطنع. عندئذ فصل الفتَى جسمه عن الجدار على مضض، ونظر مرة أخرَى إلى النافذة المُضاءة في الفندق، وهي آخر نور من أنوار المدينة النائمة، ثم اتّجه بخطًى بطيئة إلى بيته القائم هناك في أعلَى، في حيّ الميدان.

الفصل العشرون

النافذة الوحيدة في الفندق، التي لا تزال مضاءة كآخر علامة من علامات الحياة بالمدينة في تلك الليلة، إنما هي تلك الكُوّة الصغيرة في الطابق الأول الذي تقع فيه غرفة لوتيكا. إنّ لوتيكا جالسة هذه الليلة في غرفتها أمام طاولتها الصغيرة المزدحمة، كما كانت تجلس دائمًا منذ بضعة وعشرين عامًا حين كانت تدخل إلى هذه الغرفة الصغيرة لتستريح لحظة من الذهاب والإياب وازدحام الفندق بروّاده. غير أنّ كلّ شيء في هذه اللحظة هادئ مظلم.

لقد انسحبت لوتيكا إلى غرفتها في نحو العاشرة، وتهيّأت للنوم. وقبل أن تستلقي على فراشها مضت إلى النافذة مرّة أخرَى تستنشق الهواء الطريّ المتصاعد من النهر، وألْقَت نظرة على القنطرة الأخيرة من الجسر ينيرها القمر بضوء ضعيف، وهو المشهد الوحيد الذي تُطلّ عليه من نافذتها ولا يتغيّر. فتذكرت عندئذ حسابًا قديمًا، فجلست إلى طاولتها تبحث عنه. لكنها ما إن بدأت تقلّب إيصالاتها حتى غرقت في عملها، ونسيت الزمن، ونسيت حاجتها إلى النوم فظلّت جالسة قرابة ساعتين.

لقد انتصف الليل منذ مدّة طويلة، لكن النعاس طار من عينيّ لوتيكا، فهي تصفّ أرقامها واحدًا بعد آخر، وتقلّب أوراقها واحدة بعد أخرى.

لوتيكا مُتعَبة. إنها، أثناء النهار، في ما تُجريه من أحاديث وما تقوم به من أعمال، لا تزال نشيطة خفيفة طلقة اللسان، حتى إذا جاء الليل، وخلت إلى نفسها، أحسّت بوطأة السنين، وشعرت بالتعب. لقد دبّ فيها الهرَم. ومن جَمالها الماضي لم تبقَ إلاّ آثار دارسة. هي الآن نحيلة، شاحبة، وشعرها لا بريق فيه، وقد ابْيَضّ عند عمّة الرأس. وأسنانها التي كانت ناصعة صلبة كأنها البَرَد، قد اصفرّت وظهر بينها فراغات. وفي نظرة عينيها السوداوين، اللتين لا تزالان تلتمعان، قسوة.. وحزن في بعض الأحيان.

لوتيكا متعَبة. لكنّ تعبها الآن ليس ذلك التعب المبارَك العذب الذي كانت تشعر به في الماضي بعد نشاط جمّ وربح وفير، والذي كان يدفعها في الماضي إلى أن تلتمس في هذه الغرفة نفسها شيئًا من الراحة والاستجمام. لقد اقتربت الشيخوخة، وجاءت الأيام الصعبة.

إنها تُحسّ في كلّ خطوة تخطوها أنّ هذا الزمان قد جُنّ جنونه، على الأقل عند مَن لا يبتغي إلا الربح وإلا أن يوفر لأسرته رغدها.. إنها تحسّ ذلك دون أن تستطيع التعبير عنه بألفاظ، ودون أن تستطيع تعليله لنفسها. حين وصلت إلى البوسنة منذ ثلاثين عامًا، وأخذت تعمل، كانت الحياة تبدو لها كُتلة واحدة، فجميع الناس كانوا يسيرون في الاتجاه الذي سارت فيه، وهو العمل مع الأُسرة، وكل فرد كان يحتلّ مكانه، وكان ثمّة مكان لكلّ فرد، وكان هناك فوق كلّ شيء، نظام وقانون، نظام مُحكَم وقانون صارم. هكذا كان يبدو العالَم للوتيكا. أمّا الآن فقد بدّل كلّ شيء مكانه، وانقلبت الأمور وتبدلت كثيراً. الناس في نظرها ينقسمون وينفصل بعضهم عن بعض على غير قاعدة ودون ما سبب. وقانون الربح والخسارة، هذا القانون الرائع الذي تحكّم بأفعال الناس دائمًا، أصبح لا يصدّق الآن، لأنّ كثيرًا من الناس يفعلون ويقولون أشياء لا ترَى لها لوتيكا أهدافًا ولا اتّجاهًا، ولا يمكن أن يخرج لهما منها إلاّ الشقاء والخسران. إنّ الحياة تتفتّت وتتحلّل، وكأنّ الجيل الجديد يهتمّ بنظرته إلى الحياة أكثر من اهتمامه بالحياة نفسها. هذا أمر يبدو للوتيكا غير معقول، ولا يمكن أن يُفهَم، لكنه واقع. ومن أجل هذا تفقد الحياة قيمتها وتتبعثر كلها في كلام. إنّ لوتيكا ترَى هذا رؤية واضحة وتحسّه في كلّ خطوة.

والأعمال التي كانت تتحرّك أمام عينيها كقطيع خِرفان فرِحة، ترقد الآن ثقيلة ساكنة كهذه الحجارة الكبيرة في مقابر اليهود. هذه عشر سنين لم يعمل الفندق خلالها إلاّ قليلاً. لقد قطّعت الغابة في ما بعد حول المدينة، وأصبحت ضربات الفؤوس تبتعد ثم تبتعد، ويبتعد معها خير زبائن الفندق وأضخم جزء من أرباحه. وترديك، هذا الرجل الفظّ الغليظ الوقح الذي لا يعرف الخجل ولا الحياء، قد فتح «منزله» تحت شجرات الحور، واجتذب كثيرًا من زبائن لوتيكا، لأنه يقدّم لهم فورًا وبسهولة ما لم يكن في وسعهم أن يحصلوا عليه في فندقها بأي ثمن من الأثمان. لقد طالما ثارت لوتيكا على هذه المنافسة المخجلة غير المشروعة.

فكانت تردد قائلة: جاء الزمان الأخير، الزمان الذي ليس فيه نظام ولا قانون، ولا يستطيع فيه المرء أن يكسب رزقه كسبًا شريفًا.

وفي ذات مرّة - كان ذلك في البداية- وصفت ترديك، من فرط ما كانت تشعر به من مرارة، بقولها: هذا قوّاد. فشكاها ترديك إلى القضاء، فحكم عليها القضاء بتهمة التشهير، واضطرها إلى دفع غرامة. وهي لا تزال ترفض أن تسميّه بغير هذا الاسم. لكنها الآن تطلق العنان للسانها أمام أيّ شخص.

والنادي العسكري الجديد له مطعمه. وله كهفه الذي يضمّ الخمر الفاخر، وله حجراته التي ينزل فيها عيون الزوار. وغوستاف، غوستاف الصموت المنزوي. ولكن الحاذق الأمين، ترك فندق لوتيكا بعد كلّ ذلك العدد الكبير من السنين، ليفتح مقهًى لنفسه في مركز المدينة، في أفضل موضع تجاري بمركز المدينة، فإذا هو الآن منافِسٍ لدود بعد أن كان معاوِنًا أمينًا. قاعات الغناء وقاعات المطالعة المختلفة التي أُقيمت بالمدينة في هذه السنين الأخيرة كما رأينا، لها مقاهيها التي تجتذب عددًا من الزبائن.

إنك لا ترَى الآن في القاعة الكبرَى من الفندق ما كنت تراه فيها في الماضي من حركة ونشاط. وأقلّ من ذلك أيضًا ما تراه في القاعة الخاصة: موظّف من الموظّفين العازبين يتناول طعام غدائه، وبعض الناس يقرأون الجرائد ويشربون القهوة. وبعد الظهر من كلّ يوم، يمرّ بالفندق علي بك باشتش، الرجل الصموت الذي كان الصديق الحميم للوتيكا في شبابها. إنه لا يزال على ما عُهد فيه من قصد واعتدال وتحفّظ في كلماته وفي حركاته. إنه رجل منظَّم محتشم يعنَى بهندامه لكنه قد ثقل الآن وابْيضّ شعره. وهو بسبب داء السُّكّر الذي أصابه منذ سنين، يشرب القهوة بالسكّرين. إنه يدخّن في هدوء، ويصغي إلى أحاديث لوتيكا صامتًا على عادته. حتى إذا جاء موعد انصرافه، نهض هادئًا صامتًا أيضًا، ومضَى إلى بيته في تسرنشتا.

إن جار لوتيكا الثريّ ريتشارد بافلي رانكوفتش، يجيء إلى الفندق كلّ يوم أيضًا. لقد هجر الزيّ الوطني منذ مدة طويلة، وأصبح يرتدي الملابس التي يرتديها سكان المدن، ولم يحتفظ من القديم إلاّ بالطربوش الأحمر المسطّح. إنه يلبس دائمًا قميصًا ذا صدر منشًّى وياقة صلبة وكُمَّيْن مدوّرين يسجِّل عليهما أرقامًا وحساباتٍ موقَّتة في بعض الأحيان. لقد استطاع هذا الرجل أن يحتلّ المنزلة

الأولَى في عالَم التجارة بفيشيغراد منذ مدة طويلة. فمركزه الآن راسخ قويّ، لكنّ حياته لا تخلو من بعض الصعوبات وقلبه لا يخلو من بعض الهموم.

إنه كسائر الرجال المسنِّين الذين ينعمون بشيء من اليسار، قد حيّرته هذه الأزمنة الجديدة بما يتدفّق فيها من أفكار جديدة صخّابة. وبما يُرَى عليها من طُرُز جديدة في الحياة والتفكير والتعبير. إنّ كلّ شيء في رأيه قد صار إلى «سياسة». وهذه السياسة هي بعينها ما يصدّع رأسه ويثير غيظه، وهي بعينها ما يفسد عليه فترة من حياته كان ينبغي أن تكون فترة هدوء ورضًى بعد ذلك العدد الكبير كله من السنين التي قضاها في عمل وتوفير وحرمان. إنه لا يريد أبدًا أن ينفصل وأن ينشَقّ عن أكثريّة مواطنيه، لكنه في الوقت نفسه لا يريد أن يدخل في نزاع مع السلطات، بل يجب أن يعيش معها في سلام دائم، ولو حفاظًا على الشكل. ولكن ذلك أمر صعب يكاد يستحيل تحقيقه. إنه حتى مع أبنائه لا يستطيع أن يتفاهم كما ينبغي التفاهم.

إنّ أبناءه يحيّرونه ولا يستطيع أن يفهمهم، شأنهم في ذلك شأن سائر الشباب (ومع ذلك نرَى كثيرًا من المسنِّين يتبعون الشباب لحاجة أو ضعف). إنه يرَى أنّ هؤلاء الشباب هم بسلوكهم ومواقفهم وجميع أعمالهم أناس عُصاة، فكأنهم يعتقدون بأنّ الحياة والموت في ظلّ الحالة الراهنة غير جائزَين، وأنّ من الأفضل للمرء أن يعيش حياة العصابات في الجبال. إنّ هذه الشبيبة لا تعي ما تقول من كلام، ولا تنظر إلى ما تقوم به من أفعال، ولا تحسب كم تنفق من مال، ولا تنصرف إلى أعمالها الخاصة. إنها تأكل خبزها دون أن تتساءل من أين يأتيها الخبز، وتتكلم وتتكلم وتتكلم، و«تنبح على النجوم»، على حدّ تعبيره في مشاجراته مع أبنائه.

هذه الآراء التي يجيئون بها إلى غير نهاية، وهذه الطريقة في الكلام بعد الكلام على غير قصد واعتدال، وهذه الحياة التي يعيشونها بلا حساب، متمرّدين على الحساب، هذا كله يثير حنقه ويبئسه هو الذي عاش حياته كلها يحسب ويخضع نفسه للحساب.

إنه حين يصغي إليهم وحين ينظر إليهم يحسّ بخوف يستبدّ به، ويتراءَى له أنهم يمسّون في طيش وخفة، أسس الحياة وأعزّ وأقدس شيء عنده. فإذا سألهم شروحًا تقنعه وتهدّئه لم يزيدوا على أن يجيبوه في احتقار واستعلاء، بكلمات

ضخمة: الحرّية، المستقبل، التاريخ، العلم، المجد، العظمة، وهي كلمات مجرّدة إذا سمعها سرَت في جسمه قشعريرة.

وهو في مقابل ذلك يحبّ أن يجلس لحظة وأن يشرب القهوة مع لوتيكا التي يستطيع المرء أن يتحدّث إليها في الأعمال وفي الحوادث معتمدًا على الأرقام الموثوقة التي يقبلها جميع الناس، بعيدًا عن «السياسة» وعن الألفاظ الضخمة التي لا تفسّر شيئًا ولا تقول شيئًا. إنه حين يتكلّم يمسك بقلمه الصغير في أكثر الأحيان (ليس هو ذلك القلم نفسه الذي كان يحمله منذ خمسة وعشرين عامًا، بل هو قلم آخَر يبلغ من الصغر أنه لا يكاد يُرَى، قلم ملتمع كالقلم القديم): فهو يمتحن كلّ ما يقال من كلام بذلك المِحَكّ الصادق لا يخطئ ولا يأتيه الباطل، ألا وهو الأرقام.

إنّ بافلي ولوتيكا يوقظان في أحاديثهما ذكريات مغامرات ماضية أو مزحات قديمة مات أصحابها، حتى إذا فرغا من الحديث، نهض بافلي مقوّس الظهر مهموم البال، واجتاز الشارع متّجهًا إلى حانوته الذي يقع في ساحة السوق، وظلّت لوتيكا وحيدة مع همومها وحساباتها.

لم تكن الأعمال الجارية التي تقوم بها لوتيكا أحسن حالاً من أعمال فندقها. كان المرء خلال السنين الأولَى من الاحتلال يشتري أسهُم أيّ مشروع من المشاريع مطمئنًا إلى أنه وضع المال في محلّه، فما يشغله بعد ذلك إلاّ مقدار الربح الذي يجنيه من هذه الأسهُم. لكنّ لوتيكا كانت في تلك الفترة الأولَى قد فتحت فندقها منذ مدة قصيرة، فلم تكن تملك أيامئذ مقدارًا كافيًا من الأموال المنقولة، ولم يكن لها الاعتماد التي حصلت عليه في ما بعد. حتى إذا ملكت المال والاعتماد، كانت حالة السوق قد تبدّلت. إنّ أزمة من أكبر الأزمات قد أصابت المملكة النمسوية المجرية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وأخذت أوراق لوتيكا تتراقص تراقص الغبار في مهبّ الريح. فكانت لوتيكا تذرف الدموع من شدّة الحنق وهي تقرأ الأسعار الأخيرة التي وصلت إليها الأوراق المالية، في «جريدة فيينا» كلّ أسبوع. إنّ جميع أرباح الفندق، الذي كان أيامئذ يدرّ أرباحًا طيّبة، لا تكفي لسدّ الخسارة الناجمة عن سقوط أسعار جميع السندات عامّة. وأصيبت لوتيكا في تلك الفترة بانهيار عصبي قوي لازمها سنتين كاملتين. كانت في أثناء ذلك كالمجنونة من فرط الألم. تتحدث إلى الناس من

دون أن تصغي إلى ما يقولون ومن دون أن تفكّر في ما تقوله هي نفسها. وتنظر في وجوههم ولكنها لا تراهم، وإنما ترَى في مكان الوجوه تلك الزوايا الصغيرة من «جريدة فيينا» التي تحمل إليها أنباء السعادة أو أنباء الشقاء. وأخذت عندئذ تشتري أوراق اليانصيب، فما دام كلّ شيء مقامرة فلتمضِ في المقامرة إلى النهاية. أصبحت تشتري جميع أوراق اليانصيب الصادرة في جميع البلاد. واستطاعت أن تحصل لنفسها على ربع ورقة من أوراق اليانصيب الأسباني (يانصيب عيد الميلاد) الذي تبلغ جائزته الأولَى 15 مليون بيزتا. فكانت ترتعش اضطرابًا عند كلّ سحب، وتبكي وهي تقرأ قوائم الأرقام الرابحة. وكانت تدعو الله في صلواتها أن تتحقق المعجزة فتفوز بالجائزة الأولَى ولكن ذلك لم يتحقق لها.

كان تسالر، زوج أختها، قد اشترك قبل ذلك بسبع سنين، مع اثنين من الأغنياء المتقاعدين، في تأسيس الشركة التعاونية الحديثة لصناعة الألبان. فساهمت لوتيكا في هذا المشروع بثلاثة أخماس نفقات التأسيس. وكان الشركاء قد عقدوا على المشروع آمالاً كبارًا وقدّروا أنّ النجاح الأول الذي لا بدّ أن يصيبه سيجتذب إليه الرأسماليين من خارج المدينة بل ومن خارج البوسنة كلها. لكنّ أزمة الإلحاق قامت في تلك اللحظة نفسها التي كان المشروع يجتاز فيها مرحلته الانتقالية الحرجة. فزال كلّ أمل في اجتذاب رؤوس أموال جديدة. وبلغت هذه المناطق الواقعة على الحدود من قلّة الثقة بها والركون إليها أن رؤوس الأموال التي سبق أن وظفت في المشروع أخذت تهرب منه. وصفيت الشركة بعد سنتين، فكانت خسارتها الصافية كلّ رأس المال الذي وضعته في المشروع. واضطرت لوتيكا من أجل تغطية العجز أن تبيع أحسن وأضمن ما تملك من أوراق مالية، كأسهم «مصانع البيرة» بساراييفو، وأسهُم شركة «سولفي لصنع الصودا» في بوزلا.

وعدا هذه المصائب وقعت للوتيكا هموم وأحزان عائلية مرتبطة بتلك المصائب. صحيح أنّ إحدى بنات تسالر، وهي إيرين، قد فازت بزواج لم يكن مأمولاً (وقد دفعت لوتيكا البائنة)، لكن ابنته الكبرَى، مينا، قد بارت. كان حظّها مع مَن خطبوها سيّئًا. وأحزنها زواج أختها الصغرَى فإذا هي تتحول قبل الأوان إلى عانس شرسة الطبع، مرّة تجعل الحياة في البيت وتجعل العمل في الفندق أشدّ مشقّة وأصعب احتمالاً. وتسالر الذي لم يكن في يوم من الأيام نشيطًا خفيفًا

قد ازداد الآن ثقله وتردده، وأصبح يعيش في البيت كضيف طيّب أخرس. ودوبورا رغم أنها تقدّمت في السنّ ورغم أنها كانت عليلة الجسم، قد ولدت صبيًا، غير أنّ الطفل أشوه لا ينمو. هو الآن في السادسة من عمره، وهو مع ذلك لا يتكلم ولا يستطيع أن يقف على ساقيه. إنه يصدر أصواتًا غامضة ويزحف في البيت على أربع. غير أنّ هذا المخلوق الشقيّ كان فيه من الطِّيبة ما يثير في القلب عاطفة الحنان والشفقة، وكان يهش لخالته التي يحبها أكثر مما يحبّ أمه، ويتسلّق عليها بيدٍ تبلغ من التشنُّج أن لوتيكا، رغم همومها ورغم عملها، كانت تتولّى بنفسها العناية به، وتطعمه وتحممه. وكان قلبها ينقبض أشدّ الانقباض لرؤية هذا الطفل الأشوه كل يوم، حين تتذكّر أنّ سير أعمالها لا يتحسّن، وأنه لم يبقَ معها من المال ما يهيّئ لها أن ترسل الصبي إلى مستشفًى من المستشفيات في فيينا ليعالجه كبار الأطباء، وحين تتذكر أنّ المعجزات لا وجود لها، وأنّ المشلولين لا تشفيهم إرادة الله جزاء أعمال خيّرة، أو استجابة لأدعية البشر.

وأهل غاليسيا الذين كانت لوتيكا تحميهم، الذين دفعت لوتيكا نفقات دراستهم أو زوّجتهم في أيام الرخاء، يسببون لها الآن كثيرًا من الهموم، ويخيّبون ظنّها في كثير من الأحيان. إنّ بعضهم قد أسس أُسرة، ووسع آماله، وحصّل بعض الثراء. وكانت لوتيكا تتلقّى منهم دائمًا التهاني والرسائل المليئة بالاحترام والشكر، كما تتلقّى أنباء أُسَرهم بغير انقطاع. غير أنّ هؤلاء الأفراد من أُسرة آبفلماير الذين أقالتهم من عثراتهم، أو أنفقت على دراستهم، أو كفلت لهم أسباب الاستقرار، كانوا لا يساعدون الأقرباء المعوزين الجدد الذين يولدون ويكبرون في غاليسيا، فإنهم وهم يعيشون في مدن أجنبية، لا يهتمون إلاّ بأنفسهم وبأولادهم، حتى لكأن الجزء الأكبر من نجاحهم إنما كان مردّه إلى أنهم ينسون إلى الأبد، أكبر نسيان ممكن وبأقصَى سرعة ممكنة، تارنوفو ومحيطها الضيق الذي نشأوا فيه ثم أسعفهم الحظ فخرجوا منه. وطبيعي أن لوتيكا أصبحت لا تستطيع أن تستغني عن بعض المال تنجد به مساكين تارنوفو كما كانت تفعل في الماضي. فكانت لوتيكا لا ترقد في فراشها مرّة ولا تنهض من نومها مرّة إلاّ وتراودها هذه الفكرة الأليمة، وهي أنّ أحد ذويها في تارنوفو يغوص في الجهل والشقاء إلى الأبد، يغوص في البؤس الذي تعرفه حق المعرفة، والذي ظلت تحاربه طوال حياتها.

إنّ عددًا ممّن هيأت لهم أسباب الاستقرار قد سببوا لها كثيرًا من الحزن والألم. وخير هؤلاء الذين هيأت لهم أسباب الاستقرار هم الذين ضلّوا الطريق أو زلّت بهم القدم بعد أن حققوا أولَى خطوات نجاحهم وبعثوا في النفس أطيب الآمال. فهذه إحدَى بنات أخواتها، وهي موسيقية موهوبة استطاعت بتشجيع لوتيكا وبمساعدتها أن تتمّ دراستها في كونسرفاتوار فيينا، قد انتحرت بالسُّمّ منذ بضع سنين وهي في أوْج نجاحها الأول، ولم يعرف أحد لماذا انتحرت.

وهذا آلبِرت، أحد أبناء إخواتها، وهو أمل الأسرة وفخر لوتيكا، ينجح في دراسته في المدرسة الثانوية أولاً، وفي الجامعة بعد ذلك، نجاحًا باهرًا، ولكنه لا يفوز بشهادة مَلَكية ولا بوسام إمبراطوري، كما كانت تأمل لوتيكا سرًا، وذلك لأنه يهودي. ولقد كانت لوتيكا تتصور أن يصبح على الأقل محاميًا شهيرًا في فيينا أو في لفوف ما دام لا يستطيع لكونه يهوديًا أن يحقق خير ما تطمع له فيه وهو أن يصبح موظَّفًا كبيرًا، ولكن الفتَى أصابها بخيبة ممضّة. إنّ هذا الدكتور في الحقوق عمل صحافيًا، وأصبح عضوًا في الحزب الاشتراكي، بل أصبح فوق ذلك في الجناح المتطرِّف من هذا الحزب، الجناح الذي تحدّثت عنه الصحف بمناسبة الإضراب العام في فيينا سنة 1906. وقرأت لوتيكا بأم عينها في صحف فيينا بمناسبة حركة التطهير التي أبعدت عن العاصمة العناصر الأجنبية والهدامة، أنّ الدكتور آلبرت آبفلماير، المحرّض اليهودي الشهير، قد طُرد من البلاد بعد أن عوقب بالسجن عشرين يومًا. وكان معنَى هذا في لغة أهل فيشيغراد أنه أصبح «حيدوقًا». وبعد بضعة أشهر تلقّت لوتيكا من عزيزها آلبرت رسالة من بوينس آيرس يقول لها فيها أنه هاجر إلى هناك.

كانت لوتيكا في تلك الأيام الشقية لا تجد في غرفتها الخاصة الصغيرة شيئًا من الهدوء، فها هي ذي تحمل الرسالة بيدها وتمضي إلى أختها وزوج أختها، فترتمي محطَّمة طائشة الصواب على رأس دوبورا التي لا تعرف إلاّ أن تبكي، وتأخذ تقول حانقة: ما الذي سنؤول إليه؟ قولي، ما الذي سنؤول إليه إذا كان لا يعرف أحد كيف ينهض على قدميه ويسير وحده بل يسقط متَى لم تسنديه من ذراعيه؟ ما الذي سيحلّ بنا؟ نحن أناس تلاحقنا اللعنة.. هذا كلّ ما في الأمر.

إنّ دوبورا المسكينة تتنهّد قائلة: «يا رب يا رب يا رب»، وتسكب دموعًا غزيرة، ولا تستطيع طبعًا أن تجيب على سؤال لوتيكا. ولوتيكا نفسها لا تجد

جوابًا، بل تضمّ يديها وترفع عينيها إلى السماء لا دامعتين مذعورتين كعيني دوبورا، بل حانقتين مغتاظتين:

- أصبح اشتراكيًا.. إش..تـ..ـرا..كيًا.. ألا يكفينا أننا يهود؟ أنحن في حاجة إلى هذا أيضًا؟ يا رب يا واحد يا أحد، ماذا صنعت حتى تعاقبني هذا العقاب؟ اشتراكي.. هه..

وانتحبت لوتيكا على آلبرت انتحابها على ميت، ثم لم تتحدث عنه بعد ذلك.

وبعد ثلاث سنين تزوجت إحدَى بنات أخواتها، وهي أخت آلبرت هذا نفسه، تزوجت زواجًا موفقًا جدًا. فتولت لوتيكا أمر تجهيز الفتاة، ولعبت أكبر دور في الأزمة الروحية التي أثارها هذا الزواج في أسرة آبفلماير الكبيرة بتارنوفو، هذه الأسرة التي كان ثراؤها الوحيد هو أبناؤها وتقاليدهم الدينية التي لم تتلطّخ في يوم من الأيام. إنّ الرجل الذي كان على الفتاة أن تتزوجه رجل غني من تجّار البورصة، لكنه كان مسيحيًا كالفينيًا، وقد اشترط للزواج أن تدخل العروس في دينه، فعارض الأبوان في هذا، ولكن لوتيكا التي لم تكن تعنيها إلاّ مصلحة الأسرة كانت تقول إنّ من المستحيل على المرء أن يبحر في الخضم دون أن ينحرف أيّ انحراف، ودون أن يجاري تيارات الرياح أيّ مجاراة، ما دامت السفينة تحمل كل هؤلاء الركاب، وإنّ سلامة المجموع تقضي برَمي جزء من الحمولة في البحر. لقد أيّدت لوتيكا الفتاة، فكانت كلمتها هي القول الفصل. فتنصّرت الفتاة وتزوجت. وكانت لوتيكا تأمل أن تستطيع بمساعدة هذا الصهر، أن تدخل إلى عالم الأعمال في «بيست» واحداً على الأقل من أبناء إخوتها الذين شبّوا عن الطوق. ولكن شاء الحظ أن يموت الصهر الغنيّ منذ السنة الأولَى من الزواج. فإذا بعقل الزوجة الشابّة يضطرب من شدّة الحزن. وانقضت الأشهر بعد الأشهر من دون أن تشفى الزوجة مما أصابها من انصعاق. وها هي ذي سنون أربع تمرّ، والأرملة الشابة لا تزال تقطن في بيست، مستسلمة لحزنها المرَضي الذي ليس إلاّ جنونًا خفيفًا. إنها تذهب إلى المقبرة كلّ يوم، فتجلس قرب قبر زوجها وتأخذ تقرأ له قائمة أسعار البورصة في ذلك اليوم قراءة متأنّية أمينة. فإذا حاول أحدهم أن ينتزعها من هذه العادة وأن يخرجها من هذا الخمول الذي هَوَت إليه، أجابته في رفق وهدوء بأنّ المرحوم كان يحب هذا أكثر من أيّ شيء آخر، وأنّ هذه أعذب موسيقَى عرفها في حياته.

هكذا تجمّعت مصائر مختلفة في هذه الغرفة الصغيرة التي تأوي إليها لوتيكا. وقد شطبت لوتيكا من دفاترها الكثيرة المتنوعة حسابات كثيرة، وديونًا كثيرةً، وأرقامًا كثيرةً، لكن مبدأ العمل لا يزال على حاله الماضية. إنّ لوتيكا متعَبة، لكنها لم تفقد همّتها وشجاعتها. إنّها بعد كلّ خسارة وبعد كلّ إخفاق، تستجمع قواها، وتكزّ أسنانها، وتمضي تستمر في الكفاح. كان كل عملها في السنين الأخيرة دفاعًا، لكنها كانت تخوض معركة الدفاع، وأمام بصرها ذلك الهدف نفسه الذي كانت تستهدفه في الماضي، وكانت تخوض معركة الدفاع بعناد لا يختلف عن عنادها الذي به اغتنت وارتفعت. إنها في فندقها رجل البيت، وهي عند المدينة كلها «العمة لوتيكا»، ولا يزال في المدينة وفي العالم أناس ينتظرون مساعدتها ونصائحها، أو ينتظرون منها كلمة طيبة على الأقل، ولا يخطر ببالهم أن لوتيكا قد تكون متعَبة. ولكنها متعَبة حقًا: متعبة أكثر مما قد يظنّ الناس، ومتعبة أكثر مما تعي هي نفسها.

إنّ الساعة الخشب المعلقة بالجدار تشير إلى الواحدة. فتنهض لوتيكا في عناء وهي تمسك بكليتيها. وتمضي إلى المصباح الأخضر الكبير الموضوع على الطاولة الصغيرة العالية، فتطفئه في عناية، ثم تسير إلى سريرها بخطًى صغيرة، خطَى امرأة عجوز طعنت في السنّ، خطًى تسير بها حين تكون وحيدة في غرفتها قبيل النوم.

ورقدت لوتيكا في فراشها.

وكان ظلام دامس حالك يغمر المدينة النائمة.

الفصل الحادي والعشرون

وجاء عام 1914 هو أيضًا، إنه آخر عام من تاريخ الجسر الذي على نهر درينا. جاء هذا العام كما جاءت قبله جميع الأعوام السابقة تتهادَى بطيئة كأمور هذه الحياة الدنيا، لكنها زاخرة بالصخب الأصم، صخب الأحداث التي تتعاقب وتتحطّم معربدةً كالأمواج، جديدة دائمًا، فريدة دائمًا.

لقد انقضت على المدينة التي قُرب الجسر أعوام كثيرة، وستنقضي عليها أعوام كثيرة أخرَى.. أعوام من كلّ نوع.. ولكن عام 1914 سيظل مميّزًا عن سائر الأعوام، أو هذا هو على الأقل شعور أولئك الذين عاشوه. إنّ هؤلاء يعتقدون، رغم كل ما قيل عن ذلك العام وكل ما كُتب عنه، أنّ أحدًا لن يستطيع أو لن يجرؤ أن يعبّر عن كلّ ما رآه أثناء ذلك العام في قرارة القَدَر الإنساني مما يخبئه الزمان وتخبّئه الأحداث. مَن ذا الذي يستطيع أن يصوِّر (هذا هو رأيهم على الأقل) تلك الارتعاشات الجماعية التي هزّت الكتل البشرية دفعة واحدة، ثم انتقلت من الكائنات الحية إلى الأشياء الجامدة وإلى البلاد والأبنية؟ كيف السبيل إلى وصف الاضطرابات الجماعية التي تتراوح بين ذلك الخوف الأخرس الحيواني وبين جنون الانتحار. بين أحطّ الغرائز الدموية والنهب المستتر وبين أنبل وأقدس التضحيات التي يتجاوز فيها الإنسان نفسه، ويصل بها خلال لحظة من اللحظات إلى آفاق عالية في عوالم ثانية تحكمها قوانين أخرَى؟

هذه الأمور لن يكون ممكناً أن تقال في يوم من الأيام، لأنّ الذي رآها وبقي على قيد الحياة قد فقد القدرة على الكلام، ولأنّ الذين ماتوا لا يستطيعون أن يتكلّموا. هذه أشياء لا يمكن أن تقال.. ولكن يمكن أن تُنسَى.. ولولا أنها تُنسَى، أكان يمكن أن تتكرّر؟

في ذلك الصيف من عام 1914، حين استطاع سادة المصائر البشرية أن يسيروا بالإنسانية الأوروبية من مسرح حق الاقتراع العام إلى ميدان الخدمة

العسكرية الإجبارية الذي مهّدوا له، كانت مدينة فيشيغراد مثلاً متواضعًا، ولكنه بليغ، على أعراض ذلك الداء الذي أصبح بمُضِيّ الزمان أوروبيًا، ثم عالميًا عامًا شاملاً.

كانت تلك الفترة من الزمان تقع على الحدود بين عصرين من تاريخ الإنسانية، وكان الناس يرَوْن نهاية العصر الذي ينتهي رؤية أوضح كثيرًا من رؤيتهم لبداية العصر الذي يبدأ. كان الناس في ذلك الزمان لا يزالون يبحثون عن مبرّر للعنف، وكانوا يجدون لأعمال الوحشية اسمًا من الأسماء يستعيرونه من التراث الروحي الذي خلّفته القرون الماضية. كلّ ما كان يقع، كان لا يزال يحتفظ بمظهر الرفعة ويتصف بجاذبية الجدة، هذه الجاذبية الرهيبة، الزائلة، التي يعجز اللسان عن وصفها، هذه الجاذبية التي بلغت من الزوال في ما بعد أنّ أولئك الذي أحسّوا بها يومئذ إحساسًا قويًا أصبحوا هم أنفسهم لا يستطيعون أن يتذكروها بخيالهم.

على أنّ هذه أمور نذكرها نحن الآن عرَضًا، وسيجيء شعراء العصور المقبلة وعلماؤها فيدرسونها ويؤوّلونها ويبعثونها بوسائل ومناهج لا تخطر ببالنا الآن، يفعلون ذلك كلّه بهدوء وحرّية وجرأة فكرية فوق الذي نملكه نحن من كلّ هذا. ولعلهم يستطيعون عندئذ أن يعللوا تلك السنة الفريدة، وأن يضعوها في مكانها من تاريخ العالَم وتطور الإنسانية. أما في هذا الكتاب فهي عندنا أولاً وقبل كلّ شيء، السنة الحاسمة في تاريخ جسر نهر درينا.

إنّ صيف عام 1914 سيظلّ في ذاكرة أولئك الذين عاشوا هنا كأسطع صيف وأجمل صيف يتذكرونه، لأنه في ضمائرهم يتلألأ ويتوهج وسط أفق ضخم مظلم من الآلام وضروب الشقاء التي تمتدّ على مدَى البصر.

لقد بدأ ذلك الصيف بداية حسنة، بداية أحسن من بدايات كثير من الأعوام التي سبقته. محصول الخوخ وافر لم يعرف مثله منذ سنين، وحقول الحبوب تبشّر بحصاد غزير. إنّ الناس بعد أن قضَوْا زهاء عشر سنوات في انتفاضات وهزات، يأملون الآن، من دون أن يعرفوا لماذا، أن يعيشوا فترة من الهدوء، وأن تعوّضهم هذه السنة الطيّبة في جميع الميادين عمّا أصابهم في السنوات الماضية من خسائر، وعمّا كابدوه من أحزان. لا شكّ أنّ أدعَى جميع أنواع الضعف الإنساني إلى الأسف وأبعثها على الفواجع أنّ الإنسان عاجز تمامًا عن التنبُّؤ،

وهو عجز يتناقض تناقضًا حادًا مع ما أُوتِي الإنسان من مواهب، وما ملَك من معارف، وما أتقن من فنون.

إنه يتفق في بعض الأحيان أن يأتي عام نادر كهذا العام، تتعاون فيه حرارة الشمس ورطوبة الأرض أحسن تعاون، فإذا بِوادي فيشيغراد الواسع تنبض فيه قوّة طافحة وحاجة عامّة إلى الإخصاب، فالأرض تنتفخ وكلّ ما يضمه باطن الأرض من بذور حية يخرج إلى ظاهرها براعم وأوراقًا وأزهارًا، مُضاعَفًا مائة مرّة. إنّ المرء يُحسّ بارتعاشات أنسام الخصب بخارًا دافئًا ضاربًا إلى زرقة، يتصاعد من كلّ أخدود ومن كل حقل. والبقر والماعز يسير مباعدًا قوائمه الخلفية، وقد احتقنت أثداؤه وتورمت فأصبح يمشي مشية ثقيلة. وأسماك النهر التي تنزل في بداية الصيف من كل عام أفواجًا من نهر رزاف لتتناسل عند مصبّه قد بلغت من الكثرة أنّ الأطفال يجمعونها بالدلاء من المواضع غير العميقة ويرمونها إلى الضفة. وحجارة الجسر ذات المسامّ قد ازدادت ليونة، حتى لكأنها حية، فهي تنتفخ بالقوة والغزارة اللتين تنبعان من الأرض وتهومان فوق المدينة كأيام القيظ الفرح التي يتنفس فيها كل شيء تنفسًا أسرع وينبت فيها كلّ شيء أصلب عودًا وأقوَى.

إنّ أمثال هذا الصيف ليست كثيرة في وادي فيشيغراد، ولكن حين يحلّ صيف منها ينسَى الناس جميع الأيام السيّئة، ولا يفكرون في ما قد يقع في المستقبل من ضروب الشقاء، ويعيشون الحياة مضاعفة ثلاث مرات في هذا الوادي الذي واتاه خصب مبارك، فكأنهم جزء من هذه الحركة، حركة الحرارة والرطوبة والنسغ الفائض الطافح.

إنّ الفلاح الذي يجد حجة للشكوَى دائمًا، كان لا بدّ له أن يعترف بأنّ العام قد بدأ بداية طيّبة، ولكنه كان يضيف إلى كل كلمة من كلمات الثناء قوله: «إذا استمرّ الأمر..»، وكان أهل الحي التجاري يهرعون إلى أعمالهم خافضي الرؤوس وينغمسون فيها انغماسًا نشيطًا، كغرق النحل والزنابير في كؤوس الزهر. وكانوا ينتشرون في القُرَى حول المدينة يدفعون للفلاحين سَلَفًا على قمح لا يزال في سنبله، وعلى خوخ لا يزال أزهارًا. ويحار الفلاح أمام تزاحم هؤلاء الزبائن المتكرر على بابه، ويحار أمام هذا المحصول النادر الوفرة حين يقف قرب أشجاره المثمرة التي تنوء منذ الآن بحمل أثمارها، أو حين يقف إلى جانب حقله الذي يتموّج. يحار الفلاح أمام هذا كله، فيسرف في الحذر والتحفظ إزاء هؤلاء

المدنيين الذين تحملوا عناء المجيء إليه، ويكتسي وجهه من ذلك تعبيرًا مهمومًا يشبه التعبير الذي تكتسيه أوْجُه الفلاحين في السنوات العجاف.

على أنّ التجار الأغنياء الأقوياء لا يمضون إلى الفلاحين بل يأتي إليهم الفلاحون. ففي يوم السوق ترَى حانوت بافلي رانكوفتش يعجّ بالفلاحين المحتاجين إلى مال. وكذلك دكان سانتو بابو الذي أصبح منذ مدة طويلة أول «يهود» فيشيغراد (يجب أن نذكر أنه رغم وجود المصارف منذ زمن طويل، ورغم إمكان الحصول منها على قروض برهون، فإنّ الفلاحين والمُسنِّين منهم خاصة لا يزالون يؤثرون أن يقترضوا على الطريقة القديمة من أثرياء المدينة الذين يشترون منهم ما يحتاجون إليه من بضائع والذين كان يقترض منهم آباؤهم منذ القديم).

إنّ مخزن سانتو يُعدّ من أعلَى مخازن الحيّ التجاري بفيشيغراد ومن أقواها. إنه مبنيّ بحجر صلب، وله جدران سميكة، وقد جعلت أرضه من بلاط الحجر، وجعلت أبوابه ومصاريعه من حديد، وزُوّدت نوافذه الضيقة بشبك كثيف من حلقات متلاصقة.

إنّ مقدمة المخزن دكان للبيع على جدرانها رفوف عميقة من الخشب ملئت بالأواني المدهونة، وفي سقفها الذي يبلغ من ارتفاعه أنه يغيب في الظلام بضائع خفيفة. فوانيس من جميع الأحجام، أباريق القهوة التركية، أقفاص، مصائد فئران، وأدوات أخرَى، مما يُستعمَل في تنقية الحبوب. وإلى جانب طاولة النجارة تتكدّس صناديق المسامير والإسمنت، والجبس، وأوانٍ من الصفيح متعددة الألوان، ومعازق ومجارف ومعاول بلا أذرع، قد نظمت في أسلاك من الحديد أطواقًا ثقيلة. وفي الأركان أوعية كبيرة من الحديد الأبيض لزيت الكاز، والدهان، والتربنتين، والورنيش.

غير أنّ القسم الأكبر من البضائع قد خُزّن في مستودع وراء الدكان تفضي إليه فتحة واطئة مجهّزة بباب من حديد، فهناك حيث وضعت البضائع الثقيلة: المدافئ الحديد، وسكك المحاريث، والعتل، والفؤوس، وغير ذلك من الأدوات الضخمة، وقد نُضّدت جميعها أكوامًا عالية بحيث لا يبقَى من البضائع إلاّ ممرّ صغير كأنه ممر بين جدران عالية. وهنا يخيّم ظلام دائم، فلا يمكن الدخول إلاّ بمصباح.

إنّ الجدران الكثيفة والأرض الحجرية وأكداس الحديد تجعل للجوّ في هذا المكان ما للحجر والحديد من برودة قاسية لا يمكن تبديدها ولا يمكن تدفئتها.

إنّ الصبيان المتورّدة خدودهم الذين يعملون في المخزن لا يلبثون أن يستحيلوا بتأثير هذا الجوّ إلى بائعين صامتين شاحبين متورّمين، لكنهم يصبحون في الوقت نفسه أناسًا حاذقين مقتصدين مدَى الحياة. ولا شكّ أنّ هذا الجوّ متعِب ومؤذٍ للأجيال من أصحاب المحلّ أيضًا، لكنه في الوقت نفسه حبيب إلى قلوبهم عزيز عليهم، لأنه مصدر شعورهم بالتملُّك، وينبوع ما يجنون من أرباح، وما يحصّلون من ثراء.

إنّ الرجل الجالس في هذه اللحظة إلى طاولة صغيرة في الدكان البارد المظلم إلى جانب الصندوق الفولاذي (ماركة فرتهايم) لا يُشبه الآن في شيء ذلك السانتو النشيط المرح الذي كان منذ ثلاثين عامًا ليعرف كيف يصيح قائلاً: «كأس روم للأعور». لقد بدّلته الأعوام وبدّله العمل في المخزن. إنه الآن ثقيل، ربل، أصفر الوجه، حول عينيه دوائر قاتمة تهبط حتى وسط خديه، قد انخفض بصره، وأصبح لعينيه السوداوين المتباعدتين اللتين تنظران من وراء نظارتين عدستاهما سميكتان وإطارهما من معدن، أصبح لعينيه هاتين تعبير عن الوجل والقسوة. ولا يزال يضع على رأسه طربوشًا أحمر بلون الكرز هو آخر ما احتفظ به من زيّه التركي القديم. إنّ أباه منتو بابو، وهو عجوز قصير تجاوز الثمانين من عمره، لا يزال محتفظًا بجَلَده وقوّته، غير أنّ بصره قد خانه وهو يجيء إلى المخزن في الأيام التي تسطع فيها الشمس، فيجلس في الدكان ينظر بعينيه الدامعتين اللتين يتراءَى للمرء أنهما توشكان أن تذوبا وراء النظارتين السميكتين، ينظر إلى ابنه الجالس قرب الصندوق الحديد، وإلى حفيده الجالس إلى البسطة، ويستنشق هواء المخزن، ثم يعود أدراجه بخطًى بطيئة مستندًا بيده اليمنَى إلى كتف حفيده البالغ من العمر عشر سنوات.

إنّ لسانتو ستّ بنات وخمسة أبناء تزوّج أكثرهم. حتى إنّ ابنه الأكبر رافو، قد أصبح له أولاد كبار، وهو يساعد أباه في المخزن. وإنّ أحد أبناء رافو، وهو مسمّى باسم جدّه، قد أصبح تلميذًا في مدرسة سارايفو الثانوية. إنه فتًى شاحب الوجه، حسير البصر، نحيل الجسم، كان ينشد قصائد زماي[1] أحسن إنشاد منذ

(1) يوفان يوفانوفتش زماي (1830–1904)، شاعر وطني صربي مشهور، نظم الشعر في جميع الأغراض. وقصائده يعرفها الأطفال خاصة (المترجم).

السنة الثامنة من عمره في السهرات الترفيهية بمدرسته. لكنه في ما عدا ذلك ليس بالتلميذ الناجح، وهو لا يحب أن يذهب إلى الكنيس ولا أن يساعد أباه أثناء عطلة الصيف. ويقول إنه سيعمل ممثلاً، أو سيصبح شهيرًا بأي طريقة أخرَى خارقة.

إنّ سانتو مُكبّ على دفتر حساباته الكبير، القذر، المتدهّن، ذي السجلّ الأبجدي، وإلى جانبه يقبع على صندوق فارغ من صناديق المسامير فلاح من أوزافيتشا اسمه إيبرو تشيمالوفتش. إن سانتو يحسب مقدار الدَّيْن الذي له على إيبرو، والمبلغ الذي يمكن أن يقرضه إياه أيضًا، وشروط القرض الجديد. إنه يعُدّ باللغة الإسبانية هامسًا:

- شنكونتا، شنكونتا اي أوكو، سنتا اي ترس..

والفلاح ينظر إليه نظرة متفرّسة مهمومة، كأن الأمر أمر سحر لا أمر حساب يعرفه أدقّ معرفة ويحلم به في نومه. حتى إذا فرغ سانتو من عمليات الجمع التي قام بها، وذكر للفلاح مجموع ما عليه من دَين ومقدار الفوائد المضافة إليه صاح الفلاح يسأله:

- أهذا هو تمامًا؟

وقد ألقَى الفلاح هذا السؤال لا لشيء إلاّ ليتّسع وقته للمقارنة بين الحساب الذي أجراه هو وبين الحساب الذي أجراه سانتو.

فأجابه سانتو بتلك العبارة المعتادة التي يستعملها دائمًا في مثل هذه الظروف:

- تمامًا يا إيبراجا، ولا شيء غير ذلك.

وبعد أن أقرّ الرجلان الدَين وُدّيًا على هذا النحو، كان على الفلاح أن يطلب قرضًا جديدًا، وكان على سانتو أن يذكر إمكانيّاته وشروطه. غير أنّ هذا الأمر لا يتمّ بسهولة وسرعة. إنّ حديثًا طويلاً يقوم بين الرجلين، حديث يشبه حتى في أدقّ تفاصيله الأحاديث التي سبق أن دارت في هذا المكان نفسه، منذ حوالى خمسين عامًا، قبيل الحصاد أيضًا، بين والد إيبرو هذا وبين منتو والد سانتو. إنّ الموضوع الحقيقي الأساسي الذي يجب أن يدور عليه الحديث لا بدّ أن يصحب بطوفان من كلام لا يعني في ذاته شيئًا، وإنما يبدو من نافل القول، ولا يكاد يكون له معنى، كلام إن سمعه شخص غير خبير اضطرّ إلى الاعتقاد في أكثر الأحوال بأنّ الحديث لا شأن له باقتراض مبلغ من المال، أو هذا ما يحسبه المرء في بعض اللحظات.

- موسم الخوخ عظيم هذا العام.. إنّ محصول الثمار وافر هنا أكثر من أيّ منطقة أخرَى.. عام لم نعرف مثله منذ مدّة طويلة.

- الحمد لله.. أظنّ أنّ المحصول لن يكون رديئًا هذا العام.. ستتوفّر الثمار وسيتوفّر الخير إن شاء الله.

قال الفلاح ذلك، ثم أضاف وقد لاح في وجهه الهمّ وأخذ يحكّ بسبّابته خياطة سرواله المصنوع من قطن سميك أخضر، وينظر إلى سانتو من تحت:

- ولكن من يدري كم يكون الثمن؟

- لا نستطيع أن نعرف الثمن الآن، وإنما نعرف حين تجيء بالغلال إلى فيشيغراد. وأنت تعرف القول المأثور: الثمن في قبضة صاحب الرزق.

فقال الفلاح في تحفّظ:

- نعم، هذا إذا سلّم الله إلى النهاية.

- طبعًا.. وهل يستطيع الإنسان أن ينال شيئًا وأن يجنيَ شيئًا إلاّ بمشيئة الله؟.. إنّ كلّ ما يلقاه الإنسان من عناء في عمله لا يجديه شيئًا إذا لم تحِلّ عليه بَرَكة الله.

قال سانتو ذلك وهو يشير بإصبعه إلى السماء التي تحِلّ منها البَرَكة، السماء التي تقع في مكان ما فوق هذا السقف العالي الذي تتدلّى منه المصابيح الحديد البيضاء ذات الأحجام المختلفة، وتتدلّى منه أشياءُ صغيرة أخرَى مضمومة حُزَمًا.

فقال إيبرو متنهّدًا:

- كلامك صحيح.. كلّ ذلك لا يجدي الإنسان شيئًا.. إنّ الإنسان يغرس ويبذر، ولكن ما لم تتداركه عناية الله كان كمن يرمي كلّ شيء في الماء. أي والله العظيم.. إنّ الإنسان يعزق الأرض، ويقلع الأعشاب، ويقلّم الأشجار، وينقي ويتخير، ولكن لا.. إنه لن يجني من كلّ هذا شيئًا إلاّ إذا كان قد كُتب له ذلك.. حتى إذا أرادت مشيئة الله أن يجنيَ محصولاً طيّبًا، تدفّق الخير، وأصبح في وُسع المرء أن يسدّد ديونه وأن يستدين من جديد.. على شرط أن يديم عليه صحته.

- ها.. الصحة قبل كل شيء.. لا شيء يعادل الصحة.. هكذا خُلق الإنسان المسكين: إذا أعطيته كلّ شيء وسلبته صحته، كنت كأنك لم تُعطِه شيئًا.

هذا ما قاله سانتو صارفًا الحديث كله إلى هذا الاتجاه.

وأخذ الفلاح يعبّر عن آرائه في الصحّة، وهي آراء عامّة معروفة كآراء سانتو. وبدا في لحظة من اللحظات أنّ الحديث قد غرق في ترديد أمور تافهة مبتذلة. ولكنه ما لبث في لحظة مؤاتية أن عاد إلى حيث بدأ. فأخذ الرجلان يتساومان في أمر القرض الجديد، ومقداره، وفائدته، وأجَله، وطريقة سداده. فتكلّما مدّة طويلة، تارةً في حرارة ونشاط، وتارةً في هدوء ورفق، مع إظهار الهمّ والقلق، ثم انتهيا إلى التفاهم وعقدا الصفقة. عندئذ نهض سانتو فأخرج من جيبه مفاتيح مربوطة بسلسلة، ففتح الصندوق الحديد بأحدها من دون أن يحلّه. إنّ الصندوق الحديد يقرقع في أول الأمر، ثم ينفتح ببطء ووقار، حتى إذا انغلق أحدث صوتًا معدنيًا جميلاً كأنه زفرة، شأن سائر الصناديق الحديد الكبرَى.

وأخذ سانتو يعُدّ المال للفلاح قطعة قطعة، بعناية تامّة وانتباه شديد، ووقار تكسوه مسحة من الحزن. حتى إذا فرغ من العدّ، صاح بصوت تبدّل فأصبح أشدّ حرارة وقوّة:

- مضبوط هكذا يا إيبرو؟ أمسرور أنت الآن؟

فقال له إيبرو سادراً، بصوت خافت:

- مضبوط.. شكرًا..

- الله يبارك لك ويوفقك. وإن شاء الله نلتقي في المرة القادمة على خير حال من الصحة والصداقة.

إنّ سانتو يقول الآن هذا الكلام بحرارة تامّة وفرح كامل. وها هو ذا يرسل حفيده إلى المقهَى الواقع أمام دكانه في الجهة الأخرَى من الشارع ليأتيه بفنجانين من القهوة «أحدهما مرّ، والثاني مع سكّر».

إنّ فلاحًا آخر ينتظر دوره أمام الدكان لغرض كهذا الغرض نفسه، ولحسابات من هذا النوع ذاته.

ومع هؤلاء الفلاحين وتنبّؤاتهم عن المحصول والحصاد كانت تنفذ إلى الأعماق المظلمة من دكان سانتو، أنسام دافئة ثقيلة من أنسام عام سخيّ نادر. إنّ هذه الأنسام تغشى الصندوق الحديد الأخضر بالبخار وسانتو يحلّ بإبهامه القميص عن رقبته المبتلّة بالعرق الأصفر اللزج بالدهن، ويمسح بمنديله البخار الذي غشّى نظارته.

هكذا ظهَر فصل الصيف في بدايته.

على أنّ سحابة عابرة من الخوف والحزن قد ألمّت بالمدينة منذ أول هذا

الصيف المبارَك. ففي الأيام الأولَى من الربيع انتشر وباء التيفوس في أوفاتس، وهي بلدة صغيرة تقع على الحدود التركية ـ النمسوية (أي الصربية ـ النمسوية الآن). ولمّا كانت هذه البلدة تقع على الحدود وكانت قد وقعت إصابتان بالتيفوس في ثكنة الدرك نفسها، فإنّ الدكتور بالاك الطبيب العسكري بفيشيغراد، ذهب إليها يحمل الأدوية اللازمة بصحبة ممرّض. والدكتور بالاك رجل حاذق حازم، اتّخذ جميع الإجراءات اللازمة لعزل المرضَى. وراقب معالجتهم بنفسه، لذلك لم يمُت غير اثنين من الأشخاص الخمسة عشر الذين أصيبوا بالمرض. وحصر الوباء في أوفاتس، وقُضِي عليه في مهده.

وكان آخر مَن أصابه المرض هو الدكتور بالاك نفسه.. لا يدري أحد كيف انتقلت إليه العدوَى، ولم يطُل مرضه مدة طويلة، بل مات فجأة بمضاعفات لم تكن متوقَّعة، وكان ذلك كلّه يحمل طابع فاجعة نادرة.

وخوفًا من العدوَى، دُفن الطبيب الشاب في بلدة أوفاتس نفسها. وشهدت السيدة باور الدفن، كما شهده زوجها وعدد من الضباط. ودفعت مبلغًا من المال ليقام على قبر الطبيب نُصب من حجر نُحت نحتًا غير دقيق. وما لبثت السيدة باور أن تركت المدينة، وتركت زوجها. وقيل في فيشيغراد يومئذ إنها ذهبت إلى مصحّ (ساناتوريوم) قرب فيينا، أو هذا ما أخذت تتهامس به صبايا المدينة، لأنّ مَن هم أكبر سنًا لم يلبثوا أن نسَوْا الطبيب وزوجة الكولونيل منذ زال خطر العدوَى وزالت الإجراءات التي اتُّخذت للحيلولة دون انتشار الوباء. وكانت بناتنا اللواتي لا خبرة لهنّ ولا ثقافة، لا يعرفن على وجه الدقّة ماذا تعنيه كلمة مصحّ (ساناتوريوم)، ولكنهن يعرفن حقّ المعرفة ماذا يعنيه تنزّه شخصين في ثنايا الجبل ومنحدراته، كما كان يفعل الطبيب وزوجة الكولونيل قبل مدّة قصيرة. وكان يحلو لهنّ حين ينطقن بهذه الكلمة الأجنبية (ساناتوريوم) في الأحاديث المبتسرة التي يدونها على هذين الشخصين الشقيين، كان يحلو لهنّ أن يتصوّرن هذا الذي يسمّى (ساناتوريوم) على أنه مكان سرّي بعيد حزين تكفّر فيه النساء الجميلات الآثمات عن حبّهن الحرام.

وفوق الحقول وعلى الذُرى، حول المدينة، كان هذا الصيف النادر الغِنى والسطوع ينمو وينضج. إنّ نوافذ النادي العسكري التي تطل على النهر قرب الجسر مضاءة في الماء مفتوحة على مصاريعها، كما كانت في الصيف الماضي،

ولكن لا تخرج منها الآن أصوات عزف على الكمان والبيانو. والكولونيل باور جالس إلى مائدته وسط عدد من الضباط المتقدّمين في السنّ، طيّبًا مبتسمًا، ينضح جسمه بالعرق بتأثير الحرّ المرهِق والنبيذ الأحمر.

وعلى الكابيا، في الليل القائظ، يجلس شباب المدينة ويغنون. إنّ نهاية حزيران (يونيو) تقترب، والشباب ينتظرون عودة تلاميذ المدارس الثانوية وطلاب الجامعات كما ينتظرونها في كل صيف من الأصياف. إنّ المرء يشعر على الكابيا في مثل هذه الليالي أنّ الزمان قد توقّف، بينما الحياة تجري زاخرة بالنشاط، غنيّة لا نهائية سهلة، لا يحب المرء أن يتنبّأ كم من الزمن ستدوم على هذه الحال.

والشوارع الرئيسية في مثل هذه الساعة مضاءة، لأنّ المدينة أصبحت تُنار بالكهرباء منذ الربيع، فمنذ سنة بُنيَت عند ضفة النهر على مسافة كيلومترين من المدينة منشرة كهربائية، وأقيم إلى جانبها مصنع يحول شرائح أخشاب الراتينج، فيستخرج منها التربنتين وينتج في الوقت نفسه الكولوفان. وقد تعاقدت البلدية مع هذا المصنع على أن تنير محطته الكهربائية شوارع المدينة أيضًا. وبذلك اختفت الفوانيس الخضراء التي تشتعل مصابيحها بزيت القار كما اختفى فرحات الطويل الذي كان يتظللها ويشعلها. إنّ الشارع الرئيسي الذي يمتدّ على طول المدينة من الجسر إلى الحيّ الجديد مضاء بمصابيح كبيرة من زجاج غير شفاف، بينما الشوارع الثانوية التي تتفرع عنه يسرة ويمنة وتتعرج حول بيكافاتس أو تصعد إلى الميدان أو إلى أوكولشته، مضاءة بمصابيح صغيرة عادية. وبين هذه الصفوف المنتظمة من الأنوار، تمتدّ مسافات غير منتظمة من الظلّ. إنها أفنية البيوت والحدائق الكبيرة التي تتدرج على المنحدرات.

ففي إحدَى هذه الحدائق تجلس الآن زوركا، المعلّمة، ونيقولا غلاستنشانين.

إنّ الخلاف الذي شجر بينهما في السنة المنصرمة حين ظهر ستيكوفتش أيام عطلة الصيف، قد استمرّ مدة طويلة وظلّ قائمًا إلى مطلع السنة الجديدة. وعند مطلع السنة الجديدة بدأت تجري في النادي الصربي الاستعدادات التي يجري مثلها في كلّ شتاء للاحتفال بعيد القديس سافا[1] بإقامة حفلة موسيقية وتقديم

---

(1) أسس المطران سافا الكنيسة الصربية المستقلّة عن بيزنطية في القرن 18، وعيد القديس سافا هو للصربيين عيد وطني وديني، يحتفل به خاصة في المؤسسات التعليمية. (المترجم).

مسرحية. لقد اشتركت زوركا واشترك غلاسنتشانين في هذه الاستعدادات، وتحدث كلٌّ منهما مع الآخر، لأول مرة منذ الصيف الماضي، أثناء العودة من تلك الاستعدادات. كانت أحاديثهما تجري في أول الأمر موجزة متحفِّظة متعالية. لكنهما لم ينقطعا عن الالتقاء والكلام، لأنّ الشباب يؤثرون مشاجرات الحب مهما تكن مُرّة ومهما تكن يائسة على العزلة وعلى الضجر في حياة لا لهو فيها ولا خواطر حُب. وكان من شأن هذه المشاجرات الطويلة التي لا تنتهي، أن تصالح الشابان دون أن يعرفا متى تصالحا ولا كيف تصالحا. إنهما الآن في هذه الليالي الحارة من الصيف يلتقيان باطراد. وإذا كان طيف ستيكوفتش ينبعث بينهما من حين إلى حين، فيثير شجارًا جديدًا، فإنّ هذا الشجار لم يكن يبعد أحدهما عن الآخر، أو يفصله عنه، في حين أنّ كلّ مصالحة جديدة كانت تزيد التقارب بينهما.

إنهما الآن جالسان في الظلام القائظ، على جذع شجرة مقطوعة قديمة من أشجار الجوز، قد راح كلٌّ منهما يتابع مجرَى خواطره، وينظر إلى الأضواء الكبيرة والصغيرة التي تتلألأ في المدينة، تحت، على طول النهر الذي يحدث هديرًا رتيبًا. لقد تكلّم غلاسنتشانين كثيرًا ثم صمت إلى حين. أمّا زوركا فقد ظلت صامتة طوال السهرة، وهي الآن مستمرّة في هذا الصمت الذي لا يجيده إلاّ النساء حين يقلِّبن في أذهانهن هموم الحب وهي عندهن أخطر شأنًا وأشدّ لجاجة من أي شيء آخر في الحياة.

في مثل هذا الوقت من السنة الماضية، حين ظهر ستيكوفتش في المدينة، ظنت زوركا أنّ عالَمًا من السعادة والهناء ينفتح أمامها إلى الأبد، وأنّ جنة لا نهاية لها من الحب تنبسط على مدَى بصرها، جنة لها من الانسجام الكامل بين العواطف والرغبات والأفكار ما للقبلة من عذوبة، ولها ما لحياة الإنسان كلها من طول. غير أنّ هذا الوهم لم يدُم مدة طويلة. ذلك أنّ زوركا رغم قلّة خبرتها ورغم انتشائها من سكرة الحب لم يفُتها أن تلاحظ أنّ فتاها قد اندفع في هواها اندفاعًا مفاجئًا، ثم فترت عاطفته نحوها فتورًا مفاجئًا أيضًا، لأسباب لا تتصل إلاّ به، ولا شأن لها بها، ولا شأن لها بما كانت تُعِدّه أخطر شأنًا وأعظم قيمة منها ومنه على السواء. وحين سافر لم يكد يودّعها. فظلّت فريسة حَيرة شاقة آلمتها أشدّ الألم كجرح عميق خبيء. والرسالة التي بعث بها إليها جاءت تحفة صغيرة من

تُحف الإنشاء والبراعة الأدبية، ولكن كل شيء في هذه الرسالة كان محسوبًا ككلام المحامين، وكان وضاحًا شفافًا كإناء فارغ من زجاج. إنّ ستيكوفتش يتحدث في هذه الرسالة عن حبهما وكأنهما راقدان في قبريهما منذ مائة عام، ميتان مظفران. فلما ردّت على رسالته هذه برسالة منطلقة حارة، كان جوابه عليها بطاقة يقول فيها:

«وسط الهموم والأعمال التي ترهقني من أمري عسرًا وتذهلني عن نفسي، أفكر فيك، وأفكر في ليل فيشيغراد الهادئ، وفي همهمة النهر، وفي شذَى الأعشاب التي لا تُرَى». كان هذا كل ما تضمنته البطاقة.

وعبثًا حاولت زوركا أن تتذكّر همهمة النهر وشذَى الأزهار التي لا تُرَى. إنّ هذا كله لا وجود له إلاّ في بطاقته. لعلها نسيت هذا كما نسي هو كل ما عداه مما كان بينهما. وطاش صوابها حين تصورت أنها خُدعت، ثم أخذت تتأسّى بفكرة عجيبة لم تفهمها هي نفسها، فكرة هي أبعد عن الواقع من المعجزات، قالت لنفسها: «صحيح أنه لا يفهم، وأنه مبتعد، فاتر، أناني، ذو نزوات، ولكن ربما كان جميع الأفذاذ كذلك». ومهما يكن من أمر، فإنّ ذلك كله غدا أشبه بالعذاب منه بالحب. إنهما الآن، في انكسار نفسها وفي التصدُّع الذي أصاب أعمق كيانها، ، تحس بأن حمل الحب الذي ولده صاحبها في نفسها أصبح يثقل عليها، ويغيب في ضباب بعيد لا تجرؤ أن تسميه باسمه. ذلك أنّ المرأة المحبة تظلّ تحب حبها ولو تبددت كلّ أوهامها، تظل تحبه كحبها لطفل لم يكتب له أن يولد. وكبحت زوركا جماح عاطفتها في غير قليل من المشقة والألم، فلم تُجِبه على بطاقته، غير أنّ بطاقة أخرَى وصلتها منه بعد فترة طويلة دامت شهرين. إنه يكتب إليها الآن من على جبل عالٍ في سلسلة جبال الألب: «من على ارتفاع ألفَي متر، وبين أناس من بلاد شتّى يتكلمون لغات مختلفة، أتأمل لا نهائية الأفق، وأفكر فيه وفي الصيف الماضي». وكان هذا كافيًا لتفهم الحقيقة، رغم سنّها ورغم قلة خبرتها. لو كتب يقول: «ما أحببتك يومًا، ولست أحبك الآن، ولن أقدر أن أحبك في المستقبل»، لَما كان هذا الكلام أوضح ولا أشدّ إيلامًا. ذلك أنّ الأمر عندها أمر حب، لا أمر ذكريات غامضة أو جبل مرتفع يكتب من عليه، ولا ناس يحيطون به، ولا لغات مختلفة يتكلمها هؤلاء الناس. والحب لا وجود له البتّة في هذه البطاقة.

إنّ زوركا يتيمة، ترعرعت في مدينة فيشيغراد في بيت أناس يمتّون إليها بقُربَى بعيدة. ولكنها أنهت سِني دراستها في دار المعلمات في سارايفو وعُيّنت معلمة بفيشيغراد، فعادت إلى بيت هؤلاء الناس الذين كانوا على شيء من اليسار، ولكنهم أناس بسطاء، ليس يشدّها إليهم شيء.

شحبت زوركا، وضعفت، وانطوت على نفسها. وكانت لا تفضي إلى أحد بما بها. ولم تُجِب على البطاقة التي أرسلها إليها صاحبها مهنّئًا بعيد الميلاد، وهي بطاقة مختَصَرة، فاترة، لا تقلّ عن البطاقتين السابقتين أناقة أسلوب. كانت زوركا تريد أن تكفّر عن خطيئتها وعن عارها بنفسها من دون أن يساعدها أو أن يواسيها أحد. ولكنها ضعيفة، مصعوقة، شابة، جاهلة، ليست بذات خبرة. فها هي ذي تزداد لذلك غوصًا واضطرابًا في هذه الشبكة المُحكَمة من مشاعرها التي تعانيها ورغباتها العنيفة وخواطرها الخاصة، ومن أفعال ستيكوفتش غير المفهومة وغير الإنسانية. ولو أنها استطاعت أن تسأل أحدًا أو أن تطلب النصح من أحد، لروّح ذلك عنها من غير ريب، لكن الخجل يصدها. وكانت من جهة أخرى تحس أنّ المدينة كلها على علم بأمر الخيبة التي لقيتها، وأن نظرات المكر والاستهزاء والشماتة تلتهمها التهامًا حين تجتاز مركز المدينة. لا الناس ولا الكتب ولا شيء يقدر على أن يمدها بتعليل لِما وقع. إنها عاجزة عن أن تفسّر أيّ شيء. لو صحّ أنه لم يحبّها، فعلام كانت إذاً تلك المسرحية كلّها، علام كانت تلك الأحاديث الملتهبة التي وجهها إليها، وتلك الجهود التي بذلها لإقناعها في عطلة الصيف الماضي؟ فيمَ كان إذاً ذلك المشهد الذي مثّله على مقعد المدرسة، وهو مشهد لا يبرره إلاّ الحُبّ ولا يمكن بدون الحب إلاّ أن ينزل إلى حمأة من الذّل لا تُطاق؟ هل يعقل أن يكون ثمة أناس تبلغ بهم الاستهانة بغيرهم وبأنفسهم ألّا يتورّعوا عن عبث كهذا العبث؟ ما الذي يمكن أن يدفع إلى ما وقع إلاّ الحب؟ فإذا لم يكن الأمر كذلك فما معنَى تلك النظرات المُحرقة، وما معنَى تلك الأنفاس الحارّة اللاهثة وتلك القبلات الجامحة المحمومة؟ ما عسَى أن يكون هذا إن لم يكن هو الحُب؟ ولكن لا.. لم يكن ذلك من الحب في شيء. إنّ زوركا تدرك الآن هذه الحقيقة إدراكًا أكمل وأوضح مما تريد. غير أنها لا تستطيع أن تذعن لهذه الحقيقة مدة طويلة إذعانًا صادقًا (ومن ذا الذي أذعن يومًا لمثل هذا إذعانًا كاملاً؟). وكانت النهاية الطبيعية لهذه الألوان من التمزّق النفسي أن راودتها فكرة الموت،

فكرة الموت تكمن دائمًا وراء جميع أحلام السعادة التي نسترسل فيها. أصبحت زوركا تقول لنفسها: يجب أن أموت.. أنزلق من الكابيا إلى النهر كما لو كان ذلك يقع مصادفةً دون أن أترك رسالة لأحد، ودون أن أودّع أحدًا، ودون أن أعترف لأحد.. يجب أن أموت»..

هذا ما كانت تفكر فيه زوركا حين تنام، وحين تستيقظ، وحين تشترك في أيّ حديث من الأحاديث الحارّة، وحين تقنّع وجهها بكلّ ابتسامة من ابتساماتها. كان كل شيء فيها يقول ويردد دائمًا هذا الشيء نفسه: الموت، الموت.. ولكن المرء لا يُقدِم على الموت، وإنما يعيش حاملاً في نفسه هذه الفكرة التي لا تطاق.

وجاءها العزاء أخيرًا من حيث لا تتوقع أن يجيئها. كان ألمها الدفين قد بلغ في عطلة عيد الميلاد ذروته. إنّ هذه الخواطر وهذه الأسئلة التي ليس لها أجوبة تسمم الإنسان وتهدمه أكثر من المرض. ولاحظ جميع الناس تبدّلات أليمة في زوركا وقلقوا عليها، وأخذوا ينصحونها بأن تستشير طبيبًا، نصحها بذلك أقرباؤها ورئيسها (وهو رجل مرح له أولاد كثيرون) وصديقاتها.

كان من المصادفات السعيدة أن جاء موعد التدرب على الحفلة الموسيقية في تلك الفترة نفسها، وأنّ زوركا عادت تكلّم غلاسنتشانين بعد قطيعة دامت أشهرًا طويلة. كان غلاسنتشانين قد تحاشَى حتى الآن أيّ لقاء بها وأيّ حديث معها. ولكن الحماسة الودية التي تخيّم عادة في المدن الصغيرة بمناسبة مثل هذه التسليات الموسيقية والمسرحية التي تتصف بالبساطة ولكنها تتصف أيضًا بالصدق، ثم الليالي النيّرة الطرية التي كان الشابان يعودان فيها إلى بيتيهما، كل ذلك قرّب بينهما بعد أن كانا إلى ذلك الحين متقاطعَين. فأمّا هي فكانت تدفعها إلى هذا التقارب حاجتها إلى التخفف من عذابها، وأما هو فكان يدفعه إليه الحب الذي يغفر بسهولة وينسَى بسهولة متَى كان حبًا صادقًا عميقًا. ولقد كان حبه كذلك.

طبيعي أنّ كلامهما الأول كان فاترًا، حذرًا، ملتبسًا، وأنّ أحاديثهما الأولَى كانت شروحًا طويلة لا مفرّ منها. ومع ذلك فقد خفّف هذا عن الفتاة. كانت تستطيع لأول مرة أن تتحدث إلى مخلوق عن ألمها الدفين الذي كانت تحمرّ منه خجلاً، دون أن تضطر إلى الاعتراف بتفاصيله المخجلة الأليمة. وكان غلاسنتشانين يتكلم في نشاط وإسهاب، بتعابير حارة زاخرة بالصور الحية، مع احتفاظه بكرامته وكبريائه. وكان لا يتحدث عن ستيكوفتش بكلام قارص أكثر مما

يجب. كانت أقواله شبيهة بالأقوال التي سمعناها منه على الكابيا في تلك الليلة المشهورة: أقوال موجَزة، حازمة، لا هوادة فيها، فحواها أنّ ستيكوفتش إنسان أناني، شاذّ بفطرته، عاجز عن أن يحبّ أيّ إنسان كائنًا من كان، وأنه وهو المعذب القلق، سيظل طوال حياته يعذب جميع من سيخدعون به ويقتربون منه. وكان غلاسنتشانين لا يتحدث عن حبه إلاّ قليلاً، ولكن هذا الحب كان يظهر في كل كلماته، وكل نظرة من نظراته، وكل حركة من حركاته. وكانت الفتاة تصغي إليه صامتة في أكثر الأحيان. وكان كل شيء في هذه الأحاديث يرضيها ويعجبها. كانت بعد كلّ حديث من هذه الأحاديث تحسّ بأنّ نفسها تعود إلى سكينتها وتهدأ. إنها الآن، لأول مرة بعد شهور كثيرة، تعرف لحظات من عودة الطمأنينة إلى نفسها المضطربة القلقة، وتستطيع لأول مرة ألّا تُعِدّ نفسها إنسانًا ساقطًا. ذلك أنّ كلمات الفتَى التي تفيض حبّا واحترامًا كانت تبرهن لها على أنها لم تضِع ضياعًا بلا عودة، وأنّ يأسها لم يكن إلاّ وهمًا، كما كان وهمًا حلم الحب الذي راود خيالها في ذلك الصيف. إنّ هذه الأحاديث تحولها عن ذلك العالم المظلم القاتم الذي كانت قد بدأت تغرق فيه، وتردّها إلى الواقع الإنساني الحيّ الذي يشتمل على حلّ وعلى دواء لكل شيء، أو لكلّ شيء تقريبًا.

استمرّت هذه الأحاديث تجري بين الشابّين بعد الاحتفالات بأعياد القديس سافا. وانقضَى الشتاء ثم انقضَى الربيع. إنهما يلتقيان الآن في كلّ يوم. وشفيت الفتاة من سقمها شيئًا بعد شيء، واستردّت قواها، وتحولت ذلك التحوّل السريع الذي هو من خصائص الشباب.

على هذه الحال وافَى ذلك الصيف الخصيب المضطرب. وكان الناس قد اعتادوا أن ينظروا إلى زوركا وغلاسنتشانين نظرتهم إلى شابّين «يتعاشران».

الحقّ أنّ القصص الطويلة التي كان يرويها غلاسنتشانين، والتي كانت الفتاة تصغي إليها في كثير من الانتباه وتلتهمها التهامًا كدواء يشفيها مما بها، أصبحت لا تشوقها الآن كما كانت تشوقها في الماضي. حتى لقد أصبحت ضرورة تبادل النجوَى والاعتراف تثقل على نفسها بعض الأحيان. وأصبحت تتساءل في إشفاق ودهشة صادقة: من أين يأتي هذا التواصل الحميم بينها وبين غلاسنتشانين؟ ولكنها كانت تسيطر على ضجرها وتصغي إليه بانتباه ما وسعها الانتباه، إصغاء إنسان مدين معترف بالجميل، شاعرٍ بما لصاحبه عليه من فضل.

وفي تلك الليلة من ليالي الصيف كان غلاسنتشانين يمسك يدها بيده (وذلك أقصَى حدود جرأته العفيفة)، وكان الدفء الغني الذي يملأ رحاب الليل ينفذ إليه بتلك الملامسة. كان في مثل تلك اللحظات يرَى رؤية واضحة ما يختبئ في هذه المرأة من خير، وفي الوقت نفسه يحس بأنّ المرارة والاستياء اللذين كانا يسيطران على حياته يستحيلان إلى قوّى خصبة كافية لأن تمضي باثنين إلى أبعد غاية، إذا كان الحب يجمع بين قلبيهما ويشدّ أزرهما.

إنه الآن وقد امتلأ بهذه العواطف في هذا الظلام الحالك يختلف عن غالاسنتشانين النهار، يختلف عن غلاسنتشانين المستخدم الصغير في مؤسسة تجارية كبرَى بفيشيغراد. إنه الآن رجل آخر قوي واثق من نفسه، ينظم حياته على ما يريد لأمد طويل. ذلك أنّ الذي يشعر بحب صادق كبير خالص منزّه، ولو لم يكن حبًا متبادَلاً، تنبسط أمام بصره آفاق وإمكانيات وطُرق تظلّ مجهولة ومُوصَدة بالنسبة إلى كثير من الحاذقين الطامحين الأنانيين.

وها هو ذا غلاسنتشانين يتحدث إلى المرأة التي إلى جانبه فيقول:

- أظنّ أنني لا أخدع نفسي، على الأقل لأنني لا يمكن أن أخدعك. إنني أتابع الناس وألاحظهم بينما يتكلّم بعضهم ويهذي، وبينما يمضي بعضهم الآخر إلى أعماله ومكاسبه، فاقتنع يومًا بعد يوم ألّا مجال للحياة هنا. خلال مدة طويلة لن يكون ههنا سلام ولا نظام ولا عمل مُجزٍ. ولن يستطيع تبديل هذه الحال لا أمثال ستيكوفتش ولا أمثال كيراك. بالعكس، ستزداد الحال سوءًا على سوء. فيجب على المرء أن يهرب من هذا المكان هربه من منزل آيل إلى السقوط. وما هؤلاء المنقذون الكثر القلقون الذين نراهم في كل خطوة نخطوها إلاّ نذير بأننا على أبواب كارثة محققة. وما دام المرء لا يستطيع أن يدفع البلاء فلا أقل من أن يفرّ منه.

وكانت الفتاة صامتة لا تقول شيئًا.

- الأمر الذي أحب أن أفاتحك فيه الآن، لم يسبق أن حدّثتك عنه، ولكنني فكرت فيه كثيرًا خلال مدة طويلة، حتى لقد أعددت له بعض عدّته. أنت تعلمين أنّ بوغدان ديوروفتش، رفيقي في أوكولشته، يقيم في أميركا منذ ثلاث سنين. إننا نتراسل منذ السنة الماضية، وقد أريتك صورته التي بعث بها إليّ من هناك. إنه يدعوني إليه، ويعدني بعمل مؤكّد ذي أجرٍ مُجْزٍ. أنا أعرف أن وضع هذه الخطة

موضع التنفيذ ليس بالأمر السهل أو البسيط، ولكنني أعتقد أنه ليس بالأمر المستحيل. لقد فكرت في كلّ شيء، وحسبت كلّ شيء. سأبيع كلّ ما أملكه في أوكولشته. فإذا ما وافقت على أن نتزوّج، كان علينا أن نتمّ الزواج بأقصَى سرعة ممكنة، وأن نسافر إلى زغرب دون أن نقول لأحد شيئًا. إنّ في زغرب شركة لترحيل المهاجرين إلى أميركا. قد نمكث هناك شهرًا أو شهرين بانتظار أن يرسل إليّ بوغدان تصريحًا، وفي أثناء ذلك نعمل على تعلّم اللغة الإنجليزية. فإذا لم نستطع الرحيل بسبب الخدمة العسكرية ذهبنا إلى الصرب، وسافرنا من هناك. سأدبر الأمور كلها بحيث لا تلقين من الصعوبات إلاّ أقلّها. وهناك في أميركا سنعمل كلانا. إنّ لنا هناك مدارس تحتاج إلى معلمات. وسأجد عملاً، لأنّ جميع الأعمال هناك مفتوحة الأبواب أمام جميع الناس، لا يعز على أحد أن يصل إليها. سنكون هناك حرّين سعيدين. كل ذلك سأفعله، إذا أنت أردته، إذا أنت وافقت عليه.

قال الفتى ذلك ثم صمت. ولم تُجبه زوركا، لكنها وضعت يديها في يديه. فأحسّ بأنّ هذه الحركة تعبير عن شكر جزيل. غير أنها لم تُجِب بنعم ولا أجابت بلا. وإنما شكرت له هذه الرعاية كلها وهذا الاهتمام كله، وشكرت له هذا النبل الذي لا نهاية له ولا حدود، وطلبت إليه باسم هذا النبل نفسه أن يمهلها شهرًا حتى تعطي جوابها الحاسم. مهلة إلى آخر السنة الدراسية. وقالت له وهي تشدّ على يديه:

- شكرًا نيقولا.. شكرًا.. إنك شهم.

ومن الكابيا يتصاعد إليهما غناء شباب. إنهم فتيان من فيشيغراد. ولعلهم تلاميذ مدرسة سارايفو الثانوية قد وصلوا إلى المدينة. بعد خمسة عشر يومًا سيصل طلاب الجامعات أيضًا.

إنّ زوركا لا تستطيع أن تحزم أمرها وأن تتخذ أيّ قرار قبل ذلك الحين. إنّ كلّ شيء يسبب لها ألمًا، وخاصة نُبل هذا الرجل. ولكنها لا تستطيع في هذه اللحظة أن تقول نعم، ولو قطعت إربًا. إنها لا تأمل في شيء، ولكنها تريد أن ترَى مرّة أخرَى ذلك «الرجل العاجز عن الحب». مرة أخرَى، ثم فليكن ما يكون. وسينتظرها نيقولا، إنها تعرف ذلك.

ونهض الشابان يمسك كلٌّ منهما بيد الآخر، وسارا في الطريق المنحدر هابطَين نحو الرابية التي يصل منها الغناء.

الفصل الثاني والعشرون

نظمت الجمعيات الصربية احتفالاً في الهواء الطلق بميزالين، بمناسبة عيد القديس غي (فيدوف ران) كما تفعل في كلّ عام. فهناك عند ملتقَى نهري درينا ورزاف، تحت أشجار الجوز الكثيفة الملتفّة، على الضفة الخضراء المرتفعة، نصبت الخيام التي يباع فيها الشراب وتُشوَى فيها الخراف (يُجعَل الخروف في سُفود يدار على نار هادئة). إنّ الأُسَر التي جاءت بطعامها تجلس في الظلّ. وهذه موسيقَى صاخبة تدوّي أصواتها فوق مهاد طريّ من أوراق الأشجار.

وفي رحبة عارية مهّدت أرضها، تدور قصة الكولو منذ الصباح. إنّ الذين يرقصون هم الشباب والمتعطلون.. أولئك الذين ما إن انتهت الصلاة حتى مضَوْا من الكنيسة رأسًا إلى ميزالين. إنّ الاحتفال الحقيقي ينبغي أن يبدأ بعد الظهر. غير أنّ رقصة الكولو تدور منذ الآن، وتبلغ أوْجَها، فهي الآن أجمل وأرشق مما ستكون بعد الظهر، حين تصل جماهير الناس، فيشارك في الرقص نساء متزوجات وأرامل متعَبات وصبية صغار فتستحيل دائرة الراقصين إلى ضفيرة فرِحة مرِحة ولكنها مقطعة وليس فيها انسجام. إنّ الدائرة الصغيرة التي تضمّ عددًا من الفتيان أكبر من عدد الفتيات، تندفع الآن في الرقص اندفاعًا محمومًا وتطير في دورانها طيرانًا. وكل شيء من حول الراقصين يتحرك ويتموج. الهواء الذي يصطفق على إيقاع الموسيقَى، والتيجان الكثّة من قمم الأشجار، والغمائم البيضاء التي تُرَى في الصيف، والأمواه الصافية التي تترقرق في النهرين. إنّ الأرض لَتتحرَّك من تحتهم وحولهم، وليس عليهم إلاّ أن يوفقوا بين حركاتهم وبين هذه الحركة العامة الشاملة. ويصل من الطريق شباب جدد. يصلون راكضين لينضموا إلى الحلقة على الفور. أمّا البنات فيحبسن أنفسهن عن الانضمام إلى الدائرة لحظة من الوقت، ويقفن ينظرن إلى الرقص كأنهن يقِسنَ إيقاعه وينتظرن اندفاعة خفية. ثم إذا بهن يندفعن إلى الحلقة على حين فجأة، وقد انثنت رُكَبُهنّ

وانخفضت رؤوسهنّ، فِعل من يُلقي بنفسه في الماء البارد مسرعًا. إنّ تيارًا قويًا ينتقل من الأرض الدافئة إلى الأقدام المنطلقة، ويسري إلى سلسلة الأيدي المتماسكة الملتهبة. إنّ السلسلة ترتعش بالرقص ارتعاش جسم واحد بحركة دم واحد ويحمله إيقاع واحد. الشباب يرقصون وقد دفعوا رؤوسهم إلى الوراء، وشحبت وجوههم، واهتزت أنوفهم، والبنات يرقصن وقد احمرّت خدودهن وانخفضت أعينهن على خجل، مخافة أن تفضح نظراتهن اللّذة التي يشيعها الرقص فيهن.

وما كاد الاحتفال يبدأ بعد الظهر حتى ظهر عند حافة سفح ميزالين رجال يرتدون ملابسهم الرسمية السوداء، وتلتمع زيناتهم وأسيافهم في أشعة الشمس الساطعة.

إنّ عددهم أكبر من العدد المعهود في الدوريات العادية التي تتجول في أسواق المواسم وتطوف في أرجاء الريف. وها هم يشقّون طريقهم قُدُمًا إلى مهاد الخضرة الذي كان يجلس عليه الموسيقيون. وها هي ذي الآلات الموسيقية تسكت واحدة بعد أخرَى. وتتردد حلقة الرقص، ثم تقف. وتُسمع أصوات استياء واستنكار من الشباب. إنهم لا يزالون متماسكين بالأيدي، وقد بلغ بعضهم من شدّة الاندفاع مع الحركة ومن فرط الامتلاء بالإيقاع أنه ظلّ يرقص وهو في مكانه رقصًا مصغّرًا، بانتظار أن يستأنف الموسيقيون عزفهم. ولكن الموسيقيين لم يلبثوا أن نهضوا مسرعين، وراحوا يدسون أبواقهم وكمنجاتهم في أكياسها المشمّعة. ومضَى رجال الدرك نحو الخيام والأُسَر المتفرقة فوق العشب. كان الرقيب يقول كلمته المذهلة بصوت منخفض حيثما ذهب، فكانت هذه الكلمة تطفئ المرح فورًا، وتُوقِف الرقص، وتقطع الأحاديث كأنها سحر. فكلما اقترب من شخص من الأشخاص تغير وضع هذا الشخص، وعدل عما كان بسبيله، وحاول أن يلُمّ أشياءه بأقصَى سرعة، ورحل. وتفرقت دائرة الراقصين والراقصات آخر مَن تفرّق. لم يكونوا يريدون أن يتركوا رقصهم وسط الخضرة التي تحيط بهم من كلّ صوب، ولا استطاعوا أن يتصوروا أنّ مرحهم ومسراتهم هذه قد انتهت حقًا. ولكن أشد الناس ضراوة كانوا لا يملكون إلاّ أن يتراجعوا أمام الوجه الممتقع والعينين المحتقنتين بالدم، وجه رقيب الدرك وعينيه.

وعاد الناس من ميزالين خائبين حائرين، وسالكين إلى المدينة الطريق الطويل

الواسع، فكانوا كلما أوغلوا في المدينة ازداد ما يسمعونه من همس مذعور مضطرب عن حادث الاغتيال الذي وقع هذا الصباح في سارايفو، وعن مقتل الأرشيدوق فرانسوا فرديناند وزوجته، وعما نظّمته السلطات من مُلاحقة للصربيين الذين تترقبهم في كلّ جهة من الجهات. فلما وصلوا إلى مقرّ القيادة العامة رأوْا أوائل الأشخاص الموثَقين يُقادون إلى السجن وبينهم القِسُّ الشابّ ميلان.

هكذا استحال أصيل ذلك اليوم من أيام الصيف، الذي كان ينبغي أن يكون يوم عيد وفرح، استحال جوًا مضطربًا ومرارة وانتظارًا خائفًا وَجِلاً.

وعلى الكابيا حلّ محلّ المرح والنشاط صمتٌ كصمت الموت. لقد وُضعت حراسة على الكابيا منذ الآن. وها هو ذا جندي مدجج بسلاحه الجديد يذهب ويجيء في بطء من الصوفا إلى موضع الغطاء الحديدي الذي يخفي مدخل العمود الملغوم. إنه يسير خطواته الخمس أو الست في غير كلال ولا ملال، فكلما استدار ليغير اتجاه سيره، الْتَمعت حربته في الشمس الْتماعًا ساطعًا.

وفي صباح اليوم التالي ظهر على الجدار فوق المسلّة التي عليها الكتابة التركية، إعلان جديد مطبوع بأحرف كبيرة، ومحاط بإطار أسود عريض، ينبئ الناس بحادث الاغتيال الذي وقع في سارايفو لوليّ العهد، ويستنكر هذه الجريمة. ولكنّ أحدًا لم يتوقف ليقرأ الإعلان، بل كان الناس يمرّون أمامه وأمام الخفير خافضي الرؤوس، يقطعون الجسر بأقصَى سرعة يستطيعونها.

ومنذ ذلك اليوم ظلّ الخفير على الجسر لا يبرحه. وحياة المدينة كلها توقفت منذ ذلك اليوم دفعة واحدة، كرقصة الكولو في ميزالين، ككل ذلك النهار من نهارات حزيران (يونيو) الذي كان يبشر بأنه سيكون عيدًا فرحًا سعيدًا.

الأيام تتعاقب الآن غريبة عجيبة: إنها تنقضي في قراءة الصحف خرساء متوترة، وفي تهامُس، وفي جوّ من الخوف والتحدّي، وفي اعتقال لأشخاص صربيين ولمسافرين مشبوهين، وفي تعزيز متسارع للإجراءات العسكرية على الحدود. إنّ ليالي الصيف تمضي واحدة بعد أخرَى، لكنها الآن خالية من الأغنيات، خالية من اجتماعات الشباب على الكابيا، خالية من همسات الذين يسيرون مثنَى مثنَى في الظلام. والمدينة يُرَى فيها الجنود خاصةً. حتى إذا جاءت الساعة السابعة من المساء، وأخذت أبواق الثكنات الخشب المُقامة على بيكافانس وأبواق الثكنة الكبرَى قُرب الجسر، تدقّ اللحن النمسوي الحزين، لحن

منع التجوّل، خلت الشوارع من المارّة خُلُوًّا يشبه أن يكون تامًا.

إنها لأيام حزينة بالنسبة إلى المحبّين الذين كانوا يريدون أن يلتقوا وأن يتحدثوا دون أن يراهم أحد. وكان غلاسنتشانين يمرّ أمام بيت زوركا كلّ مساء. إنّ زوركا تجلس إلى نافذة مفتوحة في الطابق الأرضي المرتفع. وهناك كانا يتحدثان. إلاّ أنّ الحديث قصير موجَز لأنّ غلاسنتشانين مضطر أن يقطع الجسر وأن يعود إلى أوكولشته قبل أن يخيّم الليل تمامًا.

هكذا جاء غلاسنتشانين في هذا المساء أيضًا. إنه شاحب الوجه، ممسك قبّعته بيده. وطلب إلى الفتاة أن تجيء إلى الباب الكبير، لأنه يريد أن يحدثها في أمر من الأمور بصوت خافت. ونزلت الفتاة مترددة. ووقفت على عتبة الفناء فكانت في مستوَى الشاب. وأخذ الشاب يتحدث منفعلاً، بدمدمة لا تكاد تُسمَع. قال:

- قررنا أن نهرب هذا المساء. فلادو مارتش وشخصان آخران.. أظنّ أنّ كلّ شيء قد رُتّب ترتيبًا مضمونًا، وأننا سنمرّ.. ولكن.. إذا لم يُتَح لنا أن.. إذا وقع شيء.. زوركا؟

وانقطعت تمتمة الفتَى. إنّ عيني زوركا قد اتّسعتا، فهو يرَى فيهما الخوف والارتباك. وكان هو نفسه منفعلاً مضطربًا، كأنما هو نادم على أنه كلمها وعلى أنه جاء يستأذنها.

- قدّرت أن من الأفضل أن أقول لك...

- لا شيء عن.. لا شيء عن أميركا؟

- لا تقولي «لا شيء».. لو أنك وافقت على أن نتزوج، حين عرضت عليك الأمر منذ شهر، فلربما كنا الآن بعيدَين عن هنا. على كلّ حال، عسَى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم. إنك ترَيْن الموقف. يجب أن أرحل مع الرفاق. لقد نشبت الحرب منذ الآن، ومكاننا الآن جميعًا هو الصرب. يجب أن أرحل يا زوركا. يجب أن أرحل، هذا واجب. وإذا بقيت حيًا، وتحررت بلادنا، فقد لا يكون من الضروري عندئذ أن يذهب المرء إلى تلك الأميركا في ما وراء البحار، سيكون لنا من بلادنا أميركا خاصة بنا، سيكون لنا وطن نعمل فيه عملاً كثيرًا، عملاً شريفًا، ونعيش فيه سعداء أحرارًا. وسنستطيع أن نعيش فيه نحن الاثنان معًا، إذا أنت أردت. ذلك رهن بمشيئتك. سوف أفكر فيك، وأنت.. أحيانًا..

هنا أعوزت الكلمات الفتَى، فرفع يده فجأةً، ومرّ بها سريعًا على شعر الفتاة

الكستنائي الغزير، إنها رغبته الكبرَى منذ مدة طويلة، أُتيح له الآن أن يحققها كما يُتاح لمحكوم بالإعدام أن يحقق رغبته قبل الموت. فتراجعت الفتاة مذعورة، وظلّت يده مرفوعةً في الهواء. وأغلق باب الفتاة بلا صرير، وظهرت زوركا بعد لحظة في النافذة شاحبة الوجه، واسعة العينين، مشبكة أصابعها في تشنّج. فمرّ الشاب قرب النافذة ورفع رأسه إلى وراء، فظهر لها وجهه مبتسمًا خاليًا من الهمّ يكاد يكون جميلاً. وكأنما كانت تخشَى أن ترَى ما سيحدث بعد ذلك، فانسحبت إلى غرفتها التي كان الظلام قد اجتاحها. وهناك جلست على فراشها، وخفضت رأسها وأخذت تبكي.

بكت أول الأمر في رفق، ثم أخذ بكاؤها يشتدّ شيئًا بعد شيء، لأنها كانت تشعر بثقل هذا الموقف الذي لا مخرج منه. فكلما أغرقت في البكاء وجدت مزيدًا من الأسباب التي تدعو إلى البكاء، واشتدّ شعورها بأن كل ما حولها يأسٌ قاتم. لا، لن تجد مخرجًا في يوم من الأيام. إنها لن تستطيع أبدًا أن تحب هذا النيقولا الطيب الشريف الذي يُشرف على الرحيل، الحبَّ الذي يستحقه، لا ولن ترَى اليوم الذي يحبها فيه ذلك الإنسان الذي لا يستطيع أن يحب أحدًا. لن تعود تلك الأيام الجميلة الفرحة التي كانت لا تزال تشرق على المدينة في السنة الماضية. ولن يستطيع أحد من رجالنا أن يفلت من هذا السياج من الجبال المُعتمة، ولا أن يرَى أميركا، ولا أن يخلق هنا وطنًا يعمل فيه المرء كثيرًا، كما قيل، ولكن يتمتع فيه بالسعادة. لا، لن يتحقق شيء من هذا في يوم من الأيام.

وفي الغداة راج في المدينة أن فلادو مارتش، وغلاسنتشانين، وعددًا آخر من الشباب هربوا إلى الصرب. وبقي سائر الصربيين مع أُسَرهم وكلّ ما يملكونه، في الوادي الذي يغلي أشدّ الغليان، كأنهم في فخّ. إنّ جوّ الخطر والتهديد يزداد كثافة في المدينة يومًا بعد يوم. وها هي ذي العاصفة تنفجر أخيرًا على الحدود في ذات يوم من أيام شهر تموز (يوليو)، وهي العاصفة التي انتشرت بعد ذلك حتى شملت العالم كله، وألقت بظلالها على مصير عدد كبير من البلاد والمدن، ومصير الجسر الذي على نهر درينا أيضًا.

وعندئذ إنما بدأت ملاحقة الصربيين حقًا، وملاحقة كلّ ما يمُتّ إليهم بسبب من الأسباب. إنّ الوحش الساغب الذي يعيش في الإنسان ولا يجرؤ أن يظهر إلاّ إذا أزيحت حواجز العادات الحسنة والقوانين الطيبة، قد انطلق من عقاله. لقد

أطلقت الإشارة، وأزيحت الحواجز. وكما يقع كثيرًا في تاريخ الإنسانية، أصبحت أعمال العنف والنهب وحتى القتل من الأمور التي يُسكَت عنها وتُباح، شريطة أن تُرتكب باسم مصالح عُليا، وتحت ستار شعارات معيّنة، وأن تنزل على عدد صغير ممن يُسمون أسماء خاصة وينتمون إلى عقيدة معيّنة. إنّ الذين احتفظوا عندئذٍ بصحوة الفكر وظلّت أعينهم مفتحة، استطاعوا أن يشهدوا تحقق تلك المعجزة، وأن يرَوْا مجتمعًا برمّته يتحوّل بين عشيّة وضحاها. ففي خلال بضع لحظات أزيل كل الحيّ التجاري الذي كان يقوم على تقاليد يرجع عهدها إلى قرون، تقاليد إن اشتملت دائمًا على ضروب من الكُره الخبيء والحسد والخرافات والتعصّب الديني والغلظة والقسوة، فقد اشتملت أيضًا على شجاعة وإنسانية ومَيْل إلى الأمان والنظام، وهذه كلها عواطف تحصر تلك الغرائز السيّئة والعادات الفظة الغليظة في بعض الحدود فيمكن احتمالها، ثم تنتهي إلى تهدئتها وإخضاعها للمصالح العامة التي تقتضيها الحياة المشترَكة. إنّ رجالاً كانت لهم الكلمة المسموعة في الحيّ التجاري خلال أربعين عامًا قد انقطعوا عن الوجود في ليلة واحدة، كأنما هم ماتوا جميعًا، وكأنما ماتت معهم العادات والمفاهيم والشرائع التي كانوا يجسّدونها.

فغداة إعلان الحرب على الصرب أخذت عصابة من الشوتسكوربس[1] تطوف المدينة في كلّ اتّجاه. كان الغرض من تشكيل هذه العصابة التي سُلِّحَت على عَجَل أن تساعد السُّلطات في مطاردة الصربيين. إنها مؤلَّفة من غجر وسكيرين وتنابل آخرين، من أناس يعادي أكثرهم المجتمع ويخرج على القوانين. هذا رجل يقال له هوزو كوكوشار، وهو غجري لا شرف له ولا مهنة، وقد تآكل أنفه بتأثير مرض مخجل أصابه في شبابه، ها هو يحتلّ أعلَى الشارع العام في الحيّ التجاري على رأس عشرة من الحفاة سُلِّحوا ببنادق قديمة من طراز فرندل مجهّزة بحراب طويلة.

وإزاء هذا التهديد ذهب بافلي رانكوفتش، بصفته رئيس الاتحاد الصربي المكلّف بإدارة مدرسة الأبرشية، ذهب مع أربعة آخرين من أهل الرأي المرموقين إلى نائب المحافظ، المسمّى سابلياك. إنّ سابلياك هذا رجل بدين، أصفر الوجه،

(1) بالألمانية في النص، ومعناها طابور الحماية.

أصلع تمامًا، من أصل كرواتي، يشغل هذا المنصب منذ مدة قصيرة. إنه عصبيّ، لم يكن قد نال قسطًا كافيًا من النوم، فجفناه محتقنان، وشفتاه جافتان لا دم فيهما، وهو ينتعل حذاء ذا ساقين، وعلى ياقة سترته الخضراء نيشان من لونين، أسود وأصفر. استقبل نائب المحافظ الرجال الأربعة واقفًا، ولم يقدّم لهم مقاعد يجلسون عليها. فشرع بافلي رانكوفتش في الكلام بصوت أصمّ غريب، وقد امتقع لون وجه وأصبحت عيناه أشبه بخطّين أسودين مائلين:

- سيدي المحافظ، إنكم ترَون ما يقع وما يتهيّأ، وتعرفون أننا معشر الصربيين من سكان فيشيغراد لم نرغب في هذا..

- أنا لا أعرف شيئًا يا سيد، ولا أريد أن أعرف شيئًا. ولديّ الآن أعمال أخرَى أخطر شأنًا من الإصغاء إلى أقاويلكم. هذا كل ما عندي من كلام أقوله لكم.

كذلك قاطعه نائب المحافظ بصوت حانق.

فاستأنف بافلي رانكوفتش يقول بهدوء كأنما هو يريد بهدوئه أن يهدّئ هذا الرجل المغتاظ المهتاج:

- لقد جئنا إلى هنا لنعرض عليكم خدماتنا، ولنؤكد لكم..

- ليس بي أي حاجة إلى خدماتكم، وليس عليكم أن تؤكّدوا لي شيئًا. لقد أظهرتم في ساراييفو ما تجيدون القيام به.

فألحّ رانكوفتش يقول بذلك الصوت الهادئ نفسه، وبإصرار ما ينفكّ يزداد:

- إننا نريد في حدود القانون، أن..

- هه!.. الآن تتذكرون القوانين.. ما هي القوانين التي تجرؤون أن تتحدثوا عنها؟

- قوانين الدولة يا سيدي المحافظ.. القوانين التي تنطبق على الجميع.

عندئذٍ اتّخذ المحافظ فجأةً هيئة الوقار، كأنما هو هدأ قليلاً. فانتهز بافلي رانكوفتش هذه اللحظة القصيرة من الهدوء الذي ظهر في وجه الرجل المهتاج فقال:

- سيدي المحافظ، نريد أن نسألك هل نحن وأُسَرنا في أمان على حياتنا وأرزاقنا؟ وإذا لم نكن كذلك فما الذي يجب أن نفعله؟

فمدّ المحافظ عندئذٍ يديه وهو يقلّب راحتيهما نحو رانكوفتش، ورفع كتفيه،

وأغمض عينيه، وعضّ على شفتيه الرقيقتين الشاحبتين عضًّا قويًا.

إنّ بافلي رانكوفتش يعرف حقّ المعرفة هذا التعبير الخاصّ الذي لا يرحم. هذا التعبير الأصم الأبكم الأعمَى الذي يصطنعه رجال الحكومة في اللحظات الخطرة. وسرعان ما أدرك أنّ الحديث مع هذا الرجل لن يخرج منه بعد ذلك شيء.

وعاد المحافظ فخفض ذراعيه، ورفع رأسه، وقال بصوت أرفق قليلاً:

- إنّ السلطات العسكرية هي التي تعيّن لكلّ إنسان ما يجب عليه أن يعمله.

فكان رانكوفتش في هذه المرّة هو الذي باعد ذراعيه، وأغمض جفنيه، ورفع كتفيه، ثم قال بصوت رصين متشوّه:

- شكرًا سيدي المحافظ.

وانحنَى الرجال الأربعة انحناءً متشنّجاً أخرق، وخرجوا من عند المحافظ خروج من حُكم عليه بالإعدام.

إنّ الحيّ التجاري يفور ويغلي، ويزخر بالاجتماعات السرّية.

ففي دكان علي خجا جلس عدد من أعيان أتراك المدينة، نائل بك تفرتكوفتش، وعثمان آغا شابانوفتش، وصولي آغا ميزيلدِتش. إنهم شاحبو الوجوه مهمومون تعبّر وجوههم الساكنة المتجمّدة عمّا تعبّر عنه وجوه الذين سيفقدون شيئًا ما إزاء أحداث مفاجئة وتبدّلات كبيرة. إنهم هم الذين دعتهم السلطات إلى أن يكونوا على رأس الشوتسكوربس.

وقد اجتمعوا الآن هنا، كما لو كان اجتماعهم بمصادفة، ليتفقوا على ما سيعملونه دون أن يلفتوا إليهم نظر أحد. إنّ بعضهم يرَى أن يوافقوا، وبعضهم الآخر يرَى أن يمتنعوا. وكان علي خجا يتكلم مهتاجًا أحمر الوجه متّقد العينين على عادته. فيرفض رفضًا باتًا فكرة أيّ انضمام إلى الشوتسكوربس على أيّ حال من الأحوال وكان يصبّ غضبه خاصة على نائل بك الذي كان من رأيه أن يكونوا على رأس قطعان من المتطوّعين المسلمين بصفتهم من الوجهاء، فكان علي خجا يقول له:

- أمّا أنا فلن أقحم نفسي في هذه الأمور ما حييت. ولو كان لك ذرّة من عقل لَما أقحمت نفسك في هذه الشؤون أنت أيضًا. ألا ترَى أنّ المسيحيين يستخدموننا في قتالهم وأنّ الطامّة الكبرَى ستقع على رؤوسنا نحن في آخر الأمر؟

وبتلك الفصاحة البليغة المتدفقة التي رأيناها في كلامه يوم ناقش في الماضي

على الكابيا عثمان قره مانليا، كان علي خجا في هذه المرّة يحاول أن يبرهن أنّ الأتراك لن يجنوا خيرًا من أيّ جهة من الجهتين، وأنّ تدخّلهم في هذا الأمر لن يعود عليهم إلاّ بالضرر:

- إنّ أحدًا لا يسألنا شيئا ولا يقيم لنا أيّ وزن منذ مدة طويلة. لقد دخل النمسويون إلى البوسنة، من دون أن يسألنا السلطان ومن دون أن يسألنا الإمبراطور: هل تسمحون بهذا أيها البكوات والسادة الأتراك؟ ثم ثار الصربيون وأهل الجبل الأسود الذين كانوا بالأمس عبيدًا لنا، فاستولَوْا على نصف الأملاك التركية، فلم يتفضّل أحد حتى بالنظر إلينا. والآن يضرب الإمبراطور الصربيين، دون أن يسألنا أحد رأينا، وإنما يعطوننا عددًا من البنادق والسراويل، ويريدون أن نكون للنمسويين ككلاب الصيد، تطارد الصربيين حتى لا تتمزق سراويل النمسويين وهم يتسلقون جبل شارجان. ولكن كيف لا يخطر ببالك أيها المسكين أن تتساءل: لماذا يطوقونك الآن بهذه الخطوة التي تحطّم أضلاعك في حين أنهم ظلّوا سنين طويلة لا يسألونك شيئًا في الخطير من الأمور؟ إنها يا صاحبي حسابات بارعة، والحصيف من لا يتدخّل في الأمر أكثر مما ينبغي. لقد أخذ الناس هنا على الحدود يبقر بعضهم بطون بعض، ولكن من ذا الذي يعلم إلى أين سيؤدي هذا كله. لا شكّ أنّ هناك أحدًا يختبئ وراء بلاد الصرب هذه. لا يمكن أن يكون الأمر غير هذا. ولكنك من مكانك على نافذة بيتك في نيزوكه لا ترَى أمامك إلاّ جبلاً، ولا يمتدّ بصرك إلى أبعد من هذه الكومة من الأحجار. دعك مما شرعت فيه، ولا تذهب إلى الشوتسكوربس. ولا تدفع غيرك إلى الالتحاق به. خير لك أن تستغلّ العبيد العشرة الذين بقَوْا لك، إلى أن يعطوا شيئًا.

كان جميع المستمعين صامتين ساكنين متجهّمين. كان نائل بك صامتًا أيضًا. كان واضحًا أن كلام علي خجا يجرحه رغم أنه يحاول أن يخفي ذلك. كان شاحبًا كأنه ميت، يدير في رأسه قرارًا عزم عليه أمره. إنّ علي خجا قد هزّ مستمعيه جميعًا عدا نائل بك، هزّهم وثبّط عزيمتهم. إنهم الآن يدخّنون وينظرون صامتين إلى هذه القوافل التي لا تنقطع، قوافل العربات والخيول المحمّلة التي تجتاز الجسر. ثم نهضوا واحدًا بعد آخر مستأذنين بالانصراف.

إنّ نائل بك آخِر من نهض. وجوابًا على تحياته المظلمة، نظر علي خجا في عينيه مرة أخرَى، وقال له بلهجة تشبه أن تكون حزينة:

- أرَى أنك عازم على الذهاب. إنه يغريك أن تعرّض حياتك للخطر. إنك تخشَى أن يتفوّق عليك الغجر. ولكنني أطلب إليك أن تتذكر ما كان يقوله الشيوخ منذ زمان طويل: ليس هذا أوان الموت، بل أوان برهان المرء على قيمته. نعم هذا أوان برهانك على قيمتك.

إنّ ساحة السوق التي تفصل دكان علي خجا عن الجسر مزدحمة بالعربات والخيول والجنود من جميع الأنواع، وبرجال الاحتياط الذين يجيئون إلى الشرطة لإيداع تصاريحهم. ومن حين إلى حين يصل رجال من الدرك يسوقون جماعة من الصربيين الموثقين من الفلاحين أو من سكان المدن. إنّ الهواء مليء بالغبار. والناس يتكلمون بصوت أعلَى مما تقتضيه أحاديثهم، وينتقلون بسرعة أكبر مما تحتاج إليه أعمالهم. إنّ وجوههم المحمرّة يسيل منها العرق غزيرًا، والشتائم والسباب تدوّي في الفضاء بجميع اللغات. إنّ الخمرة والأرق وهذا الاضطراب الأليم الذي يستولي على الناس دائمًا عند اقتراب خطر وعند وقوع أحداث دامية، إنّ هذا كله يجعل أعين جميع الناس في توهّج واتّقاد.

وفي وسط الساحة أمام الجسر رأسًا أخذ عدد من جنود الاحتياط المجريين الذين يرتدون ملابس عسكرية جديدة، أخذوا يقلمون بعض جذوع الأشجار. المطارق تطرق سريعة، والمناشير تنشر. ويجري في الساحة همس يقول: إنهم بسبيل نصب مشنقة. وحول الجنود تجمّع الصبية. إنّ علي خجا جالس في دكانه. ها هو ذا يرَى الجنود ينصبون أولاً جذعَين قائمَين، ثم يصعد أحد جنود الاحتياط، وهو رجل ذو شاربين كبيرين، فيضم الجذعين القائمين بواسطة جذع ثالث أفقي.

إنّ الناس يتزاحمون على المشنقة تزاحمهم على حلوَى توزع، ويشكلون حولها دائرة من أجسامهم. إنّ أكثر المجتمعين هم من الجنود، غير أنّ بينهم أيضًا عددًا من فقراء الفلاحين الأتراك، ورجالاً من غجر المدينة. وفي لحظة من اللحظات شقّ طريق بين صفوف المحتشدين، وجيء بمنضدة وكرسيين، للضابط وسكرتيره. وعندئذٍ جاء جنود الشوتسكوربس يسوقون في أول الأمر رجلين من الفلاحين، ثم رجلاً من سكان المدن. أمّا الفلاحان فهما عمدتا قريتين من قرى الحدود، بوزدرتشتشو وكامنتسا. وأما المدني فهو رجل يقال له فايو، أصله من بلدة ليكا. إنه مقاول يسكن هذه المدينة منذ مدة طويلة وقد تزوّج فيها. إنّ

الأشخاص الثلاثة مقيدون، مروعون، يغطيهم الغبار. وأخذ الطبل يدقّ دقًا قويًا فكان صوته وسط هذا الغليان العام والاضطراب الشامل أشبه بقصف الرعد في مكان بعيد. وخيم الصمت في الدائرة التي تحيط بالمشنقة. وأخذ الضابط، وهو ملازم من ضباط الاحتياط المجريين، أخذ يقرأ أحكام الإعدام باللغة الألمانية، وأخذ أحد الرقباء يترجم ما يقرأه الضابط.

إنّ المجلس الحربي قد حكم على هؤلاء الثلاثة بالإعدام جميعًا، لأنّ شهودًا شهدوا بعد حلف اليمين بأنهم رأوهم في الليل يعطون إشارات ضوئية إلى جهة الحدود الصربية. وينبغي أن يتمّ الإعدام على مرأى من الناس في الساحة قرب الجسر. كان الفلاحان صامتين، تصطفق أجفانهم كأنهم في حيرة، وكان فايو يمسح العرق عن وجهه، ويؤكد بصوت رقيق حزين أنه بريء. كان يحاول بعينيه المحملقتين المجنونتين أن يبحث عن شخص يستطيع أن يؤكد له أنه بريء.

وإنهم ليهمّون أن ينتقلوا إلى تنفيذ الحكم إذا بجندي أشقر أحمر، قصير متباعد الساقين، يشق لنفسه طريقًا بين الحشد، إنه غوستاف الذي كان في ما مضَى نادلاً «غرسونًا» في فندق لوتيكا، والذي يعمل الآن «قهوجيًا» في القسم الأدنَى من الحيّ التجاري. إنه يرتدي ملابس عسكرية جديدة ويحمل رتبة عريف. كان وجهه قرمزيًا وكانت عيناه محتقنتين بالدم على عهده بل يزيد. وتبع ذلك كلام وأخذ وردّ. حاول الرقيب إبعاده، لكن القهوجي المقاتل أبَى أن يبتعد، وأعول يقول بالألمانية بصوت سكّير:

- أنا هنا عميل مخابرات منذ خمسة أعوام، وموضع ثقة أرفع الأوساط العسكرية. ولقد وعدت بأن أُمَكَّن من شنق اثنين من الصربيين بيدي متى حانت الفرصة. إنكم تجهلون مَن أنا. لقد اكتسبت هذا الحق. وها أنتم الآن..

وجرت في صفوف الحشد دمدمات وهمسات. واحتار الرقيب ماذا يفعل. وزادت حدة غوستاف. إنه يحاول بأيّ ثمن أن يُمَكَّن الرجلين ليتولَّى شنقهما بيديه. وعندئذ نهض الملازم، وهو رجل نحيل أسمر مهيب قد بدا عليه حزن شديد كأنه هو المحكوم عليه بالإعدام، وهرب الدم من وجهه تمامًا، فما كان من غوستاف رغم أنه سكران، إلاّ أن وقف الوقفة العسكرية. غير أنّ شاربيه الدقيقين كانا يرتعشان، وكانت عيناه تدوران تارةً إلى يمين وتارةً إلى شمال. اقترب الضابط من وجه غوستاف القرمزي اقترابًا شديدًا كأنه يريد أن يبصق عليه، وقال:

- إذا لم تنقلع من هنا، لأصدرنّ أمري بأن تُساق إلى الحبس مقيّدًا بالسلاسل. وسوف تمثل أمام المحكمة غدًا على كلّ حال. فهمت؟ والآن.. امش.. امش..

كان الضابط يتكلّم بالألمانية بلهجة مجرية، وكان صوته خافتًا كل الخفوت، غير أنه يبلغ من شِدّة الحزم والحنق أنّ «القهوجي» السكّير لم يلبث أن انحنَى واختفَى بين الحشد وهو يكرر التحية العسكرية بغير انقطاع، ويتمتم بكلمات اعتذار غير مفهومة.

وعاد انتباه الناس ينصبّ مرّة أخرَى على المحكوم عليهم بالإعدام. أمّا الفلاحان وكلاهما ربّ أسرة، فلم يكن وضع أحدهما يختلف عن وضع الآخر أيّ اختلاف. إنهما يرتعدان. وحدّة الشمس والحرارة الخانقة التي تخرج من الحشد الكثيف تجعلان أعينهما تطرف، وحواجبهما تقطب، كأن ذلك كان كل ما يزعجهما ويعذبها. وأما فايو فكان يؤكد بصوت ضعيف شاكٍ أنه بريء، وأنّ منافسه هو الذي شكاه زورًا وبهتانًا، في حين أنه، هو، لم يخدم في الجيش ولا سمع في حياته أنّ في الإمكان نقل إشارات بالضوء.

إنّ فايو يعرف الألمانية قليلاً، فكان يصدر كلماته واحدة بعد أخرَى بصوت يائس، محاولاً أن يجد تعبيرًا مقنعًا قد يوقف هذا التيار الحانق الذي يجرفه منذ أمس ويهدده بانتزاعه من هذا العالم، رغم أنه بريء كل البراءة. كان يقول بالألمانية:

- سيدي الملازم.. ناشدتك الله.. بريء.. أولاد كثيرون.. بريء.. كلها افتراءات.

إنّ فايو يختار كلماته كأنه هو يبحث عن الكلمة الصادقة التي تنقذه.

وكان الجنود قد اقتربوا من الفلاح الأول. فنزع الفلاح عن رأسه طاقية الفراء بسرعة، واتجه ببصره نحو جبل الميدان حيث تقوم الكنيسة، فرسم إشارة الصليب مرّتين في حرارة. ولكن الضابط أمر الجنود بغمزة منه أن ينتهوا أولاً من فايو. فلما رأى الرجل أنّ دوره جاء رفع ذراعيه إلى السماء يائسًا، وأخذ يبتهل ويتضرّع بأعلى صوته:

- لا . . . لا . . . أناشدك الله. . . سيدي الملازم. . . أنت تعلم. . . افتراءات فقط. . . يا رب. . . افتراءات. . .

هكذا راح فايو يصرخ، غير أنّ الجنود كانوا قد أمسكوا بساقيه وجذعيه ورفعوه إلى السدّة التي تحت الجبل.

كان الحشد يتابع هذا كله محتبس الأنفاس، كأنه يشهد لعبًا بين المقاول البائس والضابط الملازم، ويرتعش من شدة تشوقه إلى معرفة أيهما سيكون الرابح وأيهما سيكون الخاسر.

وكان علي خجا إلى ذلك الحين في هذه الدائرة المكونة من الحشد الحافل، فإذا هو فجأة يلمح وجه فايو المذعور مرتفعًا فوق جميع الرؤوس، فما كان منه إلاّ أن أغلق دكانه بوثبة واحدة، ورغم أن السلطات العسكرية كانت قد أصدرت أمرًا قاطعًا بأن تظل جميع الدكاكين مفتوحة.

وظلّت تصل إلى المدينة قطعات جديدة وذخائر ومؤن وتجهيزات، لا بالقطار المرهَق فحسب، بل كذلك من الطريق المارّ بروجاتتسا. إنّ عربات وخيولاً تعبر الجسر ليل نهار، فأول شيء تلقاه عند الخروج من الجسر والدخول إلى المدينة، هو هؤلاء الثلاثة المشنوقين في الساحة. والشوارع المزدحمة تضيق بطوابير الجند، وكل طابور يتلبث مدة من الوقت على الجسر أو في الساحة، قرب المشنقة العالية قمتها في الفضاء.

والرقباء يتنقلون على أحصنتهم بين العربات والخيول المثقلة بالأحمال، وقد غطاهم الغبار، واحمرت وجوههم، وبُحّت أصواتهم من فرط الصراخ والغضب، وراحوا يحركون أيديهم بإيعازات حانقة ساخطة ويشتمون بجميع لغات المملكة النمسوية ـ المجرية جميع الأمور المقدسة من جميع الأديان المعروفة.

بعد ثلاثة أيام أو أربعة، في ساعة مبكرة من الصباح، بينما كانت قوافل عسكرية جديدة تعبر الجسر من جديد، وتسير بطيئة عابرة مركز المدينة الضيق، سُمع في المدينة صفير قويّ حاد غير مألوف، ثم إذا بقذيفة تسقط على إفريز الجسر في وسطه تمامًا أمام الكابيا، فتناثرت شظايا من الحديد وقطع من الحجارة على الخيل والناس، فحدث هرج ومرج وتصادم، وجمحت الخيل، وراحت الأرجل تتسابق في الفرار، فبعضهم هرع إلى الأمام نحو مركز المدينة، وبعضهم أسرع يجري في الاتجاه المقابل راكضًا إلى الطريق الذي منه أتَى. وفي هذه اللحظة نفسها سقطت ثلاث قذائف أيضًا، اثنتان في الماء، وثالثة على الجسر بين الناس والخيل مرّة أخرَى. فما هي إلاّ طرفة عين حتى خلا الجسر،

فما تَرَى فيه الآن إلاّ بقعًا سوداء هي العربات المحطّمة والخيول النافقة والقتلَى.

اندفعت مدفعية الميدان النمسوية تقصف من «صخور يونوكو» البطارية الصربية التي كانت ترسل قذائفها من الجبل، ثم أخذت تضرب بقنابلها القوافل الهاربة المشتتة على جهتَي الجسر.

منذ ذلك اليوم أصبحت مدفعية الميدان المرابطة في بانوس تستهدف الجسر والثكنة التي تقوم قربه. وما هي إلاّ بضعة أيام حتى سُمع عند الصباح دويّ جديد آتٍ من شرق جوليش. إنّ الدويّ هو الآن أبعد، لكنه أعمق. وأخذت القذائف تلعلع فوق المدينة أقوَى وأعنف. إنهما مدفعان يرسلان قذائفهما إلى الجسر. سقطت القذيفة الأولَى في نهر درينا، ثم في الفسحة التي أمام الجسر، فأحدثت تخريبًا في البيوت المجاورة، وفي فندق لوتيكا والنادي العسكري، ثم أخذت القذائف تصوّب إلى الجسر، وإلى الثكنة تصويبًا أدقّ، فتسقط عليهما في فواصل منتظمة، فما انقضت ساعة إلاّ وكانت الثكنة تشتعل. ومات الجنود الذين حاولوا أن يطفئوا نيرانها من بانوس. وأخيرًا تُركت الثكنة وشأنها، فاحترق منها أثناء حرارة النهار كل ما كان فيها خشبًا، وكانت القذائف تسقط على الأنقاض المشتعلة، من حين إلى حين، فتهدم داخل المباني.

هكذا هدم النزل الحجري مرة ثانية، هكذا استحال المنزل الحجري مرة ثانية إلى ركام من حجارة.

وبعد ذلك استمرّ المدفعان يطلقان قذائفهما من غوليش على الجسر، وخاصة على عمود الوسط منه. فكانت القذائف تسقط تارةً في النهر، عن يمين الجسر أو عن شماله، وتارةً على الجسر نفسه، ولكن لم تسقط أية واحدة منها على الغطاء الحديد الذي يخفي الفتحة المؤدية إلى دخل العمود الوسط الذي فيه اللّغم.

واستمرّ القصف عشرة أيام، لكنه لم يحدث في الجسر أضرارًا خطيرة. كانت القذائف تصطدم بالأعمدة الملساء والقناطر المدوّرة، فترتدّ عنها وتنفجر في الهواء دون أن تترك في جدران الجسر من آثار غير خدوش بيضاء لا تكاد تُرَى. وكانت شظايا القنابل تتواثب على الجدران الملساء المتينة كأنها البَرَد. إنّ القذائف التي وقعت على أرض الجسر كانت هي القذائف الوحيدة التي تركت في الجسر بعض الآثار، إذ خلّفت في أرضه حُفَرًا غير عميقة وشقوقًا، لكن هذه الحُفَر وهذه الشقوق لا يمكن أن يراها المرء إلاّ إذا كان يجتاز الجسر.

هكذا أثناء هذه العاصفة الجديدة التي هبّت على المدينة، فقلبت العادات القديمة واجتثّتها وهدمت الكائنات الحية والأشياء الجامدة، ظلّ الجسر ناصع البياض قويًا لا سبيل إلى إيذائه، كما كان كذلك دائمًا.

الفصل الثالث والعشرون

انقطعت كلّ حركة كثيفة فوق الجسر أثناء النهار بسبب القصف المتواصل. إنّ المدنيين يجتازون الجسر أحرارًا طلقاء، بل إنّ بعض العسكريين أيضًا يقطعونه راكضين واحدًا بعد واحد. ولكن متى ظهرت منهم جماعة كبيرة بعض الشيء، أخذت مدافع الشرابنل تطلق قذائفها من جبل بانوس. وبعد بضعة أيام عرف الناس عددًا من القواعد المطردة في هذا المضمار: لاحظوا متى يكون إطلاق النار كثيرًا ومتى يكون قليلاً ومتى ينقطع انقطاعًا تامًا، فأصبحوا يراعون هذه القواعد، فينتقلون ماضين إلى أعمالهم المستعجلة إذا لم يصدهم عن ذلك الخفراء النمسويون.

كانت بطارية بانوس لا تطلق نيرانها إلاّ في النهار، ولكن المدافع كانت تطلق قذائفها في الليل أيضًا، لتمنع حركة القطعات ومرور القوافل من إحدَى جهتَي الجسر إلى الجهة الأخرَى.

والسكان الذين تقع بيوتهم في مركز المدينة قرب الجسر أو قرب الطريق المؤدية إلى المدينة، قد انتقلوا مع أُسَرهم إلى حيّ الميدان أو إلى أحياء أخرَى نائية، ضيوفًا على أقارب أو أصدقاء، ليكونوا في مأمن من القنابل. إنّ هذا الهروب مع الأطفال والمتاع الضروري يذكّر بتلك الليالي المؤلمة التي كان الطوفان الكبير يكتسح فيها المدينة. غير أنّ الطوائف الدينية المختلفة لا تختلط الآن، ولا يجمع بينها شعور التضامن في المحنة المشترَكة. إنّ الناس الآن لا يجتمعون على اختلاف الملل ليلتمسوا في الحديث سندًا يشدّ أزرهم وطمأنينة تشيع الهدوء في قلوبهم كما كانوا يفعلون أيام الطوفان. إنّ الأتراك ذهبوا إلى بيوت تركية، وإنّ الصربيين ذهبوا إلى بيوت صربية منبوذين كأنهم أُصيبوا بالطاعون. على أنّ الناس جميعًا، رغم انقسامهم هذا الانقسام ورغم انفصالهم هذا الانفصال، كانوا يعيشون على نحوٍ واحد تقريبًا. إنهم مكدّسون في بيوت

ليست بيوتهم، لا يعرفون كيف ينفقون الساعات الطويلة، ولا ماذا يصنعون بما في رؤوسهم من أفكار سود مهمومة قلقة. إنهم متعطلون عن العمل، متدلية أذرعتهم كمن ألمّت بهم كارثة، خائفون على حياتهم، قلقون على أرزاقهم، معذبون بآمال ورغبات متناقضة يخفيها كل فريق منهم في صدره ولا يفصح عنها.

وكان المسنّون من الفريقين يحاولون، كما كانوا يفعلون في أيام الفيضانات الكبرَى، أن يسرّوا عمن حولهم بأمازيح وأقاصيص، مصطنعين هدوءًا كاذبًا ورباطة جأش لا وجود لها في قرارة نفوسهم. ولكن كان واضحًا أنّ الأمازيح المصطنعة القديمة لا تجدي في مثل هذا النوع من الشقاء الذي ينزل الآن. لقد زال عن الأقاصيص القديمة لونها، وفقدت النكت العتيقة مذاقها ومعناها. وليس سهلاً إيجاد أقاصيص أخرَى، ولا بدّ لذلك من وقت.

وفي الليل، كان الناس يتظاهرون بالنوم، رغم أنّ أحدًا لا يستطيع أن يغمض جفنيه. وكان الناس يتحدثون همسًا، رغم أن أحدًا لا يعرف ما شأن هذا الاحتراس، بينما تدوّي طلقات المدافع في كل لحظة، المدفع الصربي تارة، والمدفع النمسوي تارة أخرَى. وقد استقرّ الخوف من «إعطاء إشارات ضوئية للعدو»، رغم أنّ أحدًا لا يعرف كيف تُعطَى هذه الإشارات وما معنَى ذلك على وجه الدقّة. غير أنّ الخوف قد بلغ من الشدّة أنّ أحدًا لا يجرؤ على أن يُشعل عود ثقاب. فإذا أراد الرجال أن يدخّنوا حبسوا أنفسهم في حجرات صغيرة محكمة الإغلاق لا نوافذ لها، أو غطوا رؤوسهم بغطاء وراحوا يدخّنون وهم على ذلك الحال. والحرارة الثقيلة مرهِقة، والناس جميعًا يستحمون في العرق، ولكن جميع الأبواب مغلقة وجميع النوافذ موصدة مسدلة ستائرها. إنّ المدينة أشبه بإنسان شقيّ يتلقّى ضربات لا يستطيع أن يدفعها عن نفسه، فهو لذلك وضع يديه على عينيه وأخذ ينتظر. إن جميع البيوت تبدو كأنها موصدة على أموات. ذلك أنّ الذي يريد أن يبقَى حيًا كان لا بدّ من التظاهر بالموت، وحتى هذه الوسيلة لم تكن تجدي نفعًا في جميع الأحوال.

وكان الجوّ في بيوت المسلمين مملوءاً بالحياة وأقرب إلى الارتياح. إنّ هناك كثيرًا من غرائز القتال القديمة، لكن هذه الغرائز قد استيقظت في غير أوانها حائرة مقصوصة الجناح في هذا الصراع الذي يدور فوق رؤوسهم بين خصمين

كلاهما مسيحي. غير أنّ هناك كذلك همومًا كثيرة خبيثة، وأنّ هناك أيضًا مصائب لا يعرفون لها حلاً، ولا يرَوْن منها مخرَجًا.

إنّ في بيت علي خجا القائم تحت القلعة مدرسة برمّتها، فإلى أبنائه، وهم وحدهم كثر، وانضمّ الآن أولاد تسعة هم أبناء موئي آغا موتايدينش الذين ليس بينهم إلاّ ثلاثة كبار، والباقون لا يزالون صغارًا، إذا وقف بعضهم إلى جانب بعض في صفٍّ واحد رأيت كلاً منهم يصل إلى مستوَى الأذن من قامة أخيه. ومن أجل ألا تكون هناك حاجة إلى مراقبتهم وإلى استدعائهم في كلّ لحظة من فناء البيت، حُبسوا جميعًا مع أولاد علي خجا في قاعة كبيرة طرية. فهناك كانوا يصطرعون مع أمهاتهم وأخواتهم في تزاحم وتصادم وصياح.

إنّ موئي آغا موتابديتش هذا الذي ينسب إلى بلدة أوبتسه، كان في الصيف الماضي ساكنًا من سكان تلك البلدة (سنعرف بعد قليل لماذا وكيف). إنه رجل طويل القامة، جاوز الخمسين من عمره، أشيب، أقنَى الأنف، قد حفرت وجهه الغضون، خشن الصوت، عنيف الحركات قويّها. وهو يبدو أكبر سنًا من علي خجا، مع أنه أصغر منه بعشر سنين. إنه يبقَى في البيت مع علي خجا، يدخّن بلا انقطاع، ولا يتكلم إلاّ قليلاً من حين إلى حين، غارقًا في أفكاره التي تظهر خطورتها في وجهه وفي كلّ حركة من حركاته. إنه لا يستقر في مكان واحد. وها هو ذا ينهض، ويمضي إلى الباب، ويأخذ ينظر من الحديقة إلى الروابي المحيطة بالمدينة، من جهتَي النهر، ويظلّ على هذه الحال رافع الرأس يتفرّس بنظراته في الأفق، كأنما هو يرقب سوء الجوّ. وها هوذا علي خجا يلحق به، فهو لا يحب أن يدَعَه وحيدًا، ويحاول دائمًا أن يسرّي عنه وأن يهدِّئ من روعه.

هناك، في الحديقة المنحدرة انحدارًا وعرًا بعض الوعورة، الجميلة الواسعة مع ذلك، تخيّم سكينة الصيف. ثمار الخوخ قد قطعت وفُرشت على الأرض، وأزهار دوّار الشمس تفيض قوة، وحول أوراقها السوداء يدندن النحل. وعلى الأطراف بدأت بعض الأزهار الصغيرة تنعقد بذورًا منذ الآن. إنّ المرء يطِلُّ من هذا المرتفع على المدينة المنبسطة عند ملتقَى النهرين، درينا ورزاف، اللذين يحيطان بها مع سلسلة من الروابي تتفاوت ارتفاعًا وتتنوع أشكالاً. وفي المنخفضات حول المدينة وعلى جنبات الروابي المنحدرة تتعاقب أشرطة منتظمة من حقول الشعير الناضج والذرة الخضراء، والبيوت البيضاء تسطع، والغابات

التي تغطّي الذُرَى تشكّل كتلاً قاتمة. والقصف بالقنابل، وهو هنا معتدل من الجهتين، لا يبدو حين يُسمع من هذا المكان إلاّ كطلقات المدافع التي تُطلَق في أيام الأعياد ابتهاجًا، لأنّ فوقها مساحات كبيرة من الأرض والسماء في سكينة هذا اليوم من أيام الصيف عند الصباح.

وها هوذا لسان موئي آغا تنحلّ عقدته. رغم كلّ ما يعانيه من همٍّ وكرب، فيردّ على الكلمات الطيبة التي يقولها له علي خجا، ويقص عليه قصة حياته، لا لأنّ علي خجا يجهلها، بل لأنه لا بدّ له هنا، في الشمس، من أن يتخفف من الحبل الذي يشدّ على عنقه ويخنقه خنقًا. إنّ مصيره يتحدد هنا، في هذا المكان نفسه، الآن، في كلّ لحظة من لحظات هذا اليوم الصائف، وعند كلّ طلقة تخرج من فوهة المدفع في هذه الجهة وفي تلك.

لم يكن قد جاوز الخامسة من عمره، حين اضطر الأتراك إلى الخروج من مدن الصرب. وقد سافر المسلمون أيامئذٍ إلى تركيا، ولكن أباه، صولي آغا موتابديتش، الذي كان لا يزال شابًا، لكنه شخص مرموق يُعَدّ نظراً لمركزه من عيون الأتراك، قرر أن يجيء إلى البوسنة التي إليها يرجع أصل أسرته من قديم الزمان. فكدس أولاده في قفف، وترك أويتسه إلى الأبد، حاملاً معه ما يستطيع المرء في مثل هذه الظروف أن يجمعه مِن مال مِن بَيْع أرضه وبيوته، وهرب مع بضع مئات من الهاربين من تلك المدينة نفسها، هرب إلى البوسنة التي كانت لا تزال فيها حكومة تركية، واستقرّ في فيشيغراد التي يسكنها منذ مدة طويلة فرع من فروع أُسرة موتابديتش.

فما أن قضَى في هذه المدينة عشر سنين، وبدأ مركزه يقوَى في الحيّ التجاري، حتى جاء الاحتلال النمسوي. وصاحبنا رجل صلب لا يذعن للظروف، ولا يتلاءم معها، فقال في نفسه: أأفرّ من سلطة مسيحية لأخضع لسلطة مسيحية أخرَى؟ وما انقضى على وصول النمسويين عام واحد، حتى كان يترك البوسنة مع جميع ذويه من جديد، كما تركتها في الوقت نفسه أُسَر أخرى كانت لا تريد أن تقضي حياتها في بلاد «تدق فيها النواقيس»، ومضَى يقيم في بلدة نوفا فاروخ من السنجق (كان موئي آغا يومئذٍ فتًى لا يزيد عمره على خمسة عشر عامًا إلاّ قليلاً). وهناك استأنف صولي آغا موتابديتش تجارته، وهناك إنما وُلد سائر أولاده. غير أنه لم يستطع يومًا أن يتأسّى عما تركه في أويتسه، ولا أن يألف هؤلاء الناس

الذين يعيشون في السنجق، ولا أن يعتاد هذه الحياة الجديدة في السنجق. وكان هذا هو السبب في أنه مات قبل الأوان. وكانت له بنات على جانب عظيم من الجمال وحُسن السمعة، فوفِّقن في زواجهن، واستطاع الأبناء أن يربوا ما تركه لهم أبوهم من إرث صغير. ولكن ما إن أخذوا يتزوجون واحدًا بعد آخر، وما إن أخذت جذورهم في هذه البيئة الجديدة تشتدّ وتقوَى، حتى قامت حرب البلقان سنة 1912. فاشترك موئي آغا في حرب المقاومة التي وجهتها القطعات التركية قرب نوفا فاروخ ضد جيوش الصرب والجبل الأسود. إنّ تلك المقاومة لم يطُل عهدها، ولكن لا يمكن أن يقال عنها إنها كانت ضعيفة وأنها أخفقت بحدّ ذاتها. ومع ذلك فإنّ القطعات التركية جلت عن السنجق، كان ذلك قد تمّ بمعجزة، كأن مصير الجيوش ومصير مثل هذا العدد الكبير من ألوف الناس لم يكن يتقرر هنا، بل في مكان بعيد ما، من دون أن يكون لذلك أيّ شأن بأية مقاومة سواء أكانت قوية أم كانت ضعيفة. فلما لم يستطع موئي آغا أن ينتظر العدو الذي بسببه فرّ من أويتسه طفلاً، والذي قاتله الآن في غير طائل، ولمّا لم يستطع أن يهرب إلى مكان آخر في بلد آخر، قرر أن يعود إلى البوسنة وأن يعيش في ظلّ تلك السلطة نفسها التي هرب منها أبوه. وهكذا هاجر مرّة ثالثة عائدًا مع أُسرته إلى هذه المدينة التي قضَى فيها طفولته.

وحاول خلال هاتين السنتين الأخيرتين، بما معه من مال، وبمساعدة أتراك فيشيغراد الذين كان له بينهم أقارب، حاول أن يقوم بمشروع من المشاريع. ولكن الأمر لم يكن سهلاً، فقد عرفنا كيف كانت الحياة في هذه الفترة ضنينة وكيف كانت الأحوال قلقة غير مستقرّة، وكيف كان الربح عسيرًا حتى على أولئك الذين كانت أوضاعهم راسخة وطيدة. فكان موئي آغا يعيش مما يملك من مال، بانتظار أن تأتي ظروف أفضل من هذه الظروف وأقرب إلى السِّلم والهدوء. وها هو ذا الآن، بعد أن عاش خلال سنتين حياة قاسية هي حياة لاجئ من اللاجئين، يرَى العاصفة تهبّ على المدينة هذا الهبوب الصاعق، فلا يستطيع أن يفعل شيئًا، ولا يدري ماذا يمكنه أن يعمل. إنّ كلّ ما بقي له أن يعمله هو أن يراقب تطوّر هذه العاصفة قلقًا، وأن ينتظر نهايتها خائفًا.

وفي هذا إنما يتحدث الرجلان الآن، بصوت خافت، على غير خطة أو نظام، كما يتحدث الناس في أمور يعرفونها كل المعرفة، فيستطيعون أن يبدأوا

حديثهم عنها في النهاية أو البداية أو ما بينهما. إنّ علي خجا يحب موئي آغا كثيرًا، ويقدّره كثيرًا ، وما ينفك يحاول مواساته وتهدئته، لا لاعتقاده بأن من الممكن أن يداوي أدواءه، بل لشعوره بالحاجة إلى المشاركة في آلام هذا الإنسان الشريف الشقيّ، هذا المسلم الحق، ولشعوره بأنّ ذلك واجب يقع على عاتقه. إنّ موئي آغا جالس يدخّن: إنه صورة صادقة للإنسان الذي قسَى عليه القدَر وأرهقه من أمره عسرًا. إنّ قطرات كبيرة من العرق تنبع من جبينه وصدغيه، وتبقَى هنالك بضع لحظات، وتكبر وتثقل، وتتلألأ تحت نور الشمس الساطع، ثم تسيل على طُول وجهه المغضن. غير أن موئي آغا لا يحسّ بقطرات العرق ولا يمسحها. إنه ينظر بعينيه الكئيبتين المنطفئتين إلى العشب الذي أمامه، وينصت غارقًا في أفكاره إلى ما يجري في نفسه، وهو أقوَى قوة وأشدّ دويًا من أي كلام يقال في مواساته، ومن أعنف قصف بالمدافع من حوله. إنه لا يزيد على أن يحرّك يده بحركة نفي من حين إلى حين، وعلى أن يتمتم ببضع كلمات هي إلى أن تكون جزءًا من الحوار الذي يجري بينه وبين نفسه في داخل نفسه أقرب منها إلى جواب عما يقال له وعما يقوم حوله.

– لقد وصلنا يا عزيزي علي خجا إلى حيث لا يعرف المرء أين يندس. الله وحده يعلم أننا ، أنا والمرحوم والدي، قد فعلنا كل ما يجب أن نفعله للمحافظة على ديننا وللمحافظة على أخلاقنا الإسلامية. مات جدّي في أويتسه، وغالب الظنّ أنّ قبره هناك قد اندرس فلم يبقَ منه أثر. وقد دفنتُ أبي في نوفا فاروخ، ولست أدري ألم تدسه القطعان المسيحية بالأقدام؟ وكنت أقدر، أنا على الأقل، أن أموت هنا ، في هذه البلدة التي يُسمع فيها صوت الأذان يدعو المؤمنين إلى الصلاة، ولكن يظهر لي الآن أنه قد كُتب على سُلالتنا أنْ تبيد ولا يعرف أحد منّا قبر أُسرته بعد اليوم. هذه إرادة الله على كلّ حال، أليس كذلك؟ ولكنني أرَى أنّ المرء أصبح لا يستطيع أن يمضي إلى أيّ مكان. لقد جاء الزمان الذي يُقال فيه إنّ الدِّين الحقّ لا يبقَى له إلاّ أن ينقرض. ماذا أستطيع أن أفعل؟ أأذهب مع نائل بك ورجال الشوتسكوربس، لأموت وفي يدي بندقية نمسوية، لألطّخ نفسي بالعار في هذا العالم وفي العالم الآخر، أم أبقَى هنا على الحال التي أنا فيها : أنتظر أن يجيء الصربيون وأن أقبل ما ظللنا خلال خمسين سنة نتحاشاه بالهروب من مكان إلى مكان؟

وهَمّ علي خجا أن يقول بضع كلمات تشجّع صاحبه وتُضيء له قَبَسًا من أمل، لكنه لم يفعل، لأنّ سيلاً من طلقات بطارية «صخور بوتكو» أخذ يتدفق، وما لبثت مدافع جبل بانوس أن أخذت تردّ عليها، وكذلك أخذت تُسمع أصوات مدافع غوليش. كانت قذائف المدافع المختلفة تمرّ فوق رأسيهما منخفضة، فتنسج فوقهما ما يشبه الشبكة، وتدوّي دويًّا كئيبًا يخنق الصدر ويقبض أوعية الدم إلى درجة الألم. فنهض علي خجا وهو يقترح على صاحبه أن يحتميا بالرواق على الأقل، فتبعه موئي آغا كالسائر في نومه.

أمّا في البيوت الصربية المتراصّة حول الكنيسة في جبل الميدان، فلم يكن ثمّة شكوّى من الماضي ولا خشية من المستقبل، وإنما كان هناك خوف من الحاضر ومن هذا الحِمل الثقيل الذي يفرضه الحاضر. وهناك ذلك النوع الخاص من الدهشة الذي يظل يعقد ألْسنة الناس بعد أن تهوي عليهم أُولَى ضربات الإرهاب والاعتقال والقتل على غير نظام وبلا أحكام. لكن كلّ شيء وراء هذه الدهشة الصاعقة كان عين ما كان منذ مائة عام حين كانت نيران الثوار على جبل بانوس: ذلك الإصغاء الخفي نفسه، ذلك الأمل نفسه، ذلك الحذر نفسه، ذلك العزم على احتمال كل شيء إذا لم يكن منه بد، وذلك الإيمان الواثق بأنّ الخاتمة خير في نهاية الأمر.

إنّ أحفاد وأبناء أحفاد أولئك الناس الذين كانوا منذ مائة عام، من على هذا الجبل نفسه، وهم سجناء بيوتهم، يصيخون بأسماعهم قلقين دهشين منفعلين أشدّ الانفعال، إلى الأصوات الضعيفة، أصوات مدفع قره جورج التي تصل إليهم من أعلى جبل فيليتيفو، يصغون الآن، في ظلام الليل الحرّ، إلى هدير القذائف الثقيلة وإرعادها فوق رؤوسهم، ويحزرون من سماع أصواتها أنها صربية أو أنها ألمانية، فيوجّهون إليها أعذب الكلام، أو أقذع الشتائم.. كل ذلك ما ظلت القذائف عالية وما ظلّت تسقط في ما حول المدينة، أمّا إذا كان القذف على الجسر وعلى المدينة سكتوا فجأةً، وانقطع كلامهم، لأنهم يحسّون عندئذ- وهم مستعدون لأن يحلفوا الأيْمان على صدق إحساسهم- بأنّ المعسكرَين كلاهما لا يطلقان الآن نيرانهما، وسط هذا الصمت الشامل والفضاء الفسيح، إلاّ عليهم وعلى البيت الذي هم فيه. حتى إذا سكن أو عاد الانفجار القريب، عادوا يتكلمون بأصوات شوّهها الذُّعر، وأخذوا يؤكّدون لبعضهم البعض أنّ القذيفة قد

انفجرت قريبة كلّ القرب من المكان الذي هم فيه، وأنها من نوع خطير كل الخطورة إذا قيست بسائر القذائف.

إنّ بيت ريستتش هو البيت الذي لجأ إليه أكبر قسم من سكان الحيّ التجاري. إنه يقوم بعد بيت القِسّ رأسًا، وهو أكبر من بيت القِسّ وأجمل، وتحميه من نيران مدافع الجهتين بساتين منحدرة من أشجار الخوخ. إنّ في البيت الآن قليلاً من الرجال، ولكنّ فيه عددًا كبيرًا من النساء اللواتي اعتقُل أزواجهن أو اقتيدوا رهائن.. جئن إلى هذا البيت يعتصمون به مع أطفالهن.

وكان لا يعيش في هذا البيت الواسع الغنيّ إلاّ ميخائيلو ريستتش وزوجته وكنّته، وهي أرملة لم تشأ أن تتزوج مرّة أخرَى، ولا أن تعود إلى بيت أهلها بعد وفاة زوجها، بل آثرت أن تبقَى هنا لتربّي ولديها قرب هذين الشخصين العجوزين. وكان ابنها الأكبر قد هرب إلى الصرب منذ سنتين، وهلك هنالك على البريغا لنتسا متطوِّعًا، ولمّا يتجاوز الثامنة عشرة.

إنّ الشيخ العجوز ميخائيلو وزوجته وكنّته يخدمون هؤلاء الضيوف الذين جاؤوهم على غير ميعاد ولا عهد لهم بهم، يخدمونهم خدمة مَن يحتفل بعيد من أعياده. والشيخ العجوز خاصّة لا يعرف الكلال. إنه الآن عاريَ الرأس، وذلك ما لم يعهد فيه من قبل لأنه ما كان يخلع طربوشه الأحمر عامة. هذا شعره الكثّ الأشيب يتهدل حول أذنيه وعلى جبينه، بينما شارباه الكبيران الفضيان، المصفرّان عند الأسفل من دخان التبغ، يحيطان بوجهه كأنهما ابتسامة دائمة. إنه متى لاحظ على أحد أنه أكثر خجلاً أو حزنًا من غيره، اقترب منه، وشجّعه، وقدّم له راكيا أو قهوة أو تبغًا.

- لا أستطيع أيها العمّ ميخائيلو.. إني لأشكرك شكر البنت لأباها.. لكنني لا أستطيع.. إنني أغصّ به..

هذا ما قالته له امرأة لا تزال شابّة، وهي تشير بيدها إلى عنقها الأبيض حيث يغصّ المرء.

إنها زوجة بطرس جاتال، من أوكولشته. كان بطرس قد ذهب منذ مدة إلى سارايفو لبعض أعماله، فقامت الحرب وهو هناك. فانقطعت أخباره منذ ذلك الحين. وجاء الجيش فطردها هي وأولادها من بيتهم، فلجأوا إلى منزل ميخائيلو ريستتش الذي كانت له بأُسرة زوجها علاقة صداقة. إنها الآن مهدمة من الحزن،

ومن الانقطاع أخبار زوجها ومن هجرتها بيتها. فكانت لا تني تعضّ يديها أو تنشج باكية أو تتأوّه وتتنهّد.

إنّ ميخائيلو لا يحول بصره عنها، ويجلس دائمًا على مقربة منها. لقد علم في هذا الصباح أن بطرس قد قُبض عليه في القطار، وهو عائد من سارايفو، وأُخذ رهينة، وأنه اقتيد إلى فاردشته، وقُتل هناك رميًا بالرصاص خطأً على أثر بلاغ كاذب. وكتموا الأمر عن الزوجة، وكان ميخائيلو يحرص كل الحرص على ألّا ينقل إليها النبأ رأسًا من دون تدرّج ولا احتياط. إنّ المرأة تنهض من مكانها في كل لحظة، لتخرج إلى فناء البيت ولتنظر من هناك إلى جهة أوكولشته، غير أنّ ميخائيلو يصدّها عن ذلك، ويحاول أن يهدّئ من روعها بجميع الوسائل الممكنة، لأنه يعلم أنّ بيوت غاتالوفتش قد أُضرمت فيها النيران، فهي الآن تحترق، وميخائيلو يريد أن يخفي على المرأة المسكينة رؤية هذا المنظر. فكان يمازحها ويبتسم لها ولا يني يقدّم لها شيئًا.

- اشربي يا صغيرتي ستانويكا.. اشربي يا عزيزتي.. قدح واحد فقط.. هذا بلسم للهموم.. ليس هذا راكيا.

فكانت المرأة تشرب، ويمضي ميخائيلو يسقي سائر الضيوف، ويجبر كلّ شخص من الأشخاص بلطفه الذي لا يكلّ ولا يملّ ولا يمكن مقاومته، على أن يتأسّى وينتعش. ثم يعود إلى زوجة بطرس غاتال. إنها الآن أهدأ مما كانت، فهي لا تزيد على أن تنظر إلى الأمام سادرة واجمة. غير أنّ ميخائيلو لا يتركها. إنه يؤكّد لها، كأنه يؤكد لطفل من الأطفال، أنّ كلّ شيء سينقضي، وأنّ زوجها سيعود من سارايفو سالمًا وأنهم سيرجعون إلى بيتهم في أوكولشته.

- أنا أعرفه، بطرس هذا.. لقد حضرت تعميده. لطالما تحدث الناس عن هذا التعميد. إنني لا زلت أتذكره كأنه أُجري بالأمس القريب. كنت شابًا في سنّ الزواج حين مضيت مع المرحوم والدي الذي كان إشبين أولاد يانكو جاتال، إلى أوكولشته لحضور تعميد هذا البطرس، زوجك.

قال ميخائيلو ذلك وراح يروي قصة تعميد بطرس هذه. كان جميع الناس يعرفون هذه القصة، غير أنها تبدو لهم جديدة في مثل هذه الساعات الفذّة من تلك الليلة.

اقترب الرجال والنساء من ميخائيلو يصغون إلى القصة التي يرويها، وينسَون

الخطر الذي يُحدق بهم، ولا ينتبهون إلى أصوات المدافع.

في الزمان الطيب القديم، أيام كان القِسّ الشهير نيقولا في فيشيغراد، رزق يانكو غاتال بمولود ذكر بعد سنين عديدة من الزواج وبعد سلسلة طويلة من المواليد الإناث. ففرح أبوه به كثيرًا، وحمله في الأسبوع التالي ذاهبًا به إلى الكنيسة لتعميده، يرافقه الإشبين وعدد من الأقارب والجيران. وقد وقفوا أثناء نزولهم من أوكولشته وقفات كثيرة للراحة، فشربوا الراكيا المعروفة من قارورة الإشبين، الكبيرة المسطحة، حتى إذا وصلوا إلى الجسر، وصاروا عند الكابيا، جلسوا هناك ليستريحوا لحظة، وليشربوا كأسًا. كان اليوم يومًا باردًا من خريف متأخّر، فلم يكن على الكابيا أحد يقدم القهوة للروّاد، ولا كان هناك أتراك من المدينة يجلسون على الكابيا يحتسون القهوة. لذلك جلس هؤلاء الناس من سكان أوكولشته على الكابيا كأنهم في بيتهم، وفتحوا زواداتهم وأخذوا يشربون زجاجة جديدة من الراكيا، فكانوا يتبادلون الأنخاب مرحين فرحين، ناسين الطفل الذي كان يجب أن يعمّد، والقسّ الذي يجب أنّ يعمّده بعد الصلاة. وفي ذلك الزمان- السنين السبعين من القرن التاسع عشر- لم يكن في الكنائس نواقيس ولم يكن يباح أن يكون للكنائس نواقيس، لذلك لم يلاحظ هذا الركب المرح أنّ الوقت يمضي، وأنّ الصلاة قد انتهت منذ مدة طويلة. ففي الأحاديث التي كانت تدور بينهم فيتعانق فيها مستقبل الطفل بماضي الأهل، لم يكن للوقت من قيمة، ولا كانوا يقيسونه. لقد استيقظ شعور الإشبين عدة مرات فنبّه إلى ضرورة السير، لكنهم ما يلبثون أن يسكتوه. كان الإشبين يقول متمتمًا:

- والآن يا أصدقاء فلنذهب إلى الكنيسة لإتمام ما توجبه علينا الديانة المسيحية.

فكان الآخرون يجيبونه وهم يعرضون عليه أن يشرب من قارورته:

- اسكت. كفَى إزعاجًا. هل في هذه الأبرشية كلها من لم يعمّد؟

وفي لحظة من اللحظات أراد الأب أن يستحثهم على المسير، لكن الراكيا أسكتتهم في آخر الأمر جميعًا وأصلحت بينهم جميعًا. والمرأة التي كانت حتى ذلك الحين تمسك الطفل بذراعيه المزرقتين من البرد، وضعته أخيرًا على المقعد الحجر ودثّرته بغطاء مبرقش.

كان الطفل هادئًا كأنه في مهده، ينام تارةً، ويفتح عينيه المستطلعتين تارة

أخرَى كأنه يشارك في هذا الفرح العام الشامل (كان الإشبين يقول: «واضح أنّ هذا الصغير من مدينتنا. إنه يحب صحبة الناس ويحب الحفلات والأعياد»).

وصاح أحد الجيران:

- نخب صحتك يا يانكو. أسعد الله ابنك، وأطال عمره، وجعله فخرًا لك بين الآباء، وآتاه العز بين الصرب، والجاه، والخير، والرزق الكثير. أسأل الله أن..

فقال الأب مقاطعًا:

- ما رأيكم أن نتحرك فنذهب إلى الكنيسة لإتمام التعميد؟

فصاحوا جميعًا يقولون:

- دعك الآن من التعميد.

ودارت الراكيا مرة أخرَى.

وقال أحد الجيران:

- إنّ راغب أفندي بوروفانس لم يُعمّد، فانظر مع ذلك أيّ فتى شديد البأس هو: إنه لو ركب حصانًا لركع الحصان تحته..

فأخذ الركب يضجّ ضاحكًا مقهقهًا:

ولكن إذا كان هؤلاء الناس قد فقدوا، هنا على الكابيا، الإحساس بالزمن، فإنّ القِسّ نقولا لم يفقده. لقد انتظر فترة من الوقت أمام الكنيسة، ثم غضب فتلفّع بمعطفه المصنوع من فراء الثعلب وهبط من الميدان إلى المدينة. وهناك ذكر له أحدهم أن الجماعة جالسون الآن على الكابيا مع الطفل، فمضَى إلى الجسر وهو ينوي أن يؤنّبهم كما يجيد أنْ يفعل ذلك، ولكن ما استقبلوه به من قوة العاطفة وصدق الفرح وعظيم الاعتذار وحارّ التمنّيات وطيب الكلام، لم يلبثق أنّ أنساه غضبه (وهو رجل خشن قاسٍ، لكنه بقلبه فيشيغرادي) فإذا هو يصفح عنهم، ويقبل أن يشرب كأسًا وأن يطعم لقمة. ومال على الصغير، فقال له بضع كلمات لطيفة، بينما كان الصغير ينظر بهدوء إلى وجهه الضخم ذي العينين الواسعتين الزرقاوين واللحية العريضة الحمراء.

إنّ القصة التي رويت بعد ذلك وزعمت أنّ الطفل قد عُمّد على الكابيا ليست صحيحة، ولكن مما لا شكّ فيه أنّ الحديث الذي دار عندئذٍ ذا شجون، وأنهم شربوا كؤوسًا مدهقات وتبادلوا أنخابًا كثيرة، ثم لم يتحرّك ركبهم المرح متّجهًا

إلى الميدان إلاّ بعد الظهر، ففتحت الكنيسة، وتمتم الإشبين بلسان متعثّر أنه يعدل عن الشيطان وأعماله باسم مواطن فيشيغراد الجديد.

قال ميخائيلو ينهي قصته:

- هكذا عمّدنا الصديق بطرس، حفظه الله وسلّمه.. وها قد جاوز الأربعين ولم يعوزه شيء.

وشربوا مرّة أخرَى راكيا وقهوة، ناسين الواقع الراهن من أجل أن يستطيعوا احتماله. وتحدثوا جميعًا بمزيد من الحرية والسهولة، وكان يظهر لهم واضحًا أنّ في الحياة أمورًا أقرب إلى الإنسانية وإلى المرح من هذه الظلمات وهذا الذعر وهذا القصف القاتل.

هكذا انقضت تلك الليلة، وهكذا كانت تمضي حياتهم، محفوفة بالمخاطر والآلام، لكِنها تظل مضيئة صادقة صامدة. كانوا بغرائزهم القديمة الموروثة يجزئون هذه الحياة، ويقسمونها مشاعر موقتة وحاجات مباشرة يغرقون فيها بغير انقطاع. وما كان في وسعهم أن يحتملوا حياة كهذه الحياة وأن يحتفظوا بوجودهم لأيام أفضل من تلك الأيام، لولا أنهم كانوا يعيشون على هذا النحو، لولا أنهم كانوا يعيشون كل لحظة من لحظات حياتهم على حِدة، دون أن ينظروا إلى أمام، ودون أن ينظروا إلى وراء.

وطلع النهار. وكان طلوع النهار لا يعني عندهم إلاّ أنّ القصف بالمدافع سيزداد نشاطًا وأن حركة الحرب، هذه الحركة التي لا تفهم وليس لها نهاية، ستستمر في ضوء الشمس. ذلك أنّ الأيام لم يبقَ لها اسمًا، ولم يبقَ لها في ذاتها معنًى، وأنّ الوقت قد فقد دلالته وقيمته. وكل ما كان يستطيعه المرء هو أن ينتظر وأن يرتعد. وكانوا في ما عدا ذلك يفكرون ويعملون ويتكلمون ويمشون كالآلات.

على هذا النحو، أو على نحوٍ يشبهه، كان يعيش سكان الأحياء العالية الواقعة تحت القلعة القديمة، وسكان حيّ الميدان.

أمّا في أسفل، أما في مركز المدينة، فلم يبقَ إلاّ عدد قليل من الناس. لقد صدرت الأوامر منذ أول يوم من أيام الحرب تقضي بأن تظل جميع المخازن مفتوحة، وذلك حتى يستطيع الجنود الذين يمرون بالمدينة أن يشتروا ما هم في حاجة إليه من أشياء صغيرة. ولكن خاصة من أجل أن يظهر للسكان أو العدو بعيداً وأن لا خطر على المدينة. ومن الغريب أنّ هذه الأوامر قد التزمت، حتى

في هذه الآونة أثناء قصف المدافع، لكن كل واحد من أصحاب المخازن كان يحاول بعذر مشروع أن يدع مخزنه مغلقًا خلال الشطر الأكبر من النهار، كما أنّ الدكاكين القريبة كل القرب من الجسر ومن النزل الحجري، مثل دكان بافلي رانكوفتش وعلي خجا، كانت تظل مغلقة طوال النهار، لأنها معرّضة للقصف كثيرًا، وكذلك فندق لوتيكا، فإنه أُغلق تمامًا، لأنّ قذيفة من القذائف وقعت على سطحه فأحدثت فيه بعض الدمار، واخترق رصاص الرشاشات جدرانه.

كان علي خجا لا ينزل من رابيته إلى السوق إلاّ مرّة أو مرّتين في اليوم، ليتأكد من أنّ شيئًا لم يقع لدكانه، ثم لا يلبث أن يعود إلى بيته.

ولوتيكا قد تركت الفندق مع أسرتها منذ اليوم الأول الذي بدأ فيه قصف الجسر بنيران المدافع. انتقلوا إلى الضفة اليسرَى من نهر درينا، لاجئين إلى بيت تركي جديد واسع. إنّ هذا البيت يقع على مسافة غير قصيرة من الطريق، ويعتصم بمنخفض، ويغوص بين الأشجار المورقة الكثيفة من بستان لا يظهر منه إلاّ سقفه الأحمر. لقد كان صاحب هذا البيت في الريف مع أسرته كلها.

تركوا الفندق عند هبوط الليل، حين يخيم الليل على المدينة في مثل هذه الساعة صمت شامل. لم يكن قد بقي معهم من خدمهم إلاّ ميلان، المخلص الوفي الصامد الذي لا يزال أعزبًا شديد العناية بهندامه رغم تقدمه في السنّ. إنه منذ مدة طويلة لا يحتاج إلى طرد أحد من الفندق. أما سائر الخدم فقد هربوا منذ أطلقت المدافع أول قذيفة على المدينة، كما يقع ذلك كثيرًا في مثل هذه الظروف. وعلى عادة لوتيكا دائمًا وفي كلّ مناسبة قررت وحدها الانتقال فلم يعارضها في ذلك أحد، وأصدرت أمرها بالاستعداد وحدّدت الوجهة. عَيَّنت الأشياء الضرورية والأشياء الثمينة التي يجب أن يحملوها معهم، وعينت الأشياء التي يجب أن يدعوها في الفندق، وعينت لكل واحد منهم الملابس التي يجب أن يرتديها، وسمّت الشخص الذي يجب أن يحمل الطفل الأبله الأعرج، ابن دوبورا، والشخص الذي يجب أن يقود دوبورا المريضة النائحة، ومينا السمينة التي طار صوابها خوفًا. واستفادوا من ظلام تلك الليلة الحارة من ليالي الصيف، فقطعوا الجسر هم الأربعة، لوتيكا وتسالر ودوبورا ومينا، مع عربة تُجرّ باليد وضعوا فيها الطفل المريض وبعض الأمتعة، ومع حقائب ورُزَم حملوها بأيديهم. هذه أول مرة منذ ثلاثين عامًا يغلق الفندق إغلاقًا تامًا، ويخلو من أيّ إنسان.

وكان الفندق قد أصيب بأولى القذائف فتدمّر بعض الشيء، وصار يبدو للناظرين أشبه بخربة قديمة. ومنذ وضعوا أقدامهم على الجسر، الأشيب منهم والشاب، الأعرج منهم والبدين والذي تجمّدت ساقاه ولم يعتَد المهاجرة، اكتسبوا فجأة هيئة أولئك اليهود التائهين الذين كانوا يضربون في الأرض دائمًا أشقياء هاربين.

هكذا انتقلوا إلى الضفة الأخرَى ووصلوا إلى البيت التركي الواسع ليقيموا فيه. وهناك وضعت لوتيكا كل شيء في مكانه، ووزعت جماعتها على الغرف، ورتّبت ما حملوه من متاع. لكنها حين أوت إلى فراشها لتنام كما ناموا، في هذا البيت الذي يشبه أن يكون خاليًا، في هذا البيت الذي ليس بيتها، في هذا البيت الذي لا يضمّ أشياءها وأوراقها التي قضت معها حياتها كلها، تحطم قلبها وفارقتها جميع قواها فجأةً، لأول مرة منذ وعت ذاتها، فإذا هي تطلق صرخة من صرخات الألم تدوي في أرجاء المنزل الخالي: شيء لم يرَ أحد مثله قبل ذلك، ولا سمع به ولا خطر بباله، هكذا كان بكاء لوتيكا عنيفًا، مرهَقًا، مختنقًا، كبكاء رجل، لكن لوتيكا لا تحبسه ولا تستطيع أن تحبسه. فصعقت الأسرة واستبدّ بها الذعر، وخيم عليها صمت يشبه أن يكون دينيًا، ثم ما لبثوا أن أخذوا جميعًا يبكون منتحبين نائحين معولين. إنّ انهيار قوَى لوتيكا هو عندهم أشدّ هولاً من الحرب، والهجرة القسريّة، وفقد البيت، ذلك أنهم يستطيعون بها أن يدبّروا كلّ امر وأن يذللوا كل صعوبة، أمّا بدونها فلا يستطيعون أن يعملوا شيئًا ولا أن يتخيلوا شيئًا.

وطلع صباح الغد يومًا مشرقًا من أيام الصيف، ففي السماء تتموج سحب حمراء وعلى الأزهار يتلألأ ندًى غزير، والطيور تغرد على أفنان الأشجار.. طلع هذا الصباح على لوتيكا، فلم يجدها كما كان يجدها في الماضي تلك المرأة النشيطة التي ظلت إلى أمس توجّه أقدار ذويها جميعًا، بل وجدها عجوزًا يهودية عاجزة، قد انهارت على الأرض لا تستطيع أن تعنَى بأمر نفسها ولا تعرف كيف تعنَى بأمر نفسها، وتبكي كما يبكي الأطفال، ولا تعرف أن تقول مم خوفها ولا ما الذي يعذّبها ويؤلمها:

وتحققت عندئذ معجزة أخرَى، إنّ ذلك العجوز الثقيل النائم، تسالر، الذي لم تكن له إرادة حتى في عنفوان شبابه، ولا كان له رأي شخصي في يوم من الأيام، وإنما كانت تقوده لوتيكا كما تقود سائر أفراد الأسرة، إنّ تسالر هذا الذي

لم يكن طوال حياته شابًا بمعنًى كلمة الشباب، قد انقلب على حين فجأة رجلاً يعرف أن يقود أسرة، ويملك كثيرًا من الحكمة وقوة العزيمة، ويقدر على اتّخاذ ما يجب اتخاذه من قرارات، ويتمتع بما يحتاج إليه تنفيذ هذه القرارات من قوة. فكان يواسي أخت زوجه ويسرّي عنها، ويعنى بها عنايته بطفل مريض، ويشرف على شؤون سائر أفراد الأسرة كما كانت تشرف عليها هي حتى الليلة البارحة. وأصبح يذهب إلى المدينة في الفترات التي يهدأ فيها قصف المدافع إلى حين، فيحمل من الفندق الخاوي ما هم في حاجة إليه من طعام وأمتعة وملابس. ووجد طبيبًا في مكان ما فجاء به إلى المريضة يعودها، فرأى الطبيب في العجوز المهدمة انهيارًا عصبيًا تامًا، ونصح بإخراجها من هذا المكان بأقصَى سرعة، وإرسالها إلى مكان بعيد عن العمليات العسكرية، ووصف لها عدا ذلك دواء تشربه. واستطاع تسالر أن يتفق مع السلطات على الحصول على عربة تنقل الأسرة إلى روجاتتسا أولاً، ثم إلى ساراييفو. ولكن كان لا بدّ من الانتظار يومًا أو يومين، إلى أن تستردّ لوتيكا بعض صحتها، فتقوَى على احتمال مشاقّ السفر. غير أنّ لوتيكا ظلت طريحة الفراش كأنها مشلولة، وكانت تبكي بكاءً صاخبًا، وتنطق بكلمات مضطربة تعبّر عن أقصَى ما يمكن أن يعانيه الإنسان من يأس وخوف وهلع. وحولها كان يزحف على الأرض العارية ابن دوبورا الشقيّ، وينظر إلى وجه خالته مستطلعًا مستغربًا، ويناديها بتلك الصيحات الحلقية غير المفهومة التي كانت لوتيكا تفهمها، ولكن أصبحت الآن لا تجيب عليها. إنّ لوتيكا ترفض أن تأكل شيئًا أو أن ترَى أحدًا. إنها تعاني آلامًا فظيعة من تصوّرات غريبة تستحيل إلى آلام جسدية بسرعة. فتارةً يخيل إليها أن مصراعين غدارين ينفتحان تحتها فجأة عن هوّة مجهولة، فتسقط في الهوة، من دون أن تملك للدفاع عن نفسها غير الصراخ، ومن دون أن يكون هناك ما تستطيع أن تتشبّث به تحاشيًا للسقوط. وتارةً تتخيل أنها طويلة خفيفة قوية، لها ساقا عملاق وجناحا طائر قوي، فهي تركض كما تركض النعامة ولكن خطواتها أطول من المسافة بين هذا المكان وساراييفو، فالأنهار والبحار تضطرب تحتها كأنها غدران صغيرة، والمدن والقرَى تقرقع كأنها حصًى وزجاج. وكان ذلك يجعل قلبها يخفق خفقانًا قويًا، ويجعلها تلهث لهاثًا شديدًا. إنها لا تعرف أين تقف ولا أين يقودها هذا الركض المجنح، ولكنها تعرف أنها تهرب من ذينك المصراعين الغدارين اللذين ينفتحان تحتها

بسرعة كسرعة البرق. إنها تعرف أنها تدوس أرضًا يحسن بالمرء ألا يبقَى فيها، فهي تسير على الأرض لتخلفها وراءها، وهي تعرف أنها تتخطّى في سيرها أمكنة تشبه أن تكون قذرة، هي هذه القُرَى وهذه المدن الكبرَى التي يخدع الناس فيها بعضهم بعضًا ويكذب بعضهم على بعض في الكلام وفي الأرقام: حتى إذا فرغوا من التمثيلية المضحكة التي قوامها الكلام، واضطربت الأرقام، بدلوا اللعب على حين فجأة كما يقلب الساحر المشهد، فإذا بالمدافع تتقدم، على خلاف كل ما كان يقال وعلى خلاف كل ما كان يتوقع، وإذا البنادق وأدوات أخرَى من أدوات الموت تظهر، وإذا رجال جدد تحتقن عيونهم بالدم ويستحيل معهم أي حديث وأي تفاوض وأي تفاهم. وهي أمام هذا اللغز لم تبقَ ذلك الطائر العملاق الذي يجري بل أصبحت عجوزًا شقية عاجزة منهارة على الأرض الصلبة. وهؤلاء الناس يتدفقون آلافًا وملايين ويطلقون النار، ويقتلون ويذبحون، على خطة ومنهج، ويبيدون بغير رحمة ومن دون سبب. ها هو ذا أحدهم يميل عليها. إنها لا ترَى وجهه لكنها تحسّ أنه يركّز رأس حربته على الموضع الذي تفترق فيه أضلاع إنسان، على ألْيَن موضع في الإنسان..

- آ..لا.. النجدة.. أنقذوني.

هكذا صاحت لوتيكا وهي تستيقظ وتدفع عن جسمها الغطاء الأشهب الذي كان يغطيها.

إنّ الأبله الصغير قاعد على الأرض مستند بظهره إلى الحائط، يتأملها بعينيه السوداوين الواسعتين اللتين كان فيهما من الاستطلاع أكثر مما كان فيهما من الخوف أو الشفقة وهرعت مينا من الحجرة الثانية فهدّأت روع لوتيكا ومسحت العرق البارد عن جبينها، وسقتها ماءً كانت قد وضعت فيه بضع قطرات من الدواء عدتها عدًا دقيقًا.

نهار الصيف على السهل المخضوضر يبدو طويلاً لا نهاية له، لا يتذكر المرء متى بدأ، ولا يخطر بباله أنه سينتهي. والجو حار هناك أيضاً، لكن الإنسان لا يشعر لحدة الشمس. ويدوي وقع في البيت، ويصل سكان جدد. ويجيء جندي أو ضابط مصادفة. الطعام كثير والفواكه وافرة وميلان يحضر القهوة بغير انقطاع. هذا المشهد كله كان يمكن أن يشبه إقامة طويلة في الريف، لولا الصرخة اليائسة التي تطلقها لوتيكا مدوّية من حين إلى حين، ولولا الإرعاد الأصم الذي يصل

إلى هذا الفج كأنه همهمات غضبَى تشير إلى آنَ في العالم شيئًا قد اضطرب، وأنّ الشقاء الذي يهمّ بالناس جميعًا أقرب وأشدّ مما يتراءَى للمرء في هذا الصحو الواسع الهادئ الذي يرين على النهار.

ذلك ما صنعته الحرب بفندق لوتيكا وسكانه.

وكان حانوت بافلي رانكوفتش مغلقًا هو الآخر. لقد قبض على بافلي رانكوفتش منذ اليوم الثاني من نشوب الحرب، كما قبض على عدد من وجهاء الأتراك، وأخذوا رهائن، فبعضهم جعلوا في المحطة وحمّلوا مسؤولية النظام والأمن واطراد حركة المرور، وإلاّ قُتلوا.. وبعض آخر جعلوا في خُصّ خشبي صغير عند آخر الساحة غير بعيد عن الجسر، وهو الخصّ الذي توزن فيه البضائع أمام السوق بميزان الحكومة لتدفع عنها الرسوم، فهناك يحمل الأسرَى الرهائن مسؤولية أي أذًى أو تخريب يلحق بالجسر، فإن وقع شيء من ذلك قُتلوا..

إنّ بافلي رانكوفتش جالس الآن على كرسي من كراسي المقاهي في ذلك الخص. إنك إذا نظرت إليه، وقد وضع يديه على ركبتيه وخفض رأسه، رأيته أشبه برجل هدّه جهد قوي فتهالك على الكرسي يستريح قليلاً، فهو ساكن لا يتحرّك ولا يغير وضعه. وقرب الباب جلس جنديان من جنود الاحتياط على كومة من الأكياس الفارغة. إنّ الباب مغلق، وفي الخص يخيم ظلام وتشيع حرارة ثقيلة. فإذا صفرت قذيفة من القذائف آتية من جبل بانوس أو من جبل جولش، بلع بافلي ريقه، وأنصت إلى الصوت ليعرف أين وقعت القذيفة، إنه يعلم أنّ الجسر ملغوم منذ مدة طويلة، وهو لا ينقطع عن التفكير في هذا الأمر، متسائلاً هل يمكن لإحدَى هذه القذائف أن تفجّر اللغم إذا نفذت إليه. وكلما تبدّل الجنديان اللذان يتوليان الحراسة، سمع الضابط الوكيل يصدر إلى الحارسين الجديدين أوامر تنتهي بهذه الكلمات: «عند أيسر محاولة لإيذاء الجسر، أو عند أبسط علامة مشبوهة دالة على أنّ شيئًا من هذا القبيل يهيّأ، يجب أن تقتلا هذا الرجل فورًا». لقد اعتاد بافلي أن يسمع هذه الكلمات حتى غدت كأنها لا تمسّه ولا تتصل به. إنّ قلقه من هذا دون قلقه من قذائف المدافع وقذائف الشرابنل التي تنفجر أحيانًا في مواضع تبلغ من قربها من الخص الذي هو فيه أنّ الحصَى وشظايا الفولاذ تتساقط على ألوح الخشب. على أنّ بافلي إنما يعذبه خاصة طوال الوقت خواطره التي لا قبل له باحتمالها.

إنّ بافلي يفكر في المصير الذي آل إليه، وآل إليه بيته وآلت إليه أرزاقه وأملاكه. فكلما أمعن في التفكير تراءى له أنّ ذلك كله حلم سيئ. وإلاّ فبماذا يفسّر كل ما حلّ به وبذويه في هذه الأيام الأخيرة؟

إنّ اثنين من أبنائه، وهما طالبان في الجامعة، قد قبض عليهما رجال الدرك منذ اليوم الأول. ولم يبقَ في البيت إلاّ زوجته وبناتها. والورشة الكبيرة التي تقع في أوسوينتسا، وتصنع فيها الدنان، قد احترقت على مرأى منه. ولعلّ أقنانه في القرَى المجاورة قد هلكوا أو تفرقوا وتبعثروا. وجميع المال الذي اقرضه للناس في المنطقة كلها قد ضاع. وحانوته الذي يقع على بضع خطوات منه، وهو أجمل حانوت في المدينة، مغلق وقد ينهب أو قد تحرقه قذيفة من القذائف بعد قليل. وهو جالس في هذا الخص المظلم، رهينة من الرهائن، مسؤولاً عن شيء لا يتوقف عليه البتّة، أعني مصير الجسر، فإن أصاب الجسر أذًى قُتل.

إنّ الأفكار تتدفق في رأسه سيلاً عارمًا صخابًا لا عهد له بمثله من قبل.. وتتصادم ثم تغيب. أية صلة له بالجسر، هو الذي لم يُعنَ في يوم من أيام حياته بغير أعماله وبيته؟ ليس هو الذي لغّم الجسر، ولا هو الذي يقصف الجسر بالقنابل. وأنه حين كان مستخدَمًا وعازبًا، لم يجلس على الكابيا يومًا، ولا أنفق وقته فيها يغني ويمزح كسائر الشبان المتعطّلين من أهل فيشيغراد. إنّ حياته تخطر الآن أمام عينيه بتفصيلات كان قد نسيها منذ زمان بعيد.

إنه يتذكر الآن كيف وصل من السنجق فتًى في الرابعة عشرة من عمره، جائعًا ساغبًا، يحتذي نعلين ممزقين، فاتّفق في أول الأمر مع غنيّ من الأغنياء اسمه بطرس على أن يخدمه لقاء طعامه ورداء ونعلين في كل عام. فكان يحمل الأولاد، ويعمل في المخزن، وينزح الماء من البئر، ويسوس الخيل. وكان ينام تحت الدرج في حجرة صغيرة مظلمة لا نوافذ لها، حجرة تبلغ من الضيق أنه كان لا يستطيع أن يتمدد فيها على طوله كله. واحتمل هذه الحياة الشاقة، حتى بلغ الثامنة عشرة من عمره، فنُقِل عندئذٍ إلى الحانوت ينصرف إلى العمل فيه انصرافًا تامًا و«يتقاضَى على عمله أجرًا»، وعُين للخدمة في مكانه صبيّ آخر من السنجق. وعندئذٍ إنما عرف بافلي معنَى التوفير، وأدرك معنى التوفير، وأحسّ بما يهيّئه له التوفير من لذّة حادة مدهشة، وبما يمده به من قوة عظيمة. ظل خلال خمس سنين يبيت في حجرة صغيرة في مؤخرة الدكان، لم يوقد نارًا في يوم من الأيام، ولا

نام على ضوء شمعة. فلما بلغ الثالثة والعشرين من عمره زوّجه بطرس نفسه فتاة من تشانينتش طيبة الخلق على جانب من اليسار. فاخذا عندئذٍ، كلاهما، يوفران ما يستطيعان. وجاء الاحتلال، فنشطت الأعمال وسهلت الأرباح وخفّت النفقات. واستغلّ أرباحه مع استمراره على تحاشي الإنفاق، فبذلك أصبح له حانوت، وأخذ يجمع المال. لم يكن الكسب في تلك الأيام صعبًا، فإنّ كثيرًا من الناس جنَوْا كثيرًا من الأرباح سهولة لكنهم ما لبثوا أن بددوا ما جنَوه بسهولة أكبر. كانت المحافظة على الربح هي الأصعب. وكان هو يحافظ على ما يكسبه من رزق، وما ينفك يجمع مزيدًا منه في كلّ يوم. فلمّا جاءت هذه السنون الأخيرة، وجاء معها الاضطراب وجاءت معها «السياسة»، كان هو، رغم تقدمه في السنّ، قد فعل كل ما يحب أن يفعله حتى يفهم هذه الأزمة الجديدة، فيصمد لها ويتلاءم معها، ويجتازها من دون أن يصيبه أذى ومن دون أن يلحق به عار. كان مساعدًا لرئيس البلدية ورئيسًا للطائفة الدينية ورئيسًا لجمعية الكورال الصربية (الكونكورد)، وكان أكبر مساهم في المصرف الصربي وعضوًا في مجلس إدارة المصرف المحلّي. ولقد حاول، وفقًا للقواعد المتبعة في الحيّ التجاري، أن يتأرجح بين الطرفين الأقصيين والمعسكرين المعارضين اللذين كانا يكبران كل يوم، وأن يسير في وسط هذه الصعوبات كلها من دون أن تصاب مصالحه بأذى، وكان يحاول ألّا يجعل السلطات وراء ظهره، ولكن من دون أن يلطخ نفسه بالعار في نظر الشعب. وكان في رأي جميع السكان مثالاً لا يضاهَى في علوّ القيمة وحُسن التصرف والاحتراس.

وهكذا فإنه خلال ما يربو على نصف عمر إنسان، كان يعمل ويقتصد، ويتعب ولا يسيء حتى إلى ذبابة، ويحيّي كل من يلقاه، ويسير في طريقه صامتًا يشغله جمع المال عن كلّ شيء. فانظر الآن إلى ما وصل إليه من سيره في هذا الطريق. إنه جالس في هذا الخص، يخفره جنديان كأنه واحد من قطّاع الطرق. وينتظر أن تأتي قذيفة من القذائف أو أية آلة جهنمية، فتخرب الجسر، فإذا هو يُذبح بسبب ذلك أو يُقتل رميًا بالرصاص. وقد انتهَى من كلّ هذا إلى الاعتقاد (وهذا ما كان يعذبه أكثر من أيّ شيء آخر) بأنّ كل ما حمّل نفسه من عناء وكل ما فرض على نفسه من حرمان، حتى عاش حياة أخلق بالكلاب منها بالبشر، إنما كان من دون طائل ولا جدوَى، وأنه قد أخطأ الطريق على وجه الإجمال، وأنّ أبناءه وغيرهم

من «الشباب» كانوا أرشد منه رأيًا، وأنّ هذا الزمان ليس فيه مقياس تُقاس به الأمور، وليس له طريقة من طُرُق القياس، أو أنّ مقاييسه في الحساب مختلفة، أو أنّ حساباته هو على الأقل قد ظهر أنها خطأ، وأنّ مقاييسه قد ظهر أنها قصيرة مسرفة في القصر.

كان يقول لنفسه:

- شيء عظيم!.. كل شيء ينصحك بأن تعمل وأن تقتصد، ويدفعك إلى أن تعمل وأن تقتصد.. كل شيء ينصحك بهذا ويدفعك إليه.. الكنيسة والسلطة وعقلك.. فتأخذ بالنصيحة، وتتقدم في حذر، وتعيش حياة عادلة أو قُل لا تعيش البتّة، وإنما تعمل وتوفّر وتركبك الهموم، وتقضي حياتك كلها على هذه الحال، ثم إذا بهذا كله يتبدل فجأة فتنكره ولا تعرفه: يأتي عهد يسخر فيه الناس جميعًا من العقل، وتغلق فيه الكنيسة أبوابها بالصمت، وتحل القوة وحدها محل كل سلطة، عهد ينظر فيه أولئك الذين جنَوْا مالهم في أمانة وبكثير من العناء، فإذا هم يرون أنهم فقدوا أرزاقهم وضيعوا عمرهم سُدًى، عهد لا يظفر فيه إلاّ الأشداء العُتاة. وما من أحد يعترف بالجهود التي بذلها، وما من أحد يعينك، وما من أحد ينصحك بما يجب أن تعمله حتى تحافظ على مالك الذي حصّلته بالعمل والتوفير. هل هذا ممكن؟.. هل هذا ممكن؟.

كذلك كان يتساءل بافلي رانكوفتش بغير انقطاع، حتى إذا لم يجد جوابًا عاد من تفكيره إلى حيث بدأ، عاد يفكر في فقده كل شيء.

وحاول أن يفكر في غير هذا الأمر، لكنه لم يظفر بذلك. إنّ هذه الأفكار تعاوده في كلّ لحظة باستمرار. ويجري الوقت بطيئًا بطيئًا قاتلاً. ويخيّل إلى بافلي أنّ هذا الجسر الذي اجتازه ألوف المرات، ولكنه لم ينعم النظر فيه يومًا من الأيام، يجثم الآن على كتفه بكل ثقله سراً مشؤومًا محتومًا لا يُفسر ولا يعقل، كما لا بد أن يكون الأمر كذلك في نوع من النوم لا يقظة بعده.

لذلك كان بافلي يظل جالسًا مرهَقًا خافض الرأس مقوّس الكتفين. إنه يحسّ بالعرق يخرج من جميع مسامّ جسمه، تحت قميصه، وتحت ياقته، وتحت كمّيه المنشّيَين، والعرق يسيل كذلك من تحت طربوشه، ولكنه لا يمسح العرق، بل يدعه يهطل من على وجهه على الأرض قطرات ثقيلة، ويخيل إليه أنّ الحياة هي التي تفنَى فيه وتتركه.

كان الجنديان، وهما فلاحان مجَريان متقدمان قليلاً في السنّ، يأكلان خبزًا وشحمًا مرشوشًا بالفلفل الأحمر. كانا يأكلان على مهل، يقطعان بسكّين صغيرة قطعة من الخبز تارةً وشريحة من اللحم تارةً أخرَى، كما يفعلان حين يكونان في الحقل، وبلع كلٌّ منهما بعد ذلك جرعة من الخمر من إناء من الصفيح، ثم أشعلا غليونيهما. قال أحدهما لصاحبه بصوت خافت وهو يدخّن:

- لم أرَ في حياتي رجلاً يسيل منه العرق كما يسيل من هذا الرجل.

واستمرّا يدخّنان في صمتٍ تامّ.

غير أنّ بافلي لم يكن هو الشخص الوحيد الذي يعرق دمًا وماءً، ويغرق في نوم لا صحو منه. ففي أثناء تلك الأيام من أيام الصيف، على ذلك الشريط الضيق من الأرض بين نهر درينا والحدود الوعرة، في المدن والقرَى والطرقات والغابات، في كل مكان، كان هناك رجال يسيل من وجوههم العرق وهم يسعون إلى الموت، محاولين أن يدفعوه عنهم بجميع ما أوتوا من قِوًى وما ملكوا من وسائل. وكانت هذه اللعبة الغريبة التي يلعبها البشر، هذه اللعبة التي اسمها الحرب، تزداد اتساعًا يومًا بعد يوم، وتنتشر، وتخضع لسلطانها الكائنات الحية والأشياء الجامدة.

وغير بعيد من خص البلدية، كان هنالك، في ذلك الصباح، فريق من الجنود لم يرَ الناس مثلهم من قبل. إنهم يرتدون ملابس عسكرية بيضاء، وعلى رؤوسهم قبعات بيضاء. إنهم قطعات ألمانية، هي تلك القطعات التي أطلق عليها اسم مفرزة سكوتاري.

كانوا قد أرسلوا قبل الحرب إلى سكوتاري، بصفتهم جيشًا دوليًا، ليقرّوا النظام والأمن بالتعاون مع فرق أخرَى أرسلتها أمم أخرَى. فلما نشبت الحرب، صدرت إليهم الأوامر بترك سكوتاري، ووضع أنفسهم تحت إمرة أقرب قيادة نمسوية على الحدود الصربية. وقد وصلوا إلى المدينة الليلة البارحة، وهم يستريحون الآن على الفسحة المسطحة بين الساحة والحي التجاري. فهناك كان هؤلاء الجنود ينتظرون أن يصدر إليهم الأمر بالهجوم. إن عددهم يبلغ قرابة مائة وعشرين. وهذا رائدهم، وهو رجل أحمر سمين لا يطيق الحرّ، قد أخذ في هذه اللحظة يؤنّب عريف الدرك دانيلو ريباتس، يؤنبه كما لا يؤنّب رئيس مرؤوسًا إلاّ في الجيش الألماني، يؤنبه في صخب وتنطّع دون أية مداراة من أيّ نوع. إنّ

الرائد يشتكي من أنه هو وجنوده قد ماتوا من العطش، وأنّ الأشياء التي لا بد منها ولا يستغنَى عنها تعوزهم بينما الدكاكين التي لعلها ملأى مغلقة حولهم، رغم صدور الأوامر ببقائها مفتوحة.

- ماذا أنتم هنا؟ أدَرَكٌ أنتم أم دُمَى؟ أيجب أن أموت هنا أنا ورجالي؟ أم تراكم تريدون أن أفتحها عنوةً كما يفعل اللصوص؟ ينبغي العثور على أصحاب هذه الدكاكين فورًا، ليؤمّن لنا التموين اللازم والشراب الجيد فورًا. هل تفهم ما معنَى هذه الكلمة: فورًا؟

كان الرائد كلما نطق بكلمة جديدة يزداد الدم ازدحامًا في وجهه. كان بملابسه العسكرية البيضاء ورأسه المحلوق يحترق بغضبه الشديد احتراقًا كمشعل.

وكان العريف مصعوقاً، يطرف بعينيه ولا يزيد على أن يردد:

- نعم سيدي الرائد.. سأفعل حالاً.. نعم حالاً.. حالاً.

ثم ما لبث أن انتقل من ذهوله المشلول إلى اضطراب مجنون، فاستدار على كعبيه ومضَى في الحي التجاري. لكأنّ عريف الدرك، من فرط اقترابه من الرائد الذي كان يشتعل غضبًا، قد انتقل إليه ذلك اللهيب، فجعل يركض ويهدد ويضرب ما حوله.

وأول مخلوق صادفه أثناء ركضه إنما هو علي خجا. كان علي خجا قد نزل من الحيّ الذي يقطنه ليتفقد دكانه. فلمّا رأى هذا الفاكمايستور[1] الشهير بيرانس يقبل عليه كالإعصار وقد تبدّل تبدّلاً تامًا، دهش أشدّ الدهشة وتساءل هل هذا الرجل المتوحش الذي يبدو أشبه بمجنون طار صوابه. هل هو حقًا ذلك «الفاكمايستور» نفسه الذي كان يراه خلال سنين، يمرّ أمام دكانه هادئًا رصينًا وديعًا لطيفًا. إنه الآن بيرانس آخر مظلم الوجه يحملق فيه بعينين لا تعرفان أحدًا ولا تريان شيئًا غير ما به من ذعر. وسرعان ما أخذ العريف يتكلم صارخًا ساخطًا كأنه يكرر ما رأى الرائد يفعله ويردد ما سمع الرائد يقول بالألمانية منذ لحظات.

- والله العظيم يجب أن تُشنَقوا. ألم تصدُر إليكم الأوامر ببقاء الدكاكين مفتوحة؟ هل يجب عليّ بسببكم..

وقبل أن يستطيع علي خجا المشدوه أن ينطق بكلمة واحدة صفعه العريف

---

(1) هذا النطق الرديء للكلمة الألمانية: Wachmeister.

على خدّه الأيمن، فوثبت عمامته عن أذنه اليمنَى إلى أذنه اليسرَى.

وأسرع العريف طائش اللب تائه النظرة يجبر آخرين على فتح دكاكينهم. وعدل الخجا عمامته، ثم أنزل مصراع دكانه، فجلس عليه ولمّا يزل مشدوهًا. وتجمع حول بضاعته المعروضة جنود لهم هيئة غريبة. ويرتدون ملابس لم يرَ مثلها في حياته قط. إنّ هذا كله يشعره بأنه يعيش في حلم. لكنه أصبح لا يدهش لشيء قط في هذا الزمان الذي تنزل فيه الصفعات من السماء.

هكذا انقضَى شهر بكامله: الجسر يقصف بالقنابل من حين إلى حين. وقذائف المدافع تهزّ الروابي المجاورة، وألوان الآلام وصنوف الشدة والعنف تتوارد من كلّ صوب، والناس ينتظرون مزيدًا من العذاب والشقاء. إنّ أكثر ناس المدينة قد هجروها منذ الأيام الأولَى، بعد أن أصبحت بين نارين. وفي نهاية شهر أيلول/ سبتمبر بدأ الجلاء عنها جلاءً تامًا. انسحب أواخر الموظفين في الليل: عبروا الجسر ومضَوْا في الطريق الذي يخرج من المدينة، لأنّ الخط الحديدي كان قد انقطع. ثم أخذت أفواج الجنود تنسحب هي أيضًا من الضفة اليمنَى، شيئًا بعد شيء، ولم يبقَ في ساحة المدينة إلاّ عدد قليل من المدافعين والرواد، وخفراء فرادَى من رجال الدرك.. بانتظار أن يأتي دورهم في الانسحاب.

وكان الجسر أشبه بمحكوم عليه في الإعدام. لكنه كان لا يزال سليمًا كاملاً بين عالَمين يتحاربان.

الفصل الرابع والعشرون

في الليل تلبّدت السماء بالسُّحُب، حتى ليظن المرء أنّ الوقت خريف. وكانت السحب تتشبث بالجبال وبالسماء التي بينها. فانتهز النمسويون حلكة الليل لتنسحب آخر مفارزهم فما إن طلع الفجر حتى كانت جميع المفارز لا على الجبهة الأخرَى من النهر فحسب، بل كذلك في الأعالي وراء منحدر جبل ليشته، لا تقع عليهم الأبصار ولا تصل إليهم قذائف المدافع الصربية.

فلما طلع النهار أخذ يهطل على المدينة رذاذ من المطر خريفي. وكان أواخر رجال العسس يطوفون تحت هذا الرذاذ على البيوت وعلى المخازن قرب الجسر، ليرَوا ألا يزال فيها أحد. كان كلّ شيء يبدو ميتًا: نادي الضباط، فندق لوتيكا، الثكنة المهدمة، الدكاكين الثلاثة أو الأربعة التي تقع عند مدخل المدينة. ولكنهم فوجئوا بعلي خجا واقفًا أمام دكانه. لقد وصل في هذه اللحظة من بيته، وأخذ يفتح أبواب الدكان. كانوا يعرفون الخجا ويعرفون أنه رجل غريب الأطوار، فأمروه بإلحاح أن يغلق دكانه فورًا وأن يترك ساحة السوق، لأنّ التلبّث قرب الجسر ممنوع منعًا باتًا، ولأنّ من يفعل ذلك يعرض حياته لخطر الموت.

فنظر إليهم الخجا نظرته إلى سكارَى يهرفون بما لا يعرفون، وهمَّ أن يجيبهم بقوله: إنّ حياتنا في خطر منذ مدة طويلة، وإننا جميعًا موتَى منذ مدة طويلة، رغم أننا ندفن واحدًا بعد آخر، لكنه عدل عن الكلام لأنه سبق أن عانَى تجربة الأيام الأخيرة، فقال لهم بلهجة هادئة طبيعية أنه أتَى ليأخذ من المخزن شيئًا من الأشياء وأنه عائد إلى بيته فورًا. وكان واضحًا أنهم من أمرهم في عجلة، فكرروا له أمرهم بترك هذا الحيّ بأقصَى سرعة ممكنة، ثم عبروا ساحة السوق متجهين إلى الجسر. ونظر إليهم علي خجا وهم يبتعدون بخطًى صامتة على التراب الذي أحالته المطرة الأولَى إلى بساط كثيف رطب. ونظر إليهم أيضًا وهم يجتازون

الجسر فتختفي أجسامهم وراء الإفريز الحجري فما يرَى منها إلاّ الأكتاف والرؤوس وحراب البنادق الطويلة. وسطعت الشمس على ذُرَى «صخور بوتوكور».

قال علي خجا لنفسه: هذه الإجراءات كلها قاسية، بل إنها سخيفة. وابتسم بينه وبين نفسه ابتسامة طفل خادَعَ معلّمه، ورفع مصراع الباب بحيث يستطيع أن يندسّ في الحانوت، حتى إذا دخل ترك الباب يسقط ثانية، فبدأ الحانوت من ظاهره مغلقًا. ها هو ذا في الظلام يلجأ إلى حجرته الصغيرة في مؤخرة الدكان، الحجرة التي طالما هرب إليها من الناس المزعجين، ومن الأحاديث التي تسمم وتتعب، ومن أسرته ومن هموم نفسه. وجلس على كرسي واطئ صلب طاويًا ساقيه تحته. وتنفس الصعداء. كانت نفسه المضطربة بكثير من الإحساسات الخارجية لا تزال تتأرجح وها هي ذي الآن تهدأ وتسترد توازنها، ككفّتي ميزان دقيق. وسرعان ما امتلأت الحجرة الصغيرة بدفء جسمه، وسرعان ما أحسّ الخجا بعذوبة الوحدة، والأمن، والنسيان الذي يحيل المكان الضيق المظلم الأغبر إلى حدائق لا تُرَى، إلى بساتين لا نهاية لها إلى جنبات ذات ضفاف خضراء ومياه تدمدم في رفق.

في ظلمات هذا المكان الضيق يشعر المرء بطراوة الصباح الماطر وشروق الشمس. وكان صمت غير مألوف يخيم في الخارج أيضًا لا تعكره - وتلك معجزة- أية قرقعة، ولا يقطعه أيّ صوت من أصوات البشر، ولا يفسده وقع خطوات الأقدام. إنّ شعورًا بالسعادة والشكر يملأ قلب علي خجا. قال الخجا لنفسه: ها إن بضعة ألواح من الخشب تغدو كسفينة من سفن المعجزات، فإذا هي كافية لأن تحمي وأن تنقذ مؤمناً من المؤمنين بالدين الحق، تحميه وتنقذه من جميع الشرور ومن جميع ضروب الشقاء، تحميه وتنقذه من الهموم التي لا مخرج منها، تحميه وتنقذه من المدافع التي تتقيأ النيران، مدافع عدوّين يقتتلان فوق رأسك، عدوّين كلاهما كافر، لست تدري أيهما شرٌّ من الآخر. وقال الخجا لنفسه فرحًا: لم تهدأ الدنيا هذا الهدوء كله منذ أول أيام الحرب.. ما أعذب الصمت وما أجمله.. فبعودة الصمت تعود إلى المرء ولو إلى حين بقية من تلك الحياة الحقيقية الإنسانية التي ما انفكت تضعف منذ مدة طويلة، والتي تزول تحت قصف المدافع المسيحية زوالاً تامًا. إنّ الصمت يناسب الصلاة، بل إنه في ذاته صلاة.

وفي تلك اللحظة، أحسّ الخجا بأنّ الكرسي الصغير يطير من تحته ويرفعه فكأنه ريشة في مهب الريح. إنّ الصمت «العذب» قد انقطع واستحال فجأة إلى رعد أصم، ثم إلى قرقعة مدوّية تملأ الفضاء وتخرق أذنيه، وتعمّ حتى تصبح فوق ما يطيقه سمع الإنسان. وانخلعت أرفف الجدار المقابل، وطارت البضائع التي عليها نحوه، بينما اندفع هو نحوها أيضًا. وأنّ الخجا: آخ، أو قل إنّ فكره هو الذي أنّ، لأنه لم يبقَ له صوت ولا سمع، كما أنّ مكانه لم يبقَ في هذه الدنيا. إنّ ضجّة مصمّة قد خنقت كل شيء، وحطّمت كلّ شيء، واجتثّت كل شيء، وأطارت كل شيء. غالب الظنّ أنّ هذا اللسان الصغير من الأرض الذي يقع بين النهرين وتقوم عليه المدينة قد انتزع من الأرض فأحدث انتزاعه هذا الدويّ الفظيع، وقذف في الفضاء فهو يطير فيه، وأنّ النهرين قد خرجا من مهاديهما وانعطفا نحو السماء ثم أخذا يسقطان الآن بثقل مياههما الضخمة، كشلالين ما توقفا بعد ولا تحطّما. أهي القيامة؟ أهي الساعة التي يتحدث عنها كتاب الله ويتحدث عنها الراسخون في العلم؟ أهي الساعة التي يزول فيها هذا العالم الفاني بطرفة عين كأنه شرارة تنطفئ؟ ولكن ما حاجة الله إلى هذه الخريطة كلها وهو الذي إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون؟ لا، ليس هذا من صنع الله. ولكن أنّى ليد إنسان أن تملك هذه القوة الجبارة كلها؟

هل كان الخجا قادرًا على الإجابة عن هذا السؤال وقد بلغ ما بلغه من دهشة وخيبة واضطراب لهذه الضربة القاتلة التي تريد أن تخنق فيه كل شيء حتى الفكر؟ إنه لا يعرف هذه القوة الجبارة التي تحمله، إنه لا يعرف أين تطير به، ولا أين ستقف، ولكنه يعرف أنه، هو علي الخجا، قد كان على حقّ دائمًا في كلّ أمر من الأمور. وأنّ الخجا مرّة أخرى: آخ.. وكان أنينه في هذه المرة أليمًا، ذلك أنّ تلك القوة القوة نفسها التي رفعته، تردّه الآن في عنف وقسوة، لا إلى المكان الذي كان جالسًا عليه، بل إلى الأرض بين الجدار الخشب والكرسي المنقلب. وشعر بضربة قوية تصيب رأسه، وأحس بألم في ركبتيه وفي ظهره. كل ما استطاع أن يميّزه بعد ذلك هو أنه سمع، كصوت متميّز عن تلك الضوضاء العاملة الشاملة، صدمة تلطم سقف الدكان لطمة قوية، وأنه سمع من وراء الحاجز قرقعة أشياء معدنية وخشبية، فكأن جميع بضائع دكانه غدت كائنات حية فأخذت تطير وتتصادم أثناء طيرانها. وبعد تلك الصدمة هطل على السقف وعلى أرض الشارع

وابل من حجارة صغيرة. لكن علي خجا كان قد أغمي عليه، فهو راقد في حجرته الضيقة التي أصبحت تابوته، ساكنًا لا يتحرّك.

وحين صحا علي خجا من غيبوبته كان النهار في الخارج ساطعًا. إنه لا يعرف كم من الوقت ظلّ راقدًا رقدته تلك. والذي أيقظه من إغمائه العميق إنما هو نور وأصوات بشر في الوقت نفسه، أفاق من غشيانه في كثير من العناء. إنه يعلم أنه كان جالسًا في ظلام تام. أمّا الآن فإن ضوءًا ينفذ إلى الدكان من فتحة ضيقة. تذكر أنّ الدنيا قد غشيها دويّ يصمّ الآذان، ويسقط القلب. والآن يخيم صمت. ولكنه صمت لا يشبه الصمت الذي كان يبدو له منذ حين عذبًا كل العذوبة، قبل الزلزال الذي طرحه أرضًا، وإنما هو يشبه أخاه الخبيث، الموت. وقد أدرك مدَى عمق هذا الصمت، حين سمع صوتًا يناديه باسمه، ويظهر له آتيًا من مكان بعيد.

أدرك الخجا أنه لا يزال حيًا، وأنه لا يزال في مخبأه الضيق، فأخرج نفسه من ركام البضائع التي كانت قد هوَت على رأسه ونهض وهو يئنّ ويردد صرخته الأليمة بعد انقطاع: آخ.. إنه الآن يسمع الأصوات والنداءات الآتية من الشارع واضحة جلية. وانحنَى وانسلّ من الممر الضيق إلى الدكان. إنّ الدكان الآن ركام من حطام ومن أشياء منقلبة يغمرها نور الشمس. والباب مفتوح قد أسقطت الصدمة مصاريعه. وفي وسط هذه الفوضَى وهذا الخليط من البضائع المبعثرة والأشياء المتساقطة في كلّ صوب، كان ثمة قطعة من حجر بحجم رأس الإنسان. ورفع الخجا عينيه. إنّ نور النهار ينفذ إلى الدكان من السقف. واضح أن الحجر قد ثقب السطح الواهن والسقف الخشبى. وعاد الخجا ينظر مرة أخرى إلى هذا الحجر الأبيض ذي المسامّ، المنحوت المقدود، المصقول من جانبين، المهشم من جوانبه الأخرى..

آه.. الجسر.. هكذا قال الخجا لنفسه. لكن الصوت الذي يناديه من الشارع كان يزداد علوًا، ولا يسمح له بمزيد من التفكير.

وما هي إلاّ لحظات حتى وجد الخجا نفسه، وهو على هذه الحال من الانهيار ولمّا يصحُ من إغمائه كل الصحو، ما هي إلاّ لحظات حتى وجد نفسه أمام خمسة أو ستة من الشباب يرتدون ملابس عسكرية رمادية، ويضعون على رؤوسهم قبعات الشرطة، ويحتذون نعال الفلاحين، وقد طالت لحاهم وغطاهم الغبار. إنهم جميعًا مسلّحون، وعلى صدر كل منهم يتصالب صفان من رصاص

صغير لماع. إنّ معهم فلادو مارتش، القفال، ولكنه لا يضع على رأسه الآن قبعته المألوفة ذات الحافة البارزة، وإنما يضع طاقية ذات فراء، وعلى صدره يتصالب صفان من الرصاص أيضًا. وها هو أحد الرجال يتقدم فورًا من الخجا. لا شكّ أنه رئيسهم. إنه شابّ ذو شاربين دقيقين أسودين، ووجه مرتّب الملامح بارز القسمات ملتمع العينين، وقد وضع بندقيته فوق كتفه على طريقة الصيادين، وحمل بيده عصا نحيلة من فروع شجر الجوز.

تقدم من الخجا وهو يشتم غاضبًا، ثم رفع صوته وقال له:

- هيه... أنت... أيترك أحد دكانه مفتوحًا هكذا على مصراعيه؟ غدًا ينقص من دكانك شيء فتزعم أنّ واحدًا من جنودي هو الذي نهبها؟ هل عليّ أنا أن أحرس بضائعك؟...

إنّ وجه هذا الرجل هادئ يكاد يكون ساكنًا، لكن صوته كان ثائرًا وكان يلوِّح بعصاه مهددًا متوعدًا. وفي هذه اللحظة اقترب منه فلادو مارتش، وقال له كلامًا بصوت خافت فأجابه الرجل بقوله:

- أسلِّم بأنه رجل طيب وشريف. ولكن إذا رأيت حانوته مرة أخرَى مفتوحًا على مصراعيه بلا رقابة، فلن يمرّ الأمر بسلام.

ثم استأنف الرجال المسلحون سيرهم. فقال الخجا لنفسه وهو يتابعهم بنظراته: «هؤلاء هم الآخرون. ما إن وصلوا حتى لقوني. ما من تغير يحدث في هذه المدينة إلاّ ويضربني على رأسي».

إنّ علي خجا واقف الآن قرب حانوته المنكوب، فاغرًا فاه، ثقيل الرأس، محطّم الجسم. وأمامه تنبسط السوق التي تلوح في شمس هذا الصباح كأنها ميدان قتال، فهي مغطاة بالحجارة كبيرة وصغيرة، وبالقرميد، وبحطام الأشجار. وانتقل بصر علي الخجا إلى الجسر. إن الكابيا لا تزال في مكانها، لكن الجسر منهدم بعدها فورًا. إنّ العمود السابع قد زال فلا وجود له. وبين السادس والثامن فراغ فاغر يستطيع المرء بالرؤية الجانبية أن يلمح مياه النهر الخضراء تسيل فيه. وبعد العمود الثامن يستمر الجسر ويبلغ الضفة الأخرى أملس منتظمًا أبيض كما بالأمس وكما كان منذ كان.

طرف الخجا عدة مرات لا يريد أن يصدّق هذه الكارثة التي يراها، ثم أغمض عينيه. فطافت في خياله ذكرَى الجنود الذين رآهم منذ خمس سنوات أو

ستٍ يختبئون تحت خيمة خضراء ويحفرون في هذا العمود نفسه، وتصور ذلك الترس الحديد الذي ظلّ يغلق مدخل العمود الملغوم بعد ذلك عدة سنين، وتصوّر إلى جانبه ذلك الوجه الملغز البليغ معًا، ذلك الوجه الأصمّ الأعمى الأبكم، وجه الضابط الوكيل برانكوفتش، فارتعش علي خجا، وفتح عينيه من جديد، لكنه لم يرَ إلاّ المشهد الذي رآه منذ قليل: السوق وقد فرشت بالحجارة صغيرة وكبيرة، والجسر قد زال أحد أعمدته، والفراغ الفاغر بين قنطرتين هدمهما اللغم في وحشية. إنّ أمثال هذه الأشياء لا تقع ولا تُرَى إلاّ في الحلم.. إلاّ في الحلم.. ولكنه حين تحوّل عن هذا المنظر الذي لا يصدّق، وجد حانوته أمامه، وبين بضائعه المتناثرة هنا وهناك، رأى الحجر الكبير. إنه قطعة من العمود السابع. إذا صدق أنّ هذا حلم، فالحلم إذًا في كل مكان. ودوّى في مركز المدينة نداء، إنه أمر يذاع بصوت عالٍ باللغة الصربية. وسمع علي خجا وقع خطوات سريعة تقترب. فبادر يغلق حانوته، ويقفله، ثم مضَى يصعد نحو بيته.

لقد حدث له ذلك كثيرًا من قبل وهو يصعد إلى بيته، أن تقطعت أنفاسه، وشعر بقلبه يخفق في غير مكانه. فهذه الرابية التي وُلد عليها قد أصبحت عالية، كثيرة العلوّ، وما تنفكّ تزداد علوًا، كما أصبح الطريق الذي يؤدّي إلى بيته يبدو له طويلاً، كثير الطول، وما ينفكّ يزداد طولاً. لكنه لم يشعر بهذا كله في يوم من الأيام كما يشعر به في هذا اليوم الذي يودّ فيه لو يبتعد عن مركز المدينة ويبلغ بيته بأقصَى سرعة. إنّ قلبه يخفق خفقانًا غير طبيعي، وإنّ أنفاسه تنحبس. واضطرّ إلى التوقف.

خيِّل إليه أنه يسمع غناءً هناك، تحت. والجسر هناك، تحت، مهدّم مشطور شطرين، على نحو رهيب قاسٍ. ليس علي خجا في حاجة إلى الالتفات إلى وراء، ليرَى ذلك المشهد كله. لا ولن يلتفت بأي حال من الأحوال: لقد غاص العمود في القاع بعد أن اجتث اجتثاثًا كجذع عملاق، والشظايا من حوله تتناثر آلافًا وآلافًا، والقنطرتان عن يمينه وعن يساره محّطمتان في عنف وقسوة، والفراغ الفاغر بينهما يبلغ من الطول خمسة عشر مترًا، وهما تحاولان في كثير من الألم أن تتلاقيا.

لا لن يلتفت علي خجا بأي حال من الأحوال، لكنه لا يستطيع أيضًا أن يتقدم في السير صاعدًا على الرابية، فقلبه يزداد اختناقًا شيئًا بعد شيء، ومن ماه لا تطاوعانه. وأخذ علي خجا يفرض على نفسه أن يتنفس تنفساً عميقاً بطيئاً

منتظماً، تنفساً لا ينفك يعمق شيئاً بعد شيء. إنّ ذلك كان يساعده في الماضي، وهو يساعده الآن. وشعر علي خجا بشيء من انفراج الضيق في صدره. لقد حقق نوعًا من التوازن بين أنفاسه العميقة المنتظمة وبين خفقات قلبه. واستأنف سيره.

وتصوّر علي خجا بيته وسريره، فاستحثّته صورة البيت والسرير على المسير. إنه يمشي في مشقة وبطء، وأمام بصره ما ينفكّ ينبسط مشهد الجسر المتهدم. ليس يكفي أن تحوّل بصرك عن شيء من الأشياء حتى يكفّ عن مطاردتك وتعذيبك. إنّ علي خجا لن يرَى إلاّ هذا المشهد ولو أغمض عينيه.

قال علي خجا لنفسه بشيء من الانتعاش وقد تحسّن تنفسه قليلاً: الآن يرَى الإنسان فيم كانت تلك الأجهزة كلها وتلك الآلات كلها، فيم كان ذلك الإسراع كله وذلك النشاط كله (لقد كان دائمًا على حق، في أمر من الأمور، وضد جميع الناس، إلاّ أنّ هذه العصمة من الخطأ أصبحت الآن لا تملأ نفسه رضًا. إنه لأول مرة يحفل بهذه الحقيقة: إنه على حق). لقد ظل يراهم خلال ذلك العدد من السنين فوق الجسر يعملون فيه: نظفوه، وزينوه، وأصلحوا أساسه، ومدّوا فيه أنابيب الماء، وأقاموا عليه مصابيح الكهرباء، ثم نسفوا ذلك كله في الهواء ذات يوم، كأنما هم ينسفون صخرة من صخور الجبل، لا مبنًى خيريًا مفيدًا جميلاً. الآن يرَى المرء ماذا كانوا، وماذا كانوا يريدون. لقد عرف هو ذلك كله منذ أول الأمر، غير أنّ أغبَى غبيّ يستطيع الآن أن يراه. لقد حطّموا شيئًا هو بين سائر الأشياء أقواها وإبقاها، وسلبوا ما هو لله، وليس يدري أحد أين سيتوقفون. حتى جسر الوزير أخذ ينفرط كما ينفرط عقد من اللؤلؤ، والأمر متى بدأ لم يستطع أحد أن يوقفه.

ووقف الخجا من جديد. إنّ أنفاسه تخونه، والطريق الصاعد ينتصب فجأة أمامه. حاول مرة أخرَى أن يهدّئ قلبه بالتنفّس العميق. ومرة أخرَى استطاع أن يستردّ أنفاسه، فشعر أنه يحيا من جديد، وأستأنف سيره بمزيد من السرعة.

قال الخجا لنفسه: ولكن فليكن ما يكون. إذا كان الناس هنا يهدمون فإنهم في غير هذا المكان يبنون. فربما كان لا يزال في الأرض بلاد هادئة وأناس عقلاء يحترمون إرادة الله. وإذا كان الله قد ترك هذه المدينة البائسة التي تقع على نهر درينا، فلعله لم يترك العالم بأسره، لعله لم يترك جميع الأرض التي تحت السماء. وهؤلاء أنفسهم لن يفعلوا ما يفعلونه الآن إلى آخر الزمان. ولكن من

يدري؟ (آه.. ليته يستطيع أن يستنشق مزيدًا من الهواء!).. من يدري؟ لعلّ هذا الدين الباطل الذي ينظم أهله كل شيء، فينظفون ويصلحون ويحسنون، من أجل أن ينسفوا وأن يهدموا بعد ذلك، في لحظة واحدة، كل شيء، لعل هذا الدين الباطل سينتشر في المستقبل على الأرض كلها، فإذا أهله يجعلون من جميع هذا العالم الذي خلقه الله ساحة مقفرة لبنائهم المجنون وتخريبهم المجرم، ومرعَى لجوعهم الذي لا يشبع، وشهواتهم التي لا تفهم.. كل شيء ممكن. غير أنّ هناك شيئًا واحدًا يستحيل أن يكون، وهو أن تخلو الدنيا خلوًا تامًا، إلى الأبد، من رجال عظماء حكماء، أصحاب نفوس سامية وهمم عالية، يبنون في سبيل الله مباني باقية خالدة، لتصبح الأرض أجمل، وليعيش الإنسان حياة أفضل وأسهل. فإن اختفى أمثال هؤلاء الناس كان معنى ذلك أنّ حب الله قد انطفأ وزال من هذا العالم. وذلك ما لا يمكن أن يكون.

إنّ رأس الخجا يزدحم بهذه الأفكار، وسيره لا ينفكّ يزداد مشقّة وبطئًا.

وهو الآن يسمع بوضوح أنّ في المدينة غناء. ليته يستطيع فقط أن يستنشق مزيدًا من الهواء.. ليت الطريق كانت أقلّ صعودًا.. ليته يستطيع أن يصل إلى بيته ليتمدد على فراشه، وليرَى ويسمع أحدًا من ذويه. ذلك كل ما يتمناه. لكن هذا مستحيل.

لقد أصبح لا يستطيع أن يحقق تناسبًا سليمًا بين تنفسه وضربات قلبه. إن قلبه قد حبس أنفاسه تمامًا، كما كان يقع له أحيانًا أثناء النوم.

غير أنه في الماضي يستيقظ من النوم، فتجيئه اليقظة بالسلامة، أما الآن فهو يقِظ..

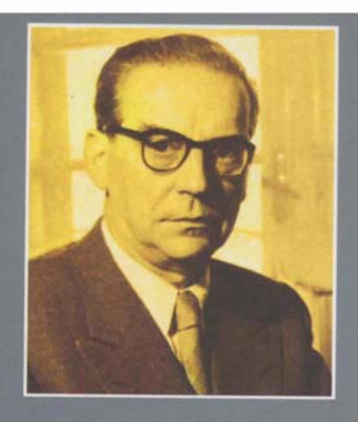
وفغر فاه وأحسّ بأنّ عينيه تخرجان من رأسه. والطريق الصاعدة التي كانت لا تنفكّ تزداد صعودًا تقترب الآن من وجهه كل الاقتراب.

وامتلأت ساحة بصره كلها بالطريق الصلبة اليابسة التي استحالت إلى ظلمات واستبدت بوجوده كله.

* * *

على الطريق الصاعدة التي تؤدي إلى حيّ الميدان كان يرقد علي خجا، وبحشرجات قصيرة، لفظ أنفاسه.

تمت



إيفو أندرِتش

ولد إيفو آندرِتش في مدينة ترافنيك. وتوفي والده فيما كان هو في الثانية من عمره. فلجأت أمه إلى مدينة فيشيجراد على شاطئ نهر درينا، وهناك قضى طفولته. ثم أتمّ تعليمه الثانوي في مدينة ساراييفو.

اعتقلته السلطات النمسويّة عام 1914 (كان عمره 16 سنة) وصدر العفو عنه عام 1917 ليعود إلى الدراسة ويحصل على الدكتوراه التي كان موضوعها "الحياة الفكرية في البوسنة والهرسك في عهد السيطرة التركية"، ثم أنشأ بعد ذلك مجلّة أدبية في زغرب.

ورغم عمله في السلك الدبلوماسي، وتنقله الدائم بين العواصم والمدن إلا أن آندرِتش ظلّ متعلقاً طوال حياته بـ«ترافنيك» و«فيشيجراد» و«ساراييفو» وعن هذه المدن الثلاث، وفيها تدور أحداث الروايات التي كتبها: «أخبار مدينة ترافنيك» و «جسر على نهر درينا» و«الآنسة» وعلى هذه الأعمال الرائعة، التي ترجمت إلى العديد من لغات العالم، حاز آندرِتش جائزة نوبل للآداب عام 1961.



سامي الدروبي

- أديب وناقد ومترجم ودبلوماسي سوري.
- ولد عام 1921 بمدينة حمص (الجمهورية العربية السورية).
- درس في جامعات دمشق والقاهرة وباريس وحصل على الدكتوراه في علم النفس من جامعة القاهرة عام 1961.
- عمل مدرساً للفلسفة في حمص، ثم عميداً لكلية التربية بجامعة دمشق فأستاذاً للفلسفة، فوزيراً للمعارف، ثم سفيراً للجمهورية العربية السورية في يوغسلافيا، ومصر، وأسبانيا، ومندوباً لـ "سوريا" في جامعة الدولة العربية.
- له عدة أبحاث نظرية ودراسات فلسفية نفسية حول علاقة علم النفس بالأدب والتعليم.
- ترجم الأعمال الكاملة لدوستويفسكي ومؤلفات لليف تولستوي وبوشكين وليرمنتوف وتورجينيف وإيفو أندريتش وآخرين.
- توفي عام 1976، ومنح جائزة "لوتس" بعد الممات (1978).

تعتبر رواية" جسر على نهر درينا" قمة أعمال إيفو آندرِتش، وقد نال عليها عند صدورها أرفع جائزة أدبية تمنح في يوغسلافيا، وظلت هذه الرواية تطبع وتترجم إلى العديد من لغات العالم.

إن الجسر الحجري الذي أقيم بأمر من الوزير الأكبر محمد باشا سوكولوفتش المولود في قرية من قرى البوسنة قرب فيشيجراد. والذي اختطف طفلاً لتتم تربيته في تركيا ويصبح ضابطاً كبيراً ثم وزيراً. هذا الجسر هو الشخصيّة الرئيسيّة في هذه الرواية التي تحكي تاريخ تلك البلاد من القرن السادس عشر حتى عام 1914.

تتوالى حوادث هذه الرواية عبر القرون، حوادث متنوّعة غنيّة بالتعبير عن تبدلات الحياة والبشر، وترتبط دائماً بجسر نهر درينا: الطوفان، العصيان، الأوبئة، الحروب، التبدلات السياسيّة والاقتصاديّة، وصولاً إلى احتلال جيوش إمبراطورية النمسا - المجر للبوسنة عام 1878، وظهور الأفكار الثورية ثم مقتل الأرشيدوق فرديناند عام 1914.. حتى نسف الجسر.

تاريخ يمتزج بدراما عاطفية وأحداث ووقائع تاريخية يستند إليها المؤلف ليصوّر من خلالها النفس الإنسانية في أعمق أعماقها. ولكن تبقى هذه الرواية أثراً أدبياً رائعاً يتخذ من الأحداث التاريخية ذريعة لتقديم شخصيات ونماذج إنسانية ببراعة وصدق ونفاذ ليمنحهم الخلود في ذهن كل مَنْ يقرأ هذه الرواية.

اللوحة وتصميم الغلاف: الفنان مروان قصاب باشي


ISBN 978-9953-68-420-0

المركز الثقافي العربي
cca@ccaedition.com